منشورات اتحاد



القاهـــرة
١٤٢٩ / ٢٠٠٨

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السادس عشر
مـــارس ٢٠٠٨م

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السادس عشر

مارس ٢٠٠٨ م

تم الجمع والاخراج الداخلى والخارجى فى :

دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
٥ شارع ترعة المريوطية - عمارات شركة الخليج
تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣
الموقع الالكترونى WWW.Dar -Ein.com

هذه المجلة

* علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

* البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .

* تصدر موقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

* لايزيد حجم البحث المقدم للنشر عن ثلاثين صفحة ، منسوخ الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة.

* تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات- لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .

* * *

* جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير

العنوان ك ١٠ شارع فؤاد بدوانى - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة .

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس ٢٨٧٠٠٩١

المحتويـــات

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية

يسعدنى ويشرفنى تقديم العدد السادس عشر من مجلة «المؤرخ العربى» (مارس ٢٠٠٨) التى يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، بعد أن احتلت مكانة متميزة بين الدوريات التاريخية المتخصصة التى تصدرها الجامعات ومراكز البحوث فى أنحاء الوطن العربى الكبير. ويحتوى هذا العدد على أحد عشر بحثا فى موضوعات تاريخية جديدة تلقى أضواء كاشفة على تاريخ الوطن العربى عبر العصور . وقد قام بكتابة هذه البحوث مجموعة من الباحثين من مصر والمغرب والسعودية والبحرين واليمن والجزائر وغيرها ، وتنشر لأول مرة بعد أن قام أساتذة متخصصون بتحكيمها ضمانا للجودة ، واستبعدوا غير الصالح منها.

ومجلة «المؤرخ العربى» ترحب بالبحوث والدراسات التاريخية الجديدة والمبتكرة للباحثين من سائر الجامعات ومراكز البحوث لنشرها بعد تحكيمها . ويشترط ألا يكون العمل المقدم للنشر فى مجلة الاتحاد قد سبق نشره ، أو قُدم للنشر لأية مجلة أخرى. ويراعى أن تتراوح صفحات البحث بين ١٥-٣٠ صفحة . ويقدم البحث مكتوبا على الحاسوب على ورق كوارتر (A4) ، ومسجلا على «اسطوانة مدمجة» وفق برنامج Word ، ومساحة الكتابة فى الصفحة ١٢ × ١٩سم، والهوامش والتعقيبات فى نهاية البحث ، وبنط النص ١٤ ، وبنط الهوامش ١٢ ، وبنط العناوين الرئيسية ١٦ أسود ، وبنط العناوين الفرعية ١٤ أسود ، والمساحة بين السطور Autp وترفق الرسومات والصور والخرائط والأشكال على ورق كلك ، قابلة للاستنساخ مباشرة.

وفقنا الله جميعا ، ووفق جميع أعضاء اتحاد الناشرين العرب لما فيه رفع شأن الدراسات التاريخية فى الوطن العربى> والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير .

أ.د. حسنين محمد ربيع

كلمة التحرير

يصدر العدد السادس عشر فى مجلة «المؤرخ العربى» ويعد استكمالاً لمسيرة بدأت من سنوات ليكون نافذة علمية على الثقافة العربية، والعدد الذى بين أيدى قرائنا وأعضاء الاتحاد يتضمن أحد عشر مقالا من باحثين من أقطار عالمنا العربى فهناك أبحاث من مصر والسعودية والجزائر والبحرين تعد إضافة وإثراء سواء في موضوعاتها أو في تناولها لتاريخ وحضارة مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، فتطوف بنا من الجزيره العربية حيث تعرض للأسس التى أقام عليها النبى مجتمع المدينة بعد الهجرة ، ثم دراسة تناولت المجتمع العربى من أهلى الوبر وأهلى المدر ، ثم تنقل إلى العصر العباسى حيث تناقش العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية خلال القرنين الأول والثانى للهجرة ثم تتجه إلى مصر فى دراسة عن القرية فى مصر الاسلامية، ودراسة عن تاريخ الجاليات الأجنبية فى مدينة بورسعيد ، ثم دراسة عن المغرب وموقفها من الثورة الجزائرية وكان للمخطوطات نصيبها من البحث فهناك دراسة تناولت دراسة وتحقيق لمخطوط تاريخ الأستاذ سيدى على أبو الحسن وفا » ، وجميع أبحاث العدد محكمة من قبل أساتذه متخصصين فى المجالات التاريخية المنوعة.

والمجلة تأمل أن تضيف الجديد خلال إعدادها القادمة حيث يتسع المجال لاضافات بناءة، فهناك مقترحات بإضافة باب يتناول تلخيص ودراسة موجزة لأهم الإصدارات التاريخية على مستوى العالم العربى .

ويسعدنا أن نلتقى اقتراحات الزملاء أعضاء الاتحاد، لأننا نسعى جميعا لما فيه الخير والتقدم لمجلة المؤرخ وللإتحاد .

د . عبد الله إبراهيم محمد راجح

الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم

مجتمع المدينة الفاضلة بعد الهجرة

مقدمـــــة

إن الحمد لله جل جلاله ، نشكره على نعمائه ، فالكل من آلائه وإليه مآله ، والمصـــلي عليه نبينا محمد وآله ، أتم الله به النعمة وأكمل به الدين ، وختم به الأنبياء والمرسلين ،وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالميـــن ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الله به الغمة ، وأخرج الناس من ظلمة الجهالة والضلالة إلى نور العلم والرقي المبين ، وهداهم إلى الصراط المستقيم ، بفضل رجال- حوله – حملوا مشعل الهداية والنور إلى العـــالمين، وهـــم أصحابـــه الميامـــن : ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِـــي ضَـــلالٍ مُـــبِينٍ)) (الجمعـــة:٢ .– وبعـــد ..

فلقد كثر اللّغط في عالمنا المعاصر[١] – وخاصة من قبل أعداء الإسلام – أن ديـــن الإسلام لم يقدم للحضارة الإنسانية شيئاً سوى العنف والإرهاب والعدوان ، وقد حفزني هذا اللّغط إلى البحث فيما قدمه الإسلام للحضارة العالمية ، من خلال القرآن الكريم ، وســـنة سيد المرسلين ، وإبراز هذا العطاء الحضاري للإسلام ، فكتبت بحثـــاً عـــن : " مقومـــات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية " ، وآخر عن " القيم الحضارية في القرآن الكريم والسنة النبوية " .

* أ . م في كلية التربية للبنات بيـع- وقسم التاريخ والحضارة فى كلية اللغة العربية بالقاهرة- جامعة الأزهر.

وقد ضاعف من همّتي للاستمرار في البحث في هذا المجال ، أن تلقيت دعوة كريمة من قِبَل : الجمعية التاريخية السعودية للاستكتاب في اللقاء العلمي العاشر بالمدينة المنورة ، حول أحد محاور اللقاء – عن منطقة المدينة المنورة – ، فاخترت المحور الثاني " المدينة المنورة ، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم " لأنه بجانب كونه عمل علمي أكاديمي ، أحسبه – كذلك – من وسائل القربات إلى الله ورسوله ، للزّود عن منهج الله ، الذي جاء به القرآن والسنة ، لهداية العالمين ، وإقامة مجتمع فاضل قويم ، فجاء البحث تحت عنوان : " الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة الفاضلة بعد الهجرة".

وقدمت له بتمهيد عن : المدينة الفاضلة عند الفيلسوف المسلم " أبي نصر الفارابي" ، وبيّنت تأثره بالفكرة اليونانية الأفلاطونية ، ثم أوضحت كيف تأثر الغرب الأوروبي بهذه الفكرة التي نقلها " سير توماس مور " عن تراث المسلمين وحضارتهم – في مطلع النهضة الأوروبية الحديثة – ووصف فيه أحوال وقيم هذه المدينة الفاضلة ، وإن أسماها " يوتوبيا " ، أي مدينة لا وجود لها إلا في عالم الخيال ، فرددت عليه مقولته هذه ، بأنها ليست " يوتوبيا"، ولكنها المدينة الفاضلة التي وجدت في عالم الواقع الإسلامي على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدين ، وبيّنت الأسس والركائز المنهجية التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع هذه المدينة الفاضلة في يثرب بعد الهجرة ، وقدّمت لهذا الموضوع بنبذة عن الحالة الراهنة في يثرب عند الهجرة ، وأصناف الفرقاء فيها ، ثم تناولت الأساس الأول للبنيان الجديد وهو : بناء المسجد النبوي ، ولماذا ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم به ، وأهميته في بناء الدولة الجديدة . ثم تحدثت عن الأساس الثاني وهو : الإخاء الإسلامي بين المهاجرين والأنصار ، مبيناً أسبابه وآثاره ، وما سهله من موجبات السمع والطاعة لله ولرسوله ، ثم تناولت مهادنة اليهود والأعراب حول المدينة ، كأساس ودستور للعلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم ، وأكدّت على أن الإسلام دين تعاون ومودة ، وبر بغير المسلمين إذا ما التزموا جانب السلم مع الإسلام وأهله ، ثم ختمت البحث بالأساس الأخير والمهم ، وهو : الإعداد والجهاد للذود عن هذا البنيان ، وليس للعدوان

على غير المسلميـــن – كما يزعم أعداء المسلمين – واستدللت على كل ما كتبت بآيات من القرآن الكريـــم ، وسنـــة سيد المرسليـــــن .

وتوصلت إلى أن عالم اليوم ، لو أخذ هذه الأسس التي أرساها النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالرضى والقبول ، لاستطاع أن يبني أعظم حضارة ، وأقوم مجتمـــع ، يضمـــن للإنسان الأمان من الخوف ، والإطعام من الجوع ، والسعادة المادية ، والراحة النفســية ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدون – من بعده – حين طبقــوا هــذه الأسس ، فأقاموا المجتمــع الفاضل ، والدولة القويمـــة في صدر الإسلام ، والتي ما تــزال حقبتهـــا غُرّة في جبيـــن الدهـــر ، ولو كره الحاقدون ..

والله أسأل أن يعيدهـــا للمسلميـــن ثانيـــة ، وما ذلك على الله بعزيز .. إنه أهل لـــه وهو القادر عليـــه .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالميــــن ....

تقديـــــم

(١) المدينـــة الفاضلـــة عنـــد الفارابي .

قامت الحضارة الإسلامية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين علـــى أساس القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وبعض من تراث الأمم الأخرى الـــذي ، لا يخالف القرآن والسنة – وخاصة بعد الفتوحات الإسلامية الواسعة في الشـــرق والغـــرب والشمال – ، لكنـــه بعد تولى العباسيـــن الخلافة عملوا على نقـــل التـــراث القـــديم إلى الحضارة الإسلامية ، فنقلوا تراث مصر القديمة والهند والفرس واليونان ، وأقاموا مراكـــز للترجمة لتعريب هذا التراث ، وخاصة اليوناني منـــه [٢]، وازدهرت حركة علمية وحضارية كبيـــرة ، خاصة في القرن الرابع الهجري في شتى مناحي الحياة ، وخاصة الحياة العلميـــة ، أثمرت رموزاً لعلماء ومفكرين مسلمين ، حملوا عبء الفكر الإنساني ، وانطلقت الطاقات الإسلامية لشرح وتطبيق هذه العلوم بالممارسة والتجربة والاستقصاء ، فتقـــدموا بـــالعلوم والثقافة خطوات على طريـــق الحضارة ، وتركوا بصماهم على صفحات التاريخ ، في شتى العلوم التي بنى عليها الغرب الأوروبي نهضتـــه وتقدمـــه في مجـــالات العلـــوم التطبيقيـــة والفلسفيـــة .

ومن هؤلاء الذين اشتغلوا بالعلوم الفلسفية والعقلية " أبو نصر الفارابي " المتـــوفى ســـنة ٣٣٩ هـــ ، فقد درس الفارابي الفلسفة اليونانية القديمة وتأثر بكتاب " النفس " لأرســـطو طاليس ، وقال إنه قرأه مائة مرة ، كما تأثر بكتاب " السماع " لنفس المؤلف ، وقال أيضاً : إنه قرأه أربعين مرة ، كما قرأ جمهورية أفلاطون (المدينة الفاضلة) وتأثر به ، وأخـــذ عنـــه الفكرة المادية للمدينة الفاضلة .

إذن فكرة المدينة الفاضلة هي فكرة أفلاطونية ، – خرجت من عقل فيلسوف نشـــأ في بيئة إسلامية ، – كما يقول د . طه الدسوقي حبيشي [٣].

تحدَّث الفارابي – من بين ما تحدث – في كتابه عن المدينة الفاضلة ، فوصفها بأنها المدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة ، فكل الحيـــاة فيهـــا

قائمة على التعاون ، وشبّهها بالبدن التام الصحيح ، فكما أن رئيس البدن في الإنسان هــو القلــب ، وبقية الجوارح تبع له حسب أهميتها ، فكذلك المدينة الفاضلة يقع في القلــب منها الرئيس، الذي يجب أن يتمتع بخصال عظيمة [٤]ويليه في الأهمية مــن هــم أقــرب إلى الرئيس (البطانة) ، ودون هؤلاء قوم يعملون الأغراض التي ترضي الرئيس وتسعده ، ومن دونهم قوم يعملون لصالح الرئيس ، ثم دونهم قوم آخرون يعملون لصالح الأوَّلين بإرادهم ، لكن دون مصلحتهم هــم ، أو مصلحة عامة أهل المدينــة [٥].

ثم تحدث عما يضاد المدينة الفاضلة مثل : المدينة الضالة ، والمدن المبدلة ، فقال : " الذي أضل أهل المدينة الفاضلة وعدل بهم عن السعادة لأجل شيء من أغراض أهل الجاهليــة – وقد عرف السعادة – فهو من أهل المدن الفاسقــة .. وهو وحده – دون أهل المدينــة – شقي ، وهم يهلكون وينحلّون جميعــاً [٦]" .

وعن المدن المبدلة قال : " أما المضطرون والمقهورون من أهل المدينــة الفاضــلة علــى أفعــال الجاهلية ، فهم أهل المدن المبدلــة ، فإن المقهور على فعل شيء لما كان يتأذى بمــا يفعله من ذلك ، صارت مواظبته على ما قُسِر عليه ، لا تكسبه هيئــة نفســانية مضــادة للهيئات الفاضلة ، فتكدر عليه تلك الحال ، حتى تصير منزلته منزلة أهل المدن الفاســقة ، فلذلك لا تضره الأفعال التي أُكْرِه عليها ، وإنما ينال الفاضل ذلك الذي وصف بــه أهــل المدينة الفاسقة ، متى كان المتسلط عليه أحد أهل المدن المضادة للمدينة الفاضلة ، واضطره إلى السكن في مساكن المضاذّين " ، ثم تحدث عن الأشــياء المشتركــة لأهــل المدينــة الفاضلــة، وأولها معرفة السبب الأول ، ثم الأشياء المفارقة للمادة وصفاها التي تنتهي مــن المفارقة إلى العقل الفعَّال[٧]... الخ.

لقد بنى الفارابي وجهة نظره – في بنية كتابه – على : دعوة التقريب بــين الثقافتيــن الإسلامية واليونانيــة – المتأثر بها – وهي دعوة ينقصها الدليل ، ولا يفيد فيها التبرير ، ولا تتمّ إلا بتنازل إحدى الثقافتيــن للأخرى ، وبما أن الثقافة اليونانية لا تتنازل عن شيء مــن

قيمها ، فإن المطلوب أن يتنازل الإسلام وثقافتـــه عن شيء من تشريعاته الإلهية ، وهو ما ألمح إليه الفارابي .

وكثيـــر من الفلاسفـــة حاولوا مجاراة الفارابي – من يومها إلى الآن – وفشلوا ، لكنهم يعيدونه اليوم تحت مسمى جديد هو : الحوار بين الإسلام والغرب .

إن أخطر ما جاء في كتاب الفارابي هو حديثه عن الإلهيات ، حيث جاء رأيه فيها محكوماً بمبدأين يونانيين :

أحدهمـــا : أن الله لابد أن يكون واحداً من كلٍ ، وهذا يؤدي إلى تعطيل الله عن صفات كمالـــه .

وثانيهما : أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وهو العقل الثاني ، ومن ثم العقل الثالث . وهكذا .. مما يؤدي إلى التسلسل ، وهذا يناقض عقيدة الإسلام . ولما تحدث الفارابي عـــن السياسة المدنيَّة ، اضطر إلى الحديث عن الفلاسفة و الأنبياء والمصلحيـــن ، ومن ثم تحـــدث عن الرياسة العامة في المدينة الفاضلة ، والشروط الواجب توافرها في هذه الرياسة ، ونسي – أو تناسى – أن هذه المدينة الفاضلة التي تأثر بها من خلال جمهورية أفلاطـــون ، كانـــت مدينة طبقية ، ومن ثم لا يصح نعتها بالفاضلـــة . (٨)

٢ – المدينـــة الفاضلـــة عنـــد "سيـــر توماس مـــور"

إننا في نظرة شاملة لمدى أوسع ، تستطيع أن نؤكد أن أوروبا في أواخر العصور الوسطى (من أوائل القرن السادس إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي) كانت ترزح تحت ظلام دامس ، حتى أُطلق على هذه الفترة في التاريخ الأوروبي (العصور الوسطى المظلمة) حيث طبع فيها التعليم بطابع ديني غيبـــي جامد ، وهيمنت الكنيسة على فرض هذا النوع مـــن التعليم ، ومحاربة كل وسائل البحث العلمي المادي (٩) . وظَاهَرَ بعض حكام أوروبا الكنيسة في هذا المجال ، فقد حرَّم ثيودريك ملك القوط في شبه جزيرة أيبيريا (بلاد الأندلس فيمـــا بعد) إرسال أبناء القوط إلى المدارس ، بمقولة أن الطفل الذي يشب على الخوف من عصـــا

المعلم ، لن يكون في مستقبل حياتــه شجاعاً يواجه السيوف والحراب ، وفضلاً عن ذلــك انتشرت المفاسد الدينية ببيــع صكوك الغفران لمن يدفعون للكنســية ورجــال الــدين ، وحرمان من ينقدوهما من دينهم ، بل ومعاقبة بعضهم بالطرد و الحرق [١٠].

حدث هذا في الوقت الذي نضجت فيه حضارة الإسلام واكتمل بناؤها ، وأخذت تشقّ طريقها إلى أوروبا عبر علماء الإسلام ، ومراكز الترجمــة في كل من الأندلس وصقلية ، ثم إبان الحروب الصليبية ، وما أحدثته من احتكاك ثقافي بين المسلمين والصليبيــــن ، فعــن طريق مراكز الترجمة في قرطبة وصقلية (باليرمو) نقل الأوروبيون الكثير من تراث الحضارة الإسلامية في العلوم والآداب ، وبخاصة تلك الأفكار التي تدعو إلى الحرية ، ونَقْد ســيطرة الكنيسة على شؤون الحياة ، وقد اعترف أحد أعلام النهضة الأوروبيــة في القــرن ١٣ م "دانتي أليجيري " (١٢٦٥- ١٣٢١ م) بأن الشعر الإيطالي هو نتــاج للشــعر العــربي الموروث من حضارة صقلية[١١]. كما استفاد دانتي نفسه من رسالة الغفــران لأبي العــلاء المعري (عن رحلة الإسراء و المعراج) ، وكتــب منــها مؤلّفــه المشــهور " الكوميــديا الإلهيــة"[٢]. والتي نقد فيها الكنيســة تصريحا لأول مرة ، حينما تحدث فيه عــن رجــال الدين والقسس ، و أنه رآهم في النار ، أما العبيد و الفقراء فإن مترلتــهم الجنــــة ، وأن الأعراف أو المطهر ، - وهو سور بين الجنــة والنار - فإنه مكان المنافقيــن الممالئيــن لسلطة الكنيســة [١٣] .

وجاء بعده في مطلع القرن السادس عشر الميلادي " السير توماس مــور " (١٤٧٨ – ١٥٣٥م) – أحد أعلام النهضة الأوروبية أيضاً في أواخر القرن ١٥ م – وقد استفاد مــن حركة ترجمـــة التــراث الإسلامي و الفكري والسياسي إلى اللغات الأوروبية ، وخاصة كتابات ابن رشد ، وابن حزم ، والفارابي ، فقد استفاد من الأخير ونقل عنه الكثير من آرائه في كتابه : آراء أهل المدينـــة الفاضلة ، وأسمى كتابه " يوتوبيا "[١٤] فما الذي جاء في هـــذا الكتاب . [١٥]

كان" توماس مور " أحد أعلام النهضة في إنجلترا ، وذكر في كتابة أن مليكه " هنري الثامن " أرسله في بعثة إلى بلاد فلاندرا – بلجيكا الحالية – كسفير له فيها ، وما أن وصل إلى هذه البلاد حتى استقر في جزيرة " يوتوبيا " ، وبمعونة أحد ابنائها ويدعى " روفائيل هيثلوداي " وأخذ يصف مدنها ، وماءها ، والقانون الذي يحكمها ثم تحدث عن زي أهلها الموحد ، فذكر أن لكل واحد حُلّة واحدة كل عامين ، الرجال والنساء سواء كما ذكر أن الأبناء يخضعون لطاعة الوالدين ، وأن الزراعة هي مهنة إجبارية لأهل البلاد ، يختار كل واحد بجانبها حرفة أخرى إضافية ، وأن الطفل يتعلم مهنة أبيه ، أما النساء فإنهن يقمن بأعمال نسج الثياب، وذكر أن الدولة هناك تحدد ساعات العمل بست ساعات فقط ، وأن الناس يتناولون العشاء مبكرين وينامون مبكرين .

ثم تحدث عن سنّ الزواج ، وأنه محدد بثمانية عشر عاماً للمرأة ، واثنين وعشرين للرجل، وأن الطلاق غير مباح إلا بالتوافق بين الزوجين ، أو بموافقة مجلس شورى الدولة . كما ذكر أن المرأة لا تستخدم المساحيق للزينة ، ولا تلبس الملابس الخليعة ، وأن الجمال هناك هو جمال الخُلق وليس جمال الخَلْقْ ، كما ذكر أن عدد أفراد الأسرة محدَّد ، أي أن يوتوبيا تقرر تنظيم الأسرة بتحديد النسل ، وأضاف بأن يوتوبيا بها أربع وخمسون مدينة ، لا يجوز الانتقال بين مدنها إلا بتصريح ، ولا يمكث الشخص بها بدون عمل سوى يوم واحد ، وأكد أن المساواة و المواساة قائمة بين هذه المدن ، إذ تأخذ كل مدينة ما تحتاجه من الأخرى بدون ثمن أو ضريبة ، لأن الإنتاج وفير يفيض عن حاجة السكان ، والمجتمع اشتراكي يقوم على التكافل ، كما ذكر أن سكان يوتوبيا يحقّرون الذهب والفضة ، فيصنعون منه شارات نزلاء السجون وأرباب السوابق وذوي الأخلاق السيئة ، وأن الجواهر والفضة لحُلي الأطفال فقط ، وأكد أن سكان الجزيرة يفضلون الحديد على الذهب والفضة، لأنه أكثر فائدة في مجال الصناعات الإنشائية ، وللدلالة على صدق كلامه ، ذكر أن السفراء الذين جاءوا بحلي الذهب إلى الجزيرة طرحوه أرضاً ، لأنهم وجدوه موضع سخرية من أهل الجزيرة .

أما عن الدين : فذكر أن حرية العقيدة مكفولة في يوتوبيا ، لكن الأغلبية للموحِّدين ، وإذا كان لكل إنسان الحرية في اعتناق الدين أو المذهب الذي يريده ، فإن من يثير الفتن الدينية يطرد من الجزيرة ، وذكر أن أماكن العبادة جميلة تلائم جميع الديانات ، وأن أول كل شهر وآخره أيام مقدسة ، وأكّد أن كل من ارتكب جرماً يصبح عبداً .

أما من الناحية السياسية : فذكر أن مبدأ الحكم يقوم على الانتخاب الحر ، وأن أهل الجزيرة يختارون رئيسهم مدى الحياة ، عن طريق مجلس الشورى الذي تمثل فيه جميع العائلات ، كما ذكر أن السلطة القضائية مستقلة عن السلطة التنفيذية ، وأن كل قضية يفصل فيها قاضيان ، وان العقوبة على قدر الجرم .

وأضاف : أن أهل الجزيرة يمقتون الحرب ، ويرون أن هناك وسائل أخرى لفض النزاع ، كالذكاء والدهاء والحيلة ، لأن القوة في مفهومهم هي وسائل الوحوش في الغابات ، ورغم ذلك فإن أهل الجزيرة يدافعون عن بلادهم بكل قوة إذا ما اعتُدى عليهم .

وينتقد "توماس مور " طبيعة المجتمع الإنجليزي خاصة – والأوربي عامة – في مساواته في عقوبة الإعدام بين القتل والسرقة ، وكان غرض " توماس مور " من يوتوبيا يرمي إلى :

١- الحملة على النظام الرأسمالي في بلاده (انجلترا) .

٢- الدعوة إلى حرية العقيدة لدرء الخصومة بين الكاثوليك والبروتستانت .

٣- تعديل القوانين الجائرة في إنجلترا .

٤- تنظيم العلاقات الدولية لمنع الحروب ، وهو نقد يوجهه لحروب مليكه " هنري الثامن " .

٥- المقارنة بين المساوئ الاجتماعية التي تسود أوربا عامة – وانجلترا خاصة – ، وبين المثل العليا في يوتوبيا .

تلك هي المدينة الفاضلة التي أشاعت كل شيء بين الناس ، حتى صاروا أغنياء بالقناعة ، بخلاف انجلترا التي قسَّمت المجتمع إلى سادة وعبيد ، ومن ثم كالت بمكيالين في التعامل بين البشر . لكن بعد كل ذلك يسمى " توماس مور " - جزيرته المدينة الفاضلة - " يوتوبيا " أي في عالم الخيال ، أو لا وجود لها ، لكنا نقول له : لا ! يا سير توماس مور ؟ !

إنك لم تأت بجديد ، لكنك أخذت الفكرة عن الفارابي في - آراء أهل المدينة الفاضلة ، وإنما الجديد هو إنكارك للمدينة الفاضلة ، وادعاؤك أنها مدينة لا وجود لها ، وأنها إنما وجدت في عالم الخيال .

والحقيقة أنها وجدت على عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدين ، وسنبيِّن في الصفحات التالية الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة الفاضلة ، حتى نقف على ما قدمه الإسلام للعالم من مجتمع راق نظيف متحاب ، متعاون متكافل ، يدعو إلى السلم ويدفع العدوان رغم أنف بابا الفاتيكان " بندكتو السادس عشر " الذي يدعي - حقداً وكمداً - أن الإسلام لم يقدم للعالم شيئاً سوى العنف والإرهاب والكراهية والعدوان " فسحقاً لأصحاب السعير "[١٦]

الحالة الراهنة في يثرب عند الهجرة النبوية إليها

قبل أن نتحدث عن مجتمع المدينة الفاضلة أو الدولة المثلى التي أقامها النبي صلى الله عليه وسلم في يثرب نتبين : أولاً حالها عند الهجرة فنقول :

لم يكن معنى الهجرة إلى يثرب هو التخلص من الفتن والاستهزاءات التي لحقت بالمسلمين في مكة من قبل مشركي قريش فحسب ، بل كانت الهجرة مع هذا تعاوناً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن ، قوامه التوحيد ونشر العدل والمساواة في بلاد العرب أولاً ، ثم في العالم أجمع ثانياً ، مجتمع مؤسس على الأخوة الصادقة والمحبة والوئام ، وقبل كل شيء على عقيدة التوحيد الصحيحة المنبثقة من عالمية القرآن والسنة ، ولذلك أصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفعة

شأنه ، ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإمام والقائد والهادي في بناء هـذا المجتمع ، وكانت إليه أزمّة الأمور بلا نزاع في يثرب ، بعد أن أصبحت دار إقامة للنبي و أصحابه الكرام ، الذين هاجروا إليها من مكة وضواحيها ، ليكونوا جنداً مخلصين لدولة الإسلام الجديدة ، وللدعوة الإسلامية التي اتخذت من هذه المدينة المباركة مقراً لها ومنطلقاً إلى أنحاء العالم أجمع[١٧] .

وأرى ، من واجبي – إيفاء بحق الموضوع محل البحث – أن ألقي ضوءاً على ذلك المجتمع الجديد الذي استقر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، لنرى من هم الذي كانوا يسكنون في تلك البلدة وما هي أصولهم وجذورهم ، وطبائعهم ، وخصالهم ، حتى يسهل علينا فهم ما جرى في مدينة الرسول من الانقلاب الجذري بواسطة الإسلام ، وما هي العقبات التي واجهها الرسول في سبيل بناء هذا المجتمع الجديد ، المؤسس على الإسلام عقيدة ونظاماً . فأقرر : أن بلدة يثرب كانت من قديم الزمان واحة خضراء ، خصبة التربة كثيرة المياه ، وكانت تحيط بها الحرّات من جهاتها الأربع ، وكان يسكنها اليهود ، وقبيلتا الأوس والخزرج، فضلاً عن سكانها الجدد المهاجرين إليها مسلمين من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم[١٨] ، إذن فالأقوام التي كان يواجهها النبي في المدينة كانت على ثلاثة أصناف ، يختلف أحوال كل منها بالنسبة إلى الآخر اختلافاً واضحاً ، وبالتالي تحتاج كل واحدة منها إلى معالجة خاصة ، وهذه الأصناف الثلاث هي :

١– أصحابه الصفوة الكرام البررة (مهاجرون وأنصار) .

٢– المشركون الذين لم يؤمنوا بعد ، وهم من صميم قبائل المدينة .

٣– اليهود على اختلاف طوائفهم وقبائلهم .

أما الصنف الأول : (أصحاب النبي) – وخاصة المهاجرين – فإن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تماماً عن الظروف التي مروا بها في مكة ، فهم في مكة كانوا متفرقين في بيوتات شتى ، مقهورين أذلاء مطرودين ، أمرهم بيد أعدائهم في الدين ، ولذا لم يستطيعوا أن يقيموا مجتمعاً إسلامياً جديداً رغم اجتماعهم على كلمة جامعة ، وهي كلمة

التوحيد ، أما في المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم من أول يوم ، حيث لم يكن عليهم سيطرة لأحد من الناس ، ومن ثم فقد آن لهم أن يكوّنوا مجتمعاً إسلامياً جديداً ، يهتم بمسائل الحضارة والعمران والمعيشة والاقتصاد ، والسياسة والحكومة والسلم والحرب .. وما إلى ذلك من مسائل الحياة ، أي مجتمع يختلف في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي ، إنه مجتمع يمثل الدعوة الإسلامية التي عانى لها المسلمون ألواناً من النكال طيلة عشر سنوات في مكة ، ولا يخفى أن تكوين مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يتم في يوم وليلة ، أو في شهر ، أو في سنة واحدة ، بل لا بد له من زمن يتكامل فيه التشريع والتقنين ، مع التثقيف والتدريب ، والتربية بالتدريج ،وكان الله كفيلاً بهذا التشريع ، كما كان رسوله صلى الله عليه وسلم قائماً بتنفيذه والإرشاد إليه ، وتربية المسلمين وفق هذا التشريع[١٩] : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)[٢٠]، وكان الصحابة أيضاً مقبلين عليه بقلوبهم يتحلّوْن بأحكامه ويستبشرون بها: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)[٢١] .

ولما كانت جماعة المسلمين في المدينة مشتملة على قسمين : قسم هم في أرضهم وديارهم وأموالهم ، لا يهمهم إلا ما يهم الرجل وهو آمن في سربه ، وهم الأنصار ، وكان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد[٢٢] . وكان بجانب هؤلاء قسم آخر – وهم المهاجرون – فاتهم كل ذلك ، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة ليس لهم ملجأ يأوون إليه ، ولا عمل يعملونه لمعيشتهم ، ولا مال يبلغون به القوامة من العيش ، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل ، بل يزداد يوماً بعد يوم ، ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة ، ومن ثم تزعزع ميزانها الاقتصادي ، خاصة وقد قامت الجهات المعادية للإسلام – في مكة وما حولها – بشبه مقاطعة اقتصادية ، قلّت لأجلها الواردات الغذائية ، وتفاقمت الحاجة[٢٣] .

٢ – وأما الفريق الثاني : وهم المشركون – من صميم قبائل المدينة – فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين ، وكان منهم من يتخالجه الشكوك ، ويتردّد في ترك دين الآباء (الوثنية) ولكن لم يكن يبطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين ، فهؤلاء

أسلموا وأخلصوا دينهم لله بعد فترة قصيرة ، ولكن كان في هذا الفريق أيضاً – من يبطن شديد الحقد والعداوة ضد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، لكنه لم يكن يستطيع أن يناوءهم ، بل كان مضطراً إلى إظهار الود والصفاء لضعفه وجبنه ، وهو يبطن الكفر والعداء للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين (مهاجرين وأنصار) وهؤلاء هم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، ويأتي على رأس هؤلاء عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب " بُعَاث " ، ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله ، وكان على وشك أن يصير ملكاً على أهل المدينة ، فباغته مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها ، وانصراف قومه عنه إلى النبي ، فكان يرى أنه استلبه ملكه ، فأبطن العداوة ضد النبي صلى الله عليه وسلم لأن الظروف لم تكن تساعده على شركه الذي يُحرَم بسببه الفوائد الدنيوية ، ولهذا أظهر الإسلام – بعد بدر – ولكن بقي مستبطناً الكفر ، وكان لا يجد مجالاً للمكيدة برسول الله صلى الله عليه وسلم و بالمسلمين إلا ويأتي بها ، يدعمه أصحابه ومن على شاكلته ممن حُرِموا المناصب التي كانت مرجوَّة لهم في ملكة ، وكان العداء الخفي (النفاق) أشد وأنكى على المسلمين من العداء المعلن من قبل قريش وحلفائها ، ولكن قيادة النبي صلى الله عليه وسلم وسياسته في بناء المجتمع الجديد كانت كفيلة بالقضاء على كل هذه العقبات [٢٤].

٣ – أما الفريق الثالث وهم اليهود : فقد كانوا نزحوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشوري ثم الروماني ، وشكل هؤلاء اليهود الجالية اليهودية في يثرب والحجاز منذ القرن الثاني الميلادي ، وارتاد يهود " بني النضير ، وبني قريظة " منطقة يثرب ، واستقروا فيها لخصبها، وأهمية موقعها التجاري على طرق القوافل إلى الشام ، وكانت ديارهم بضواحي يثرب ، ومن القبائل اليهودية التي استقرت داخل يثرب يهود " بني قينقاع " الذين يقال عنهم إنهم كانوا عرباً تهوَّدوا [٢٥] ، وكان هؤلاء اليهود عبرانيين ، لكن بعد نزوحهم إلى الحجاز اصطبغوا بالصبغة العربية في الزّي واللغة والحضارة ، حتى صارت أسماء قبائلهم و أفرادهم عربية ، وقامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصِّهرية ، ولكنهم حافظوا على عصبيتهم الجنسية العبرانية ولم يندمجوا في العرب كلياً ، بل كانوا يحتقرونهم ويسمُّونهم "

أميين " ، أي وحوش سُذّج وأراذل متأخرون ، كما كانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم يأكلونها كيفما شاءوا . ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [٢٦] ، ولم يكن لهم تحمُّس في نشر دينهم ، وإنما جل بضاعتهم الدينية هي : الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها ، مما عدُّوا به أنفسهم أصحاب علم وفضل ، كما كانوا ذوي خبرة في بناء الحصون ، وفي فنون الكسب والمعيشة ، كالزراعة والصناعة وتربية الماشية ، وصناعة النسيج ، وآلات الحرب ، كما مهروا في التجارة والتعامل بالربا . فكانوا يقرضون شيوخ العرب وساداتهم مقابل ارتهان أرضهم وحوائطهم ، ثم لا يلبثون إلا أعواماً حتى يتملكونها ، وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد ، يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة ، ويوقدون دائماً نار الحرب بين الأوس والخزرج في يثرب ، ثم يزودون الطرفين بقروض ربوية ثقيلة ، حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقة ، وبهذا العمل كانوا يحصلون على منفعتين : الأولى : المحافظة على كيانهم اليهودي قوياً أمام أعدائهم المتحاربين ، والثانية : إنفاق سوق الربا واستمراره ليأكلوه أضعافاً مضاعفة ، ويجنوا الثروات الطائلة من ورائه ، ولقد حاول اليهود عبر العصور تفتيت وحدة الأوس والخزرج ، وإثارة الحروب بينهم حتى كان يوم " بعاث " – كما ذكرنا – وكان عدد رجالهم المقاتلين يجاوز الألفين ، دخل أكثرهم (بنو النضير وبنو قريظة) هذه الحرب إلى جانب الأوس ، لكي يضعفوا الخزرج بوصفها القوة الكبرى في يثرب ، ومن ثم يبقى لهم السيادة على الطرفين ، وبالطبع فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد ، لأن النبي المنتظر جاء من غير جنسهم ، كما أنه جاء بدين جديد يعمل على إطفاء نار الحرب بين الأوس والخزرج ، وتوحيدهم في مؤاخاة تجمعهم والمهاجرين المسلمين في أمة واحدة .

إن النبي صلى الله عليه وسلمجاء من غير اليهود ، فأثار ذلك حقدهم عليه وحسدهم له، كما أن القرآن الكريم أخذ يعدد مخازى اليهود ، ونكوصهم عن الدين الحق ، لذلك أبطن اليهود أشد العداوة للإسلام ورسوله منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين [٢٧] ، ولم يكن لهم حق في عداء الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم

يعرفون أنه نبي مرسل ، جاء ذكره وعلامته في التوراة ، كما شهد بـذلك عبـد الله بـن سلام[٢٨]، فضلاً عما اعترف به حيي بن أخطب لأخيه أبي ياسر ، بأنه هو النبي ، كما ورد في حديث صفية أم المؤمنين –رضي الله عنـها – الـذي نقلـه ابـن إسـحاق ، وأورده البخاري.[٢٩] وهذه أول تجربة تلقاها النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود في إنكار دعوته منذ أول يوم دخل فيه يثرب ، أضف إلى كل ذلك عداء قريش ومشركي العرب المسـتمر منذ سنوات[٣٠] .

هذه هي القضايا و المشاكل التي كان يواجهها رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم والمسلمون في يثرب حين دخلها بصفته رسولا هادياً وإماماً قائداً ، وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بدور النبوة والقيادة في المدينـة الجديدة ، وأدلى إلى كل قوم بمـا كـانوا يستحقونـه من الرأفـة والرحمة ، أو الشدة والنكال ، حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهلـه في بضع سنوات ، قضاها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه في بناء مجتمع المدينـة الفاضلة [٣١] .

الأسس التي أقام عليها النبي محمد صلى الله عليه وسلم
مجتمع المدينة الفاضلة في يثرب بعد الهجرة النبوية

إن بناء المجتمع الإسلامي يقوم على أساس خضوع المسلمين في أفعالهم الاختيارية لشرع الله ومنهاجه ، لأن الإسلام في جوهره دين عقيدة وشريعة ، وإذا كانت عقيدة الإيمان هي التصديق القلبي للنبي صلى الله عليه وسلم فيما بلّغ عن ربه مع النطق بالشهادتين ، فإن الشريعة هي العمل المصدّق للعقيدة ، والدال على هذا الإيمان ، الذي يظهر أثره في السلوك البشري ، وسلوك الإيمان لدى ذويه يقتضي السمع والطاعة لما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ومن ثم كان بناء المجتمع الإسلامي وتأسيس دولته المثلى في المدينة ، يعتمد على أسس وركائز منهجية تضمن له الاستقرار والاستمرار[٣٢] .

وهذه الأسس هي : بناء المسجد النبوي ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ثم الإخاء الإنساني بالتعاهد مع اليهود ومع من حول المدينة من الأعراب ، إرساءً لقواعد التعايش السلمي ، والتعاون الدولي بين البشر ، وسبق هذه الثلاثة ، أساس مهم هو السمع والطاعة لله ولرسوله ، وأعقبها عامل أهم هو الجهاد في سبيل الله ، للحفاظ على هذا البناء ، حماية للدين واستقراراً للدولة ، وتأمين أفراد المجتمع من أعدائهم في الداخل والخارج . ولنبدأ بالأساس الأول .

[١- بناء المسجد النبوي]

دخل النبي صلى الله عليه وسلم يثرب مهاجراً من مكة[٣٣] ، ونزل في بني النجار يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ (الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢م) ، نزل في أرض أمام دار " أبي أيوب خالد بن زيد النجّاري الخزرجي " في المكان الذي بركت فيه ناقته ، وقال : " ها هنا المنزل إن شاء الله " ، فاحتمل أبو أيوب رحله فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيفاً إلى شهر صفر من السنة الثانية للهجرة ، حتى بُنِيَ

المسجد ، والحجرات لزوجاته فانتقل إليها وكانت أول خطوة خطاها النبي صلى الله عليه وسلم هي إقامة المسجد النبوي .

ففي المكان الذي بركت فيه ناقته ، وهو – يومئذ – مربد لغلامين يتيمين من بني مالك ابن النجار ، اشتراه النبي صلى الله عليه وسلم من كافلهما معاذ بن عفراء ، وأمر ببناء مسجده في هذا المكان[٣٤] للصلاة فيه والمسلمين معه ، بعد أن كان يصلي حيث أدركته الصلاة ، ويصلي في مرابض الغنم ، وكان في ذلك المكان قبور المشركين ، وكان فيه خِربَ ونخل وشجرة من الغرقد ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين فنبشت ، وبالخِربَ فسويت ، وبالنخل والشجرة فقطعت ، وصُفَّت في قبة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ، وجعلت عضادتاه من حجارة ، وأقيمت حيطانه من اللّبن والطين ، وجعلوا سقفه من جريد النخل ، وعَمُدَه الجذوع ، وفرشت أرضه من الرمال والحصباء ، وجعلت له ثلاثة أبواب وكانت طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك أو دونه ، وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع وبنى النبي صلى الله عليه وسلم إلى جانبه بيوت أزواجه باللّبن ، وسقفها بالجريد والجذوع ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب – كما ذكرنا – وكان النبي هو وأصحابه ينقلون اللبن ، ويقول وهو ينقل اللّبن والحجارة مع أصحابه :

هذا الحمال لا حمال خيبر   هذا أبرّ ربنا وأطهر

كما كان يقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فأغفر للأنصار والمهاجرة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعمل بنفسه ليرغب المسلمين في العمل ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار بدأب ، وكانوا يرتجزون :

لئن قعدنا والنبي يعمل   لذاك منّا العمل المضلّل[٣٥]

ولكن .. لماذا كان المسجد أول لبنة يضعها النبي صلى الله عليه وسلم في بنيان الدولة الإسلامية ؟ !

إن المسجد وإن اشتق اسمه من أطهر شعيرة في الصلاة ، وهي السجود على الأرض خضوعاً وانكساراً لله – لا لغيره – إلا أنه أضحى مكاناً لشعائر الصلاة كلها ، سجوداً وركوعاً ، وذكراً وعبادة ، فضلاً عن كونه داراً للاعتكاف ، وجامعاً لسماع الخطبة والوعظ كل جمعة ، ومكاناً لتلاوة القرآن والذكر ، ومنتدى يجتمع فيه المسلمون عندما يحزبهم حازب ، أو يطرقهم أمر ، فيتنادوا : الصلاة جامعة ! .

إن مبادرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بناء المسجد فور وصوله إلى المدينة ، يبيِّن لنا الدور الأساسي للمسجد في بناء المجتمع الإسلامي في كل زمان ومكان ، وعندما نتصفح تاريخ المسجد النبوي في عصر الرسالة ، يتبيـَّن لنا جلياً أنه لم يكن مجرد مكان للعبادة و فقط ، بل تحققت بواسطته أهداف إسلامية عظيمة شملت مهام المجتمع والدولة كلها ، ويمكن أن نجملها فيما يلي :

١ – كان المسجد مدرسة لتعليم النشء القراءة والكتابة والحساب ، وحفظ القرآن الكريم ومبادئ العلوم ، وقد حضَّ النبي صلى الله عليه وسلم على التعليم في المسجد فقال صلى الله عليه وسلم : " من دخل مسجدنا هذا ليعلم خيراً أو ليتعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله "[٣٦] ، وقوله أيضاً : " إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنما هي لذكر الله ومن والاه ، وعالماً ومتعلماً "[٣٧] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه[٣٨] " ، كما أنه جعل فداء بعض أسرى بدر تعليم عدد من أبناء المسلمين القراءة والكتابة في مدرسة المسجد[٣٩] .

٢ – كان المسجد جامعة لإلقاء العلوم وتلقيها ، تعلم فيها الصحابة الكرام القرآن الكريم والسنة النبوية ، على يد معلمهم الأول النبي صلى الله عليه وسلم وتخرج منه كثيرٌ من الصحابة ، والتابعين من الأئمة الذين تلقوا على أيدي الصحابة في جميع العلوم والآداب . وقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بالتعليم والتربية في جامعة المسجد ، بل إنه هو الذي وضع أصول التربية الحديثة في هذه الجامعة ، وليس " دور كايبم " ، ولا " سبنسر " ولا " روسو " كما يزعم المستشرقون والمستغربون – ، فإذا كانت أصول التربية الحديثة تقوم على وسائل ثلاث هي :

أ – إثارة شوق المتلقي بالسؤال ثم الإجابـــة .

ب – إثارة شوق المتلقي بالسؤال وحجب الإجابـــة حتى يكرِّر السؤال ، فتأتي الإجابة لترسخ في ذهن المتلقي فلا ينساهـــا .

ج – والثالثـــة التدريب العملي بعد الدرس النظري[٤٠] ، إذا كانت تلك أسس التربية ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم هو مؤصل ذلك كله ، وبالمثال يتضح المقال :

ففي المقام الأول – السؤال ثم الإجابـــة – يأتي ما ثبت عن أبي واقـــد الليثـــي : " أن ثلاثـــة نفر جاءوا المسجد والنبي في حلقة الدرس ، فأقبل أحدهم على الحلقـــة مســـرعاً ، وجاء الثاني على استحياء ، وانصرف الثالث عن الدرس ، ولم يلفت ذلك نظر واحد مـــن الصحابة ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ((ألا تسألوني أخبركـــم خبـــر هـــؤلاء الثلاثـــة ؟ فقالوا أخبرنا يا رسول الله ! فقال صلى الله عليه وسلم : أما الأول : فقد أقبـــل على الله فأقبل الله عليه ، وأما الثاني فاستحيا من الله فاستحيا الله منـــه ، وأما الثالث : فقد انصرف عن الله فانصرف الله عنه))[٤١] .

وفي المقام الثاني – إثارة شوق المتلقي بالسؤال ثم حجب الإجابة عنه حتى يلح في سؤاله – يأتي حديث سعيد بن المعلا في شأن سورة الفاتحـــة ، حين قال له النبي صـــلى الله عليـــه وسلم : " يا سعيـــد لأعلمنك شيئاً لا تسأل عنـــه أحداً " فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من الدرس سأله ابن المعلا يا رسول الله : قلت لي لأ علمنك شيئاً لا تسأل عنه أحداً. فسكت النبي صلى الله عليه وسلم حتى كرر ابن المعلا سؤاله ثلاثاً . فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بعدها أنه على شوقٍ لتلقي الإجابة على سؤاله ، قال صلى الله عليه وسلم : " يا سعيد عليك بالسبـــع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتـــه "[٤٢] .

وفي المقام الثالث – التدريب العملي – ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلّـــم أصحابه ، فإذا برجل جاء المسجد يصلي ، فأسرع في صلاتـــه ولم يتم ركوعها وســـجودها حتى يلحق بالدرس ، فلما جاء الحلقة ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ارجع فصـــلِّ فإنك لم تصلي " . فعاد الرجل فصلى مثل صلاته الأولى ، ثـــم جاء النبي صلى الله عليـــه

وسلم فقال له ثانية " ارجع فصلِ فإنك لم تصلي " . فعاد الرجل ليصلي لكنه لم يزد على ما فعله في المرتيـــن السابقتيـــن ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له مثل ما قـــال سابقاً ، فقال الرجل : يـــا رسول الله لم أحسن غيـــر هذا ، فعلمني كيف أصلي ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا دخلت في صلاتك فكبـــر بتهليلٍ ، واقرأ بترتيل ، واركع بتواضع ، واسجد بتخشع ، وافعل ذلك في صلاتك كلهـــا ، فتكون قد صليت "[٤٣]. ففعل الرجل بعد أن علمـــه النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد أثمرت تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه وأتباعه ، فذلكم السِّبْطيـــن : - الحسن والحسين - رأيا أعرابياً يتوضأ فلا يحسن الوضوء ، فأرادا أن يعلماه كيف يتوضأ وضوءاً صحيحاً ، دون تجهيله أو تجريحه ، فقال له الحسن : " أي عماه ! إني وأخي نحـــتكم إليك فيمن فينا يحسن الوضوء " ؟ فقال الرجل : أي بني توضأ فبدأ الحسن بالوضوء ثم أعقبه الحسيـــن ، فنظر الرجل إليهما قائلاً : " لقد أصبتما وأنا الذي أخطـــأت ، جزاكمـــا الله خيـــراً فيما علمتماني "[٤٤].

٣ - كان المسجد منتدى لتناشد الأشعار والآداب ، إذ دخل كعب بن زهيـــر بـــن أبي سلمى على النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد وأنشده قصيدته التي بـــدأت بـــالغزل: " بانت سعاد فقلبي اليوم متبول " ولم ينهه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك . كما كـــان حسان بن ثابت يجلسه النبي صلى الله عليه وسلم على مقعد خصَّصه له بجـــوار منبـــره ، ينشد الأشعار داخل المسجد[٤٥]. ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافـــة أراد أن يخرج حســـان من المسجد ، فحاجَّـــه حسان قائلاً : يا عمر : أجلسني من هو خيـــرٌ منك لأنشد الشـــعر هنا ، فكيف تخرجني أنت ؟! فقال له عمر : صدقت ، وأقرَّه في المسجد[٤٦] .

٤ - كان المسجد دار قضاء ، ومحكمة للفصل بين الخصوم ، ودار فُتْيا فيما يـــنزل بـــه الوحي متلواً وغير متلو ، ودار شورى فيما ليس فيه وحي :جلس فيه النبي صلى الله عليـــه وسلم ليقضي بنفسه بين المتخاصميـــن ، كما أناب عنه من يقوم بذلك ، كأبي بكر وعمر ، وكان عمرٌ أيضاً ينيب علي بن أبي طالب ليقضي بين الناس في محكمة المسجد ، حتى قيل : " قضية ولا أبا حسنٍ لهـــا " ومما يؤثر في هذا المقام أن " كعب بن مالك "، و" عبد الله بـــن

حدرد " اختصما في المسجد ، حيث كان ابن مالك قد أقرض ابن حدرد مالاً ولم يرد القرض ، فجاء المسجد وطلب إليه أن يرد المال ، وعلا صوتهما والنبي صلى الله عليه وسلم في بيته فسمعهما ، فخرج إليهما ، فأشار إلى كعب قائلاً : "حطّ عنه الشطر "؟ فقال : أفعل يا رسول الله ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى ابن حدرد وقال : " قم الآن واقضه حقه" ؟ فقال : أفعل يا رسول الله [٤٧] ، وكان المسجد معتقلاً للأسرى ومحبساً للخاطئين : فهذا " ثمامة بن أسال " الذي كان يتخطف قوافل المسلمين ويغير على سرحهم ، وظفر به المسلمون فأمسكوه ، وأتوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقيده إلى إحدى سواري المسجد ، وكان يمر عليه فيقول : " ما صنع الله بك يا ثمامة ؟ فيقول خيراً يا محمد : إن تقتل تقتل صاحب إثم ، وإن تعف تعف عن ذي رحم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أطلقوا ثمامة ؟ فأطلقوه " [٤٨] وعفا عنه النبي فذهب واغتسل وعاد مسلماً . أما " أبو لبابة بن عبد المنذر " الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى قريظة بناء على طلبهم – وأخبرهم أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم سيذبحهم إن سلموا ولكنّه أحسنَّ بخطئه وأنه خان الله ورسوله والمسلمين . وندم على فعلته ، وحضر إلى المسجد فربط نفسه في سارية من سواريه ، وأقسم ألا يحله أحد حتى تأتي براءته من السماء لتؤكد توبته[٤٩] من فعلته ، وظل حبيساً في المسجد ما ينيف على الشهر ، حتى أنزل الله قرآناً يؤكد قبول توبته : ((وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) [٥٠]

٥ – كان المسجد داراً للضيافة ومقراً لاستقبال الوفود القادمة إلى المدينة ، حيث استقبل فيه النبي صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف وضيَّفهم فيه ، كما استقبل وفد نصارى نجران ، ووفد الحبشة وقدم لهم الضيافة ، وأسمعهم القرآن فأسلموا ، وفاضت عيونهم من الدمع [٥١] وأنزل الله فيهم : ((لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)) [٥٢].

٦ – كان المسجد منزلاً للفقراء ، ومطعماً للمساكين ، وسكناً للمحتاجين ، فكان دار من لا دار له ، ومطعم من لا طعمة له ، بنى النبي صلى الله عليه وسلم في مؤخرة المسجد صُفَّة " مصطبة " أقام فيها هؤلاء الفقراء ، وعلق في سقف المسجد كلاليب بها سبائط البلح ، وعناقيد العنب ، ليقتات منها هؤلاء ، ثم يبيتون في الصفة ، وهم الذين سُموا بأهل الصُّفَّة ، أو أصحاب الصُّفَّة [٥٣]. ولم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم رجالهم ولا نساءهم من المبيت في المسجد ، بل أمر أصحابه بذلك ونهاهم عن المنع قائلاً : " لا تمنعوا عباد الله إماء الله من المبيت في مساجد الله " [٥٤].

٧ – كان المسجد مصنعاً لصناعة آلات الجهاد ، ومستشفى لتمريض الجرحى ومداواة المرضى وداراً لعقد الأنكحة ، ومقراً لقيادة الجيش وقاعدة لإدارة الشؤون السياسية والعسكرية ، فقد جلست النسوة فيه يثقفن الرماح ويرقن السهام ويحدذْن السيوف ، كما قمن بتمريض جروح المصابين من المجاهدين ، كما فعلت صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم ورفيدة الأسلمية التي داوت جروح سعد بن معاذ يوم الخندق ، وكما فعلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد [٥٥]، كما كانت تشهر الأنكحة في المسجد أيضاً ، ومنه يعلن الجهاد ويخرج اللواء ، وفيه تعقد المهادنات والمعاهدات[٥٦] .

والخلاصة أن المسجد قد جمع كل هذه المهام والوظائف المنوطة بالدولة ، واللازمة لبناء المجتمع ، وهذا يبينٌ : لماذا بدأ النبي صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد ! والعمل فيه بيده مع أصحابه داعياً لهم بالرحمة والغفران ، قبل أن يفكر في بناء دار لنفسه ، كما كان يحضّ المسلمين على الإسهام في بناء المساجد فقال صلى الله عليه وسلم : " من بني لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بني الله له بيتاً في الجنة[٥٧] " . كما حضَّ المسلمين على انتظار الصلاة في المساجد ، وسماها الرباط ، تشبيهاً بمن يرابطون في الثغور لحمايتها من الأعداء ، كما طلب إلى المسلمين توقير المساجد ، ونهاهم عن الكلام فيها بغير ذكر الله ،

فقـــال صلى الله عليه وسلم : ((الكلام في المساجد يأكل الحسنات كما تأكـل النـار الحطب [٥٨])) كما نهى عن مجالسة من يلغون في المسجد بكلام دنيوي ، فقال صـلى الله عليه وسلم : ((يأتي في آخر الزمان أناس من أمتي إلى المساجد ، فيقعدون فيهـا حلقـاً ، ذكرهم الدنيا وحبُّ الدنـيا ، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة [٥٩])) . كما نهـى عـن البصاق والنخامة في المسجد ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((البزاق في المسـجد خطيئـة وكفارتها دفنها [٦٠])) ، وقد أمر الله بعمارة المساجد فقال تعالى : ((إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّـهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِـكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)) [٦١] .

كما نهى عن تخريب المساجد أو السعي في خرابها ، وتوعَّد الساعين في خرابها بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فقال تعالى : ((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) [٦٢] .

تلكم هي رسالة المسجد الجامع في بناء الدولة الإسلامية الأولى ، والتي استمرت في كل المساجد في أنحاء الدولة الإسلامية فيما بعد ، وانتشرت من المدينة ومكة إلى البصرة والكوفة ودمشق وبغداد والزيتونة والقيروان وفاس والفسطاط ، والقاهرة . ومـا زال جامعهـا " الأزهر " يؤدي تلك الرسالة إلى اليوم منذ أكثر من ألف عام .

فأنت أخي القارئ ترى أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كان بسيطاً في المبنى ، لكنه عظيم المعنى في الأهداف والغايات ، ومع تواضعه وبساطتـه ، ربَّى فيه النبي صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام ، والتقى فيه بالمسلميـن من جميع القبائل العربية – المشـتَّة قبـل الإسلام – لينسيهم النزعات الجاهلية ، والفوارق القبليـة ، ويربيهـم على الخير والحـب والتآلف ، لينصهروا في بوتقة واحدة متماسكة ، ويؤلفوا أمة واحدة موحـدة ، تدوس على رؤوس الكفر والشرك والطغيان ، وتحمل دعوة التوحيد إلى أرجاء العالم بالحكمة والموعظـة الحسنـة [٦٣] .

ونخلص من كل هذا إلى أنّه : كان لاهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية بالعلم والتعليم ، والعلماء والمتعلمين ، أثر كبير في سلوك صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين جلسوا حوله في المسجد ، واستمعوا إلي هذه التوجيهات المتكررة من القرآن ، والحث المتواصل من الرسول صلى الله عليه وسلم علي العلم ، فكانت استجابتهم الكبيرة للجلوس بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم في المسجد ليتعلموا أمور دينهم ويتفقهوا فيه، ومن ثم قامت حركة علمية في المدينة المنورة ، كان أستاذها هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان التلاميذ هم أصحابه – رضوان الله عليهم – وبعد موته اقتدي به أصحابه في القيام بتعليم الناس في المسجد النبوي ، فلقد شهد المسلمون أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – معلّمين ومتعلمين قبل أن يحملوا السيوف للجهاد ، ثم رأوا علماء القرن الأول يتصدرهم أبناء الصحابة العظماء، وعلي أيديهم تعلم فقهاء المدينة السبعة في القرن الثاني للهجرة[٦٤] .

كما رحل كثير من هؤلاء الصحابة إلي البلاد التي فتحها المسلمون ، لينشروا فيها الإسلام ويعلموا الناس ، وأقام كل واحد من هؤلاء العلماء مركزا علميا بالبلد الذي نزل فيه ، ومن مشاهير علماء الصحابة : عبد الله بن عمر ، وكانت حلقته العلمية في المدينة ، وعبد الله بن عباس وكانت حلقته في مكة ،ومعاذ بن جبل وكانت حلقته في اليمن ، وأبو موسي الاشعري وكانت حلقته في البصرة ، وعبد الله بن مسعود وكانت حلقته في الكوفة، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكانت حلقته في مصر ، وهكذا بدأت حركة العلم والتعليم في الإسلام تمتد بامتداد البلاد التي يفتحها جند الإسلام ، ولهذا لم يمرّ وقت طويل حتي وجدنا حركات علمية إسلامية تزدهر في كل البلاد الإسلامية . خاصة وقد توفرّت كل العوامل والأسباب التي أدت إلي تلك النهضة العلمية ، ومنها: رعاية الحكام والأغنياء للتعليم والعلماء ، وإنشائهم الكثير من المكتبات والمدارس والجوامع والأربطة والزوايا، ووقف العقارات والمنقولات علي العلم وأهله ، وتشجيع حركة الترجمة وامتزاج الثقافات، والحرية الفكرية التي شملت كل مناحي العلوم [٦٥].

[٢ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار]

الإخاء الإسلامي .. هو الأصل الأصيل في بناء دولة الإسلام وقيام الأمة الإسلامية..

ولقد كان العرب - والناس معهم - على شفا حفرة من النار .. متشاكسين .. متنافرين .. متحاربين سنين طويلة .. من أجل ناقة ، فنزلت الآيات .. قيل لهم : تحابوا.. فتحابوا . قيل لهم : تآخوا .. فتآخوا ..

ثم قيل لهم : انفروا .. فهبوا خفافاً وثقالاً ، وتنزّلت الآيات .. فقالوا : سمعنا وأطعنا .. ولم يقولوا سمعنا وعصينا . ومؤمنو مكة - على اختلاف قبائلهم - ما عرفنا لهم اسماً في التاريخ ، إلا المهاجرين.

ومؤمنو المدينة ، على- اختلاف قبائلهم - ما عرفنا لهم اسماً في التاريخ إلا الأنصار . وكانوا قبلها فرقاء متشاكسين ، فإذا بالفرقاء المتشاكسين أمة ودولة (٦٦) .

والإسلام لم يكتف بإطلاق اسم المهاجرين .. على المؤمنين من أهل مكة المهاجرين إلى المدينة . ولم يكتف أيضاً بإطلاق اسم الأنصار على قبيلتي الأوس والخزرج . " أبناء قيلة ". الذين دخلوا في الإسلام .. مع أن إطلاق الأنصار والمهاجرين .. كافياً لإزالة كل ما يؤدي إلى التعصب ، لكن نعتوا جميعاً بالصادقين والمفلحين .

ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في البناء الأخوي الكامل .. ليقيم دولة الإسلام على أساس سليم .

قال ابن إسحاق:

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، من المهاجرين والأنصار ..

فقال - فيما بلغنا - : ((تآخوا في الله أخوين أخوين)) (٦٧) ؟

قال ابن القيم : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار .. على المواساة ، والتوارث بعد الموت دون ذوي الأرحام ، فلما أنزل الله - بعد بدر - (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) (٦٨) نُسِخَ التوارث دون عقد الأخوة(٦٩) .

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب العصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا الإسلام ، و أن تسقط فوارق النسب واللّون والوطن ، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه ، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر ، وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال(٧٠) .

فقد روى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال سعد لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فاقسم مالي نصفين ، ولي امرأتان فانظر أعجبها إليك فسمها لي ، أطلقها ، فإذا انقضت عدتها تتزوجها ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، وأين سوقكم ؟ فدلُّوه على السوق ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغد ، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة ، فقال النبي : صلى الله عليه وسلم " فيم يا عبد الرحمن ؟ قال : يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار . قال كم سقت إليها ؟ قال : وزن نواة من ذهب ، فقال النبي : – صلى الله عليه وسلم – ، أو لِمْ ولو بشاة "(٧١) .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٧٢) .

لقد بلغ المسلمون الأوائل في الإيثار – بكل ما تحمله كلمة إيثار من معنى ومفهوم ومدلول– . بلغوا درجة عليا ، ومكانة عظمى .. بما وقر في قلوبهم من إيمان ، وبما أشرق في نفوسهم من يقين ..

إن قوة الإيمان ، والتصديق برسوله صلى الله عليه وسلم تجعل النفس الإنسانية ، تشرق بالكثير من صفات الخير ، وتتخلّق بالآداب والفضائل العظيمة ، ولقد صنع ذلك الإيمان وهذا التصديق جماعة ، اصطبغ سلوكهم بالشمائل الجليلة .. فكانوا يؤثرون

إخوانهم بأموالهم وديارهم على أنفسهم ، ويتنازلون عن قسْمهم في الغنائم من أجلهم ، ويقدِّمون حاجة إخوانهم على حاجتهم ، حباً لهم ، ورغبة في أخوّتهم.. [٧٣]

والإيثار في الإسلام .. هو : تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية ، رغبة في الحظوظ الدينية وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة ، والصبر على المشقة .. يقال : آثرته بكذا ، أي خصصته به ، وفضّلته ،[٧٤] والمعنى أيضاً ......

والذين سكنوا المدينة ، وأشربت قلوبهم حب الإيمان ، من قبل هجرة أولئك المهاجرين.. لهم صفات كريمة ، وشيم جليلة ، تدل على كرم النفس ، ونبل الطباع[٧٥] ولذا كانوا يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك، وهؤلاء تصدَّقوا وهم يحبون ما تصدقوا به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه[٧٦] !!

وجاء في الأثر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قسم أموال بني النضير على المهاجرين . ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر : أبا دُجَانَة (سماك بن خرشة) وسهل بن حنيف ، والحارث بن الصمّة .

وقال لهم : ((إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وداركم ، وشاركتموهم في هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يُقسم لكم شيء من الغنيمة)) .

فقالت الأنصار : "بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ، ونؤثرهم بالغنيمة دوننا ، ولا نشاركهم فيها "[٧٧]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : للأنصار :

((إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم)) .

فقالوا : أموالنا بيننا قطائع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أو غير ذلك " ؟

قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟

قال : ((هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفوهم إياه وتقاسموهـــم التمر)) .

فقالوا : نعم يا رسول الله .. نكفيكهم العمل ونقاسمهم الثمـــر [٧٨]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قالت الأنصار للرسول صلى الله عليه وســلم : أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل .

فقال الرسول : لا ..

فقال المهاجرون : أتكفونا المؤونة ونشارككم في الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا ! " [٧٩]

نعم .. إن الإيمان الصادق ، الذي صادف قلوباً هُيِّئت له . تمكن فيها ونما وترعــرع ، وأشرقت آثاره على من حولها ، وسعى أصحاب هذه القلوب المؤمنة في بذل كل ما يرضي من حولهم من المسلمين ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من خـــيرة مـــن تمسك بفضيلة الإيثار .. حرصا على أخوة الإسلام ، وتودُّداً في ظلال الإيمان ..

قال تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَـــاءُ بَيْـــنَهُمْ) [٨٠] وقـــال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) [٨١] .

وقد أجرى الرسول – صلى الله عليه وسلم – عقد المؤاخاة هذا في دار أنس بن مالك ، وقد اشتملت هذه المؤاخاة تسعين رجلاً ، (خمسة وأربعين من المهاجرين ، خمسة وأربعين من الأنصار) [٨٢] ، لأن المهاجرين جاءوا إلى المدينة لا مال لديهم ولا مسكن لهم ، فكان مـــن الضرورة الملحَّة أن يبحث لهم النبي – صلى الله عليه وسلم – عمن يـــأويهم في بيـــوتهم ويشركهم في معايشهم ، حتى تستقر أوضاعهم ، وتأنس قلوبهم ، بعد الوحشة الشديدة التي فرضها عليهم مشركو مكة ، ولم يبخل الأنصار على إخوانهم المهاجرين بشيء ، بل آثروهم على أنفسهم رغم خصاصتهم وحاجتهم – كما أسلفنا – ، وهذا يدل على ما كان عليـــه الأنصار من الحفاوة بإخوانهم المهاجرين ، كما يدل على ما كان عليه المهاجرون من تقـــدير لهذا الكرم حق قدره ، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم ، وحقاً كانـــت

هذه المؤاخاة حكمة فذّة ، وسياسة حكيمة ، وحلاً رائعاً لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون في المدينة(٨٣)

ولتأكيد هذه المؤاخاة كتب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، عُرِف بميثاق التحالف الإسلامي ، وهذه بنوده ملخصة :

١) هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

٢) أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣- المهاجرون من قريش – على ربعتهم – يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف (الأنصار) على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤) وإنّ المؤمنين لا يتركون مفرجاً (القتيل لا يُدْري من قتله) بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل ، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

٥) وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة (عطية) ظلم ، أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

٦) ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

٧) وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

٨) وإنّ من تبعنا من يهود فله النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

٩) وإن سِلْمَ المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

١٠) إن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض (أي دم بعضهم كفؤ لدم البعض) بما نال دمائهم في سبيل الله .

١١) وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

١٢) وإنه من اعتبط مؤمناً قتلا (قتله بلا جناية توجب قتله) عن بيّنة ، فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

١٣) وإنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدثاً أو يؤويه وإن من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

١٤) وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد صلى الله عليه وسلم [٨٤] .

وقد كُتِبَتْ هذه الوثيقة بعد غزوة بدر الكبرى ، أما وثيقة اليهود فقد كتبت قبلها (بعد وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بخمسة شهور فقط) ، ومع ذلك فقد ذكرهما ابن هشام في وثيقة واحدة ، وجرى على ذلك أكثر المؤرخين ، على الرغم من أنهما وثيقتان كتبتا في زمانين مختلفين[٨٥] .

والمؤاخاة في الناس ، تكون على وجهين :

إحداهما : أخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار ..

والثانية : مكتسبة بالقصد والاختيار . فأما المكتسبة بالاتفاق .. فهي أوكد حالاً ، لأنها تنعقد عن أسباب تعود إليها . والمكتسبة بالقصد : تعقد لها أسباب ، تنقاد إليها ، وما كان جارياً بالطبع ، فهو ألزم مما هو حادث بالقصد[٨٦] !

فأما المكتسبة بالاتفاق فلها أسباب : (ما هو إلا له سبب ∴ يبتدى منه وينشعب)

١- وأول أسباب الإخاء : التجانس في حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها . فإن قوى التجانس ، قَوِى الائتلاف به ، وإن ضعف كان ضعيفاً ، ما لم تحدث علة أخرى يقوي بها

الائتلاف .. وإنما كان كذلك ، لأن الائتلاف ، بالتشاكل ، والتشاكل بالتجانس . فـإذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ، ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف .. فثبت أن التجانـس – وإن تنوع – . أصل الإخاء ، وقاعدة الائتلاف .

وقد روى يحيى بن سعيد ، عن عمر ، عن عائشة رضي الله عنهـا ، عـن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف [٨٧]" فالأرواح بالتجانس متعارفة ، وبفقده متناكرة [٨٨] .

قال الشاعر :

فلا تحتقـــر نفسي وأنت خليلها

فكل امرئ يصبو إلى من يشاكـــل

وقال أخر :

فقلت : أخي ، قالوا : أخ من قرابة

فقلت لهم : إن الشكـــول أقارب

نَسِيبي في رأيي وعزمي وهمّتي

وإن فرقتنا في الأصـــول المناسب

ثم يحدث بالتجانس .. المواصلة بين المتجانسين – وهي المرتبة الثانية من مراتب الإخاء .

وسبب المواصلة بينهما ، وجود الاتفاق منهما ، فصارت المواصلة نتيجـة التجـانس ، والسبب فيه وجود الاتفاق . لأن عدم الاتفاق منفر ، وقد قال الشاعر :

الناس إن وافقتهم عَذُبـوا — وإلا فإن جناهـم مـــرُّ

كم من رياض لا أنيس بها — تركت لأن طريقها وعْــرُ

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة .. وهي المؤانسة ، وسببها : الانبساط .

ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة .. وهي المصافاة ، وسببها : خلوص النيَّة ..

ورتبة خامسة .. وهي المودة وسببها : الثقة . وهذه الرتبة هي أوفى الكمال في أحـــوال الإخاء . وما قبلها أسباب تعود إليها . فإن اقترن بها المعاضدة .. فهي الصداقة . ثم يحـــدث عن المودة رتبة سادسة .. وهي المحبة ، وسببها : الاستحسان . فإن كان الاستحسان لفضائل النفس ، حدثت رتبة سابعة — وهي الإعظام .

وإن كان الاستحسان للصورة والحركات ، حدثت رتبة ثامنـــة .. وهـــي : العشـــق ، وسببه الطمع ، وقد قال المأمون العباسي رحمه الله تعالى :

أول العشق مـــزاح وولـــع ... ثم يزداد إذا زاد الطمـــع

كل من يهوى وإن علت به ... رتبة المُلْك لمن يهوى تبـــع

وهذه الرتبة آخر الرتب المعدودة ، وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ، ولا حالة محدَّدة ..

لأنها قد تؤدي إلى ممازجة النفوس .. وإن تميزت ذواتها ، وتفضي إلى مخالطـــة الأرواح ، وإن تفارقت أجسادها .. وهذه حالة لا يمكـــن حصـــــر غايتـــها ، ولا الوقـــوف عنـــد نهايتها..

وقد قال الكندي : " الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك " . ومثل هذا .. المـــروي عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضاً ، وكتـــب له بها كتاباً ، وأشهد فيه ناساً ، منهم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – .

فأتى طلحة إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وقال : والله ما أدري أنت الخليفة أم عمـــر ؟ . فقال : بل عمر لكنه أنا[٨٩] .

وأما المؤاخاة المكتسبة بالقصد .. فلا بد لها من داع يدعو إليها ، وباعث يبعث عليها .. وقد يكون الداعي لها من وجهين : (رغبة ... وفاقة)

فأما الرغبة : فهي أن يظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخائه ، ويُتوسَّم بجميل يدعو إلى اصطفائه ..

وأما الفاقة : فهي أن يفتقر الإنسان لوحشة انفراده ، ومهانة وحدته ، إلى اصطفاء مـن يأنس بمؤاخاته ، ويثق بنصرته وموالاته [٩٠] !! . ؟ ! وأعز ما تملكه الجماعات .. الإخاء .. فهو الرصيد الثابت ، والقاعدة الصلبة ، والمرتكز الصاعد .

والأخوَّة في الإسلام .. بلغت من السمو مبلغاً ، جعلها أساس الحياة ، ولا حياة بـدون إخاء وإخوان .

والأخوَّة في الإسلام تقوم على أصول أصيلة وقواعد متينة (منها أيضـا ....) :

٢- وحدة الأصل الإنساني ..

فالناس جميعاً على اختلاف أجناسهم ، وتمايز ألوانهم ، وتباعد أقطارهم . يرجعون إلى أب واحد وأم واحدة ، آدم وحـواء .

ولطالما ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ، وبينها في أساليب شتى ، وآيات متعددة لكـي تكون دائماً موضع الاعتبار والرعاية . قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) [٩١]

وهذه آية عظيمة تقرر أصلاً من أصول الإسلام ، وهو المساواة بين الناس .

ولقد قررت هذه الآية مبدأ ضخماً من المبادئ الإنسانية السامية .. فهي من معجـزات القرآن العظيم ، الذي أنزله الله ضياء للناس ونوراً يهتدون به ، وبرهاناً ساطعاً ينير السُّـبل أمامهم[٩٢]!!

وكان العالم قبل انبثاق نور الإسلام . يموج في الظُّلم ، ويضطرب في الفساد ، وتسـوده الهمجية ، والعصبية الجاهلية ، وتخيّم عليه ضلالات العصور القديمة ، وقد نشـر الرعـب أجنحته على الدنيا وزاد الفساد ، وتفاخر الناس بالأنساب ، وعاشوا تحـت ظـل نظـام الطبقات في هذه الظلمة الداكنة ، ينبثق فجر الإسلام ، فتبدِّد أنواره تلك الغيوم السوداء.

وتنزل هذه الآية الكريمة ، لتقرر مبدأ إنسانياً عظيماً . وهو إعلان المساواة بين البشـر ، كل البشر [٩٣] . ويهتم القرآن الكريم بالإنسانية والبشرية اهتماماً بالغاً .

و كلمة (الناس) يتكرر استعمالها في أساليب القرآن الكريم نـــحواً من مائة وأربعـــين مرة : كثير منها جاء خطاباً للبشر عموماً ، وكثير منها ورد دالاً على الجنس البشري .

وهذه أيضاً كلمة (الإنسان) .. تتكرر أكثر من ثمانين مرة .... في أساليب متنوعـــة .. عائدة بنا إلى أصل الإنسان .

ولا شك أن استعمال (الناس والإنسان) بهذا الاهتمام . يخلق في المسلم .. تربية إنسانية تعجز عنها أساليب فلاسفة العالم .. أمثال : "جان جاك رسو " ، " وهربرت سبنســـر " ، " وجون ديوي " ، " ووليم جيمس " ..

حتى كلمة (البشر) الدالة على الجنس الإنساني الواحد ، تستعمل في القرآن الكـــريم ، في أكثر من خمس وثلاثين آية .

وهكذا يهتم القرآن الكريم بكل ما من شأنه أن يوقظ في الناس أحاسيس الإنسانية .

إن الإسلام جاء ليقيـــم بين البشر رابطة الإنسانية ، القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالـــق ،"وفي إنشاء جميع البشر من نفس واحدة ، آيات بيِّنات على قـــدرة الله وعلمـــه وحكمته ووحدانيته . وفي التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته ، وإرشاد إلى مـــا يجب من التعارف والتعاون بين البشر ، وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل ، مـــدعاة إلى التآلف ، لا إلى التعادي والتقاتل ، وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس " (٩٤) ؟ !

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظـــر إلى أحسابكم ، ولا إلى أنسابكم ، ولا إلى أجسامكم ، ولا إلى أموالكم . ولكن ينظـــر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنَّن الله عليه ، وإنما أنـــتم بنـــو آدم ، وأحـــبكم إليـــه أتقاكم"(٩٥) .

والمسلمون هم أحق الناس بالحفاظ على الأخوة ، وأجدر الناس بإتباع هدى القـــرآن . وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن الأصول الأصيلة .. للأخوَّة في الإسلام .

٣- وحدة العقيدة .

ووحدة العقيدة .. من أهم الركائز لوحدة المسلمين وتكامل أخوّتهم .

وعقيدة المسلمين واحدة ، لا تختلف باختلاف جنس من الأجناس ، أو لون من الألوان ، أو مصر من الأمصار ، أو جيل من الأجيال ...

وهذه العقيدة تقوم على الإيمان بالله وبرسول الله صلى الله عليه وسلم. وبكل ما في القرآن .. وأن الإسلام هو الإسلام ، والقرآن هو القرآن . ومن آيات العقيدة في القرآن قوله تعالى : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [٩٦]

قال الإمام ابن كثير : " اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميمة ، وعقيدة مستقيمة " [٩٧] ، والآية - كما ترى - مشتملة على خمس عشرة خصلة ، ترجع إلى ثلاثة أقسام :

فالخمسة الأولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل صحة الاعتقاد ، وآخرها قوله " والنبيين " وافتتحها بالإيمان بالله واليوم الآخر ، لأنهما إشارة إلى المبدأ والمعاد .

والستة التي بعدها تتعلق بالكمالات النفسية التي هي من قبيل حسن معاشرة العباد، وأولها (وآتى المال) وآخرها (وفي الرقاب)

والأربعة الأخيرة ، تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل تهذيب النفس لوقايتها من شر الأضداد . وأولهما " وأقام الصلاة " ، وآخرها "وحين البأس " .

ولعمري من عمل بهذه الآية ، فقد استكمل الإيمان ، ونال أقصى مراتب الإيقان[٩٨] ! !

وعقيدة الإسلام واحدة لدي كل المسلمين في شرق الأرض وغربها ، وشمالها وجنوبها ، تجتمع عليها قلوبهم ، وتحفظها عقولهم ، وتستيقنها نفوسهم ، ووحدة العقيدة جدّدت بين المسلمين ما مضى من قرابة الدم القائمة بينهم .

وإذا كانت أبوة آدم - عليه السلام - أبوة مادية ، تجمع بين الأمة الإسلامية ، وتوّحد بينها في الأصل ، فإن العقيدة الإسلامية هي أبوة روحية ، ترجع إليها فروع المؤمنين .

والحق أن المؤمن حينما يستشعر جلال هذا الأصل الروحي ، الذي يجمعه وإخوانه المؤمنين - في مشارق الأرض ومغاربها - ، إلى جانب الأصل المادي الذي يرجعه معهم إلى أبوة واحدة ..

فإنه حينئذ يشعر أنه إنما يحيا بإخوانه ، ويحيا لهم ، ويحسّ وكأنه غصن من أغصان شجرة عظيمة ، يحيا بحياتها ويموت بموتها[٩٩] !

وإن رابطة العقيدة في الإسلام - وهي رابطة في المبادئ والمثل العليا - من أقوى عوامل الازدهار ، وتلك التعاليم هي أعلى وأقوى من رابطة الدم ، والنسب ، والمساكنة في الوطن، والمشاركة في القومية .

وهذا الأساس هو المنطلق الوحيد ، للخروج من قوقعة الأنانيات الفردية والقبلية والقومية ، إلى صعيد اللقاء الإنساني ، على أساس المبادئ . مبادئ الحق ، والعدل ، والخير .

وفي هذا الإطار التربوي النفسي ذاته ، عالج الإسلام النفس الإنسانية ، إعداداً لها ، لتحقيق التعارف والتعاون . فعالج آفاتها وأمراضها الحائلة دون التعاون . كالحقد والحسد والغل ، التي تثيرها دوافع النفعية للذات الفردية ، أو القبلية ، أو القومية[١٠٠] ؟

٤- وحدة الشريعة :

والأصل الرابع ... في أصول الأخوة الإسلامية . وحدة مصدر التشريع . . .

ومصدر التشريع واحد لدي المسلمين . وهو القرآن الكريم -كتاب الله - الذي أنزله ، ليكون دستور الخالق في إصلاح الخلق ، ينظم الحياة ، ويعالج النفوس ، ويقوم اعوجاج المجتمع .

قال تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) (١٠١)

وقال تعالى : (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١٠٢)

وقال تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (١٠٢)

وإن الله عز وجل ، ذكر للنور ثلاث فوائد :

الأولى : أنه يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، أي أن من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالإيمان بهذا النور ، يهديه الطريق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة ، من كل ما يرديه ويشقيه .. فيقوم في الدنيا بحقوق الله تعالى ، وحقوق نفسه الروحية والجسدية ، وحقوق الناس ، فيكون متمتعاً بالطيبات ، مجتنباً للخبائث ، نقياً ، مخلصاً ، صالحاً مصلحاً .. ويكون في الآخرة سعيداً منعماً ، جامعاً بين النعيم الحسي الجسدي ، والنعيم الروحي العقلي .

الثانيــة : الإخراج من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور التوحيد الخالص .. حيث يصبح الإنسان حراً كريماً بين الخلق ، عبداً خاضعاً بين يدي الخالق وحده .

الثالثة : الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين، في أقرب وقت ، لأنه طريق لا عوج فيه ، ولا انحراف ، ومن ثم فلا يبطئ سالكه ، أو يضل

في سيْــره .. وهو أن يكون الاعتصام بالقرآن الكريم ، على الوجه الصحيح الذي أنزله الله تعالى لأجله .. بأن تكون عقائده ، وآدابه ، وأحكامه ، مؤثّرة في تزكية النفوس ، وإصلاح القلوب ، وإحسان الأعمال.. وثمرة ذلك سعادة الدنيا والآخرة ، بحسب سنن الله في خلــق الإنسان . (١٠٤)

والقرآن الكريم .. هو وحده القادر على تنظيم علاقة الإنسان بنفسه ، وبعالمه الداخلي..

والقرآن الكريم هو وحده القادر على تحديد علاقة الإنسان بالوجود كله ...

والقرآن الكريم .. هو وحده القادر على أن يرسم للمجتمــع الإســلامي ، الخطــوط السليمة ، ويضع له الحوافظ التي تحفظ الإنسانية من التردّي والهلاك .

والقرآن الكريم .. هو وحده الذي توجد فيه الحلول المنطقية المقبولــة لكــل مــا وراء الحواس .. والقرآن الكريم .. غني بكل جوانب الحياة : الروحية ، والعقلية ، والجسمية .. والقرآن الكريم هو وحده القادر على إذكاء روح الأخوة الإسلامية ، وتدعيم المحبة بــين المسلمين .

وما دام القرآن الكريم يعمل على وحدة الصف الإسلامي ، فــلا غــرو أن يــأمر الله المسلمين .. إن دب بينهم نزاع بأن يرجعوا إلى كتاب الله .. قــال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّــذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّــهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (١٠٥)

فالرجوع عند التنازع في أي أمر إلى كتاب الله ، وسنة رسول الله .. شرط في الإيمان .. وذلك كله خيْر محض لا شر فيه أبداً .

والمسلمون إخوة بنص القرآن الكريم .. قال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (١٠٦)

وهي أخوة في الدين والحرمة لا في النسب .. ولهذا قيل أخوة الدين أثبت مــن أُخــوّة النسب ، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ، وأخــوة الــدين لا تنقطــع بمخالفــة النسب(١٠٧) .

وأخوة الدين أحق ، وأجدر أن يُهْتَم لها ، ويصلح بين المتخاصمين من المـؤمنين ، لأنها أخوة بنص كتاب الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى هو الذي عقد هذه الأخوة من فوق سبع سماوات ، وما عقـده الله – تبارك وتعالى – لا تحله يد بشر ، مهمـا قويـت وسـطت ، وظلمت . ومن عجيب أمر هذه الآية الكريمة ، أنها جاءت وكأنها قررت أمراً واقعاً مفروغاً منه ، لا يُرد ولا يُصد .. فقالت : " إنما المؤمنون إخوة " .

هكذا حكم الله ، وهكذا أخبر عن هذا العقد ، الذي ربطه في السماء بين المؤمنين ، مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينـت لغاتهم ، وتباعدت أقطارهم ، وتناءت ديارهـم .. فهـم إخْوةَ ، ، تجمعهم عقيدة خالدة ، ورسالة واحدة .....

وهكذا جاءت الجملة خبرية ، لتقرر واقعاً عظيماً ، وتخبر عنه فقالت : " إنما المؤمنـون إخوة ". ولم تأت الجملة إنشائية .. إذ لو جاءت الآية إنشائية .. لكانت الأخـوة غيـر موجودة .

ولكنه عز وجل ربط قلوب المؤمنين برباط واحد ، وعقد هذا الرباط ، ثم أخبر عن هذه الحقيقة الثابتة الواقعة . وقضى فيها بحكمه فقال : " إنما المؤمنون إخوة " .. ثم ثنّى بتقريـر هذه الحقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : " المسلم أخـو المسـلم أحـب أم كـره" .

كما قال عليه الصلاة والسلام : " المسلم أخو المسلم ، لا يظلمـه و لا يخذلـه ، ولا يعيبـه ، ولا يتطاول عليه في البنيان ، فيستر عنه السريح إلا بإذنـه ، ولا يؤذيـه بقتـار قدره(١٠٨)" ... وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صـلى الله عليه وسلم : قال :

" المؤمن مرآة المؤمن ، المؤمن أخو المؤمن ، يكف عنه ضيقه ، ويحوطه من ورائه "(١٠٩)

وهكذا فهم الصحابة الكرام هذه الأخوة ، وعاشوا فيها ، ولها ، وأصبحوا بفضـل الله تعالى إخواناً ، دعوتهم واحدة ، وأمرهم واحد ، تقاسموا الحب فيما بينهم ، وآثروا إخوانهم

على أنفسهم فقاسموهم الأموال ، ووصلوا إلى درجة من الإيثـــار ، أن يقـــول الصـــاحب لصاحبه .. هذا مالي جعلته بيني وبينك . وهاتان زوجتاي ، اختر أيتهما تشاء ، لتتزوجهـــا أنت ، بعد أن أُطلّقها وتعتدّ (١١٠).

والأخوة في الإسلام .. أسلوب تربوي بناء .. يسمو بالمجتمع .. ويصل بـــه إلى مراقـــي الفلاح ... وآثار الأخوّة .. تبدو واضحة ، في تعاون المسلمين وحبهم للقرآن ، ولرسالـــة الإسلام . وسوف يبقى المسلمون في أشد الحاجة إلي الأخوّة ، لأنها سياج يقي المجتمـــع من التعثُّر ، والتبعثر ، والأمة الإسلامية تحتاج إلى الإخاء الكامل الذي لا يعرف الحزبية .. و لا العصبية .. ولا القومية .. ولا الإقليمية .. ولا الـــيمين .. ولا اليســـار .. ولا المـــذاهب الوضعية...

وقد أتم الله للمسلمين .. وحدة الأصل .. ووحدة العقيدة ، ووحدة المصدر . ووحـــدة الشعور . ووحدة الصف .

وكانت آثار ذلك واضحة في ...

الحب في الله .. والتعاون .. والتكامل .. والمساواة .. والعدل ... والشورى . . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر .

ومن هذا المنطلق .. كانت الأمة الإسلامية تملك رصيداً ضـــخماً .. يمكـــن اســـتثماره لتحقيق الإخاء الكامـــل ... إذا ما أطاعوا الله ورسوله . .

السمع والطاعة لله ورسوله من المعنويات المهمة في مجتمـــع الإخـــاء :

بهذه الحكمة ، وبهذه الحذاقة أرسى النبي صلى الله عليه وسلم قواعد مجتمع جديد مؤمن بالله يسمع ويطيع أوامر الله ورسوله ، لأن سلوك الإيمان لدي أصحابه جعلهم ينقادون لحكم الله ورسوله مصداقاً لقوله تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١١١) ، وقوله تعالى : (فَلا وَرَبِّـــكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجـــاً مِمَّـــا قَضَـــيْتَ

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (١١٢) ، وقوله عز من قائل : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً)(١١٣) .

وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يحضُّهم على حسن الجوار فيقول : " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه " (١١٤) كما يحضُّهم على الحب والإخاء ، وعدم التحاسد والتباغض ، ويدعوهم إلى العطف والرحمة والتكافل .

يقول – صلى الله عليه وسلم – : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده "(١١٥) ويقول : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " (١١٦) ويقول : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " (١١٧) ويقول : " لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام " (١١٨) ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " (١١٩) ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر "(١٢٠) ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُرْيٍ كساه الله من خضراء الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم " (١٢١).

سمع المسلمون أوامر نبيهم فأطاعوه حباً وامتثالاً ، بل فضّلوه على آبائهم وأنفسهم ، وخير دليل على ذلك ما فعله " عبد الله بن عبد الله بن أبي " مع أبيه المنافق لما قال في غزوة بني المصطلق : " إن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل " – ويعني به النبي صلى الله عليه وسلم – فقال له ابنه : " والله لا تنقلب حتى تقرّ أنك الذليل ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – العزيز " . ففعل (١٢٢).

إن الإسلام أرسى دعائم الدولة الإسلامية وربط بها سائر القبائل والجماعات ، فانخرط الجميع في سلك الإسلام ، وبرزت فكرة الأمة الواحدة حين ذابت جميع العصبيات القبلية ، امتثالاً لأمر الله : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (١٢٣) .

بمثل هذا استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يبني في المدينة مجتمعاً جديداً ، أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ ، قام على الأخوة والمحبة والمودة ، والسمع والطاعة .

[٣- معاهدة اليهود والأعراب حول المدينة]

أ – المعاهدة مع اليهود (في يثرب) :

بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ووثق من رسوخ قواعد المجتمع المدني الإسلامي الجديد ، بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين – (إقامة المسجد ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار) – رأى أن يقوم بتنظيم علاقاته بغير المسلمين ، وكان همه في ذلك هو توفير الأمن والسلام ، والسعادة والخير للبشرية جمعاء ، مع تنظيم المنطقة التي يسكنها المسلمون في وفاق واحد ، فسَنّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز ، التي لم تُعْهدَ في عالم مليء بالتعصب والتغالي ، خاصة وأن الإسلام يطلب إلى المسلمين العدل مع غيرهم ، بل يزيد على ذلك الدعوة إلى برِّهم والإحسان إليهم ، قال تعالى : (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (١٢٤) ، كما أنه يطلب إلى النبي صلى الله عليه وسلم معاملة أهل الكتاب بالحسنى ، ودعوهم إلى الله باللّين ، قال تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (١٢٥) . وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود – كما أسلفنا – وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين ، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد ، فعقد معهم النبي صلى الله عليه وسلم معاهدة ، ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال ، والحلّ والترحال ، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام ، بل وفر لهم الأمن والسلام والمُقام ، هانئين هادئين في ظل الإسلام ، إذا لم ينقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين (١٢٦).

وجاءت هذه المعاهدة ضمن الوثيقة التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لتنظيم العلاقة بين المسلمين أنفسهم - مهاجرين وأنصار -[١٢٧] بينما يرى الدكتور أكرم ضياء العمري[١٢٨] : أنهما وثيقتان في الأصل ، لتنظيم العلاقة بين المسلمين وبعضهم ، وبينهم وبين غيرهم ، خلط بينهما بعض المؤرخين ، وأن الوثيقة الخاصة بالمسلمين كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعد غزوة بدر ، بينما وثيقة اليهود كانت بعد وصوله المدينة بخمسة أشهر فقط [١٢٩].

وأياً ما كان الأمر ، فإن المعاهدة مع اليهود اشتملت على عدة بنود أهمها[١٣٠] :

١ - " إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

٢- إن ليهود بني النجار ، ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٣- إن " جفنة " - بطن من ثعلبة - كأنفسهم ، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود (خاصتهم وأهل بيتهم) كأنفسهم ، وإن البر دون الإثم .

٤- وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك ، فبنفسه وأهل بيته فتك ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبرّ هذا .

٥- وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

٦- وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم .

٧- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٨- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٩- وإن الجار كالنفس ، غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

١٠- وإنَّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله – عز وجل – و إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقي ما في هذه الصحيفة وأبّره

١١ – وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

١٢ – وإن بينهم النصر على من دهم يثرب (المدينة) ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلهم .

١٣ – وإذا دعوا (أي المؤمنين) إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم (أي اليهود) إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم هذا على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

١٤ – وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض (الخالص) من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه .

١٥ – وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنَّه من خرج آمن ومن قعد بالمدينة آمن إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وبإبرام هذه المعاهدة مع اليهود صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية ، عاصمتها المدينة وقائدها الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و الكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين .

إن كلمة " الدستور " هي أقرب إطلاق مناسب على هذه الوثيقة، لأنها بالفعل وضعت دستور الدولة وقانونها العام ، سواء فيما يتعلق بالمسلمين أنفسهم أو فيما بينهم وبين جيرانهم اليهود ، حيث أكدت أن الإسلام دين ودولة ، ونظام يشمل كل مناحي الحياة ، يجمع المسلمين ويصهرهم في بوتقة واحدة تشملهم تشريعات واحدة قائمة على العدل و الأخوة والمساواة بين الجميع دون نظر إلى الجنس أو اللون ، كما تدل هذه الوثيقة على مدى العدالة ، و الحرية الدينية ، و الحل والترحال ، و الأمن والأمان ، وتحكيم الله ورسوله فيما يشكل بين اليهود والمسلمين ، كل ذلك كان من المهام التي اتسمت بها معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لليهود ، لكنهم قابلوها بالمكر والغدر و الخديعة – التي جبلوا عليها – مما جعل المسلمين في حل من الالتزام بما جاء فيها تجاه اليهود .

ب – مهادنة الأعراب حول المدينة :

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام في المدينة وما حولها – في المستقبل – عاهد النبي صلى الله عليه وسلم قبائل أخرى بمثل هذه المعاهدة ، خاصة القبائل المجاورة للمدينة ، والتي تقطن على طريق قريش التجاري من مكة إلى الشام ، فعاهد قبيلة جهينة وبطونها – ومساكنها بين المدينة ورابغ – على بعد ثلاثة مراحل (أي ينبع وما حولها [١٣١]) ، وكان هدف النبي صلى الله عليه وسلم من هذه المعاهدات الحد من غطرسة قريش واستكبارها، وفضلاً عن ذلك فإنه بث السرايا للاستكشاف و التعرف على الطرق حول المدينة – قبل تشريع الجهاد – للاطمئنان على أمنها ، وليظهر لليهود و مشركي العرب بالمدينة ، والأعراب من حولها ، أن المسلمين أصبحوا قوة ، بالإضافة إلى إنذار قريش بأن ينتهوا عن طيشهم وغيِّهم لأن الحال قد تغيّر ، وأن المسلمين أصبحوا أقوياء [١٣٢] .

وفي أول غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم صفر سنة ٢ هـ بعد تشريع الجهاد ، وهي غزوة الأبواء (بين المدينة و الجحفة) والتي خرج فيها يعترض عيراً لقريش لكنه لم يلحق بها ، وكانت الأبواء ، وودان منازل بني ضمرة (من كنانة) فعقد معاهدة حلف مع مخشي بن عمرو الضمري – سيد بني ضمرة في زمانه – نُصَّ فيها على : " هذا كتاب من

محمد رسول الله لبني ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ما بلّ بحر صوفه ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصره أجابوه .[١٣٣]

وفي غزوة العشيرة – من بطن ينبع – جمادى الأولى سنة ٢ هـ خرج النبي صلى الله عليه وسلم لأخذ عير لقريش ، لكن العير سبقته قبل وصوله بأيام ، وفي هذه الغزوة وادع النبي صلى الله عليه وسلم بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة[١٣٤]. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حالف قبيلة خزاعة بعد عقد الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ هـ[١٣٥] . كما وادع صلى الله عليه وسلم يهود تيماء[١٣٦] في صفر سنة ٧ هـ ، وكتب لهم بذلك كتاباً وهذا نصه : " هذا كتاب من محمد رسول الله إلى بني عاديا: إن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، و لا عداء ولا جلاء ، الليل مدّ والنهار شدّ [١٣٧] ". ولكن بعض هذه القبائل خانت العهد وتحالفت مع قريش ، فكان لابد من رد عدوانهم ، ولا يتم ذلك إلا من خلال الجهاد والحرب .

[٤ – الجهاد في سبيل الله لحماية الدعوة والدولة]

لم تكتف قريش بما فعلته مع المسلمين في مكة من تنكيل واضطهاد ، لكن عدوان كفار مكة استمر ، وزاد من غيظهم أن فاقهم المسلمون ، ووجدوا مأمناً ومقراً لهم بالمدينة ، ولذا أرسلت قريش إلى أهل المدينة يتهددونهم بالحرب إن لم يخرجوا محمداً والمسلمين من ديارهم، وحاول عبد الله بن أُبّي تنفيذ مطالب مشركي مكة ولكن حكمة النبي – صلى الله عليه وسلم – أطفأت نار حقده ، ومن كان على شاكلته من المنافقين واليهود ، ولم تفلح – أيضاً – عزيمة صدّ المسلمين من – أهل يثرب – عن المسجد الحرام ، لأن أهل يثرب توعدوا قريش بقطع طريقهم إلى الشام المار على المدينة ، وهنا لم يبق أمام كفار مكة إلا تهديد المهاجرين ، حينما أرسلوا إليهم يقولون : " لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب ، وسنأتيكم فنستأصلكم ، ونبيد خضراءكم في عقر داركم [١٣٨]" .

لكل هذا ما كان يبيت النبي – صلى الله عليه وسلم – إلا ساهراً ، أو في حرس من الصحابة – حتى نزل قوله تعالى : ((وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)) (١٣٩) ، فصرف النبي حراسه لعصمة الله له – بل إن الخطر كان يتهدد المسلمين كلهم ، ولذا كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا فيه (١٤٠) في ظل هذه الظروف الخطيرة التي باتت تهدّد كيان المسلمين بالمدينة ، أذن الله للمسلمين بالقتال لرد العدوان ، – ولم يفرضه عليهم – . قال تعالى : ((أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ....)) إلى قوله تعالى ((الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)) (١٤١)– وسنبيّن ذلك عندما نتحدث عن تشريع الجهاد (١٤٢)–. وبعد الإذن بالقتال كان من الحكمة أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش المؤدية من مكة إلى الشام ، ولتنفيذ ذلك عقد النبي محالفات مع القبائل التي تقطن حول هذا الطريق مثل جهينة، وبني ضمرة وبني مدلج – كما ذكرنا سابقاً – كما قام بإرسال البعوث والسرايا إلى هذا الطريق ، لإخافة قريش ، حتى كان شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة – أي بعد سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة في رجب سنة ٢ هـ ففرض الله القتال على المسلمين لرد عدوان الكفار ، وأنزل في ذلك آيات بينات : ((وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ......)) إلى قوله تعالى : ((وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)) (١٤٣) وبعد هذه الأوامر والإشارات القرآنية زاد نشاط المسلمين ، واشتدت نزعاتهم إلى الجهاد في سبيل الله ، ولقاء العدو في عراك دامي . يفصل بين الحق و الباطل ، لتأمين الدعوة وانتشارها ، ورد الحقوق المسلوبة ، ومكافحة العدوان (١٤٤).

وأضحى الجهاد قسمة من قسمات بنيان الدين والدولة ، يستحيل اكتمال هذا البنيان بدونه ، حسب طاقة المسلمين وجهدهم ، ولأمر ما كان الجذر اللغوي لكل من الاجتهاد والجهاد جذرا واحدا ، فالجهد هو أصلهما ، وبذل الوسع واستفراغ الجهد في

ميادين الفكر هـــو " الاجتهاد " ، وبذل الوسع واستفراغ الجهد لوضع هذا الاجتـــهاد في الممارسة والتطبيق في مختلف الميادين هو " الجهاد " الذي يحقق المقاصد والغايات الحقيقية من الاجتهاد ! إنهما وجهان لعملة واحدة هي تطبيق منهج الإسلام [١٤٥] .

إن العقيدة الإيمانية علي النحو الذي صورناه ، سمعاً وطاعة – فيما مضي – تستدعي ممن يعتنقها أن يدافع عنها ويحميها من كيد المتربصين بها ، والإسلام كنظام عالمي جـــاء ليغيِّــر الحياة ويكتسح ركامها بالحق، فلابد أن يجد من الأعداء في كل جيل من يتصـــدى لـــه – بالباطل –ويعلن الحرب عليه ، ولهذا شرع الجهاد ليحمي هذه العقيدة ونظامها الحياتي مـــن كيد المتربصين ، وهجمات الجاهلين ، ليأخذ هذا النظام مجراه العتيد في هداية البشر من غير تعويق ، ولا صد علي مر الزمن ، : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفســـدت الأرض ولكن الله ذو فضل علي العالمين " [١٤٦].

فالجهاد درع تحتمي به العقيدة ونظامها الإسلامي ، في مواجهة أعدائها والصادّين عنها، وليس وسيلة إرغام ولا سبيل قهر [١٤٧] ، إنما هو عقيدة استعلاء تبعـــث في روح المـــؤمن الإحساس بالعزة من غير كبر ، وروح الثقة من غير اغترار ، لأن الإسلام دين المسالمة مـــع المسالمين ، والردع للمعانديـــن ، وهو نور يهدي المؤمنين ونار تحرق الطغاة الآثمين ، يـــدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا جد الجد كان الصخرة التي يتحطم عليها مكر كل جبـــار عنيد ، إن الإسلام يطلب من المسلمين أن يكونوا علي حذر في وقت السلم حتى لا يؤخذوا على غرّة ، كما يدعو المسلمين إلي الجهاد والاستشهاد – زمن الحرب – من أجل عـــزة الإسلام والمسلمين ، ولا يعدل الجهاد في سبيل الله مال ولا ولد ، ولا والد ولا عشيرة ولا أهل ، لأن الدفاع عن العقيدة ، وعن ديار الإسلام من أسمي أهداف هذا الدين [١٤٨].

ومن هنا صار الجهاد – بوجه عام – مبدأً من مبادئ الإسلام التي أخذت مكانتها بـــين عقائده وفروعه ، واستقرت دعوة القرآن والسنة إلي الجهاد – علـــي عمومـــه– متعلقـــة بذمّة المسلمين جماعة وأفرادا [١٤٩] ، كقيمة عليا للحفاظ على بنيـــان المجتمـــع الجديـــــد وإعلائـــــه.

ولهذا كان مقام الجهاد عاليا في رسالة الإسلام ، بل إنه سنام أمر الإسلام، كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأس الأمر : الإسلام ، وعموده : الصلاة ، وذروة سنامه : الجهاد " (١٥٠).

وهو سياحة الأمة الإسلامية في كل ميادين الحياة ، قال صلى الله عليه وسلم :" إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله " (١٥١)، وإذا كانت بعض أمم الرسالات قد اتخذت من الرهبانية النشاط العملي الذي جسدت به دينها ، فانحصر هذا الدين في الأديرة والمغارات ، فلقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النشاط العملي لأمة الإسلام ليس الرهبنة التي تعزل الدين عن الحياة ، وإنما هذا النشاط هو الجهاد الإسلامي في مختلف ميادين الحياة(١٥٢)، حيث قال صلى الله عليه وسلم : " رهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله "(١٥٣).

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنه تخلّف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " (١٥٤).

وبادئ ذي بدء يجب علينا أن نعرف بماهية الجهاد حتى لا يظن البعض أنه يرادف القتال، ولكي لا يتشدق أعداء المسلمين اليوم بأن هذا الدين ما جاء إلا لفرض القتل و العنف والإرهاب ، فالجهاد أشمل وأعم من القتال(١٥٥) لان الجهاد يكون تارة جهاد النفس ، وتارة جهاد الخارجين علي قواعد الإسلام ، وتارة أخرى جهاد الأعداء (الكفار) والأخير هو الذي يرادف القتال ، يقول صاحب البصائر (١٥٦) : الجهاد : الطاقة والمشقة ، والجهْد (بفتح الجيم) : المشقة (وبضمها) : الوسع ، وقيل الجهاد : ما يجهد الإنسان . قال تعالي : " واقسموا بالله جهد أيمانهم " (١٥٧) أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به علي

أبلغ ما في وسعهم ، والاجتهاد : أخذ النفس ببذل الطاقة ، وتحمل المشقة ، يقال : جهدت رأيي واجتهدت : أتعبته بالفكر ، والجهاد والمجاهدة : استفراغ الوسع في مجاهدة العدو .

والخلاصة : أن الجهاد أقسام ثلاثة :

١- الأول : جهاد النفس : وهو ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله "(١٥٨) والمقصود بجهاد النفس هو ما يشمل دفعها عن غواية الشيطان ، وغرور الدنيا ، واتباع الهوي ، وإلزامها بالوقوف عند حدود الله (١٥٩) ، لان النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رجع من الغزو والجهاد يقول : " قد جئتم من الجهاد الأصغر إلي الجهاد الأكبر ، ألا وهو جهاد النفس " (١٦٠)

ولله دَرّ الشاعر العربي حين يقول :

يا من يجاهد غازيا أعداء دين ... الله يرجو أن يُعان ويُنصرا

هل غشيت النفس غزوًا إنّها ... أعدي عدوك كي تفوز وتظفرا

مهما عنّيت جهادها وعنادها ... فلقد تعاطيت الجهاد الأكبرا

وقد يطلق الجهاد ويراد به معني يشمل القتال وغيره ، كالجهاد بالمال في قوله تعالي : " الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون "(١٦١) . كما يطلق الجهاد ويراد منه جهاد النفس أيضا ، كما في قوله تعالي : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين " (١٦٢) . فالآية ، والسورة التي حوتها مكية ، ولم يفرض قتال في مكة ، والمعنيُّ بالجهاد هنا هو المعنى العام ، المأخوذ من المعني اللغوي ، الذي هو : بذل الجهد والطاقة لمجاهدة النفس والشيطان والهوى والدنيا (١٦٣) التي امتحن الله بها عباده ، والمجاهد هو الذي يخلّص نفسه من هذه الابتلاءات الأربع كما قال القائل :

إني ابتليت بأربع ما سلطوا ... إلا لشدة شقوتي و عنائي

ومثل قوله تعالي : " وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي " (١٦٤) .

وقوله : " إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْـحَابِ السَّعِيرِ (١٦٥) وقوله أيضا : "لا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ " (١٦٦).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لمـا جئـت به"(١٦٧) .

٢- النوع الثاني من الجهاد : هو مجاهدة الفُسَّاق الخارجين عن جادَّة الـدين ، وذلـك بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، بل تغيير منكرهم لمن يقدر عليه ، لأن ذلك واجـب شرعي ، كما قال الله علي لسان لقمان لابنه وهو يعظه : " يَا بُنَيَّ أَقِـمِ الصَّـلاةَ وَأْمُـرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (١٦٨).

وقوله تعالي – أيضا – : " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ " (١٦٩) ، وقوله : " وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْـرِ وَيَـأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (١٧٠)، وقول النبي صلى الله عليـه وسلم : " من رأي منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " (١٧١)، فالجهاد لمنع المنكر باليد إن كان المحتسب سلطانا أو حاكما أو عالما له قوة ومنعة ، وباللسان إن كان عالما بالكتاب والسنة ويبرهن علي كلامه بالأدلـة ، وبالقلب إن كان من العـوام ، أو يخشي الهلكة إن أمَر ونهي ، وهو ما يسـمي الجهـاد بالكلمـة (منطوقه أو مكتوبة) ، ومثله جهاد المنافقين ، كقوله تعالي : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٧٢)" ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " (١٧٣) .

كما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم عاقبة من تركوا مجاهدة الفساق ، بعدم نهيهم عـن المنكرات فقال : " إن أول ما دخل النقص علي بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجـل

فيقول : يا هذا اتق الله ودعْ ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم لعناً شديدًا فقال تعالي : " لعن الذين كفروا من بني إسرائيل علي لسان داود وعيسي بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون "[١٧٤]. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " والله لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ، ولتأخذنَّ علي يد الظالم، ولتأطرنَّه علي الحق أَطْرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم علي بعض ثم يلعنكم كما لعنهم "[١٧٥] ، كما دلّل فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه علي وجوب مجاهدة هؤلاء الخارجين عن الطريق المستقيم ، حكاما ومحكومين بكل سبيل[١٧٦] . وقد يطلق الجهاد ويراد به معني يشمل القتال وغيره ، وهو القسم الثالث من الجهاد وهو :

٣- جهاد الكفار وقتالهم : إن الجهاد في الإسلام درع تحتمي به العقيدة وأصحابها ، كما تحمي به الدولة أرضها ومواطنيها من أي عدوان خارجي في مواجهة أعداء الدين الصادِّين عنه[١٧٧] ، وليس وسيلة إرغام ، ولا سبيل قهر لغير المسلمين كما يروج البعض : أنّ الجهاد كان سبيلا لنشر الإسلام بالسيف ! . لا : إن الإسلام جعل أساس معاملته للآخرين قائما علي الرفق واللين والتسامح ، فهو لم يرغم الآخرين علي اعتناق هذا الدين وإنما أقرَّ حرية التدُّين : " لكم دينكم ولي دين " [١٧٨] ، وتأكد هذا في قوله تعالي : " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " [١٧٩]، وقوله : " لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرُّشد من الغيِّ " [١٨٠]

وفي العهد المكي خاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " [١٨١].

بل إن الإسلام يؤكد أنه لا يصلح إسلام الناس في الظاهر فقط ، وأنه لابد أن يقوم علي إخلاص صادق ، وقناعة تامة دون إكراه أو ضغط ، ولذا حرّم النفاق ، وجعل المنافقين أشد عذابا من الكفار ، فقال تعالي : " إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار " [١٨٢] .

ولهذا كانت وسائل انتشار الإسلام هي : الكلمة الطيبة والأسوة الحسنة والإقناع المجرَّد، وفي مواجهة الإسلام لأعدائه كان القتال هو المرحلة الأخيرة التي كان المسلمون يلجأون إليها مكرهين ، بعد أن تضيق بهم السبل إلي السلم ، ولا يكون أمامهم سواها للدفاع عن أنفسهم ودينهم (١٨٣) : " كتب عليكم القتال وهو كره لكم " (١٨٤).

إن الجهاد في الإسلام ورد في القرآن الكريم بلفظه ثلاثين مرة ، وورد كثيراً بلفظ القتال المرادف له ، وكلاهما يَرِدُ أحيانا مقرونا بسبيل الله (١٨٥)، ومعني ذلك أن يُقْصَد به وجه الله، والدفاع عن المثل والكيان والكرامة ، ورفع الظلم ورد العدوان ، فالقتال في الإسلام شرع من أجل غرضين أساسين :

الغرض الأول : الدفاع عن النفس من الاعتداء عليها ، وكل ما يتعلق بمتطلبات النفس، من الدفاع عن العرض ، والمال ، والأرض التي يعيش عليها المسلمون .

والغرض الثاني : الدفاع عن الدعوة الإسلامية والتعاليم الإلهية ، حماية لحاملي مشعلها والمستضعفين بسببها ، وإفساح الطرق أمام الدعوة ورسالة الحق للذيوع والانتشار ، ولم يشرع القتال في الإسلام لتثبيت ملك ، أو توسيع سلطان ، أو الغلبة والقهر ، أو استعباد الشعوب واستتراف خيراتها ، إنما شُرِع لرد العدوان ، إذ لو تُرِكَ المشركون يعتدون علي المسلمين ، ويقاومون الدعوة ، ويصدون الناس عن الدخول في دين الله ، ولم يُشْرَع القتال لطغي الباطل علي الحق ، وطُمست معالم الدعوة ، وتضرّرت البلاد والعباد ، وبقي العالم من أقصاه إلي أقصاه يئن ويرزح تحت وطأة الجهل والظلم والاستعباد (١٨٦)، والله سبحانه لا يرضي بظلم العباد ، بل يتوعد من يرضي منهم بذلك فيقول تعالي : " إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا " (١٨٧).

أجل .. لقد شرع الله القتال للمسلمين في السنة الثانية للهجرة ، أي بعد أربع عشرة سنة من الدعوة ، تعرضوا فيها للظلم والعذاب ، فأذن الله لهم به للدفاع عن الحق ، وحماية

للدعوة فقط ولم يفرض القتال عليهم حين نزل قول الله تعالي : " أذن للذين يقاتلون بـأنهم ظلموا وإن الله علي نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله "[١٨٨] .

وهذه الآية هي أول ما أنزل الله في أمر القتال [١٨٩]، ونجد النبي – صلى الله عليه وسلم – ينبه إلي أن قتاله إنما هو للدفاع ، وأن القتال لمن يقاتلهم دون من لم يقاتلهم ، ليبيّن أن هذا هو علة الأمر بالقتال ، كما ينبه إلي ترك العدوان ومجاوزة الحد في ردّ هذا العدوان ، اللهم إلا درء فتنة تحويل المسلم عن دينه ، ولم يطلب مقاتله الكفار حتى يسلموا ، إنما القتال حتى يكون الدين لله ، أي الخضوع كله لله [١٩٠] ، وهذا يحصل إذا عَلَت كلمة الإسلام ، وكان حكم الله ورسوله غالبا – كما يقول الشيخ محمد الغزالي – [١٩١]. وبعد سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة (رجب سنة ٢هـ) فرض الله القتال لرد عدوان كفار مكة على المسلمين .

ولقد بيّن الله ذلك كله بقوله تعالي : " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ "[١٩٢].

ولم يكن الرسول يتعرّض في قتاله إلا لكفار قريش دون سائر العرب ، فلما اتحد مشركو العرب في عدائهم للإسلام ، وجمعهم الحقد علي الرسول والمسلمين ، والبغض لدين الله ومحاولتهم القضاء عليه ، أمر الله بقتال المشركين كافة ، بقوله تعالي : " قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً " [١٩٣].

ولما نقض يهود المدينة العهد الذي أخذه الرسول – صلى الله عليه وسلم – عليهم وانضموا إلي مشركي قريش لقتال المسلمين – في غزوة الأحزاب سنة ٥ هـ – ، نزل قول الله تعالي : " وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ" (١٩٤).

وهكذا يأخذ الجهاد في الإسلام دور الدفاع عن الحق والنّفس ، وإقرار العقيدة ، ونصرة المستضعفين(١٩٥) ، قال تعالي : " وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا " (١٩٦).

إذن الإسلام لا يحتكر القوة ، بل يسخّرها لخدمة الحق ، وحفظ الحياة ، والدفاع عن المستضعفين في الأرض ، ومن ثم فإن ما يردّده أعداء الإسلام – قديما وحديثا – من أن الإسلام انتشر بحد السيف هو دعوي باطلة ، فالحقيقة الواضحة هي أن الإسلام انتصر علي السيف، والثابت أن حروب المسلمين علي عهد النبي صلى الله عليه وسلم فُرِضت عليهم مكرهين لرد المظالم ، ومنع الفتنة ، وقمع الطغاة ، وكسر الجبابرة ، وحماية الحق .

وقد يبدو من ظاهر هذه المعارك أن المسلمين هم الذين بادروا فيها بالهجوم ، لكن هجوم المسلمين كان علي سبيل المبادرة بالدفاع ، بعد تأكدهم من نكس الأعداء لعهودهم ، وإصرارهم علي قتال المسلمين ، وهو ما يسمي في – لغة العصر – الدفاع الوقائي ، ولو أن الكفار تركوا المسلمين في دعة واطمئنان ، ولم يحولوا بينهم وبين دعوتهم الحق ، ما تعرض المسلمون لأحد بحرب ، لان المسلمين كانوا يحبون السلام ويكرهون القتال ، علي الرغم من ضرورته لحماية الحق ، والقضاء علي الباطل(١٩٧) ، وهو ما ذكره الله تعالي بقوله : " كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ "(١٩٨).
وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : " يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ،

واسألـــوا الله العافية ، فإذا لقيتمـــوهم فاصـــبروا ، واعلمـــوا أن الجنـــة تحـــت ظـــلال السيوف"(١٩٩).

ولقد أمر الله بعدم التعرض لمن يسالمون المسلمين فقال تعالي : " فَإِنِ اعْتَزَلُـــوكُمْ فَلَـــمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً "(٢٠٠) ، وقال أيضا : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّـــهُ عَلَـــيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً " (٢٠١).

بل أمر الله ببـــرّ المسالمين ومسالمتهم والعدل معهم ، فقال تعالي : " لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَـــنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَـــارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ "(٢٠٢).

إن السلام في الإسلام هو الأصل الأصيل ، بل إن اشتقاق كلمة الإسلام من السلام فيه ما يوحي بمنهج الإسلام في الحياة ، وهو عموم السلم والأمان والطمأنينة للناس(٢٠٣): " يـــا أيهـــا الذيـــن آمنوا ادخلـــوا في السّلم كافة " (٢٠٤)، ولكنه السلام العزيز القادر :

" فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ " (٢٠٥) .

إن شريعة الإسلام تجيز لأتباعها المصالحة والموادعة ، وتحضّهم علي إنهاء الحرب، وقبول السلام متى طلب أعداؤهم ذلك ، وما دام هذا السلم لا ضرر من ورائه للمـــؤمنين(٢٠٦) . قال تعالي : " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِـــيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ "(٢٠٧) ، لكـــن إذا فرض القتال علي المسلمين لردع العدوان والدفاع عن العقيدة والدين ، كـــان علـــيهم أن يعدوا أنفسهم وما استطاعوا من قوة لدفع الخطر ، وإرهاب أعداء الله الظاهرين والمستورين، قال تعالي : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِـــهِ عَـــدُوَّ اللَّـــهِ

وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ" (٢٠٨).

فالآية تدعو المسلمين إلي الاستعداد بما في الطوق ، للقيام بفريضة الجهاد في سبيل الله ، والإسلام يأمر بإعداد القوة علي اختلاف صنوفها وأسبابها ، وجاءت كلمة " قوة " منكرة للتنويع ، لتشمل كل أنواع القوة ، وأولها قوة العقيدة ، لأنها أُسّ الفضائل ، وقوام الضمائر وسداد العزائم في الشدائد ، وبلسم الصبر عند المصائب ، وعزاء القلوب إذا نزلت بالإنسان نازلة ، فلا يوجد ما يصون الاستعداد العسكري إلا عقيدة الإيمان بالهدف ، لأنها هي التي تربط القلوب بالله ، وتصل قوة المجاهدين بالقوة الكبرى التي لا تغلب ، وقد علمتنا المعارك التي خاضها المسلمون وانتصروا فيها – سواء في غزوة بدر أو القادسية أو اليرموك ، أو حطين ، أو عين جالوت ، وحتى العاشر من رمضانَ – أن الوسائل المادية ليست وحدها هي القوة التي تفصل في المعارك بل قوة الإيمان هي الأساس ، ولو انتظر المسلمون في غزوة بدر حتى تتكافأ قوهم وقوة خصومهم ما قامت للمسلمين قائمة ، إنما القلة المؤمنة بعقيدتها استعدت بقدر ما استطاعت ، ثم خاضت المعركة ، فكان فيها الفرقان والنصر المبين علي أعداء الدين ، وأعداء الحياة المسالمة الهادئة ، ويأتي بعد ذلك قوة الرجال ، وقوة السلاح بما يتناسب مع التقدم العلمي في إعداد مسرح المعارك(٢٠٩)، وأدوات الحرب من العتاد والعدد وتوفيرها ، وإنفاق الغالي والثمين من أجلها حتى تكتمل منظومة القوة العصرية التي أمر الله رسوله والمؤمنين بإعدادها ، والمرابطة بها ، استجابة لدعوة الجهاد عند أول نداء ، ليتحقق النصر المبين علي أعداء الله ، مصداقا لقوله تعالي : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " (٢١٠).

ومعني القوة – أيضا – في قوله تعالي : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " : أنّ إعـــداد القوة هو ما يتفق مع استطاعه الأمة الإسلامية ، فلا يستساغ أن ينتظر المسلمون ريثما يـــتم إعداد قوة تكافيء قوة أعدائهم لأن ذلك قد يطول ، ويعطّل فريضة الجهاد ، ويُطْمِع الأعداء في المسلمين ، وإلا كان المسلمون قد انتظروا حتى يكملوا الاســتعداد في بــدر، ومؤتــة ، وغيرهما .

لقد خطب عبد الله بن رواحة في جنوده يشجعهم علي لقاء العدو حينما فزعوا من كثرة عدد عدوهم في غزوة مؤتة فقال[٢١١] " يا قوم إن التي تكرهونها هي الشهادة التي خرجتم تطلبونها ، والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ، ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول ، مــا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به .. انطلقوا . فوالله لقد رأيتمونا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، ويوم أحد ما معنا إلا فرس واحد . انطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهــور عليهم فذلك ما وعدنا الله ورسوله وليس لوعده خلف ، وإما الشهادة فنلحــق بــالإخوان نرافقهم في الجنان" [٢١٢].

وروي الواقدي عن أبي هريرة قال : " شهدت يوم مؤتة ... فلما دنا المشركون منّا رأينا مالا قِبَل لأحد به من العدة ، والسلاح ، والكراع ، والحرير ، والديباج ، والذهب .. فبرق بصــري : فقال لي ثابت بن الأرقم : يا أبا هريرة كأنك تري جموعا كثيرة ؟ قلت : نعم : قال : إنك لم تشهد بدر معنا ! إنا لم ننتصر بالكثرة " [٢١٣].

والأمثلة من واقع صفحات التاريخ الإسلامي كثيرة – من غزوة بدر سنة ٢ هــــ إلي العاشر من رمضان سنة ١٣٩٦ هــ – وكلها تشهد للمجاهــدين المســلمين بالصــدق والإيمان، فما كانوا يرهبون الرَّدى ، بل يقدمون غير هيابين ولا وجلين ، إلا أن يحشرهم الله مسلمين مجاهدين ، همّة كل واحد منهم أن يكون علي حد قول القائل :

ولست أبالي حين أُقتل مسلما	علي أي جنب كان في الله مصرعي

فلم ينظروا إلي كثرة جنود الأعداء ، ولم يعرفوا كم أعدّ لهم الأعداء من العُدَد ، لكنهم كانوا موقنين بإيمانهم وثقتهم في نصر الله الذي ينصر من ينصره : " إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" [٢١٤] " ، " وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " [٢١٥].

كان لهم إيمانهم الذي يدفعهم إلي الإقدام ، وهم علي حدّ قول الفيلسوف – الشاعر الباكستاني – محمد إقبال :

كُنّا جبالا في الجبال وربما سرنا علي موج البحار بحارا
كنا نُقدِّم للسيوف صدورنا لم نخش يوما غاشما جبارا
بمعابد الإفرنج كان أذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها سجداتنا و الأرض تقذف نارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة تنبت من حولنا الأزهارا (٢١٦)

من كل هذا نري أن الجهاد يجب أن يستمر، وترتقي أساليبه وتتطور تبعا لروح العصر ، وأنه لابد أن يمتلك المسلمون – باستمرار– ما يخيف العدو ليظل لواؤنا مرفوعا، وصوتنا مسموعا ، لأن من أهم وظائف الجهاد الأمور النفسية ، التي تقوم على المغالبة والمدافعة والاستعداد الدائم لدحر الأعداء ، لأن الأقدر على المغالبة والمدافعة هو الأجدر بالحياة والسيادة (٢١٧) ، وقد نبه الله عز وجل إلى أن المغالبة أمر ضروري لتحرك المجتمع المسلم ، حتى لا يفسد بالسكون والدعة فقال سبحانه : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض " (٢١٨)، ويوم تغفو أمة الإسلام عن أمجادها ، وتجبن عن مواجهة أعدائها ، يوم يبتليها الله بالذُّل والخسف والصغار : " فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا " فالجهاد ماض إلي يوم القيامة – " كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم – لأن الصراع قائم بين الخير والشر منذ آدم إلي يوم القيامة، ولقد كان قعود المسلمين عن الجهاد ، وذهاب روح الجندية منهم في عهود التخلف والضعف ، سببا في تفتيت وحدة المسلمين وتفريق كلمتهم ، وإسقاط كرامتهم ، لأنهم فقدوا الحصانة التي يكفلها لهم الجهاد المقدّس ، وإذا كانت كلمة التوحيد هي أساس حضارتنا ، فإن توحيد الكلمة هو سر بقائها ، فهل تتحد كلمتنا ، وتلتهب جذوة الجهاد من جديد في نفوس أبناء هذه الأمة لاسترداد المجد ، وتحرير الأرض ، وإرغام العدو علي التراجع ؟ ! إن حضارة القرآن لا يمكن أن تزدهر إلا إذا أمنت عدوها ، ولـذا كـان

علينا أن نظل مجاهدين ، حذرين،جماعات وأفراد : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُــذُوا حِــذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً " (٢١٩) .

ومن واقع التجربة التي خاضها أجدادنا نعرف أنهم لم يضعوا السيف عن كاهلــهم ، ولا استناموا علي هَدْهَدة الأماني ، بل صبروا وصابروا ورابطوا، وخاضوا معارك ضارية ضـــد أعداء الله ، ونازلوا أعتى دولتين في العالم – الفرس و الروم – فانتصروا عليهما ، وحكموا بلادهما بعد أن حرروا أهل هذه البلاد . وهكذا عاش المسلمون بالجهــاد أعــزة كرامــا ، والمسلمون اليوم في حاجة إلي اجتماع الكلمة علي أساس من الإيمان الصحيح ، لينطلقوا من جديد فيحرروا أرضهم ، وينقذوا تاريخهم ، ومن ثم تكن لهم الكرامة في الأرض (٢٢٠) ، وما ذلك علي الله بعزيز ، وإن الجهاد هو نعم السبيل إلي السعادة في الدنيا ، والفوز بالجنـــة في الآخرة : " جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ينجي الله بـــه من الهم والغم "(٢٢١) .

إن الإسلام دعوة للمسالمة والسماحة والعدل ، لكنه في الوقت نفسه صـــخرة تـــتحطم عليها أباطيل الأعداء ، عندما يلوح عدوانهم علي المسلمين ، فـــإذا مـــا وقعـــت الحـــرب وأصبحت حتمية فإن هناك شروطا وآداباً وتوجيهات كثيرة ، أمـــر الإســـلام أن يلتـــزم المسلمون بها، وكلها تعكس أخلاق الإسلام وقيمه الرفيعة ، فمن الشروط : النهي عن البدء بالعدوان كما في قوله تعالي : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (٢٢٢) ، ومن الآداب التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مـــن بعده ، بالالتزام بها : الوفاء بالعهود والمواثيق ، وأيضا النهي عن قتل من لا يُقاتِل – الآمنين – وتحريم المثلة ، وتحريم قطع الزروع والثمار ، وتلويث الآبار ، وهدم البيوت ، وكذا تأمين من طلب الأمان ، ويبدو ذلك التسامح والنبل والإنسانية مع الأعداء(٢٢٣) ، فيما كـــان يوصي به النبي صلى الله عليه وسلم من يرسلهم للقتال فيقول لهم : " قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا وليـــدا ولا امـــرأة ، ولا

تقطعوا شجرة ، ولا تعقروا ناقة إلا لمأكل ، وستجدون قوما يعبـــدون الله في الصـــوامع ، فدعوهم وما خلّوا أنفسهم له" [٢٢٤].

وفي الصحيحين[٢٢٥] عن ابن عمر رضي الله عنهما – قال : " وُجِدَت امرأة مقتولـــه في بعض الغزوات فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان " .

كما أوصي أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – أسامة بن زيد حين بعثه إلي الشام لقتال أهل البغي فكان مما قاله : " لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تقطعوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة .. وســوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع – وهم الرهبان – فاتركوهم وما فرغوا أنفسهم له " [٢٢٦]

هذا هو موقف الإسلام من غير المسلمين عموما ، وهو موقف يتســم بـــالرفق واللّـــين والتسامح، الذي لا نظير له مع الأعداء المحاربين ، أما موقفه من أتباع الديانات الســـماوية السابقة –خصوصا اليهودية والنصرانية – فقد بلغ درجة من التسامح واللّـــين والمـــودة ، حيث أمر الإسلام أتباعه بالإيمان بكل الأنبياء والمرسلين ، وبكتبهم المترلة التي وصفها بالهدي والنور ، بل إن الإسلام دعا إلي الإحسان لأهل الذمة المعاهـــدين ، الـــذين لم يـــدخلوا في الإسلام- بعد دعوتهم إليه بالرفق واللين – وقبلوا دفع الجزية مقابل الحماية الإسلامية ، ولم يكرههم علي الإسلام .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من ظلم معاهدا أو انتقصه حقه ، أو كلّفـــه فـــوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فأنا حجيجة يوم القيامة " [٢٢٧]. وفي هذه المعاملة أكبر دلالة علي تسامح المسلمين وعدلهم ورحمتهم ، حتى في الغزو! ومتى كـــان المســـلمون مهاجمين أو معتدين ؟ ! أفي غزوة بدر ؟! وقد سلبت ديارهم وأموالهم وأوطـــانهم وعوملـــوا بوحشية فاجرة في مكـــة . أم في غزوة أحد ؟! وقد زحف جيش الشرك علي المدينة يريـــد أن يستأصل شأفة المسلمين ! أم في الخندق ؟! وقد تواطأ الكفر مع النفاق ومـــع اليهـــود فكونوا جيشا ضخما يريدون غزو المدينة والقضاء علي من فيها ! .

أيلامُ المسلمون إذا هبّوا يدافعون عن بلادهم وعقيدتهم ؟ ! تلك هي حروب الإسلام ، وهذه هي غزوات الرسول : كانت إما لنصرة المظلوم ، وإما للدفاع عن العقيدة وعن النفس وعن الكرامة الإنسانية ، ولم تكن أبدا للظلم أو العدوان [٢٢٨].

أيمكن بعد ذلك أن يقال : إن الإسلام دين القسوة والوحشية والإرهاب ؟ فأين هي الوحشية والإرهاب ؟ وكل أهداف الجهاد هي الدفاع عن الأرض والعرض والعقيدة ابتغاء وجه الله ، وفي سبيله [٢٢٩] " الَّذينَ آمَنُوا يُقَاتلُونَ في سَبيلِ اللَّه وَالَّذينَ كَفَرُوا يُقَاتلُونَ في سَبيلِ الطَّاغُوت فَقَاتلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَان إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَان كَانَ ضَعيفاً) [٢٣٠] .

يبقي بعد ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله .. [٢٣١] " إنه في شأن المشركين عبدة الأوثان الذين يضعون العوائق في طريق هذا الدين ، ويصدّون عنه ويتآمرون عليه . أفلا يوضع حد لتآمرهم وكيدهم ؟ ! إنه لا يرد العدوان إلا الجهاد ، فالحرب في الحق شريعتنا ، ورد العدوان وكبح جماحه فريضتنا وواجبنا ، وقيمة عليا من قيم حضارتنا، وفيما عدا ذلك فإن الإسلام يعايش الأديان معايشة طيبة، وتجد في كنفه كل مودة واحترام ، بل تسامح ذهب مذهب الأمثال في حروب المسلمين ضد أعدائهم . إن الجهاد في الإسلام لم يشرع إلا من أجل الدفاع عن الحق ، ونصرة المظلوم ، ونشر الأمان والسلم في الأرض ، وتأديب الأشرار حتى لا يعيثوا في الأرض فساداً، والذين يقولون في الإسلام غير ذلك نردّ عليهم بقوله تعالي: " كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا " [٢٣٢] .

ويكفي لنرد علي دعاوي المستشرقين عن وحشية الإسلام بكلام واحد منهم هو المستشرق الفرنسي "رينان" حيث يقول : " لم ينصف المؤرخون الغربيون الإسلام باتهامهم إياه بالقسوة في الجهاد والفتوحات ، مع أن هذا الجهاد كان ضروريا لنشر العدالة التي تزدان بها التعاليم الإسلامية المشرقة " [٢٣٣]

وما يزال التاريخ يردّد قصة السماحة الدينية التي تحلّي بها الإسلام عندما جاء وفد نصارى نجران إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلهم في المسجد ، فكانوا يصلون في

جانب منه، ورسول الله مع المسلمين يصلون في جانب آخر ، ولما أرادوا مناقشة الرسول في دينهم استمع إليهم وناقشهم برفق وسماحة ، وصالحهم علي جزية عينية متواضعة ، ناسيا تاريخهم الطويل في الكيد والعداء للإسلام . كما أدخل يهود نجران أيضا في هذا الصلح وأعطاهم الحرية الكاملة في دينهم بعدل وإنصاف ، وفعل نفس الشيء مع يهود بني جنية القريبة من أيلة ، ويهود بني غاديا ، وبني عريض ، وأهل جرباء وأذرح (٢٣٤).

ولقد عاشت المساجد تجاور الكنائس والبيع دائما ، في ظل حضارتنا ، وتمارس الشعائر المسيحية واليهودية داخل الكنائس والكُنُس من غير تضييق ولا منع ، ومن نصوص حضارتنا المضيئة في أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لهم مالنا وعليهم ما علينا " (٢٣٥).

ومن أثر تلك السماحة أحب النصارى واليهود حكم المسلمين ، وفضّلوه علي حكم طوائفهم ، لأنهم كانوا يجدون في الإسلام العدالة والإنصاف ، كل هذا جعل كثيرا من الناس يدخلون في الإسلام ، لا خوفا من سيوف المسلمين ، ولا هربا من الجزية – التي هي أقل من الزكاة – وإنما إعجابا بهذا الدين وانبهارا بهؤلاء المسلمين الأوائل ، الذين كانوا نماذج متألقة، وصورا مشرقة لتعاليم الإسلام ومثله العليا ، وقيمه الحضارية ، ونخص من هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام طواعية : القبائل العربية النصرانية في شمال الجزيرة العربية ، وأهل حمص ، وشمال أفريقيا ، ومسيحي الأندلس (٢٣٦)، وما ذلك إلاّ لسماحة الإسلام وعدالة أهله عن حكامهم من الروم ، والقوط الشرقيين .

لكن الطامة الكبرى أن المسيحيين ردّوا جميل المسلمين بالتنكيل بهم زمن الحروب الصليبية ، و اليوم أيضاً الاستعمار الجديد ، والأطماع الصليبية تنكل بالمسلمين في العراق والسودان والصومال والبوسنة والهرسك ، فضلا عن اليهودية الصهيونية التي ما تزال تنكل بالفلسطينيين، والبقية آتية – لا ريب – بسبب نكوص المسلمين عن الحق ، وتعطيلهم لشرعة الجهاد ، وعمالة بعض حكامهم المستبدّين لقوي الاستكبار والهيمنة الصليبية والصهيونية .

..... وختامـــــــاً .....

وبعد .. فهذه هي المدينة الفاضلـة التي أقامهـا النبي محمد صــلى الله عليـه وســلم وليست " يوتوبيـا " يا سيــر " توماس مــور " كما تحلم ؟ أو كمـا يــذهب بـك الخيــال ، إنكاراً لشمس ساطعة ، لا ينكرها إلا من أصيب برمد في عينيــه ، وهي أيضــاً ليست مدينة الفارابي الأفلاطونيــة الطبقيــة الوثنيــة .

إنمـا هي المدينــة الفاضلــة التي أقام النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعها القويم ودولتها الفتيــة على الإخــاء والحب والتكافل والعدل – حتى – مــع غيــر المسلمين .

دولة كانت مؤسستها الأولى (المسجــد) الذي أضحى داراً للعبادة ، ومقراً للتوجيــه والقيادة ومصنــعاً للرجال في شتى مناحي الحيــــاة .

إنــها دولة الإسلام الأولى التي أقامت مجتمع ((الإخاء الإسلامي)) من بــين أشــتات وركام عرب الجاهليــة ، فصنعت منهم " خيــر أمةٍ أخرجت للنــاس " حينما اعتصــموا بحبل الله ، وأطاعوا الله ورسولــه ، فتحابوا وتكافلوا وتوادوا وصاروا " كالجسد الواحــد إذا اشتكى بعضــه اشتكى كلــه " .

إنهـا دولة الإسلام الأولى ، التي وضعت أول دستور للعلاقات الدولية بين المســلمين وغير المسلميــن ، ممن يساكنونهم في المدينة وما يجاورها ، وأقامت هذا القانون الدولي على العدل والبر والإحسان ، شريطــة أن يلتزم الآخرون بهذه المبادئ .

ومع علم قائدها (المعصوم) صلى الله عليه وسلم أن الآخرين لا يقيمون وزنــاً لهــذه المواثيــق الدولية ، لأنهم جبلوا على الغدر والخيانة وكراهية كل البشر – حسبما يصــفهم القرآن الكريــم – إلا أنه عاهدهم وعاقدهم حــتى إذا نقضــوا عهــودهم ، أُخِــذُوا ، بذنوبهــم، وليشهد التاريخ عليهــم فيما قدَّمت أيديهم ، ولأجل هذا كــان لابــد مــن الإعداد والاستعداد لمواجهة هؤلاء الخائنيــن الغادريــن ، وأمثالهم مــن أعــداء الحيــاة

والدين، فكانت حتمية الجهاد لحماية الدولة الفاضلة وأهلها المسلميـــن ، وردع عـــدوان الكافرين .

هل يُطبق المسلمون اليوم هذه المثل والأسس . والله لن يصلح آخر هذا الأمر إلا بمـــا صلح به أوله ! ، وهو إعمال كتاب الله وسنة رسوله ، وإعلاء شرعة الجهاد ضد الأعداء .. وإلا فالذلّة والهوان.... ! اللهـــم سلم يا ربنـــا ... .

وآخر دعوانـــا أن الحمـــد لله رب العاليـــــن ...

الهوامش

(١) ومثال ذلك : ما قاله بابا الفاتيكان " بندكتو السادس عشر " في خطبة له في إحدى الجامعات الألمانية سنة ٢٠٠٦ م من أن : الإسلام لم يقدم شيئاً للإنسانية سوى العنف والإرهاب والعدوان . " كبرت كلمة تخرج من أفواههـــم " .

(٢) انظر د . محمد أحمد الشحري : العلوم والفنون الإسلامية وأثرهما في تقدم أوروبا . طبعة مكتبـــة المتنبي الدمـــام سنة ١٤٢٧ هـــ / ٢٠٠٦ م صـــ ١٩ - ٣٦ .

(٣) أنظر : آراء أهل المدينة الفاضلة للمعلم (الثاني) أبي نصر محمد بن محمد الفارابي التركي . (تقديم د. طه الدسوقي حبيشي – دراسة وتحقيق القدس للدراسات والبحوث. طبعة المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة سنة ٢٠٠٢ م) صـــ ٢١ –٢٣ من مقدمة المحقق بقلم د . طه حبيشي

(٤) من هذه الخصال : أن يكون تام الأعضاء ، حسن العبارة ، جيد الفطنة و الحفظ ، محبًا للتعليم ، محبًا للصدق وأهله ، غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح ، والشهوات والللذات ، واللعب (الشرب الكثير بغير تنفس) ، كما ذكر من خصاله أيضاً أن يكون كبير النفس قوى العزيمة ، حكيماً عليماً مستـطاً ذا رأي جيد ، ومعرفة بشرائع الأوليـــن ، وأن يكون المال عنده هيـّـن (أنظر الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة صـــ ١٩٧ – ٢٠٠) .

(٥) انظر : الفارابي : المرجع السابق : صـــ ١٨٣ – ١٨٥ .

(٦) أنظر : الفارابي : المرجـــع السابق صـــ ٢١٨ .

(٧) أنظر : الفارابي : المرجـــع السابق صـــ ٢١٩ ، ٢٢٣ – ٢٢٤ .

(٨) أنظر : تعليقات د . طه حبيشي في مقدمتـــه لكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة صـــ ١١ – ١٧ (طبعة القاهرة سنـــة ٢٠٠٢ م) .

(٩) أنظر . د . محمد الشحـــري : مرجع سابق صـــ ١٨٣ – ١٨٦ .

(١٠) د . عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة صـــ ٢-٣ ، ٢٨-٢٩ (طبعة دار المعارف القاهرة ســـة ١٩٦٩ م) .

(١١) أنظر : د . محمد الشحري · مرجع سابق صـــ ١٩٨ – ١٩٩ .

(١٢) إن الترجمة الحرفية لهذا الكتاب هي : الكوميديا الممتازة ، وإنما نعتها بالإلهية ليضفي عليها قسطاً من القداسة والمهابة في عيون مواطنيـــه ، ليبدأوا في إصلاح الكنيسة من داخلها ، قبل أن يفرض عليها هذا الإصلاح رغم أنف رجالها ، كما فعل مارتن لوثر في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (أنظر د . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق صـــ ٤٥ .

(١٣) د : عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق صـ ٤٧ .

(١٤) يوتوبيا : كلمة لا تينية ، معناها : لا وجود لها " No where " أنظر : د : عبد العزيز الشناوي · مرجع سابق ص٦٩ هـ١ .

(١٥) أنظـــر : د . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق صـ ٦٩ - ٨٠ ، و سير توماس مور : يوتوبيا صـ ٥٧ - ٢٣١ (ترجمة د. إنجيل بطرس) تقديم د . زكي نجيب محمود ،ـ طبعة مكتبة الأسرة القاهرة سنـــة ٢٠٠٠ ، وانظر تقديم د . زكي نجيب محمود لنفس الكتاب ص ٩-٥٢ ، وعرضه القيم لموضوعات " يوتوبيا " في مجلة : تراث الإنسانية المجلد الأول ص ٣٦٨ -٣٨٥ .

(١٦) سورة الملك : الآية ١١ .

(١٧) انظر : صفى الرحمن المباركفوري : الرحيق المختـــوم (طبعة أولى النهى للإنتاج الإعلامي مكـــة المكرمة ١٤٢٢ هـ) صـ ١٨٢.

(١٨) انظر : د /محمد لقمان السلفي:الصادق الأمين (طبعة دار الداعي للنشر . الرياض ١٤٢٧هـ) صـ ٢٨٤- ٢٨٥

(١٩) انظر صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم صــــ ١٨٣ .

(٢٠) سورة الجمعة : الآية٢ ، وانظر : المؤلف : مقومات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية (بحث منشور في حولية كلية اللغة العربيـــة بالقاهـــ ة– عدد ٢٣ - في سنـــة ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦م.

(٢١) سورة الأنفال : الآيـــة ٢ .

(٢٢) لقد حاول اليهود عبر العصور تفتيت وحدة الأوس والخزرج وإثارة الشقاق والحروب بينهم ، وآخر ذلك " يوم بعاث " الذي كان قبل الهجرة بخمس سنوات ، وهَزَمَ فيه الأوس الخزرج الذين طالما غلبوهم من قبل، لتفوق قواهم عليهم عدداً وعدة ، حتى لجأت الأوس إلى محالفة يهود النضير وقريظة ـــ فغلبتهم في بعاث ـــ ولكن الأوس فطنوا لخطورة الإجهاز على الخزرج ، لأن هذا يمكّن اليهود من السيطرة على يثرب ، وكان من نتيجة هذا الانتباه السديد أن اتفق الأوس والخزرج على اختيار " عبد الله بن أبي بن سلول " ملكاً للجميع ، لكونه وأهله قد وقف على الحياد في " يوم بعاث " وكان لدى الأوس والخزرج شعور قوي بمرارة الحرب الطاحنة التي استمرت بينهم سنوات كثيرة ، وقضت على كثير من مقاتليهـــم وثروتهم ، وأوصلتهم إلى حافة الهلاك والدمار ، وقــــد رافق شعورهم بالخطر هذا دخول الإسلام في بيوتهم (بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية) ثم هجرة النبي والمسلمين إليهم ، مع بشائر التآخي والسلام بين المسلمين ، فكانت نفوس عرب يثرب على استعداد كامل لقبول دعوة الإسلام رحمة من الله بحالهم ، وشفقة عليهم (أنظر د . محمد لقمان السلفي : الصادق الأمـــين صـ ٢٨٦ - ٢٨٧) .

(٢٣) أنظر : صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢٤) أنظر : صفي الرحمن المباركفوري : مرجع سابق صـ ١٨٤ ، وأبو الحسن علي الحسني الندوي : السيرة النبوية صـ ٢٠٢ – ٢٠٤ (الطبعة الثانية دار الشروق جدة سنة ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٦م)، و د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـ ١٢٠ – ١٢١ .، صـ ٣١٩ .

(٢٥) أنظر : د محمد لقمان السلفي : الصادق الأمين صـ ٢٨٥ .

(٢٦) سورة آل عمران: من الآية٧٥ .

(٢٧) أنظر : المباركفوري ، مرجع سابق صـ ١٨٤- ١٨٦ ، ود . محمد السلفي : مرجع سابق صـ ٢٨٥ – ٢٨٦ ، وأبو الحسن الندوي : مرجع سابق صـ ٢٠٤ – ٢٠٦

(٢٨) ابن هشام : السيرة النبوية (تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي .طبعة دار المعرفة بيروت ٢٠٠٤ م) ج ١ صـ ٤٦٤ – ٤٦٥ ، و البخاري : الصحيح ج١ صـ ٤٥٩ ، (طبعة الهند ١٣٨٧ هـ) .

(٢٩) أنظر ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ صـ ٤٦٧ – ٤٦٨ ، والبخاري : الصحيح ج ١ صـ ٥٥٦ ، و د . السلفي : الصادق الأمين صـ ٣١٣ .

(٣٠) أنظر : المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ١٨٧ .

(٣١) كان اسم المدينة المنورة القديم (يثرب) ومعّناه : ذميم متشاءم به ، لأن الثّرب فساد في كلام العرب ، والتثريب هو : اللوم و التعيير (لسان العرب لابن منظور مادة : ثرب) وكانت :" يثرب " اسماً شائعاً تقصد وتعرف به هذه المدينة ،.كما ورد ذكره في القرآن الكريم : " يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا " – آية ١٣ الأحزاب وقد ورد في حديث صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير اسمها من يثرب إلى " المدينة "، ونهى عن استخدام اسمها القديم ، وقال : " هي طابة " ،كما قال: " هذه طابة " (مسند الإمام أحمد ج ١ صـ ٢٢١ ، ج ٤ صـ ٢٨٥) .

(٣٢) انظر أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة انطلاقة وبناء (طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . القاهرة سنة ١٩٧٨م) ص ٧٥ – ٧٦ .

(٣٣) كان النبي صلى الله عليه وسلم قد هاجر من مكة صحبة أبي بكر الصديق ليلة ٢٧ صفر سنة ١٤ من النبوة متجهاً إلى يثرب للإقامة والحماية ، بعد أن أمر أصحابه بسبقه إليها ، بناء على مبايعة الأوس والخزرج (الأنصار) له في بيعة العقبة الثانية ، في موسم الحج المنصرم سنة ١٣ من النبوة .

(٣٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ صـ ٤٤٧ – ٤٤٨ ، ٤٥١ .

(٣٥) أنظر البخاري : الصحيح ج ١ صـ ٧١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ . وابن القيم : " زاد المعاد ج ٢ صـ ٥٦ . الطبعة المصرية ١٩٢٨ م (الطبعة الأولى) .

(٣٦) الحديث في : صحيح مسلم ح ١ صـ ١٢٩ .

(٣٧) الحديث في : صحيح مسلم جـ ١ صـ ٢٨٥ .

(٣٨) الحديث في صحيح البخاري برقم ٤٦٣٩ ، و انظر فتح الباري لابن حجر ج ٩ صـ ٦٦ (طبعة الريان القاهرة سنة ١٩٨٩ م) .

(٣٩) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ صـ ٥٦٩ ، ٥٩٧ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـ ٢٣٦ .

(٤٠) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة انطلاقة وبناء صـ ٧٧ – ٧٩ .

(٤١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ صـ ٧ .

(٤٢) الحديث في : صحيح البخاري برقم ٤٤٧٤ ، وفي سنن أبي داود برقم ١٤٥٨ .

(٤٣) الحديث في : سنن النسائي ج ٢ صـ ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٤٤) انظر : د . عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ٨١ ، ٨٣ .

(٤٥) انظر : ابن هشام : السيرة ج ٢ صـ ٤٢٦ – ٤٢٧ . وانظر نص الحديث في : صحيح مسلم ج٤ ص١٩٣٩ ، وسنن النسائي ج ٢ صـ ٤٨ .

(٤٦) أنظر : أحمد عبد الرحيم السايح ، مرجع سابق صـ ٩١ – ٩٢ .

(٤٧) الحديث في سنن النسائي ج ٢ صـ ٧٩ .

(٤٨) الحديث في صحيح البخاري ج ٢ صـ ٥٩٣ ، وانظر القصة في : المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٣٩٥ – ٣٩٦ .

(٤٩) أنظر : ابن هشام : السيرة ج ٢ صـ ٢٠٢ – ٢٠٤ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـ ٣٣٠ .

(٥٠) سورة التوبة الآية :١٠٢ .

(٥١) أنظر : أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ٨٩ – ٩٢ ، و توفيق سبع : قيم حضارية ج٢ صـ ٢٢٠ . .

(٥٢) سورة المائدة : الآيات ٨٢ – ٨٤) .

(٥٣) أنظر ما يأتي في هـ ٤ صـ ٢٦ .

(٥٤) الحديث وارد في : سنن أبي داود ج ٢ صـ ٣٥٧ .

(٥٥) أنظر ابن هشام : السيرة البوية ج ٢ صـ ٧٢ ، صـ ١٩٦ ، ٢١٣ .

(٥٦) ا أنظر : أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ٩٤ – ٩٥ .

(٥٧) الحديث وارد في صحيح مسلم ج١ صـ ٢٥٤ طبعة بيروت سنة ١٩٥٣ م .

(٥٨) الحديث وارد في ضعيف الحديث للألباني .

(٥٩) انظر : الألباني : ضعيف الحديث .

(٦٠) الحديث في صحيح مسلم جـ ١ صـ ٢٦٢ طبعة بيروت .

(٦١) سورة التوبة : الآية ١٨ .

(٦٢) سورة البقرة : الآية ١١٤ .

(٦٣) أنظر : دلائل النبوة للبيهقي ج ٢ صـ ٥٣٨ وما بعدها ، وابن كثير : السيرة النبوية ج ٢ صـ ٣٠٢ وما بعدها .

(٦٤) عبد الحليم الجندي : القرآن والمنهج العلمي المعاصر (طبعة القاهرة ١٩٨١ م) صـ ١٠٦ .

(٦٥) د.محمد الخطيب : تاريخ العلم في الإسلام صـ ١١ – ٢٦ . (طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ م) .

(٦٦) مجلة البحوث الإسلامية العدد الأول صـ ١٦الرياض ..

(٦٧) سيرة النبي لابن هشام . ج١ صـ ٤٥٥ .

(٦٨) سورة : الأنفال الآية : ٧٥ .

(٦٩) ابن القيم : زاد المعاد جـ٢ صـ ٥٦ ، وانظر د . السلفي : الصادق الأمين صـ ٢٩٥ .

(٧٠) انظر : محمد الغزالي : فقه السيرة صـ ١٤٠ – ١٤١(طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م) .

(٧١) صحيح البخاري : جـ ١ ص ٥٥٣ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـ ١٩١ ، د . محمد السلفي : مرجع سابق صـ ٢٩٤ .

(٧٢) سورة الحشر : الآية رقم ٩ .

(٧٣) الدين والحياة . ع ١١٩ صـ٦ . وزارة الأوقاف المصرية ، وأحمد عبد الرحيم السايح: الهجرة صـ ٩٨ – ١٠٠

(٧٤) القرطبي: تفسير القرآن. جـ١٨ صـ٢٤..

(٧٥) المراغي : تفسير القرآن .. جـ٢٨ صـ ٣٤ ..

(٧٦) ا بن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ٤صـ٣٣٨ . بتصرف

(٧٧) الزمخشري : الكشاف . جـ٤ صـ٨٤ ..(طبعة القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

(٧٨) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ٤صـ٣٣٨ . والحديث رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (البخاري : الصحيح ج ١ صـ ٥٥٣)

(٧٩) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ٤صـ٣٣٧ . والحديث رواه البخاري في : الصحيح ج ١ص ٣١٢.

(٨٠) سورة الفتح : من الآيـــة ٢٩ .

(٨١) سورة الأنفال : الآيـــة ٨٥ .

(٨٢) لم يحصل بعض المهاجرين الفقراء بعد مجيئهم إلى المدينة على عمل يدّر عليهم لقمة العيش ، كما لم يجدوا لهم مأوى خاصة من تدفق منهم – بعد عقد المؤاخاة – على يثرب ، وكثير منهم لم يكن لديه خبرة بالزراعة (حرفة أهل المدينة) ولم يكن لديه مال ليتاجر به ، لم ينس النبي – صلى الله عليه وسلم – هؤلاء، فلما تحوّلت القبلة إلى الكعبة ، وبقي حائطها في مؤخرة المسجد النبوي ، أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بتظليله وتسقيفه وأسماه الصُّفّة ، وأنزل فيه الفقراء وغرباء المسلمين ، وكل من طلب حياة الزهد ، وأجرى عليهم النبي – صلى الله عليه وسلم – والمسلمون الأرزاق ، فعاشوا وتفرغوا للعبادة وتحصيل العلم من النبي– صلى الله عليه وسلم – ، فإذا جاء وقت الجهاد أسهموا فيه (انظر د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـــ ١٩٥ – ١٩٦).

(٨٣)انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم صـــ ١٩١ .

(٨٤) انظر : نص الوثيقة في : ابن هشام السيرة جـــ ١ صـــ ٤٥٢ – ٤٥٣ ، و د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـــ ٢٩٩ – ٣٠١ .

(٨٥) انظر : أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة صـــ ١٠٧ وما بعدها (طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ســــنة ١٤٢٢هــ) .

(٨٦) الماوردي : أدب الدنيا والدين ، صـــ ١٤٠ (المطبعة الأميرية ١٣٤٦ هــ / ١٩٢٨ م) .

(٨٧) أنظر الحديث في : صحيح مسلم ج ٤ صـــ ١٦٣٨ .

(٨٨) الماوردي : مرجع سابق صـــ ١٤١ .

(٨٩) الماوردي : أدب الدُّنيا والدين صـــ ١٤٢ ، و أحمد عبد الرحيم السايح ، مرجع سابق صـــ ١٠٧ وما بعدهـــا

(٩٠) الماوردي : أدب الدنيا والدين صـــ ١٤٢ بتصرف واختصار .

(٩١) سورة : الحجرات : من الآية : ١٣ .

(٩٢) محمد محمود الصواف: نظرات في سورة الحجرات صـــ ١٤٧(طبع مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨١ م)

(٩٣) محمد محمود الصواف : المرجع السابق صـــ ١٤٨ .

(٩٤) المراغي : تفسير القرآن . الجزء السابع صـــ ٢٠١ .

(٩٥) انظر : الشيخ : منصور علي ناصف : التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ج ١ صـــ ٦١ (طبعة جريدة صوت الأزهر . القاهرة سنة ٢٠٠٠ م) .

(٩٦) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

(٩٧) ابن كثيـــر : تفسير القرآن صـــ ٢٠٧ .

(٩٨) الألوسي : تفسير القرآن . الجزء الأول صـــ ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٩٩) المسلمون أمة واحدة عدد رقم ١٠١ صـــ ١٣مجلة (الدين والحياة) : وزارة الأوقاف المصرية . ١٣٩٣ هـــ

(١٠٠) استراتيجية العالم الإسلامي صـــ ٩٥ . مجلة وزارة الحج والأوقاف السعودية ذو الحجة ١٣٩١هـــ .

(١٠١) سورة : المائدة : الآية ٤٨ ، ٤٩ .

(١٠٢) سورة البقرة : الآيـــة ٢ – ٥ .

(١٠٣) سورة : المائدة : الآيتـــان ١٥ – ١٦ .

(١٠٤) الشيخ محمد رشيد رضا : تفسير المنار . الجزء السادس صـــ ٣٠٥ (طبعة الهيئة العامة للكتاب – القاهرة سنـــة ١٩٦٩ م) .

(١٠٥) سورة النساء : الآية : ٥٩ .

(١٠٦) سورة الحجرات : الآية ٩ .

(١٠٧) تفسير القرطبي : ج ١٦ صـــ ٣٢٢ .

(١٠٨) الحديث وارد أيضاً في : صحيح البخاري ج ٢ صـــ ٨٩٦ .

(١٠٩) الحديث وارد في : صحيح البخاري ج ٢ صـــ ٨٩٣ .

(١١٠) الشيخ محمد الصواف : نظرات في سورة الحجرات صـــ ١٠٧ – ١٠٨ وأنظر ما سبق صـــ٢٤.

(١١١) سورة النور: الآيـــة ٥١

(١١٢) سورة النساء: الآيـــة : ٦٥

(١١٣) سورة الأحزاب: الآيـــة : ٣٦ .

(١١٤) رواه مسلم ونقله ولي الدين التبريـــزي في مشكاة المصابيح جـ ٢ صـ ٤٢٢ طبعة الهند د .ت.

(١١٥) صحيح البخاري : ج ١ صـــــ ٦١ .

(١١٦) صحيح البخاري : ج ١ صـــــ ٦١ .

(١١٧) صحيح البخاري جـ٢ صـــ ٨٩٠ .

(١١٨) صحيح البخاري جـ ٢ صـــ ٨٩٦ .

(١١٩) سنن أبي داود جـ ٢ صـ ٣٣٥ ، و سنن الترمذي جـ ٢ صـ ١٤ .

(١٢٠) صحيح البخاري جـ ٢ صـ ٨٩٣ .

(١٢١) الحديث وارد في سنن أبي داود ، وجامع الترمذي ، ومشكاة المصابيح جـ ١ صت ١٦٩ .

(١٢٢) أنظر : سنن الترمذي جـ ٥ صـ ٩٠ .

(١٢٣) سورة الأنبياء: الآية : ٩٢ .

(١٢٤) سورة الممتحنة الآية : (٨ ، ٩)

(١٢٥) سورة آل عمران : الآية : ٦٤ .

(١٢٦) انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ١٩٦ ، والدكتور محمد السلفي . الصادق الأمين ص ٣٠١ ، وأحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ١١٩ – ١٢١ .

(١٢٧) انظر : ابن هشام : السيرة جـ ١ صـ ٤٥٢ – ٤٥٤ .

(١٢٨) : د. أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة صـ ١٠٧ – ١١٢ ، و انظر : د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـ ٢٩٨ – ٣٠١ .

(١٢٩) أنظر ما سبق صـ ٢٨ من هذا البحث .

(١٣٠) نقلنا نصوص هذه المعاهدة من : المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ١٩٧ ، و د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـ ٣٠٢ – ٣٠٣ ، بتصرف ، لوجود اختلاف بين المصدرين في ترتيب هده البنود وزيادة ونقصان في بعضها ، وفي اعتماد الزيادة رجعنا إلى (ابن هشام : السيرة النبوية صـ ٤٥٣ – ٤٥٤ لأنه هو الأصل) ، وانظر : أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة صـ ١٠٧ – ١٣٦ .

(١٣١) انظر : محمد السلفي : الصادق الأمين صـ ٣٠٦ – ٣٠٧ ، و المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٢٠٠ .

(١٣٢)المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٢٠٠ ، و د . السلفي : الصادق الأمين صـ ٣٠٦ – ٣٠٧ .

(١٣٣) المباركفوري : مرجع سابق صـ ٢٠٢ نقلاً عن المواهب اللّدنية للقسطلاني ج ١ صـ ٧٥ (المطبعة الشرقية ، القاهرة سنة ١٩٠٧ م) ، وابن هشام : السيرة ج ١ صـ ٥٢٤ .

(١٣٤) ابن هشام : السيرة ج ١ صـ ٥٣١ ، وابن كثير : السيرة النبوية ج ٢ صـ ٣٦١ – ٣٦٣ ، وإبراهيم العلي : صحيح السيرة النبوية صـ ٢١٤ (طبعة عمان الأردن) ، وابن القيم : زاد المعاد ج٢ صـ ٨٤ (المطبعة المصرية سنة ١٩٢٨ م) .

(١٣٥) ابن هشام : السيرة ج ٢ صـ ٢٧١ ، والمباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٣٥٧ .

(١٣٦) تيماء : قرية تقع إلى الشمال من خيبـــر وهي إلى الشام أقرب من الحجاز وكانت آخر معاقل اليهود ، وقد أجلاهم عنها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في خلافته (د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـــ ٣٢٨ ، ٥٧٠) .

(١٣٧) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ صـــ ٢٨٠ ، و المباركفوري : مرجع سابق صـــ ٣٩٣ .

(١٣٨) أنظر في هذا المعنى ما ورد من أحاديث في صحيح البخاري ج ٢ صـــ ٥٦٣ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـــ ١٩٨ – ١٩٩ .

(١٣٩) سورة المائدة : من الآيـــة ٦٧ .

(١٤٠) أنظر سنن الترمذي ج ٢ صـــ ١٣٠ ، والمباركفوري مرجع سابق صـــ ٢٠٠

(١٤١) سورة الحج : الآيات ٣٩ – ٤١ .

(١٤٢) أنظر ما يأتي صـــ ٤٨ – ٤٩ من هذا البحث .

(١٤٣)سورة البقرة : الآيات ١٩٠ – ١٩٣ .

(١٤٤) أنظر المباركفوري : الرحيق المختوم صـــ ٢٠٠ – ٢٠٧ .

(١٤٥)د . محمد عمارة : معالم المنهج الإسلامي (طبعة القاهرة سنـــة ١٩٨١ م) صـــ ٢٥١ – ٢٥٣ .

(١٤٦) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

(١٤٧) انظر : توفيق سبع : قيم حضارية ج٢ صـــ ٢١٦ – ٢١٧ ، د . محمد جبر أبو سعدة : دراسات في تاريخ الحضارة والفكر صـــ ٨٦ (ط القاهرة ٢٠٠١ م) .

(١٤٨) أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة انطلاقة وبناء صـــ ١٢٩ – ١٣٠ ، د . محمد أبو سعده : مرجع سابق صـــ ٨٦ ، د . عبد الحليم عويس : حقوق الإنسان في الإسلام صـــ ١٣٤ – ١٣٥ (طبعـــة جدة ، السعودية ، ١٩٧٨ م) .

(١٤٩) الإمام الصنعاني : سبل السلام ج ٤ صـــ٥٤ .

(١٥٠) رواه الترمذي في : السنن ج٩ صـــ ٢٠٢ ، والنسائي · السنن ج ٦ صـــ ٤٢٨ .

(١٥١) رواه أبو داود في : السنن ج٦ صـــ ٤٩١ ، السنن الكبرى للبيهقي ج ٩ صـــ ١٦١

(١٥٢) د . محمد عمارة : مرجع سابق صـــ ٢٥٣ – ٢٥٤ .

(١٥٣) رواه الإمام أحمد في : مسنده ج ٣صـــ ٢٦٦، وذكره الألباني وضعَّفه في السلسلة الضعيفة ج٢ صـــ ٥٤ .

(١٥٤) رواه مسلم في : صحيحه ج١ صـــ ١٦٨، والبيهقي في : السنن الكبرى ج١٠ صـــ ٩٠ .

(١٥٥) د. محمد عمارة : مرجع سابق صـ ٢٥٣ ، وأحمد السايح : مرجع سابق صـ ١٣٠ ، و د محمد سيد طنطـاوي (شيخ الأزهر) : حوار هادئ مع بابا الفاتيكان بعنوان : هذا هو الإسلام (هدية مجلة الأزهر لشهر ذي القعدة سنـة ١٤٢٧ هـ) صـ ٣٤ ، د . عد الحليم عويس · مرجع سابق ص ١١٨ .

(١٥٦) الفيروز أبادي . بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيـز (طبعـة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية د.ت) ج٢ صـ ٤٠١ ، و محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر : هذا هو الإسلام صـ ٣٣ – ٣٤ .

(١٥٧) سورة الأنعام : الآية ١٠٩ .

(١٥٨) الحديث في مسند أحمد ج ٤٨ صـ ٤٨٧ ، و صحيح ابن حبان ج ٢٠ صـ ٢٤٥ .

(١٥٩) محمد سيد طنطاوي : هذا هو الإسلام صـ ٣٤ ، و د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١١٨، ١٢٣.

(١٦٠) رواه البيهقي في الزهد ج١ صـ ٤٢ ، وضعفـه الألباني .

(١٦١) سورة التوبة : الآية : ٢٠ .

(١٦٢) سورة العنكبوت : الآية ٦٩

(١٦٣) أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة صـ ١٣٦ – ١٣٨ ، د . عد الحليم عويس مرجع سابق صـ ١٢٣

(١٦٤) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

(١٦٥) سورة فاطر : الآية ٦ .

(١٦٦) سورة لقمان : من الآية ٣٣

(١٦٧) الحديث وارد في · الإبانة الكبرى لابن بطة ج١ صـ٢٩٨ ، (ط الرياض ، السعودية ١٤١٨ هـ) ، من حديث عد الله بن عمرو، وابن أبي عاصم كتاب السنة ج١ /٢١ . (ط بيروت سنـة ١٤٠٠ هـ) .

(١٦٨) سورة لقمان · الآية ١٧

(١٦٩) سورة آل عمران : الآية ١١٠

(١٧٠) سورة آل عمران : الآية ١٠٤

(١٧١) انظر . صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ صـ ٢١ طبعة القاهرة د ت .

(١٧٢) سورة التوبة · الآية ٧٣ ،وسورة التحريم : الآية ٩ .

(١٧٣) الحديث أخرجه النسائي : السنن ج١٣ صـ ١٢١ ، ومسند أحمد ج ٢٢ صـ ٢٦١

(١٧٤) سورة المائدة : الآيتان ٧٨ – ٧٩ .

(١٧٥) انظر : سنن أبي داود – واللفظ له – ج٤ ، صـ ٥٠٨ طبعة دمشق ، وسس الترمذي : كتاب التفسير حديث رقم ٣٠٥١ (طبعة الحلبي القاهرة سنة ١٣٣٧ هـ) والأَطْرُ : هو الإلزام بإتباع الحق والبعد عن الظلم .

(١٧٦) للمزيد من التفصيل انظر في هذا الموضوع المؤلف : الحسبة في الإسلام (نظام رقابي متبادل بين الأمة والحكام) صـ ١٥ – ٦٠ ، صـ ١١٣ – ١٢٨ طبعة القاهرة ١٩٩٥ م .

(١٧٧) محمد المبارك : نظام الإسلام (الحكم والدولة) صـ ١٢٥ (ط . رابعة دار الفكر – دمشق ١٩٨١م) .

(١٧٨) سورة الكافرون : الآية ٦ .

(١٧٩) سورة الكهف :الآية ٢٩ .

(١٨٠) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

(١٨١) سورة يونس : الآية ٩٩ .

(١٨٢) سورة النساء : الآية ١٤٥ .

(١٨٣) انظر : توفيق سبع قيم حضارية ج٢ صـ ٢١٧ ، ٢٢١ ، د . محمد الحطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـ ٢٦٠ – ٢٦١ (الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٠م)

(١٨٤) سورة البقرة : الآية : ٢١٦ .

(١٨٥) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة صـ ١٣٨ .

(١٨٦) أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ١٣٥، وأنظر : محمد المبارك : مرجع سابق صـ ١٢٥، د . محمد سيد طنطاوي: هذا هو الإسلام صـ٣٣ ، د . محمد أبو سعدة . مرجع سابق ص٨٦.

(١٨٧) سورة النساء : الآية ٩٧ .

(١٨٨) سورة الحج : الآيتان ٣٩– ٤٠ .

(١٨٩) انظر د : محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـ ٢٦٧ نقلا عن ابن القيم . زاد المعاد في هدي خير العباد ج ٣ صـ ٧٠ (ط بيروت ١٩٨٥م) .

(١٩٠) محمد المبارك : مرجع سابق صـ ١٢٥ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ، ص ٨٦ ، د . محمد فتحي عثمان : حقوق الإنسان بين الشريعة والفكر القانوني صـ ٢٢ (ط دار الشروق القاهرة ١٩٨٢ م) .

(١٩١) محمد الغزالي : مائة سؤال عن الإسلام جـ ١ صـ ١٠٨ (ط القاهرة طبعة ثانية سنة ١٩٨٣م)، وانظر توفيق سبع : قيم حضارية ج٢ صـ ٢١٧ – ٢١٨ ، ود . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـ ١٦٩– ١٧٠ .

(١٩٢) سورة البقرة : الآيات ١٩٠– ١٩٤ .

(١٩٣) سورة التوبة : الآية ٣٦ .

(١٩٤) سورة الأنفال : الآية : ٥٨ .

(١٩٥) محمد المبارك :مرجع سابق صـ ١٢٦ ، محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٣– ٣٤ ، د. عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١٢٢ .

(١٩٦) سورة النساء : الآية ٧٥ .

(١٩٧)د . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـ ٢٧٠ – ٢٧١ ، د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١٢٩ – ١٣١ .

(١٩٨) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .

(١٩٩) صحيح مسلم : ج٣ صـ ١٣٦٢ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي طبعة بيروت د. ت ، وصحيح البخاري ج١٠ صـ١٢٤ .

(٢٠٠) سورة النساء : الآية ٩٠ .

(٢٠١) سورة النساء : الآية ٩٤ .

(٢٠٢) سورة الممتحنة : الآيات ٨ – ٩ .

(٢٠٣) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٥ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق صـ ٨٦ .

(٢٠٤) سورة البقرة : من الآية ٢٠٨ .

(٢٠٥) سورة محمد : الآية : ٣٥ .

(٢٠٦) د محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٤٠ .

(٢٠٧) سورة الأنفال : الآيتان : ٦١ ، ٦٢ .

(٢٠٨) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

(٢٠٩) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة صـ ١٣٠ – ١٣٣ ، د . عد الحليم عويس مرجع سابق صـ ١٢١ – ١٢٢

(٢١٠) سورة الصف : الآيات ١٠– ١٣ .

(٢١١) أحمد عبد الرحيم السايح :الهجرة صـ ١٣٨ – ١٣٩ .

(٢١٢) أحمد عبد الرحيم السايح . صور من حياة الرسول : (طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨م) صـ ٥١٧ .

(٢١٣) أحمد السايح : الهجرة صـ ١٣٩ ، وصور من حياة الرسول صـ ٥١٦ .

(٢١٤) سورة محمد : من الآية ٧ .

(٢١٥) سورة الحج : من الآية ٤٠ .

(٢١٦) انظر : أحمد السايح : الهجرة صـ ١٤٠

(٢١٧) د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١٢٤ – ١٢٥ .

(٢١٨) سورة البقرة : الآيـــة ٢٥١ .

(٢١٩) سورة النساء : الآية ٧١ .

(٢٢٠) انظر توفيق سبع : قيم حضارية ج ٢ صـ ٢٢١ – ٢٢٣ ، د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق ص١٢٦ .

(٢٢١) الحديث في : مسند أحمد ج ١٩ صـ ٤٢٩ عن عبادة بن الصامت .

(٢٢٢) سورة البقرة : الآية : ١٩٠ .

(٢٢٣) د. محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٩ – ٤١ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ص٩١.

(٢٢٤) صحيح مسلم ج ٣ صـ ١٣٥٧ ، وانظر فيه أيضا (ج٣ صـ ١٣٥٩ ، ١٣٦٤ ، ١٤٦١) آداب الغزو ، ومسند أحمد ج ٤٧ صـ ٤ .

(٢٢٥) صحيح البخاري ج ١٠ صـ ٢٠٨ ، و صحيح مسلـم ج ٩ صـ ١٧٥ ، وانظر أيضاً : وسنن ابن ماجة ج ٨ صـ ٣٦٥ ، ومسند أحمد ج ١٠ صـ ٥٢ .

(٢٢٦) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٩ ، د . محمد أبو سعـــدة : مرجع سابق ص ٩١ و د محمد فتحي عثمان : مرجع سابق صـ ٦٨ ، د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١٤٠– ١٤٢ .

(٢٢٧) الحديث وارد في : سنن : أبي داود ج ٨ صـ ٢٩٢ ، والسنن الكبري للبيهقي ج ٩صـ ٢٠٥ ، وانظر : عن معاملة الإسلام لمحاربيه ، ومعاملته لأهل الذمة ، د . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية صـ ٢٦٠ – ٢٩٣ .

(٢٢٨) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٨ – ٣٩ .

(٢٢٩) انظر : توفيق سبـــع : قيم حضارية : جـ٢ صـ ٢١٩ .

(٢٣٠)سورة النساء : الآية ٧٦ .

(٢٣١) الحديث وارد في : صحيح البخاري ج٥ صـ ٢٠٥ ، ج١٠ صـ ٩٧ ، وصحيح مسلم ، ج١ صـ ١١٤ ، وسنن الترمذي : ج٩ صـ ١٨٤ .

(٢٣٢) سورة الكهف : الآية ٥ .

(٢٣٣) توفيق سبع : قيم حضارية ح٢ صـ ٢٢٠ نقلا عن رينان .

(٢٣٤) د . محمد الخطيب : دراسات صـ ٢٧٩ – ٢٨١ ، توفيق سبع : قيم ج ٢ صـ ٢٢٠ .

(٢٣٥) انظر: صحيح مسلم ج٣ صـ ١٣٥٧

(٢٣٦) انظر : سير توماس أرنولد : الدعوة إلي الإسلام (ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي طبعة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠ م) صـ ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٤٤ ، وقارن بين ما فعله المسلمون في الأندلس حين خضعت لحكمهم أكثرية غير مسلمة ثمانية قرون من الزمـان ، لم يرغموهـم على دخول الإسلام ، وبين ما فعله – فرديناند وزوجته إيزابلا – بالمسلميـن بعد سقوط غرناطة في أيدي الأسبان سنة ١٤٩٢ م من الذبح والتنكيل وإرغام المسلمين على التنصُّر من خلال محاكم التفتيش عن العقيدة . (: د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق ص ١٣٠) .

المصادر والمراجع

أولاً : المصـــــادر .

١ – القــرآن الكريـــم .

البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت : ٢٥٦ هـ) :

٢ – الجامع الصحيح . طبعة استنبول سنة ١٩٨١ م ، وطبعة دار التراث القاهرة . د . ت ، وطبعــة الهنــد سنــة ١٣٨٧ هـ .

ابن بطــة (أبو عبد الله عبد الله محمد بن حمدان العكبــري ت : ٣٨٧ هـ) :

٣ – الإبانة الكبرى (الموسوم بالإبانة عن أصول الديانة) تحقيق : حمد التويجري وعثمان الأثيوبي . طبعــة دار الرايــة الرياض ســنــة ١٤١٨ هـ .

البيهقـــي (ابو بكــر أحمد بن الحسيـــن ت : ٤٥٨ هـ) :

٤ – كتـــاب الزهـــد . طبعــة الهنــد د . ت .

٥ – السنــن الكبــرى . طبعــة مكة المكرمة (دار الباز سنــة ١٩٩٤ م) .

التبريـــزي (ولي الديـــن محمــد ت : ٧٣٧ هـ)

٦ – مشكـــاة المصابيـــح . طبعــة الهنــد سنــة ١٣٧٩ هـ .

الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٩٧ هـ) :

٧ – الجامع الصحيح (وهو المعروف بسنن الترمذي) طبعة الحلبي . القاهرة سنـــة ١٩٦٢ م ، وطبعة بيروت بتحقيق : أحمد محمد شــاكر ، و محمــد فــؤاد عبــد الباقـــي ، و إبراهيــم عطوة عوض د . ت .

تومـــاس مـــور (السيـــر) :

٨ – يوتوبيـــا . ترجمــة إنجيل بطرس ، تقديم : د . زكي نجيــب محمــود . طبعــة القاهــرة (مكتبــة الأسرة) سنــة ٢٠٠٠ م .

ابن حبان (أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي الداري ت ٣٥٤ هـ):

٩ – المسند الصحيح . طبعة بيروت د . ت .

ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢ هـ) :

١٠ – فتح الباري (شرح صحيح البخاري) طبعة الريان القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

أبو داود (سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ت ٢٧٥ هـ) :

١٢ – السنن (في الحديث) . مراجعة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . طبعة دار الفكر القاهرة د . ت .

الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد ت سنة ٤٦٧ هـ) :

١٣ – الكشاف (في تفسير القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد الفارابي التركي ت ٣٣٩ هـ) :

١٤ – آراء أهل المدينة الفاضلة . تحقيق ودراسة القدس للدراسات و البحوث . تقديم د . طه الدسوقي حبيشي . طبعة المكتبة الأزهرية للتراث . القاهرة سنة ٢٠٠٢م .

الفيروز أبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي ت ٨١٧ هـ) :

١٥ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة سنة ١٩٧٤ م .

القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسي ت سنة ٦٧١ هـ) :

١٦ – الجامع لأحكام القرآن (في التفسير) . طبعة دار الشعب القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ،قيم الجوزية ت سنة ٧٥١ هـ):

١٧ – زاد المعاد في هدي خير العباد . طبعة المطبعة المصرية (طبعة أولى ١٩٢٨م) وطبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .

ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل بن عمر الدمشقي ت ٧٧٤ هـ) :

١٨ – تفسير القرآن العظيم . طبعة المنار . القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ ، وطبعة دار الحديث القاهرة سنة ١٩٩٤ م .

١٩ – السيرة النبوية . طبعة دار إحياء التراث الإسلامي بيروت سنة ٢٠٠٠ م .

الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ت ٤٥٠ هـ) :

٢٠ – أدب الدنيا والدين . المطبعة الأميرية . القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

مسلم (الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري ت ٢٦١ هـ) :

٢١ – الجامع الصحيح (المعروف بصحيح مسلم) بشرح الإمام محيي الدين النووي . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م ، وطبعة بيروت بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي سنة ١٩٩٧م .

ابن منظور (جمال الدين محمد بن المكرَّم ت ٧١١ هـ) :

٢٢ – لسان العرب (معجم لغوي) طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

النَسَائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر ت ٣٠٣ هـ) :

٢٣ – السنن . طبعة المكتبة العلمية بيروت د . ت .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري اليمني ت ٢١٣ هـ) :

٢٤ – السيرة النبوية : تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي طبعة دار المعرفة بيروت سنة ٢٠٠٤ م .

ثانياً : المراجع .

إبراهيم العلي (الأستاذ) :

٢٥ – صحيح السيرة النبوية . طبعة عمّان الأردن سنة ١٩٦٦ م .

أحمد عبد الرحيم السايح (الشيخ) :

٢٦ – صور من حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م

٢٧ – الهجرة انطلاقة وبناء . طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

أكرم ضياء العمري (الدكتور) :

٢٨ – المجتمع المدني في عهد النبوة . طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٢٢ هـ .

توفيق سبع (الشيخ) :

٢٩ – قيم حضارية في القرآن الكريم . طبعة مجمع البحوث الإسلامية . القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

توماس أرنولد (السير) :

٣٠ – الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي . طبعة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٧٠ .

أبو الحسن على الحسني الندوي (الشيخ) :

٣١ – السيرة النبوية : طبعة دار الشروق . جدة السعودية سنة ١٤٢٦ هـ .

صفي الرحمن المباركفوري (الشيخ) :

٣٢ – الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية) طبعة أولى النهي للإنتاج الإعلامي مكة المكرمة . السعودية سنة ١٤٢٢ هـ .

عبد الحليم الجندي (المستشار) :

٣٣ – القرآن والمنهج العلمي المعاصر . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

عبد الحليم عويس (الدكتور) :

٣٤ – حقوق الإنسان في الإسلام . طبعة جدة . السعودية سنة ١٩٨٧ م .

عبد العزيز الشناوي (الدكتور) :

٣٥ – أوروبا في مطلع العصور الحديثة . طبعة دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٦٩م

عبد الله إبراهيم محمد راجح (الدكتور) :

٣٦ – الحسبة في الإسلام (نظام رقابي متبادل بين الأمة والحكام) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥ م .

٣٧ – مقومات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية (بحث نشر في حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد رقم ٢٣ سنة ٢٠٠٦ م .

٣٨ – من قيم الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية . (بحث نشر في حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد رقم ٢٤ سنة ٢٠٠٧ م .

محمد أحمد الشحري (الدكتور) :

٣٩ – العلوم والفنون الإسلامية وأثرهما في تقدم أوروبا . طبعة مكتبة المتنبي الدمام. السعودية سنة ١٤٢٧ هـ .

محمد جبر أبو سعد (الدكتور) :

٤٠ – دراسات في تاريخ الحضارة و الفكر الإسلامي . طبعة القاهرة ٢٠٠١م .

محمد رشيد رضا (السيد الشيخ) :

٤١ – تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

محمد سيد طنطاوي (الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور شيخ الأزهر) :

٤٢ – حوار هادئ مع باب الفاتيكان بعنوان (هذا هو الإسلام) ملحق مجلة الأزهر لشهر ذي القعدة سنة ١٤٢٧ هـ .

محمد عمارة (الدكتور) :

٤٣ – معالم المنهج الإسلامي . طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م .

محمد الغزالي (الشيخ) :

٤٤ – فقه السيرة : طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م ، وطبعة مؤسسة عالم المعرفة بيروت د . ت .

٤٥ – مائة سؤال عن الإسلام . طبعة القاهرة (الثانية) ١٩٩٣ م .

محمد فتحي عثمان (الدكتور) :

٤٦ – حقوق الإنسان بين الشريعة و الفكر القانوني . طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

محمد لقمان السلفي (الدكتور) :

٤٧ – الصادق الأمين (بحث في سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم) طبعة دار الداعي للنشر . الرياض سنة ١٤٢٧ هـ .

محمد المبارك (الدكتور) :

٤٨ – نظام الإسلام (الحكم والدولة) طبعة رابعة . دار الفكر دمشق سنة ١٩٨١ م

محمد محمد الخطيب (الدكتور) :

٤٩ – تاريخ العلم في الإسلام . طبعة القاهرة ١٩٩٨ م .

٥٠ – دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية . الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٩٩٠م .

محمد محمود الصواف (الأستاذ الشيخ) :

٥١ – نظرات في سورة الحجرات . طبعة مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨١م .

محمد مصطفى المراغي (الشيخ الإمام) :

٥٢ – تفسير القرآن الكريم . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

ثالثاً : الدوريـــــات :

٥٣ – استراتيجيـــة العالم الإسلامي : مجلة تصدر عن وزارة الحج والأوقاف السعودية عدد

ذي الحجـــة ١٣٩١ هـــ .

٥٤ – مجلـــة البحوث الإسلاميـــة – العدد الأول . الرياض سنـــة ١٣٩٦ هـــ .

٥٥ – مجلة الدين والحيـــاة – تصدر عن وزارة الأوقاف المصريـــة . عـــدد ٤٧ سنـــة ١٣٩٣ هـــ و عدد ١١٩ سنـــة ١٣٩٩ هـــ .

د. الطاهر دراع *

المجتمع العربى بين أهل الوبر وأهل المدر

لقد كانت النظم السياسية والعسكرية والاقتصادية لدى العرب القدامى حصيلة تفاعل مستمر بينهم وبين البيئة الطبيعية التى عاشوا فيها منذ ظهور التجمعات الإنسانية فى تلك البقاع الحارة فقد أذعنوا لشروط بيئتهم وتكيفوا معها وتلاءموا مع حاجتهم الاجتماعية الضرورية فى أول الأمر ثم الكمالية فى مراحل متقدمة.

نعم لقد تميزت ظروف المعيشة الاجتماعية فى شبه الجزيرة العربية على مدى قرون موغلة فى القدم بالقسوة والإملاق ، سماء شحيحة بالغيث ، وبيئة مناخية حارة متوهجة، وأرض صحراوية قاحلة فى أغلب أرجائها ، فأوجب كل ذلك أن تكون الحياة الأولى والأساس عندهم البداوة خاصة لدى عرب الشمال .

المبحث الأول : المجتمع البدوى : تعنى البداوة قديما وحديثا الحياة القبلية المتنقلة ، أما الأعرابى فهو المتبدى أى الذى سكن البادية وعاش معظم حياته فيها مكتفيا باتخاذ شريكة له قاطعا البوادى الجافة التى يقل فيها سقوط الأمطار (1)، إذ أن طبيعة البيئة الصحراوية تجبر سكانها على العيش فى حياة قاسية يعانون خلالها من الحر والجفاف وقلة الماء والكلأ وعدم الاستقرار فى مكان واحد ، مما اضطرهم إلى التنقل والترحال عبر المساحات الشاسعة المكسوة بالرمال المتحركة الخطيرة بنسائهم وأطفالهم وأمتعتهم وخيامهم المتواضعة وحيواناتهم من إبل وضأن وغيرها من الحيوانات بحثا عن غدران وآبار الماء ومساقط ومنابت العشب والكلأ .

* أستاذ محاضر – قسم التاريخ – كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية – الجامعة الافريقية العقيد "أحمد ادراية" – ادرار – الجزائر

ولما كانت مناطق العرب الخضراء محدودة فقد كانت تتنازع فيما بينها علــى الــدوام للفوز بهذه المنطقة أو تلك ، فتنشأ بينها سلسلة من العداوات تنجم عنــها سلســلة مــن الثأرات.

ونحن نعرف أنه كلما كان الناس فى حاجة إلى عناصر الحياة الأساسية كلما ازداد التنافر بينهم، وكلما توفرت لديهم ظروف الحياة الكريمة كلما قلت المنازعات والخلافات والعداوة وضعف عنصر الشر فيهم فتغلب عليهم الخير وانتشر الأمن والاستقرار والوئام بينهم.

و انطلاقا من هذا التصور قامت الحياة القبلية فى البادية العربية على أساس التضامن بين أفراد العشيرة أو العشائر ، التى تنتمى إلى قبيلة واحدة حتى تستطيع الصمود أمام القبائــل الأخرى التى تنافسها ، بسبب غياب المصلحة المشتركة و الوحدة السياسية بين القبائل.

ويقوم التنظيم الاجتماعى عند البدو و الحضر على حد سواء على نظام القبيلة حســب تطور كل الشعوب البدوية الاغريقية الأوائل و الرومان فى بدء عهودهم و التتار و المغــول كانوا جميعا ينقسمون إلى قبائل ، وانعدام الارتباط بأرض معينة لأن الحرية عندهم ترفض كل سلطة مركزية قد تقيد من حريتهم .

وللبداوة فى الصحراء قوانين عامة لا تقل شأنا فى وضعها وتنظيمها عن قوانين الحياة فى المدن .

ومعظم مظاهر التنظيم القبلى هى مظاهر عامة مرتبطة ببداوة كل أمة ثم قد تتخلى عنها الأمة بعد تطورها إلى المرحلة المدنية ، فيصبح تنظيم المجتمع إما على أساس الفرد الحر كمــا هى الحال عند اليونان أو على أساس العائلة كما نجد ذلك عند الرومان أو على أساس الاله كما كانت فى مصر القديمة عند الفراعنة .

القبيلة : نستعمل كلمة " قبيلة " بالمعنى العام الاصطلاحى ،لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع البدوى الذى تفوق على الأقسام الأخرى، فهناك ما هو أكبر وأشمل منها وما هــو أصغر منها ، ومن الأمثلة عل هذا الترتيب نعتمد التقسيم الآتى :

الشعب : مثل "عدنان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر " ، والعمــارة مثــل : "قــريش" والبطن مثل : "عبد مناف ومخزوم " ، والفخذ مثل : "بنو هاشم وبنو أمية، والفصيل مثل : " بنو طالب" .

وكانت الرابطة القبلية تقوم على الدم والنسب لا على العقيدة والمدنية ، وتظهر العصبية القبلية قوية فى أقوالهم "انصر أخاك ظالما أو مظلوما"، وقد استدلوا على ذلك بقول آخر : " لايسألون آخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهان ؟" .

والقبيلة العربية تشبه القبيلة الكورسيكية فى تنظيمها إذ نجد رئيس القبيلة أو شيخها يصل إلى زعامتها إما بالنسب أو بالغناء أو بالشجاعة أو بسداد الرأى . وكانت سلطته مطلقة على أفراد المجتمع القبلى إلا فى بعض الأمور مثل أمور الحرب والقضاء ، حيث كان ينظر فيها بالاشتراك مع المجلس القبلى المؤلف من كبار أفراد القبيلة ، ونجد لشيخ القبيلة حقوق الرئاسة .

أما العائلة فى القبيلة فيحكمها ربها الذى يعتبر مثل الجندى لايملك سوى بيته المنسوج من الشعر أو الوبر ، وهو ذو سلطة مطلقة على أولاده حتى الوأد وحرمان البعض من الإرث، وله الحق فى الخلع والتبرؤ من بعض أولاده ، كما له الحق فى الطلاق والزواج متى شاء .

أما الفتيان فلم تكن القبيلة تعترف برجولتهم ، إلا بعد حفلة تكريس فى مراسم كان يقوم الشيوخ فى مجلسهم ، فيقلدون الفتى السيف رمزا لإضافة محارب للقبيلة ، وكذلك الفتيات كن يكرسن بإلباسهن دراعة بدل المؤصد .

ولعل هذه الاحتفالات التى كانت تقام للشباب والفتيات كانت ذات طابع دينى ، وكانت القبيلة تحتضن الموالى عن طريق الولاء ، وهناك العبيد الذين قد ينسبون إلى قبيلة ما – إما عن طريق الشراء أو الأسر فى الحروب أو لتسديد دين .

أما أهل الحضر المستقرون فى الواحات فلم يكن التنظيم الاجتماعى يختلف عن تنظيم الأعراب القديمة سوى أن الملكية عندهم كانت موطدة ، بينما كان المرعى والماء والكلأ مشاع بين جميع أفراد المجتمع البدوى .

المبحث الثانى : العناصر المكونة للقبيلة :

كانت القبيلة العربية تتألف من عناصر كثيرة وهى :

١- الصرحاء : وهم أبناء القبيلة الذين يجرى فى عروقهم دمها النقى ، وينحدرون

من الجد الذى تنتسب إليه ، ومن ثمة فهؤلاء هم الذين يسودون القبيلة [٢]، ويؤلفون بيوتات الشرف فيها، وهم دعامتها وكانوا يستجيبون لتلبية نداءاتها والتضامن معها ظالمة أو مظلومة ، وبالمقابل كانت القبيلة توفر لهم حمايتها وتمنحهم حق التصرف ، ولكنها لا تبيح لهم الخروج عن عاداتها وتقاليدها ، فإذا سلك الفرد فيها سلوكا سيئا يشين إلى سمعة القبيلة ، ويجلب إليها العار نبذته ، وعندئذ قد يلجأ إلى قبيلة أخرى [٣].

٢- أبناء القبيلة بالنقلة : لقد كان جائزا أن ينقل رجلا نسبه من قبيلة إلى قبيلة أخرى فيصبح من أفرادها [٤] .

٣- الاستلحاق : وهو أن يستلحق الإنسان شخصا فيلحقه بنسبه ويجعله فى حمايته ورعايته أى فى عصبته ، وقد يكون الرجل صريحا معروف النسب ، وقد يكون أسيرا أو مولى ، أو عبدا فيسميه مولاه ، وينسبه إليه ، فقد تزوج القبيلة عبدا من عبيدها امرأة من القبيلة فيصبح بمرور الزمن فردا منها ، يحمل نسبها وواحدا من أفرادها وذلك لأنه قد ارتبط برابطة الزواج .أما ابن القبيلة الصريح الذى تزوج زواجا شرعيا او بجارية من جواريات الخيار ، إما أن يلحق أولاده بنسبه أو لا يفعل ذلك ، وإذا فعل وألحقهم بنسبه أصبحوا يحملون نسب القبيلة [٥].

٤- الموالى : لقد وردت كلمة "المولى" بمعانى عديدة أهمها بالنسبة لهذه الدراسة أن المولى : يقصد به العبد أى المملوك ، الذى يمن عليه صاحبه بأن يفك رقبته فيعتقه ، ويصبح المملوك بذلك مولى لسيده الذى فك رقبته، والموالى أنواع ، وجاء فى لسان العرب : "المولى الحليف هو من انضم إليك فعز بعزتك وامتنع بمنعتك ... والمولى المعتق انتسب بنسبك" [٦].

والموالى العصبة نوعان :

أ- مولى يرث ويورث : وهم ذووا الأرحام .

ب- مولى لايرث ولايورث : وهؤلاء الفئة المعتوقة [٧].

وأما موالى عتاقة فهو الرقيق أو العبيد أو الأسير ، الذى فكت رقبته بعتقه فقد يشترى الرجل مملوكا ثم يعتقه .

وكان العرب القدامى يشترطون على الموالى إنجاز عمل معين ، فإن قاموا به على أحسن وجه عتقوهم ومن الموالى : مولى المكاتبة ، وهو أن يشترطا فى عقد البيع أن العقد يكاتب على نفسه بثمن محدد فإذا سعى ودفعه لمالكه أعتقه وأصبح حرا ، والأصل فى ولاء المكاتبة أن من أعتق عبدا كان ولاءه له ، فينسب إليه وإذا مات كان وريثه ، وقد لايتحول الولاء للولى ، بلى لمن يؤدى ثمن المكاتبة مثلا، وقد يعتق على ألا ولاء عليه فيحق له عندئذ أن يضع ماله [٨]. حيث يشاء ، ومن أسباب العتاقة التدبير وهو أن يعلق المالك عتق مملوكه ، وذلك بعد موته فيقول له : "أنت حر بعد موتى وبذلك فلا يرثه أهله" [٩].

أما مولى العقد فيقال له : " مولى حليف ومولى اصطناع ، ويتم بإتباع رجل إلى رجل آخر ، بعقده أو قبيلة إلى قبيلة أخرى ، وهذا الانتماء انتماء ضعيف إلى انتماء شخص أو قبيلة ضعيفة أو إلى شخص أو قبيلة قوية فيكون التعاضد ومساعدة القوى للضعيف فى شتى المجالات ، ومقابل ذلك يقوم المولى بأداء ما اتفق عليه من شروط ، وينتسب المولى عندئذ إلى سيده الجديد ، ومن الأمثلة على هذا ما حدث ليهود يثرب الذين كانوا فى ولاية الأوس والخزرج ، فأذا ما وضع عليهم ضيم لجئوا إلى من انتموا له بالولاء للدفاع عنه .

هكذا فإن الموالى إحدى الفئات الاجتماعية من العتقاء الذين اعتقهم ساداهم من العبودية وظلوا مرتبطين بهم رابطة الولاء .

وبناءا على ما جاء فى روايات أهل الأخبار [١٠]، فإن عدد موالى قريش كان كبيرا أو أهم كانوا يشكلون نسبة كبيرة من مجموع مكة ، وقد أعطت قريش مكانة لهؤلاء الموالى تماشيا مع سياستها التى قامت على تنشيط التجارة والاستفادة من جهود هذه العناصر وخبرها .

والحق لقد أخلص بعض هؤلاء الموالى ساداهم قريش وقاتلوا فى صفوف المجتمع أو قريش ضد يثرب ، وأغلب هؤلاء الموالى كانوا ممن ارتبطوا بقريش عن طريق الحلف [١١]، وقد تحصل بعض الموالى فى مكة على ثروة طائلة وأسهموا فى حياة البلد ، عامة وتمتعوا بمكانة رفيعة وبنفوذ كبيرة فى المجتمع المكى مثل : "الأخنش بن عمر الشريف بن وهاب الثقفى" ، الذى أثر على حلفائه من " بنى زهرة " فأقنعهم بالرجوع وعدم المشاركة فى موقعة "بدر" عندما اجتمعت قريش على الخروج لقتال المسلمين فرجع بنو زهرة مع بنى الأخنش [١٢].

٥- الداعى : يقال للمستحق داعى وهو منسوب إلى غير أبيه وقد كانت هذه الفئة موجودة فى المجتمع العربى كإحدى العناصر المكونة للقبيلة ، وحكم الداعى من الناحية القانونية هو حكم النسب الصحيح والبنوة الشرعية عند العرب القدامى ، إذ كانوا يورثونه كما يورثون الأبناء الأصليين (١٣).

ويقال للداعى اللصيق وهو مقيم فى الحى وليس من أبناء القبيلة ويقال للداعى المخضرم وهو من لايعرف أبوه أو أبواه ، ويقال له فى النسب هو من أل فلان ، وينتهى النسب بجد القبيلة الأكبر ، فيكون هذا الجد محور النسب والعصبية القبلية .

٦- الخلعاء : الخليع أو الطريد هو الفرد الذى تبرأت منه قبيلته نتيجة تمرده على أعرافها أو ارتكابه جريرة ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجها ، وفى ذلك يقول ابن منظور(١٤): "الخليع الرجل يجنى الجنايات يؤخذ بها أولياءه فيتبرؤون منه ومن خياناته فيقولون : "إنا خلعنا فلان فأخذ أحد بجنياته تجنى عليه ولاتأخذ بجناياته التى يجنيها".

ويتم إعلان الخلع رسميا على أفراد المجتمع فى المواسم والأسواق العامة وقد يبعثون مناديا لذلك أو يكتبون كتابا فكان الرجل يأتى بابنه إلى الموسم فيقول : "ألا يأتى قد خلعت ابنى هذا فإن جر لم أضمن وإن جر عليه لن أطلب" فلا يؤخذ الأب بجريرة ابنه الخليع ، ومن ثم تتخلى عنه قبيلته وتتبرأ من أعماله وتسقط حقوقه عليها ويحرم عليه البقاء فيها فيذهب ملتجأ إلى غيرها ، وأما إذا كانت شروره كثيرة فنادرا ما يلقى مجيرا له ، ويصبح الأمر خطيرا بالنسبة لوضعيته الاجتماعية ، إذ يجد نفسه فى موقف حرج ووضع شاذ (١٥)، ومن الأمثلة على ذلك : أن قبيلة خزاعة خلعت "قيس ابن الحدادية " وأعلنت ذلك بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها إياه (١٦).

وكان بعض الخلعاء يلجئون إلى من يحميهم ويعيشون فى جواره .

ومن أسباب الخلع ما يأتى :

١- إذا قتل فرد "ما" شخصا أخر من قبيلته ، ورفض ذوو المقتول قبول الدية ، عندئذ تصبح القبيلة المتمثلة بشخص زعيمها مضطرة إلى قتل القاتل . أو خلعه حفاظا على وحدة القبيلة .

٢- لما كانت القبيلة مسؤولة عن أعمال أفرادها فإنها قد تضطر أحيانا إلى خلع من يسئ منهم إليها بكثرة اعتدائه وجرائره ضد القبائل الأخرى التى تحملها أفعاله على شن الغارات الثأرية ضدها مفضلة أن تضحى بفرد بدلا من جماعات منها ، وتخلع القبيلة كل من يلحق بها العار بأعماله اللاأخلاقية المشينة التى تعتبرها وصمة عار فى جبينها .

وقد يتكتل الخلعاء فيؤلفون عصابة تقطع الطرق وتعيث فى الأرض فسادا تسلب وتنهب وتلقى الرعب فى النفوس ، وقد شاعت تسمية هؤلاء باسم الصعاليك الذين سوف نتطـــرق إليهم بالتفصيل فى دراسة الطبقات الاجتماعية عند العرب .

وتذكر الروايات أن هؤلاء قد اشتهروا الخلعاء بالشجاعة والإقدام وعدم المبالاة بحيـــث كان بعض الرؤساء والزعماء يستخدمونهم للفتك بخصومهم .

وقد انضم قسم منهم إلى الشاعر " امرؤ القيس الكندى" عندما نهض مع قبيلـــة بكـــر للأخذ بثأر أخيه من قبيلة أسد ، كما كانت هذه الفئة قد تخلت عن العصبية القبلية لاتفرق بين قبيلتها وبقية القبائل الأخرى من حيث الإغارة والسطو على الأموال .

وكانت تتمركز فى المناطق المجاورة للأسواق التجارية وفى طرق القوافل فيعملون علـــى السلب والنهب لها (١٧)، ومنهم أبو الصعاليك العرب "عروة بن الورد " و " "الشنفرى" ، و "تأبط شرا" ، السليك بن السلكة " .

وهكذا فإن الخلع فى المجتمع القديم أشبه ما يكون بإسقاط الجنسية عن المواطن فى عصرنا الحالى ، فهذه أهم العناصر المشكلة للقبيلة .

جد القبيلة : كان لكل قبيلة جد تنتمى إليه وتفاخر به ، فقد يكون هذا الجد إنســـانا حقيقيا وقد يكون حلفا قد تكون من عدة قبائل مثل قبيلة تنوخ(١٨)، وقد يكون اسم موضع أقامت فيه القبيلة ونسبت إليه مثل "غسان" ، وقد يكون اسم حيـــوان أو نبـــات ... الخ ، وهذا شئ مألوف وجد عند الشعوب القديمة وليست بدعة ابتدعها العرب وحدهم فالـــذى وصلنا من الاخباريين عن أزمنة أجداد القبائل فيه أخطاء وأوهام ، وفى ذلك يقول المستشرق "بلاشير"(١٩) Placher : " إن طريقة النسابين بالنسبة للأرهاط هى طريقة إيجابية مقبولة ، أما بالنسبة للقبائل والأحلاف فلا تستند إلى أسس صحيحة ، ويعود السبب فى ذلك إلى اسباب تحالف للقبائل وتكتلها ، هذه الأسباب ترجع فى أساسها إلى المنـــافع السياســـية والمصـــالح

الخاصة ، إذن فهى تتغير بتغير تلك المصالح فتتولد بذلك أحلاف موجودة وتموت احلاف قديمة ، وتظهر قبائل كبيرة ويموت غيرها ، ولهذا التغير فعل قوى فى تكوين الاسباب وفى نشوئها إذ تتبدل وتتغير الأنساب تبعا لذلك التغير من ثم لايمكن الاعتماد على الأنساب الكبرى ، التى دونها علماء النسب وخصوصا فى مجموعات وشجروها حفدة وآباء وأجداد".

والمصالح السياسية للقبائل لاتقيم وزنا للأخوة والنسب ، فاذا ما اختلفت المصلحة يحصل أو يتم الانفصال ولاتجد القبيلة عند ذلك من غضاضة فى ترك قبيلة وإحياءتحالف جديد مع قبيلة أخرى غريبة عنها فى النسب ، فقبيلة "بنى عبس" مثلا تحالفت مع قبيلة "بنى عامر" فى حرب البسوس ضد قبيلة "ذبيان" وهى أخت عبس ، وتحالفت ذبيان مع قبيلة تميم على عبس [٢٠]، وهكذا وقعت حروب بين أبناء القبيلتين الأختين بسبب اصطدام المصالح .

المبحث الثالث : شيخ القبيلة : نتاول فى هذا المبحث الرئيس الأعلى للقبيلة ومهامه فى إدارة شؤونها والصفات الواجب توفرها فيه ومكانته الأدبية بين أفراد القبيلة .

لقد كانت رابطة الدم والنسب تهيمن على العلاقات القبلية والعصبية المتطرفة والمتجدرة تتحكم فيها ، فهاتان القاعدتان الأساسيتان أساس الترابط الاجتماعى القبلى عند العرب فكانتا تسيطران على التنظيم السياسى للقبيلة على الصعيدين الداخلى والخارجى فعلى المستوى الخارجى : يحددان طبيعة العلاقات مع سائر القبائل المتواجدة فى شبه الجزيرة العربية وخارجها .

وفى الداخل : يكفلان عدم التنازع والتناحر ، لذلك كانت الحاجة ملحة فرضتها ضرورة الحياة الاجتماعية والسياسة وهى ردع الاعتداء ومنع وقوعه وحسن معالجته إذا وقع سواء بالمصالحة أو بمبدأ الأخذ بالثأر وهى ضرورة لولاها لأصبحت البادية العربية دار حرب دائما ومواطئ خلاف قائم ، وانسجامًا مع التوجه وتلبية الحاجات ومصالح المجتمع القبلى ، كان اللجوء إلى قوة تنتقم للفرد من عدوه أو تلزمه على دفع الدية اللازمة المقررة عليه[٢١].

ومن هنا كان اللجوء إلى شخص يعمل على إحقاق الحق والفصل فى الخصومات وفقا للتقاليد المراعية الإجراء ، فظهر شيوخ القبائل ، حيث كانت ضرورة العيش تفرض على المرء الخضوع إلى المبادئ والتقاليد القبلية ووضع حد للعدوان غير أن هذه المبادئ مهما بلغ الالتزام بها لابد من تواجد قوة ذات سلطة تعمل على تنفيذها ، هذه القوة السلطوية يخاف

الجميع قوتها وبطشها ويلتمسون منها تفسيرا لرهبة الظواهر المسماة لديهم بالقوة الخفية أو المجهولة ، وهى ما وقف حائرا وخائفا منه ولم يجد سبيل خلاص له إلا بشخص قوى فكان الشيخ ، فمن هو الشيخ ؟ هل هو الملك الحاكم ؟ الواقع أن العرب لم يعرفوا هذه التسمية التى كانت تطلق على الحاكم فى كل من الدولتين الفارسية والبيزنطية ، أو سائر الدول المعروفة آنذاك وانتصرت تسمية المالك عندهم على الشعراء والخطباء ، فالشيخ إذن حسب مفهومهم هو الرئيس الأعلى للقبيلة ، هو سيد القوم المقدم على جميع أفرادهم لما يملك من وقار الشيخوخة وتقدم السن ولما يتحلى به من صفات الزعامة والقيادة .

ولعل فى طليعة هذه الصفات انتماءه إلى عصبية تؤديه وتمنعه إضافة إلى صفات شخصية يجب توافرها فيه كالجرأة والقوة والحزم وهى صفات يستحيل على ابن الصحراء فرض سلطانه وسلطته على سواه ما لم يكن متحليا بها على أن لايعنى أن فرض السلطان والسلطة قد أدى إلى الرهبة والخوف من قدرات الشيخ على نحو ارتفع بهم إلى مستوى فوق البشر مستوى الآلهة فى هذا المجتمع البدائى .

وهكذا لم تعرف شبه الجزيرة العربية نظرية تأليه الحاكم كما كان شأن مصر القديمة يوم قدست الفرعون الحاكم المستبد وأطاعه الناس خوفا من بطشه وطغيانه فكان مضرب مثل للظلم والطغيان كما جاء فى القرآن الكريم أو كما عرفته الهند القديمة أيام حكم أبرهما وشريعة مانو [٢٢] .

إن ما نريد تأكيده هنا نظرية تأليه الحاكم لم تعرفها شبه الجزيرة العربية كما عرفتها سائرالشعوب البدائية حيث لم يقتصر الأمر على مصر القديمة أو الهند بل تعدت معرفة هذه النظرية إلى شعوب متعددة كالصين وبلاد ما بين النهرين،عندما كانت الدولة البابلية والآشورية والكلدانية ومن قبلهاالسومرية والأكاديية وكلها شعوب عرفت تأليه الحكام[٢٣] .

نخلص إلى القول أن ثمة ضرورات أوجدت على رأس النظام القبلى زعيم القبيلة أو رئيسها وهو ليس بملك ولا بإله وأن الأساس الذى تبنى عليه سلطته هى التقاليد القبلية من عصبية وتقديم خدمات ومنافع متعلقة بالأوضاع المعيشية للقبيلة وأفرادها بجانب صفات شخصية يقتضى توافرها ليتمكن بها من الغلبة على منافسيه والسيطرة على الجميع .

إنها سلطة نظام الحكم الأبوى(Regime Patriarcal) القائم على سلطة الأب على جميع أفراد الأسرة ، هذه السلطة يبقى متمتعا بها ما دام قويا قادرا على ضمان ولاء القبيلة لـه ، أما إذا ضعف وعجز ، اجتمع الأعيان والرؤساء ،سواء كانوا من أفخاذ القبيلـة أو مـن بطونها[٢٤] ، لاختيار خلفا له ، وليس ثمة مانع أن يكون ابن هذا الشيخ إذا تـوفرت فيـه الشروط التى أشرنا إليها سابقا . غير أن تحولا قد طرأ على هذه السلطة فى أواخـر هـذه المرحلة التاريخية ، "فبعد أن كانت مستمدة من التقاليد القبلية وحدها أصـبحت تسـتمد بدرجة أهم من المكانة الاقتصادية التى يستطيع بها الغلبة على منافسيه والسيطرة على أفراد القبيلة بتقديم المنافع المادية والخدمات المعيشية ، ومن هنا ازداد اهتمـام رؤسـاء القبائـل بممارسة كل ما يؤدى إلى تكديس الأموال وإنماء الثروات" [٢٥] .

صفات شيخ القبيلة : لقد اعتمد العرب فى اختيارهم لشيخ القبيلة على مواصـفات يجب توفرها فى شخصه ، فكان يجب على من يريد أن يكون شيخًا أو سـيدًا للقبيلـة أن تتكامل فيه ست خصال : الكرم والنجدة والحلم والصبر والتواضع والبيان [٢٦].

وقد سئل قيس بن عاصم : "بما سودك قومك ؟ " فأجاب : " ببذل الندى وكف الأذى ونصرة المولى وتعجيل القرى".

ويجب أن يتحلى بأخلاق حميدة وسجايا طيبة تجعل الناس يعترفون بسيادته عليهم .

وليست قيادة القبيلة بأمر سهل عليهم ، لاسيما إذا كانت قبيلة كـبيرة ذات عشـائر وارهاط منتشرة ، وإن يكون شريفا فى أفعاله حليما كريما يغض نظره عن أعمال الحمقـى والجهلة ويتجاهل السفلة والسفهاء الجاهلين ، فلا يغضب ولايثور وإن يقضم غيظه جاء فى المثل : "احلم تسد" ، وأن يحترم الناس مهما كانت منزلتهم وأن يؤلف بينـهم ويكسـب محبتهم ويجعل بيته بيتا للجميع ومضيفا لكل من يفد إليه من كبير أو صـغير أو حقـير وأن يفتح قلبه للجميع [٢٧].

وعلى الرئيس أن يكون فى مقدمة القوم فى الحروب والغزو وأن يكون شجاعا لايهـاب الموت حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه ، وعليه أن يكون قائد قبيلته وواضع خطط الحرب لأنه رمز القبيلة ورمز النصر وباعث الهمم في نفوس ابنائه وهو أب القبيلة والرئيس ، وهـو روح القبيلة وشعلرها وهو من أصحاب الإرادة القوية .

وتتم الرئاسة بانتخاب حر بين الأفراد ، حيث أن العرب كانت ترفض مبدأ الوراثة فى الرئاسة ، ولابد للرئيس من عصبية داخل العشيرة وقرابة تشد أزره وتعينه على تنفيذ مسؤولياته ، ومثل هذا السند يعتمد على القوة العددية – كما ذكرنا من قبل حسب رأى العلامة ابن خلدون – وعلى الحسب والشرف وعلى نقاوة الدم أيضا ، ولهذا لاتتم الرئاسة إلا للأصول ويحرم منها الموالى لعدم نقاوة الدم .

مجلس القبيلة : كان لكل قبيلة عند العرب القدامى مجلسًا هو بمثابة "الندوة" عندهم ، يستطيع كل فرد من أفراد القبيلة حضوره والتحدث فيه متى كان مجتمعا وليس هناك وقت محدد لاجتماع المجلس، ولكن من المألوف أن يجتمع القوم يوميا عند المساء أو ينادى فى الناس للاجتماع إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك .

فالمجلس فى المجتمع البدوى كالبرلمان فى عصرنا الحاضر الحديث والذى يدرس فى المجلس يتعلق غالبا بمختلف الشؤون الخاصة ، فيبحثون الأمور التى تخص القبيلة ولهم الحق فى إبداء وجهة نظرهم ، فى الغالب ما كان يسود أقوياء الرأى والتفكير ، الذين يمتلكون المنطق وقوة الحجة فى المناقشات ، وكان هذا مدعاة لهم للافتخار والاعتزاز .

وفى هذا المجلس ينشد الشعراء أشعارهم ويظهر الخطباء مواهبهم ، ويسمع الجميع الأحاديث الطريفة الطيبة فيصبح المجلس ندوة أدبية يتمرن فيها الأفراد على قوة البيان ، وتكشف أثناء ذلك المواهب الأدبية والسياسية ، والقرارات كانت تتخذ بعد المناقشات والمحاورات بأصوات الأغلبية وغالبا ما كانت ترفض المعارضة هذه القرارات فلاتلزم بها، لأنه ليس هناك قانون يلزمها بذلك ، فإن اقتنعت بها استجابت لرأى الجماعة وإن لم تقتنع بها أبتتطبيقها .

القبيلة والأرض : إن الأرض التى تنزل بها القبيلة والتى تعيش عليها تعتبرها ملكا لها ، تنتشر فيها بطونها وعشائرها فلاتسمح لغريب بالنزول بها أو حتى المرور فيها إلا بموافقتها ، وكل بطن منها اختص بحماية ناحية من الأرض واعتبرها أرضا خاصة به وتسمى الأرض التى تحل بها القبيلة منزلا لها ، ومنازل لأبنائها ، حيث ينزلون بها ويضربون خيامهم فتصبح الأرض وطنا لهم ودار إقامة ما دامت تقيم عليها ، لذلك يعبر عن الأرض هذه بمصطلح "بيوت القبيلة" أو بيوت العشيرة".

تمتد أرض القبيلة إلى المواضع التى تصل بيوتها إليها فما يقع إلى الداخل فهو من مواطن القبيلة وما وقع خارج نفوذ القبيلة خرج عن موطنها .

وكانت تعين الحدود بالظواهر الطبيعية البارزة مثل أودية ، أو رمال أو غير ذلك ، ونظرا لعدم إمكانية تثبيت مثل هذه الحدود صارت سببا من أسباب التراع المستمر بين القبائل .

أما مواضع الماء فى القبيلة فقد تتفق البطون فيما بينها على حقوق السقى الذى يؤدى إلى نزاع فى أكثر الأحيان ، إذا لم تراع فيه هذه الحقوق ولاسيما فى أيام القحط وانحباس المطر ، حيث المياه العامة ، أما المياه الخاصة للسادة والرؤساء فلايجوز الاستفادة منها إلا باذن من أصحابها .

ولكل قبيلة حق حماية فإذا أراد رجل غريب اجتياز أرضها فلابد من أن يكون فى حماية إنسان منها ، وإذا كان المجتاز جماعة أو قافلة تريد المرور بأرض القبيلة بغية الوصول إلى هدف فعليها أخذ إذن (جواز مرور) وإلا تعرضت للمنع والقتل إذ كان لابد للتجار من إرضاء سادت القبائل للسماح لهم بدفع حق المرور الذى عرف – بالإتاوة .

الهوامش

١- الزبيدى ، ج٣ ، مادة "بدو" ص٥٣٤ .

٢- عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص١٥٠ ؛ توفيق برو ، المرجع السابق ، ص٢٥٧ .

٣- نفسه .

٤- توفيق برو ، المرجع السابق ، ص٢٥٧ .

٥- الأصفهانى : المصدر السابق ، م١٧ ، ص٩٧ ؛ عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، المرجع السابق ، ص١٥٠ .

٦- ابن منظور ، المصدر السابق ، م٢٠ ، ص٣٢٣ .

٧- الطبرى : تفسير القرآن المسمى جامع البيان ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ج٥ ، دار المعارف ، القاهرة . ١٣٧٤ - ١٣٧٩ هـ ، ص٣٣ .

٨- الزبيدى ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص٣٠٥ .

٩- المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٢٠٠ .

١٠- ابن هشام ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ص٣١٧-٣٥٥ ، ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، تحقيق: الأستاذين إحسان عباس وناصر الدين الأسد ، مراجعة الشيخ أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ص١١٤-١٣٣ .

١١- ابن هشام : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٦٧ ؛ ابن حزم : جوامع السيرة ، المصدر السابق ، ص١٢٣ .

١٢- ابن هشام : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٥٨ .

١٣- أحمد ابراهيم الشريف ، المرجع السابق ، ص ص٣١-٣٢ .

١٤- الأصفهانى ، المصدر السابق ، م١٣ ، ص ص١٣٧-١٣٨ .

١٥- الأصفهانى : المصدر نفسه ، م١٧ ، ص٩٤ .

١٦- ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ٩ ، ص٤٩ .

١٧- أحمد ابراهيم الشريف ، المرجع السابق ، ص ص٣١-٣٦ .

١٨- الزبيدى ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٥٤

١٩- تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) : ترجمة ابراهيم الكيلانى ، طبعة دار الفكر ، دمشق ، د.ت، ص٢٥

٢٠- نفسه .

٢١- حسن حلبى ندوات حول نظرية الدولة فى الفقهين الوضعى والدينى ، كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية ، الجامعة اللبنانية ، السنة الجامعية (١٩٨٧+١٩٨٨)، ص٧٢ .

٢٢- حسن حلبى ، المرجع السابق ، ص٢٤ .

٢٣- المرجع نفسه ، ص٧٤ ، يراجع بهذا الخصوص أيضا : "النظم السياسية" للدكتور "ثروت بدوى" المرجع نفسه ، ص٢١ .

٢٤- الفخذ أفخاذ : هى الرجل والبطن : أهل الرّجل وخاصته ، المنجد فى اللغة والإعلام ، المرجع السابق.

٢٥- حسين مروة . "النزاعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية" ، ج١ ، دار الفارابى ، بيروت ، ١٩٧٨، ص٢٥ .

٢٦- ابن سعد : المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٠ .

٢٧- لا منس : مجلة المشرق ، عدد ٢ ، سنة ١٩٣٢ ، ص١١٠ .

أ.د. محمد بركات البيلى *

بعض ملامح القرية فى مصر الإسلامية

القرية فى اللغة هى مصر جامع للمساكن والدور والضياع وتقع فى الريف الذى هو ما قارب الماء أو حيث تكون الخضرة والمياه(١) أو هى كل مكان متصل الأبنية يتخذه النـــاس قراراً، ومن ثم فاسم القرية فى دلالته التاريخية لا يقتصر فى العصر الإسلامى علـــى القريـــة بمفهومها الحالى ولكنه كان يطلق على القرية والمدينة معاً(٢). ومن ثم فكم من ناحية ذكرهـــا بعض المؤرخين والبلدانيين على أنها قرى وذكرها البعض الآخر منهم على أنها مدن دون أن يعنى ذلك نمواً عمرانياً فى الأولى أو تدهوراً فى الأخرى.

ولقد كانت مصر الإسلامية مكتظة بالقرى التى كانت – على حد قول الاصطخرى – "على حافات النيل منظومة متكاثفة"(٣). فأشاد بها الجغرافيون والرحالة حتى أن الجغرافى أبا عبيد البكرى – على سبيل المثال – يعد ضفتى النيل من الفسطاط إلى رشيد مـــن أعجـــب متنزهات الدنيا(٤). ورأى الرحالة ابن جبير فى هذه المنطقة نفسها قرى متراصة على ضـــفتى النيل يمنة ويسرة لا تحصى كثرة ووجد العمارة متصلة والقرى منتظمة على طـــول طريـــق رحلته بمصر(٥) أما ابن فضل الله العمرى فقد رأى "بر مصر ريف ممتد بين حاجزين وعقـــد منظوم من القرى"(٦).

وقد بلغ عدد القرى فى مصر الإسلامية عند بداية القرن الثانى الهجرى مبلغاً عظيماً فقد قيل أنها أحصيت فى ولاية الوليد بن رفاعة – الذى تولى على مصر سنة ١٠٩هـــ/٧٢٧م

---

* أستاذ التاريخ الإسلامى –كلية الآداب – جامعة القاهرة

فبلغت أكثر من عشرة آلاف قرية[٧] لكن هذا العدد – إذا صح – تناقص تناقصا جسيماً فى القرون التالية حتى أن قرى مصر فى العصر الأخشيدى (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م) لم تزد إلا قليلا عن ربع هذا العدد الذى بلغته فى ولاية الوليد بن رفاعة، فقد نقل عدد من المؤرخين عن القضاعى أنه وقف على جريدة بخط الكاتب أبى عيسى بقطر بن شفا متولى خراج مصر للدولة الأخشيدية جاء فيها أن مجمل قرى مصر حتى سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م بلغ ألفين وثلاثمائة وخمسة وتسعين قرية منها تسعمائة وست وخمسون قرية بالصعيد وألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية بمصر السفلى[٨] ويبدو أن هذا العدد ظل ثابتاً لم ينقص فى العصر الفاطمى الأول إذ كان هو نفس عدد القرى الذى نقله المقريزى[٩] عن المسبحى الذى توفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٨م[١٠]، لكن عدد القرى فى مصر الإسلامية أخذ فى التناقص مرة أخرى حتى أن المؤتمن أبا المكارم سعد الله صاحب كتاب "الكنائس والأديرة" قدر عدد القرى فى مصر فى القرن السادس الهجرى بنحو ألفين ومائة وست وثمانين قرية[١١] أى أنها نقصت فى غضون قرن واحد بمقدار مائتين وتسع قرى ثم تناقصت فى القرن التالى وحتى نهاية القرن السابع الهجرى إلى ألفين واحدى وسبعين قرية[١٢] بمقدار نقص مائة وخمس عشرة قرية آخرى.

ولاشك أن تناقص أعداد القرى فى مصر الإسلامية كان نتيجة لخراب الكثير منها[١٣] وقد أرجع ابن ظهيرة خراب ما خرب منها إلى "الظلم وخراب الأرض"[١٤] أى أنه أرجع خراب تلك القرى إلى عوامل طبيعية وبشرية، ولعل أهم العوامل الطبيعية التى تسببت فى خراب قرى مصر الإسلامية هو انقطاع جريان الماء إليها فتفقد بذلك أساس حياتها وتصبح أثراً بعد عين[١٥] ومن ثم كان اهتمام المصريين كبيراً بتطهير المجارى المائية[١٦] لتمكين الماء من الوصول إلى كل النواحى، من ذلك – على سبيل المثال – ما روى عن تطهير مجرى خليج القاهرة وتجديد حفره فى سنة ٥٠٢هـ "بأبقار البساتين التى عليه فيحفر بأبقار كل بستان ما يحاذيه فإذا انتهى أمر البساتين عمل فى البلاد كذلك وأقيم له وال مفرد بجاميكية ومنع الناس أن يطرحوا فيه شيئا"[١٧].

أما العوامل البشرية التى تسببت فى خراب قرى مصر الإسلامية فمنها الظلم – على حد قول ابن ظهيرة ويعنى إرهاق أهل القرى بالمغارم التى تثقل كاهلهم مما يدفعهم إلى هجرة مزارعهم وقراهم، فعلى الرغم من ضبط الإدارة المالية فى مصر الإسلامية للجباية وعدم مغالاتها فى تقديرها فى أغلب الأحيان بل كانت تعهد إلى موازيت القرى ورؤسائها بتقدير ما

على قراهم من ضرائب وتلزمهم بحسن تقدير هذه الضرائب دون زيادة ولا نقصان على نحو ما يستدل عليه من أوراق البردى، وكانت الإدارة المالية لا تتعجل السداد فى حالة المسغبة وإنما تؤخر السداد إلى حين ميسرة حتى أن قرة بن شريك والى مصر زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (٩٠-٩٦هـ) كتب فى سنة ٩١هـ إلى أهالى كل من قرية شبرا بسيرو وقرية شبرا أجيه وقرية هردس أبيرميوس وثلاثتهن من قرى كورة أشقوة بما عليهم من متأخرات جزية سنة ٨٨هـ لكن ذلك لم يمنع بعض الجساطيل أو الجباة من ظلم القرويين ظلما قد يدفع بعضهم إلى الفرار من قراهم مثلما فر مزارع من قرية ذات الساحل من ظلم الجابي ابن دشومة الذى أفقره بعد غنى ففر لا يلوى على شئ فلقيه أحمد بن طولون مصادفة وعرف شكايته فأنصفه وأمر له بما يمكنه من عمارة أرضه[١٨]، وكثيراً ما ثار المزارعون بسبب ظلم الجباة مثل ثورة أهل الحوف الشرقى وبطن الريف مراراً لأسباب خراجية[١٩] لاسيما الثورة العنيفة التى اندلعت فى خلافة المأمون سنة ٢١٥هـ ويبدو أنه فطن إلى أسبابها فعمر المقياس[٢٠] الذى كان أساساً لتقدير الخراج.

ومن العوامل البشرية لخراب القرى فى مصر الإسلامية نشأة قرى بديلة تحل محل القرى القائمة فيقبل الناس على سكنى القرية الناشئة ويهجرون القرية القائمة فتندثر مثل قرية العباسة التى نشأت فى العصر الطولونى وزاد عمرانها حتى أصبحت بلدة طيبة كثيرة المياه والأشجار ومتنزها من متنزهات مصر[٢١] وظلت متنزهاً سلطانياً حتى العصر المماليكى إلى أن بنى السلطان الظاهر بيبرس قرية بديلة أسماها الظاهرية وأنشأ بها جامعاً بخطبة سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٢م "فمن حينئذ تلاشى أمر العباسة"[٢٢].

ومن العوامل التى تسببت أيضا فى خراب القرى فى مصر الإسلامية ما نزل بها من الشدائد الاقتصادية خاصة العظمى منها – مثل الشدة المستنصرية – والتى كانت تنجلى عن غلاء ووباء كبير وتؤثر على القرى والمدن على حد سواء فتخربها وتهلك سكانها حتى أن عبد اللطيف البغدادى يذكر عن نتائج إحدى هذه الشدائد التى نزلت بمصر عند نهاية القرن السادس الهجرى أن "القرية التى كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليا فتراها دمنه وربما وجد فيها – أناس– وربما لم يوجد فيها"[٢٣]. وإذا عرفنا أن مصر قد شهدت منذ الشدة المستنصرية عند نهاية العصر الفاطمى الأول وحتى نهاية القرن السادس الهجرى نوبات متلاحقة من الشدائد الاقتصادية والغلاء والوباء فلا عجب أن يتناقص عدد القرى المصرية

فى هذه الفترة على النحو الذى انتهى إليه عددها الذى سجله المؤتمن أبو الكارم صاحب كتاب تاريخ الكنائس والأديرة.

وقد فرضت طبيعة مصر وظروفها الجغرافية واعتمادها على نهر النيل كشريان رئيسى للحياة أن يكون نهر النيل محور تمركز القرى المصرية من ناحية وعاملاً حاكما لمواضع بنيان هذه القرى من ناحية أخرى فنظراً لفيضان النيل وتهديده للقرى "فقد شيدت قرى مصر كلها على المرتفعات والتلول حتى لا تغرق"(٢٤) فإذا "فاض الماء وساح وعم الغيطان والبطاح وانظم الناس إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل وهى على آكام وربى لا ينتهى إليها الماء ولا يتسلط السيل عليها"(٢٥)، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وضفاف القوارب وزوارقه".

وفضلا عن الروابى والآكام والتلال الطبيعية فقد كانت بعض القرى تقوم على بعض الكوم الصناعية أو تقوم على ما علا من ضفة النهر إذا وفر لها الموضع أمانا من خطر تهديد الفيضان لها(٢٦).

وكانت القرى فى مصر الإسلامية متفاوتة فى عمرانها من حيث البنيان والسكان، فمن القرى ما اتسع بنيانها حتى ضمت كل قرية منها عدة مرافق كالمسجد الجامع والسوق والحمام ومرافق أخرى على نحو ما ذكر ابن حوقل عن عديد من قرى مصر الإسلامية فقد ذكر – على سبيل المثال – أن قرية شبرو آلاو ضيعة كبيرة ذات ثلاث حارات كبار (شوارع) كثيرة الأهل غزيرة السكان وبها حمام وجامع وقاضى وعامل ولها كورة جليلة واسعة"(٢٧) وذكر الادريسى نحواً من ذلك عن عديد من قرى مصر الإسلامية وأنها ذات أسواق ومتاجر ويعقد لبعضها أسواق فى أيام معلومة، فيذكر على سبيل المثال – أنه كان لقرية قد قوس سوق يعقد يوم الأربعاء من كل أسبوع ولقرية دمسيس سوق يعقد يوم السبت وتجارة الثياب والأمتعة بها نافقة(٢٨) وقد مر ابن جبير فى رحلته بقرية برمة وقال عنها قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق "(٢٩). وكانت المرافق العامة للقرى المصرية موضع عناية أولى الأمر خاصة دور العبادة فعلى سبيل المثال لما علم الوزير الفاطمى المأمون ابن البطائحى فى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م "أن جزيرة قويسنا ومنية زفتى ليس فيهما جامع فتقدم إلى بعض خواصه وخلع عليه فسار وبنى جامعاً على شاطئ النيل بمنية زفتى وقرر فيه خطيباً وأماماً ومؤذنين وفرش وأطلق برسمه نظير ما للجوامع"(٣٠) ولما علم الوزير نفسه "أن

واحات البهنسا ليس بها جمعة تقام فأمر ببناء جامع بها ففرغ منه وأقيم فيه خطيب وإمام وقومه ومؤذنون وأطلق لهم ما هى عادة أمثالهم"[٣١]. ولم تقتصر العناية على الجوامع دون غيرها من دور العبادة بل امتدت أيضا إلى الكنائس التى كانت توجد ببعض القرى التى يقطنها نفر من النصارى[٣٢] فكانت تلك الكنائس موضع اعتبار عند تقدير الخراج وتخصص للنفقة عليها بعض الأفدنة[٣٣].

وكان لبعض القرى ذات النشاط المتميز مرافق خاصة تتميز بها عن غيرها من القرى، فعلى سبيل المثال كانت قرية مشتول كثيرة الطواحين[٣٤] حتى سميت مشتول الطواحين[٣٥] وكانت قريتا الصافية ودمى جمول المجاورة لها مختصتين بزراعة قصب السكر فكثرت بهما المعاصر ومعامل السكر[٣٦] أما قرية زفيته الواقعة على رأس الدلتا قبالة شطنوف – حيث يتشعب النيل ويتفرع عنه عدة خلجان – فقد كان لها مرفأ نيلى كبير ترسو فيه نحو مائة ونيف من مراكب الصيد التى يصطاد بها الحوت[٣٧] ووجدت بكثير من القرى معامل للفراريج تجرى فيها حضانة الفراريج بالزبل واتخذ كثير من القرويين من ذلك : صناعة ومعيشة يتجر فيها ويتكسب منها"[٣٨].

أما عن دور القرية وأبنيتها فى مصر الإسلامية فقد كانت تبنى غالباً من الطين[٣٩] أو الطوب اللبن[٤٠] ويصفها ابن فضل الله العمرى بأنها "مبنية بالطوب، سود الظاهر، يحف بها نخيل يقل فى بعض القرى ويكثر فى الأخرى، وكلها على نموذج واحد من رأى واحداً منها فكأنما رآها كلها"[٤١]. وكانت تلك الدور تسقف بأخشاب الجميز والسنط والنبق[٤٢] ولم تكن جميع تلك الدور تخص الفلاحين وحدهم بل كان بعضها ملكا لأفراد من ساكنى المدن، وكان بعضهم حريصاً على بقاء داره وتجديد عمارتها مثل الأمام الليث بن سعد الذى كانت له دار بقريته قلقشندة – وهى قرية– فى ريف مصر حسنة المنظر غزيرة الفواكه على ثلاثة فراسخ من القاهرة، وقد بنى الإمام الليث داره هذه ثلاث مرات إذ كان ينيها كلما هدمها والى مصر الوليد بن رفاعة عناداً للامام[٤٣] بينما كانت ضيعة الامام نفسه بقرية دية – الواقعة بين فوة ورشيد – فكانت تدر عليه دخلاً كبيراً[٤٤].

كان الاتصال بين قرى مصر الإسلامية فى غير وقت الفيضان سهلاً ميسوراً أما فى شهور الفيضان الأربعة حينما "تصير القرى التى فى الأقاليم فوق التلال والروابى وقد أحاط بها الماء فلا يتوصل إليها إلا فى المراكب"[٤٥] فينتقل القرويون من قرية لأخرى فى صغار المراكب

وخفاف القوارب[٤٦] أو يسيرون على الجسوز الممتدة التى يصرف عليها — إذا خدمت كما ينبغى— ربع الخراج[٤٧] وقد رأى ناصر خسرو جسراً من الطين ممتداً على طول شاطئ النيل من أول البلاد إلى آخرها[٤٨] وكان كل جزء من هذا الجسر يسمى باسم الناحية أو القرية التى تشرف عليه[٤٩].

وتفاوتت أعداد السكان فى قرى مصر الإسلامية فكانوا ينقصون فى قرية ويزيدون فى أخرى تبعا لحجم القرية وعمرانها وأهميتها، يدل على ذلك تفاوت مقادير الجباية المربوطة على القرى من قرية لأخرى كما جاء فى أوراق البردى إذ كان على أهالى قرية شبرا يسيرو من جزية سنة ٨٨ هـ ١٠٤ دينار بينما كان على أهالى شبرا أجيه من جزية نفس السنة ٣٧ دينار وهلم جرا. ويمكن القول إن الحد الأدنى لتعداد سكان أصغر قرية لم ينقص عن ألف وخمسمائة نسمة، يدل على ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم من أن رجال ابن رفاعة والى مصر أحصوا قرى مصر عند بداية القرن الثانى الهجرى "فلم يحصى فيها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية"[٥٠]، والرجال المعنيون فى هذا الصدد "من جرت عليه المواسى" حسب تعبير ابن عبد الحكم نفسه[٥١]. فإذا قدرنا أن هؤلاء الذين جرت عليهم المواسى كانوا نحو ثلث سكان القرية وأن الثلثين الآخرين كانوا ممن لا تجب عليهم الجزية من الولدان والنساء، فإن سكان أصغر قرية لن يقل — كما ذكرنا — عن ألف وخمسمائة نسمة، أما الحد الأقصى لسكان القرية فيبدو أنه كان — حسب تقدير عبد اللطيف البغدادى — نحو عشرة آلاف نسمة[٥٢]، وعلى وجه العموم فقد كانت مصر مكتظة بالسكان حتى أن عمرو بن العاص نهى عن كثرة العيال[٥٣] وأشار ابن حوقل إلى خصوبة المرأة المصرية حتى أنها ربما ولدت "الولدين والثلاثة والأربعة فى بطن واحد يحمل واحد" وأضاف أنهم يبررون ذلك بأن ماءهم أنيث يريدون ماء النيل وفيه خاصية لذلك على قولهم "[٥٤].

وكان للقرويين فى مصر الإسلامية عادات خاصة بهم منها أنهم كانوا يتجهزون لشهور الفيضان الأربعة التى يحاصر فيها الفيضان قراهم فيقومون بتخزين كافة احتياجاتهم الضرورية اللازمة لحياتهم طيلة هذه الشهور الأربعة "ويخبز كل شخص فى الريف ما يكفيه من الخبز هذه المدة ويقدده حتى لا يعفن"[٥٥]، ويبدو أن هذا الخبز المقدد كان يسمى كعكعا فقد ذكر المقريزى أنه "عند فلاحيهم نوع من الخبز يدعى كعكا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها[٥٦].

واعتاد القرويون فى مصر الإسلامية أن يناموا على أسطح دورهم وقت القيظ[٥٧] وكان من عادات القرويين فى مصر الإسلامية الاغتسال فى النهر وكثيرا ما كانت ثيابهم تتعرض للسرقة من قبل المساحين - كما يسميهم النابلسى - الذين كانوا يمشون "على أطراف الشطوط يرتقبون من يتعرى ثيابه وينزل الماء ليغتسل فيمشى اللص كأنه مار فى شغله ويعبر على ثياب الذى نزل فى الماء فيأخذها ويمر كالبرق الخاطف فلا يلحق"[٥٨] وكانوا فى العصر الفاطمى لا يركبون الخيول[٥٩]. بل كان أكثر اعتمادهم على الجمال والحمير، إذ تساعدهم هذه الحيوانات على نقل أثقالهم وعلى عمارة أرضهم فقد كان فلاح قرية ذات الساحل المشار إليه فى العصر الطولونى يستعين على عمارة أرضه بحمار عوضه عنه أحمد بن طولون بعشرين ديناراً[٦٠] وأشار النويرى إلى أن القصب كان ينقل من المكسر إلى المعصرة على ظهور الجمال أو الحمير[٦١] وربما كان عدم ركوب القرويين الخيول فى العصر الفاطمى عادة اعتادوها منذ صدر الإسلام فى مصر وقت أن كانت غالبية القرويين من أهل الذمة الذين لا تسمح لهم أحكام الذمة بركوب الخيل فاعتادوا على ذلك حتى بعد تحول أكثرهم إلى الإسلام لاسيما وأن غلاء أسعارها لا يتناسب مع قدرة القرويين الشرائية ومستواهم المعيشى المنخفض.

وكان المزارع المقيم بالقرية يسمى فلاحاً قرارياً[٦٢]، لكن الفلاحين القرارية لم يكونوا وحدهم جل سكان القرى وإنما كان يقيم معهم فى القرية آناس آخرون منهم من كان من أصحاب الضياع كمارية القبطية التى كانت تقيم هى وأبناؤها بضيعتها بقرية طاء النمل وقامت بضيافة الخليفة المأمون العباسى على أحسن وجه حين مر على قريتها رغم استهانته[٦٣] بها وكان يقيم فى الضياع والبساتين التى بالقرى عمال يقومون على خدمتها والعمل بها كالوكيل والخولى والعمال والسياس والحرس وغيرهم، ويمدنا ابن مماتى فى قوانين الدواوين بالعديد ممن يباشرون أعمالاً داخل القرية كالوقافين الذين يحولون المياه إلى الأراضى التى تحتاج إليها والحراثين الذين يحرثون الأراضى والنجارين الذين يصنعون الآلات الزراعية والمساحين والقصابين الذين يقومون معاً بمسح الأراضى وقياسها والحايز الذى يكتب ما تحتويه الأجران ويمنع المزارعين من التصرف فيها قبل استيفاء ما عليهم[٦٤] وأغلب الظن أنهم كانوا يسكنون القرية إما سكنى دائمة أو موسمية على الأقل، وكان يسكن بالقرية أيضا بعض حفظة القرآن وصغار رجال العلم ممن يقومون على خدمة جامع القرية والخطبة فيه وغيرهم.

وإذا كان الفلاحون القرارية يحصلون على دخولهم مما تغله الأرض التى يزرعونها فقد كان عمال الضياع وأجراؤها يحصلون على بعض أجورهم نقداً وعلى بعضها الآخر عينا بجزء من المحصول، وعلى الرغم من إشارة ابن مماتى إلى محاسبة العمال بأيام البطالة[٦٥] فقد كانت الدخول منحطة ومستوى معيشة القرويين منخفضاً[٦٦] ولذلك غلب عليهم سوء التغذية فلم يزد غذاء أهل صعيد مصر كثيرا عن التمر والحلاوة التى يصنعونها من قصب السكر بينما غلب على غذاء أهل أسفل الأرض القلقاس والجلبان، وكان كثير من أهل مصر يأكلون الألبان ومنتجاتها ويأكلون السمك طرياً ومالحاً[٦٧]: ويمدنا النويرى بوصف للطريقة التى كان القرويون يستخدمونها فى صيد الأسماك عند هبوط نيل مصر ورجوع الماء من المزارع إلى مجرى النيل إذ كانوا يسدون أفواه الترع وأبواب القناطر التى عليها حتى يتجمع الماء ثم ينصبون شباكا ويصرفون الماء إليها فيجتمع السمك بتلك الشباك فيخرج منها إلى البر ويجفف على نخاخ (حصر) ثم يملح ليؤكل مالحا أما ما كان يؤكل منه طرياً بعد قليه فيسمونه الإبسارية[٦٨].

وعلى الرغم من سوء التغذية التى كانت تجعل القرويين عرضة لكثير من الأمراض والأوبئة فقد كانوا أصح أبدانا من أهل المدن إذا كان القرويون أكثر حركة ورياضة فتصلب الرياضة – على حد قول المقريزى – أعوادهم وتقويها[٦٩].

واتسم القرويون بالسذاجة التى يسميها النابلسى "سخف عقل أهل الريف[٧٠]"، ووصفوا بالمكر الذى كان فيما يبدو وسيلة لتجنب ظلم رجال الإدارة لهم على مر العصور ومع ذلك لم يسلم القرويون من قدح القادحين وسخرية المستهزئين كالشربينى صاحب هز القحوف إذ يقول : الحاصل أن الفلاح على قسمين : قسم ناجى ناحب وقسم خائن خائب فأما الأول فهو صاحب عقل وسياسة وحسن تصرف ورياسة عقل تدين ملازم للصلاة والدين والزرع والغيط تارك للسنده حيث الحيط، له على جماعته الحماسة متجنب الرزالة والخساسة، يباشر الزرع ويعف عند الحصيدة والقلع ولا يتكل على خولى ولا مرابع ولا يركن لثوار ولا مزارع بل يباشر الأمور كلها ..

وأما القسم الثانى : لا عقل ولا معروف، عريان منتوف ، لا صلاة ولا دين ولا طاعة لرب العالمين ولا ذوق ولا معرفة، فائق للشر والتفرقة، بالنهار فى لعب المنقلة وبالليل صاحب القبلة، لا يلازم الغيط، يحب اللطعة جنب الحيط، نافش الشوارب، قليل المكاسب، عويل مهدار، سفلا من فشار، إن دخل فى يده فلوس مزقها على العتورة والتيوس[٧١].

لكننا نميل إلى القول إن أهل القرى فى مصر الإسلامية كانوا يغلب عليهم الميل إلى الموادعة والسكينة وقلما يجنحون إلى التمرد والهيج، إلا أن الأمر لم يخل أحيانا من بعض حالات القلاقل والاضطرابات التى كانت لأسباب خراجية - كما سبق أن ذكرنا - كما تعرضت بعض القرى فى مصر الإسلامية لمخاطر أمنية فى بعض الأحيان لم تقتصر فقط على دهم المتسلطين لهم وإنما تعرضوا أيضا لاغارات العصابات المسلحة الذين يدعوهم المسبحى النهابة الجوالة، ويذكر ان أعدادهم تزايدت فى بعض فترات القلاقل والاضطرابات إلى عدة آلاف وعهدت الدولة بالتصدى لهم إلى جماعات من الجند السيارة يقودهم كبار القادة مثل رفق الخادم القائد الفاطمى الملقب "عدة الدولة وعمادها" وقد عهد إليه بملاحقة النهابة الجوالة فى سنة ٤١٤هـ لكنه عجز عن القضاء عليهم فاستبدل بقائد آخر فى سنة ٤١٥هـ هو "سنى الدولة عهد التاهرتى" فلم يستطع هو الآخر أن يردع النهابة الجوالة بل تمادى خطرهم وامتد من الريف حتى هدد الفسطاط نفسها[٧٢].

هكذا كانت بعض ملامح القرية فى مصر الإسلامية ولعلها تشير إلى أن الموضوع من الأهمية بدرجة تستوجب مزيد من البحث والتقصى.

الهوامش

(١) انظر لسان العرب عن معنى القرية والريف فى ماديتهما.

(٢) عبد العال الشامى، مدن الدلتا فى العصر العربى، رسالة دكتوراه ص ٦.

(٣) الاصطخرى : مسالك الممالك، ص ص ٥٠-٥١.

(٤) البكرى : جغرافية مصر ، تحقيق عبد الله الغنيم ، الكويت ١٩٨٠، ص ٩٦.

(٥) ابن جبير : رحلته ص ١٧.

(٦)مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار المجموعة الكمالية ص ٢٣٨.

(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ١٥٨ ؛ وابن ظهيرة :الفضائل الباهرة ص ١١.

(٨) المقريزى : خطط جـ١ ص ١٣٥ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٦.

وابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ٤٣ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مادة مصر.

(٩) المقريزى : خطط جـ١ ص ١٣٤.

(١٠) المقريزى : المقفى الكبير، جـ٦ ص ١٦٣.

(١١) شاعت نسبة تاريخ الكنائس والأديرة إلى أبى صالح الأرمنى ولكن الصواب أنه للمؤتمن أبى المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود الذى عاش فى القرن السادس الهجرى / ١٢م.

(١٢) عبد العال الشامى : مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين ص ٣٦٦.

(١٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان، مادة مصر.

(١٤) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٣.

(١٥) عبد العال الشامى : المرجع السابق ص ٣٧٦.

(١٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١.

(١٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص٤٣.

(١٨) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ١٩٠.

(١٩) الكندى : ولاة مصر، ص ٧٣ ، المقريزى حطط جـ١ ص ١٤٥ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٨٧، ص ١٣٥، ص ١٤٤.

(٢٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٢ ص ٢١٥.

(٢١) القزوينى : آثار البلاد، ص ٢٢٠.

(٢٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، حـ١، ص ٢٣.

(٢٣) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ، ص ١٣٧

(٢٤) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ٩٧ ؛ راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١١٦.

(٢٥) أبو الصلت أميه، الرسالة المصرية (من نوادر المخطوطات) ص ٢٧.

(٢٦) عبد العال الشامى : المرجع السابق ص ٣٦٨.

(٢٧) ابن حوقل، صورة الأرض ص ١٣٢.

(٢٨) الادريسى : نزهة المشتاق، جـ١ ص ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٢٩) ابن جبير : رحلته، ص ١٧.

(٣٠) المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ٣ ص ٨٨.

(٣١) نفس المصدر ، جـ٣ ص ٥١٦.

(٣٢) الإدريسى : المصدر السابق جـ ١ ص ص ٣٣٥.

(٣٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥٢ ؛ محمد حمدى المناوى : نهر النيل فى المكتبة العربية ص ١٧٨.

(٣٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٥.

(٣٥) ياقوت الحموى : المشترك وضعاً ، ص ١٩٧.

(٣٦) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٣٧) الادريسى : المصدر السابق جـ١ ، ص ٣٣٠.

(٣٨) عبد اللطيف البغدادى : المصدر السابق ص ٨٧.

(٣٩) المقدسى : المصدر السابق ، ص١٩٥.

(٤٠) راشد البراوى : المرجع السابق، ص ١١٦.

(٤١) ابن فضل الله العمرى . المصدر السابق ص ١٢٣٨ ؛ عبد العال الشامى، المرجع السابق ص ٣٦٥.

(٤٢) راشد البراوى : المرجع السابق ص ١١٦.

(٤٣) ياقوى الحموى · معجم البلدان ، مادة مصر ، القلقشندى · صبح الأعشى ، جـ٣ ص ١٩٨.

(٤٤) البكرى . المصدر السابق ص ٩٦.

(٤٥) المقريزى : خطط، جـ١ ص ص ١١١-١١٢.

(٤٦) ناصر خسرو : سفر نامه ص ٩٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٣٣.

(٤٧) المقريزى : خطط جـ١ ص ١١٢.

(٤٨) ناصر خسرو : سفرنامة، ص ٩٧.

(٤٩) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص

(٥٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٥٨.

(٥١) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٥٢) عبد اللطيف البغدادى : المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٥٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ١٤٠.

(٥٤) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ص ١٥٠-١٥١.

(٥٥) ناصر خسرو : المصدر السابق ص ٩٧

(٥٦) المقريزى : خطط، جـ١ ص ٨١.

(٥٧) ابن بطوطة، رحلته ص ٤٧.

(٥٨) النابلسى : لمع القوانين المضيه ص ٦٣.

(٥٩) ناصر خسرو : المصدر السابق ص ١٢١.

(٦٠) البلوى : المصدر السابق ص ١٩٠.

(٦١) النويرى · نهاية الأرب، جـ٨ ص ٢٦٧.

(٦٢) المقريزى : خطط جـ ١ ص ١٥٧.

(٦٣) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٤٩.

(٦٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٧٧.

(٦٥) نفس المصدر نفس الصفحة.

(٦٦) البراوى : المرجع السابق ص ص ١١٠-١١٥.

(٦٧) المقريزى : خطط جـ١ ص ٨١.

(٦٨) النويرى : نهاية الأرب، جـ ٨ ص ٢٦٢.

(٦٩) المقريزى : خطط، جـ١، ص ٨١.

(٧٠) النابلسى : المصدر السابق، ص ٦٣.

(٧١) هز القحوف فى شرح قصيدة أبي شادوف، ص ٢٠١.

(٧٢) المسبحي، أخبار مصر ، ص .

د . أحمد إبراهيم على

الهجرات العربية الهندية وآثارها الاجتماعية

(القرنين الأول و الثاني الهجريين)

التمهيد:ـــ

العلاقات العربية الهندية :-

العلاقات العربية الهندية قديمة قدم الشعبين ،وقد لعبت الجغرافيا دوراً في تطوير تلك العلاقة علي مر القرون ، وكان للتجار العرب الفضل في ترويج السلع والمنتجات الهندية ، حتى أطلق علي المحيط الهندي قديماً بحر العرب ،و كان الطريق البحري من شبه الجزيرة العربية إلي الهند من أكثر الطرق التجارية استخداماً ، وكثر ذكر موانيه وسبل السير فيه في كتب الرحالة والجغرافيين اليونانيين و العرب وهو يبدأ من ميناء الأبله ، وينتهي عند جزيرة ثار التي تعد الحد الفاصل بين إقليم السند وفارس ، وعلي مسيرة ثماني أيام منها يقع ميناء الدبيل [١] أهم ميناء هندي في العهد الإسلامي ،ومنه تنطلق السفن إلي ساحل الهند الغربي حيث إقليم الكجرات .

وبرغم طول مسافة السفر البالغة مائة واثنين وسبعين فرسخاً ،إلا أن مناسبة الظروف المناخية ساعدت البحارة علي قطعها بسهولة ويسر فكانت الرحلة من عمان إلي الكجرات تستغرق ثلاثة أشهر ذهاباً و إياباً [٢] ، ولم يكن الطريق البحري هو الوحيد الذي ربط العرب بالهند بل كان للطريق البري عبر فارس – خراسان – أهميه لكنها كانت تقل أو ربما تنعدم أثناء الحروب الطاحنة بين الفرس والروم ، حيث ترتفع الأسعار في شبة الجزيرة العربية

---

* دكتوراه في التاريخ الاسلامى–كلية دار العلوم جامعة المنيا

ويعم الغلاء [٣] وخصوصا إذا كانت القوافل قادمة من الصين عبر الهند بما عــرف بطريــق الحرير .

هذه وقد عرف الجغرافيون والرحالة العرب بلاد الهند جيداً، وكانوا أول من أطلق علي نهر هندهو اسم السند ،وعرفت الأراضي الواقعة بين فروع نهر السند بإقليم السند، وأطلقوا علي ما يقع خلفه بلاد الهند ، وكانت مدينة قامهل هي الحد الفاصل بين إقليمــي الســند والهند [٤] ، ونتيجة لعمق العلاقات العربية الهندية فقد حاول الإخباريون العرب ربط التاريخ السياسي بين البلدين فزعموا أن أحد ملوك العرب الجنوبيين ويدعي الحارث الــرئش غــزا الصين والهند وحملت إليه هدايا جليلة وعظيمة منهما [٥] ألا أن الثابت هــو أن الحــروب العربية الفارسية كانت البداية الحقيقية في ربط التاريخ السياسي العربي بالهند بعدما أخــذت جموع من الفرس تلجأ للهند فراراً من وجه الغزاة العرب .

ومن ابرز مظاهر التعاون العربي الهندي هو التبادل التجاري وتعود تلك العلاقــات إلي عام ألف وثمانمائة قبل الميلاد حيث لعب عرب حضرموت دور الوكلاء بين تجــارة الهنــد ومصر [٦] ،ووجد مجموعة من التجار العرب علي ساحل الهند الغربي منذ زمن الاســكندر المقدوني كانوا ينقلون محاصيل الهند إلي مدن الحجاز واليمن والإسكندرية وأشــهرها أوراق التنبول وجوز الهند –النار جيل–[٧]هذا وقد جاءت بعض ألفاظ القرآن الكريم بلغة هنديــة كانت رائجة في الجزيرة العربية في عهد الرسالة المحمدية مثل كافور ، مسك ،وزنجبيل الذي زاد استعماله نظرا لرائحته الطيبة [٨] واعتبرت القرفة من اشهر التوابل الــتي اســتخدامها العرب بجانب القرنفل [٩] و الحبهان والفلفل ونبات الصبر [١٠].

وكان للعطور الهندية منزلة عظيمة عند العرب واشهرها الكافور والعود الهندي ،بأنواعه القماري ، والصنفي ،والمندلي ،والكلهي [١١] ، ومن الأخشاب الساج الــذي اســتخدم في صناعة الأبواب والنوافذ والسقوف ،والصندل واستخدم في صناعة السفن منها البارحــة و الباتامارس و العويسة والباركات وهي من اشهر السفن العمانية [١٢] ناهيك عن دور الهنــد في نشر النباتات في الأراضي العربية .مثل النارجيل ،ولأرز الذي حرف عن كلمة الــرز في اللغة التاميلية [١٣] كذلك القطن وقصب السكر الذي عرفت بعض الدول العربية زراعتــه مثل العراق ومنها نقل إلي الشام ثم صقليه وقبرص و أسبانيا [١٤] ، ونقلت أشجار الليمــون

من الهند إلي عمان ، و منهما صدرت إلي البصرة والشام ،هذا بخلاف شجر الأترنج وورق التنبول وكان سعر الرطل منه في مصر والمغرب دينار [١٥].

ومن الحيوانات الهندية التي عرفها العرب الفيل ،وقط الزباد ،والطاووس ،وكلاب الصيد، والدجاج الهندي الذي عرفه العرب بالدجاج السندي لانه كان يجلب من إقليم السند. [١٦] ومن المعادن الماس و البلور والرصاص و السيوف الهندية التي عرفت بالمهند ، والرماح المعروفة بالخطي التي انتشرت صناعتة في عمان والبحرين [١٧] واستوردت الهند من البلدان العربية الخيول والذهب والماس والتمر .

أدي تطور العلاقات التجارية بين الهند والعرب إلي تطور التبادل الثقافي ولعل من أهم أسباب ذلك وجود عدد من أطباء الهند في مدرسة جنديسابور الساسانية تخرج علي يدهم فريق من أطباء العرب اشهرهم الحارث بن كلده الثقفي [١٨] ، ناهيك عن وجود قواسم مشتركة بين الثقافتين العربية والهندية أبرزها في الدين ، حيث ساد الاعتقاد في البيوت السبع للأصنام المشتركة بين العرب والهند [١٩]، و يتضح في الأساطير الأدبية عمق تلك الروابط الثقافية حيث تشير الروايات التاريخية أن سيدنا أدم هبط علي قمة جبل في سيلان سمي بأثر أدم وذلك قبل أن ينتقل إلي مكة ليقابل زوجته حواء التي هبطت علي جبل جده[٢٠]، وظل مهبط أدم مزاراً عربياً شهرياً حتى القرن السابع البحري ، بينما اعتقد الوثنيون الهنود أن هذا المكان يحتوي علي قبر سوجو مونيار كهان مؤسس نظامهم الديني[٢١].

كان للحكم والأمثال الهندية أثرها في تشكيل فكر الأدباء العرب و يتضح ذلك مما ذكره أبو سعيد عبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعي في كتابه ملوك العرب من بني هود وغيرهم عن الوصايا التي دونها للحليفين المأمون ت(٢٠١هـ/٨١٧ م) شارحاً كيف صاغها من الأدباء الفرس والهنود ، [٢٢] ونظم الخليل بن أحمد الفرهدي كتابه العين علي ما يخرج من الحلق و اللهوات وهو ترتيب يري بعض المستشرقين احتمال اقتباسه في ترتيب الأبجدية السنسكريتية ، كما كان الهنود يقدرون الشعر ونظمت كتبهم الدينية شعراً ، وعرفوا التفعيلات ووصفوا أرقاما للمتحرك والساكن وهي أقدم عهداً من تفعيلات الخليل[٢٣].

وتأثر العرب بالأدب الهندي فترجمت للعربية اشهر الأعمال السنسكريتية مثـل كليلـة ودمنة واشتملت الترجمة العربية لها علي أربعة عشر ألف بيتاً ، وكتاب بوذاسف و بلـوهر وهو المعروف في السنسكريتية باسم بودهي ستوبر وهيتر وهو يحتوي علي مجموعـة مـن القصص الخاصة بأحوال الناسك الكبير بوذا ، وأهم تلك الكتب كتـاب شـاناق الهنـد وموضوعة آداب الحرب [٢٤] وكلها كتب وأعمال تدل علي عمق العلاقات الثقافيـة بـين العرب والهند .

تأثرت اللغة العربية نتيجة لانتشار الجاليات الهندية فدخلت عليها مفردات هندية عديدة مثل صندل ،كافور ، قرنفل ، هيل ، زنجبيل ، ليمون ،ومن مفردات الأقمشة شاش ، شيت، وفوطة [٢٥] ،وكلمة بارجة وجمعها بوارج ، ودونج وجمعها دوانج – مركـب صـغير – وكلمة طوبي المذكورة في القرآن الكريم يقول بعض المفسرين إنها اسم للجنة في بعض لغات الهند [٢٦] ، وهناك يد أخري للهنود علي العرب وهي الأعداد التي عرفت بالهندية و نقلت إلي بغداد عام (١٥٧هـ/٧٧٣م) وقام بشرحها والتعليق عليها بعد ذلك محمد بن موسـي الخوارزمي أوائل القرن التاسع الميلادي ، ناهيك عن نظام الفلك وكان أول كتاب ترجم فيه السند هند بواسطة العلامة الفزاري ت (١٥٤هـ/٧٧٠م) ،وكتب الطب الـتي كانـت معروفة عند العرب مثل استانكر الجامع و سيرك و سندستان وقد ترجم أغلبها في العهـد العباسي[٢٧]

وانشأ العرب في ساحل مليبار مرا كز طبية في مدينتى بكلم و جاليم وشرعوا في تعلـم الأهالي قواعد وأصول الطب الحديث ، [٢٨] وانتشرت الثقافة العربية في الهند وأطلق علـي بعض المدن أسماء عربية مثل أبي سرور وهي أول مدينة في إقليم مليبار ، وكانت مركزاً عربياً عظيماً حتى القرن السابع الهجري وكان كبير المسلمين بها يعرف بالشيخ جمعه [٢٩] ناهيـك عن المؤثرات العربية في العمارة والفنون ، والمفردات العربية في الاقتصـاد والاجتمـاع ، أضف لذلك إن اللغة الأردية التي تعد اللغة الأساسية لمسلمي الهند وباكستان يظهـر فيهـا بوضوح مدي تأثير العربية في حروفها ومفرداتها .

أولاً: دواعي الهجرات العربية الهندية في القرنين الأول والثاني الهجريين :ـــ

أدي الصراع العربي في العهد الأموي إلي فرار العديد من أعداء بني أميه إلي الهند منهم بنوساميه بن لؤي ، حيث تغلب الأخوان محمد ومعاوية علي إقليمي السند و مكران عـــام (٦٥هــ/٦٨٥ م) وظلا كذلك عشر سنوات استقدما خلالها قومهم من عمان ،[٣٠] وكان يؤازرهم في تلك المرحلة راجا داهر بعد إن نصراه علي أعدائه وقدموا له خمسمائة جنـــدي من قومهم ، [٣١] ونظراً لاتساع نفوذهما فقد كونوا لأنفسهم دويلة عربية صغيرة اعتـــبرت أحدي أكبر المستوطنات العربية في الهند ،متخذين من جندوارة مقراً لهم[٣٢].

كان للمهالبة دوراً في تنشيط الهجرات العربية إلي الهند ، ويعزي للمهلب بن أبي صفرة قيامه بغزو الهند مع بني قومه عام (٤٤هــ/٦٦٤م) فاستوي علي طول المنطقة الممتدة مـــن كابل ، إلي الملتان ، ومن ثم ازداد نفوذ قبائل الأزد في تلك المنطقة وكان من ولاة الهند منهم روح بني حاتم ، يزيد بن حاتم ، داود بني حاتم ،و عمر بن حفص[٣٢]، واشتد نفوذ المهالبـــة في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وأصبحت الهند مأوي وملاذا آمنا لهم فأردوا تقســـيمها بين القبائل العربية و يكون للأزد النصيب الأكبر منها [٣٣].

لازالت الهند تستقبل أعداداً وفيرةً من المهاجرين العرب وكان أكثرهم من قبيلة ربيعـــة حيث أدي التنافس السياسي بين أحد رجالهم وهو عبد الرحمن بن الاشعث والحجـــاج بـــن يوسف الثقفي إلى انفراد الأول بالسيطرة على منطقة كال ثم سجستان ، وامتد نفوذه حتى بلاد الهند بعدما نجح في الانتصار على راجا رتبل وحتى بعد أن هزمه الحجاج في معركة دير الجماجم عام (٨٢هــ/٧٠١م) فر باقي رجاله ، و اتخذوا من الهند مأوي لهم ، [٣٤] وهو ما سيفسر لنا لاحقاً سبب هذا التواجد العظيم لقبيلة ربيعه في الهند.

أدي الصراع العباسي العلوي إلى إشعال ثورة العلويين عام (١٤٥هــ/٧٦٣م) في المدينة والبصرة بقيادة الأخويين محمد بن عبد الله بن الحسن و أخيه إبراهيم فقضي عليهما أبا جعفر المنصور ، وكان ممن نجا من تلك الواقعة عبد الله بن محمد المعروف بالأشتر وهو الذي قـــاد جماعة من العلويين وهاجر بهم إلى الهند عند وليها عمر بن حفص المعروف بـــ هـــزار مـــرد ـــالألف رجل – وكان عدد الشيعة الذين فروا إلى الهند أربعمائة رجل ،وقد أستقر عبد الله وجماعته بالهند ، واتخذ لنفسه السراري ، وولد له فيها ابنه محمد بن الأشتر ، وذلك قبل أن

يقتله الوالي هشام بن عمرو التغلبي [٣٥] ، ومن ثم تكونت في الهند جماعة من المهاجرين المؤيدين للشيعة مما يوضح لنا سبب رواج هذا المذهب في الغرب والوسط الهندي.

و إذا كان بعض الخارجين على الحكم الأموي العباسي فر إلى الهند طواعية فإن البعض الأخر اضطر لذلك ممن تعرضوا للنفي مثل المحدث معاوية بن قره المزني الذي نفاه الخليفة عبد الملك بن مروان نظراً لرأيه في شخصية الحجاج بن يوسف ، أما الشاعر أحمد بن أبي نعيم البغدادي فقد نفاه الخليفة المأمون إلى الهند بعدما انشده قائلاً .

لا احسب الجور ينقضي وعلى الأمة وال من آل عباس [٣٦]

وعلى الجانب الأخر فنظراً لحركة الفتوح الإسلامية في الهند فقد زاد عدد السبي الهندي في البلدان العربية ونبغ منهم العديد من الشعراء والأدباء والمحدثين أشهرهم الشاعر أبو عطا السندي ، والمحدث ابن معشر نجيح السندي، وابن الأعربي اللغوي الشهير [٣٧] ، واشتركت جاليات منهم في خدمة الأسطول الإسلامي ، وجذبت الهند أعداداً من المرتزقة العرب الذين خدموا في الجيش الهندي و خصوصاً في جزيرة سيلان الذين كان أهلها يستغيثون بهم كلما دعت الحاجة لذلك [٣٨] ، وقد كان للمهاجرين العرب دوراً عظيماً في تلك الجزيرة قبل البعثة المحمدية وفي العهد الأموي.

تساوي العرب والهنود في الهجرة لأسباب اقتصادية ، حيث عمل الهنود المهاجرون في مجال الصرافة ، وذكر أنه لم يوجد في البصرة صيرافياً الأ وصاحب كيسه سندي ، و أثناء الفتنة بين الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان كان على صرافة البصرة مائة وعشرين صيرافياً سندياً من السيابجة [٣٩] ، وقد أدي النظام الطبقي الهندي ذو الأصول الاقتصادية إلى هجرة أعداد ضخمة من المواطنين الهنود إلى الأراضي العربية وخصوصاً من طبقة الويش أو المنبوذين وكان منهم قبائل الزط [٤٠] ، وقد شكل الزط عماد الجاليات الهندية وسرعان ما كانوا يحصلون على مكانه اجتماعية واقتصادية رفيعة وواحد منهم الشاعر أبو عطاء السندي أحد الشعراء المخضرمين في العهدين الأموي والعباسي ومولي بني أسد [٤١]وكان نجاح مثل هؤلاء الرجال يلهب حماس الأخريين للقدوم إلى البلدان العربية.

جذبت الهند بثروتها التحار العرب وبدلاً من رحلات الذهاب والعودة استقر عدد منهم فيها وخصوصاً على الساحل الغربي ، وفي مدينة صيمور وجد بها ما يقرب من عشرة الأف

من البياسرة وهم أبناء التجار العرب الذين تزوجوا من هنديات غير السيرافين من عمـان والبصرة وبغداد [٤٢] ، ناهيك عن المجموعة الكبيرة من التجار العرب في جزيرة سيلان وكان خطف نساؤهم على يد القراصنة الهنود سبباً في المواجهة العسكرية بين الأمويين وراجا داهر حاكم إقليم السند [٤٣].

انتشرت المستوطنات العربية للتجار العرب على ساحل الكجرات وخصوصاً في مـواني كنبايت ، بهروج ، سومنات و جولكنده ، وكانوا يعاملون آنذاك من جانب حكام أسـرة راشتراكوتا معاملة حسنة ، ومنحوا امتيازات مالية و تسهيلات تجارية خاصة نظراً للـربح الوفير الذي كان يجنيه هؤلاء الحكام منهم [٤٤] ، ونفس الأمر تكرر مع التجار العـرب في مليبار ، وقد أطلق على أبنائهم لقب مابلا – ابن العظيم – وشكلوا لأنفسهم مستوطنات في مناطق كنكن و تراونكور [٤٥] ، و حصلوا على أرباح عظيمة خلال تجارتهم في منتجـات البلاد واشهرها التوابل والأقمشة والعطور.

كانت الدعوة الإسلامية أحد أسباب استقرار المهاجرين العرب في الهنـد ، ويـذكر أن جيش المهدي الموجه إلى الهند عام (١٥٩هـ /٧٧٦ م) كان فيه عدد كبير من رجال الدين والحديث منهم المحدث الربيع بن صبيح البصري [٤٦] ، وزادت أعداد الجاليـات العربيـة العامل أفرادها في مجال الدعوة على يد الداعية مالك بن دينار و اخيه شرف بن دينار وابن أخيه مالك بي حبيب الذي زار الهند لهذا السبب ونشر الإسلام على ساحل مليبار ، وقـد استقر مالك بن حبيب في مقاطعة كلور وترك بعض أولاده في مقاطعة كولم ، و بنا أكثر من سبع مساجد في مليبار [٤٧] ، وقد أثر التواجد العربي في سواحل مليبار وسـيلان حـتى أن أغلب مسلمي هاتين المنطقتين ينتمون لأصول عربية [٤٨] ، أضف إلى ذلك فـرار الـدعاة الشيعة منذ عام (١٥١هـ/٧٦٨م) بقيادة عبد الله بن محمد الأشتر.

ازدادت الهجرات الشيعية للهند في القرن الرابع حيث استوطن الداعية أحمد بن عيسـي بن محمد بن على بن الإمام جعفر الصادق جنوب الجزيرة العربية عام (٣١٣هـ/٩٢٥م) ثم انتقل إلى ساحل مليبار ، وعرف بالشيخ عيسي المهاجر، ومنها انتقل أعقابه إلى اندونيسـيا ويذكر أن أول أسرة حاكمة هناك كانت علوية يرأسها حاكم لقب بالشيخ ، وفي كمبوديا وصل احد أبناؤه ويدعي الحسين الملقب بجمال الدين الأكبر ومن أبنائه إبراهيم الذي تزوج الأميرة بايي ولاق من أهل سيام [٤٩].

وعلي الجانب الهندي أدي اهتمام العباسيين بالعلم والعلماء إلى قدوم جالية هندية كبيرة إلى بغداد من ادباء وعلماء و أطباء وكان احدهم يحمل معه كتاب السند هند في الفلك وصل به بغداد عام (١٥٦هـ/٧٧٣م) (٥٠)،وممن اعتني بهذا الأمر أكثر يحي بن خالد البرمكي الذي نشأ في كشمير وتلقي تعليمه في الفلك والطب والحكمة فيها (٥١)، فقام بدعوة كبار الأطباء لبغداد مثل منكه الذي نقل كتاب شاناق الهندي في السموم ، وابن دهن الذي عهد إليه بإدارة دار الشفاء ، وابن بهله الذي عالج إبراهيم بن صالح عم الرشيد، والطبيب بازيكر وسندباد و قليرقل (٥٢)، وكان مثل هؤلاء العلماء يحصلون على منزلة اجتماعية رفيعة في المجتمع الإسلامي وخصوصاً بعد إسلامهم فيؤثرون في المجتمع ويتأثرون به.

وبأمر الخلفاء كان بعض كبار العلماء يتوجهون إلى الهند ، ويقيمون فيها لاكتساب العلوم والمعارف مثل أحمد الحاسب البغدادي الذي أرسله الخليفة المعتصم إلى الهند لهذا الغرض، كما أدي استقرار المهاجرين العرب من قبائل الأزد وربيعه إلى قدوم المثقفين والأدباء العرب إلى حواضر العرب في الهند ومنهم الشاعر مطيع بن إياس الكناني الذي مدح الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وأبي جعفر المنصور ثم رحل إلى الهند ومدح وليها هشام بن عمرو التغلبي ، وقد أبكته ابنته حتى يرغب عن الرحيل للهند فقال لها.

اسكتي فقد حززت بالدمع قلبي ... طالما حز دمعكن القلوبا
ودعي أن تقطعي الأن قلبي ... وتريني في رحلتي تعذيباً
فعسي الله أن يدفع عني ... ريب ما تحذرين حتى أءوبا(٥٣)

ثانياً : عناصر السكان من المهاجرين العرب والهنود :ـ

(أ) القبائل العربية في الهند:ـ

تمركزت قبائل الأزد في منطقة عمان التي تعتبر قاعدة الخليج العربي ، وفي نفس الوقت تطل على المحيط الهندي ، أي أنها تقع على الطريق الرئيسي للتجارة العربية الهندية (٥٤) أما قصبتها فهي مدينة صحار مستودع السلع الهندية . كل ذلك ربط بين قبائل الأزد والجاليات الهندية المتمركزة في الخليج العربي ، ومن الأزد كان آل مهلب الذين كان لهم علاقة خاصة

بالهند ، وتولي عدد منهم أمارة الهند، اشهرهم المهلب بن أبي صفرة الذي غز البلاد عام (٤٤هـ/٦٦٤م) ففتح مناطقتي قندابيل ولاهور [٥٥] و انتشرت قبائل الأزد في خراسان وزحفت منها على الهند بقيادة راشيد بن عمرو الحديدي الذي فتح مدينة القيقان ، وتمركز بقواته في إقليم السند [٥٦] ليصبح لتلك القبيلة مكاناً متميزاً في هذه المنطقة إبان الحقبة الأموية.

مما يدل على مكانة قبيلة الأزد في السند أن الخليفة سليمان بن عبد الملك اسند الإقليم لواحد منهم وهو سليمان بن حبيب ليتصدى لرجال بني عقيل معتمداً علي بنى عمومته، وانتهي الأمر إلى مقتل الفاتح العربي محمد بن القاسم على يد معاوية بن المهلب الأزدي دون أن يحرك ذلك لبني عقل في الهند ساكناً [٥٧] ، و تعرض الأزد عام (١٠٢هـ/٧٢١م) لمحنة شديدة عندما اشتد نفوذهم فأرسل إليهم الخليفة يزيد بن عبد الملك حملة عسكرية بقيادة هلال بني أحوز التميمي فقضي عليهم في خراسان، ومن بقي منهم فر إلى السند فاستقبلهم راجا راتبل ، واستعان بهم في تثبيت عرشه والتصدي لمنافسيه [٥٨] ، وبرغم ذلك ظلت جماعة من قبائل الأزد متمركزة في مدينة براهمنا باد وكان يتزعمهم وداع بن حميد الأزدي[٥٩].

زاد نفوذ الأزد في إقليم السند وفي مائة وعشرين عاماً تولى الإقليم خمس ولاة من الأزد، منهم داود بن يزيد الذي حكم الهند عشرين عاماً ،واستعان بهم العباسيون لإعادة سيطرتهم على السند فانتدب الخليفة أبو جعفر المنصور عمرو بن حفص المعروف بهزار مرد – الألف رجل – مع جماعة من الأزد لطرد الوالي المتمرد عينيه بن موسي عام (١٤٣هـ/٧٦١م)[٦٠] ، وآثار التواجد الكثيف للأزد في السند الزعماء العرب الذين رغبوا في تقسيم البلاد ثلاثة جزء لقيس وأخر لربيعه وثالث لقريش وطرد الأزد الذين اتحدوا تحت راية المغيرة بن يزيد وحاصروا مدينة المنصورة عشرين يوماً حتى استسلم زعماء العرب[٦١]ثم قضي المغيرة بن يزيد على بني تميم في الهند وذكر تلك الواقعة الأليمة الشاعر عبد الله الأزدي فقال .

افني تميماً سعدها وربها بالسند قتل مغيرة بن يزيد
صعقت عليهم صعقة عتكية جعلت لهم يوم كيوم ثمود

قدنا الجياد من الـــعراق إليهم مثل القطـــا مستنة لـــورود

يحملـــن من ولد المهلب عصبة خلقت قلوبهم قلوب أسود [٦٢]

لبني تميم مآثر في الهند جعلتهم يحتلون مكاناً متميزاً بين المهاجرين العـــرب بـــرغم قلـــة عددهم فكان منهم عبد الله بن سويد القشيري وهو أول من غزا الهند، و عمر بن عبيد الله القرشي الذي فتح مدينة أرمائيل وبني مسجداً عظيماً في منطقة خاشك وانزل بها عدداً من المستوطنين العرب [٦٣]، أما عمارة بن تميم فقد غزا مدينة باميان وعاقب راجا راتبل الـــذي استقبل بقايا الأزد، كل ذلك جعل الخليفة المنصور يثق في القائد معبد بن خليل المزني فيوليه السند عام (١٥٧هـ/٧٧٤م) فاستقدم من قومه من أعانه على مد النفوذ العربي في هـــذا الإقليم [٦٤] وكان هو الوالي الوحيد للهند من بني تميم.

لعب بني تميم دوراً في تثبيت ملك بني العباس في الهند بعدما حاول بني ربيعه الإنفـــراد بالإقليم بزعامة منصور بن جمهور فوجه إليه الخليفة أبو جعفر المنصور موسي بـــن كعـــب التميمي مع أربعة ألاف من عرب خراسان وستة عشر الفاً من بني تميم فتمكن من هزيمـــة ربيعه [٦٥] ، وكانت تلك البداية الحقيقة لتوطين ستة عشر ألف تميمي في إقليم السند ، وقد تمركزوا في مدينة المنصورة بعدما أعاد بناءها موسي بن كعب وجدد مسجدها الرئيسي [٦٦]، وقد لفت الانتباه زيادة هجرة بني تميم إلى الهند وكانت نساء العرب ينشدن رؤساء بني تميم رد أبنائهم إليهم مثل تلك المرآة من بني يربوع التي ناشدت تميم بني زيد العتبي على لســـان الشاعر الفرزدق لرد ابنها خنيس فأرسل إليه يقول:

أتتني فعاذت يا تميم بغالـــب وبالحفرة الساقي عليها ترابها

فهب لي خنيساً واتخذ فيه منة لحوبة أم ما يسوغ شـــرابها

وقد دفع العرب إلى محاولة إرجاع ابناؤهم ما تعرضت إليه قبائل تميم في الســـند جـــراء مرض الطاعون الذي قضي على اغلبهم في منطقة ماء الجواميس القريبة من نهر مهران ممـــا أدي إلى تراجـــع اغلبـــهم إلى مراكـــزهم القريبـــة مـــن نهـــر الســـند [٦٧]. وفي عـــام (١٤٢هـــ/٧٦٠م) تحامل التميميون بزعامة عينية بني موسي على بني ربيعه ، وقتل منـــهم خلقاً عظيماً ، وساقه طموحه إلى السيطرة على إقليم السند و إعلان انفصاله عن الدولـــة العباسية ، [٦٨] وهنا اضطر الخليفة المنصور إلى الإستعانة بقوة ونفوذ قبائل الأزد في الهنـــد

فأرسل إلى عينية بني موسي القائد عمر بن حفص ، ودارت بين الطرفين معارك عنيفة كانت في الأصل بين المستوطنين التميميين و الأزديين، وقد بلغ هذا الصراع الدامي ذروتــه عــام (٢٠٥هـ/٨٢١م) عندما قتل هلال ابن أحوز التميمي زعيم الأزد بشر بن داود فاندلعت نار الحرب بين الطرفين و فيها قضي على بني تميم في الهند [٦٩].

يعد سعيد بن اسلم الكلبي أول قائد مــن بــني ربيعــة يتــولى إمــارة الســند عــام (٧٨هـ/٧٤٧م) ، أما سفيان بن الأبرد فكان من ابرز قواد جيش محمــد بــن القاســم الثقفي،وفي عام(٨٠هـ /٧٤٩م) تمركزت قبائل ربيعة في الهند في منطقة أرمائيل بزعامــة محمد بن هارون النمري وهو الذي توفي في قرية قنبل السندية [٧٠] ،وفي أواخر عهد بني أميه سادت الأضطربات والفتن في السند ، وتغلب الهنادكة على المسلمين، وهنا ظهر الــزعيم الحكم بن عوانه الذي جمع العرب من بني ربيعة وشيد لمسلمي الهند مستوطنة عظيمة اسماها المحفوظة [٧١] كانت من أكبر مراكز العرب المهاجرين في الهند.

بيد أن جهود الحكم بن عوانه الكلبي أتت ثمارها فارتفع شأن بني ربيعة بين المســتوطنين العرب ، وسيطروا على مدينة المحفوظة في عهد ولى الإقليم منصور بن جمهور الكلبي زعــيم بني ربيعة الذي أعلن استقلاله بالسند فدخل في صراع رهيب مع موسي بن كعب التميمي الذي تتبع بني ربيعة في السند ، وطرد بعضهم خارج البلاد ففر من بقي منهم إلى بلاد الخزر وكان منهم زوجات وأطفال لمنصور بن جمهور الكلبي [٧٢].

بجانب مآثر بني ربيعة في الهند السياسية فقد كان لأبنائها بخلاف باقي القبائل العربية دوراً في تنشيط الحياة الثقافية وذلك بهجرة العديد من شعرائهم للهند و أبرزهم الشاعر الدهمس اليربوعي الذي كان معاصراً لجرير وهجاه فيمن هجا ، والشاعر الصمة بن عبد الله القشيري وهو من أشهر شعراء الغزل ، أما ذو الرمة – غيلان بن عقبة – فقد زار الهند زمن الحكــم بن عوانه الكلبي فمدحه فأعطاه مائة رأس من سبي الهند، أما الشاعر عمرو بن خالد الكلبي فوصف في شعره حربَ المسلمين ضد راحا داهر ودوره كواحد من بني ربيعة في قتل رجــا داهر فقال:

الخيل تشهد يوم داهر و القنــا ... ومحمد بن القاسم بن محمد

إني خرجت الجمع غير مــمرد ... حتى علوت عظميهم بمــهند

فتركته تحت العــجاج مــجدلاً ... متعفر الخدين غير موسد [٧٣]

من القبائل العربية التي اتخذت لنفسها موضع قدم بين المستوطنين العرب في الهند بني تغلب وكانت بداية أمرهم عام (١٥٧هـ/٧٧٤م) عندما اقنع واحد منهم وهو هشام بن عمرو التغلبي الخليفة أبا جعفر المنصور بتوليته إقليم السند وقدرته بمساعدة بني قبيلته في القضاء على عبد الله العلوي المعروف بأبي الأشتر [٧٤] ، وعقب الانتهاء من تلك المهمة ظل سبع سنوات يكافح لأجل مد النفوذ العربي في الهند ففتح مدينة باربد ثم قندهار ، وكانت اشهر حملاته على مدينة الملتان، واسترد مدينة قندابيل وكان بها مستوطنة عظيمة للعرب المهاجرين ، وقد تقلص نفوذ بني تغلب في الهند بسبب قلة عددهم مقارنة بالمهاجرين العرب من القبائل الأخري وربما ذلك كان سبباً في فشل الزعيم ابن عمرو التغلبي في القضاء علي الصراع الذي دار بين القبائل العربية في الهند فيما بعد [٧٥].

كان لقبيلة قريش نفوذاً عظيماً في الهند ومنهم ولد سامية بن لؤي ، ويعد سيدهم الخريت بن راشد الناجي اشهرهم وهو الذي لقي الرسول (ص) مع عدد من رجاله وأهله، فأشار الرسول (ص) لأصحابه وقال (هؤلاء قومكم فانزلوا عليهم) ، وقد اختلف الخريت مع سيدنا على فترل مدينة مكران الخراسانية واستقر فيها [٧٦] ، وسرعان ما انتشر المستوطنون العرب من بني لؤي على طول الطريق بين مكران والسند وذلك عام (٦٥هـ/٦٨٥م) بعدما تزعمهم الأخوان محمد ومعاوية أبناء الحارث العلافي واستقدموا قومهما من عمان إلى السند ، واستمرت تلك الهجرات لعشر سنوات . تقلص نفوذ بني لؤي علي اثر الحروب التي دارت بينهم وبين الأمويين واضطر زعيمهم حميم بني سامية إلى الانتقال مع بني جلدن إلى الجنوب الكشميري[٧٧] ونتيجة للصراع القبلي العربي استغل بني لؤي اضطراب أوضاع إقليم السند فمدوا نفوذهم حتى مدينة الملتان عام(٢٧٩هـ/٨٩٢م) وجعلوها مستوطنة خاصة بهم، واتخذ زعيمهم محمد بن القاسم السامي من جندوار مركزاً لحكمة ، وبلغت تلك الإمارة اوج عظمتها في عهد أسد بن اللهاث عام (٣١٠هـ/٩٢٢م) حتى قضي عليها القرامطة[٧٨].

مرة أخري ومع ازدياد وتيرة الصراع الأموي مع عبد الله الزبير اضطرت جماعة كبيرة من القرشيين للهجرة إلي السند قادمين من المدينة المنورة ، واستوطنوا ساحل الهند الغربي – الكجرات – وكونوا جذور جالية عربية كبيرة عرفت بقبائل النوات ، وظهر منهم كبار العلماء واشهرهم ملا على المهايمي الذي ينسب إلى مدينة مهايم في بومباي و أجداده من القرشيين العرب[٧٩].

و من أهم القبائل القرشية التي كان لها دور في الهند بني ثقيف التي كانت منازلها تمتد من جبل الحجاز بين مكة والطائف [٨٠] ، وظهر منهم القائد محمد بن القاسم الذي قاد جيوش الفتح وعمره سبعة عشر عاماً فاستولي على مدن السند مثل بيرون ، و سيهان، وضم مقاطعتي السند والهند للحكم العربي [٨١] وجذب بنشاطه و شاعريته قلوب المستوطنين العرب و الهنادكة الذين رسموا له صورة لطيفة واحتفظوا بها [٨٢] تقدير لهذا البطل العظيم وتخليداً لتسامحه وتعاطفه معهم.

برغم تلك الضربة الموجعة التي تعرض لها المستوطنون الثقفيون في الهند أثر موت الحجاج بن يوسف الثقفي ثم محمد بن القاسم إلا أن زعيمهم عمرو بن محمد شيد لهم مستوطنة عظيمة في مدينة المنصورة التي اعتبرت مقراً قرشيا في الهند [٨٣] ، ولم ينجح الوالي الجديد منصور بن جمهور الكلبي في السيطرة على الهند ألا بعد أن كسر شوكة المستوطنين القرشيين واغتيال زعيمهم عمرو بن محمد [٨٤] ، وقد ادرك الخليفة هارون الرشيد مدي مكانة وجهاء العرب القرشيين في الهند فوقع اختياره على بعضهم ليتولى شأن الإقليم متل على بن عبد الرحمن بن سليمان ، واسحق بن سليمان ، وعندما عزل الأخير وولي مكانه طيفور الحميري، هاج الهاشيمون في السند ، وأردوا قطع دابر الحميريين ، وطرحوا مشروع تقسيم الهند بين القبائل النزريه – العدنانيون – الشمالية دون الحميريين الجنوبيين [٨٥].

كان نفوذ القرشيين يتسع يوماً بعد يوم في السند وخصوصاً ولد هبار بن الأسود القرشي الذين اتخذوا من مدينة بانه الكجراتيه مستوطنة عظيم لهم [٨٦] ، ورويداً اخذ نفوذ الهباريين يصل إلى مدينة المنصورة التي انتقل إليها زعيمهم عبد الله بن عبد العزيز الهباري ، وكانت تلك المدينة بها مستوطنون كثيرون من نسل سيدنا على بن ابي طالب ، فتعاونوا مع الهاربين في السيطرة على المدينة [٨٧] ، واحتفظ العرب القرشيين بمنزلة رفيعة في ساحل الكجرات ، وكان منهم أعداد غفيرة من قبيلة بكر بن وائل في مدينة كنبايت وكان اغلب رجالهم من العلماء الصالحين المعروفون بورعهم وتقواهم [٨٨].

(ب) صراع المهاجرين القبلي وأثره على العنصر العربي في الهند:ـــ

حملت القبائل العربية المهاجرة للهند معها عصبيتها مما أثر سلباً على المستوطنين العرب ، فكان الأخذ بالثأر أحد أهم أسباب هذا الصراع القبلي البغيض ، فبعد أن قتل الحجاج أناساً

من آل المهلب استغل المهالبة وفاته و نلكوا ببني عقيل في الهند وكان أكبر ضحية لهم الشاب محمد بن القاسم الثقفي ، وكان الخليفة سليمان بنى عبد الملك سبباً في تزكية هذا الصراع بعدما كتب إلى صالح بن حبيب المهلبي وإلى السند بأخذ بني عقيل ومحاسباهم [٨٩]. وعلى جانب آخر استغل بعض الولاة التنافس القبلي بين المهاجرين العرب لبسط سيطرهم على الهند من خلال أشعال نار الفتنة بينهم وهذا ما فعله محمد بن عدي التغلبي في عهد هارون الرشيد ، وكان ذلك سبباً في قتله على يد وجهاء العرب أثناء رحيله من المنصورة إلى الملتان، أضف لذلك اختلال توازن القوي بين المتنافسين العرب مما تسبب في طغيان أحد القبائل حيث تعرضت قبيلة تميم لنكسة عظيم عندما ضرب الطاعون ابناءها في منطقة ماء الجواميس [٩٠] مما رجح كفة منافسيهم من الأزد حتى انتهت الحرب بينهم إلى فناء المستوطنين التميميين.

ومن أسباب الصراع القبلي العربي السيطرة على المدن الرئيسية في السند ويذكرنا ذلك بصراعهم في الجاهلية على المراعي و الكلأ، وقد شكلت مدينتي المنصورة والملتان مركز هذا الصراع حتى حسمه القرشيون فسيطر بني سامية على الملتان، و الهباريون على المنصورة[٩١]، ولعل أي محاولة لرصد الصراع القبلي العربي في الهند خلال فترة البحث ربما تحتاج منا بحثاً مفصلاً ، ولكن بشكل غير مسهب فإن أول شرارة لهذا الصراع كان ما قام به هلال بن أحوز التميمي من قتل آل المهلب في السند إبان حكم الخليفة يزيد بن عبد الملك فضرب عنق كل من بلغ الحلم منهم حتى كاد أن يفينهم ووصف الشاعر جرير تلك الواقعة فقال:

فلم يبق منهم راية يعرفونها ولم يبق من آل المهلب عسكراً [٩٢].

علي اثر تلك الحادثة ازداد نفوذ المستوطنين التميميين فدارت بينهم وبين بني ربيعة حرب طاحنة بلغ فيها جند التميميين عشرون الفاً حتى قضوا على منافسيهم عام (١٣٤هـ/٧٥١م)[٩٣] . وكان الصراع القبلي خارج الهند يؤثر سلباً على استقرار المهاجرين العرب داخلها فمن ضمن وقائع عام (١٧٦هـ/٨١٥م) حدوث صدام عنيف بين النزرية واليمانية في الشام حتى كاد زعيم النزرية أبو الهيذام المري أن يستولى على دمشق[٩٤] ، وقد انتقل هذا الصراع إلى الهند مما دفع الخليفة المهدي إلى توليه سبع ولاة على الهند عسي احدهم أن يقضي على نار الفتنة ، واقترحت النزرية تقسيم الهند ثلاث ربعاً

لقريش و أخر لقيس وثالث لربيعة وطرد اليمانية نهائياً ، وبلغت المواجهة بين الطرفين أشدها عندما استطاع عمر بن عبد العزيز الهباري قتل الوالي عمران بن موسي البرمكي بعدما اتهمه بمحاباة اليمانية واستولى على مدينة المنصورة [٩٥] وعندما حاول الخليفة المتوكل تهدئة أوضاع الهند أرسل إليها عام (٢٣٢هـ/٨٤٧م) هارون بن خالد المروزي فلم يمكث سوي أربع سنوات حتى قتل أثناء الصراع القبلي[٩٦].

أثر هذا الصراع على المستوطنين العرب في الهند تأثيراً سلبياً ففي احد عشر عاماً وهي فترة حكم الخليفة المهدي تعاقب على البلاد سبعة ولاة مكث بعضهم اقل من عشرين يوماً ، وظهرت فكرة تقسيم الهند بين المستوطنين العرب تلك الفكرة التي اختمرت بعد القرن الثاني فتم تقسيم البلاد فعلاً بين الساميين و الهباريين ، فاشتد عود الشيعة ، وأخذوا يسيطرون على الهند شيئاً فشيئاً ، وتجددت ثورات الزط ، وانشغل الولاة فقط بمحاولة فض هذا النزاع الأزلي دون تدعيم النفوذ العربي في الهند [٩٧] وأصبحت المستوطنات العربية شبه قلاع عسكرية وضع على كاهل ساكنيها صد الهجمات المتكررة من جانب الهنادكة.

اضطر المستوطنون العرب للحفاظ على مستوطناتهم المتواضعة التنازل عن مبادئ دينية فنجد ملوك الملتان يبقون على الصنم الكبير في المدينة ليضغطون به في الوقت المناسب على المهاجمين عليهم من الهنادكة فيهددونهم بتدميره [٩٨] ، وضاعت الهوية العربية المتميزة وأخذ ملوك العرب يقلدون الهنادكة في ملابسهم و زينتهم بل و ألقابهم ومن ثم أصبح تاريخهم في تلك الحقبة مشوهاً ، وأصبح جلياً مدي الصعوبة التي تكتنف البحث في تاريخ المستوطنين العرب في الهند بعد القرن الثاني الهجري حتى أن اغلب أمهات كتب التاريخ الهندي تفتتح عهد الإسلام في الهند بالحقبة الغزنوية وليست العربية مثل فرشته و البدواني ونهاوندي صاحب موسوعة مآثر رحيمي وغيرهم.

فقد المستوطنون العرب مترلتهم الاجتماعية المتميزة ، واندمجوا مع القبائل الهندية الأخري، و أسندت إليهم أعمال كان يقوم بها طائفة الشودر أو المنبوذين من الهنود مثل العمل كمرتزقة أو قصابين [٩٩] ، و انيط بهم العمل في حقول القطن مثل قبيلة السدودي كولا[١٠٠] ، وكل ذلك بلا شك أضعف من مسيرة انتشار الإسلام في الهند على حساب النفوذ الهندوكي المتصاعد ، وكان لابد من أعادة الإسلام إلى سالف عهده وتلك المرة على يد الغزاة الأتراك من الغزنويين ثم الغوريين.

(ج) عناصر السكان من المهاجرين الهنود :ـــ

كان يقيم في البلاد العربية منذ القدم جماعة اشتهروا ولقبوا بالأحامرة أو الحمر ، وكانوا في البداية من الهنود فقط ، ولكن شمل هذا اللقب مواليهم من فارس الذين اسلموا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وعرفوا بحمر الديلم [١٠١] وترجع تلك التسمية إلى ارتدائهم الملابس الحمراء الدالة على الديانة البوذية [١٠٢] وكان الهنود الأحامرة قد تميزوا باستخدام الصبغة الحمراء التي مصدرها النيلة ، وهذا لا يجب أن يحدث لبساً عندنا وخصوصاً إذا علمنا أن العرب أطلقوا على العجم الحمراء لغلبة الشقرة عليهم . كما أن الأحامرة تمثل عند العرب متع الحياة الثلاثة وهي الخمر واللحم و الخلوق، وذكر الأعشي ذلك موضحاً أثر الزعفران الذي كان الأحامرة يستخدمون في صبغ ملابسهم.

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت ... مالي وكنت بها قديماً مولعاً

الخمر واللحم السمين وأطلي ... بالزعفران فلن أزال مبقعاً [١٠٣]

كان الأحامرة من سكان إقليم السند، وقد نزلت جاليات كبيرة منهم الأراضي العربية وسكنوا مدينة البصرة، واشتهروا بطول قاماتهم [١٠٤] ، وكثر تواجدهم بين قبيلة الأزد التي كانت تسكن منطقة عمان ، وانضم جزء أخر منهم إلى قبيلة بني تميم وهم بنو زهرة ، وصاروا حلفاء لهم، ولما قررت لهم الوظائف صار لهم نقيب عرف بديلم ، ووجدت جماعة منهم في منطقة العمران الممتدة بين الشام والمدينة وكانوا من حلفاء بني غفار، وحتى عهد الخلفاء الراشدين كان عدد من الأحامرة يخدمون في جيش الفرس، وبلغ تعدادهم أربعة ألاف جندي [١٠٥].

السيابجة قوم من الهنود الذين استوطنوا الأراضي العربية و السيابجة تعني قوماً ذو بشرة سوداء [١٠٦] ، وربما قصد بتلك اللفظة أطفال السيابجة – اللفظة منقسمة إلى سياه بمعني اسود وبجه وبمعني أطفال – الأمر هنا يرتبط أكثر باللون الأسود سواء في البشرة أو الملبس – الكلمة مأخوذة من كلمة سبيج ومعناها ثوب صوف أسود – ونظراً لكون السيابجة من المنبوذين فقد أطلق عليهم أحيانا البرابرة أو علوج السند، حيث احترف بعضهم السرقة وحراسة السجون [١٠٧].

سكن السيابجة مناطق شرق شبه الجزيرة العربية في الخط و هجر و القطيف بجانب عمان وقطر والبحرين [١٠٨] وقد انضمت جموع منهم للمرتدين بقيادة حطم بن ضيعة وكانوا حتى ذلك الوقت لا يزالون متمركزين في منطقتي القطيف والهجر ، ثم انضموا بعد الإسلام إلى قبيلة بني حنظلة في البصرة ، وكان لأبي موسي الأشعري دوراً في نشر الإسلام بينهم ،[١٠٩]، و بلغ تعدادهم على بيت مال البصرة في عهد الخليفة على بن أبي طالب أربعون وقيل أربعمائة، وفي جيش المهدي الذي سيره لبلاه الهند عام (١٥٩هـ/٧٧٦م) كان فيه أربعة آلاف من السيابجة و الأساورة [١١٠].مما يدل على عمق الدور الذي لعبه السيابجة في الحياة الاجتماعية والسياسية.

من أقل الجماعات الهندية انتشاراً في البلدان العربية البياسرة وهم قوم من السند وقيل جيل من السند يؤجرون أنفسهم للخدمة في السفن [١١١] وعرفوا بأنهم قوم نتجوا من زواج العرب التجار بالهنديات [١١٢] ، وقد اعتاد العرب أطلاق هذه اللفظة على الذين يرافقونهم من الهنود في سفنهم التجارية،ثم أطلقت على طائفة من شيعة الهند المعروفين بالبواهرة وأغلبهم تجار [١١٣] وتلك أحدي التفاسير المقبولة عن لفظة البواهرة.

انتشر البياسرة على ساحل الهند الغربي وكانت لهم علاقات متميزة مع العرب، واكتظت مدينة صيمور الكجراتية بأعداد جمة منهم ، وشاركوا المسلمين في احتفالاتهم ورسومهم الاجتماعية [١١٤] ، وانتقلت جماعة منهم إلى البلاد العربية مثل يزيد بن عبد الله البيسري وكان واحداً من رواة الحديث الثقات [١١٥] ، و التكاترة يقصد بهم القواد العسكريين من الهنود الخلص، وكان أغلبهم يعمل في جيش راجا داهر الذي تصدي للقائد المسلم محمد بن القاسم الثقفي [١١٦] ، ولاشك أن أعداد منهم انضمت لجيش المسلمين بعد الاستيلاء على إقليم السند مثل الأساورة والزط و الميد.

الأساورة من أكثر الجاليات الهندية في المدن العربية ، وبعكس باقي المستوطنين الهنود كان الأساورة من عليه القوم ، وقد جمعهم البيروني [١١٧] مع أبناء الملوك الفرس في طبقة واحدة ، حيث كانت فرقة منهم في الجيش الفارسي يطلق عليها جند شاه ، وقد شكلوا ركناً اساسياً في جيش رستم الذي تصدي للمسلمين في معركة القادسية ، وذكر أنه تقدم للقتال مع جمهرة الأساورة [١١٨].

حكم الأساورة مناطق عربية شاسعة باسم الإمبراطورية الفارسية من العراق إلى اليمن وكانت الأبلة مركزاً عظيماً لهم ، وكانت حضرموت تحت حكم وهرز الأساوري ناهيك عند تواجدهم في البصرة التي حفروا خلالها نهراً بأسماهم (١١٩) . و انتشر الإسلام بين الأساورة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وانضمت جموع منهم إلى بني سعد واسلم قبل ذلك قائدهم باذان حاكم اليمن أثناء البعثة المحمدية ، وظهر منهم رجال إجلاء مثل العالم موسي بنى سيار أحد كبار علماء العربية والفارسية وقيل أن سلمان الفارسي أصلة أساوري(١٢٠) . واعتبرالأساور بطناً من بني مالك بن جهينة بالحجاز (١٢١)، و انضم أربعة آلاف منهم إلى جيش المهدي الموجه للهند ، وكانوا قبل ذلك قد اتفقوا مع أبي موسي الأشعري أن يقاتلوا الفرس بجانب العرب شريطة أن يتساوا معهم ويحتفظوا بكيانهم (١٢٢) ، فكان لهم دوراً عظيماً في فتوح خراسان.

الميد و الزط من الهند ، والفرق بينهما واضحاً حيث كانت مدينة القيقان مركز الزط بينها تمركزت الميد في قندبيل ، وعرف الزط بقراصنة البحر (١٢٣) ، وانتشرت جاليات زطية في شبه الجزيرة العربية وعرفوا بلباسهم وضخامة أجسادهم وطول شعورهم، لون بشرهم الأسود، وكان المسلمون يشبهون كل قوم سواد البشرة بالزط وخصوصاً إذا كانوا من أهل الهند (١٢٤) ، ألا أنه مع كثرة أعداد العناصر المستقرة في الدولة الإسلامية في العصر العباسي لم يصبح اللون الأسود هو المميز للزط الذين ازدادت ثورهم فاضطر عمران بني موسي البرمكي إلى ختم أيديهم وأخذ الجزية منهم (١٢٥) ، وليس معني ذلك ضعف مترلة الزط الاجتماعية حيث تشير الدلائل ارتفاع شاهم بعدما تزوج أسياد العرب من نسائهم مثل محمد بن هارون الذي تزوج سيدتين من الزط وسيطر ابناؤه على مدن مكران حتى الكجرات في العهد الأموي (١٢٦).

لعب الزط دوراً كبيراً في سير الأحداث السياسية في الأراضي العربية فانضمت جموع منهم إلى المرتدين في البحرين واليمامة ، وفي عهد سيدنا على بن أبي طالب اسند إلى أبي سلمه الزطي زعامة قومه المهاجرين في البصرة ، وسمح لهم باستخدام لغتهم التي أثرت سلباً على فصاحة قبيلة بني عبد قيس ولأزد في عمان، (١٢٧). وقد قام الخليفة معاون بن أبي سفيان بنقل أعداد من زط البصرة إلى أنطاكيا لصد هجمات البيزنطيين ، فانضم من بقي منهم إلى عبد الرحمن بن الأشعث فقطع عنهم الحجاج الوظائف و أغلق بيوهم (١٢٨).

أكمل العباسيون طريق الأمويين فجرد عليهم المهدي جيشاً كثيفاً في منطقة البصرة بعدما قتلوا وليه ليث بني طريق، وفاشتدت ثورتهم في عهد الخليفة المأمون ثم المعتصم فقطعوا طريق البصرة ، وفرضوا المكوس الجائرة على السفن، واستمرت المواجهات العسكرية بينهم وبين جند الخلافة عامين حتى استطاع القائد غجيف بن عنبسه عام (٢٢٠هـ/٨٣٥م) من قتل قاداتهم واسر سبعة وعشرين الفاً من المستوطنين الزط [١٢٩].

ثالثاً : المستوطنات الحضرية للمهاجرين العرب والهنود :ـــ

(١) مليبار : من أقدم المراكز التي استقر بها العرب في الهند ، حيث كشفت الحفريات الحديثة وجود عدة مقابر لمستوطنين عرب يعود بعضها للعام الخامس الهجري ، وأخري تعود لعام (١٦٦هـ/٧٨٢م) ، وعثر على قطع نقود تعود للحقبة الأموية [١٣٠] ، وقد غير المستوطنون العرب اسم الإقليم من كيرلم بمعني سلسلة الجبال إلي مليبار بمعناه المعروف ببلد الجبال، وأول من استعمل هذا الاسم الإدريسي ثم ياقوت الحموي و أبو الفداء [١٣١] ، وكانت أولي المستعمرات العربية في مليبار تلك المعروفة باسم موبلا [١٣٢] ، ومن الموبلا امتداد النفوذ العربي علي مناطق أخري وكان لقبيلة النوات القرشية دوراً في نشر الإسلام في هذا الإقليم (١٣٣) ، وكان أغلب المستوطنين العرب قد قدموا من العراق، و عملوا في تجارة الثياب وصناعة السفن [١٣٤] وظل النفوذ العربي في مليبار متواجداً حتي القرن التاسع الهجري عندما اخذ البرتغاليون ينافسوهم في السيطرة علي الإقليم .

استوطن المهاجرون العرب عدة مدن في إقليم مليبار واشهرها قاليقوط حيث استضاف حاكمها ساموتري أسرة عربية بعد إسلامه في القرن الثاني الهجري وكان أهمها أسرة مالك بن دينار الذي يعد زعيم المهاجرين العرب في مليبار [١٣٥] ، ومن ثم جذبت قاليقوط عرب آخرين من العراق واليمن وحتى القرن الخامس الهجري كانت قاليقوط مركزاً عظيماً للعرب المصريين وخصوصاً الجاريات اللأتي فضلهن التجار العرب والصينيين ، واشتهرت مدينة أبي سرور بكونها مركزاً عربياً و إسلامياً عظيماً في مليبار [١٣٦] ، كما استوطن العرب في مراكز خاصة في مدينة بكلم ، وكانوا يداوون المرضي بالمجان [١٣٧]. مما اكسبهم مترلة اجتماعية متميزة.

وفي مدينة هيلي جالية عربية إسلامية كان اغلبهم قد قدم من مقديشو، وكان علية القوم في مدينة جرفتين من العرب البغداديين وكان لهم دوراً في إسلام ملك مدينة فتن الراجا كوبل منذ زمن بعيد ، وفي مدينة منجرور محله عظيم للعرب تغلق عليهم دون غيرهم ، وساد بينهم المذهب الشافعي (١٣٨) ، ناهيك عن حي العرب في كولم (١٣٩) وبشكل أساسي استوطن العرب ثلاثة وعشرين مركزاً ، و نشروا في تلك المدن المساجد التي يعود بعضها إلى عام (١٢٠هـ/ ٧٠٠م). (١٤٠).

(٢) الكجرات : استوطن العرب مراكز عدة في إقليم الكجرات قبل البعثة المحمدية ، وتزوجوا من نسائهم فأنجبوا لهم الأطفال المعروفون بالبياسرة (١٤١) وقد جاء ذكر إقليم الكجرات لأول مرة في عهد هشام بن عبد الملك ، حيث استطاع عاملة على السند الجنيد بن عبد الرحمن المري غزو منطقة الجزار – كجرات – وحصل منها على غنائم عظيمة (١٤٢) و غطي النفوذ العربي سواحل الإقليم حتى لم يكن هناء ميناء يخلى من المستوطنين والبحارة العرب ،وكانوا يعاملون من قبل حكام الإقليم معاملة حسنة نظراً لما يدفعونه من ضرائب ، وأصبحت تلك البلاد مركزاً عظيماً للمستوطنين الشيعة المعروفين بالبواهرة(١٤٣)

من مراكز الكجرات الهامة كمباي – كنبايت – التي كانت مركزاً للمستوطنين العرب، وكانت السفن العربية تحمل إليها الخيول الأصيلة ،فاستقرت بها جماعة من ديار بكر (١٤٤) ، وكانت كمباي مركزاً للدعوة الإسلامية لذا انتقل الإسلام منها إلى إندونيسيا (١٤٥) ، وتعد مدينة تانه أكبر المراكز العربية في الكجرات دخلها العرب عام (١٥هـ/٦٣٦م) (١٤٦) ، وفي مدينة سومنات استوطن العرب و تأثروا بفكرة تناسخ الأرواح ، وقد تأثر المستوطنون العرب عام (١٩١هـ/ ٨٠٦م) عندما هاجم راجا شيم السفن العربية التي كانت تحمل بضائع لهم قيمتها مليون وسبعة آلاف روبية (١٤٧) مما يدل على مدي حجم التبادل التجاري بين الهند والعرب ودور المستوطنين في ذلك .

أما مدينة صيمور الواقعة قرب بمباي حالياً فقد استوطنها العرب بكثرة وبلغ تعداد منازلهم عشرة آلاف منزل يقطنها تجار من عمان والبصرة وبغداد (١٤٨) ، وهذا العدد الضخم دفع بعض الباحثين المعاصرين للجزم بان سكان مدن كنكي و صيمور منحدرون من أصول عربية ومتشربون الثقافة والتقاليد الإسلامية (١٤٩) ، بجانب ذلك استوطن العرب مناطق أخري مثل بهروج و كجه التي تمركز بها أبناء القائد العربي جمال الدين بن محمد بن

هارون النمري وهو والد لخمسين أخ توزعوا على مدن الهند في العهد الأمــوي ، وكــان البياسرة من الزط و البلوص من أبنائه وقد تزوج من هاتين القبليتين.(١٥٠)

(٣) السند : قسم الجغرافيون العرب الهند إلى إقليمين عظيمين الهنـــد والســـند الـــذي اعتبرت مدينة الملتان قاعدته الرئيسية ، وهي أول المدن التي سقطت في أيــدي العـــرب، و أطلق عليها محمد بن القاسم المعمورة ، (١٥١) وادي تزايد أعداد المستوطنين العرب فيها أن أصبحت اللغة العربية هي اللغة الأساسية فيها وكان أكثرهم من بني سامية بن لؤي الـــذين أقاموا في حي خاص بهم عرف باسم جندوارة(١٥٢) ، وقد سيطر الشيعة على مدينة الملتـــان أواخر القرن الثالث الهجري حتى استخلصها منهم السلطان محمود الغزنوي.

والمقر العربي الثاني في السند مدينة المنصورة التي كانت تعرف باسم برهمنابــاد ،(١٥٣) ، وقد أهتم المستوطنون العرب بتلك المدينة وجعلوا لها أربعة أبواب رئيسية هي باب طوران، سندان، الملتان وباب البحر ، و أقيم المسجد الجامع في وسط السوق، وكانت اغلب رسوم أهلها الاجتماعية تقارب أهل العراق . وجه العرب أنظارهم إلى مدينة الـــدبيل الســـندية وكانت من قبل مركز قبائل الميد ، فسكنها مستوطنون من قبيلة بني تمـــيم، والواضـــح أن التواجد العربي في الدبيل كان مقتصراً على قلب المدينة ، وقد أحاط بتلك المنطقة مائة قرية أكثر أهلها من الهنادكة، وكان الغالب عليها اللسان العربي (١٥٤) ، واتصل عرب الـــدبيل بأهل البصرة واعتمدوا في غذائهم على تمرها وكان من أكثر السلع رواجاً في الدبيل(١٥٥).

تعد مدينة القفص أول المدن التي سكنها العرب عـــام (٣١هـــــ/٦٥٢م) وحـــددوا مساحتها، واقطعوا لهم القطائع ، ومن المدن الأخري بيرون – نيكركوت – ثم مدينة الرور ، وكذلك أصبحت السندان مركزاً عربياً في عهد الخليفة المأمون وكان يسيطر عليها أبنـــاء الفضل بن ماهان من بني لؤي (١٥٦) ، وعمر العرب مدن أخري اشهرها المحفوظة التي شيدها الحكم بني عوانه الكلبي واسكنها جند العرب (١٥٧) ، وفي مدينة بيانه استوطنت جالية عربية في نسل الصحابي الجليل الزبير بن العوام (١٥٨).

(٤) سرنديب : عرف العرب جزيرة سرنديب باعتبارها معبراً اساسياً لصـــيد اللؤلـــؤ، واستوطنها عدد من التجار العرب وعقب وفاة بعضهم أرسل ملكها عـــدد مـــن النســـوة المسلمات إلى الحجاج ، وكانت جماعة من العرب اعتادوا زيارة قدم سيدنا آدم فيهـــا (١٥٩)

وفي جزيرة ذيبة الهيل وجدت جالية عربية كبيرة اغلبهم من مقديشو، وكان عليه القوم بها من عرب اليمن والمغرب وانتشر بينهم مذهب الأمام مالك (١٦٠) ، أما ساحل الهند الشرقي- كروماندل – فقد استوطنه جماعة كبيرة من سكان سواحل شبه الجزيرة العربية وكانوا يتاجرون في الخيول في عهد أسرة بانيا وكان أكثرهم من عدن، وكانت مراكز استيطانهم في مدن كايل، كيزكر، و ملاي فتن، وانتشرت الأسماء العربية بين أبناء الملوك والوزراء مثل محمد ، عبد الرحمن ، تقي الدين ،وغلب على مساجدها التأثير العربي فهي تشبه تماماً مساجد بغداد (١٦١).

ولعب تجار كنبايت العرب دوراً نقل الإسلام إلى جزر الهند الشرقية- إندونيسيا – التي استقر بها عدد منهم ويدل ذلك على كثرة المقابر في العاصمة سومطره وقد سطر عليها عبارات باللغة العربية ، و كثر المستوطنون العرب في مدن سومطره ، بورنيو ، وجزائر السيلا ، وذلك منذ عام (٥٤ هـ/ ٦٧٤م) (١٦٢)، ويذكر أن أول أسرة حاكمة في جاكرتا كانت عربية عرف رئيسها بلقب الشيخ وهم من بقايا العلويين من أتباع المهاجر أحمد بن عيسي بن محمد بن على ، وقد بلغ ابناؤه كمبوديا وتزوج احدهم ويدعي الحسين من الأميرة باني ولاق من أهل سيام(١٦٣).

(٥) الدكن وكشمير : استوطن العرب هضبة الدكن في الوسط الهندي وخصوصاً مدينة بتان التي رحب حاكمها جياسنها من أسرة راشتركوتا بالعرب و أنزلهم منزلة رفيعة (١٦٤) ، أما كشمير فقد ظلت بسبب موقعها الجغرافي المنيع عاتية على الغزاة العرب ألا أن الضغط الشديد الذي مارسه محمد بن القاسم الثقفي علي إقليم السند أدي إلى فرار احد رجال العرب المخالفين لبني أميه وهو حميم بن الحارث إلى الجنوب الكشميري مع راجا جي سنك(١٦٥) ، وامتد النفوذ العربي في كشمير حتى طال مدينة راجوري ، وزاد أعداد المستوطنين العرب مع قدوم طائفة من الهاشميين العرب إلى كشمير عرفوا باسم السادات(١٦٦) ، كان منهم كبار الوزراء والولاة والعلماء.

(٦) مراكز المستوطنين الهنود : كانت العراق مركزاً هاماً للمستوطنين الهنود في البلدان العربية وخصوصاً مدينة البصرة، التي سكنها أعداد جمة من الزط، ونظراً لتمردهم على الأمويين فقد نقل الخليفة معاوية أسر عديدة منهم إلى أنطاكيا ، ونتيجة لازدياد عددهم في البصرة وانخفاض مستواهم الاجتماعي فقد كانت نساؤهم جواري للمسلمين ، واشتهر احد

التجار ببيعه الرقيق الزطي فأطلق عليه ميسرة بياع الزظ [١٦٧]، واستوطنت جاليات من السيابجة البصرة وكانوا يعملون على بيت مال المدينة، و أطلق على مدينة الأبلة نتيجة لكثرة الهنود بها فرج الهند [١٦٨] وجذبت بغداد عدداً من الأطباء الهنود مثل منكه و بازيكر وسندباد.

وفي الخليج العربي انتشرت الجاليات الهندية في البحرين وعمان ومنطقة دارين التي نسب إليها المسك الهندي المعروف بالدريني ، وتمركز الهنود في سوق دبا العماني، وكان الأساورة قد فرضوا سيطرقم على المدينة ، و نقل المهاجرون الهنود إلى عرب الخليج محاصيل هامة منها النارنج والقطن إلى العراق [١٦٩] ، وكانت اليمامة مركزاً للرقيق القادم من الهند واشترك بعضهم مع السيابجة والزط في حروب الردة ، ونتيجة لكثرة الهنود في تلك المنطقة فقد اثروا سلباً على اللغة العربية التي دخلتها لهجات وكلمات هندية عديدة.

وكان الزط قد استوطنوا مناطق عدة في الحجاز مثل مكة وخصوصاً في بطائحها، وعمل بعضهم في مجال الطب وفك السحر في المدينة ، وتأثر سكان نجران بملابس الهنود المقيمين بينهم وطائفة منهم نزلت منطقة تبوك مثل أبي هجم [١٧٠] أما اليمن فقد كانت مركزاً للأساورة وخصوصاً منطقة ظفار ، وفي حضرموت توفي ملك مليبار جيرمان وهو في طريقة مع طائفة من الهنود إلى الجزيرة العربية ، وقد جذب قبره عدداً من الهنود إلى اليمن[١٧١]. وفي الشام أنشأت مستعمرات هندية وخصوصاً في أنطاكيا التي نقل إليها عدداً من زط البصرة ، ووجد فيها حي خاص أطلق عليه حي الزط وفي بوقا من عمل اللاذقية قوماً من أولادهم [١٧٢] ، وفي مصر حط الهنود المهاجرين رحالهم في وقت متأخر من القرن الثاني وكان اغلبهم يسكن في الرباطات والزوايا الصوفية ، وكانت لهم مقبرة خاصة عرفت بمقبرة الهنود ، وأشهر زوياهم زاوية الحلاوي بالقرب من الأزهر، وفي القيروان استوطنت فئة قليلة من الهنود، كان أغلبهم من ذوي المال والجاه حتى بني احدهم مسكناً لطلاب العلم على ضريح الصحابي الجليل أبي زمعة البلوى وجعلها وقفاً لله تعالى [١٧٣] ، وبذلك تكون الجاليات الهندية غطت في ترحالها و أقامتها أغلب مدن الوطن العربي.

رابعاً : الآثار الاجتماعية المترتبة على الهجرات العربية الهندية:ــ

(أ) منزلة المهاجرين بين طبقات المجتمع الهندي والعربي:ــ

للهند نظام طبقي خاص فهم يطلقون على طبقاهم برن أي الألوان وهي أربع البراهمة أو رجال الدين و الكشترا وهم رجال الحرب و البيش والشودرا أو الحرفيون [١٧٤] وفي مليبار ذات الأغلبية العربية توجد طبقتين فقط ناير وهى العليا وبلين وهى الدنيا [١٧٥] ، ومنــهم جماعة مكهرون أي السماكين و تشرومن أي حرات الأراضي الزراعية [١٧٦] ، وفي كشمير نظاماً أخر حيث قسم المجتمع إلى زمرة الأشراف ومنهم طبقة العرب بجانب الأمراء والسادة، وطبقة الرعاع وهى التي تضم باقي أبناء الشعب الكشميري الذين يعملــون في الوظــائف المتدنية[١٧٧].

احتل العرب قمة النظام الطبقي الهندي لعدة عوامل كان أهمها تشبههم الواضح براجات الهند في ملابسهم و ألقابهم وحتى استبدالهم الخيول بالفيلة التي أطلقوا عليها ألقاباً خاصــة مثل منفرقلس و جيدره وتولوا أهم الوظائف مثل رئاسة الجالية العربية المهــاجرة وعــرف صاحبة بالهنرمة وكان يلجأ إليه لحل المشاكل بين الهنود والعرب [١٧٨] ، وتولى العرب قيادة الجيش الهندي مثل أبناء قبيلة مركار العربية في مليبار وهم الــذين قــادوا جــيش راجــا ساموتري، ناهيك عن دور المستوطنين العرب في إنشاء المشاريع الخيريــة الكــبرى مثــل المستشفيات المجانية في مناطق بكلم و جاليم و اختلطوا بالأهالي وبادلوهم الاحترام والتقدير وخير مثال على ذلك قبيلة رشيد ذات الأصول العربية والهندوكية في السند [١٧٩].

كسب العرب ود الهنود واحترامهم وخاصة المنبوذين الذين ابكو رحيل محمد بن القاسم عن الهند ورسموا له صورة ووضعوها في مدينة الكــيرج، وفي منــاطق قنــوج و مــالوه و الكجرات كان للعرب منزلة اجتماعية عظيمة حيث استقبلهم الحكام واحتفوا بهم وتقلــب راجا المليبار بعبد الرحمن، و ساد اعتقاد بين هؤلاء الحكــام انــه بحــب العــرب تطــول حياقم[١٨٠]. وفي كرومندل حصل العرب على منصب الوزارة مثل الوزير تقي الدين الذي لقب بالملك الأعظم ، أما في بيانه فأن كبار الأئمة والفقهاء فكانوا من أبناء الجالية العربيــة وكانوا يتوارثون هذه المناصب باستمرار [١٨١]

تتضح المكان الاجتماعية المتميزة للمستوطنين العرب في الهند من خلال الألقاب الفخرية العامة التي حصلوا عليها مثل السادات في كشمير و مابلا- لأبن العظيم - في مليبار ، واعز الناس و الأعزة في كوكم، بالإضافة للقب مهاراج - الحاكم الأعظم - في السند وغيرها من الألقاب الأخرى، وفي المقابل حصل المستوطنون الهنود على ألقاب أخري تدل على تدني منزلتهم الاجتماعية مثل الميد - الرائحة التنينه - و السيابجة - الأطفال السود[١٨٢] ولاشك فإن تلك الألقاب كانت تدل على منزلة المستوطنين العرب الهنود وتعكس تقدير المجتمع لهم.

حاول المستوطنون الهنود الوصول للطبقة العليا في البلدان العربية عن طريق عدة وسائل فنجد الزط يحالفون بني باهله وحالف الأحامرة بني اسلم وبني تميم و الأساورة حالفوا بني سعد واعتبروا جزءً من القبائل العربية، وتزوج بعضهم في عليه القوم مثل التاجر إبراهيم بن مقسم القيقاني الذي تزوج من عليه بنت حسان وكانت من اشهر نساء البصرة ، و ابنها المحدث المشهور إسماعيل بني إبراهيم المعروف بأبن عليه، أما شيربامیان الذي اسلم على يعد مزاحم البسطامي فقد زوج ابنته من ابنه محمد ويكني أبا حرب وبذلك وصل بعض الهنود للمناصب الكبرى مثل أبو حارثة الهندي صاحب بيت المال في عصر الخليفة المهدي[١٨٣].

وتتضح المكانة الاجتماعية للمستوطنين الهنود من خلال سطوع نجم البرامكة الذين كانوا بوذيين هنود وليس مجوس فارسيين وهم الذين جلبوا إلي بغداد كبار العلماء الهنود، وكان يحيي بن خالد البرمكي قد تلقي تعليمه في كشمير و أراد أن ينقل علومها إلى بغداد [١٨٤] ، و ممن تولوا مناصب رفيعة محمد بن شاهيك قائد حرس الخليفة المنصور والرشيد وهو والى مدينة واسط في عهد المأمون وعهد إليه بنقل جثة جعفربن خالد البرمكي ونصبها على جسر واسط [١٨٥].

برزت عائلات هندية في العراق اشهرها القيقانية و رأسها هو التاجر الهندي إبراهيم بن مقسم الذي تزوج من السيدة عليه البصرية فولدت له المحدث المشهور إسماعيل وكان معاصراً للعلامة وكيع بن الجراح وتولى صدقات البصرة ت(١٩٣هـ/ ٨٠٩م) ، والابن الثاني هو ربعي الذي اشتغل أيضاً بعلم الحديث وكان من ابرز شيوخه، و لإسماعيل بن إبراهيم ولدان هما إبراهيم ويكني بأبي إسحاق وكان من كبار المتكلمين وله مناظرات مع الشافعي في مصر وبغداد ، والأخر هو حماد الذي ورث علم الحديث عن أبيه وهو أخر من

توفي من أبناء تلك العائلة عام (٢٤٤هـ/٨٥٨م) ناهيك عن العائلة الشاهيكية وظهر منها محمد بن شاهيك قائد الحرس في عهد الخليفة الرشيد ومن أبنائه العلامة إبراهيم الذي اعتبر حجه العلوم والفنون ذكره الجاحظ في البيان و التبيين و اثني عليه و الأخر هو نصر وكان من ابرز دعاة العباسين (١٨٦).

احتل الهنود مكانة عظيمة بين أبناء الطبقة الوسطي في المجتمع العربي فكان منهم الشعراء مثل أبو عطاء السندي من مخضرمي شعراء الأمويين والعباسيين وهو مولى بني أسد ، و نجيح بن عبد الرحمن أبو معشر السندي مولى أم سلمه وهو من رواة الحديث ، وله كتاب بعنوان المغازي ، وقد أمر له الخليفة المهدي بألف دينار ت(١٧٠هـ/٧٨٦م) ، ومن اللغويين ابن الأعربي صاحب كتاب الأنواء و أسماء الخيل و أسماء البئر، ومن الأطباء صالح بن بهله و كنكه صاحب كتاب النمودار في الأعمار ، و أسرار المواليد . ومن ابرز أبناء تلك الطبقة الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان الزطي ، و الأمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزعي السندي ت(١٥٧هـ/٧٧٤م) إمام أهل الشام والأندلس وصاحب كتاب السنن في الفقه والمسائل في الفقه (١٨٧) وقد ارتفعت مترلة هؤلاء العلماء ونالوا الحظوة عند العامة والخاصة.

ومن أبناء الطبقة الدنيا من الهنود أصحاب الأعمال المتدنية مثل السيابجة الذين عملوا مرتزقة في الأسطول العربي، والزط الذين اشتغلوا بحراسة بيت مال البصرة ، وكان بعض السيابجة يعمل في رعي الأغنام في البحرين وعمان ، واحترف بعضهم تربية الماشية ، وقد أهمل شأن أبناء تلك الطبقة فنجد الحجاج يغلق عليم بيوهم في البصرة ويمنع عنهم الوظائف وكان يتم بيع أغلبهم في سوق الرقيق(١٨٨) ، وفي المقابل وبالرغم من أن العرب المستوطنين مليبار علموا في أعمال متدنية تخص طبقة الشودرا مثل الزراعة ، إلا أن تراثهم الديني والثقافي جعلهم من طبقة أشراف مليبار (١٨٩) عكس المستوطنين الهنود.

(ب) الطوائف والمذاهب الدينية :ـ

أثر المستوطنون العرب والهنود في وجود قواسم مشتركة بين أديان الهند والعرب مثل تقدير البقرة التي كان العرب يعتقدون في قدرها على جلب المطر إذا ما علقوا في عراقيبها و إذنابها السلع والشعر ويشعلون فيها النار وفي ذلك يقول الشاعر الورل الطائي

أجاعل أنت بيقوراً مسلعة   وسيلة منك بين الله والمطر

وكان للبقرة منزلة عظيمة عند طائفة الهندوس وهم يحرمون لحمها و يتعففون عن ذلك نهائياً ، والمسخ كعقيدة في الأديان الهندية وجد لها صدى عند العرب فيما ذكر عن عمرو بن لحي في الرجل الصالح الذي كان يلت السويق عند صخرة الطائف.فلمّا مات ادعى أنه دخل إلى جوف الصخرة فعبدها الناس، وما قيل عن أساف ونائلة من أنهما كان رجل و أمراة قاما بعمل قبيح فمسخا صخرتين عند الكعبة ، وعرف العرب المجوسية وكان رئيسهم يعرف بالموبذان وهى تقابل لفظة الهرابذية وهم قوم بيت النار في الهند [١٩٠]، وهناك فرقة دينية تأثرت فيما تدعي بالملة الإبراهيمية ــ الحنفية – وقد اتبع أصحابها اصلين مدبرين يقسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد ، ويعرفون بالثناويين، ناهيك عن طائفة الأحامرة البوذيين في الأراضي العربية[١٩١].

وبالنسبة للدين الإسلامي فإن له صدي كبير في أديان الهند فأغلب الهنود يؤمنون بإله واحد أزلى من غير ابتداء ولا انتهاء و للمرآة الهندية صداق لا يجوز أخذ شئ منه دون موافقتها ، وكان يحق للبرهمي الزواج من أربع ، وعرفوا النكاح غير الشرعي [١٩٢] ، ونقل الهنود السبحة للعرب، وكانوا قبل ذلك يسبحون بالحصى أو نوي البلح، أو الخيوط أو الأشجار ، وجاء أقدم ذكر للسبحة في عهد الخليفة الأمين على لسان الشاعر أبو نواس في قصيدته التي خاطب بها الوزير أبن الربيع من سجنه [١٩٣] وكان أغلب المستوطنين العرب من الكجرات يستخدمون السبحة [١٩٤] ، وكل ذلك كان سببه النشاط الاجتماعي للمهاجرين العرب والهنود.

السمنية : ينسب المذهب السمني إلى صنم سومنات الواقع في نفس المدينة التي تحمل اسمه على ساحل الكجرات ، وقد اعتقد الهنود فيه بشده ، واعتبروا القمر خادماً له لان يقع قرب ماء البحر فيغمره الماء في حال المد والجزر ، وهم يحملون إليه الماء المقدس من نهر الكنك و ورود كشمير واعتقدوا أنه يشفي من العلل والأمراض ، وبه ارتبطت عقيدة التناسخ حيث يزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه فينشئها فيمن يشاء، وهذا الاعتقاد هوعلم النحلة الهندية مثل الإخلاص في الإسلام والأسباب في اليهودية ، و التثليث في المسيحية [١٩٥]، وقد أثر هذا المذهب في العرب تأثيراً شديداً.

كان للسمنيين نفوذاً عظيماً في إقليم السند، ويذكر أن عدداً منهم توسط لعقد الصلح بين العرب وأهل السند إبان غزو محمد بن القاسم للإقليم [١٩٦] ، وكان المستوطنون الزط

يعتقدون في التناسخ حيث خاطبوا سيدنا على قائلين أنت أنت معتقدين أن الذات الإلهية تناسخت وحلت فيه [١٩٧] ، وتأثرت الشيعة بالسمينة وخصوصاً فرقة عبد الله بن معاوية ذي الجناحين الذي ادعى أصحابه أن روح الله تناسخت في آدم ثم صارت إليه ، وفرقة الخطابية أصحاب ابن الخطاب بن زينب واعتقدوا أنهم لا يموتون و أنما يرتفعون بأبدانهم إلى السماء وأدعي آخرون منهم الإلهية لأبناء علي على التناسخ [١٩٨].

وقبل هؤلاء كان الشيعة أصحاب عبد الله بن سبأ فقد رووا عنه أنه قال لسيدنا على أنت أنت ، و أنتشر هذا المذهب في البصرة وكان من المروجين له رجل يدعي جرير بن حازم الأزدي ، وقال بعضهم أن أرواح الذين لا يؤمنون بعلي تحل في أجساد الكلاب والحمير عكس المؤمنين [١٩٩] ، أثر مذهب السمينة على فرق الروافض ومنهم من أنكر القيامة و الآخرة و قال أنما هي أرواح تتناسخ وأن الدنيا لا تفني إبداً (٢٠٠) ودفع كل ذلك بعض رجال السنة الغيورين إلى تدمير صنم سومنات وتم ذلك على يد السلطان محمود الغزنوي ، وقد عرض عليه سدنة الصنم أخذ وزنه ذهب فرفض [٢٠١].

منهب شانكار : أدي الصراع بين البوذية والهندوسية في مليبار إلى حدوث ارتباك شديد بين الأهالي الذين انتشرت بينهم الخزعبلات والخرافات في العقيدة، في وقت كان العرب قد اخذوا يفرضون سيطرهم الدينية و الثقافية على أهالي مليبار (٢٠٢) وفي أطار ذلك ظهر الفيلسوف الديني العظيم شانكار ماجاريار مؤسس مذهب ويشنو ت(٢٠٤هـ/٨٢٠م) ولم يعمر شانكار سوي اثنتين وثلاثين عاماً وضع من خلالها شروحه علي كتب الهندوس المعروفة بالفيدا ، وصور الوضع الديني للهندوسية متأثر بالمفاهيم و الأفكار الإسلامية [٢٠٣] وكان ذلك بلا شك أثر تأثرة بالمستوطنين العرب المقيمين في مستوطنة الموبلا.

اعترض شانكار على طبيعة الشرك في الهندوسية وتعدد الآلهة واعتبر أن هناك خالق واحد يعبد في أطار نظام توحيدي يعتمد على كتاب منزل من خلال وحي معلم وكل تلك الأفكار لها مطابقة شديدة في الإسلام [٢٠٤] ، وقد تأثر شانكار بالمستوطنين العرب أصحاب النشاط البارز في نشر الإسلام في مليبار و إقامتهم العديد من المساجد فيها، ناهيك عن وجود نظام توحيدي ربط بين الإسلام والهندوسية عرف بالنظام البختي، ووجود كلمة الله ذات الأصل العربي في المؤلفات الدينية الهندوسية آنذاك [٢٠٥]. ومما يزيد من يقيننا بتأثر شانكار بالفكر العربي الإسلامي ، إسلام راجا كالادي المحل الذي ولد فيه شانكار، ورفض

طائفته لأفكاره الدينية التي رأوا فيها ثورة ضد الهندوسية وتمرداً على الفكر البرهمي ومن ثم تم استبعاده عنهم (٢٠٦) وقد امتد تأثيرأفكار شانكار فيما بعد على أتباعه ونشـأت عشـر جماعات دينية تحمل اسمه ، وأصبحت موسوعته موهامودجار – مطرقة الحماقة – من أشهر المؤلفات الفلسفية الدينية واعتبر هو أعظم فلاسفة الهند (٢٠٧).

الطوائف الإسلامية : أحرز العرب تقدماً في نشر الإسلام في الهند حيث اسـلم راجـا سرنديب عام (٤٠هـ/٦٦١م) الذي أرسل وفداً إلى الحجاز لمعرفة أحوال المسلمين وكانت سرنديب أول الجزائر الهندية التي انتشر فيها الإسلام (٢٠٨) وفي عهدالخليفة عمر بن عبـد العزيز اسلم راجا حليشه بن داهر ، وفي الدكن استطاع احد الـدعاة العـرب ويـدعي بيرمهابير – الشعر الطويل – نشر الإسلام بين قبائل الجين ، وفي وقت مبكر اسلم عـدداً عظيماً من قبائل ساون داري في السند (٢٠٩) ، واستطاع الحكم بن العاص نشر الإسلام في منطقة تانه وعبد الرحمن بن سمره في منطقتي خج و دادن وهو الذي حطم صنم زور (٢١٠).

اقنع الدعاة العرب راجا مدينة ده فتن بالإسلام ، وكان حفيـده راجـا كوتـل محبـاً للمستوطنين العرب في مليبار ، وسار الإسلام في جزيرة زيبة الهيل بفضل الداعية أبي بركات البربرى (٢١١)، وأعظم نجاح هو الذي حققه الداعية مالك بن دينار الذي اسلم على يـده راجا جيرمال بيرمال واخذ منه تفويضاً بتشييد أول مسجد في مليبار . وأثر ذلـك علـي انتشار المذهب الشافعي في الجنوب الهندي و الكجرات ، وانتقل إلى المستوطنات العربية في اندونيسيا وهذا بخلاف المذهب الحنفي الذي ساد في الشمال الهندي مع الغزاة الأتراك(٢١٢).

وكان المذهب الداودي قد انتشر بين المستوطنين العرب في المنصورة ، وكـان قاضـي المدينة أبا محمد المنصوري أماماً لهذا المذهب، وله أعمال فقهية منها المصباح الكبير، الهادي ، والنير وكان له نسب في بني تميم (٢١٣)، وكان للشيعة مكانة عظيمة في الهنـد وأول مـن وصلها منهم الداعية عبد الله بن الأشتر في عهد الخليفة المنصور ، وتطور هذا النفوذ أكثـر بظهور الداعية أبو عبد الله القرشي الذي لقب بملك الملتان، وكان له ثمانيين ولداً (٢١٤) وربما ذلك يفسر لنا ما ذكره المقديسي (٢١٥) من أن أهل الملتان شيعة يهو علون في الأذان.

ومن الخوارج في الهند حسان بن مجاهد الذي رحل إليها في عهد أبو جعفر المنصور ولكنه لم يجد لدعوته سوقاً رائجاً ولا حظ ميل الأهالي للتشيع (٢١٦) ، ولم يكن حسان ليختار الهند

بلا مغزى ونعود بالأحداث لعام (١٢٦هـ/٧٤٤م) عندما فر إلى الهند سليمان بن هشام أبو الغمر الأموي مع أتباعه من الخوارج ، واستقر في إقليم السند ولم يعد منه ألا بعد أن آمنه الخليفة العباسي ثم قتله [٢١٧]، برغم ذلك وجدت جاليات عربية من الخوارج في مدينة كولم وكان زعيمهم علاء الدين الأوجي من العراق [٢١٨]، وعلى الجانب الآخر نشط المستوطنون الهنود في البلدان العربية فظهر منهم موسي بن سيار أحد رموز المعتزلة وهو كبير رجال الأساورة وكان عالماً باللغات و يفسر القرآن بأكثر من لغة، وكان إبراهيم بن إسماعيل القيقاني من أبرز المتكلمين في مسألة خلق القرآن، وله مناظرات عظيمة مع الشافعي [٢١٩].

عمل المستوطنون العرب علي نشر علم الحديث بالهند مثل الربيع بن صبيح السعدي ت(١٦٠هـ/٧٧٧م) وهو أول من ألف في هذا المجال بالهند ، وقد جذبت البلاد المحدث إسرائيل بني موسي البصري وهو من أتباع التابعين وهو ثقة من الطبقة السادسة وعنه أخذ سفيان الثوري وابن عينية [٢٢٠] ، ومن المستوطنين الهنود نجد المحدث يزيد بن عبد الله القرشي البيسري ، والعلامة الكبير إسماعيل بن إبراهيم القيقاني المعروف بابن عليه.

(ج) العادات والتقاليد بين المهاجرين العرب والهنود :ـ

نظراً للسيطرة العربية المتمثلة في المستوطنين العرب في مليبار فقد حاول الهنادكة تقليد العرب وخصوصاً في مجال المساواة والأخلاق حتى ولو بقوا على وثنيتهم وادي ذلك لتحقيق وحدة في العادات التي ادخلها العرب للهند في الطعام والأزياء و غيرهما . وهذا ما دفع أبناء طبقة ناير إلى الدخول في الإسلام حتى يعاملوا بشكل طيب من أبناء طبقة بلين العليا [٢٢١] ، وفي المنصورة تشابهت عادات العرب و الهنادكة تماماً فكان من الصعب التمييز بين الطائفتين، و يرصد لنا البيروني [٢٢٢] ظاهرة مماثلة وضح من خلالها تعاضد العرب و الهنادكة من أبناء قبيلة رشيد التي ساد بين أبنائها نظاماً اجتماعياً عريقاً يلزم الجميع باحترام العادات والتقاليد ولا يحقر احد دين الآخر ، ولا يزدري عاداته ومن يخالف ذلك يعاقب بشدة.

اثر المستوطنون العرب في تغير عادات الهنود المستقبحة وخصوصاً تلك المتعلقة بالتضحية بأنفسهم أمام الأوثان إذا لم يجد الواحد منهم ما يقدمه من الخراف ، وانتشر بينهم التضحية بها في حال ولد لهم مولود جديد وهي تشبه العقيقة [٢٢٣] ، كذلك القضاء على عادة

الدربستان وهي اختفاء الملك واحتجابه كحالة من الاعتراض السلمي و أظهار غضبه من الأهالي ، إلا أن ملوك العرب من بني لؤي و الهباريين امتنعوا عن تنفيذ تلك العادة ، وأصبح من عادات راجات مليبار الخروج للأهالي باستمرار، يلاحظ أن راجا مدينة كلم كانت له عادة مخالفة لذلك حيث كان يوكل أمور المملكة إلى الأمناء ويقضي معظم وقته في منطقة كاتشي أو مدهر للبحث في أمور الزهد ، واعتاد مقابلة الرحالة المسلمين ومناظرهم (٢٢٤).

كافح المستوطنون العرب لأجل القضاء على عادة السوتي وهي حرق الأرملة نفسها عقب وفاة زوجها ، ومارست تلك العادة لأول مرة زوجة راجا داهر الذي خر صريعاً بعد هزيمته علي يد محمد بن القاسم ، وقد شجع العرب الأرامل الهندوكيات على محاولة العيش مرة أخري (٢٢٥) ، وعلى الجانب الأخر تأثرت المرآة العربية بالنساء الهندوكيات في عادات الزينة فاستعملن أغلى الثياب الهندية الموشاة بالذهب والفضة، وزينت بيوقمن بالزهريات الهندية، وملأت بماء يطيب لها من بنات الزعفران ، وقد حفظ الهنود بتغير عاداهم وتقليد العرب على أعراضهم وكرمتهم فحرمت الأغراض على الغرباء الأ بالزواج (٢٢٦) بينما كانت المرآة الهندية تفتخر إذا باعت شرفها مقابل الحصول على فيل.

وبفضل العرب هذب الهنود في الجنوب من عاداهم المميته ففي جزيرة ذيبة الهيل اعتاد الأهالي تزيين فتاة بكر ثم إدخالها إلى بدخانه – بيت الضم – المبني على حافة البحر،وتبقى هناك ليلة كاملة قبل ان تلقي حتفها في الصباح بهدف اتقاء شر جن البحر، وبفضل جهود المهاجرين العرب وعلى رأسهم الشيخ بركات تم القضاء على تلك العادة (٢٢٧). نتيجة للهجرات العربية الهندية المتبادلة ساد في المجتمعين العربي والهندي عادات واحدة منها الوشم على اليدين والوجه وقد أخذت تلك العادة تتقلص في الحجاز بعدما شدد الرسول (ص) على منع الوشم في حديثه ـ لعن الله الواشمة و المستوشمة ـ ، كما ساد اعتقاد عربي هندي في الاستنجاد بالكواكب لأجل المطر (٢٢٨) ، وتأثر العرب بعادات الهنود الغذائية وخاصة تحريم أكل اللحوم وخصوصاً البقر وكان اشهر العرب المتأثرين بذلك أبو العلا المعري (٢٢٩) وإن كان ذلك من باب الزهد وليس اعتقاداً وثنياً كما كان عند الهنود.

قلدت النساء العربيات النساء الهنديات مثل تخريم الأذن حتى وإن لم يلبس فيها الحلي ، واشتهرت النساء الهنديات بمهارقمن في تخريم الأذن و منهن السيدة سكر الهندية . ومن العادات العربية التي سادت في المجتمع المليباري تلك المتعلقة بالوفاة فإذا مات كبير العائلة

فان زوجاته تمكثن سنة كاملة لا يأكلن اللحم ولا يمضغن التنبول ولا يراعـون زينـة ولا يقلمن أظافر[٢٣٠] وكان النساء العربيات يفعلن ذلك مع إضافة لبس الثوب الأبيض.

نقل العرب للهنديات عادة البردة-– الحجاب – حيث اعتادت النسـاء الهندوكيات الخروج سافرات متبرجات ، وساد في المجتمع نظرية الأخوة الإسلامية وَالمساواة التى أثـرت على المنبوذين من الزط و السيابجة وطائفة ناير المليبارية [٢٣١] . واعتاد الهنود زيارة المقـابر والتبرك بالرموز الدينية مثل قبر الملك جيرمال في منطقة الشحر باليمن واحتفلوا بيوم إسلام الملك، واشترك العرب والهنود في مليبار في عادة وضع سراج موقد فوق ضـريح الـوالي بجانب الطعام والشراب و الحلوي[٢٣٢] ويتعلق بهذا الأمر اشتراك كبار رجال الصوفية مـع الأهالي في مليبار أثناء الاحتفال بالأعياد فيحملون المصابيح والحبـوب ويوزعونهـا علـى الحضور، وأصبح يوم الجمع في الإقليم يوم عيد رسمي تلغي فيه الأعمال ويتفـرغ النـاس لبيوتهم سواء المسلمين أو الهنادكة[٢٣٣].

تأثر هنود المليبار من طائفة ناير بالمستوطنين العرب فحددوا للزواج أياماً مثل الخمـيس والجمعة وكانوا قبل ذلك على العموم [٢٣٤] ، ومن اشهر العادات المتعلقة بهـذا الموضـوع الحلف بالطلاق بدلاً من القسم وقد انتشرت تلك العادة بين الجند العرب في السند ،وكان الذي اقر بها القائد سنان بن سلمه في عهد معاوية بن أبي سفيان وقال الشاعر في ذلك

رأيت هذيلاً أحدثت في يمينها　　طلاق إلنساء ما يسوق لها مهراً
لهان على حلفه أبـى محـبق　　إذا رفعت أعناقها حلفاً صفراً [٢٣٥]

انتشرت في مناطق المستوطنين العرب بالهند بعض العادات القديمة ففي مدينـة صـيمور مركز البياسرة وهم أبناء التجار العرب سادة عادة الانتحار المعروفة بالجوهـار ويمارسـها الرجال حزناً على وفاة حاكمهم [٢٣٦] ، وساد وضع علامة القشقة على الجباه وهي خاصة برجال الدين البراهمة، وترسم بالدم باستخدام بصمة الأصبع [٢٣٧] وفي مليبار ايضاً سادت عادة التضحية بالنفس وفيها يستخدم الرجل اثني عشر سكيناً ويظل يطعن نفسه بواحدة تلو الأخرى بقصد التعذيب قبل قتل نفسه تقرباً للآلة [٢٣٨].

كان العرب سبباً في إبراز عادات مليبارية خاصة بالطعام والشراب حيث ساد بين طبقتي بلين ونائر عادة بضرورة استحمام البلين إذا لامسه واحد من النائرين وتحطم الأواني الـتي

يأكل فيها المستوطنون العرب ، ووضع الطعام لهم على أوراق المـوز [٢٣٩] ، وإذا رغـب السلطان الكافر منع عمليات البيع والشراب لسبب ماء فإنه يأمر غلمانه بوضـع أغصـان الأشجار على حوانيت التجار العرب [٢٤٠] ، وفي الميراث كانت طائفة نائر تـورث الأولاد من الأرحام ولا تورث من الأصلاب وورث مستوطني كنتور العرب تلـك العـادة فهـم يورثون كل من له صلة قرابة من الأم والأخوات ويكتفي الرجل بوضع خيطاً حول رقبـة خطيبته كدليل على الرابطة بينهما [٢٤١].

(د) أثر المهاجرين الهنود على الطعام العربي:ـ

يعتبر السمك من أهم الأغذية الهندية التي نقلت للعرب، وقد أعجب أمـراء العـرب بالسمك الهندي الذي نقله إليهم الزط مثل الأمير محمد بن سليمان زوج ابنة الخليفة المهدي وكان يملك في بيته خمسمائة سمكة من النوع كنعدة ، هذا وقد سطر الكثير عـن السـمك الهندي في الأراضي العربية ، وقيل أن بعض السمك كانت في حجم الجدي، وكان بعـض المشاهير يشخصون لنهر السند لجلب السمك مثل الطبيب إبراهيم بن قزارون ، واعتبر لحم الطواويس الهندية من اللحوم المميزة ، وكان الطعام المفضل للأثرياء العرب [٢٤٢].

وعرفت الجاريات الهنديات بجودة طعامهن ومنهن السندية الطحانة البغدادية ، وعـرف العرب صناعة الخل من ماء الأرز من الهنود الذين كانوا يطبخون الأرز[٢٤٣]. و حتى الأواني العربية المعروفة بالغضارة أصلها هندي كانت تصنع في مدينة كولم المليبارية [٢٤٤] ، وتـأثر الهنود بالمستوطنين العرب فكانت طبقة الجاويين تـأكل باليد اليمني ، و خصصوا اليسري للأغراض المنحطة والمتدنية [٢٤٥] ، واشهر الأكلات الهندية البهط وهي عبـارة عـن الأرز المطبوخ في الماء ويأكل بجانب لحوم السمك ، وقد أصيب الشاعر غالب بن عبد القـدوس بعد أكله البهط فكتب يقول:

فأما البـــهط وحيتـــانكم فمازلت عنها كثير السقم [٢٤٦]

اعتاد المستوطنين العرب في مليبار على نظام الهنادكة الغذائي حيث تنظم المائدة المعروفة بخونجة وفوقها طبق نحاسي كبير يعرف بالطالم وفيه يوضع الأرز وفوقه السمن وعناقيد الفلفل و الزنجبيل الأخضر والليمون المملح و العنبا ، ويوضع بجانبه طبق أخر يسـمي الشـكرجة وبداخله دجاجة ، وهم يختمون الطعام بشرب الكوشان – اللبن الرائب – وهـي عـادة

منتشرة أيضاً بين عرب المغرب [٢٤٧] ، واعتاد العرب على خمور الهند المصنوعة من البلح، و استورد المستوطنون الهنود الخمور وسوقوها في بغداد مثل السيدة دوم السندية، وعرف نوع من الخمور الهندية باسم سكر الهند كان ولاة العرب يتناولوه بعد الفراغ من الغزو ، وهناك شراب الداذي وهو يضع خصيصاً من النارجيل [٢٤٨] ، وتعاطي العرب حشيشة القنب الهندية وكان أول من ادخلها لليمين رجل هندي يعرف بيرزطن وكان ممن اسلموا في العهد النبوي، [٢٤٩] ، وقد بذل مستوطني مليبار العرب جهداً في التصدي لشرب الخمر، وطبق حد شرابها بالضرب ثمانين جلده ، والسجن ثلاثة أشهر ، وأصبح تناولها عند قبائل المرهتا في الكجرات من أعظم المعائب [٢٥٠].

(هـ) الملابس الهندية في البلدان العربية :ـ

كان للمستوطنين الهنود اثر في انتشار الأقمشة الهندية في البلدان العربية ومنها الململ و جهينط و روجال وتلك أسمائها السنسكريتية وعربت إلى قرض وشيت وفوطة وعلى الأخيرة أطلق أيضاً الإزار أو المنديل وكان الهنود يرتدون فوطتين بجانب ملاحف الحرير والكتان [٢٥١] ، واشتهرت مراكز هندية بصنع الملابس التي كانت تصدر للعرب مثل الكجرات وفيها تصنع النمارق – الشلت – المحلاة بخيوط الذهب ، و أغطيت الفراش الناعمة [٢٥٢] ، أما مدينة تانه أحدي كبري المستوطنات العربية فكان يصدر منها الملابس التاشنية ، وبعض تلك الملابس صنعت في اليمن وصحار و نجران و أطلق عليها برد يمانية وحلل سحولية و أثواب نجرانية ، وكان بعض المستوطنين الهنود قد تميز بالمتاجرة في تلك الملابس مثل أحمد بن محمد الكرابيسي وكان من كبار علماء الفقه [٢٥٣] ، وكان للمستوطنين العرب في كيرله دوراً في تنشيط عمليات بيع الأثواب لعرب العراق والحجاز.

تأثر المستوطنون العرب في مدينة المنصورة والملتان بأثواب الهنود و أهمها القراطق والقمصان والأردية ، و عرفت الملابس الهندية المصنوعة من القطن الجيد بالسينسنات وكانت تصدر من الهند إلى فارس ، [٢٥٤] ومنها إلى الجزيرة العربية ، وكان للمهاجرين الهنود ثياباً خاصة بهم فالملابس السوداء كانت رمزاً للسيابجة واشهر الملابس الكرتـه – الجلباب – وعرفت عربياً بالقرطق ، وكانت شائعة عند ملوك العرب و امراؤهم [٢٥٥]، وكان بعض تلك الملابس يتم صبغها بألوان هندية مثل القرمز والذي أطلق عليه أيضاً البقم،

وكان يأتي به من مدينة مليبار [٢٥٦] ، واستخدم العرب عطر الكافور لتعطير الملابس الهندية، ولاستكمال الأناقة استخدم النيليج الهندي في دق الوشم على الوجه واليدين وهو يعطي اللون الأخضر المطلوب ، و حتى حلق الشعر فقد كان للزط قصة خاصة عرفت باسمهم وكان تشبه رسم الصليب[٢٥٧].

أما النعال فكان اغلبها يستورد من الهند ، واستخدمها المهاجرون والمستوطنون العرب وعرفت بالكنباتية ، وكان واجباً على وإلى الهند أن يقدم ضمن خراج البلاد ألف نعل كنباتي في العصر العباسي ، وكانت تلك النعال نستخدم بكثرة في مناطق المستوطنين العرب في مكران [٢٥٨] ، واشتهر عدد من المهاجرين الهنود بصنعها ومنهم غلام الأديب العربي الجاحظ وعرف باسم نفيس السندي ، وكان الجاحظ كثير التندر به[٢٥٩]

(و) الموسيقي والألعاب و الأمثال الشعبية:ـــ

انتشرت الموسيقي الهندية في الأراضي العربية في العصر العباسي بعد وصول مجموعة من المهاجرين الهنود حمل بعضهم كتاب بيافر ومعناه ثمار الحكم فيه جوامع الأنغام و أصول الألحان . ولعب المستوطنون الزط دوراً في تطور موسيقاهم و أضافوا إليها نوعاً من النغم يشبه صوت البعوض [٢٦٠] ، و بفضل جهود عائلة الموريا في الهند وجد المستوطنون العرب الغناء شائعاً فيها وكان هناك عدداً من المؤلفين و الملحنين ومن أشهر كتبهم في المستوطنات العربية ناتيا ساستي وفيه شرحاً وافياً للرقص والموسيقي الهندية ، والكتاب الأخر سلبا ديكرام كان شائعاً في إقليم السند [٢٦١] ، ولاشك أن العرب عرفوا تلك الكتب وترجموا بعضها وخصوصاً مع ازدياد حركةالترجمة في العصر العباسي.

انتشر المغنين والمغنيات الهنود في بغداد وكان منهم المطرز السندي الذي كان له مكاناً في بلاط الخليفة المهدي، و المغني السندي بن على الوراق البغدادي الذي كان وراقاً لإسحاق الموصلي وينسب إليه تأليف كتاب في الأغاني عرف باسم الشركة في احد عشر جزءً ، أما خمار القندهارية فكانت تغني ما غناه إبراهيم الموصلي من شعر أبي حفص الشطرنجي وكانت تردد

إذا سرها أمراً وفيه مساءتي　　قضيت لها في ما تريد على نفسي

وما مر يوم ارتجي فيه راحة　　فأذكره حتى بكيت على أمسي [٢٦٢]

ومن الألعاب الهندية التي دخلت البلدان العربية مع المستوطنين الهنود الشطرنج الـذي أجازه الإمام الشافعي لتمرين العقل بخلاف باقي الفقهاء ، وقد ساد لعبه في مجـالس مكـة وأنديتها في القرن الأول الهجري ، وخصص له عبد الحكم بن عمـرو الجمحـي مكانـاً للشطرنج في نادية وكان الداخل إليه يعلق ثيابه على أوتاد خارجه ، وانتشرت مصـطلحاته في أدبياتهم ، وضرب به المثل فقالوا إذا تكبر الصغير تفرزق البيدق ومـن أمثـالهم زاد في الشطرنج بغلة (٢٦٣) ، وكان هارون الرشيد محباً للشطرنج، واهدي ملك الغرب شـارلمان شطرنجاً، ونسب إليه قوم من العرب مثل أبو بكر محمد بن محمد الصولى الشطرنجي صاحب كتاب الشطرنج ، وكان من أهل البصرة ، وللجلاج أبو الفرج محمد بن محمد عبـد الله ت (٣٦١هـ/٩٧٢م) كتاب منصوبات الشطرنج ، ومن أبرز أشعارهم من ما ذكـره ابـن الرومي في أي القاسم الثوري الشطرنجي

تهزم الجمع أوحديا وتلوى ... بالصـناديـد أيما إلـواء

وتحط الرخاخ بعد الفرازين ... فتزداد شـدة و استعـلاء (٢٦٤).

بجانب الشطرنج ساد بين العرب لعب النرد وهي هندية الأصل ولكنها لم تكن ذو شهرة نظراً لحرمتها ، وصدرت الهند للعرب الكلاب المعروفة بالسلوقية وهـي نتـاج الكـلاب والثعالب ، وكان ميناء بروص مركزاً لها ، وقد تأثر العرب بحكم الهنود و منهم الأصـمعي الذي سطر كتاباً بعنوان ملوك العرب الأوليين من بني هود وقدمه للخليفة المـأمون وهـو يشتمل على عدد من الحكم والأمثال الهندية المتعلقة بالحكم والسلطة (٢٦٥) ، ومن الحكـم والأمثال الشعبية التي راجت في المجتمع العربي وهي هندية الأصل – عدل السلطان انفـع للرعية من خصب الزمان –، شر مال مالاً ينفق منه ، وشر الأخوان الخاذل وشر السلطان من خافه البرئ ـــ من التمس من الأخوان الرخصة عند المشورة ومن الأطباء عند المـرض ومن الفقهاء عند الشبهة أخطاء الرأي وازداد مرضاً وحمل الوزر – ، ستة أشياء لا ثبات لها ظل الغمام ، وخلة الأشرار وعشق النساء ، المال الكثير ، السلطان الحائر ، والثناء (٢٦٦).

(ز) التصوف :ـــ

إن التصوف الإسلامي بمعناه الكلي الذي يقتضي ضرورة تجرد الإنسان من متع الحيـاة والزهد في الدنيا حتى يتسني له معرفة الذات الإلهية والوصول لمرحلة الاتحاد والحلول يجد لة

صدي مماثل في التصوف الهندي الذي يبدأ بأخذ الإنسان قدر حاجته في المأكـل والملبس وترك ما دون ذلك من الفضول وعدم قتل الحيوان ، وهنا يشير السبيروني [٢٦٧] إلى بعض كلام متصوفي المسلمين الذي يدل على الاتحاد بما ورد في كتبا باتنجل المقدس فيقول – مادمت تشير فلست بموحد حتى يستولى الحق على إشارتك بإفنائها عنك فلا يبقي مشير ولا إشارة . وبرغم هذا التشابه فإن الباحث المعاصر أي رحمان [٢٦٨] يري فرقاً جوهرياً بين التصوف الهندي والعربي يتلخص في قدرة الثاني على الاندماج في المجتمع للقيام بدوره الايجابي في الحياة في أي وقت بينما الأول فإن حياة النسك يستطيع ان يؤجلها بعد التزاماته الأسرية وذلك بالانقطاع التام عن المجتمع.

بين هذين الرأيين كان للمهاجرين العرب والهنود دوراً هاماً في مجال التصوف إذ برز منهم أبا على السندي ت (٢٦١هـ/٨٧٥م) الذي عرف بكونه واحداً من أشهر المستوطنين الهنود في مجال التوحيد والحقائق ، وتبني الرأي القائل بأن المعرفة إذا تغلبت على قلب العبد يري جميع الأشياء من الله بالله معلومة لله مردودة إلى الله [٢٦٩] وبه تأثر أبو موسي الدبيلي الذي داوم على الترويج لمقامي المحبة والرضا ومن أقواله الشهيرة ولم أزل ثلاثين عاماً كلما أردت أن اذكر الله اتمضمض وأغسل لساني إجلالا لله. وقوله : ما ذكروه الا بغفلة ولا خدموه الا بالفترة وأكثر الناس إشارة إليه أبعدهم منه [٢٧٠] ، وكان لمثل هؤلاء الرجال أثر عظيم في الحياة الاجتماعية.

وتأثر المستوطنون العرب بالمتصوفة الهنود وخصوصاً الجوكيين في إقليم الكجرات، حيث وجدت طائفة عظيمة منهم في مدينة كجرا وتميزوا بطول شعرهم حتى تصير طولهم، وغلبت عليهم الصفرة و التقشف ، وساد اعتقاد بينهم أن من كان به عاهة أو مرض أو جذام يأوي إليهم مدة طويلة فيبرأ بإذن الله . ونال المتصوفة العرب منزلة عظيمة في مليبار ، ولم تقتصر مسئوليتهم على الوعظ بل عملوا في مجال الطب[٢٧١] ، وشيدت الزوايا العظيمة لهم ففي قاليقوط أقيمت زاوية كان المسئول عنها الشيخ أبي إسحاق الكازوروني وإليه تجي نذور الهند و الصين ، وفي ذيبة الهيل أقيمت زاوية باسم الشيخ الصالح نجيب وكان كل وارد يجب عليه زيارتها ، وفي جزيرة سيلان أقيمت زاوية للشيخ العربي عبد الله بن خفيف الذي أطلق عليه الأهالي الشيخ الكبير وهو أول من فتح الطريق أمام الزوار العرب لزيارة أثر سيدنا آدم[٢٧٢].

ارتبطت نظرة الهنود للمتصوفة العرب بمكانتهم الدينية والاجتماعية المتميزة ومـــن هنـــا عظموا قبورهم ، وعلقوا على حناجر أبنائهم صورهم بهدف التبرك بها ، وساد تقليد عـــربي قديم في مليبار يقضي بوضع الطعام والشراب و الحلوى فوق ضريح الوالي مع وجود سراج ليضئ ليلاً للاعتقاد أنه يحتاج مثل تلك الأشياء (٢٧٣) ، وكان يشـــارك في تلـــك المراســـم الاجتماعية الهنود والعرب.

(ج) المرأة المهاجرة بين المجتمعين الهندي والعربي :ــ

عانت المرأة الهندية قبل مجئ العرب معاناة شديدة حيث نزلت النساء في المجتمع مترلـــة الإماء ، وكان الرجل يخسر أمرأته في القمار ، وكان للمرأة في بعض الأحيان عـــدة أزواج فإذا مات زوجها صارت كالمؤودة وتكون هدفاً للإهانات والتخريج (٢٧٤) ناهيك عن انتشار عادة السوتي حيث فرض عليهن المجتمع حرق أنفسهن عقب وفاة أزواجهـــن ، وبـــدخول العرب واستقرارهم انتشر بين نساء الهند عادة الحجاب وكن قبل ذلك يمشـــين في منـــاطق المنصورة والملتان متبرجات سافرات(٢٧٥) ، واعترف بحق النســـاء وبكرامتـــهن في المجتمـــع ودورهن الريادي فيه (٢٧٦) ، وكان ذلك تغيرياً جذراً لوضع المرآة في الهند.

نشطت المستوطنات الهنديات في البلدان العربية مثل السيدة أخت السندي بن شـــاهيك والتي للأسف لم نعرف اسمها بالضبط ولكن كان أخيها عبد الجبار هو الموكل بالإمام موسي الكاظم في محبسه في عهد الخليفة الرشيد ، وقد اسند إلى أخته مراقبة الأمام في أيامه الأخيرة مما أتاح لها الفرصة لنقل المزيد من أخباره قبل وفاته ، وفي مجال الحضارة الإســـلامية نجـــد السيدة خوله أم محمد الأكبر بن على بن أبي طالب وكانت امة لبني حنيفة فصارت للإمـــام على ، أما الإمام الحسين فقد تزوج أحدى المستوطنات الهنود وتدعي سلامة – غزالـــة – أحياناً فأنجبت له الأمام زبن العابدين (٢٧٧) وكان لمثل هؤلاء السيدات مترلة اجتماعية عظيمة وهيبة دينية من جانب العرب والهنود.

وعلى الجانب الأخر لعبت المرأة العربية في الهند دوراً دينياً عظيماً وأشـــهرهن الســـيدة قمرية زوجة الداعية الإسلامي مالك بن حبيب التي نشرت مع زوجهـــا بنشـــاط الـــدين الإسلامي في مليبار، وكان لها مترلاً في مدينة كولم كانت تستقبل فيه النساء الهنـــدوكيات ،

وتستمر في إقناعهن بالإسلام ثم توضح لهن شرائع الدين ، وقد انتقلت إلى مـــدن بـــاكنور ،منجلور ، و كنجركوت لهذا الغرض [١٧٨].

وكان للجاريات السنديات شهرة في تربية الأولاد والقيام على خدمة المترل ومن هنـــا رغب العرب فيهن ومنهن السيدة حبابه جارية الخليفة يزيد بن عبد الملك و أم والى العراق يزيد من هبيرة الفزاري ، أما السيدة خمار القندهارية البغدادية فقد عرفت بحسن صـــوتها و أنشادها الشعر غناءً وقد حظيت بمكانة رفيعة بين اهالى بغداد وحازت السيدة دوم السندية على مترلة رفيعة عند تجار بغداد واستطاعت أن تنمي تجارتها وتتحول من بيـــع النبيـــذ إلي تصنيعه فازدادت ثرواتها و أصبحت تدين عليه القوم [٢٧٩].

الحواشي

(١) قاضي أطهر المباركبوي : العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز عزت ، ط، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٣م ص ١٦ ، ١٧ – الأبلة.بلدة علي شاطي نهر دجلة في زاوية الخليج الداخل إلي البصرة ،وهي أقدم من البصرة ، وكانت تعتبر إحدى جنات الدنيا مع دمشق و بلح(ياقوت الحموي :شهاب الدين أبي عبد الله الحموي ت(٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان ، ط دار صادر، بيروت ١٩٨٤م١/٧٧) أما الدبيل فهي تقع علي شاطي البحر ضمن حدود جمهورية الباكستان وتعرف حالياً بكراتشي.

(٢) شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، ط عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٠م، ص٩٢:

الكحرات:تبلغ مساحة إقليم الكجرات ٤٨٥كم طولاً، و٤٣٥كم عرضاً،ويحتوي الإقليم علي تسعة سركارات ، و١٨٨بركانة ،طبقاً للتقسيم الإداري الهدي،ويقع الإقليم علي الحر العربي ساالحيط الهندي سومن أشهر مدنه سورت،بروج،كمباي ،و سومنات وكانت مدينة محمود أباد هي حاضرته في العهد الإسلامي Hakim Syed Abdul Hai: India Durin Muslim Rule. Lucknow 1997 .P 69,68

(٣) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م، ١١٦/٤.

(٤) ياقوت الحموي:معجم البلدان،٤/٤٠٠.

(٥) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٤١٦/٤

(٦) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين العرب والهند ، ثقافة الهند ٢/١٩٦٠م، ص ١٠٣.

(٧) محي الدين الألوئي : مابلا ، ثقافة الهند ، ٤/١٩٥٥م، ص٣٥

(٨) ابن منظور:أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت(٧١١هـ/١٣١١)،لسان العرب ،ط دار صادر ، بيروت ،١٩٩٧م، ٥٤/٦.

(٩) القلقشندى : أبو العباس أحمد ت (٨٢٠هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صنع الشعر والكتابة و الانشا، ط الهيئة ٢٠٠٤م ، ٦٢/٥.

(١٠) ابن منظور : لسان العرب ، ١٥٩/٥.مقبول أحمد: العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص١١٤.

(١١) أبن منظور : نفس المصدر،٤١٩/٥.

(١٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ٦٣/٥، شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي ، ص ١٣٦، ١٣٩.

(١٣) الألواتي : مايلا ، ص ٣٧.

(١٤) أحمد الشامي : العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك على بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطي ،المؤرخ العربي،١٣/١٩٨٠م، ص ١١٨.

(١٥) ، السيد أبي النصر أحمد الحسيني : مساهمة الهند في تحقيق مأرب الإنسان الاقتصادية ، ثقافة الهند ١٩٥٥/٤، ص٢٣، ٢٤.

(١٦) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص ١١٥.

(١٧) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٤٢٤/٥ ، ٤٢٥.

(١٨) أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ، ط دار نهضة الشرق ، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٤٧.

(١٩) المسعودي : أبو الحسن على بن الحسين بن على ت (٣٤٦هـ/٩٥٦م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط دار الفكر العربي ، بيروت ،١٩٤٨م ٢/ ٢٣٧،٢٣٦. وهذه البيوت هي بيت فارس على جبل أصفهان ، و سومنات في الهند ، و توبهار في بلخ ، بيت غمدان في اليمن على كوكب الزهرة ، وهيكل الشمس في فرغانه وهيكل الصين ، والكعبة في مكة على كوكب زحل حيث أعتقد الهنود أن سبب بقائها أنها بنيت على اسم وطالع كوكب زحل فكان لها منزلة عندهم، ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع (المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ٩٣، ٩٤).

(٢٠) المقديسي : شمس الدين البشاري ، ت (٣٧٥هـ/٩٨٥م) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط ليدن ١٩٠٤، ص١٣،

(٢١) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو : ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدن ومنها للعربية عبد العزيز جاويد ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٦م ، ٦٢/٣. والمعروف أن هذا الجبل يعرف بجبل السرهن ، وأن أول من أطلق عليه جبل أدم هم البرتغاليون وقبل ذلك عرف بأثر أدم ، والمقصود بقبر سوجر هو المعلم بوذا مؤسس نظام السنجاليين البوذي وكان من ضمن أسمائه سوجر موني أي الحكيم الأريب،وكلمة بركهان المضافة هنا معناها الإله في لغة التتار وهم الذين اعترفوا بألوهية بوذا (أنظر تعليقات وليم مارسدن٢٠٣/٣).

(٢٢) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٢١٧/٥.

(٢٣) جواد على : نفس المرجع ، ٢١١/٩.

(٢٤) ابن النديم:محمد بن اسحق البغدادي :ت(٣٨٥هـ/٩٩٥م) الفهرست، ط دار المعرفة ، بيروت،١٩٧٨م ، ص ١٧٢. عبد المجيد الندوي : نماذج من تأثير اللغة الهندية في اللغة العربية ، مجلة صوت الشرق، عدد ٤٢٣، ٢٠٠٤، ص٦١،٦٠.

(٢٥) أبن منظور : لسان العرب،٥/٤١٩،١٧١.

(٢٦) زبيد أحمد : الآداب العربية في شبه القارة الهندية ، ترجمة عبد المقصود محمد شلقامي ، ط نهضة مصر ١٩٩٥م .

(٢٧) ابن النديم : الفهرست ،٤٢١،٣٨٣،٣٨٠،١١٨ .

(٢٨) محمد أبو الصلاح : البيروني يسيح في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٦/١، ص ٤٥، مليبار: يطلق عليها ماآبار و موآبار و مالابار و معناها حيزة أو معبر وعرفت قديما باسم هيبالوموسري وحالياً أطلق عليها كيرله ، وطرحت في المصادر العربية باسم منيبار وهي تقع في الشرق من بلاد الكجرات وهي مركز الفلفل وأهم موانيها كولام ، سيل، شول — كوشين، سورات، كناتور (الألوائي مليبار ، ثقافة الهند، ١، ١٩٥٦/٢م،ص٣١، ٣٥) . وانظر في نفس المعنى (ماركوبولو : الرحلة ، ١٨٤/٣)

(٢٩) ابن بطوطة : محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ت (٧٩٩هـ/١٤٠٢م) ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، شرح وتحقيق طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م، ص٥٦٨، ٥٦٩، لمزيد من التفاصيل حول المفردات العربية في اللغات الهندية ، راجع مقالتي السيد محمد أجمل خان بعنوان الكلمات العربية والفارسية في اللغات الهندية ، ثقافة الهند سبتمبر ، ١٩٦٠، يناير ١٩٦١م.

(٣٠) البلاذري : أحمد بن يحيي بن عبد جابر البغدادي ت (٢٧٩هـ/٨٩٣م)، فتوح البلدان ، مراجعة وتحقيق رضوان محمد رضوان ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤١٩

(٣١) الاصطخري:أبي إسحاق الفارسي الكرخي ت(٣٠٩هـ/٩٥١م)، المسالك والممالك، تحقيق، محمد جابر عبد العال ،ط وزارة الثقافة ،١٩٦١م ص ١٠٤. الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية ،ص٤٩. جندواره تقع على بعد نصف فرسخ من مدينة الملتان راجع أحمد إبراهيم علي . إقليم الهند الإسلامي من الفتح الغزنوي حتى نهاية دولة مماليك الهند ،رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، المنيا ٢٠٠٠م، ص١٧،١٥.

(٣٢) اليعقوبي : أحمد بن يعقوب بن جعفر ت (٢٨٤هـ/٨٩٧م) ، تاريخ اليعقوبي ، ط دار صادر ، بيروت ب ، ت، ٤٠٩/٢ . الملتان " تبلغ مساحة إقليم الملتان ٦٤٨ ك.م يحدها من الشرق فيروربور ومن الغرب سيوستان، وقاعدة الإقليم مدينة المعروفة بنفس الاسم وكان يطلقه العرب عليها بيت الذهب لما وجدوه فيها من ذهب وإليها تنسب الملابس الملتانية وتقع على خط طول١٢,٣٠ شمالاً و ٧١,٣١ شرقاً . Hakim: O p.Cit.p.64

(٣٣) اليعقوبي : نفس المصدر،٤٠٩/٢.

(٣٤) الحسيني . عبد الحي الحسيني ، نزهة الخواطر وبهجة المسامع و النواظر ، ط دار ابن حزم ، بيروت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٣٣/١ ، ٣٤

(٣٥) ابن الأثير : عز الدين بن الحسن على بن أبي الكرم محمد الشيباني، ت (٦٣٠هـ/١٢٣٨م) ، الكامل في التاريخ ،ط مكتبة العرب ، الفجالة، ب/ت أحداث سنة ١٥١هـ/٥/٢٤٠،٢١١،٢١٢

(٣٦) المباركبوري : رجال السند والهند إلى القرن السابع ، ط دار الأنصار ، ١٣٩٨هـ، ٢٥٣/١.

(٣٧) السادايي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية ، ص٦١.

(٣٨) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو ، ٤٢/٣.

(٣٩) المسعودي : مروج الذهب ، ٣٦٧/٢.

(٤٠) اللاهوري : مفتي على الدين ، عبرت نامه ، ط لاهور ١٩١١ م، ٣٤/١.

(٤١) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٩/١٠.

(٤٢) المسعودي : مروج الذهب ، ١٠/١ ، صيمور : أحد أهم موانئ إقليم الكجرات على ساحل الهند العربي وتعرف أحياناً باسم شول Chool عنها انظر (أبي ظفر الندوي : أسطول كجرات ، ثقافة الهند ، ١٩٦٦/١م، ص٥٣).

(٤٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٤٢٣.

(٤٤) E.B.Havell. Aryan Rule in India. London N.D. p.253.

(٤٥) الألوائي : مابلا ، ص ٣٢.

(٤٦) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٧م، ٢٤٩/٢.

(٤٧) فرشته : محمد قاسم هند رشاه ، ت في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري ، كلزار إبراهيمي، ط بمباي ١٨٣١م،٢/ ٧٠١. باختلاف المؤرخين ذكر فرشته أن ذلك الأمر وقع في عهد الرسول (ص) بينما يذكر المؤرخ العربي زين الدين المعبري أن هذا وقع في القرن الثاني الهجري ، ولكن الأبحاث الحديثة تؤكد وصول مالك بن دينار للهند عام (٢١٩هـ/٨٢٤م) ،(الألوائي : مابلا ، ص٤٧).

(٤٨) توماس ارنولد : الدعوة إلي الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن و آخرون، مكتبة النهضة المصرية ب/ت ، ص٢٢٧.

(٤٩) محسن الأمين : دائرة المعارف الشيعية،بيروت ، ٢٠٠٦م ، ٣٠٩/٦، ٣١٠.

(٥٠) ابن القفطي : جمال الدين أبي الحسن على ت(٦٤٦هـ-١٢٨٣م) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط المتنبي ، القاهرة ، ب/ت ، ص١٧٧.

(٥١) عصام الدين عبد الرءوف الفقي : بلاد الهند في العصر الإسلامي ، ط دار الفكر العربي ، ٢٠٠٣م ، ص ٤٤٠، كشمير : تمتد مساحة إقليم كشمير لتصل إلى ١٩٣ ك.م طولاً في ٩٧ ك.م عرضاً ويحد الإقليم شمالاً الصين وتركستان وجنوباً البنجاب والتبت شرقاً و أفغانستان غرباً واشهر مدنه سرنجار

العاصمة و شوبـــان بامــــبور Hakim:O p .C it.p.63.

(٥٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٤٢،٤٢١،٤٨٤ . ابن القفطي : أخبار العلماء ، ص١٧٥ .

(٥٣) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٣٤٩/٢ ، ٥١٦.

(٥٤) أحمد الشامي العلاقات التجارية بين دول الخليج والشرق الأقصى ، ص٨٨.

(٥٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٤١٧. قندابيل ، تقع في إقليم السند ، وهي قصبة ولاية البدهة ومنها إلى المنصورة ثمان مراحل اليوم يقال لها كنداوة وهي ولاية في منطقة قلات (المباركبوري، رجال السـند والهند، ٣٧/١). لاهور : قاعدة إقليم البنجاب يحدها شرقاً دهلي وغرباً الملتان وكشـمير شمـالاً و راجستانا جنوباً بطول ٢٨٣ ك.م وعرض ١٣٨ .م وأشهر مدن الإقليم سيالكوت، ونكركـوت و امرتسار Hakim:O p.C it.p.p 61

(٥٦) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٢٣٤/٢. القيقان . هي من بلاد السند مما يلي خراسـان مباشـرة ضـمن ولايات إقليم قلات و اشتهرت بالخيل البراذين ، فتحت في عهد على بن أبي طالب وفتحها الحـارث بن مرة العبدي(المباركبوري : رجال السند والهند ٣٨/١).

(٥٧) اليعقوبي : نفس المصدر ، ٢٠ ٢٩٦.

(٥٨) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٥١/١.

(٥٩) المباركبوري : رجال السند الهند ، ٤٥٥/٢، برهمناباد : وهو الاسم القديم لمدينة المنصورة قاعدة الحكم العربي في إقليم السند وقد غير اسمها إلى بـــهاكر علـــى نمر السند Hakim Op .C it. p.64.

(٦٠) المباركبوري : نفس المرجع ، ٤٥١/٢.

(٦١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي / ٣٧٢/٢، ٣٧٣.

(٦٢) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٥٢٣/٢.

(٦٣) المباركبوي: نفس المصدر٤٦١/٤٦٠/٢. أرمائيل : هي اليوم مدينة رمن بيله التي تقع في كورة قـيلات وهي قصبة لمديرية تسي بيله على ستين ميلاً في كراتشي حالياً (المباركبوري . رجال السند والهنـد، ٤٦١/٢)، وكانت مراكز بني تميم في البصرة والبحرين و اليمامه و الكوفة وهي من القبائـل الـتي قاتلت الحسين وشيعته، وحاربت المهالبة عام (٦٥هـ)، وحاربت ربيعه المتمركـزة في خراسـان في نفس العام ، وغزة الترك في أعوام (١٠٢، ١١٠، ١١٢هـ) (عمر رضا كحالـة:معجـم قبائـل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٤ م،١٢٧/١،١٢٦،١٢٥.)

(٦٤) ابن الأثير :.الكامل ،أحداث ١٠٢هـ٥/٣٣،٣٢، وأحداث ١٥٧هـ٦/٥.

(٦٥) الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير ت (٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبـو الفضـل إبراهيم ، ط دار المعارف ، القاهرة ، ب /ت ، ٤٦٥/٧.

(٦٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٤٣١.

(٦٧) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤٢/١.

(٦٨) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي / ٣٧٢/٢.

(٦٩) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤٨/١.

(٧٠) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٤١٤/٢، ٤١٥ ، ٤١٩.

(٧١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٣، ١٣١.

(٧٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٤٦٥/٧.

(٧٣) المباركبوري : رجال السند والهند، ٣١٨/٢ ، ٤٣٩، ٤٦٤.

(٧٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣٣/٨ ، ٣٧.

(٧٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣٩٨،٣٧٣/٢ باربد هي الآن بما بماهوت ـــالكجرات – وذكر أن ولايـة قندهار يقصد بما كندها الواقعة أيضاً في إقليم الكجرات على ساحل الهند الغـربي (المبـاركبوري . رجال السند والهند، ٥٤٦/٢) ولا يجب اعتبرها مدينة قندهار الأفغانية.

(٧٦) الاصطخري: المسالك والممالك ، ص ١٠٤.

(٧٧) الحسيني:نزهة الخواطر،٤٤/١،٣٤.

(٧٨) المسعودي : مروج الذهب ، ٩٩/١ ، ١٩٧ ، أنظر أيضا أحمد إبراهيم على : إقليم الهند الإسلامي منذ الفتح الغزنوي حتى نهاية دولة مماليك الهند ، ص ١٦.

(٧٩) أى. رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٦٧/٤، ص ٣٢.

(٨٠) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، ١٤٨/١ن١٥٠.

(٨١) Havell: Op.Cit. p.250

(٨٢) أي رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ، ص٣٣.

(٨٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١٢٨/٨. المنصورة مدينة مقدرها في الطول والعرض نحو ميل في مثله ، يحيط بها خليج نهر مهران وهي شبية بالجزيرة (الاصطخري، مسالك المالك، ص١٠٣).

(٨٤) المباركبوري : رجال السند والهند، ٤٦٥/٢، ٤٦٦.

(٨٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٤٠٩/٢.

(٨٦) المباركبوري : رجال السند والهند ، ١٦٧/١.

(٨٧) المسعودي : مروج الذهب ، ١٩٩/١، ٦٧.

(٨٨) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٦١ ، كنبايت : أحدي مدن ساحل الكجرات تضاف إليها النعال الكساتية ويطلق عليها أحيانا كهمبائب وتزداد أهميتها الاقتصادية كمرفيء بحري بالإضافة لإشرافها على نهر نربدا (المباركبوري : رجال السند والهند ١/ ٤٠).

(٨٩) Havell: Op. Cit. p.252

(٩٠) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤٣/١.

(٩١) المسعودي : مروج الذهب ، ٩٩/١.

(٩٢) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٥٤٨/٢.

(٩٣) الطبري · تاريخ الرسل والملوك ، ٤٦٥/٧

(٩٤) ابن الأثير : الكامل،أحداث ١٧٦هـ-٤٦/٦،٤٥.

(٩٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣٩٨/٢، ٤٠٩.

(٩٦) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٥٨/١.

(٩٧) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣٩٨/٢، السادات : تاريخ المسلمين ، ص٥٩

(٩٨) الاصطخري· المسالك و الممالك ، ص١٠٣.

(٩٩) ماركو بولو . الرحلة ، ٤٢/٣.

(١٠٠) توماس اربولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص٢٢٨

(١٠١) المباركبوري ·العرب في عهد الرسالة ، ص ٦٧.

(١٠٢) Kaummab Phil. Kashmir its cultural Heritage Bombay 1952. p.155.

(١٠٣) حواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . ٣٠٨/٤، ٦٦٤.

(١٠٤) أبن منظور : لسان العرب ،٣٣٣/١.

(١٠٥) المباركوري · العرب والهد في عهد الرسالة ، ص٦٩،٧٠

(١٠٦) ابن منظور : لسان العرب ،٣٦٣/٣،٣٦٢ المباركبوري·نفس المصدر،ص ٦١.

(١٠٧) المباركبوري : نفس المرجع ، ص ٦١ ، ٦٣.

(١٠٨) على منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ص١٨٨.

(١٠٩) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٣٦٢.

(١١٠) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤٦/١.

(١١١) المباركبوري: العرب والهند في عهد الرسالة ،ص٧٩.

(١١٢) المسعودي : مروج الذهب ، ٢١/١

(١١٣) أحمد شودري : فرق الهند المنتسبة للإسلام في القرن العاشر الهجري ، موقع إسلام اون لاين ، ص ٥.

(١١٤) المسعودي : مروج الذهب ، ١٢٠/١.

(١١٥) المباركبوري : رجال السند والهند ٢٦٢/١.

(١١٦) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٥/١.

(١١٧) أبو الريحان بن أحمد ت (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة . ط الهيئة ٢٠٠٣م ، ص ٢٤. وأصل الكلمة. شو بمعني حصان و وار بمعني مرتفع في السنسكريتية ،و ربما تكون أسب سوار بمعني الحصان المرتفع في الفارسية واستعمل العرب الفظة بمعني قائد الجيش (المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص٧٢).

(١١٨) المسعودي : مروج الذهب ، ٣١٩/٢.

(١١٩) البلاذري : فتوح البلدان . ص٣٦٥،٣٦٤.

(١٢٠) المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ص ٧١، ٧٧.

(١٢١) عمر رضا كحالة :معجم قبائل العرب ، ص،١٩/١.

(١٢٢) على منصور نصر : الجماعات الزطية ، ص ١٩٠.

(١٢٣) S.M.Jaffar: Medieval India undar Muslims Kings New Delhi 1972. p.83.

ويطلق على الزط أحياناً الجت ، وجاء لفظ الميد من عملهم المستمر في البحر ، ويقال ماد به البحر يميد فتعفن نفسه من نتن ماء البحر ن وتنطق الزط بكسر السين في دمشق ، وزط فارس أطلق عليهم كات، يظهر لهم تسميات أخري مثل النور أو زيكان أو الكاولية والتسمية المتداولة حالياً الغجر (على منصور نصر: الجماعات الترطية في الدولة الإسلامية ، ص ١٨٥، ١٨٦).

(١٢٤) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١٨٩/٤.

(١٢٥) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٥٦/١ . وعندما فرض العباسيون لبس السواد قال أبو عطاء انسـ ي ، وكان من المهاجرين الهنود وصاحب بشرة سوداء. كسيت ولم اكفر عن الله نعمة سواداً إلى لوني ودناً ملهوجاً (أحمد أمين صحي الإسلام ، ٢٥٠/١)

(١٢٦) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٨٣/١

(١٢٧) المباركبوري : العقد الثمين في فتوح البلد الأمين ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين ، ط دار الأنصار ، القاهرة ، ص ٤٣.

(١٢٨) على منصور نصر : الجماعات الشرطية ، ص ١٩١.

(١٢٩) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣٩٨/٢ / البلاذري . فتوح البلدان ، ص ٤٣٣.

(١٣٠) همايون كبير : المسلمون في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٥٥/٣، ص ١٤

(١٣١) الألوائي : مابلا ، ص ٥٩/٥٨. وينقسم اسم مليبار إلى مل العربية وهي اختصار ملى بمعنى كتير وبار الفارسية بمعني جبل وهو اسم أطلقه التجار العرب والفرس على إقليم كيرله

(١٣٢) توماس ارنولد الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(١٣٣) أبي رحمان : التأثير العلمي العربي في الهند ، ص ٣٢

(١٣٤) محمد أبو الصلاح : البيروني يسيح في الهند ، ص ٤٦،٤٥.

(١٣٥) الألوائي · مابلا ، ص ٣٤.

(١٣٦) ابن بطوطة · الرحلة ، ص٥٧٣ . ٥٦٨، ويطلق عليها القلقشندي باسرور وهي أول بلاد المليبار من الغرب (صبح الأعشي ، ٧٤/٥).

(١٣٧) محمد أبو الصلاح · البيروني يسيح في الهند ، ص ٤٥.

(١٣٨) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٦٩، ٥٧٠ ، ٥٧١ وتقع مدينة هيلى جنوب مليبار وتعرف باسم مقلور ، و جرفتين في جنوب هيلى وبينها ثلاثة فراسخ ، أما فتن فهي تقع على حور كتير البساتين وبها النارجيل والفلفل. و منجرور تقع شرق باسرور وهي أكبر بلدان المليبار (القلقشندى ، صبح الأعشي ، ٧٤/٥).

(١٣٩) القلقشندى : صبح الأعشي ، ٧٥/٥ . وتقع كولم أو كولام و أحيانا أوكولم في منطقة ترافنكور حالياً (شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي، ص١٨٩).

(١٤٠) فرشته : كلزار إبراهيم ، ٧٠٢/٢. وهذه المراكز هي جوا ، كويلون ، كرانغلور ، بلى برم ، ويب ، كوجين ، كوشتن ، جاليم ، بربنغادي ، ترورنغاوي، ثانور ، برون ، فناں ، وليكود ، ، فاكنور ، منغلابرم، فاسركود ، نادا برم، دليطنم.، كنور ، و هرمدم ، جملود ، و تروبكادي (الألوائي : مليبار، ص ٥٨).

(١٤١) المسعودي : مروج الذهب ، ١/ ٢١.

(١٤٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣١٦/٢.

(١٤٣) Aziz Ahmed: An intellectual History of Islam in India Edinpdrgh. U.S.A. 1958. p.22.

(١٤٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٦١. وتقع تلك المدينة على خط عرض ١٩,٢٢ درجة شمالاً ٧٢,٣٨ شرقاً وتعرف حـــالياً بكـــومبـــاي وهي تشتهر بمســاجدها العـــريقة Hakim:O p.Cit.P77 .

(١٤٥) فيصل السامر : الإسلام في اندونيسيا ، عالم الفكر سبتمبر ١٩٧٩م، ص٤٨٠.

(١٤٦) المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص١٣٠ ويطلق عليها تهانه والنسب إليهـا تانتـي حيث الطول مائة وأربع عشر درجة وعشرون دقيقة والعرض تسع عشر درجة وعشرون دقيقـة ، وهي على مشارف الكجرات (القلقشندى : صبح الأعشي ، ٧١/١، ٧٢).

(١٤٧) أبي ظفر الندوي : أسطول كجرات ، ٥٣/٢ ، وتقع تلك المدينة علي ساحل الكجرات على خـط عرض ٢١,٤ شمالاً و ٧٠,٢٦ شرقاً .

Hakim :Op .Cit. p. 68

(١٤٨) المسعودي : مروج الذهب، ١٠/١.

(١٤٩) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص ١١١.

(١٥٠) المباركبوري : رجال السند و الهند ، ٨٣/١.

(١٥١) البيروني : الجماهر في معرفة الجواهر ، ط المتنبي ، ص٤٨.

(١٥٢) الاصطخري: المسالك والممالك ، ص١٠٤.

(١٥٣) Havell: Op .Cit. p.25

(١٥٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص٤٢٠ ، ٤٢٣، المقديسي : احسن التقاسيم، ص ٤٧٩.

(١٥٥) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٣٢/١.

(١٥٦) البلادري : فتوح البلدان ، ٤٣٢.

(١٥٧) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٢٤/١، ٥٦.

(١٥٨) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص٥٤٥، ٥٥٧

(١٥٩) البلادري : فتوح البلدان ، ص٤٢٣، يطلق عليها حالياً سيلان في جنوب الهند.

(١٦٠) ابن بطوطة · الرحلة ، ص٥٨٠ ، ٥٨٤ وتسمي حالياً جزر المالديف وتتكون١٠٨٧ جزيرة

(١٦١) ابن بطوطة : نفس المصدر، ص٥٦٣ . الألوائي : مابلا ، ص٤٩ : ٥١.

(١٦٢) فيصل السامر . الإسلام في اندونيسيا ، ص ٤٨١، ٤٨٢.

(١٦٣) محسن الأمين : دائرة المعارف الشيعية ، ٣٠٩/٦.

(١٦٤) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص ١١٠.

(١٦٥) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٤/١ ، ٤٤.

(١٦٦) فرشته : كلزار إبراهيمي ، ٦٦٧/٢.

(١٦٧) على منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ص١٩٣.

(١٦٨) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص١٠٩.

(١٦٩) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٢٠٠/٤

(١٧٠) المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص٨٥.

(١٧١) الألوائي : مابلا ، ص ٤٦، ٤٧.

(١٧٢) على منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ١٩٣.

(١٧٣) المباركبوري : رجال السند والهند ، ١٨٠/١، ٢٦٢، ٢٩٤.

(١٧٤) اللاهوري : عبرت نامه ، ص٣٣، ٣٤.

(١٧٥) الألوائي : مابلا ، ص٣٨.

(١٧٦) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص٢٢٩.

(١٧٧) ميرزا قتيل ت (١٢٣٣هـ/١٨١٨م) ، هفت تماشا، ثقافة الهند ، ١٩٦٤/٤، ص٢٧.

(١٧٨) المسعودي : مروج الذهب ، ١٠/١ ، ١٦٧.

(١٧٩) محمد أبو الصلاح : البيروني يسيح في الهند ، ص٤٥ ، ٤٦.

(١٨٠) محمد أحمد الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ، ثقافة الهند ١٩٦٠/١، ص ١١٧.

(١٨١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص٥٤٥، ٥٥٧ ، الألوائي : مابلا ، ص٥١.

(١٨٢) انظر ملحق رقم (١).

(١٨٣) المباركبوري : العرب والهند ، ص٥٦، ٧٤ ، ورجال السند والهند ، ٦٢/١ ، ٦٨.

(١٨٤) محمد يوسف النجرمي : بدء العلاقات العملية بين الهند والعرب ، ص١٠٣.

(١٨٥) المباركبوري : رحال السند والهند ، ١٣٨/١ ، ١٤٤.

(١٨٦) ابن النديم : الفهرست ،٣١٧،٣١٨. المباركبوري: المرجع السابق،٦٢/١ ،٩٨ ، ١٣٨.

(١٨٧) أبن النديم : نفس المصدر ،ص ٢٨٤،١٠٢،٦٩ .المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص٥١ ، رجال السند والهند ١٦٤/١ . والإمام أبو حنيفة فاسمه النعمان كان بديلاً عن الروطي ، وأيضاً كان يضاف لاسمه ماه شاه أو مرزبان وهو لقب لنائب الحاكم في فارس ، و الأوزعي قيل أنه من أهل السند طبقاً للذهبي في تذكرة الحفاظ ، وفي بعض الروايات الأخرى ينسب إلى الأوزاع وهي بطن من ذي الكلاع باليمن أو همدان ، أو قرية من دمشق ، واعتمد المباركبوري علي رواية الذهبي في نسب الأوزاعي إلى الهند.

(١٨٨) على منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ص١٨٨، ١٩٣.

(١٨٩) الألوائي : مابلا ، ص٤٨.

(١٩٠) جواد على :المفصل في تاريخ العرب ، ٦٩٥/٦ ، ١٤٣/٧ ، ٦٩٦،١٤٤.

(١٩١) المباركبوري : الهند في عهد الرسالة ، ص٦٧ ، ٩٨ ، ٩٩.

(١٩٢) البيروني : الهند ، ٢٧، ٢٩، ٣٠ ، ٨٣.

(١٩٣) أبو النصر أحمد الحسيني : مساهمة الهند في تحقيق مآرب الإنسان الاقتصادية ، ثقافة الهند ، ١٩٥٥/٣م، ص ٢٨ ، قال الشاعر العربي أبو نواس وهو في سحه المسابيح في ذراعي و المصحف في لبتي مكان القلادة.

(١٩٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٦٣.

(١٩٥) البيروني : الهند ، ص ٢١ ، ٢٢ .وللمزيد ابن النديم: الفهرست، ص ٤٨٤:٤٨٦.

(١٩٦) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٦/١.

(١٩٧) المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ٥٣.

(١٩٨) الأشعري : الإمام أبي الحسن على بن إسماعيل ت (٣٢٤هـ/٩٣٦م) ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين ، تصحيح هلموت ، ريتر ، ط الذخائر ٢٠٠٠م، ص٦ ، ١١ ، ١٤.

(١٩٩) أحمد أمين : ضحي الإسلام ، ٢٥٨/١.

(٢٠٠) الأشعري : مقالات الإسلاميين ، ص ٤٦.

(٢٠١) Jaffar: Op. Cit.p.156

(٢٠٢) الألوائي : مليبار ، ص٥٤ ، ٥٥.

(٢٠٣) همايون كبير : المسلمون في الهند ، ص ١٤.

(٢٠٤) همايون كبير : نفس المرجع ، ص ١٣ ، ١٤ ولمزيد من التفاصيل حول هذه الأفكار بالتفصيل راجع ، ول ديو رانت ، قصة الحضارة ، الهند وجيرانها ترجمة ذكري نجيب محمود ، ط القــاهرة ١٩٦٨م ، ص ٢٦٨ وما بعدها.

(٢٠٥) الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ، ص ١١٤، ١١٥.

(٢٠٦) همايون كبير ، المسلمون في الهند ، ص١٥.

(٢٠٧) ديو رانت : الهند وجيرانها ، ص ٢٢٨، ٢٧٦.

(٢٠٨) فرشته : كلزار إبراهيمي ، ٢/ ٧٠١.

(٢٠٩) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ٢٣١ ، ٢٣٤.

(٢١٠) الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ٢١١، ٢١٢.

(٢١١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٧١ ، ٥٨٤.

(٢١٢) Aziz : Op. Cit.p.1

(٢١٣) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٥٠/١.

(٢١٤) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤٥/١ ، ٥٣ ، ٥٤.

(٢١٥) أحسن التقاسيم : ص ٣٨١.

(٢١٦) الساداتي : تاريخ المسلمين ، ص٥٨.

(٢١٧) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٤٢٢/٢ حيث قال الشاعر سديف للعباس في قالب شعري.

لا يغرنك ما تري من رجـــــال   إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى   لا تري على ظهرها أموياً

(٢١٨) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٧٥.

(٢١٩) المباركبوري : الرسالة ، ص٧٧ ، رجال السند ، ٦٢/١.

(٢٢٠) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤١/١ ، ٤٥.

(٢٢١) الألواني : مانلا ، ص ٤٩.

(٢٢٢) أبو الصلاح : البيروني يسيح في الهند ، ص٤٦.

(٢٢٣) اللاهوري : عبرت نامه ، ص ٥١.

(٢٢٤) أبو الصلاح : البيروني : يسيح في الهند ، ص ٤٤، ٤٥.

(٢٢٥) Hasan Ali Nadui Muslims in India. Lucknow.1970 p.10.

(٢٢٦) أحمد الشامي: العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى،ص١١٤، ١١٥.

(٢٢٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٨٥.

(٢٢٨) المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص١٢٦.

(٢٢٩) البيروني : الهند ، ص٢٣

(٢٣٠) زبيد أحمد : ما تبرعب به الهند للآداب العربية ، ثقافة الهند، ١٩٥٤/٢، ص٢٠.

(٢٣١) Hasan..Ali:Op.Cit.p.6

(٢٣٢) أبي رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ص٤٩.

(٢٣٣) الألوائي : مابلا ، ص٤٨.

(٢٣٤) زبيد أحمد : ما تبرعت به الهند للآداب العربية ، ص ٣١.

(٢٣٥) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٣٣٣/٢.

(٢٣٦) المسعودي : مروج الذهب ، ٢١٠/١ ، ٢١١.

(٢٣٧) اللاهوري : الرحلة ، ص ٤٨ ، ٦٢.

(٢٣٨) ماركوبولو : الرحلة ، ص٤٧/٣ ، ٤٨.

(٢٣٩) الألوائي : مابلا ، ص٤٨ ، ٦٢.

(٢٤٠) ابن بطوطة الرحلة ، ص ٥٦٨.

(٢٤١) زبيد أحمد : ما تبرعت به الهند للآداب العربية ، ص ٢٠ ، ٢١.

(٢٤٢) ابن القفطي : أخبار العلماء ، ص ٥٣ ، ٥٤.

(٢٤٣) المباركبوري : رجال السند والهند ، ١٤٨/١ ، ٤٨٨/٢.

(٢٤٤) عبد المجيد الندوي : نماذج من تأثير اللغة العربية في الأردوية ، ص٥٩.

(٢٤٥) ماركوبولو : الرحلة ، ٤٧٣/٣.

(٢٤٦) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٤٧٣/٢.

(٢٤٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ٥٦٥ ، ٦٠٧.

(٢٤٨) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٥٦/١.

(٢٤٩) المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص١٠٢.

(٢٥٠) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٦٠.

(٢٥١) أبو ظفر الندوي : أسطول كجرات ، ٩٥/١.

(٢٥٢) ماركوبولو : الرحلة ، ٧٢/٣

(٢٥٣) المباركبوري : العرب والهند ، ص ١٢٤ ، رجال السند ، ٥٢/١.

(٢٥٤) الاصطخري: المسالك و الممالك : ص١٠٥.

(٢٥٥) المباركبوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص٤٠، ٦٢

(٢٥٦) القلقشندى : صبح الأعشي ، ٧٤/٥، ٧٥.

(٢٥٧) عبد المجيد الندوي : تأثير اللغة العربية في اللغة الأردية ، ص ٥٧، ٥٨ . المباركبوري : رجال السند والهند ، ٢٥٤/١.

(٢٥٨) المقديسي : أحسن التقاسم ، ص ٤٨٢.

(٢٥٩) المباركبوري : رجال السند ، ٢٥٤/١.

(٢٦٠) ابن القفطي : أخبار العلماء ، ص ١٧٥، المباركبوري : العرب والهند ، ص ٥٣.

(٢٦١) دهر بمانو: الموسيقي عند الملوك الأتراك و الأفاغنة في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٥٨/٣، ص٧٩.

(٢٦٢) المباركبوري : رجال السند والهند ، ١٠٨/١ ، ١٤٣ ، ٢٣٤

(٢٦٣) أبو النصر أحمد الحسيني : مساهمة الهند في تحقيق مآرب الإنسانية الاقتصادية ، ثقافة الهند ، ١٩٥٤/٣، ص١١٠٧، و تفزرق البيدق و تفرزق من فعل فرزين وهو في اصطلاح الشطرنج – الملك – و البيدق وهو العسكر ، واصل الشطربج على احتلاف هو هتست رنج أي الثماني صفح وهي عدد خانات الشطرنج ، أو صدرنك أي مائة حيلة أو شد رنج أي من اشتغل وذهب عناؤه ، سط رنج بمعنى التعب الأخير ، و أخر تلك التفسيرات ساطورانجا بمعي أربعة أعضاء وهو مصطلح خاص بالجيش الهندي المكون من الفيل والعربة والراكب والراجل.

(٢٦٤) ابن النديم : الفهرست ١٢٥. أحمد أمين . ضحي الإسلام ، ٢٦٩/١٠.

(٢٦٥) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص٢١٧/٥.

(٢٦٦) عبد المجيد الندوي : تأثير اللغة العربية في الأردية ، ص ٦١.

(٢٦٧) الهند ، ص٢٣.

(٢٦٨) التأثير العلمي وتطور الصوفية في الهند ، ص ٣٩.

(٢٦٩) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٩/١.

(٢٧٠) المباركبوري : رجال السند والهند ، ٢٧٩/١ ، ٢٨٠.

(٢٧١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٥٦ ، ٥٨٨ ، وهنا أيضاً تبرز طائفة التنجوي وهم شديدي التقشف ، و يعيشون شبه عراة لا يسترون أي جزء من أجسامهم ولا يعتبرون ذلك عاراً لأنهم أتوا إلى الدنيا هكذا ، وهم يعبدون الثور ويحملون معهم صنم صغيراً له يعلقونه على جباههم وهم يحرقون عظامه ، و يصنعون به مرهماً ويضعونه على مناطق معينة من أجسادهم (ماركو بولو: الرحلة ، ٦٠/٣ ، ٦١).

(٢٧٢) ابن بطوطة : نفس المصدر : ص ٥٧٣ ، ٥٨٨ ، ٥٩٩.

(٢٧٣) ابن رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند، ص٤١.

(٢٧٤) أبو الحسن على الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ط القاهرة ١٩٩٠م ، ص٧٥ ، ٧٦.

(٢٧٥) المقديسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٠.

(٢٧٦) Abul Hasan. Op. Cit. p.10

(٢٧٧) المباركبوري : رجال السند والهند ، ١٠٨ ، ١٣٣ ، ١٣٨.

(٢٧٨) الألوائي : مابلا ، ص ٤٤ ، ٤٥.

(٢٧٩) المباركيوري : رجال السند والهند ، ٨٦/١، ٨٧ ، ١٠٨ ، ١١٤.

ملحق رقم (١)

اللقب	اللغة	المعني	عام/ خاص	المنطقة	صاحب اللقب	المصدر
الصدر الأعظم وسيف السنة	عربية	—	خاص	الرور	قاضي القضاة العهد في الأموي	الحسيني ، نزهة، ١ /٥٠
ملك الملتان	عربية	—	خاص	الملتان	جعفر بن محمد	الحسيني: نزهة، ٥٣/١
السادات	عربية	—	عام	كشمير	وزراء ووكلاء أسرة شاه ميرز من العرب	فرشته : كلزار، ٦٥١/١
لبي	عربية	أجاب	خاص	السند	أبناء الحارث العلافي	الصديقي : أول من عرف الإسلام، ١١٥
مهاراج	سنسكريتي	الحاكم الكبير	خاص	السند و مكران	سلاطين الأسرة المعدية العرب	الاصطخري : مسالك الممالك ص١١٧
مايلا	المليبارية	أبن العظيم	عام	مليبار	التجار العرب	الألوائي : مابلا، ص ٣٢/٣١
مرزبان الهند	فارسية	الملك العظيم	خاص	المعبر	الوزير تقي الدين عبد الرحمن	الألوائي : مابلا ص ٥١

اعز الناس	عربية	—	عام	مليبار	السكان المدنيين من العرب	الألوائي : مابلا ص ٦٣
مركار	المليبارية	أصحاب المركب	عام	مليبار	العرب العاملين في الجندية	الألوائي : قبيلة مركا ر ، ص٦٣
الأعزة	عربية	—	عام	كولم	ساكني المستوطنات العربية	ابن بطوطة : الرحلة ص ٥٧٥
الاساورة	سنسكريتية	الحصان المرتفع	خاص	فارس و جزيرة العرب	قادة الجيش من الهنود	المباركبوري العرب والهند ص ٧٢
الميد	سنسكريتية	الرائحة النتينة	خاص	ساحل الهند	قراصنة البحر العربي	المباركبوري : رجال ٢/ ٥٨٠
السيابجة	سنسكريتية	الأطفال السود	خاص	الحجاز	—	المباركبوري : العرب والهند ٦١

ملحق رقم (٢)

المستوطنات العربية في الهند

ملحق رقم (٣)



ـ كدنغلور ـ اقدم المساجد في القارة الهندية بناه مالك بن دينار في مدينة كدنغلور بمليبار

الالواني : قبيلة ماركار الشجعاء صـ ٦٩



محاولة الشياطين لاغواء بوذا ـ الكهف الاول

(نموذج من الديانة البوذية في المناطق العربية في الهند محمود على خان : كهوف اجنتا ص٥٣

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر:ـــ

ابن الأثير : عز الدين بن الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني ت(٦٣٠هـ/١٢٣٨م) ، الكامل في التاريخ ،ط مكتبة العرب ، الفجالة ، القاهرة ، ب .ت

ابن بطوطة : محمد عبد الله إبراهيم اللواتي ت (٧٩٩هـ/١٤٠٢م) ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، شرح وتحقيق طلال حرب ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م.

البلاذري : أحمد بن يحيي بن عبد جابر البغدادي ت (٢٧٩هـ/٨٩٣م) فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد ، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣م.

البيروني : أبو الريحان بن أحمد ت (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) ، تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة ، ط الهيئة ، الزخا ئر ، ٢٠٠٣م.

الحسيني : عبد الحي الحسيني الندوي : نزهة الخواطر وبهجة المسامع و النواظر ، ط دار بن حزم ، بيروت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)

الأشعري : الإمام أبي الحسن على بن إسماعيل ت (٣٢٤هـ/٩٣٦م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين ، صحيح هلموت ريتر ، د الزخائر ٢٠٠٠م.

الاصطخري :أبي إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي ت(٣٠٩هـ/٩٥١م) المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ،ط دار وزارة الثقافة، ١٩٦١م.

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير ت (٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف ، القاهرة.

فرشته :محمد قاسم هندوشاه ت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري ، كلزار إبراهيمي ، ط بمباي ١٨٣١م.

ابن القفطي : جمال الدين ابن الحسن على ت (٦٤٦هـ/١٢٨٣م) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط المتنبي ، القاهرة.

القلقسشندي : أحمد بن على ، ت (٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صنع الشعر والكتابة و الإنشاء ، ط الهيئة ٢٠٠٥م.

اللأهوري : مفتي على الدين ، عبرت نامه ، ط لاهور ١٩١١م.

ماركو بولو : رحلات ماركو بولو : ترجمة عبد العزيز جاويد ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٨م.

المسعودي : أبو الحسن على بن الحسين ت (٣٤٦هـ/٩٥٦م) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،ط دار الفكر العربي ، بيروت ١٩٤٨م.

المقديسي : شمس الدين البشاري : ت (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم ، ط ليدن ١٩٠٤م.

أبن منظور :جمال الدين محمد بن حزم الأنصاري ت(٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب ، ط دار صادر ، بيروت ،١٩٩٧م.

ابن النديم :محمد بن إسحق البغدادي ت(٣٨٥هـ/٩٩٥م)، الفهرست ، ط دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨م.

اليعقوبي : أحمد بن ابن يعقوب بن جعفر ت (٢٨٤هـ/٨٩٧م) تاريخ اليعقوبي ، ط دار صادر ، بيروت .

ثانياً : المراجع العربية :ـــ

- أحمد إبراهيم على : تاريخ كشمير الإسلامية ، ط دار الفادي ، المنيا ، ٢٠٠٦م
- أحمد أمين : ضحي الإسلام ، ط الهيئة ١٩٩٧م.
- أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ط، نهضة الشرق، ٢٠٠١م.

- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠م.
- زبيد أحمد : الآداب العربية في شبه القارة الهندية ، ترجمة عبد المقصود محمد شلقامي، ط نهضة مصر ١٩٩٥م.
- عصام الدين عبد الرءوف الفقي : بلاد الهند في العصر الإسلامي ، ط دار الفكر العربي ٢٠٠٢م.
- المباركبوري : قاضي اطهر: العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز عزت، ط الهيئة ١٩٧٣م.
- ---------- رجال السند والهند إلى القرن السابع ، ص دار الأنصار ، ١٣٩٨هـ

ثالثاً : الدوريات :ـ

- أحمد الشامي : العلاقات التجارية بين دول الخليج العربي وبلدان الشرق الأقصى واثر ذلك على بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطي ، المؤرخ العربي ، ١٢/١٩٨٠م.
- أي . رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ، ثقافة الهند، ٤/١٩٦٧م.
- عبد المجيد الندوي : نماذج من تأثير اللغة العربية في الهندية ، صوت الشرق ٤٢٣/٢٠٠١م.
- على منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، التاريخ والمستقبل يناير ١٩٩٨م.
- فيصل السامر : الإسلام في إندونيسيا ، عالم الفكر ، ٢/١٩٧٩م.
- محمد أحمد الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ، ثقافة الهند ١/١٩٦٠م.

- محيي الدين الألوائي : مابلا ، ثقافة الهند ، ٣ /١٩٥٥م.
- مقبول أحمد : العلاقات التجارية بن الهند والعرب ، ثقافة الهند ٣/١٩٦٠م.
- همايون كبير : المسلمون في الهند ، ثقافة الهند ، ٣/١٩٥٥م.

رابعاً : المراجع الانجليزية :ـ

- Aziz Ahmad : An intellectual History of Islam in India. Edinburgh. U.S.A. 1969.
- E. B. Havell. The History of Aryan Rule in India London
- Hakim Siyed: India during Muslims Rule. Luknow. 1977.
- Hasan Ali Nadui : Moslims in Indian luknow. 1970.
- S. M. Jaffar: Medieval India under Muslim kings. New Delhi 1972.

د. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين *

مكانة أهل الذمة في المجتمع الإسلامي حتى نهايـــة العصر العباســـي الأول

المقدمة :

لعل أهل الذمة وتعامل المسلمين معهم في المجتمعات الإسلامية من الموضوعات الــتي تحتاج إلى مزيد من الدراسات الجادة العميقة حتى تكتنف الصورة عن أوضاع هذه الشــريحة في المجتمع الإسلامي .

ذلك أن لبساً بيناً يحيط بهذه العلاقة وذلك التعامل ، يبدأ هذا اللبس بفهــم المصــطلح الذي وصف به الإسلام غير المسلمين من أهل العهد الذين شاركوا المســلمين العــيش في المجتمع الإسلامي ، أعني بذلك مصطلح أهل الذمة ، فيذهب الكــثيرون إلى فهــم هــذا المصطلح فهماً خاطئاً ، فيرون الذمة قرينة المذمة والمذلة والمهانة والإنتقاص ، في حين أنها في حقيقة الأمر تنطوي على الإكرام والإحسان والأمان والحرمة ، بل هي في أصلها مــأخوذة من أن لهؤلاء بحكم العهد الذي أعطاهم رسول الله صلى الله عليهم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده بالأمان وحسن المعاملة وأن على المسلمين مراعاة هذه الذمة ، فهم على ذلك ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقلت بعد وفاته إلى المسلمين ، الذين هــم أولى الناس بإنفاذ عهده ومراعاة ذمته ، قال صلى الله عليه وسلم " ويسعى بذمتهم أدناهم " [1].

---

*أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة تعز

ويتناول هذا البحث مكانة هذه الشريحة من المجتمع الإسلامي ، بين المسلمين ، كيف نظر إليها المسلمون ؟ وكيف تعاملوا معها ؟ هل التزموا بتعاليم الإسلام في ذلــك التعامــل أم انساقوا مع أهوائهم ورغباقم ؟ هل تعايشوا معها أم عزلوها وأقصوها ؟ هل مكنت هــذه الشريحة من ممارسة حياقا وإقامة شعائرها بحرية ،أم ضيق عليها ، واضطهدت ؟ هل شــهد التاريخ الإسلامي تجارب تصفيات عرقية على أساس الدين والجنس ؟ هــل شــهد قمجــير وتشريد للمخالفين دينياً خارج حدوده الجغرافية ؟ أم ان العدل والتسامع والتعايش والرفق هو الذي ميز علاقة المسلمين بأهل الذمة ؟

مفهوم الذمة :

من الأخطاء التي وقع فيها الكثيرون وترتب على هذا الفهم مواقف وتصورات وأحكام، مفهوم أهل الذمة ، ففهمت الذمة على أنها قرينة المذلة والمهانة ، والانتقاص ، والحق أن هذا الخلط ناتج عن توجهات سلبية إزاء الإسلام بوصفه عقيدة وشريعة وإزاء المجتمع الإسلامي، الذي عاش لهذا الدين وبه حياته ، مؤثراً ومتأثراً بالحياة والأحياء من حوله ، فالذمة كما هي في القاموس اللغوي ، وفي الاصطلاح الفقهي وكما فهمها المجتمع الإسلامي بمسلميه وذمته، الحرمة والرعاية والحماية لكل من دخل في كنف الدولة الإسلامية من غير المسلمين بعهد ، توفى إليه حقوقه ما وفى للمسلمين ما عليه من واجبات .

وعلى هذا فأهل الذمة هم الذين تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمانة في أعناق المسلمين ، وبموجب هذه الأمانة يكون الإحسان إليهم والرفق بهم ، قال صــلى الله عليــه وسلم : " ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيــب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " [٢]، بل أنه وجه المسلمين إلى حرمة مال أهل الذمة ، ونهاهم عن الزيادة عليهم فوق ما صولحوا عليه ، فقال : " لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون علــيهم فيتقونكم دون أنفسهم وأبنائهم وتصالحونهم على ذلك ، فلا تصيبوا منــهم بعــد ذلــك شيئاً"[٣].

التزم الصحابة بهذه التوجيهات القرآنية والنبوية التي تأمر بالإحسان إلى أهل الذمة ، والوفاء لهم بحقوقهم ، وعدم الإفتيات عليهم ، وهو توجهاً عاماً لمسناه من تعاملهم مع أهل الذمة ، قال تعالى :" ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى "[٤]

ومن هذا قول (عبد الله بن رواحة) لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهمم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال:" والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير وما يحملني حبي إياه، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض" هذا الفهم للذمة ارتبط برؤية الإسلام للإنسان وبالمكانة التي منحها الله للإنسان بوصفه خليفته في الأرض (٥) ، وقد ضل هذا الفهم للذمة في عهد الخلفاء الراشدين وفي العصور الإسلامية اللاحقة.

نظرة الإسلام إلى الإنسان

أولاً : وضع الإنسان في الحضارات القديمة :

إذا ما أردنا أن نعرف وضع أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، يتوجب علينا أولاً أن ننظر إلى وضع الإنسان في ظل الحضارات السابقة ، ما معايير التمايز بين الناس .

فالبراهمية مثلاً تقرر التفاضل بين الناس بحسب عناصرهم ونشأتهم الأولى (٦)، أما قدماء اليونان فكانوا يعتقدون أنهم شعب متميز عن غيرهم بقدراتهم العقلية ، وأنهم لذلك المؤهلون الوحيدون للقيام بالأعمال العقلية ، ومن ذلك مهام القيادة والإدارة والتخطيط ، ويعتقدون بأنهم عنصر مفضل عن غيره ، وأنهم خلقوا من عنصر مختلف عن العناصر التي خلقت منها الشعوب الأخرى ، التي كانوا يطلقون عليها البربر ، وأنهم وحدهم كاملوا الإنسانية ، وقد ميزوا بجميع ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان ، وأن الآلهة قد خلقت فصيلين من الناس ، فصيلة زودتها بالعقل والإرادة ، وهي فصيلة اليونان ، وفصيلة لم تزودها إلاّ بقوة الجسم وما يتصل به ، وهؤلاء هم البرابرة ، أي ما عدا اليونان من الناس ، وقد فطرتها الآلهة على هذا التقويم الناقص ليكون أفرادها عبيداً مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة ، ومن واجب اليونان أن يعملوا بمختلف الوسائل على أن يردوا هؤلاء إلى المنزلة التي خلقوا لها ، وهي الرق ، وكل حرب يشنها اليونانيين لهذه الغاية فهي حرب مشروعة (٧)

وكانت الدولة الرومانية تقسم رعاياها بحسب العنصر ، فالروماني الأصل مواطن من الدرجة الأولى ، يتمتع بحقوق وامتيازات عن غيره من الرعايا غير الرومان ، الذين يأتون في الرتبة الثانية ، وكذلك الأمر بالنسبة للفرس فالملوك هم كما يزعمون أبناء الآلهة مقدسون ،

وما سواهم عبيد مسخرين لخدمتهم ، وغير الفرس أقل شأناً من الفرس ، وقد يتعرضون للظلم والازدراء من الفرس .

وقريب من ذلك وضع غير العربي في القبائل العربية قبل الإسلام ، فأبناء القبيلة متميزون عن غيرهم من منتسبي القبيلة من الموالي والعبيد ، الذين توكل إليهم الأعمال الوضيعة .

نظرة الإسلام إلى الإنسان :

ينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه مخلوق مكرم محترم ، قال تعالى : " ولقد كرَّمْنا بني آدم وحملناهم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " (٨) ومن هذا التكريم أنّ خلق الإنسان كان أحسن خلق وأكمله ، خلقه في أحسن تقويم ، قال تعالى :" لقدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ "(٩) ، خلقه وأوجده من العدم ، فلم يكن قبل ذلك شيئاً ، قال تعالى :" هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ من نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" (١٠) .

ثم أن الله تعالى ميز الإنسان بالعقل وجعله مناط تكليفه بمهمة العبادة والاستخلاف في الأرض ، فاستخلفه في الأرض ومكنه مما ادخره له فيها من طاقات ، بل وعلمه أسرار هذه الأرض لينتفع بها وليسخرها لمصلحته بما علمه من معارف وعلوم لم يكن يعلمها ، قال تعالى:" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ،وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيم قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ " (١١) ، وقال في موضع آخر :" خَلَقَ الْإِنسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" (١٢) .

كما وهبه العقل ، الطاقة الخلاقة التي استطاع الإنسان بها أن يتغلب على قسوة الحياة ويعوّض بها إمكانياته الجسمانية الضعيفة نسبياً مقارنة بغيره من الحيوانات التي زودها الله تعالى بوسائل لمواجهة قسوة الطبيعة ومتغيرات الحياة .

وكرم الله النفس البشرية ، وحافظ عليها من الإعتداء ، أو التعرض لها بـأذاً ، فسن التشريعات الكفيلة بحمايتها وردع من يعرض لها بسوء ، قال تعالى : " وَكَتَبْنَا عَلَيْهِم فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " (١٣) ، وقال عزوجل " وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (١٤)، وقال تعالى " وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا "(١٥) ، وقال أيضاً :" وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا "(١٦).

والرب في الإسلام ليس رباً عنصرياً ، بمعنى أنه ليس رباً للعرب ، أو حتى للمسلمين فحسب ، بل هو رب للعالمين ، قال تعالى :" إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"(١٧)، وقال عزوجل :" وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ "(١٨) ، وقال في موضع آخر :" فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "(١٩)"وقال تعالى : " تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ "(٢٠) وقال أيضاً :" وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (٢١) .

ورسالة الإسلام ليست مقصورة على قوم من الأقوام أو عنصر من العناصر ، بل هي للناس كافة ، كما أن شريعة الإسلام ليست كذلك لتنظيم حياة المسلمين فحسب ، بل منهج لتنظيم حياة الإنسان على الأرض ، لأن الله أراد الخير بهذا الدين للناس كافة .

وتتلخص نظرة الإسلام إلى الإنسان في وحدة الأصل ووحدة التكوين ووحدة المصير ، قال تعالى :" ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس وآحدة " (٢٢) ، كما بين أن ما حدث من توزيع للناس على الأرض وتقسيمهم إلى شعوب وقوميات وقبائل لم يكن للمباعدة فيما بينهم بقدر ما كان للتعارف والتقارب ، قال تعالى :" ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا " (٢٣)، وليس من مقتضيات الإيمان بالإسلام القطيعة مع غير المسلم ، بل أن الفقه الإسلامي نص على أن من مقتضيات الحياة ومن سنن الكون أن الإنسان يحتاج إلى أخيه الإنسان ، ولذلك وضع أسس العلاقات مع غير المسلمين سواء في دولة الإسلام أم في خارجها .

واجبات الدولة إزاء أهل الذمة :

يترتب على عقد الذمة حقوق وواجبات على المتعاقدين ، وهما الدولة الإسلامية وأهــل الذمة ، وبموجب هذا العقد تمنح الدولة الإسلامية أهل الذمة جميع الحقوق التي أقرها الشرع لهم ، وتصبح هذه الحقوق ملزمة على المسلمين ، من هذه الحقوق حفظ النفس ، فدم الذمي مثل دم المسلم له حرمة ، فإن قتل مسلم أحداً من أهل الذمة اقتص منه ، فقــد رفــع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمــة ، فــأمر بالقصاص منه قائلاً :" أنا أحق من وفى بذمته "[٢٤] ، وسلّم عمر بن الخطاب رجلاً من بــني بكر بن وائل قتل ذمياً إلى أولياء الدم فقتلوه "[٢٥] ، وأوصى الخليفة بعده بحسن معاملة أهل الذمة ، بعدم تكليفهم فوق طاقتهم ، حيث قال :" أوصي الخليفة بعدي بذمة رســول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى إليهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهــم ولا يكلفــون فــوق طاقتهم "[٢٦] .

حسن معاملة أهل الذمة :

لعل من القيم الإسلامية الأصيلة ، التي أكدت عليها تعاليم الإسلام ، قيمــة الرفــق ، والرفق في الإسلام قيمة مطلقة ، بمعنى أنها ليست مقيدة على تعامل المسلم مع المسلم ، بــل في تعامله مع الناس ، كافة ، بل مع الحيوان والكائنات الأخرى ،بل أن هذه القيمة تتناسب تناسباً طردياً مع قوة المسلمين ، ومع مدى التزامهم بتعاليم دينهم .

أثبت ذلك الرصد التاريخي لمراحل التاريخ الإسلامي بين القوة والضــعف الاســتقامة والسقوط ، وأكدت هذه القيمة أدبيات الإسلام ومصادره التشريعية ، قال تعالى :" إذهبا إلى فرعون إنه طغا ، فقولا له قولاً ليناً " ، وقال تعالى ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلى الذين صــبروا وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم "[٢٧] ، وقال عزوجل :" قُل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمــة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله .. "[٢٨] ، وقال عزمن قائل :" وجــادلهم بــالتي هــي أحسن "[٢٩] وقال تعالى :" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلمــوا منهم وقولوا أمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلاهنــا وإلاهكــم وأحــد ونحــن لــه مسلمون"[٣٠] ، وقال تعالى :" فبما نعمة من الله لنت لهم ولو كنت فظــاً غلــيظ القلــب لانفضوا من جولك "[٣١] .

كما حفلت السنة النبوية بكثير من التوجيهات إلى هذه القيمة الدينية ، حتى يجعل منــها المسلم معياراً للتعامل مع الناس ، فاتخذ النبي صلى الله عليه وسلم الرفق منهجاً لدعوتــه ، فتدرج في أبلاغ الدعوة رفقاً بالناس ، وكان رفيقاً بقومه من مشركي مكة عندما فتحهــا ، وكان رفيقاً بأهل الطائف عندما اذوه ومكنه الله من الإنتقام منهم ، ولن نتمكن من إحصاء كل المواقف التي تبين تحلي النبي صلى الله عليه وسلم بالرفق مع المسلم وغير المسلم.

وقد حفل التاريخ الإسلامي بالكثير من المواقف التي تجلت فيها حسن معاملة المسلمين لغيرهم من أهل الملل ، فعندما سأل عبد الله بن ربيعة عبد الله بن عمر عما يفعل مع أمه النصرانية ، أمره بالإحسان إليها ، قائلاً :" أحسن ولايتها وكفنها "(٣٢) ، وكان لعمر بن الخطاب مولاً نصرانياً يدعى (أسق) عرض عليه الإسلام فأبى فقال له لا إكراه في الدين ، ثم أعتقه لدى وفاته(٣٣).

ورفض معاوية بن أبي سفيان أن يقتل من لديه من رهائن الروم عندما غدر الــروم بــه ونكثوا عهده ، وقال :" وفاء بغدر خير من غدر بغدر " (٣٤) .

وفي الاندلس اتسمت معاملة المسلمين لأهل البلاد المفتوحة بالتسامح الذي أشاد به غير المسلمين قبل المسلمين، (٣٥)، تمثل هذا التسامح مع غير المسلمين في المعاملات والمجاملات ، فلم يتدخل المسلمون في شيئ من عقائدهم وعاداهم وأساليب عيشهم .(٣٦) وقد أتاح هذا التسامح من قبل المسلمين إلى زيادة التأثيرات الاجتماعية بين المسلمين والأسبان ، لدرجة أن الدول المسيحية المناوئة للدولة الاسلامية في الشمال الأسباني لم تجد مبرراً ، للمطالبة بحماية الرعايا المسيحين ،وكذلك لم تفعل الدولة الفرنجية التي كانت تتربص أحياناً بالأندلس (٣٧).

هذا التسامح لم ينله المسلمون من الأسبان بعد أن سقطت دولة الإسلام في الأنــدلس ، بل ووجهوا بأساليب القمع والتطهير العرقي ، وأجبر من نجا من القتل على تــرك دينــه ، والانسلاخ من قيمه وعاداته ، وتغيير لسانه وإسمه وأساليب حياته .

معاملة أهل الذمة أمام القضاء الإسلامي :

ينظر الإسلام إلى الإنسان بوصفه خليفــة الله في الأرض ، خلقــه الله وكرّمــه ، وإلى الرسالات السماوية أنها استهدفت هداية هذا الإنسان إلى السبيل القويم من خــلال رســم الخطوط العامة لحياة الإنسان في الإرض حتى تسير الأمور فيها إلى غايتها ، وحــتى يحقــق

الإنسان الغاية التي خلق من أجلها العبادة والعمارة ، وينظر إلى العدل بوصفه الضابط الذي يكفل استقامة حياة الإنسان على الأرض ، وهو لذلك يطلبه ويشدد على إرساء دعائمه في الأرض بين الناس ، وهو لذلك يساوي بين المسلم وغير المسلم من رعايا الدولة الإسلامية أمام القانون المدني والجنائي ، فحمى حقوق أهل الذمة كما حمى حقوق المسلم ، وعاقب الذمي على الجرائم التي اقترفها كما عاقب المسلم ، وحرّم دم الذمي وعرضه وماله كما حرّم دم المسلم وعرضه وماله .

هذه القيم النظرية لم تكن بعيدة عن الواقع ، لا بل كانت الممارسات العملية التي شهدها السياق التاريخي الإسلامي تصدقها ، وتؤكد على واقعيتها ، فهذا النبي صلى الله عليه وسلم يعدل في تعامله مع يهود خيبر عندما أعطاهم الأمان دون أن يلتفت إلى ما فعله بعضهم به ، فقد كان فيهم أهل بيت فيهم شدة على الرسول صلى الله عليه وسلم وفحش ، فقال :" يابني الحقيق عرفت عداوتكم لله ولرسوله ، ثم لم يمنعني ذلك من أن أعطيكم ما أعطيت أصحابكم "(٣٨)،وعندما تقاضاه يهودي وأساء التقاضي فأغلظ للنبي في القول ، ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ أن عفا عنه وتسامح معه، قائلاً لأصحابه بعد أن همّوا به:"دعوه فإن لصاحب الحق يداً ولساناً " (٣٩).

واختصم الإمام علي بن أبي طالب في خلافته مع يهودي إلى قاضيه شريح في درعٍ له وجدها عند اليهودي ، فطلب منه القاضي أن يثبت بالشهود ملكيته للدرع ، فأتى بالحسن وبأحد نواليه ، فلم يقبل شهادة الحسن لأبيه ، قائلاً :" يا أمير المؤمنين إنها لدرعك ولكن لا بد من شاهدين "، ثم إنه أعطى الدرع لليهودي ، فقال اليهودي : أمير المؤمنين مشى معي إلى قاضه وحكم قاضيه عليه ، هذه والله أحكام أنبياء ، صدقت ياأمير المؤمنين الدرع درعك سقطت منك وأنت عائد من صفين فالتقطتها ، أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله(٤٠).

وبالرغم من كل هذا التوخي للعدل ، والتحري للحق والحذر من الوقوع في الجور ، ظل القضاة والحكام يحاسبون أنفسهم ويؤنبونها ، لعلها أن تكون قد حدثتهم في يوم ما في الميل مع الهوى ، أو التمييز بين الخصوم ، على أساس الشرف والجاه والسلطان ، ولنستمع إلى هذا الاعتراف من القاضي أبو يوسف ، في اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت ، وهو يحاسب نفسه في آخر عهدها بالدنيا وأول عهدها بالآخرة ، قائلاً : " لئن جُرت في القضاء بين

عباده لم أجره إلاّ مرة واحدة ، ادعى فيها يهودي على هارون الرشيد دعوى ، فأحضرت هارون الرشيد واليهودي ، فلما حضرا قلت لليهودي قم واجلس حيث يجلس خصمك ، وما قلت لهارون قم واجلس حيث يجلس خصمك "(٤١) .

بهذه الحاسة المرهفة ، وبهذا الشعور العالي بالمسؤولية ، بهذه العبارات التي تقطر تقوى وتشع إيماناً وتندى صلاحاً ، بيّن القاضي أبو يوسف الأخطاء التي يمكن أن يكون قد وقع فيها ووقع منه الجور في أقضيته ، وبيّن مع ذلك المستوى الحضاري الراقي الذي تعامل به المسلمون مع غيرهم عندما تسيّدوا الأرض وكيف نَعَمَ غيرهم بالعدل والإنصاف في دولة الإسلام ، بيّن أن ثمة فرق بين مَدَنية حملت للإنسانية الحروب والدمار ، وبين حضارة جاءت رحمة للعالمين .

حماية أموال أهل الذمة :

نظر المجتمع الإسلامي إلى أموال أهل الذمة على أنها ملكيات خاصة محترمة ، لا يجوز حيازتها بدون حق ، أو إلحاق الضرر بها ، تتضح هذه النظرة من خلال نظرة الشرع لأموال أهل الذمة ، ومن خلال تعامل الدولة والناس معها ، فقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهون عند يهودي بمال أخذه منه ، وعندما أجلى عمر بن الخطاب لدواعي أمنية يهود الحجاز عوضهم عن أرضهم ودورهم ونخيلهم في الشام وفي العراق .(٤٢) وبلغت درجة تحري المسلمين في التعامل مع أموال اهل الذمة أن الخلفاء والولاة كانوا يحذرون القادة والجنود عندما يمرون بقرى وبأراضي أهل الذمة من إلحاق الأذى بأهلها أوبممتلكاتهم أو لأن أنفسهم وأموالهم محترمة ومحروزة ، وإذا اضطر المسلمون لأخذ بعض هذه الأموال يعوض أصحابها ، فقد شكا ذمي لعمر ابن الخطاب عندما كان بالجابية أن الناس قد أسرعوا في عنبه ، فنهاهم عن ذلك ، لكن الناس اعتذروا إليه بأنهم في مجاعة ، فأمر لصاحب العنب بقيمة عنبه (٤٣)، وكان خالد بن الوليد ينهى جنوده عن الإعتداء على أموال أهل الذمة حيث يقول :" ولا ترزأ معاهداً إبرة فما فوقها "(٤٤) ،ونهى عبد الله بن عباس عن أن يؤخذ من أموال أهل الذمة فوق ما صولحوا عليه (٤٥) ، وكان الناس في جيش علي عندما خرج لملاقات الخوارج يتناهون فيما بينهم عن أخذ شيئ من ما ل أهل الذمة ، فيذكر أن أحدهم تناول ثمرة ساقطة من بستان لبعض أهل الذمة فألقاها في فيه فقال له بعضهم :" ثمرة معاهد

فيم استحللتها ؟ فألقاها من فيه ، ثم مروا بخنزير فقتله أحدهم بسيفه فقال له بعضهم خنزير معاهد ، فبم استحللته" ؟(٤٦) ، وحذر أبو هريرة رجلاً ذهب للجهاد من العبث بمال أهل الذمة ، قائلاً :" لا تطأ حرثاً وإياك والمخلاة والمخلاتين من أموال أهل الذمة ثم تقول أنا غازٍ"(٤٧) ،وكان أبو الدرداء ينزل القرى من قرى أهل الذمة فلا يزيد على أن يشرب من مائهم ويستظل بظلهم وترعى دابته من مراعيهم ، فيأمر لهم بالشيء أو بالأفلاس " (٤٨).

وأمر عمر بن عبد العزيزي برد مظالم أهل الذمة إن وجدت في عهد أسلافه ، عندما كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قائلاً :" استبرئ الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فرده عليه ، فإذا كان أهل المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم "(٤٩).

وكان من حماية أموال أهل الذمة والرفق بهم وعدم تكليفهم فوق ما صولحوا عليه من الجزية والخراج ، فقد درج بعض الولاة على فرض زيادة على ما يؤديه أهل الذمة من مال لإعانة موظفي الدولة الذين يمرون بقرى أهل الذمة ، مثل أجور الفيوج ، ودراهم النكاح ، أو تلك الأموال التي اعتاد أهل الذمة على أداءها لحكامهم مثل هدايا النيروز والمهرجان ، فأديت للدولة في بعض الأقاليم ، ويظهر ذلك من موقف الخليفة عمر بن عبد العزيز عندما منع أخذ هذه الأموال الزائدة على ما صولح عليه أهل الذمة (٥٠) وأعاد خراج أهل قبرص إلى القدر الذي صالحوا معاوية عليه وألغى الزيادة التي فرضها عليهم عبد الملك بن مروان(٥١).

ومع كل هذا التيسير والرفق ، فلم يكن كل ذمي ملزم بالجزية مهما كانت حالته الاقتصادية ، وإنما كان المسلمون يأخذها من الأغنياء ، والقادرين على الكسب ، ولذلك كان يعفى من أدائها الفقراء والمعوزين من أهل الذمة ، بل إن الدولة في حالات كثيرة كانت تنفق على العجزة والزمنى من أهل الذمة من بيت مال المسلمين فقد أجرى عمر بن الخطاب على شيخ من أهل الذمة وجده يسأل الناس من بيت مال المسلمين، قائلاً له :" والله ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك "(٥٢) .

وقد تكرر هذا الموقف مفي العصر الأموي من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز ، إذ كتب إلى واليه على البصرة ، عدي بن أرطأة يأمره بكفالة الضعفاء من أهل الذمة من بيت مال المسلمين، حيث قال :" انظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فاجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه "(٥٣) .

أساليب جباية الخراج والجزية :

مما يدل على المكانة التي تمتع بها أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، أساليب التعامل معهم في جباية الخراج والجزية ، فقد حرصت الدولة الإسلامية في مراحلها المختلفة على تـوخي الرفق واللطف في تحصيل هذه الأموال منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الخلفاء الراشدون وكثيرممن أتى بعدهم يختارون لهذه المهمة أشخاص يمثلون القيم الإسلامية ونظـرة الإسلام إلى أهل الذمة على أنهم جزء من المجتمع الإسلامي توفى إليهم حقـوقهم مـا أدوا التزاماتهم إزاء الدولة ، بل أن المجتمع عاملهم بنوع من الرحمة والإحسان ، اقترن هذا الرفق والإحسان بالتزام المجتمع الإسلامي بقيم وتعاليم الإسلام ، فالكتاب والسـنة يـدعوان إلى الإحسان إلى غير المحاربين من غير المسلمين ، قال تعالى :" لا ينـهاكم الله عـن الـذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسـطوا إلـيهم إن الله يحـب المقسطين "(٥٤) ، وقال صلى الله عليه وسلّم :" من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفـه فوق طاقته أو أخـذ منه شيئاً دون طيب نفـس فأنا حجيجه يوم القيامة "(٥٥).

قسمت الجزية في عهد عمر بن الخطاب بحسب القدرة المالية لأهل الذمة ، فعلى الأغنياء ثمانية وأربعون درهماً وعلى متوسطي الدخل أربعة وعشرون درهماً وعلى الفقـير المعتمـل إثناعشر درهماً (٥٦) ، ومع ذلك فقد كان بعض هؤلاء يُعفـوْن منـها إذا عجـزوا عـن أدائها.

وكان الخلفاء يحذرون عمالهم من القسوة والبطش في جمع الجزية والخراج ، ويعاقبون من يثبت عليه سوء معاملة أهل الذمة ، ومن ذلك أن عمر بن الخطاب أتاه مال كثير من الجزية، فقال لمن أتاه به من عماله :" إني لأظنكم قد أهلكتم الناس ، قالوا والله ما أخذنا الأ عفـواً صفواً ، قال بلا سوط ولا نوط ، قالوا نعم قال الحمد لله "(٥٧) ، وكان يتمسـك بـالولاة الذين يرفقون بالناس في جمع الخراج ، فعندما تأخر سعيد بن عامر عن إيصال الخراج عـلاه عمر بالدرة ، فقال سعيد :" سبق سيلك مطرك إن تعاقب نصـبر وإن تعـف نشـكر وإن تستعتب نعتب ، فقال له عمر : مالك تبطئ بالخراج ؟ ، فقال سعيد : أمرتنـا أن لا نزيـد على الفلاحين على أربعة دنانير ،فلسنا نزيدهم ،ولكنا نؤخرهم إلى غلاتهم ، فقال عمر : لا عزلتك ما حييت "(٥٨) .

وكان علي بن أبي طالب يحذّرعماله من البطش والشدة في جباية الجزية والخراج ، فيروى أنه استعمل رجلاً من ثقيف على عكبراء فقال له :" لا تبيعن لهم في خراجٍ حماراً ولا بقرة ولا كسوة شتاء ولا صيف وارفق بهم "[٥٩] وكان إذا بلغه عن بعض نوابه شدة على الناس في طلب الخراج ، قال :" اللهم إني لم آمرهم أن يظلموا خلقك ولا يتركوا حقك"[٦٠].

بل إن العلماء كانوا يتدخلون أحياناً لدى الولاة للتخفيف عن أهل الذمة من الخراج ، فيروى أن نصرانياً أهدى إلى الأوزاعي جرة عسل ، ليشفع له عند والي بعلبك ليخفف عنه مقدار الخراج ، فقال الأوزاعي : إن شئت رددت الجرة وكتبت لك ، وإلاّ قبلت الجرة ولم أكتب لك ، فرد الجرة وكتب له فوضع عنه ثلاثين ديناراً "[٦١].

وكان من مجالات الرفق في جباية الجزية والخراج ، أن تأخذ من عين ماينتجه أهل الذمة، فكان علي بن أبي طالب يأخذ الجزية من صاحب الإبر إبراً ، ومن صاحب المسان مساناً ومن صاحب الحبال حبالاً ، رغبة في التخفيف على أهل الذمة ،[٦٢] ، كما روعي فيه خصوبة الإقليم وثراءه وسهولة الري ، ونوع المحصول والقرب من الأسواق .[٦٣]

وهكذا فقد كان الرفق هو المنهج المتبع والسياسة النافذة في تعامل المسلمين مع أموال أهل الذمة ، في الجباية ، وكان الرفق يصل إلى أن يعاقَب الولاة ويعزلون لإساءتهم في التعامل مع أهل الذمة.

مشاركة أهل الذمة في المناسبات الاجتماعية :

لعل مما يوكد على المكانة التي تمتع بها أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، وعلى روح التسامح التي عامل بها المسلمون غيرهم ممن عاشوا في دار الإسلام ودخلوا في نسيجه الاجتماعي ممن عرفوا بأهل الذمة ، فعاش عدد كبير منهم إلى جانب المسلمين في مدنهم وقراهم ، مما أدى إلى تأثرهم بالثقافة الإسلامية ، وإلى سريان روح التعايش بينهم وبين المسلمين ، فشاركهم المسلمون مناسباتهم الاجتماعية وفي أعيادهم الدينية والقومية ، بل ودخل معهم المسلمون في مصاهرات ، وفي تعاملات مالية ، وكان لكل هذا الاحتكاك والتسامح أثره في التعايش بين المسلمين وأهل الذمة ، وفي بقاء أهل الذمة إلى هذه اللحظة يمثلون جزءً من نسيج المجتمع الإسلامي ، محتفضين بكنائسهم ومعابدهم وبكل خصوصياتهم.

فساكن النبي صلى الله عليه وسلم اليهود في المدينة ، وكان يبادر إلى حسن معاملتهم والتودد إليهم علّ ذلك يحملهم على مبادلته هذا السلوك ، وجامل عمر بن الخطاب النصارى في أذرعات في رحلته إلى بيت المقدس عندما قابله أهلها بالسيوف والريحان وقد هم بردهم لولا أنه نزل عند رأي أبا عبيدة عندما نبهه إلى أنه إن ردهم يروا أن في نفس الخليفة نقضاً لعهدهم فتركهم يعبرون بطريقتهم [٦٤] ..

ومن مظاهر التسامح والتعايش بين المسلمين وبين غيرهم ممن عاش في المجتمع الإسلامي ، عياد مرضاهم ، واتباع جنائزهم ، والأكل من أطعمتهم وذبائحهم ، والزواج منهم .

فقد زار النبي صلى الله عليه وسلّم يهودياً في مرضه [٦٥]، وكان الخليفة أبو جعفر المنصور يعود جورجيوس الطبيب في مرضه [٦٦] ، كما شهدت العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة ، ألوان من التعاطي الإيجابي ، من ذلك هنئتهم في المناسبات السعيدة مثل الزواج ، والولد ، وقدوم الغائب ، أوالشفاء من مرض ، أو السلامة من مكروه ، وغيرها من المناسبات الطيبة ، بل أن مسلمي الأندلس كانوا يشاركون النصارى في أعيادهم واحتفالاهم المختلفة [٦٧].

وفي المقابل واسى المسلمون أهل الذمة في المناسبات الحزينة ، فعزوهم في موتاهم ومصائبهم ، وعادوا مرضاهم ، واتبعوا جنائزهم ، فقد أجاز الإمام أحمد بن حنبل زيارة مرضى النصارى ،و اتباع جنائزهم [٦٨] ،، وتعزيتهم،حيث قال:" إذا عزّيت الذمي فقل له:لا يصيبك إلاّ خير "[٦٩].

كما شارك المسلمون أهل الذمة في أطعمتهم وأشربتهم المباحة للمسلمين ، فأكلوا من ذبائحهم ، لأن الله تعالى أحل ذلك ، حيث قال :" وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم " ، وعندما سئل الإمام أحمد عن ذبائح أهل الكتاب قال : " لا بأس بها "[٧٠].

وكان من مجالات التعايش بين المسلمين وأهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، المصاهرات التي ربطت أهل الذمة بعلاقات اجتماعية وثقت صلت هذه الشريحة بالمجتمع الإسلامي ، فلا يوجد ثمة مانع في التشريع الإسلامي من زواج المسلم بكتابية [٧١] ، فتزوج رسول الله بمارية القبطية ، وتزوج عدد من المسلمين بكتابيات ، وفي الأندلس تزوج عدد من المسلمين

بمسيحيات ، فتزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير من أرملة لذريق ، (أم عاصم) ، كما تزوج المنصور بن أبي عامر بأميرة نافارية [٧٢].

وهكذا ففي ظل هذا التسامح والتعايش الذي نعم به أهل الذمة في المجتمع الإسلامي مارسوا طقوسهم وأنشطتهم في حرية تامة ، كما تبنى غير المسلمين نتيجة لهذا التسامح العادات والثقافة الإسلامية ، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية ، بل قاد البعض منهم إلى اعتناق الإسلام .

كفالة الحرية الدينية لأهل الذمة :

لم تلق أقلية دينية عبر التاريخ مساحة من الحرية في ممارسة شعائرها الدينية ، وأمان على ممتلكاتها الدينية،ما لقاه أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، فقد كفلت لهم الدول الإسلامية المتعاقبة حرية ممارسة شعائرهم الدينية، والاحتفال بأعيادهم ، وحافظت على كنائسهم وأديرتهم ومعابدهم ، وأتاحت لهم ممارسة العادات التي درجوا على القيام بها برغم مخالفتهم لتعاليم الإسلام وقيمه ، مثل شرب الخمور وأكل لحم الخنزير ، وهو السلوك الذي تعامل به المجتمع الإسلامي معهم .

ولعل وجود غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية المعاصرة حتى الأن محتفظين بحريتهم الدينية وبكنائسهم وكافة مرافقهم الدينية ، في وقت كان بإمكان المسلمين أن يجبروهم على ترك دياناهم واعتناق الإسلام ، كما حدث في أسبانيا بعد سقوط الحكم الإسلامي فيها ، لأوكد دليل على مدا ما تمتع به غير المسلمين في المجتمع الإسلامي من حرية دينية .

فقد كفل النبي صلى الله عليه وسلم ليهود المدينة واليمن حريتهم الدينية ، وفعل ذلك الخلفاء الراشدون مع أهل البلاد المفتوحة في الشام والعراق ومصر ، فتحرك الخليفة عمر بن الخطاب من المدينة إلى الشام ليتسلم مفاتيح مدينة بيت المقدس ، ثم رفض الصلاة في كنيسة القيامة حتى لا يتخذها المسلمون مصلاً فيسلبون بذلك حق النصارى في كنيستهم ، وعندما خاصم نصارى دمشق بعض المسلمين في كنيسة كانت اقطعت لهم ، ردها عمر بن عبد العزيز إلى النصارى [٧٣] ، ونهى عن توسعة مسجد دمشق على حساب كنيسة للنصارى ، وسمح العباسيون لرعاياهم من المسيحيين ببناء عدد من الكنائس الجديدة مثل كنيسة أبي سرجة في الحصن الروماني بمصر ، وفي عهد المهدي بنيت ببغداد كنيسة للمسيحيين الذين أسروا خلال الحملات العسكرية ، وسمح الرشيد ببناء كنيسة أخرى في البصرة [٧٤] .

الاستعانة بأهل الذمة :

إن مما يدل على المكانة الكبيرة التي تبوأها أهل الذمة في المجتمع الإسلامي استعمال العديد منهم في وظائف الدولة ، ووصول البعض منهم إلى أماكن مرموقة في أجهزة الدولة خصوصاً في الحقبتين الأموية والعباسية ، الأمر الذي يدل على مقدار التسامح الذي تعامل به المسلمون مع أهل الذمة ، للحد الذي جعل البعض منهم يصل إلى مراكز حساسة ، أساء بعضهم استخدامها وألحقوا الضرر بالدولة وبالناس .

كما استعان بهم الناس في كثير من الأعمال التي يحتاجون إليها في حياتهم اليومية ، بل أن مجالات من العمل قد أوكلت إليهم .

شتملت الاستعامة بأهل الذمة مجالات مختلفة منها ما كان حكومياً فعملوا في الدواوين ، وفي جباية الخراج ، وفي الكتابة للخلفاء والأمراء والولاة ، وفي الترجمة وفي المهمات الخاصة للخلفاء والأمراء ، فكان منهم أطباء الخلفاء ومستشاريهم في بعض القضايا ، ومنها ما كان شعبياً اقتصادياً فاستعان بهم المجتمع في القيام بكثير من الحرف والأعمال ، مثل السياغة والحدادة والنجارة والطب والبناء ، بل إنهم احتكروا كثير من الحرف اليدوية ، الأمر الذي كون لديهم فوائض مالية ، جعلتهم يتمتعون برغد العيش مما لم يتوفر لكثيرٍ من المسلمين .

ففي عصر الدولة الأموية تبوأت أسرة رومية من أهل الذمة مكانة كبيرة في الدولة ، فكان سرجون ابن منصور الرومي كاتباً لمعاوية بن أبي سفيان (٧٥) ،واستمر سرجون بعد ذلك مستشاراً ليزيد بن معاوية (٧٦) ، ثم أصبح إبنه منصور بن سرجون كاتباً على ديوان خراج الشام حتى تم نقل الديوان إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان (٧٧) . واستعمل عبيد الله بن زياد على الخراج رجلاً من أهل الذمة (٧٨).

كما استعمل المسلمون عدد من أهل الذمة في أعمالهم الخاصة ، فكان لأبي عوانة وكيل نصراني يجبي غلته (٧٩).

وشهد العصر العباسي تسامحاً كبيراً مع أهل الذمة وصل معه بعضهم إلى بلاط الخلفاء ، واصبحوا من خواصهم وإن كانوا من ناحية أخرى قد مثلوا خطراً أمنياًعلى الدولة ومستودع أسرارها من خلال وجودهم إلى جانب الخلفاء والوزراء لعملهم في تطبيبهم وفي بعض الأعمال الأخرى .

– عمل أهل الذمة في تطبيب الخلفاء :

اشتمل البلاط العباسي ، ابتداء من عهد المنصور حتى خلافة المتوكل ، على عدد كبيرمن أهل الذمة ، لتطبيب الخلفاء والأمراء العباسيين ، وقد حازوا لذلك مكانة مرموقة لدى الخلفاء [٨٠] وأتاح لهم ذلك من ناحية أخرى ، الإطلاع على ما يدور في البلاط العباسي .

استعمل المنصور عدداً من أهل الذمة كأطباء خصوصيين له أمثال(جورجيوس ابن جبريل[٨١] الذي اهتم به المنصور ومكّن له،فأمر أن يجاب إلى كل ما يسأل [٨٢] ، وبلغ من شده تعلقه به وحبه له ، أنه رغب في أن يسلم، فيذكر أنه عرض عليه الإسلام عند احتضاره قائلا: " يا جورجيوس اتق الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة [٨٣] إلا أنه رفض ، وقد حزن عليه المنصور بعد أن توفي [٨٤] رشح جورجيوس أحد تلاميذه ويدعى عيسى بن شهلا[٨٥] لتطبيب المنصور قائلا : " إني أخلّف بين يدك عيسى ، وهو تربيتي "[٨٦]، وأصبح عيسى بن شهلا في خدمة المنصور ، فقربه وأكرمه ، ومكّن له ، إلاّ أنه استغل ذلك في ابتزاز بعض المطارنة[٨٧] والأساقفة [٨٨] أموالهم ، وهو ما نلمحه فيما كتبه إلى مطران نصيبين [٨٩] ، ما يدل على خطورته على الخلافة في رمزها ، حيث قال : " ألم تر أن أمر الملك بيدي إن شئت أمرضته وإن شئت عافيته " [٩٠] ، وبغض النظر عن مدى جديته، إلا أننا نلمح منه إضمار الخيانة للمسلمين ، وعدم الإخلاص لهم رغم ما أحاطوه من عناية ، وما حظي به من مكانة لديهم ، ومهما يكن من أمر ، فإن المنصور عرف من عيونه فحوى تلك الرسالة ، فأمر بنفيه بعد أن جرّده من كل ما أعطاه [٩١] ، واتخذ المهدي بختيشوع [٩٢] لتطبيبه ، فظل في خدمته وفي خدمة ولديه الهادي والرشيد ، وقد حظي بمكانة مرموقة في بلاط الرشيد ، فعينه رئيساً للأطباء [٩٣] ، إلا أن ذلك لم يثنه عن التآمر على الخليفة وكبار رجال دولته ، حقدا منه على الإسلام وأهله ، فلم يستطع إخفاء رغبه في النيل منهم، وقد ظهر ذلك عندما أكّد للرشيد وفاة أحد أركان دولته إبراهيم بن صالح بن علي [٩٤] ، فكاد الرشيد أن يدفنه لولا أن جعفر البرمكي أشار عليه باستشارة طبيب آخر ، فأتى بطبيب هندي فكشف خيانة بختيشوع ، عندما أعاد الكشف على إبراهيم فوجده حياً ، فعاش إبراهيم بعد ذلك وتزوج وولي فلسطين[٩٥] ، ثم خلفه جبرائيل بعد ذلك ، فعمل لدى الرشيد والمأمون ، ثم خلفه ابنه بختيشوع الثاني حتى نفاه المتوكل[٩٦]، وقد اكتسب بالطب ما لم يكتسبه غيره [٩٧] وكان يوحنا بن ماسويه [٩٨] طبيباً لكل من المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وله عدد من المصنفات ، واختص ميخائل الطبيب [٩٩] بتطبيب الواثق.[١٠٠] .

– استعمال أهل الذمة في خدمة الخلفاء وفي الوظائف المالية والإدارية :

كما استعمل أهل الذمة في عدد من المجالات ، مثل خدمة الخلفاء ، وفي الترجمة ، وفي بعض الوظائف المالية فخدم الفضل بن مروان [١٠١] في بلاط كل من المأمون والمعتصم ، وكان حظياً لديهما [١٠٢] ، وجعل الرشيد يوحنا بن ماسويه مشرفاً عاماً على ترجمة الكتب ، من اليونانية والسريانية [١٠٣] واتخذ المأمون من سهل بن مروان [١٠٤] ، والياً على بيت الحكمة [١٠٥] ، وكان من جملة من يخدم المعتصم أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية لديه هما سلمويه وإبراهيم [١٠٦] .

إجراءات بعض الخلفاء ضد أهل الذمة

اتخذ عدد من الخلفاء إجراءات عقابية ضد أهل الذمة مثل عزل البعض منهم عن الوظائف التي كانوا يشغلونها ، أو مصادرة أموالهم ، أو النفي والسجن ، وغيرها من وسائل العقاب ، إلاّ أن هذه الإجراءات كانت في أوقات محدودة ، ونتيجة لإساءت بعض هؤلاء استخدام الوظائف والسلطات التي عملوا بها .

فقد أدى إفراط بعض الخلفاء العباسيين في التسامح مع أهل الذمة إلى التفريط في حقوق المسلمين ، من جهة ، لأنهم فضلوا أهل الذمة عليهم في الاستئثار بالوظائف والأعمال ، خصوصاً وقد أساء بعض أهل الذمة استخدام هذه الوظائف وألحقوا الضرر بالمسلمين وبأهل الخراج ، من ناحية ، وبالمال العام من ناحية أخرى ، وهو ما نلمسه من الشكايات التي كانت تصل الخلفاء من المسلمين ضد بعض موظفي الدولة من أهل الذمة خصوصاً في العصر العباسي الذي شهد وصول عدد كبير من أهل الذمة إلى مراكز مؤثرة في جهاز الدولة ، فشكا الناس إلى المنصور ظلم موظفيه من أهل الذمة الذين كلفهم بتتبع أموال بني أمية [١٠٧]، وعبر عن هذا الاستياء ، أحد العلماء عندما نبه المنصور إلى المظالم التي اقترفها عماله من أهل الذمة ، قائلاً :" يا أمير المؤمنين سلطت أهل الذمة على المسلمين ظلموهم وعسفوهم وأخذوا ضياعهم وغصبوا أموالهم وجاروا عليهم " [١٠٨] ، وقويت شوكة أهل الذمة في خلافة المهدي حتى تضرر منهم المسلمون وتوجهوا إلى العلماء ليتدخلوا لدى الخليفة حتى يرفع عنهم سطوة موظفيه من أهل الذمة [١٠٩] ، وكان له كاتباً نصرانياً في البصرة ظلم الناس في معاملته ، فشكوه إلى قاضي البصرة سوار بن عبد الله [١١٠] .

وأوهم طبيباً نصرانياً الرشيد بموت أحد قادة جيشه عندما كشف عليه وكادوا يدفنونه، فأتوا بطبيب هندي فبين لهم أن الرجل لم يمت ، فعاش بعد ذلك وتزوج وولي فلسطين [١١١].

ولما زار المأمون مصراً أتاه الناس يشكون عمال الخراج من أهل الذمة [١١٢] ، واكتشف المتوكل أن موظفيه من أهل الذمة يسعون إلى إفساد مابيته وبين القادة والموظفين من المسلمين ، وأن بعضهم ينتهبون المال العام [١١٣] ، فأقصاهم عن الوظائف الحساسة ، وحاسبهم على الأموال التي استحوذوا عليها من المال العام ، فأمر في سنة (٢٣٣ هـ / ٨٤٨م) بمحاسبة إبراهيم بن الجنيد النصراني ، وكان كاتبا حتى أقر بسبعين ألف دينار ، فاستخرجها منه ، وأودعه السجن [١١٤].

وهكذا فإن تصرف الخلفاء المسلمين مع بعض أهل الذمة على نحو من الإقصاء من الوظائف المهمة في الدولة لم يكن إلاّ بسبب إساءتهم استخدام هذه الوظائف على نحوٍ ألحق الضرر بالمسلمين .

الهوامش

(١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الديات ، باب يقاد من القاتل ، حـديث رقـم ٤٥٢٧ ، جـ٤ ، ص ١٨٠، دار الفكر ، د.م .

(٢) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الخراج والفيء والإمارة ، باب التشديد في جباية الخراج ، حديث رقم : ٣٠٥٢ ، جـ ٣ ، ص ١٧٠ .

(٣) رواه الترمذي في سننه ، كتاب السير ، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أمـوالهم شـيئاً ، جـ٩ ، ص ٢٠٤ .

(٤) سورة :المائدة ، أية :٨

(٥) أحمد بن حنبل ، مسند الإمام أحمد ، جـ٣، ص ٣٦٧.

(٦) حقوق الإنسان في الإسلام ، ص ١١.

(٧) حقوق الإنسان في الإسلام ، ص ١٢ .

(٨) الإسراء ، الآية ٧٠ .

(٩) التين ، الآية ٤ .

(١٠) الإنسان ، الآية ١– ٢ .

(١١) البقرة ، الآيات ، ٣٠– ٣١ – ٣٢ – ٣٣ .

(١٢) الرحمن ، الأيتان ٣–٤ .

(١٣) المائدة ، الآية ٤٥ .

(١٤) الأنعام ، الآية ١٥١ .

(١٥) الإسراء ، الآية ٣٣ .

(١٦) الفرقان ، الآية ٦٨ .

(١٧) البقرة ١٣١ .

(١٨) البقرة ، الآية ٢٥١ .

(١٩) الجاثية ، الآية ٣٦ .

(٢٠) الواقعة ، الآية ٨٠ .

(٢١) الشعراء ، الآية ١٩٢ .

(٢٢) النساء ، الآية : ١٠ .

(٢٣) الحجرات ، الآية: ١٣ .

(٢٤) رواه الشافعي في مسنده ، كتاب القصاص والديات ، جـ ١ ، ص ٣٤٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، انظركذلك ، نظرية الإسلام وهديه ، ص ٣٤١ .

(٢٥) الإسلام وهديه ، ٣٤٢ .

(٢٦) يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٧٤ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعرفة بيروت .

(٢٧) فصلت ، الآيتان : ٣٤ – ٣٥ .

(٢٨) آل عمران ، الآية: ٦٤.

(٢٩) النحل ، الآية :١٢٥ .

(٣٠) البقرة ، الآية : ١٣٣

(٣١) آل عمران ، الآية :١٥٩ .

(٣٢) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ١٥٢.

(٣٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ ٦ ، ص ١٥٨.

(٣٤) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٣٥) الحجي ، أندلسيات ، جـ ٢ ، ص ٢٣، ٢٤ ، عن رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٥٦، ٢٨٨، ٢٩١ . ، لين بول ، قصة العرب في أسبانيا ، ص ٧٢ .

(٣٦) أندلسيات ، جـ ٢ ، ص ٢٥ ، عن عمر فروخ ، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط ، ص ١٧٩.

(٣٧) الحجي ، أندلسيات ، ص ٣١ ، التأثيرات الاجتماعية المتبادلة ، ص ٣٩٢.

(٣٨) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٧٨ .

(٣٩) الماوردي ، نصيحة الملوك، ص ٢٦٩ ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ، دار شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٨م.

(٤٠) ابن الجوزي ، العلل المتناهية ، جـ ٢ ، ص ٨٧١ ،٨٧٢ ، تحقيق ، خليل الميس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣ .

(٤١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص ٣٨٧ ، الموصلي : حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك، ص ص ٩٤ ، ٩٥ . .

(٤٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٤ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤١ .

(٤٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٦٥ .

(٤٤) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٤٥)المصدر نفسه ، ص ١٦٢-١٦٣

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .

(٤٩) ابن سعد ،الطبقات الكبرى ، ج٥ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٥٠) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٥ ، الطبقات الكبرى ، ج٥ ، ص ٣٧٤ .

(٥١) أبو عبيد ، الأموال ، ٥٠ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ٢١٠ ، ٢١١ .

(٥٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٠ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٤٠ .

(٥٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٠ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٤٠ .

(٥٤) الممتحنة ، الآية : ٨ .

(٥٥) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب التشديد في جباية الجزية ، حديث رقم ٣٠٥٢ ، جـ ٣ ، ص ١٧٠ ، يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٧٥- ٧٦ ، انظر كذلك عبد المنعم أحمد بركة ، الإسلام والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين ، ص ٩ ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ط١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

(٥٦) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(٥٧) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٢ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٨ .

(٥٨) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٢-٥٣ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٨ .

(٥٩) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٣ ، يحيى بن آدم ، كتاب الخراح ، ص ٧٤-٧٥ ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٨، ٣٩ ، الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج ، ج١ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٦٠) ابن تيمية ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، ص ٤٥ ، تحقيق محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

(٦١) محاسن المساعي في مناقب الأمام الأوزاعي ، ٣٦ ، ٣٧ .

(٦٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٣ .

(٦٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص٤٧، ٤٩، ٥٠ ، ٧١ ، الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٤٣ ،١٤٤.

(٦٤) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٦٥- ١٦٦.

(٦٥) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ١٥٠ .

(٦٦) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج٢ ، ص ٤٠ .

(٦٧) راوية عبد الحميد ، لتأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المسلمين والأسبان في الأندلس ٣٩١، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي ، العدد (١١)، مارس ٢٠٠٣

(٦٨) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ١٥١.

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .

(٧٠)المصدر نفسه ، ١٨١ .

(٧١) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٢١٩ .

(٧٢)عبد الرحمن الحجي ، أندلسيات ، ج٢ ،ص٣١.

(٧٣) الأموال ، ص ١٦٦ ، انظر : بدران . عبد القادر ، تهذيب تاريخ مدينة دمشق الكبير لإبن عساكر ، جـ ١٠ ، ص ٢١٠ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧/ ١٩٨٧ ، أبو زهرة ، العلاقات الدولية في الإسلام ، ص ٢٨ .

(٧٤) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٨٥ ،٨٦ .

(٧٥) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٢٤٦ .

(٧٦) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، ص ٢٧٥ ، المزي، تهذيب الكمال ، جـ ٦ ، ص ٤٢٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٠ ، ١٩٨٠.

(٧٧) ابن النديم ، الفهرست ، ج١ ، ص ٣٣٨ ، دار المعرفة بيروت ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ .

(٧٨) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤، ص ١٠٩ .

(٧٩) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ج٧ ص٢٦٣ ،الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج٦ ، ٣٦٩ .

(٨٠) يؤكد ذلك جورجي زيدان ، حيث يقول : كان الأمراء يستخدمونهم (يعني أهل الذمة) كأطباء ومترجمين وكتاب ، وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويجالسونهم ، تاريخ التمدن الإسلامي ، جـ ٤ ، ص ١٣٨ .

(٨١) جورجيوس بن جبرائيل : هو طبيب سريان مسيحي ذو خبرة بصناعة الطب وتركيب الدواء ، خدم المنصور ، فكان يطببه ، وحظى لذلك بمكانة لديه ، ونال منه أموالاً جزيلة ، كما استخدمه المنصور في ترجمة بعض كتب اليونان إلى العربية ، وابتداء في خدمة المنصور منذ سنة(١٤٨ هـ / ٧٦٥ م) ،

واستمر حتى سنة(١٥٢ هـ/٧٦٩ م)، حيث مرض جورجيوس فعاده المنصور وحزن عليه وعرض عليه الدخول في الإسلام ، إلا أنه توفي على نصرانيته سنة(١٥٢ هـ / ٧٦٩ م) ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الثقافة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م جـ ٢ ، ص ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(٨٢)ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جـ ٢ ص ٣٨ ، اليوزبكي : توفيق سلطان تاريخ أهل الذمة في العراق (١٧ / ٢١٨ هـ - ٦٣٨ / ٨٣٣ م) (رسالة ماجستير) ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م ، ص ٣٨٤ .

(٨٣) ابن أبي إصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جـ ٢ ص ٤٠ .

(٨٤) المصدر نفسه

(٨٥) عيسى بن شهلا (لم أعثرله على ترجمة) .

(٨٦) ابن أبي إصبيعة : عيون الأبناء في طبقات الأطباء جـ٢ ص ٤٠ .

(٨٧) المطارنة : جمع مطران ، والمطران رئيس الكهنة ، وهو فوق الأسقف ودون البطريك ، ويجمع أيضاً : مطارين ، وهو لفظ أعجمي معرَّب ، البستاني : الوافي ، مكتبة لبنان ، بيروت ،١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٥٩٢

(٨٨) الأساقفة :جمع أسقف ، والأسقف رئيس النصارى في الدين ، فيقال أسقفه إذا جعله أسقفا وهو اسم سرياني قصد به علماء النصارى والمتقدمين لهم في الدين ، ابن منظور : لسان العرب ، جـ ٣ ص ٢٠٤١ .

(٨٩) نصيبين : هي مدينة عامرة في بلاد الجزيرة (الفراتية) على طريق القوافل بين الموصل والشام فتحها عياض بن غنم سنة(١٧ هـ / ٦٣٨م) صلحا ، ونصيبين كذلك قرية من قرى حلب وهناك نصيبين ثالثة على شاطئ الفرات ، ياقوت: معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٩٠) ابن أبي إصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جـ ٢ ص ٤٠ .

(٩١) المصدر نفسه .

(٩٢) بختيشوع بن جورجيوس ، ومعنى بختيشوع ، عبد المسيح ، لأن البخت في اللغة السريانية بمعنى العبد ، ويشوع عيسى عليه السلام ، تعلم مهنة الطب على يد أبيه جورجيوس فبرع فيها ، واشتهر ، فاتخذه الرشيد ، والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل طبيبا خاصا ،عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جـ ٢ ص٤١ ، الفهرست ، ص ٣٥٨ .

(٩٣) اليوزبكي : تاريخ أهل الذمة في العراق ، ص ٣٨٥، ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م جـ ١٣ ، ص ١٩٠ .

(٩٤) إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي ، ولي دمشق للمهدي ، ثم ولي له مصر مرتين ، وولي الجزيرة لموسى الهادي وظل عليها حتى ولي الرشيد الخلافة فعزله، ثم أعاده الرشيد سنة(١٧٢هـ/ ٧٨٨م)على دمشق فظل والياً عليها حتى سنة(١٧٥هـ/٧٩١م)، ثم توفي بعدها بعام ، أي في سنة (١٧٦ هـ / ٧٩٢ م)، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق،جـ ٦، ص ص ٤٤٥ ،٤٤٧ .

(٩٥) ابن وادران : تاريخ العباسين ، ص ص ٩١ ، ٩٢ .

(٩٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١٢ ، ص ٣٨ .

(٩٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، حـ ٦ ص ٥٢٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء،جـ ٩، ص ٦٤ .

(٩٨) يوحنا بن ماسويه،خدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق حتى عزله المتوكل، وهو مسيحي سرياني قلده الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة مما وجد في بلاد الروم التي افتتحها المسلمون ، وجعله أمينا على الترجمة وجعل تحته كتاباً يساعدونه ، وكان مع ذلك طبيباً بارعاً ، فتذكر بعض المصادر أنه كان يشرف على طعام الخلفاء وكان لذلك معظما ببغداد ، ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ، حققه فؤاد السيد ، مؤسسة الرسالة،بيروت،ط ٢ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨م ، ص ٦٥ .

(٩٩) ميخائيل الطبيب (لم أقف له على يرجمة) .

(١٠٠) ابن دحية : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، ص ٧٦ .

(١٠١) الفضل بن مروان بن ماسرجس ، يكني بأبي العباس ، استوزره المعتصم ، وهو نصراني من البردان بالشام إختان المال العام فنكبه المعتصم واستخرج منه عشرين مليون درهم ، توفي سنة (٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ ١٠ ص ٢٩٣ ، جـ ١٢ ص ٨٣ ، ٨٤ .

(١٠٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٦٠ .

(١٠٣) خضر أحمد عطاء الله : بيت الحكمة في العصر العباسي ، ص ٦١ .

(١٠٤) سهل بن مروان بن رامنوي الدستميساني ، انتقل إلى البصرة ، فارسي الأصل شعوبي المذهب ، له كتب في مثالب العرب ، ذا حكمة وفصاحة ، التحق بخدمة المأمون ، فولاه خزانة بيت الحكمة ، له مصنفات عديدة منها : كتاب ديوان الرسائل ، ثعلة وعفراء ، على غرار كليلة ودمنة ، كتاب الهذلية والمخزومية ، كتاب النمر والثعلب ، كتاب تدبير الملك والسياسة ، ابن النديم الفهرست ، ص ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(١٠٥) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٥١ ، انظر كذلك خضر الله ، بيت الحكمة في العصر العباسي ، ص ٦١ .

(١٠٦) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٨١ ، هما سلمويه وإبراهيم ابنا بنان ، فعندما استخلف المعتصم سنة ٢١٨ هـ/٨٣٣ ، اختار لنفسه سلمويه الطبيب وأكرمه وقربه منه ، حتى انه اتخذه كاتبه الخاص فكانت كتب المعتصم إلى الدواوين تصدر بيد سلمويه ، وقد ضم سلمويه إليه في خدمة المعتصم أخاه إبراهيم ، وهما نصرانيان ، توفي سلمويه سنة (٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م)، فحزن عليه المعتصم حزناً شديداً، ابن أبي إصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

(١٠٧) النقاش النقاش : المذمة في استعمال أهل الذمة ص ٨٤ ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، مصور عن دار الكتب العربية ، القاهرة ، ميكروفيلم (٥٠) ،.

(١٠٨) المصدر نفسه ، ص ٨٤– ٨٥ .

(١٠٩) المذمة في استعمال أهل الذمة ، ص ٨٥ ، حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك ، ١٢٤ ، ١٢٥.

(١١٠) المذمة في استعمال أهل الذمة ، ص ٨٥، ٨٦ .

(١١١) تاريخ العباسيين ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(١١٢) المذمة في استعمال أهل الذمة ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(١١٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ، ص ٣٤٧ ، المذمة في اسعمال أهل الذمة ،

(١١٤) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٧ ، ص ٣٤٧ .

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً المصادر :

أحمد بن حنبل الشيباني . ت ٢٤١ هـ .

١- مسند الإمام أحمد ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة ، د.ت .

ابن آدم . (يحيى القرشي ت ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م) .

٢- كتاب الخراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ط ٢ ، د.ت.

ابن أبي أصيبعة .

٣- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الثقافة ، بيروت ، طـ ٤ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م

البلاذري . (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) .

٤ _ أنساب الأشراف ، تحقيق إحسان عباس ، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

الترمذي . محمد بن عيسى بن سليمان.. ت ٢٧٩ هـ .

٥- سنن الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت .

ابن تيمية . تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م .

٦- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، ص ٤٥ ، تحقيق محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

ابن جلجل . (أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي ت ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) .

٧ – طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ /

١٩٨٥ م .

(ابن الجوزي . عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ .

٨- العلل المتناهية ، ، تحقيق : خليل الميس ، دار الكتب العلميـــة ، بـــيروت ، ط١ ، ١٤٠٣ .

ابن خلكان . (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكــر ت ٦٨١ هــــ / ١٢٨٢ م)

٩ – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت .

أبو داود . سليمان بن الأشعث السجستاني ت . ٢٧٥ هــ .

١٠- سنن أبي داود ، دار الفكر ، د.م ، د. ت .

الذهبي . (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هــ / ١٣٤٧م)

١١- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٢ ، ١٤٠٢هــ / ١٩٨٢ م .

ابن سعد . (محمد بن سعد بن منيع ٢٣٠ هــ / ٨٤٥ م) .

١٢- الطبقات الكبرى ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د . ت .

الشافعي . محمد بن إدريس ت ٢٠٤ هــ

١٣- مسند الإمام الشافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت .

شهاب الدين . أحمد بن محمد الحلبي ت ٨٧٠هــ/ ١٤٦٦م

١٤- محاسن المساعي في مناقب الأمام الأوزاعي ، تحقيق ابراهيم مهدي ، مؤسسة المارد الثقافية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠١هــ / ١٩٩١م .

الطبري . (محمد بن جرير ت ٣١٠ / ٩٢٢ م) .

١٥- تاريخ الأمم والملوك ، دار الكتب العلمية ، بـــيروت ، ط١ ، ١٤٠٧ هـــــ /١٩٨٧م .

ابن عساكر . (أبو القاسم علي بن الحسين ت ٥٧١ هــ / ١١٧٥ م) .

١٦- تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق سكينة الشهابي ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ، ١٤٠٧ هــ

ابن النديم

الماوردي . (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) .

١٧ – الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق عماد زكي البارودي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، د.ت .

١٩٥ – نصيحة الملوك ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

المزي . (جمال الدين أبو الحجاج يوسف ت ٧٤٢ هـ / ١٧٤١ م) .

١٨ – تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق ،مطبقة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٤٠٧ ، ١٩٨٧ م .

الموصلي . (محمد بن عبد الكريم الشافعي ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .

١٩ – حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك ، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

أبو عبيد . (القاسم بن سلام ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م) .

٢٠ – الأموال ، تحقيق عبد الأمير مهنّا ، دار الحداثة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م

ابن قيم الجوزية . شمس الدين محمد بن أبي بكر ت ٧٥١ هـ .

٢١- أحكام أهل الذمة ، تحقيق : سيد عمران ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م

ابن النديم . (محمد بن إسحاق ت ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م) .

٢٢ – الفهرست ، تحقيق إبراهيم رمضان ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٧ هـ/١٩٩٧م

النقاش . (أبو أمامة محمد بن علي ت ٧٦٣ هـ /١٣٦٢م) .

٢٣ ــ المذمة في استعمال أهل الذمة ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، برقم (٥٠)

ابن وادران . حسين بن محمد ، كان حياً سنة ١١٧٢هـ / ١٧٥٩م

٢٤- تاريخ العباسيين ، تحقيق النجي الكعبي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

ياقوت . (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) .

٢٥ – معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ .

يحيى بن آدم . (القرشي ت ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م) .

٢٦ – كتاب الخراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار التراث ، القاهرة ، د.ت .

ثانياً المراجع :

بدران . عبد القادر .

١- تهذيب تاريخ مدينة دمشق الكبير لإبن عساكر ، جـ ١٠ ، ص ٢١٠ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧/ ١٩٨٧ .

البستاني . عبد الله

٢ ـ الوافي معجم وسيط اللغة العربية، مكتبة لبنان ، بيروت ،هـ١٤٠٠/١٩٨٠م.

الحجي ، عبد الرحمن علي (الدكتور)

٣- أندلسيات ، دار الإرشاد ، د.م ، ط١ ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م .

راوية عبد الحميد

٤- التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المسلمين والأسبان في الأنـدلس ٣٩١، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد (١١)، مارس ٢٠٠٣.

خضر أحمد عطاء الله (الدكتور)

٥ ـ بيت الحكمة في عصر العباسيين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط١ ، د.ت .

وافي . علي عبد الواحد (الدكتور)

٦- حقوق الإنسان في الإسلام ، ، نهضة مصر ، القاهرة ، ط٥ ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٩م .

المودودي .أبو الأعالى

٧- نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور ، نقله إلى العربية جليل حسن الإصلاحي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ٣٤٢ .

اليوزبكي : توفيق سلطان

٨- تاريخ أهـل الذمة في العراق (١٧ / ٢١٨ هـ - ٦٣٨ / ٨٣٣ م) (رسالة ماجستير) ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م، ص٣٨٤ .

٩- ول ديورانت :

قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م جـ ١٣ ، ص ١٩٠ .

دكتورة آمال حسن عبد الحافظ الخطيب *

السفارات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية

١٣٢ - ٣٠٥هـ / ٧٤٩-٩١٧م

العلاقات الإسلامية البيزنطية

لم يهتم العباسيون بالفتوحات الإسلامية وضم أراضي جديدة للدولة، وإن لم يتوقف الصدام العسكرى بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ، إلا أن العباسيين لم يخططوا لإسقاط الدولة البيزنطية كما خطط أسلافهم الأمويون، واتخذ الصدام العسكرى بين الدولتين صورة غارات إنتقامية تخريبية ، الهدف منها إنزال كل فريق بالآخر أكبر قدر من الخسائر فى الأرواح والعمران والأموال، وكانت كلا من الدولتين العباسية والبيزنطية تنتهز فرصة الإضطرابات الداخلية فى أى منهما للقيام بمثل هذه الغارات التخريبية ، ولم نجد فى المصادر التاريخية ما يدل على أن العباسيين خططوا لفتح القسطنطينية(١).

فسياسة العباسيين إنما قامت على أساس الدفاع عن الحدود ، لاضم أراضى جديدة ، ثم الانتقام لكل عدوان يقع على أراضيهم ، فغزواتهم كانت وقائية دفاعية تهدف إلى تأكيد قوة المسلمين بدليل إنهم فى حالات إنتصاراتهم وتوغلهم فى الأراضى البيزنطية ووصولهم أسوار القسطنطينية عادوا وتركوا الأرض واكتفوا بأخذ الجزية كما فعل هارون الرشيد فى عام ١٦٥هـ/ ٧٨١م، فى خلافة أبيه المهدى (٢).

ومن الملاحظ أن علاقة العباسيين والبيزنطيين لم تتميز قط بصفة الخصومة والحقد، بل كانت أقرب إلى الحياد على المستوى العلمى والتجارى والحضارى بصورة عامه ، وكانت

---

* أ.م عصور وسطى بقسم التاريخ - جامعة الملك عبد العزيز- كلية التربية- الأقسام الأدبية .

الصلات - فيما عدا فترات الحرب- قائمة دائما وذلك ينسجم إنسجامًا مطلقا مع عقلية القرون الوسطى ونستطيع أن نرى الجانب الآخر ، السلمي والودى للعلاقات بين هاتين القوتين من خلال الرسائل التى تبادلها كبار رجال الدولتين ، فحرص كلا منهما على التمسك بأهداف حسن الجوار ، فأودت الدولة الإسلامية سفرائها منذ أيامها الأولى إلى بلاط القسطنطينية ، كما بعث الأباطرة البيزنطيون بسفرائهم إلى عاصمة الدولة الإسلامية ردا على التمثيل الدبلوماسى الإسلامى(٣).

أنواع السفارات :

كانت هناك سفارات حربية أو سياسية أو عسكرية أو سلميه، وقد عرف العرب هذه الطريقة منذ العهد الجاهلي واتبعوها فى العهد الأموى، ولم يعدل عنها العباسيون بل استقبلوا منذ بداية دولتهم سفراء الروم والفرنجة وغيرهم، استقبلت الخلافة العباسية سفارات لإنهاء حالة حرب، أو عقد معاهدة تجارية أو ثقافية أو للتنهئة بتولى حاكم جديد للعرش ، أو بطلب صلح أو لتوثيق الروابط العلمية بين الطرفين، كما كانت هناك سفارات الغرض منها التجسس لمعرفة إستعداد الأعداء الحربى والمادى ، وهناك جانب آخر استهدفته السفارات الإسلامية ألا وهو تدعيم الروابط الثقافية بين الدولتين، فكان الخلفاء والأباطرة يتبادلون السفارات الخاصة بطلب الكتب النادرة التى توجد فى حيازة الطرفين أو فى مكتباتهما العامة ، وكذلك لاستدعاء كبار العلماء للمساهمه فى الحركه العلمية فى بلادهما أو لتسهيل مهمة بعض الطلاب لتلقى العلم فى الجامعات الكبرى فى عواصم المسلمين والبيزنطيين(٤).

وكانت بغداد فى أرض الرافدين والقسطنطينية على البسفور حدائق للمعرفة والعلم والفنون، كلا منهما تسابق الأخرى فى ميدان البحوث والدراسات والابتكارات، ولذا كثرت السفارات بينهما لنقل ثمار المعارف والعلوم، ولم تقتصر السفارات الثقافية على طلب الكتب النادره فحسب وطلب العلماء ، ودراسة الأماكن التاريخية التى تتعلق بأحداث إسلامية ورد ذكرها فى القرآن الكريم، وكانت هناك سفارات لتبادل الأسرى (الفداء) الذين ازداد عددهم نتيجة كثرة الغارات بين المسلمين والبيزنطيين (٥).

صفات السفراء وقواعد اختيارهم :

كان السفراء المسلمون يختارون وفق أدق القواعد ، فالسفير الإسلامي كان يمثل الخليفة ويتكلم بإسمه ويفاوض عنه ويبرم العقود والمعاهدات نيابة عنه ، فكان الخلفاء المسلمون يقومون بأنفسهم باختيار المرشحين للسفارة، وكان فى الدولة الإسلامية فى صدرها الأول ديوان يسمى ديوان الرسائل يختص بالمكاتبات بين الملوك وغيرهم من رؤساء الدول المجاوره للدولة الإسلاميه .

وطلب الخلفاء فى السفراء صفات هامة أولها هى الصفات الجسمانية فقيل فى صفات الرسول : يستحب فى الرسول إمتداد الطول وعبالة الجسم وتمام القد، فلايكون قميئا أو ضئيلا، وأن يكون جهر الصوت وسيما لاتقتحمه العيون ولاتزدريه النواظر ، وأكد الخلفاء والسلاطين المسلمون على أهمية الصفات الجسمانية مع ما يتحلى به السفير من الفصاحة وقوة الجنان، لأن تلك المواهب لاتظهر من أول وهله، فقالوا «وإن كان المرء بأصغريه مخبوءا تحت لسانه ولكن الصورة تسبق اللسان والجثمان يستر الجنان ، وينبغى أن يجمل الرسول بكل ما أمكن لأن العامة ترمق الزى أكثر مما ترمق الكفاية، ثم إن أعين الملوك تسبق إلى ذوى الرداء من الرسل وتطلب ذلك فى رسلها لئلا ينقص إختيارها خطا من خطوط الكمال ولذا كان لابد من أن يكون السفير وسيما جسيما يملأ العيون المتشوقة إليه، ويشرف على تلك الخلقة المتصديه له فلاتستصغره »(٦).

ولفت نظر الأباطرة البيزنطيين ما كان عليه سفراء الدولة الإسلامية من مهابة فى الجسم وأبهة فى المنظر، وإلى جانب الصفات الجسمانية التى اشترطتها الدولة الإسلامية فى سفرائها الصفات الخلقية ، فإذا تجمعت فى إنسان صار جديرا بالسفارة والرسالة وأن يمثل رأس الدولة فى الخارج ، ومن تلك الصفات الخلقية أن يكون السفير على درجة كبيرة من نفاذ الرأى وحصافة العقل التى تجعله يستنبط غوامض الأمور، ويستشف سرائر القلوب ويأتى عمله عن بينه ويدع ما لايستحب عمله عن خبره ، وقد راعت الدولة الإسلامية أن يتحلى السفير كذلك بالفصاحة وذكاء العقل وقوة القلب والقدرة على فهم الإيماء حتى يدرك حجة خصمه قبل النطق بها (٧).

وينبغى ألا يخلو السفير من جرأة وإقدام ، لأن الجرأة أقوى معين على النجاة وأضمن سبل لبلوغ الهدف، كما يحتاج السفير إلى كثير من الحلم وكظم الغيظ مثل ما يحتاج إلى الصبر

وللتأنى مكانه فى صفات السفير، لأنه إذا لم يكن متأنيا وقابل حاكما حازما اندفع إلى إبرام أمور تضر بدولته بسبب العجلة وتكوين الرأى دون بصيرة وآناءة ، والرسول يحتاج إلى ترك الإفراط فى الإنقباض والحشمه لأن الإنقباض يوجب الوحشة والإنبساط يوجب المؤانسة والمؤانسة تجمع القلوب، وفطنت الدولة الإسلامية إلى أمرين لهما شأن كبير فى التعليمات التى زودت بها سفرائها :

الأول : حذرت السفير من شرب الخمر والإفراط فيه، لأن الخمر تفضح شاربها وتطلع على ما فى نفسه من الأسرار ، وألا يميل إلى النساء لأن للنساء حيلا بارعة يستخرجون بها الأخبار.

الثانى : أوصت الدولة الإسلامية سفرائها بعدم التدخل فى شؤون المرسل إليه وأمور مملكته، وأن لايحرش الحاكم على الرعية، أو يتصل بشخصيات مشتبه فى أمرها لدى سلطان الدولة المرسل إليه .

ساعدت هذه الصفات الخلقية الرقيقة على خلق طبقة ممتازة من السفراء المسلمين الذين كانوا عنوانا كريما على سمو الدولة الإسلامية، وعجز حكام الدول الذين قابلوا السفراء المسلمين على التأثير عليهم أو خداعهم بالخمر أو النساء ، كما وجدوا فيهم رجالا على جانب كبير من الأدب الجم والروح الخفيفة الظل والتأنى وكظم الغيظ [٨].

وأضيف إلى مؤهلات وصفات السفير الثقافة العامة التى تجنب السفير الزلل فى القول وتقويه فى محاوراته ومحادثاته فعليه أن يكون ملم بكل علم وأبلغ تعبير عن هذا المعنى قول الشعبى «العلم أكثر من أن يحصى فخذ من كل شئ أحسنه» ، وجمعت الدولة الإسلامية ما يجب أن يتحلى به السفير من علم فى هذه العباره «ينبغى أن يجمع الفرائض والسنن، والأحكام والسير ليحتذا بها مثال من سلف فيما يورده ويصدره ، وأن يعلم أصول الخراج وسائر الأعمال ليناظر كلا بحسب ما يراه من صوابه وخطأه »[٩].

ولاحظ المسلمون ما للنسب من أثر عند إختيار السفراء، ففضلوا السفير ذا المحتد الكريم والأصل النبيل على غيره، لأن النبيل لايصدر عنه إلا العمل النبيل ولايجرؤ على ما يجرؤ عليه السافل الوضيع ، وجرت العادة على إرسال من يقع عليهم الاختيار للسفارة فى مهام محلية بسيطة لإختيار مدى ما عندهم من مواهب ، وعندما يتم السفراء تدريبهم ويتأكد أولى الأمر من صفاء معدنهم وقوة مواهبهم يرسلونهم الى خارج البلاد ، وكان [illegible]

يزودون بتعليمات تقضى التأكد من صحة طلب الفريق الآخر للصلح أو المهادنة أو تبادل الأسرى ، إذ كثيرا ما يعمد الجانب المعادى للدولة الإسلامية إلى إتخاذ مطالبه السلمية وسيلة لتدعيم قوته الحربية استعدادا لاستئناف القتال، وقد أدت الاحتياطات العظيمة التى اتخذتها الدول الإسلامية لمرشحيها للسفارة الى تمتعها بالمكانة الأولى فى عالم الدبلوماسية فى عالم العصور الوسطى، وكانت الدولة الإسلامية على خبرة واسعة بشؤون الدبلوماسية والأغراض التى قد يستهدفها جيرانها بإيفاد الرسل إليها، وحفلت دور المحفوظات والوثائق فى الدولة الإسلامية بتقارير مسهبة عن أراضى الدولة البيزنطية وطرقها ومعاقلها وغير ذلك من مرافقها الهامة وساعدتها تلك المعلومات على معرفة طرق التجارة والطرق الحربية ، واتخذت الدولة الإسلامية من جانبها كل الوسائل لمنع سفراء الدول الأخرى من التجسس على مرافقها، وترك الخلفاء المسلمون نماذج عالية يحتذى بها الخلف عن السلف فى اختيار ممثليهم الدبلوماسيين(١٠).

أمثلة على أنواع السفارات بين العباسيين والبيزنطيين :

أولا :التبادل العلمى والثقافى : استهدفت السفارات الإسلامية جانب هام هو تدعيم الروابط الثقافية بين الدولة العباسية وجاراتها ، فاستفاد المسلمون من الحضارة البيزنطية ونقلوا الكثير من مظاهرها إلى بلدان الدولة الإسلامية عن طريق رحلات المسلمين إلي القسطنطينية سواء كانوا أسرى حرب أو تجارا أو رحالة، فقد لعبوا دوا هاما فى التأثير والتأثر بين الحضارتين الإسلامية والبيزنطية، وكان الميدان الثقافى بداية التعاون بين الدولتين ، فكان يسمح للعلماء المسلمين بزيارة مكتبات القسطنطينية واستخراج الكتب النادرة التى يحتاجها المسلمون فى دراساتهم فى ميدان الطب أو الكيمياء أو الفلسفة ، وغيرها من المواد التى برع فيها البيزنطيون (١١).

ومن أمثلة تلك السفارات العلمية ما بعث به الخليفة العباسى (أبو جعفر المنصور ١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م) إلى القسطنطينية طالبا كتب نادرة، وعاد العلماء المسلمون محملين بالكتب النادرة ، من بينها كتاب (إقليدس) ، ويرجع إلى المنصور أولى المحاولات لترجمة اليونانية إلى العربية(١٢).

وفى زمن الرشيد حاول الحصول على كتب العلوم المختلفة من أنقره وعمورية وغيرها ، فيذكر القفطى فى أخبار الحكماء أن الرشيد ولى (يوحنا بن ماسويه) ترجمة الكتب الطبية

القديمة لما وجدها بأنقره وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون، ووضعه أمينا على الترجمة ورتب له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه [١٣].

وفى عهد الخليفة العباسي المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٢م)[١٤] الذى تميز عهده بأنه كان عهد العلم والعلماء ، فقد كان عصره أرقى عصور آل العباس علما وفهما ، وتطلعت نفسه إلى علوم الأولين، وعلم أن بالقسطنطينية أستاذا مشهورا فى الرياضيات يدعى ليو العالم الرومى المهندس والفلكى فرغب فى استدعائه إلى بغداد للاستفاده من علمه الواسع فى الرياضيات ، فأرسل إلى الامبراطور البيزنطى ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢م)[١٥] سفارة خاصة تحمل رسالة شخصية تطلب منه أن يسمح للعالم ليو بالحضور إلى بغداد لفترة قصيرة وقال المأمون فى رسالته «إنه يعتبر ذلك عملا وديا» ، وعرض على الإمبراطور البيزنطى صلحا دائما، وألفى قطعة ذهبية ، غير أن الإمبراطور البيزنطى رفض هذا العرض السخى لأن بعض أبحاث العلماء لاسيما إذا كانت تتعلق بالناحية الحربية من الأسلحة والعتاد تعتبر من أسرار الدولة وبذلك ضنت الدولة البيزنطية بهذا العالم على بغداد، ومنح الإمبراطور العالم ليو وظيفة فى إحدى الكنائس ومرتبا دائما ، ولم ييأس المأمون فكتب إلى الإمبراطور البيزنطى يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمه المخزونه ببلاد الروم فأجاب إلى ذلك بعد إمتناع ، فأرسل المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا من كتب ، وقد قيل أن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم [١٦].

ولم تقتصر السفارات الثقافية على طلب الكتب النادرة فحسب ، وإنما شملت دراسة الأماكن التاريخية التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، ومن هذه السفارات العلميه السفارة التى أرسلها الخليفة العباسى الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٤٧م) برئاسة العالم العربى المشهور محمد بن موسى المنجم إلى مدينة إفسوس بآسيا الصغرى لزيارة الكهف الذى حفظت فيه أجساد الشباب السبعه الذين استشهدوا أيام الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م) والذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، وقد منح الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م)[١٧] تلك السفارة تفويضا خاصا لزيارة ذلك الكهف ، كما بعث معها رجلا ليقوم بمهمة الإرشاد ويؤدى دور الدليل أثناء تجوال السفارة ، ووصف السفير الإسلامى محمد بن موسى المنجم مشاهدته عن أهل الكهف قائلا «عندما وصلنا إلى المدينه شاهدنا جبلا يؤدى إلى الموضع الذى فيه أصحاب الرقيم فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته، فإذا بئر محفوره

لها سعه وتبين الماء في قعرها ، ثم نزلنا إلى باب السرداب فمشينا فيه مقدار ثلثمائة خطوة فصرنا إلى الموضع الذى أشرفنا عليه، فإذا رواق فى الجبل وفيه عدة بيوت منها بيت مرتفع العتبه مقدار قامه، عليه باب حجر منقور فيه الموتى ورجل موكل بحفظهم- وإذا هو يحيد عن أن نراهم أو نفتشهم - ويزعم أنه لايأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة يريد التمويه ليدوم كسبه بهم فقلت له دعني أنظر إليه وانت برئ فصعدت بشمعة غليظة مع غلامي فنظرت إليهم فى مسوح تفرك فى اليد، وإذا أجسادهم مطليه بالصبر والمر والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم ، غير إنى أمررت يدى على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته »(١٨).

ثانيا : السفارات للتهنئة وتحسين العلاقات بين البلدين :

وفد على الخليفة المنصور العباسى (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤- ٧٧٥م) رسول من قبل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس (٧٢٠- ٧٤٠م) ليهنئه ببناء عاصمة ملكه بغداد عام ١٤٩هـ / ٧٦٦م، فكلف المنصور بعض ثقاته بأن يرافق السفير فى جولة طواف فى بغداد وكانت قد تم بنائها منذ فترة يسيرة ويوقفه على مبانيها ومجتمعاتها وعندما عاد السفير إلى الخليفة قال له المنصور: كيف رأيت ما شاهدت ؟ فقال السفير: كل ما رأيت جليل نبيل إلا ثلاثة أشياء ، قال الخليفة : ما هى ؟ فقال السفير : النفس خضراء ولاخضرة لك، والماء حياة ولاحياة لك ، وعدوك معك (يعني السوقه) لأن الأسواق كانت قريبة من القصر ، فأجاب المنصور قائلا : أما الخضرة فإنى خلقت للجد لا للهزل ، وأما الماء فحسبى منه بل الشفاه وروى الصدى، وأما مجاورة العوام، فما أبالى أن يطلع على سرى خاصتى وعامتى لأنى لا أقصر فى شؤون ملكى.

وبعد أن أنصرف السفير البيزنطى، راجع الخليفه نفسه لأن رده كان تصرفا دبلوماسيا بارعا حتى لايظهر أمام السفير بمظهر المعترف بما في مدينته من عيوب ، وبادر الخليفه العباسى إلى الإهتمام بالحدائق ولاسيما فى حى العباسية الذى كان يطل عليه القصر ، وشق قناة إلى بغداد ونقل العامة وأسواقهم إلى حى يعرف بالكرخ خارج بغداد (١٩).

كان تولى الخلفاء والأباطرة العروش مناسبات طيبة لتبادل سفارات التهنئة وتحسين العلاقات بين البلدين ، فحين تولى الخلافة الخليفة المهدى (١٥٨-١٦٩هـ / ٧٧٥-٧٨٥م) وفدت عليه رسل الإمبراطور البيزنطى ليو الرابع الخزرى (٧٧٥-٧٨٠م) بالتهنئة ، فقال

السفير فى حديثه : « إنى لم أقدم على أمير المؤمنين لمال ولاغرض، إنما قدمت شوقا إليه وإلى النظر إلى وجهه » فسر الخليفة المهدى سرورا عظيما بلباقة السفير البيزنطى وأمر بإكرامه[٢٠].

ثالثا : السفارات التى تهدد بالحرب :

فى عام ١٦٥هـ / ٧٨١م توجه هارون بالصائفة إلى الدولة البيزنطية وكان قد أرسله الخليفة المهدى، فتوغل هارون فى أراضى الدولة البيزنطية ووصل إلى البسفور وهدد القسطنطينية ، وكان الإمبراطور البيزنطى ليو الرابع قد توفي وترك إبنا صغيرا لزوجته إيرين فأصبحت وصية على إبنها وهي التى تدير شؤون البلاد نيابة عن الإمبراطور قسطنطين السادس، فأضطرت إلى طلب الصلح وجرى بينها وبين الرشيد كتابات على الموادعة والصلح، واشترط عليها : ١- أن تدفع جزية قدرها تسعون ألف دينار ٢- أن تقيم له الأدلاء والأسواق فى طريقه ٣- وأن تعيد إليهم أسراهم ، وأرسلت معه رسولا يحمل الجزية التى اتفقوا عليها على أن تؤدى منها ما تيسر من الذهب والفضه وأن تستمر الهدنة لمدة ثلاث سنوات[٢١].

ونستطيع أن ندرك خطورة هذه الحملة إذا عرفنا أن قتلى البيزنطيين أربعة وخمسين ألفا وأسراهم كانوا خمسة آلاف وقد رفعت هذه الحرب من قدر هارون فلقب منذ ذلك الوقت بالرشيد، وكانت هذه آخر غزوه حاول فيها المسلمون محاصرة القسطنطينية ، وظلت إيرين تفى بشروطها إلى أن خلعها نقفور الأول (٨٠٢- ٨١١م) وما كاد أن يتولى العرش حتى امتنع عن دفع الجزية، بل أنه طالب حسب ما ورد فى المصادر العربية بإعادة ما دفعته إيرين من الجزية وأرسل نقفور إلى الرشيد كتابا فى أوائل عام ١٩٠هـ / ٨٠٦ م يقول فيه : «من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب أما بعد فإن الملكه التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى فأردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتدى نفسك بما يقع من المصادرة لك .. وإلا فالسيف بيننا وبينك[١٢] ».

وصل الكتاب إلى الرشيد ، فلم يسبق أن خاطبه أحد بمثل هذه اللهجة فغضب غضبا شديدا ودعى بدواة وكتب على ظهر رسالة نقفور الجمل التالية : «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله هارون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم، أما بعد فقد قرأت كتابك، والجواب ما

تراه لا ما تسمعه ، والسلام على من إتبع الهدى »، وجهز جيشا يزيد على مائة وثلاثين ألف جندى، وانطلق على الفور نحو أراضى الدولة البيزنطية فتوغل فيها ووصل إلى مدينة هرقلة فحاصرها ورماها بالنار والنفط حتى فتحت أبوابها له وتوغل فى قلب البلاد ودمر وأحرق ، عند إذن طلب نقفور المهادنة والأمان على أن يدفع له الجزية كل عام فأجابه الرشيد إلى ذلك وعاد إلى الرقه، ولكن نقفور هذا كان مراوغا فانتظر حتى اشتد البرد وأمن نقفور عودة الرشيد فنقض العهد، فجاء الخبر إلى معسكر الرشيد بأن نقفور اخترق الحدود وقتل ونهب ولم يجرؤ أحد أن يذكر ذلك للرشيد إلا شاعرا من أهل جده (٢٣)، أعطاه يحيى البرمكى مائة ألف درهم، ودخل على الرشيد وأنشده:

نقض الذى أعطيته نقفور ... فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه ... فتح أتاك من الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية إذ أتى ... بالنقض منه وافد وبشير
أعطاه جزيته وطأطأ خده ... حذر الصوارم والردى محذور
إن الإمام على اقتسارك قادر ... قربت ديارك أو نأت بك دور

عندئذ انتبه الرشيد وقال أوقد فعلها ، فكر فى الحال راجعا إلى الأراضى البيزنطيه فى شدة الثلج وقاتل جيوش نقفور ثانية وشتتها وخرب مدينة هرقله وسبى أهلها وغنم ما بها من مستودعات الحبوب، واستولى على طوانة وجعل منها قاعدة يرسل منها السرايا والجنود إلى سائر الجهات، ولما تبين للإمبراطور نقفور أنه لن يستطيع مقاومة الرشيد عرض أن يدفع خمسين ألف دينار عن رأسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بلده منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس إبنه دينارين ، وتعهد أن يحمل إليه أيضا ثلثمائة ألف دينار كتعويضات حربيه، وشرط الرشيد أن لاتعمر مدينة هرقله بعد هذا فأجيب طلبه (٢٤).

ومن طرائف ما حدث فى هذه الغزوة التاريخية النادرة ما حدثنا عنه الطبرى فقال: بينما كان الرشيد مع جيشه فى طريق العودة ورده كتاب من نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقتهم يطلب فيه جارية من سبى هرقلة هذا نصه: «لعبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين . من نقفور ملك الروم، سلام عليك، أما بعد أيها الملك، فإن لى إليك حاجة لاتضرك فى دينك ولا دنياك،

هينة ويسيرة أن تهب لإبنى جارية من بنات أهل هرقله كنت قد خطبتها على إبنى، فإن رأيت أن تسعفنى بحاجتى فعلت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[٢٥].

رابعا : السفارات الخاصة بإنهاء حالة الحرب وتبادل الأسرى (الفداء) :

كانت هناك مراسم تتم لتبادل الأسرى بين الطرفين فكانت تتم وسط احتفال كبير يقام فى الدولة الإسلامية ويحضره كبار الشخصيات العسكرية ومختلف الناس بالإضافة إلى أعداد غفيره من أهالى الأسرى المسلمين، أما الموضع الذى كان يتم فيه الفداء بينهما فهو المكان المعروف باللامس ، يقول بن حوقل : «هى قريه على شط بحر الروم كان الفداء يقع فيها بين المسلمين والروم، فيكون الروم فى مراكبهم والمسلمون فى البر يتفادون »[٢٦].

وكان الأسير يرسل إلى داخل البلد التى أسرته حيث وجدت أماكن خاصة وثكنات لإيواء الأسرى، وكانت هذه المعسكرات تنقسم إلى قسمين: أحدهما لكبار رجال الجيش ، والآخر لعامة الجنود ، ورسم الرحالة المقدسى صوره عن حياة الأسرى المسلمين الذين أسرتهم الدولة البيزنطية فيقول: «إن عظماء الأسرى كانوا يعاملون معاملة حسنه ولم يكلفوا بأداء أى عمل، أما عامة الأسرى من المسلمين فكانوا يستجوبون لمعرفة الصنعه التى يجيدونها ، ويوزعون بناءا على ذلك فى مختلف المصانع للعمل بها وكانت هناك دار خاصة يزاول فيها الأسرى سائر الصناعات تسمى دار البلاط تشتمل على غرف واسعه يقيم فيها الأسرى»[٢٧].

وكانت الدولة البيزنطية تراعى مبادئ التعاليم الإسلامية فى معاملتها للأسرى المسلمين، فلم تكره أحدا منهم على تناول لحم الخنزير أو أى شئ يخالف الشريعة الإسلامية ، إلى جانب ذلك لم يتعرض الأسرى المسلمون لأنواع التعذيب التى امتلأت بذكرها مراجع العصور الوسطى فلم يثقب أنف، ولاشق لسان، ولاسملت عين أسير، إذ لجأت الدولة البيزنطية لهذه النماذج من التعذيب فى معاملة أسراها من أفراد القبائل وأقوام البلاد المتاخمة لحدودها الشمالية كالصقالبة (السلاف ، المجر) ولعل هذه المعاملة الممتازة الذى حظى بها الأسرى المسلمون ترجع إلى ما تمتعت به الدولة الإسلامية من مهابة وجلال وإلى حسن معاملتها للأسرى البيزنطيين ، فقد سمحت الدولة البيزنطية للأسرى المسلمين بأن يزاولوا نوعا من التجارة الداخلية درت عليهم بعض الأرباح ، ومن الطريف ما يروى فى هذا الصدد أن الأسرى مارسوا بعض الألعاب المرحه ، واتخذوا منها وسيلة للترفيه عن أنفسهم وتفاؤلا باقتراب تحسن مصيرهم[٢٨].

فيذكر المقدسى أنه كان بين قصر الملك ودار البلاط ميدان فى وسطه دكه لها درج يجتمع

فيه الأسرى للعب [٢٩]، ولم يحرم الأسرى الذين وقعوا فى أيدى المسلمين من هذا العطف والمعاملة الحسنة، فكان لهم فى طرسوس مكان خاص يسمى المناخ ينزل فيه الأسرى من الرجال فقط، أما النساء والأطفال فكانت السلطات تعطى جزءا منهم للخليفة ، وجزء يوزع على كبار رجالات الدولة، ولم يقض الأسرى كل أيامهم فى الاعتقال وإنما كان هناك نظام دقيق للفداء بين المسلمين والبيزنطيين ، ولم يظهر هذا النظام بصورة واضحة إلا فى عهد الدولة العباسية بسبب كثرة الغارات بين الطرفين ، وكانت تسبق التبادل إيفاد سفارات يشترك فيها عمال الثغور لتقدير عدد الأسرى ووضع أسس الفداء ، يتضح مما سبق أن تبادل الأسرى كان يجرى طبقا لقواعد مرسومه ونظم خاصة، فإذا ما نجحت المفاوضات استعد الطرفان استعدادا عظيما للاحتفال بالتبادل ، فتروى المراجع أن سفن البيزنطيين كانت تذهب إلى اللامس وهى مزينة حاملة أسرى المسلمين الذين تقرر إطلاق سراحهم ، وإذا اقتربت هذه السفن من الشواطئ الإسلامية ورآها الحراس الموكل إليهم مراقبة السواحل دقوا الطبول إيذانا بحضور السفن وهنا يخرج كبار الحكام فى أبهى زينة وعليهم اللباس الحربى لمقابلتها ، وكذلك أهالى القرى المجاوره للسواحل يخرجون زرافات ووحدانا مهرولين نحو الشاطئ لمشاهدة التبادل [٣٠] .

وكان **أول فداء** للأسرى فى عهد الخليفة المنصور عام ١٣٩هـ/ ٧٥٨م وكان الفداء فى أسرى قاليقلا وغيرها من الحصون الذى استولى عليها الامبراطور قنسطنطين الخامس وهى ملطيه وحصن بلخ [٣١].

والفداء الثانى : فى العصر العباسى تم عام ١٨٧هـ/ ٨٠٣ م وتولاه القاسم بن الرشيد وافتدى من المسلمين ثلاثمائة وعشرين رجلا من أسارى المسلمين، وخرج معه طرسوس الخادم ، وقيل أنه تم عام ١٨٩هـ [٣٢].

والفداء الثالث : كان فى عهد الخليفة المأمون فقد بلغه أن الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل قتل من المسلمين ألف وستمائة رجل فعاد من فوره إلى الأراضى البيزنطيه ودخلها عام ٢١٦هـ / ٨٣١م فكتب الإمبراطور ثيوفيل إلى المأمون كتابا بدأ بنفسه «من ثيوفيل بن ميخائيل إلى عبدالله بن هارون» فلما جاء الكتاب غضب المأمون ولم يقرأه ورمى الكتاب من يده ثم أقبل على الرسول فقال له : خبرونى ما الذى حمل صاحبكم على أن يكتب إلى ويبدأ بإسمه قبل أسمى ؟ فقالوا : لانعلم إنما نحن رسل وما علينا إلا البلاغ المبين ، فقال المأمون : صدقتم وليس أكلفكم مالاطاقة لكم به ولكن قد علمتم إنى أسن منه بل بعض ولدى أسن منه ؟

فقالوا : قد علمنا ذلك ولاشك فيه فقال المأمون: كان يجب عليه لو كنا متساويين فى الدين أن يقدمنى على نفسه والأخرى إنى خليفة وأبى الرشيد وجدى المهدى خليفة وجدى المنصور خليفه وأنا ابن الخلائف فكيف يكتب إلى بكتاب يبدأ فيه بإسمه قبل اسمى ؟ قال الرسل : إن أعطيتنا الأمان تكلمنا فقال: لكم الأمان ، فقالوا : من قعد على سرير الملك فقد ساوى غيره من الملوك كائنا من كان ، فغضب المأمون وقال: لولا ما أعطيتكم الأمان لما رجع إلى صاحبكم منكم أحد ولكن إرجعوا بغير جواب وإن كان ملكا يساوى غيره كما تقولون » ، فرجعت الرسل إلى ثيوفيل فأخبروه بما كان من كلام المأمون (٣٣).

وتوجه المأمون غازيا إلى الأراضى البيزنطية، فجاءه رسول الإمبراطور البيزنطى حنا النحوى أحد علماء بيزنطه الذى يعرفه المأمون حق المعرفة وقال له إن الإمبراطور ثيوفيل يسألك أن تقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده وهم سبعة آلاف أسير (المصادر الرومية تجعلهم خمسة وعشرون ألفا) وأن يدع لهم ما افتتحه من حصون الروم ويكف عن الحرب خمسة أعوام(٣٤).

وأكد المسعودى رواية قدوم رسول الإمبراطور البيزنطى فقال: «إن الملك يخيرك بين أن يرد عليك نفقتك التى أنفقتها فى طريقك من بلدك إلى هذا الموضع وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم بغير فداء ولادرهم ولادينار، وبين أن يعمر لك كل بلد للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان ، وترجع عن غزاتك»(٣٥).

قام المأمون ودخل خيمته وصلى ركعتين واستخار الله تعالى وخرج فقال للرسول : قل له أما قولك ترد علىَّ نفقتى فإنى سمعت الله تعالى يقول فى كتابه حاكيا عن بلقيس : «وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون، فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما أتانى الله خير مما أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون»(٣٦).

وأما قولك أنك تخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم، فما فى يدك إلا أحد رجلين: إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة، فقد صار إلى ما أراد، وأما رجل يطلب الدنيا فلافك الله أسره ، وأما قولك إنك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربه الروم، فلو إنى قلعت أقصى حجر فى بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة فى حال أسرها فقالت وامحمداه وامحمداه ، عد إلى صاحبك فليس بينى وبينه إلا السيف ، وكتب المأمون كتابا إلى ثيوفيل : « أما بعد: فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنه ودعوت إليه من الموادعه وخلطت فيه من

اللين والشده مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة ، وألا أعتقد الرأى فى مستقبله لا فى استصلاح ما أوثره فى معتقبه لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل إليهم من الإمداد وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد ، هم اظمأ إلى مورد المنايا منكم إلى السلامه من مخوف معرتهم عليكم ، موعدهم إحدى الحسنيين : عاجل غلبة ، أو كريم منقلب غير أنى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجه من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانيه والشريعة الحنيفية؛ فإن أبيت ففدية توجب ذمه وتثبت نظرة ، وإن تركت ذلك ففى يقين المعاينة لنعوتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراق فى الصفه والسلام على من اتبع الهدى »(٣٧).

الفداء الرابع : كان فى عهد الخليفة الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٧٤م) كان عهد الواثق عهد ساد فيه السلم وتوقف الصدام العسكرى بين المسلمين والبيزنطيين وذلك لأسباب وعوامل هى :

١- تمزق الجيش العباسى خلال الفتنة فى بغداد بين الأمين والمأمون .

٢- أسقط الخليفة المعتصم العرب من الديوان واعتمد على الأتراك فهو أول خليفة أدخلهم فى الديوان ووصل عددهم إلى أكثر من سبعين ألف وهو أول من مكنهم من السيطرة فى الدولة واعتمد عليهم تماما فتكاثر عددهم وتغلغلوا فى الجيش والحكومة.

٣- تذمر العرب من وضع الأتراك فقامت ثورتهم فى الحجاز والشام ولكنها فشلت.

٤- زاد نفوذ الأتراك فى عهد الواثق بالله ولم يقم بأية محاولة لإبعادهم عن السلطة.

٥- أما الدولة البيزنطية فقد مات ثيوفيل وخلفته زوجته ثيودورا كوصية على إبنها ميخائيل التى تركت تربيته لخاله باراداس فجعله يغرق فى الملذات والخمر فلما شب أصبح يعرف بميخائيل السكير ، وانشغلت الإمبراطورة بمشكلة محاربة الأيقونات والعودة إليها.

٦- نتيجة استمرار الحرب بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد المأمون والمعتصم وقع كثير من الأسرى فى يد الجانبين ولم يقتصر الأسر على الجند فقط ، وإنما تعداه إلى سائر طوائف السكان من علماء وتجار وحرفيين وأعداد كبيره من النساء والأطفال والشيوخ ، لأن الغارات

التى كان يشنها الطرفان كانت توجه عادة إلى المدن والقرى الواقعة عبر الحدود لتعذر مهاجمة الحصون لمناعتها [٣٨].

وقد توجت هذه الهدنة بين الطرفين بعمل سلمي إنسانى له معناه الكبير بالنسبه للعلاقات الاسلامية البيزنطية ، وإن لم يكن بالجديد فى تلك الفتره فقد سبقه أكثر من فداء ولكنه أول فداء كامل لكافة من لدى المسلمين والبيزنطيين من الأسرى ، وهو فى الواقع تبادل أسرى وإن كان المؤرخين القدامى يسمونه فداء، وكان توقف الصراع الدموى بين الطرفين ، الذى استمر أكثر من تسعين عاما منذ عهد الخليفة السفاح حتى عهد الخليفة المعتصم [٣٩].

ففى عام ٢٣١هـ/ ٨٤٥م كانت المفاداه بين المسلمين والبيزنطيين ولم يجر فداء بين الطرفين منذ سبعة وثلاثين عاما أى منذ عهد الأمين بن الرشيد ، فوصل إلى بلاط الخليفة الواثق وفد بيزنطى يعرض رغبة الإمبراطور ميخائيل الثالث (ذكر ابن العبرى: «أن الروم أرسلوا سفيرا عنهم للعرب للتفاوض فى موضوع الهدنه وتبادل الأسرى » أى أنه لم يحدد بوضوح شخصية الإمبراطور البيزنطى فى ذلك الوقت، فنجد الطبرى يذكر أن الخليفة الواثق تلقى «رسل صاحب الروم وهو ميخائيل توفيل بن ميخائيل بن اليوم بن جرجيس يسأله أن يفادى بمن فى يده من أسارى المسلمين «ومن الممكن أن الطبرى اعتمد على أنه ذكر فى أحداث ٢٢٧هـ أن « تذورا » ملكت بعد زوجها توفيل ومعها ابنها ميخائيل التى كانت وصية عليه أى أنه يفهم أن سفير الروم مبعوثا من طرف ثيودورا وعلى ذلك يتفق الطبرى وابن العبرى فى أن البيزنطيين هم الذين طلبوا الصلح وتبادل الأسرى، وكان الوفد البيزنطى ينقل رغبة الإمبراطور شفويا فليس هناك نصا مكتوبا بهذا الشأن فى المصادر الإسلامية، وتم الإتفاق على الفداء دون تفرقه بين كبير وصغير وفتى وشيخ[٤٠].

ظلت ثيودورا تسير أمور الإمبراطورية طول مدة أربعة عشر عاما (٨٤٢-٨٥٦م) قبل أن تسلم الحكم لابنها ميخائيل الثالث فى عام ٨٥٦م[٤١].

وأرسل الواثق أحمد ابن أبى قحطبة أحد أحفاد مسلم بن قتيبه إلى البلاط البيزنطى ليعرف معلومات دقيقه عن عدد الأسرى المسلمين فى الدولة البيزنطيه ، ومدى استعداد الدولة البيزنطية لتنفيذ هذا الفداء ، ودلت تحريات الرسول الإسلامى على أن عدد الأسرى المسلمين ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة إمرأة وولد، أكثر من عدد أسرى البيزنطيين (هذا العدد ذكر عند الطبرى والمسعودى)[٤٢] وقيل أربعة آلاف وثلاثمائة وإثنين وستين أسيرا، وذكر السيوطى

عددهم فقال : «فى هذه السنة استفك من الروم ألفا وستمائة أسير مسلم »[٤٣].

وقد ذكر خليفة بن خياط المتوفى حوالى عام ٢٤٠هـ ، أن عدد من شملهم الفداء كان أكثر من ذلك بكثير فقال : «فدى من المسلمين نحوا من أربعة آلاف رجل وستمائة من النساء والصبيان» وهذا مما يضفى على ذلك الفداء أهمية كبيره[٤٤].

قام الواثق بجمع عدد من البيزنطيين ليوازى عدد الأسرى المسلمين لديهم، فأخرج من قصره الجوارى الروميات العجائز ، واشترى الرقيق من الروم مما يباع فى بغداد والرقه، ليتكافئ العدد وعين الواثق أحمد بن سعيد بن سليم بن قتيبه الباهلى واليا على الثغور والعواصم ، وأمره أن يحضر الفداء ومعه خاقان الخادم، وتقرر إجراء التبادل على ضفاف نهر اللامس وحضر الفداء أمير الثغور ومعه سبعة عشر فارسا كما حضرت قوة كبيرة من المسلمين قيل تتألف من سبعين ألف من حملة الرماح فى حين يذكر الطبرى أنها بلغت أربعة آلاف رجل[٤٥].

وكان بين الأسرى رجل من أكابر طرسوس (محمد بن عبدالله الطرسوسى) أمضى فى الأسر ثلاثين عاما، وكان بين المفتدين كذلك أسرى زبطره وعموريه من الجانبين، وعقدوا هدنه مدتها أربعون يوما حتى يتم تبادل الأسرى وعودتهم إلى بلادهم ، واجتمع شمل الفريقين على ضفاف نهر اللامس فى يوم عاشوراء عام ٢٣١هـ/ ٨٤٥م، ووقف المسلمون على الجانب الشرقى للنهر ووقف البيزنطيون على الجانب الغربى، ونصب المسلمون جسرا ونصب البيزنطيون جسرا وكادت عملية الفداء تفشل لإختلاف رسل المسلمين مع البيزنطيين ، فاشترط البيزنطيون ألا يأخذوا فى الفداء إمرأة عجوز ولاشيخا كبيرا ولاصبيا مقابل من فى أيديهم من الأسرى، ولكن تم الاتفاق أخيرا على فداء كل نفس بنفس، فكان المسلمون يطلقون أسيرا ممن فى أيديهم ويطلق البيزنطيون بدورهم أسيرا ممن عندهم، فإذا اقترب المسلم من المسلمين كبر وكبروا ، وإذا صار الرومى إلى الروم تكلم بكلامهم وما يشبه عبارات التهليل واستمر هذا الفداء أربعة أيام، تم فيه إطلاق سراح نحو أربعة آلاف واربعمائة وستين أسيرا مسلم من الرجال والنساء[٤٦].

واشتهر هذا الفداء فى التاريخ بالمفاجئة التى فرضها الواثق من إمتحان من يفتدى من المسلمين بالقول بخلق القرآن أمام لجنة من القضاة، فمن قال بأن القرآن مخلوق وأن الله عز وجل لايرى يوم القيامه يفادى ويعطى دينارين ومن رفض تركوه فى أيدى البيزنطيين ، ورفض بعض الأسرى بالفعل أن يقولوا بخلق القرآن فردوا إلى الأسر، والقول بخلق القرآن هو مذهب المعتزلة الذى أصبح مذهب الدولة الرسمى فى عهد الخليفة المأمون ثم الخليفة المعتصم وازدهرت

تعاليم المعتزلة فى العصر العباسى الأول، وبلغت قمة إزدهارها فى عصر المأمون الذى وافقهم على القول بخلق القرآن ، ورغم جهود الثلاثة الخلفاء (المأمون ، المعتصم ، الواثق) فإن الجماهير اعتبرت هذه الفترة محنه وكان (أحمد بن أبى دؤاد) أكبر مؤيدى مذهب الاعتزال وفى ذلك يقول المسعودى » غلب عليه أحمد بن أبى دؤاد ومحمد بن عبدالملك الزيات فكان لايصدر إلا عن رأيهما ولايعتب عليهما فيما رأياه وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه«(٤٧).

كما أكد الخطيب البغدادى ذلك وذكر أن أحمد ابن أبى دؤاد كان قاضى القضاه زمن المعتصم والواثق وأنه هو الذى كان يمتحن العلماء فى أيامهما ويدعو إلى القول بخلق القرآن(٤٨).

وتميز هذا الفداء بإطلاق سراح شخصية هامهةفى التاريخ الإسلامى، وهو مسلم بن أبى مسلم الجرمى وكان ذو مكانه فى الثغور ومعرفة بأهل الروم وأراضيها ، وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ومن جاورهم من الممالك ، وقد استطاع أثناء إقامته بالقسطنطينية أن يؤلف كتابا فى جغرافية الدولة البيزنطيه، تحدث فيه عن بلادها وطرقها ومسالكها وبحارها ، ومما يذكر عنه أنه لما جئ به مع غيره من الأسرى فى فداء عام ٢٣١هـ رفض القول بخلق القرآن فأصابه من جراء ذلك كثيرا من الضر(٤٩).

أهمية هذا الفداء : ١ - أدت الحروب المستمرة بين المسلمين والبيزنطيين إلى بقاء أسرى المسلمين سنين طويله فى الدولة البيزنطية، فقد مضى على بعض الأسرى المسلمين ثلاثون عاما، وكذلك أقام أسرى البيزنطيين بالبلاد الإسلامية فترة طويلة فتأثر كلا من هؤلاء الأسرى بالحياة العامة فى هاتين الدولتين (٥٠).

٢ - كما أن الجغرافى مسلم بن أبى مسلم الجرمى نجح فى تأليف كتاب عن جغرافية الدولة البيزنطية لطول الفتره التى قضاها فيها، فذكر معلومات كثيره فى كتابه ليست معروفه لسكان الدولة البيزنطية نفسهم .

٣- جاء هذا الفداء بعد أن اطمأن العباسيون على سلامة أوضاعهم فى البحر المتوسط وبلاد الشام، فى حين كانت الدولة البيزنطية راغبه فيه بعد هزيمة عموريه وفقدانها أغلب قواعدها فى البحر المتوسط خاصة جزيرتى كريت وصقليه (٥١).

الفداء الخامس : فداء عام ٢٤١هـ / ٨٥٥م ، كانت مبادرة الفداء هذه المره من قبل

الإمبراطورية البيزنطيه فقد أرسلت الإمبراطوره ثيودورا رسل إلى الخليفة المتوكل محملين بالهدايا [٥٢]، ورسول الإمبراطورة يقال له جورجس بن قريافس يطلب الفداء لمن فى أيدى البيزنطيين من المسلمين، وهو الذى قام بترجمة المحادثات بين ثيودورا وسفير المتوكل ، وكان المتوكل قد أرسل (نصر ابن الأزهر الشيعى) إلى بلاط القسطنطينية لينظر إلى عدد الأسرى والشروط، وقد وصف هذا السفير مراسم استقباله وما جرى له فى مقابلة الإمبراطوره[٥٣].

ويذكر ابن الأزهر أن عدد أسرى المسلمين لدى الروم كان عشرون ألفا وهو لاشك فيه رقم مبالغ فيه، لاسيما بعد فترة الهدوء الطويل التى سبقت مشروع الفداء الجديد، وتظهر المبالغة فيه إذا قورن بأعداد الفداء التى أعقبت زبطره وعموريه والتى لم تتجاوز كثيرا أربعة آلاف ، ويبدو أن الرقم الأصح فى هذا الفداء هو ألفان لاعشرون وإنما ارتفع الرقم لتبرير قصة أن ثيودورا تحت تأثير الخصى المسيطر على العرش فى عهدها والذى يسميه الطبرى تنقله أو تنقلا «ويقصد ثيوكتيستوس المعروف يومئذ بنفوذه الواسع» ، قد عرضت بعد خروج نصر من القسطنطينية على الأسرى لديها التنصر فوافقها إثنى عشر ألفا تحت التعذيب ، وفودى سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ومائة وخمسة وعشرين إمرأة ، ويقال أنه بمجرد رحيل المسلمين شعرت ثيودورا أن الإثنا عشر ألفا ممن عمدوا يميلون إلى المسلمين فقتلهم أحد خصيانها المسمى تنقلا بدون أمرها وهذا ما ذكره الطبرى [٥٤].

جرى الفداء فى ١٢ شوال عام ٢٤١هـ / ٨٥٥م فى المكان نفسه الذى جرى فيه فداء الواثق وبالمراسم نفسها، ولكن دون إمتحان خلق القرآن، وعقدت هدنة امتدت عدة أشهر واستمرت عملية الفداء سبعة أيام، يذكر المسعودى أنه تم فداء مائة ذمى، وقيل أن عدد أسرى البيزنطيين لدى المسلمين كان حوالى تسعمائة وعشرة شخصا (سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ومن النساء مائة وخمسا وعشرين إمرأه) [٥٥].

الفداء السادس : عام ٢٤٥ -٢٤٦هـ / ٨٦٠-٨٦١م من أشهر السفارات العباسية الخاصة بإقرار السلام بين العباسيين والبيزنطيين سفارة نصر بن الأزهر إلى القسطنطينية ، وكانت تلك السفارة العباسية ردا على سفاره بعثها الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث عام ٢٤٥هـ / ٨٦٠م طلب فيها إقرار السلام بين الدولتين ، وإجراء تبادل للأسرى بينهما ، فيذكر الطبرى «بعث يسأل المفاداه بمن عنده وكان الذى قدم من قبل صاحب الروم رسولا إلى المتوكل شيخا يدعى اطروبيليس »[٥٦].

كان على رأس سفارة الدولة البيزنطيه أعظم دهاتها الدبلوماسيين إذ ذاك هو أطروبيليس الذى وفد على الخليفة المتوكل العباسي ومعه سبعة وسبعون رجلا من أسرى المسلمين دليلا على حرص البيزنطيين على إظهار حسن نيتهم ، وصادق رغبتهم فى إعادة المودة والسلام وتبادل الأسرى ، وأجاب الخليفه المتوكل العباسي طلب سفارة البيزنطيين ورحب بما عرضه البيزنطيون من تبادل للأسرى ، وبعث مع سفيرهم أحسن سفراء العباسيين إذ ذاك وهو نصر ابن الأزهر الشيعى الذى سبق أن مثل الدولة العباسيه فى بلاط البيزنطيين ، وأصبح خبيرا فى شؤون تبادل الأسرى وتقاليده ، وخير من يحافظ على حقوق المسلمين ويرعى سمو تقاليدهم الدبلوماسيه، وتجلت مواهب نصر بن الأزهر واعتداده بالتقاليد الدبلوماسيه الإسلامية حين وصل إلى القسطنطينية فروى ما حدث له هناك(٥٧).

فيقول : لما صرت إلى القسطنطينية حضرت ميخائيل الملك بسوادي وسيفى وخنجرى وقلنسوتى فجرت بينى وبين خال الملك بطرناس - بتروناس- مناظره وهو القيم بشأن الملك ، وأبوا أن يدخلونى بسيفى وسوادي، فقلت انصرف ، فأنصرفت فرددت من الطريق ومعى الهدايا نحو من ألف ناقجة مسك وثياب حرير وزعفران كثير وحملت الهدايا التى معى فدخلت عليه فإذا هو على سرير فوق سرير ، وإذا البطارقة حوله قيام ، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير وقد هيئ لى مجلس ووضعت الهدايا بين يديه ، وكان بين يديه ثلاثة تراجمه فقالوا لى: ما نبلغه ؟ قلت : لاتزيدوا على ما أقوله لكم شيئا ، فأقبلوا يترجمون ما أقول ، فقبل الهدايا ولم يأمر لأحد منها بشئ وقربنى وأكرمنى ، وهيئ لى منزلا بقربه فخرجت فنزلت فى منزلى .

وأظهر نصر بن الأزهر كياسة دبلوماسية رائعة نمت عن حسن استعداده السياسى، حين أمر المترجمين بتوخي الدقه فى نقل كلامه، كما أنه كان حريصا على أن يظهر احترام البيزنطيين له ، حين ذكر أنه جلس فى مكان قرب السرير الكبير ، حيث يجلس الإمبراطور وأنه بذلك كان مقدما على سائر سفراء جيران الدولة البيزنطيه الذين شهدوا هذا الاستقبال الرسمى، وكانت الدولة البيزنطية تراعى التقاليد الدبلوماسية مع الدولة الإسلامية وتخصص للسفراء المسلمين مركز الصدارة فى حفلات الاستقبال .

وبدأ نصر بن الأزهر مهمته الرسمية بعد انتهاء مراسم الاستقبال من حيث إعداد التقارير عن حالة الأسرى لدي الدولة البيزنطية وعددهم ، وكان يروح عن السفراء المسلمين وأعبائهم

المضنيه برنامج الحفلات والزيارات التى تعده لهم السلطات البيزنطيه ، فكان فى القسطنطينية ميدان سباق : (Hippodrome)[٥٨] الهبدروم يعتبر مرآة صادقة لحياة العاصمه الاجتماعية وليس مقصورا على حفلات السباق فحسب ، فتجرى فيه الألعاب البهلوانيه التى يقدمها أشخاص متخصصون فى إجادة هذا الفن الشعبى، وتجرى فيه كذلك شتى المباريات، فكان السفراء المسلمون يدعون إلى الهبدروم، وتخصص لهم مقصوره إلى جانب مقصورة الإمبراطور نفسه إمعانا فى إكرامهم وحرصت السلطات البيزنطيه على إتاحة الفرصه للسفراء المسلمين لمشاهدة كنيسة (آياصوفيا) حيث بلغ الفن البيزنطى وجمال البناء غايته فكانت الدلايات والمباخر تأخذ بالألباب وتثير الروعه فى النفوس[٥٩].

وظل السفير الإسلامى نصر بن الأزهر موضع إجلال سلطات الدولة البيزنطية واحترامهم ولكن حدثت واقعه عارضه أوقفت المفاوضات بشأن إطلاق سراح الأسرى مؤقتا ، وهو حضور وفد من أهل حصن اللؤلؤه يعرض تبعية سكان هذا الحصن على السلطات فى القسطنطينية ، وكان لحصن اللؤلؤه أهمية استراتيجية عظمى بسبب وقوعه فى منطقة الأطراف الفاصلة بين أراضى المسلمين فى الشام وأراضى البيزنطيين فى آسيا الصغرى، إذ سيطر هذا الحصن بفضل موقعه الهام على الطريق الرئيسى الممتد عبر سلسلتى جبال طوروس والذى يصل بين شمال الشام وآسيا الصغرى، وكان للمهتمين على هذا الحصن المقدرة على منع الغارات التى شنها أى فريق من المسلمين أو البيزنطيين على البلاد المجاوره لهما [٦٠].

ورحب الإمبراطور البيزنطى بحضور وفد حصن اللؤلؤه لأن هذا الحصن كان دائما فى قبضة المسلمين، عدا فترات يسيرة استطاع البيزنطيون فيها استمالة أهل هذا الحصن إليهم بإغداق الأموال عليهم، فرأى الإمبراطور البيزنطى استغلال هذه الفرصة والضغط على السفير الإسلامى فى المفاوضات الجاريه بينهما وكسب أكبر فائدة ممكنة، وتغافل الإمبراطور البيزنطى بذلك عن السفير الإسلامى نصر بن الأزهر مدة أربعة أشهر ، ولكن السفير الإسلامى أظهر فى تلك الفترة مهارة دبلوماسية فائقة ، إذ ظل ضابطا لأعصابه ، لايعير هذا التغافل اهتماما، ولم يطلب العوده إلى بغداد ، وإنما بقى هادئ ينتظر ما يمكن أن ينكشف عنه هذا الحادث الطارئ الذى عرقل سير المفاوضات ، وأتت دبلوماسية السفير الإسلامى ثمارها. ذلك أن أهل حصن اللؤلؤه سرعان ما ثاروا على السلطات الحاكمه فيه وأعلنوا ولائهم مرة أخرى للدولة الإسلامية ، وبذلك انقطع آخر أمل عند الإمبراطور البيزنطى فى كسب الموقف أثناء المفاوضات مع السفير الإسلامى وآثر السير سريعا فى إتمام المفاوضات [٦١].

وسمحت السلطات البيزنطية للسفير الإسلامي بتفقد حال الأسرى المسلمين عندهم وإحصاء عددهم، حتى يتم تبادل الأسرى وفق قواعد دقيقة ، واستطاع السفير الإسلامي نصر بن الأزهر أن يحصى عدد الأسارى من المسلمين فى سهولة ويسر بفضل التسهيلات التى قدمتها السلطات فى القسطنطينية ، ووجد السفير الإسلامى أن عدد الأسرى المسلمين يبلغ ألفين منهم عشرون إمرأه معهن عشرة من الصبيان ، وبعد الانتهاء من إحصاء عدد الأسرى المسلمين جرت المفاوضات مره أخرى بين السفير الإسلامي والإمبراطور ميخائيل للإتفاق على تبادل الأسرى، وأظهر السفير الإسلامى لياقة دبلوماسيه وحذقا سياسيا بارعا فى إجابته على« أسئلة خال الإمبراطور باراداس الذى كان يتولى المفاوضات ، واقتصرت إجاباته على هز رأسه بما يفيد « نعم » أو دون أن يتكلم ، إذ حرص السفير نصر بن الأزهر على أن يعيد ما يتفق عليه مع خال الإمبراطور على الإمبراطور نفسه ، وعبر السفير الإسلامى عن نجاح مفاوضاته وحرصه على أخذ كل تعهد ممكن من الإمبراطور نفسه قائلا : «أجيبوني- أي السلطات فى القسطنطينية- إلى المحالفه فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل ، فقلت أيها الملك قد حلف لى خالك فهذا اليمين لازمة لك، وهو يسمع فيقول برأسه نعم أو لا ولايتكلم بكلمة منذ طلبت بلاد الروم إلى أن خرجت منها، إنما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه نعم أو لا ولايتكلم بكلمة ، وخاله المدبر له أموره، ثم خرجت من عنده بأحسن حال حتى إذا جئنا موضع الفداء أطلقنا هؤلاء جملة وهؤلاء جملة »(٦٢).

كان موضع الفداء عند ضفاف نهر اللامس وهو فى منطقة سلوقية ،، حيث جرت العادة أن يقف أسرى المسلمين مع مندوبين سلطات الدولة البيزنطية على الجانب الغربى للنهر، ويقف المسلمون مع أسرى البيزنطيين على جانبه الشرقى، وكانت تختار بقعه من النهر ليسهل مد حسرين عليها أحدهما خاص بالمسلمين، والآخر للبيزنطيين، واستغرقت عملية الفداء سبعة أيام حضرها من أولها إلى آخرها نصر بن الأزهر ليشهد صحة الإجراءات التى تم الاتفاق عليها مع سلطات الدولة البيزنطية ، ثم عاد نصر بن الأزهر إلى بغداد مسجلا نصرا دبلوماسيا باهرا فى ميدان تحسين العلاقات بين الدولتين الإسلامية والبيزنطيه (٦٣).

الفداء السابع : فداء عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧م ، وصل رسولان من إمبراطور البيزنطيين قسطنطين السابع(٦٤) الذى اشتهر بالأبهة والميل إلى حسن إعداد سفرائه إلى الخليفه المقتدر (٢٩٥- ٣٢٠هـ) ، وعندما وصلت إلى الخليفة أنباء إجتياز سفارة الإمبراطور البيزنطى

للحدود في طريقها إلى بغداد ، أمر السلطات الإسلامية بحجز السفراء البيزنطيين في تكريت شمال بغداد حتى يفرغ من تجميل وتزيين قصره وعاصمته بما يليق بعظمة الدولة الإسلامية ، وليكون استقبال تلك السفارة شاهدا على علو كعب المسلمين في ميدان الدبلوماسيه، وأقامت السفارة البيزنطية في تكريت شهرين ، تابعت بعدها السفر إلى بغداد ، وفي العاصمه قضت السفارة شهرين آخرين قبل أن تحظى بمقابلة الخليفة المقتدر ، وفي تلك الأثناء كانت العاصمة قد تزينت وامتلأت بالزينات الفاخره ، وأخذ سكان بغداد يزينون منازلهم على جانبي الطريق الذى أعد لمرور موكب سفراء البيزنطيين، وفي نفس الوقت بذل الخليفة جهدا عظيما في إعداد (قصر التاج) وهو المقر الرسمي إذ ذاك للخلافة ومكان استقبال السفراء ، ويقع هذا القصر على نهر دجله ، ويتصف بالسعه والبهاء وبكثرة القباب والمجالس ، ووصف شاهد عيان زينة القصر في بغداد قائلا : كان عدد ما علق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبه بالطرز وعدد البسط في الممرات التي وطأ عليها القواد والرسل البيزنطيون إثنين وعشرين ألف قطعه ، ولم يقف الاستعداد عند العرش والبسط، وإنما شمل سائر موظفي قصر الخليفة ، وبعد انتهاء الشهور الأربعة التي قضتها السفارة البيزنطية في تكريت وبغداد تحدد اليوم الرسمي لمقابلة الخليفة المقتدر العباسي ، وفي هذا اليوم صف العسكر من دار صاعد وهي دار الضيافه الرسميه في بغداد إلى قصر الخلافه ، وخرج ركب السفاره وفي صحبتهم أبو عمر الطرسوسي حاكم منطقة الحدود الإسلامية شمال الشام، وهو الذى رافق السفاره منذ دخولها الأراضي الإسلاميه، وكان هذا الحاكم المسلم يرتدي قباء أسود ويحمل سيفا وبكامل زيه الرسمي ، ووصل الركب أولا إلى دار نصر القشوري الحاجب أو كبير تشريفات القصر (بلغة عصرنا الحاضر) وهناك شاهد السفراء البيزنطيون الاستعدادات الرائعة مما أدخل على نفوسهم الرهبه، وحسبوا الحاجب هو الخليفة وعندما هموا بتقديم أوراق الاعتماد إليه قيل لهم إنه الحاجب ، وتابع الركب سيره حتى وصل دار الوزير أبي الحسن علي بن محمد ابن الفرات ، وهناك رأى السفراء استعداد يفوق ما شاهدوه في دار الحاجب وكادوا يكررون خطأهم الأول بتقديم أوراقهم لكنهم علموا للمرة الثانية أنهم ما زالوا في طريقهم إلى مجلس الخليفه ، فتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى مجلس قد علقت ستوره وأحاط به الخدم بالأعمدة والسيوف وكانت الستور التي نصبت على حيطان دار الخلافه ثمانية وثلاثين ألف متر من الديباج ، والبسط إثنين وعشرين ألفا [٦٥].

ومن هذا المكان دخلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى قصر التاج بعد أن لبس الثياب الديبقية (نسبة إلى مدينة ديبق فى مصر) المطرزه بالذهب على سرير أبنوس قد فرش بالديبق المطرز بالذهب، وعلى رأسه القلنسوة الطويلة وعلى يمينه تسعة عقود مثل السبح معلقه ، وعلى يساره تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة عالية الضوء أقوى من ضوء النهار، وبين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمنه وإثنان ميسره، وكان يقف بالقرب من الخليفة مؤنس الخادم ونصر القشورى حيث اضطلعا بالترجمة عن الخليفة ، وعندما دخل السفراء أخذتهم الرهبة من الخليفة ورغبوا فى السجود له جريا على عاداتهم فى الدخول على إمبراطورهم، ولكنهم منعوا من فعل ذلك لأنه أمر يخالف الشريعة الإسلامية وتقاليد بلاط الخليفة المسلم، وقدم رأس السفارة البيزنطية وكان شيخا جليلا كتاب الإمبراطور البيزنطى إلى الخليفة ، ويضم تعريفا بأعضاء السفارة ويطلب من السلطات الإسلامية إجراء فداء وإيقاف حالة الحرب بين الدولتين، وكان الخطاب كبير الحجم فتناوله الخليفه وقبله إعظاما له وإجلالا لتلك السفاره وتقديرا منه لنبل مقصدهم ، وكان مع السفارة مترجم خاص بها يسهل مهمة تبادل الآراء والمناقشات (٦٦).

واستغرق هذا الاستقبال الرسمى ساعة لقى فيها السفراء البيزنطيون من عطف الخليفة وترحيبه ما جعلهم يطمئنون إلى نجاح مهمتهم، وبعد انتهاء الاستقبال الرسمى وعندما هم السفراء بالخروج أمر الخليفة بالمبالغة فى إكرامهم والسماح لهم بالتجول فى القصر ومشاهدة ما يحويه من مباهج وقاعات فاخرة ، وصحب السفراء فى الخروج أبو عمر الطرسوسى ، الذى لازمهم كذلك فى الطواف بأرجاء قصر الخلافه وبعد مشاهدة سائر محتويات القصر، ركب السفراء قوارب جميلة صعدت بهم فى دجلة متجهين إلى دار صاعد التى أعدت لإقامتهم ، وأتاحت لهم هذه النزهة النهريه مشاهدة معالم بغداد والتى امتدت على ضفتى النهر فى جمال ورونق ، وتم الإتفاق على تبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين، فسير الخليفه مؤنس الخادم ليحضر الفداء ، وعقد له الإماره على كل بلد يدخله إلى أن يخرج عنه ، وسير معه الجنود وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين، وعندما انتهت سفارة الإمبراطور قسطنطين السابع من مهمتها رغب الخليفة المقتدر العباسى فى إسباغ كرمه على السفراء عند عودتهم ، فبعث إلى الشخصين المشرفين على السفاره خمسين بدره، وفى كل بدرة خمسة آلاف درهم، وكان المقصود من تلك الهبات هو مساعدة السفراء على شراء ما يحتاجون إليه من طرائف العاصمة والنادر من منتجات الدولة الإسلامية . وكذلك شمل الخليفة بهباته أبا عمر الطرسوسى الذى رافق السفاره البيزنطيه فى عودتها إلى ديارهم(٦٧).

الآثار المترتبة على السفارات بين الدولة العباسية والإمبراطوريه البيزنطيه :

١- كان للجوار بين الدولة الإسلامية والبيزنطية واشتراكهما فى حدود واحده، له أثره البالغ فى التأثير على الطرفين فى مجالات عدة، فبالرغم من أنه كانت هناك عداءات عدائية أو شبه عدائيه إلا أن ذلك لم يمنع الاتصال الحضارى بينهما ، فالمسلمون نظروا إلى البيزنطيين وتراثهم الحضارى نظرة تتسم بسعة الأفق ، وحاولوا جاهدين أن ينقلوا الكثير من هذا التراث واستفادوا من النظم البيزنطية فى مجالات عديدة مثل الأدب والهندسة المعماريه وفن الزخرفه والتصوير ونظم الإدارة والدواوين، أى فى المجالات السياسيه والإداريه والثقافية(٦٨).

٢- استفاد المسلمون من الحضارة البيزنطية ونقلوا الكثير من مظاهرها إلى بلدان الدولة الإسلاميه عن طريق رحلات المسلمين إلى عاصمة الدولة البيزنطية (القسطنطينية) سواء أكانوا أسرى حرب أو تجار أو رحالة فقد لعبوا دورا هاما فى التأثير بين الحضارتين الإسلامية والبيزنطية ، وكان الميدان الثقافى أول ميدان للتعاون بين الدولتين ، وقد شغف المسلمون باقتناء الكتب فدأب الخلفاء العباسيون على أن يبعثوا إلى القسطنطينية يطلبون من أباطرتها الكتب النادرة، كما فعل أبو جعفر المنصور الذى كان من أشهر المترجمين فى عهده ابن المقفع وأبو يحيى البطريق وهو الذى تولى ترجمة كتب أرسطو طاليس(٦٩).

٣- استمرت حركة الترجمة حتى عهد هارون الرشيد أى منذ عام ١٢٦- ١٩٣هـ / ٧٤٣-٨٠٨م، فبعد غاراته المتكررة على عموريه وأنقره وقع فى يده كثير من الكتب اليونانية وفى عهد الخليفة المأمون أتم ما بدأه جده المنصور فأقبل على طلب العلم من الكتب السريانية واليونانية ، وممن قاموا بالترجمة فى هذه الفترة يوحنا بن ماسويه (٧٠).

٤- كان من أبرز علماء الدولة البيزنطية الفيلسوف ليو Leo ابن خالة البطريرك حنا النحوى وكان قد لفت نظر الإمبراطور ثيوفيلوس وقصة ذلك أن ليو هذا كان يدرس علومه لعدد قليل وكان من بين تلامذته شاب برع فى علم الهندسة وأصبح بارعا فيها ، وخرج ذات مرة إلى إحدى المعارك ضد المسلمين وهزم البيزنطيون ووقع هذا الشاب أسيرا لدى أحد كبار الشخصيات الإسلامية وذات مرة حضر مجلس الخليفة المأمون ذلك الرجل المسلم المشهور وتحدث عن ذلك الشاب البيزنطى وعن مهارته فى علم الحساب والهندسة وكان قد التقى به بعض العلماء فأبدى أمامهم مهارة كبيره فذكروا ذلك للمأمون ، فأمر باستدعائه إلى مجلسه ، وسأله عن مدى علمه فأخذ هذا الشاب يستعرض علمه فى علم الهندسة، وراح العلماء

الحاضرون فى مجلس المأمون يسألونه عن أشكال المثلثات والزوايا الأربعة فذكر لهم أسماء هذه الأشكال ، بل لم يطرحوا أى سؤال إلا وأجابهم عليه بوضوح، وسألوه متعجبين من آين له كل هذا العلم؟ فأخبرهم أنه تعلم علوما أخرى فى بيزنطة ، وأنه يعد من أصغر تلاميذهم ولايعد من علمائهم ولا من أساتذتهم ، فسأله المأمون عن معلمه من هو ؟ وهل لايزال على قيد الحياه؟ فأجابه أن معلمه هو ليو وأنه لا يزال حيا يعانى الفقر والحاجه ، وعلى الفور أرسل المأمون خطابا إلى العالم ليو ليقول فيه : «يعرف الأستاذ من تلميذه ، كما تعرف الشجرة من ثمرتها ولذا فإنك يا من تحمل علما عظيما ولكنك تعيش مغمورا بين مواطنيك ولاتحمل ثمرة الحكمه ، فلاتتأخر عن المجيئ إلينا والإفاضة علينا بعلمك الغزير، ولدى وصولك فسوف تنال من الثروات والهدايا ما ليس لأحد قط من البشر» وسلم هذا الخطاب للشاب بعد أن حمله بالهدايا العظيمة وطلب منه أن يسلم الخطاب إلى ليو وتم توصيل الشاب آمنا سالما إلى بيزنطه فلما وجد ليو سلمه الخطاب ، وأدرك ليو أن من الخطر أن يتسلم خطابا من العدو دون أن يحيط الإمبراطور علما بهذا ، فذهب ليو إلى ثيوكتستيس وقص عليه الأمر وسلمه الخطاب، وهكذا وصل الأمر إلى الإمبراطور ثيوفيلوس ، وذاع أمر ليو فالتفت إليه الإمبراطور وطلب منه أن ينشر علمه بين الناس وأغدق عليه الأموال، ولكن المأمون لم ييأس من استقدام ليو، فأرسل إليه بعض الأسئله فى الهندسة والفلك وعلوم أخرى كثيرة وطلب منه الرد عليها ، فلما أجاب عنها ليو كلها إجابات صحيحه إزدادت رغبة المأمون به وقال : «يا له من علم غزير لدى هذا الرجل »، وعلى الفور أرسل سفراءه إلى ثيوفيلوس يحملون خطابا منه يقول فيه: «لقد كنت قررت بمقتضى واجب الصداقه أن آتى إليك بنفسى ولكن حيث أن الله قد عهد إلى بأمر الحكم ، فإن هذا لايتسنى لى، ولذا فإنى أرجو أن ترسل إلى رجلا لديك هو من مشاهير علماء الفلسفه والهندسة والفلك لكى يقضى لدينا وقتا قصيرا يفيدنا من علمه ولايمنعنك من ذلك خلاف فى الدين أو الجنس ، بل لنتصرف حسبما يتميز به الأصدقاء الخيرون، وفى مقابل هذا سوف نرسل إليك مائة قنطار من الذهب ونعقد سلاما ومعاهدة طويلة الأجل »، ورفض ثيوفيلوس طلب المأمون حتى لاينشر علم ليو الذى خص به الشعب البيزنطى فقط[٧١].

٥- من الكتب اليونانية الهامة التى ترجمت فى عهد المأمون كتاب أرسطو فى الآثار اللغوية، وكتاب الحيوان نقله ابن البطريق ومن كتب الهندسة لإقليدس والرياضة والفلك والطب كتاب جالينوس وقام بترجمته حنين بن إسحاق وكان حنين يؤلف الكتب بالسريانية ويترجمها لعلماء النصارى وأطبائهم ، وكان إبنه إسحاق يقوم بنقل ما ترجمه أبوه إلى اللغة العربية[٧٢].

٦- استفادت الدولة العباسية من إرسال العلماء إلى الدولة البيزنطيه لإكتشاف الآثار التاريخيه مثل الحملة التى أرسلها الواثق برئاسة المترجم سلام الذى كان يعرف ثلاثين لغة فتوجه إلى آسيا الصغرى ليكشف السور الذى بناه الإسكندر سدا منيعا بين يأجوج ومأجوج ، ودامت الحملة ٢٨ شهرا ولما عاد أعضاء البعثة كافأهم الخليفة وسلمه سلام بيان وافيا عن الحملة، فنجد أن عهد الواثق امتاز بإرسال بعثات علميه تستطلع خبر القدماء ، كما نجد أن الحركه العلمية فى خلافة الواثق سارت فى خطى سريعة ثابتة(٧٣) فقد وصفه المسعودى قائلا «كان الواثق محبا للإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر(٧٤).

٧- تأثر الأباطرة البيزنطيون بحياة الخلفاء العباسيين كالإمبراطور ثيوفيل الذى تأثر بالفن الإسلامى وانعكس ذلك فى مجال العمارة والزخرفة فى قصره والقصور الأخرى فى القسطنطينية ، وكذلك تميز البلاط البيزنطى بالترف وبلغ من تأثره بالمسلمين أنه حاول أن يكون حاكما مثاليا وحرص على أن ينشر العدل فى أرجاء مملكته فأخذ يقلد الخليفة هارون الرشيد فيما اشتهر به من العداله ، فكان يطوف بأنحاء مدينة القسطنطينية يتحدث إلى الفقراء والمساكين ويستمع إلى شكواهم وينزل العقاب بمن ظلمهم (٧٥).

٨- ظهور آخر التأثيرات المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين فى استخدام العرب لبعض الألفاظ اليونانية وإدخالها فى اللغة العربية كما هى وخاصة فيما يخص الحضارة والعلوم والحياة اليومية ، فقد تأثرت آداب الدولتين الإسلامية والبيزنطية بكثير من الكلمات اليونانية التى دخلت اللغة العربية نتيجة بقاء الأسرى فترات طويلة لدى الطرفين(٧٦).

٩- إذا كانت العلوم قد إضمحلت فى غرب أوروبا فى أوائل العصور الوسطى نتيجة هجمات الجرمان وسقوط الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦م، فإنها ازدهرت فى الشرق الإسلامى فى ظل الخلافة العباسية طوال القرن الثامن والتاسع الميلاديين، ولم يكن علماء الحضاره الإسلامية فى ظل العباسيين كلهم من العرب بل كانوا فرسا أو يهودا مستعربين أو سريانا أو من الأرمن ولكنهم درسوا وكتبوا باللغة العربية التى أضحت اللغة العالميه السائدة من حدود الهند والصين شرقا إلى اسبانيا غربا فى عهد الخلافه العباسية (٧٧).

ملحـــــق

خطاب الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١م) إلى الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٧٦-٨٠٩م).

كتب نقفور خطابا إلى الخليفة هارون يطلب السلام (وهذا الخطاب لم يرد ذكره فى المصادر العربية وإنما ذكر فقط فى زوناراس) قائلا: هل أنت سعيد مسرور بهذا الظلم وتلك المذابح التى صنعتها يداك ، ألم تقنع بها ؟ ألم تغير وتنقل الحدود القديمه التى اتفق عليها الأجداد والاباء ؟ أى نبى مقدس أمرك بهذا ؟ ألم يأمرك نبيك محمد (صلى الله عليه وسلم) بأن تعتبر كل مسيحى أخا لك ، ألا تقر بذلك ؟ ألم يحرم عليك الله القادر على كل شئ والذى يسير أمور الكون بأسره أن تسفك الدماء بغير وجه حق ؟ أغاب هذا عنك ؟ أم أنك قد تركت بلادك ورحت تنزل الأذى بأناس لم يسببوا لك ضيقا قط أهذا كله لأنك تهفو إلى الذهب والفضه وغير ذلك من الأشياء؟ إن كانت مثل هذه الأشياء ثمينة غالية فى نظرك إلى هذا الحد فبإمكانك أن تحوز الكثير منها حين نرسل ما تشاء .

فإن أردت فسوف نرسل لك منها ما تريد على الفور ونفوسنا راضية قريره ، فإن هذه الأشياء متاع زائل بل إننا كذلك لسنا مخلدين، ولو كنا مخلدين لما خضع أحد منا لرب العالمين، انتصارع فيما بيننا ونحاكى الوحوش الضاريه فى هجماتها على البشر ونحن نعلم أننا بعد قليل ميتون، وسيرى كل إمرء بل وسيجنى جزاء ما صنع »[٧٨].

الهوامش

١- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٩، ج٩ ، ص٣٤٧؛ أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، القاهرة ، ج٢ ، ص١٠ .

٢- ابراهيم العدوى: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ، القاهرة ١٩٥١م، ص٨٨ .

٣- ابراهيم أحمد العدوى : السفارات الإسلاميه إلى أوروبا فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٧م، ص٥-٧ .

٤- المرجع السابق، ص١٣-١٧ .

٥- ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ليدن ١٩٨٩م، ص١٠٦-١٠٧ .

٦- ابن الفراء : رسل الملوك ومن يصلح للرساله والسفاره ، حققه : صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٤٧م، ص١١٣؛ ابراهيم العدوى: السفارات الإسلامية إلى أوربا ، ص٢٣-٢٤ .

٧- ابن الفراء : المصدر السابق ، ص١١٤-١١٥ ؛ ابراهيم العدوى: السفارات الإسلامية إلى أوروبا ، ص١٧-١٨ .

٨- ابن الفراء : المصدر السابق، ص١١٥ .

السفير أو الرسول شخص كلف بالمثول أمام حكومة أرسل إليها ليتكلم باسم من أوفده ويذلل المصاعب ويقضى أمورا مضى لإنجازها، فالرسول مأخوذ من الإرسال والإطلاق والتوجيه ونقل الأخبار ويرسل لعقد صلح أو هدنه أو فداء أو تحالف ، وذكر القلقشندى : "إن السفير هو الرسول والمصلح بين القوم". انظر ابن الفراء: المصدر السابق، ص٦١-١٠٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج٦ ، ص١٥ .

٩- شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، دمشق ١٩٧٤م، ج٢ ، ص٣٣٨ .

١٠- ابن الأثير : الكامل ، ج٥ ، ص٢٧٥ ؛ ابن حوقل : صورة ، ص١٨٣ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج٣ ، ص٢٧٢ .

١١- محمد السيد الوكيل : العصر الذهبى للدولة العباسيه ، دمشق ١٩٩٨م، ص٢٥٣ ؛ محمد جمال الدين سرور : دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق والدولة البيزنطية فى العصور الوسطى، دار الفكر العربى، ١٩٦٥م، ص٢٠ .

١٢- ابن النديم · الفهرست ، ص٥٧ ؛ سيجريد هونكه : فضل العرب على أوربا ، ص٢٨٣ · أبوجعفر المنصور : ثانى الخلفاء العباسيين ، هو عبدالله ين محمد بن على بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب،

أمه هى سلامه البربريه كان مولده فى ذى الحجة ٩٥هـ / ٧١٤م، انظر : السيوطى: تاريخ الخلفاء ، القاهرة، ١٣٥١هـ، ص٢٥٩ .

١٣- القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ليبزغ ١٣٢٠هـ، ص٣٨٠ .

١٤- الخليفة المأمون : هو سابع الخلفاء العباسيين ، عبدالله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور بن عبدالله ، كنيته أبو العباس، أمه إسمها مراجل فارسيه ماتت بعد ولاته بقليل، ولد سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م . أنظر : ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد ١٣٥٧ هـ ، ج١٠ ، ص٤٩ .

١٥- ليو: عالم يونانى اشتهر بسعة إطلاعه فى سائر الفنون والعلوم ، ابن أخت يوحنا النحوى معلم الإمبراطور ثيوفيلوس، درس فى جامعة القسطنطينية . أنظر الباز العريبى : الدولة البيزنطية ٣٢٢-١٠٨١ م، القاهرة ١٩٦٠م، ص٢٧٤ .

ثيوفيلوس : ابن الإمبراطور ميخائيل الثانى من الأسرة العموريه ، اشتهر باهتمامه بالعلوم والفنون وتأثر بالفن والثقافة الإسلامية كان مناهضا لعبادة الصور المقدسه، انظر الباز العرينى، المرجع السابق، ص٢٧٤ .

١٦- ابن النديم : الفهرست ، بيروت ، ص٢٤٣ ؛ رنسيمان : الحضارة البيزنطيه، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦١م، ص٤٥ ؛ فازيليف : العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ، القاهرة ، ص١٦ .

١٧- الواثق بالله : تاسع الخلفاء العباسيين هو هارون الواثق بالله بن المعتصم محمد بن هارون الرشيد، أمه أم ولد رومية الأصل تسمى قراطيس ، ولد سنة ١٩٠هـ وقيل ١٩٦هـ أنظر ابن كثير : البداية والنهاية، بيروت ١٩٨٣م، ج١٠ ، ص٢٩٧ ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء بيروت، ص٣٤٠ ؛ افسوس : مدينه فى الجنوب الغربى من اسيا الصغرى. انظر ياقوت الحموى: معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٣١ ، ثيودوسيوس الثانى : ابن أركاديوس كان صغير السن بعد وفاة والده وقع تحت تأثير أخته بلكيريا وزوجها مارقيان ، كانت فترة حكمه طويله. انظر عمر كمال توفيق . تاريخ الدولة البيزنطيه، الإسكندريه ١٩٧٧م، ص٦٨ .

ميخائيل الثالث : ابن الإمبراطور ثيوفيلوس ، كان وقت وفاة والده فى السادسة من عمره، تولت أمه ثيودورا الوصاية عليه يعاونها أخوها باراداس الذى تركه ينغمس فى الملذات حتى عرف بميخائيل السكير. انظر الباز العرينى المرجع السابق، ص٣٢٤-٣٢٥ .

١٨- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص١٠٦-١٠٧ ؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسه ، ليدن، ١٨٩١ م،

ص١٤٩ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص١٦ .

١٩- قسطنطين الخامس : كوبر نيموس ، تولى العرش بعد أبيه ليو الثالث، امتاز بتفوقه فى القيادة الحربية وفى مناهضة عبادة الصور المقدسة وترجع شهرته إلى ما اتبعه من وحشية فى إضطهاد الرهبان عباد الأيقونات وتعذيبهم وما أحرزه من إنتصارات باهره على البلغار . انظر : الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص٢٠٨ ؛ Ostrogorosky , G : History of the Byzantine State tr. By Hussey , Oxford 1968 , p. 148 .

٢٠- المهدى . ثالث الخلفاء العباسيين ، هو محمد بن عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس ، وأمه أروى وكنيتها أم موسى، ولد بالحميمه سنة ١٢١هـ / ٧٣٩ م وقيل بأيذج عام ١٣٧هـ/ ٧٤٥م. أنظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠ ، ص١٥٢؛ السيوطى تاريخ الخلفاء : ص٢٧١ .

ليو الرابع الخزرى. أمه إبنة خان الخزر فلقب بالخزرى ، يعتبر عهده مرحلة انتقال بين ذروة الحركة اللاأيقونية زمن أبيه قسطنطين الخامس وبين العودة إلى عبادة الصور المقدسه زمن زوجته إيرين ، اشتهر بالميل إلى الاعتدال فأعاد إلى الرهبان أسقفياتهم . أنظر: الباز العرينى : المرجع السابق، ص٢١٢ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص٢٦٣ .

الباز العرينى : المرجع السابق ، ص٢١٢ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص٢٦٣ .

٢١- ايرين : زوجة ليو الرابع، كانت من أثينا تعلقت بتمجيد الصور وعبادتها ، تولت الوصايه على إبنها قنسطنطين السادس ٧٨٠-٧٩٧م عقب وفاة أبيه فأضحت قسيما له فى الحكم. انظر : الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ، ج٦ ، ص٣٨٠ ؛ الباز العرينى: المرجع السابق، ص٢٢٢ ؛ جمال الدين الشيال. تاريخ الدولة العباسية ، الاسكندريه ، ١٩٦٧ م، ص٥٢ .

٢٢- نقفور الأول : تشير المصادر إلى أن نقفور ينتمى إلى أصل عربى وأن جده هاجر إلى بيسيديا بآسيا الصغرى التى تعتبر مسقط رأس نقفور ، قام بثوره عام ٨٠٢م ونفى الإمبراطوره إيرين إلى أحد الأديرة ، وكان يشغل وزير الخزانه . انظر Bury: Eastern Roman Empire, pp. 8-9 ؛ أومان : الإمبراطوريه البيزنطية ، ص٦ ؛ رنسيمان : الحضارة البيزنطيه، ص٤٣ .

هارون الرشيد: خامس الخلفاء العباسيين ، هو هارون بن محمد بن عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله ابن عباس ، أمه يمانيه يقال لها خيزران وسميت جرشيه لأنها من جرش اليمن ، ولد بالرى عام ١٤٩هـ/ ٧٦٦م . انظر : السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص٢٨٣ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل، ج٨ ، ص٢٣٠ .

٢٣- الشاعر هو عبدالله بن يوسف التميمى . أنظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، القاهرة ١٩٦٥م، ج٥، ص٢٤٦ .

٢٤- ابن أبى الدم الحموى التاريخ المظفرى ، ج١ ، حققه حامد زيان ، ص١٠١ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ليدن ١٨٥١- ١٨٧٦م، ج٥ ، ص٢٢ ؛ ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٨٠م، ص٢٢٣ ؛ عفاف صبره : الإمبراطورتان البيزنطيه والرومانية الغربية زمن شارلمان ، القاهرة ١٩٨٢، ص٩٩؛ عبد الجبار الجومرد: هارون الرشيد ، بيروت ج٢ ، ص٥٣١ .

٢٥- الطبرى : تاريخ الرسل، ج٣ ، ص٦٩٨ ؛ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨هـ ، ج٢ ، ص٢٢ ؛ رشيد عبدالله الجميلى : دراسات فى تاريخ الخلافة العباسيه ، الرباط ١٩٨٤م، ص٧٠ ؛ أحمد مختار العبادى : التاريخ العباسى والأندلسى، بيروت ١٩٧٢م، ص٩١-٩٢

٢٦- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص٢٧٥ ؛ ابن خلدون : كتاب العبر، القاهرة ١٩٣٠م، ج٢، ص٢٧٢ ؛ ابراهيم العدوى: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، ص١١٠ .

نهر لاموس Lamos : سماه العرب اللامس وهو على مرحلة من طرسوس وعلى هذا النهر كان يجرى فى أيام العباسيين تبادل الأسرى بينهم وبين البيزنطيين. انظر : ابن حوقل : المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٣م، ص٣٤ ، وصورة الأرض ، بيروت، ١٩٧٩م، ص٨٣ .

٢٧- المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦ م، ص١٤٨ .

٢٨- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص٢٧٥ ؛ كى ليسترنج : بلدان الخلافة الشرقيه ، بغداد ١٩٥٤م، ص١٦٥-١٧٤ .

٢٩- المقدسى: أحسن التقاسيم ، ص١٤٨ .

٣٠- ابن رسته : الأعلاق النفيسه، ليدن ١٨٩١م، ص١٢٢- ١٢٣ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٣، ص٢٢٥ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل، ج٩ ، ص١٤٠ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، القاهرة ١٨٥٢ م، ج١ ، ص٤٤٤ .

٣١- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٤ ، ص٣٦٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهايه ، ج٩ ، ص٧٤ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص١٩٠ ؛ الطبرى: تاريخ الرسل، ج٧، ص٥٠٠ ، ج٨ ، ص٢٨ .

٣٢- ابن الأثير: الكامل ، ج١٠ ، ص٣٥ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٠٣ ؛ ابن كثير البدايه والنهاية، ج١ ، ص١٥٨ ، شاكر مصطفى : فى التاريخ العباسى ، ج١ ، ص٢٧٦ ، شوقى أبوخليل: هارون الرشيد ، دمشق ١٩٨٨م، ص٩٧ .

٣٣- ابن أبى الدم الحموى : التاريخ المظفرى، ج١ ، ص١٢٥-١٢٦ ؛ أبى المحاسن : النجوم الزاهرة ، القاهرة ١٩٧٢م، ج٢، ص٢١٦-٢١٧ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل ، ج١٠ ، ص٢٨١ ؛ الكوفى : الفتوح ، بيروت ١٩٨٦م، ج٤ ، ص٤٦٤- ٤٦٥ ؛ رشيد الجميلى: دراسات فى تاريخ الخلافة العباسيه ، ص٩٤؛ شاكر مصطفى ، ج٢ ، ص٣٢٤ ؛ محمد السيد الوكيل : العصر الذهبى للدولة العباسيه، ص٣٧٨ ؛ يوسف العش : تاريخ عصر الخلافة العباسيه ، دمشق ١٩٨٢م، ص٩٧ .

٣٤- حسن أحمد محمود ، أحمد ابراهيم الشريف: العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٦٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول، القاهرة ١٩٧٣م، ج١ ، ص٣٨٦ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص٢٥٤-٢٥٥ ؛ Bury : p. 255

٣٥- المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٣ ، بيروت ١٩٨٢م، ص٤٢-٤٣ .

٣٦- سورة النمل ، آية رقم ٣٥-٣٦ .

٣٧- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١٠ ، ص٤١٩ ؛ الكوفى : الفتوح، ج٤ ، بيروت ١٩٨٦م، ص٤٦٤-٤٦٥ ؛ شاكر مصطفى : فى التاريخ العباسى. دمشق ١٩٧٤م، ج١ ، ص٢٨٣ ؛ فازيليف: العرب والروم، ص١٢٤ .

٣٨- ابن الأثير : الكامل ج٥، ص٢٧٦ ؛ ابن حوقل : المسالك والممالك، ص١٣٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠ ، ص٣٠٨ ، ابراهيم العدوى: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، ص١١٠ ؛ حامد زيان : الأسرى المسلمون فى بلاد الروم، ص٩ .

٣٩- شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، ج٢ ، ص٥٧٢ ؛ عبد المنعم ماجد : العصر العباسى الأول، ص٤٣٣ .

٤٠- ابن الجوزى . المنتظم ، ج١١ ، ص١٦٤ ؛ الطبرى. تاريخ الرسل، ج٩ ، ص١٤٩ ؛ المقدسى : أحسن التقاسيم، ص١٧٧ ؛ حسن أحمد محمود : العالم الإسلامى، ص١٦٨ ، عليه الجنزورى: المرأة فى الحضارة البيزنطية ، القاهرة ١٩٨٢م، ص٧٥ .

٤١- سيد الناصرى : الروم تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالمشرق العربى ، جامعة القاهرة ١٩٩٣م، ص٢٩٢ ، حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطيه ، القاهرة ١٩٨٣م، ص١٣٦-١٣٧ .

٤٢- الطبرى : تاريخ الرسل ، ج٩ ، ص١٤٣ ؛ المسعودى . التنبيه والإشراف، ص١٦٢ .

٤٣- السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص٣١٦ .

٤٤- ابن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ج٢، ص٤٨٠ .

٤٥- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١ ، ص٣٠٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٢، ص٣١٤ ؛ المسعودي: التنبيه والإشراف ، ص١٦٠-١٦١ ؛ محمد جمال الدين سرور : دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامي والدولة البيزنطيه ، ١٩٦٠م، ص٢١- ٢٢ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص١٧٧-١٧٨ .

٤٦- الطبرى : تاريخ الرسل، ج٩ ، ص١٤٣-١٤٤ ؛ اليعقوبى . تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨هـ ، ج٢ ، ص٤٨٢ .

زبطره : مدينة بين ملطيه وسميساط فى طرف بلاد الروم . انظر ياقوت ، ج٢ ، ص٩١٤ .

٤٧- السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص٣٤١ ؛ المسعودى: مروج الذهب ، ج٤ ، ص٦٦ ، التنبيه والإشراف ، القاهرة ١٩٣٨م، ص١٦٢ .

٤٨- الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، بيروت ، ج٤ ، ص١٤٢ .

٤٩- استمد الجغرافى ابن خرداذبه كثيرا من معلوماته عن اسيا الصغرى من الجرمى وغدت معلوماته الأسس التى بنى عليها الجغرافيون العرب مادتهم فى العصور الوسطى. انظر : إبن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص١٢ .

٥٠- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ص٢٧٧-٢٧٨ ؛ الطبرى: تاريخ الرسل، ج٧ ، ص٣٣٢ ؛ المسعودى: التنبيه والإشراف، ص١٦٢ .

٥١- اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، ج٣ ، ص٢٠ ؛ حسن أحمد محمود : العالم الإسلامى، ص٦٩؛ محمد جمال الدين سرور دراسات فى العلاقات السياسيه، ص٢١-٢٣ .

٥٢- ثيودورا . زوجة الإمبراطور ثيوفيلوس، وأم الإمبراطور ميخائيل الثالث السكير قد أصبحت وصية عليه بعد وفاة زوجها وتألف مجلس لمساعدتها من أخويها بارداس (عرف فى المصادر العربيه باسم بطرناس) وبتروناس وخالها سرجيوس نكبتياتس من أقرب الناس إليها ، وصديقها تيوكتستوس . وإبنتها الكبرى تكلا والتى كانت قد منحت لقب إمبراطوره قبل وفاة أبيها ، وكانت ثيودورا من الأيقونيين انشغلت بأمور الحكم والمسائل الدينيه ، وتركت أمر تعليم ابنها إلى بارداس الذى أساء تعليمه فعلمه الرذائل وشرب الخمر. أطلق عليه المؤرخون لقب (السكير) وانتهى الحال بثيودورا وبناتها الخمس بطردها من القصر وسيطرت أخيها بارداس على الإمبراطوريه انظر . الباز العرينى، الدولة البيزنطيه ، ص٢٩٤ ؛ فازيليف . العرب والروم، ص١٦٩ .

المتوكل . هو الخليفة العباسى العاشر أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد أمه خوارزميه يقال

لها شجاع ،ولد في شوال عام ٢٠٦هـ / ٨٢٢م ، تولى الخلافه في يوم وفاة الواثق فى ٢٤ ذى الحجة عام ٢٣٢هـ / ١١ أغسطس ٨٤٧م واستمر بالخلافه إلى أن قتل عام ٢٤٧هـ/ ٨٦٩م، فحكم أربع عشرة سنه وتسعة أشهر . انظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٠ ، ص٣٠٣؛ محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطوريه البيزنطيه ، بيروت ١٩٨١م، ص١٣٠ .

٥٣- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ص٢٧٧ ؛ الطبرى: تاريخ الرسل، ج٩ ، ص٢٠٢ ؛ محمد السيد الوكيل : العصر الذهبى للدولة العباسيه، ص٤٩٧ .

٥٤- الطبرى : تاريخ الرسل ، ج٩ ، ص٢١٩-٢١٢ ؛ شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، ص٥٧٦ .

٥٥- ابن الجوزى : المنتظم ، ج١١ ، ص٢٨٤ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٣٢٤ ؛ الطبرى: تاريخ الرسل، ج٩ ، ص٢٠٣ ؛ المسعودى: التنبيه والإشراف، ص١٦٠ .

٥٦- الطبرى : تاريخ الرسل، ج٩ ، ص٢١٣ ؛ ابراهيم أحمد العدوى: السفارات الإسلامية إلى أوروبا فى العصور الوسطى ، ص٦٨-٦٩ .

ميخائيل الثالث: لقبه مؤرخو الروم باسم الإمبراطور شارد الذهن Blabes لأنه كان دائما غائبا عن الوعى ولإنصرافه إلى اللهو والعبث . انظر سيد الناصرى: الروم والمشرق العربى، ص٢٩٧ .

٥٧- ابراهيم العدوى: المرجع السابق، ص٦٩ .

٥٨- الهبدروم : ملعب كبير أصبح مركزا عاما للنشاط الرياضى والاجتماعى والسياسى فى العاصمه القسطنطينيه، كان يحوى مقصورة للامبراطور يطل منها على شعبه فى الاحتفالات العامه. انظر عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطيه، الإسكندريه ١٩٧٧م، ص٢٧ .

٥٩- كنيسة أياصوفيا Hagia Sophia أو الحكمه الإلهيه ، شيدها الإمبراطور قسطنطين الأول حين بنى القسطنطينيه بالقرب من الهبدروم ، ويلاحظ أن المبنى الذى أقامه قسطنطين لم يكن هو الذى حفظه التاريخ فقد احترق مرتين، وأعاد بنائها الإمبراطور جستنيان الأول عام ٥٣٢م لتخليد إسمه وانتهى بنائها عام ٥٣٧م تحت إشراف أزيدور الملطى ، وأنثيوس الترللى، فكان بنائها تحفة رائعة خاصة قبتها التى تعبر عن عظمة فن البناء البيزنطى الوسيط . انظر عمر توفيق المرجع السابق، ص٣٧ .

٦٠- ابراهيم العدوى : السفارات الإسلامية، ص٧٣-٧٥ .

٦١- فازيليف : العرب والروم، ص٢٠٦ .

٦٢- ابراهيم العدوى: السفارات الإسلامية، ص٨١-٨٣ .

٦٣- ابراهيم العدوى : المرجع السابق، ص٧٨-٧٩ ؛ شاكر مصطفى : التاريخ العباسى، ج١ ، ص٣٧٩ .

٦٤- قسطنطين السابع : ابن الإمبراطور ليو السادس ولد عام ٩٠٥، اشتهر باسم Prophyrogennetos بروفيروجينيتوس وتعنى باليونانيه المولود فى المخدع الأرجوانى ، سيطر على مقاليد السلطه عام ٩٤٥م وهو فى سن الأربعين بعد أن كان مضى على تتويجه نحو ٢٣ عام بسبب سيطرة عم الإمبراطور (رومانوس ليكابينوس) وكان من الصعب عليه أن يترك الحياة التى تعود عليها لأنه كان رجل قلم وفكر لارجل سيف وحرب، فترك أمور الإمبراطوريه لزوجته وانصرف إلى التأليف والكتابه، حتى قيل عنه أنه أدرى رجل بواجبات البلاد التى شهدت أزهى عصورها فى عهده ، فركز على فتح المدارس فى الأقاليم واهتم بنشر التعليم، ومن أشهر مؤلفاته وأضخمها كتابه عن (مراسم الدوله) والذى جمع فيه أصول وقواعد البروتوكول ومراسم استقبال الضيوف الأحانب وتنظيم الحفلات لهم ، وتطرق إلى القصر ونظم إداراته وإلى الإمبراطور ومسؤولياته ، حتى الملابس الرسميه وملابس الجنود وشاراتهم تطرق إليهم بدقه كما كتب مؤلفا على تنظيم الإداره فى الإمبراطوريه بهدف أن يكون مرشدا لولده رومانوس الثانى يحكم على أساسه ، وقد أدى قسطنطين خدمه كبيره للقانون عندما قام بتلخيص (موسوعة القوانين الإمبراطوريه) لتكون فى متناول الناس، وآخر مؤلفاته كان كتابا وضعه عن سيرة جده باسيليوس الأول الذى كان مبهورا بشخصيته وإنجازاته، وفى عهده أيضا صدرت (الموسوعة التاريخيه الكبرى) والتى تقع فى ثلاثة وخمسين مجلد لم يتبق منها سوى أجزاء قليله، ومن تراثه الفنى لوحه منحوته من العاج تصور حفل تتويجه ومحفوظه الآن فى متحف موسكو .انظر: سيد الناصرى : الروم والمشرق العربى، ص٣١٨-٣١٩ ؛ أسد رستم : الروم ، ج٢ ، ص٢٨ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص٣٦٢-٣٦٣ ؛ . Ostrogorsky : p. 247

المقتدر بالله : تاسع خلفاء العصر العباسى الثانى (٢٩٥-٣٢٠هـ) هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد، ولد عام ٢٨٢هـ ، أمه روميه تولى الخلافه بعد أخيه المكتفى وعمره ثلاث عشرة سنه، قتل وهو فى سن ثمانية وعشرين سنه، انتشرت الفتن فى عهده انظر : السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص٣٥٠ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام، القاهرة ١٩٦٥ م، ج٣ ، ص٢٠-٢٢ .

٦٥- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج٣ ، ص٣٨٥ ، مسكويه: تجارب الأمم، القاهرة، ١٩١٤م، ج٥، ص٥٣ .

٦٦- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج٨ ، ص١٠٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١١ ، ص١٢٨ .

دبيق : قريه من قرى دمياط فى مصر تنسب إليها الثياب المثقله . انظر : ابن حوقل ، صورة الأرض، ص١٠٢ ؛ ياقوت : ج٢، ص٥٤٦ .

٦٧- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج٣ ، ص٣٨٦ ؛ ابن الجوزى: المنتظم ، ج٦ ، ص١٤٣ ؛ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد، ج١ ، ص١٠٠ ؛ الذهبى: دول الإسلام ، القاهرة ١٩٧٤م، ج١ ، ص١٨٥ ؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص٣٥٣ .

٦٨- حسنين ربيع : دراسات، ص٨-٩ ؛ كرستوفردوسن : تكوين أوروبا، ص٢٠٣ ، لعبت الدولة البيزنطية دورا هاما فى التاريخ كقوة سياسة وحربيه لقرون طويله وكمركز حضارى وثقافى لأكثر من عشرة قرون من الزمان، انتهت بسقوط القسطنطينية فى قبضة الأتراك العثمانيين فى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى . انظر : رنسيمان، الحضارة البيزنطيه، ص٢٠٦ .

٦٩- ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول، ص١٣٨ ؛ ابن خلدون : المقدمه، ص٤٠١ ؛ القفطى: أخبار الحكماء ، ص٢٤٨ .

٧٠- عموريه : مدينه فى الشرق، من أمنع وأحصن بلاد الروم، فتحها المعتصم عام ٢٢٣هـ وكانت من أعظم فتوح الإسلام. انظر ابن خرداذبه، المسالك ، ص١٠١؛ ياقوت الحموى، معجم البلدان ، ج٤، ص١٥٨ . أنقره : مدينه ببلاد الروم فتحها المعتصم فى طريقه إلى عموريه، انظر ياقوت : ج١ ، ص٢٧٢

يوحنا بن ماسويه : من أطباء الرشيد نصرانى سريانى ممن قدموا من جند نيسابور التى كان بها أكبر مدارس للطب ، ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبيه القديمه وخدم المأمون ومن بعده إلى أيام المتوكل، كان معظما فى بغداد جليل القدر، وكان يدرس ويجتمع لديه تلاميذ كثيرون، وقد زقام مستشفى فى بغداد ، انظر ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص١٢١ ؛ ابن النديم : الفهرست، ص٤٢٥- ٤٢٦ .

٧١- Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , Editio Emendatior et copiosior , Georgius Cedrenus, Tomus Alter , p. 167-169 .

٧٢- ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص١٣٦ ؛ القفطى: أخبار الحكماء ، ص٣١ ؛

حنين بن اسحاق العبادى: الطبيب المشهور، ولد عام ١٩٤هـ / ٨١٣م، كان يشتغل بالصيدله والتحق بمدرسة جند نيسابور ليدرس الطب وقد حضر حنين مجالس يوحنا بن ماسويه فى بغداد، صمم على تعلم اليونانيه لأنه رأى فيها خير مساعد له على تعلم الطب فسافر إلى بلاد الروم وهناك أتقن اللغة اليونانية ، وقصد البصره لتعلم اللغة العربية وكانت فى هذه الفترة أكبر مدرسة لعلوم اللغة العربية فلازم الخليل بن أحمد ، وبذلك أصبح حنين يجيد أربع لغات هى الفارسيه واليونانية والعربيه والسريانية التى هى لغتهم. انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس ، ج١ ، بيروت ، ص١٨٧ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ؛ اوليرى: مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، نقله إلى العربية تمام حسان، كتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٧م، ص٢٤٨

٧٣- ابن خرداذبه : المسالك والممالك، ص١٠٦ ؛ ابن رسته: الأعلاق النفيسه، ص١٤٩ ؛ فازيليف: العرب والروم، ص١٦ .

٧٤- المسعودى : مروج الذهب ، ج٤، ص٧٧ .

٧٥- الباز العرينى : الدولة البيزنطيه، ص٢٧٤ ؛ غوستاف لوبون : حضارة العرب، ص١٧٠-١٧٤
Bury: pp. 241-242 ; Ostrogorsky : pp. 183, 185 .

٧٦- Bury : p. 234 ; Ostrogorsky : pp. 142 , 185 الباز العرينى : الدولة البيزنطيه ، ص١٩٩-٢٠٠ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا فى العصور الوسطى، ج١ ، القاهرة ١٩٦١م، ص١٥١ .

٧٧- سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ص٢١١-٢١٢ ؛ رنسيمان : الحضارة البيزنطيه، ص٢٨١ ؛ جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز جاويد، دار مصر للطباعة ١٩٥٦م، ص٢٠٠ ؛ غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص١٧٤ ، ٤٤٠ . . Bury: p. 479

٧٨- Ioannis Zonarae: Epitomae Historiarum , Libri XVIII, Tomus III, Bonnae, p. 34-35
.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

ابن الأثير (على بن أحمد ابن أبى الكرم) : الكامل فى التاريخ ، أجزاء ٨-١٠ ، ليدن ١٨٥١-١٨٧٦م .

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٢٩م.

ابن الجوزى (أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد) : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، الجزء الخامس، حيدر أباد ١٣٧٥هـ .

ابن حوقل (أبو القاسم ابن حوقل النصيبى) : صورة الأرض، جزءان، ليدن ١٩٣٨-١٩٣٩م .

الخطيب (أبوبكر محمد بن على البغدادى) : تاريخ مدينة بغداد أو مدينة السلام، المجلد الأول، بيروت- لبنان.

ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيدالله) : المسالك والممالك ، ليدن ١٩٨٩م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ ابن خلدون ، المجلد الثالث، بيروت ١٩٧٩م.

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس) : وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، بيروت .

ابن خياط (خليفه بن خياط) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، ١٩٧٠م .

ابن رسته (أحمد بن عمر) : الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١- ١٨٩٢م .

ابن العبرى (غريغورويوس الملطي) : تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٨٠م.

ابن العمرانى (محمد بن على بن محمد) : الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، ليدن ١٩٧٣م .

ابن النديم (محمد بن إسحاق النديم البغدادى) : الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ .

ابن كثير (عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى) : البداية والنهاية، الجزء العاشر، بيروت ١٩٨٣م.

أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل) : المختصر فى أخبار البشر، القاهرة.

البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦م.

الذهبى (شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان) :

- دول الإسلام الجزء الأول، تحقيق فهيم محمد شلتوت، محمدمصطفى إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٤م .

- العبر فى خبر من غبر ، الجزء الأول، بيرت ١٩٧٩م.

السيوطى (الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محى الدين الخطيب، بيروت.

الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى)، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، الأجزاء ٨-١٠ ، القاهرة ١٩٦٩-١٩٧٦م.

القفطى (جمال الدين أبى الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف) : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٦هـ .

القلقشندى (أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، شرحه : نبيل خالد الخطيب ، الجزء الخامس، بيروت ١٩٨٧م.

الكوفى (أبى محمد أحمد بن أعثم) : الفتوح ، المجلد الرابع، بيروت ١٩٨٦م.

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محى الدين، بيروت ١٩٨١م ؛ التنبيه والإشراف ، القاهرة ١٩٣٨م.

مسكويه : تجارب الأمم ، مطبعة التمدن بالقاهرة ١٩١٤م، الجزء الخامس.

المقدسى (شمس الدين أبوعبيد الله محمد) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٩م.

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :

- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار (بولاق) ، القاهرة ١٢٧٠هـ .

- السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٦-١٩٥٧م.

ياقوت (شهاب الدين أبو عبدالله الحموى) : معجم البلدان، الجزء ١-٤ ، بيروت ١٩٥٥م.

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) : تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثانى ، النجف ١٣٥٨هـ .

ثانيا : المرجع العربية والمعربة :

إبراهيم أحمد العدوى :

- الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، الطبعة الأولى.
- السفارات الإسلامية إلى أوروبا فى العصور الوسطى، دار المعارف.

أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى، بيروت ١٩٧٢م.

ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٥١م.

أستم رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، ج١ - ج٢ ، بيروت ١٩٥٥م .

أوليرى : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، نقله إلى العربية تمام حسن، مكتبة الأنجلو المصريه، ١٩٥٧م.

أومان : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣م.

الباز العرينى (السيد) : الدولة البيزنطية (٣٢٣-١٠٨١م)، القاهرة ١٩٦٠م.

جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، راجعه عبد الحميد العبادى، دار مصر للطباعه ١٩٥٦م .

جمال الدين الشيال : تاريخ الدولة العباسية ، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٧م .

حامد زيان : الأسرى المسلمون فى بلاد الروم، القاهرة ١٩٨٩م.

حسن ابراهيم حسن : التاريخ الإسلامى العام، مكتبة النهضة المصرية.

حسن أحمد محمود وأحمد ابراهيم الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى، القاهرة ١٩٨٠م.

حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية ١٩٨٩م.

ستيفن رنسيمان : الحضاره البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦١م.

سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦١م.

سيجريد هونكه : فضل العرب على أوروبا ، ترجمة فؤاد حسنين على، القاهرة ١٩٦٤م.

شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، دمشق ١٩٧٤م.

شوقى أبوخليل : هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا ، دمشق ١٩٨٨م.

عبد الجبار الجومرد: هارون الرشيد ، الجزء الثانى، بيروت .

عبد المنعم ماجد : العصر العباسى الأول، التاريخ السياسى، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٣م.

عفاف سيد صبره : الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربيه زمن شارلمان ، القاهرة ١٩٨٢م .

عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية ١٩٧٧م .

غوستاف لوبون : حضارة العرب ، نقله إلى العربيه عادل زعيتر، مطبعة عيسى الحلبى.

فازيليف : العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ، القاهرة.

كى ليبسترنج : بلدان الخلافه الشرقيه ، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .

كرستوفردوسن : تكوين أوروبا ، ترجمة مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٧م .

محمد جمال الدين سرور: دراسات فى العلاقات السياسيه بين دول الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية ، الجزء الأول، ١٩٦٠م .

محمد السيد الوكيل : العصر الذهبى للدولة العباسية ، دمشق ١٩٩٨م.

محمد مختار باشا : التوفيقات الإلهاميه فى مقارنة التواريخ الهجريه بالسنين الإفرنجية والقبطية، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

محمود سعيد عمران : معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٨١م.

يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية، دمشق ١٩٨٢م.

ثالثا المصادر والمراجع الأجنبية :

- Bury : (J.B)

- A History of the Eastern Roman Empire , London 1912 .

- Cedrenns Georgius :

Historiarum Compendium , I, Bonnae.

Ionnis Zonaras:

- Epitomae Historiarum, Libri XVIII, Tomus III, Bonnae .

Ostrogorsky, George:

- History of the Byzantine State, Trans by John Hussey .

أ.د. ليلى عبدالجواد إسماعيل *

ظاهرة تعاطي الحشيش ومكافحتها في مصر المملوكية

التعريف بنبات الحشيش ومسمياته :

الحشيش لغة كلمة تعني العشب أو الكلأ، وتحديدًا العشب الجاف أو العلف الذي تأكله الماشية، والحشيس ما يَبس من الكلأ، فأمكن أن يحش و يجمع، ومفردها حشيشة والجمع حشائش[١].

أما الحشيش اصطلاحًا فقد استخدمت الكلمة للدلالة على (نبات القُنب الهندي) وهو نبات عشبي خشن الملمس، ومجوف الساق، وله أوراق مشرشرة الحافة؛ تختلف شجيراته عن شجيرات القنب الأخرى[٢]، فهي تتسم بقصر ساقها وكثرة فروعها. ويستخلص عقار الحشيش من القمم الزهرية لأغصان أنثى نبات القنب الهندي، وذلك خلال موسم الإزهار، حيث تجمع هذه القمم على هيئة حزم، ثم تترك لتجف[٣].

ويتحدث ابن البيطار عن القنب الهندي فيقول : " ومن القنب نوع ثالث، يقال له القنب الهندي "[٤]، مما يظهر أن القنب له أنواع عديدة وقد حدد ابن البيطار النوع الثالث منها وهو المعروف بـ (القنب الهندي) وبأنه النوع الذي يستخلص منه الحشيش. هذا ويعرف القنب الهندي عند الأطباء باسم (الشهدانج) فيذكر ابن جزلة في كتابه (منهاج البيان) القنب الذي هو ورق الشهدانج منه بستاني ومنه بري، والبستاني أجوده، ويسمى (بالكف) وثمره يشبه حب السمنة، وهو حب يعصر منه الدهن. أما البري فتخرج شجرته في القفار المنقطعة، على قدر ذراع، وورقه يغلب عليه البياض[٥].

---

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى – كلية الآداب – جامعة القاهرة

وقدم المقريزي وصفًا لهذا النبات (الحشيش) على لسان الشيخ حيدر الخراساني[٦] فقال : " إنه نبات له ورق يميس بلطف، ويتحرك من غير عنف كالثمل النشوان "[٧]. وقد وصفه الأديب محمد بن علي الأعمى الدمشقي في أبيات منها :

دع الخمر وأشرب من مدامة حيدر معنبرة خضراء مثل الزبرجد
يرنحها أدنى نسيم تنسمت فتهفو إلى بر النسيم المردد[٨]

تعددت مسميات الحشيش، وفي ذلك يذكر أبو بكر القسطلاني (ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م) صاحب مخطوط "إتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم"[٩]. " وقد اخترعوا لما ابتدعوه أسماء كثيرة، فكنوا بها عنه، رغبة في التستر به .. فسموه الصورة، والكف، والمعلوم، وابنة الجراب، وابنة الكيس، والبنك (البنج)، والكافوري، وابنة القنبس، والخضراء، واللقيمة، وأنشد الشعراء بهذه المسميات أشعارًا فيقول الشاعر تقي الدين الموصلي في تسمية الحشيش بالكف:

كف كف الهموم بالكف فالكف شفاء للعاشق المهموم

وقال أيضًا :

وكف اكف الهم بالكف واسترح ولا تطرح يوم السرور إلى غد[١٠]

وقال في تسمية الحشيش بابنة القنب :

بأبنة القنب الكريمة لا بأبنة كرم بعد البنت الكروم[١١]

وقال ابن سودون البشبغاوي (ت ٨٦٨هـ/١٤٦٣م) في ديوانه عن تسميته بالبنك (البنج) :

بنك وسط الجنينة يصحنوها في الجفينة أو يسفوا بالحفينة

لجلا القلب الحزين[١٢]

وذكر المقريزي أنها أي الحشيشة نعتت بالخبيثة وبالعقدة[١٣]. وكنها ابن سودون البشبغاوي بالبهار وبالبولاقة[١٤]. وذكر الزركشي (ت ٧٩٤/١٣٩١م)[١٥] وتسمى أي الحشيشة بالغبيراء[١٦] وبالحيدرية والقلندرية. قيل سميت بالحيدرية لأن ظهورها كان على يد حيدر الخراساني[١٧] في سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م تقريبًا، وفي ذلك يقول الشاعر ابن الرسام :

واشكر عصابة حيدر إذ أظهــروا لذوي الخلاعة مذهب المــتخمس[١٨]

وقيل سميت بالقلندرية لأنها ظهرت على يد أحمد الساوي القلندري[١٩]. وهكذا يتضــح من المسميات التي اطلقت على الحشيش أو كني بها أن كل منها ذا مغزى ومعنى.

طرق إعداد الحشيش للاستعمال :

أما عن طرق إعداد القنب الهندي (الحشيش) للاستعمال فقد ذكرت المصادر عدة طرق منها :

أولاً : القلي : ينصح الأطباء بضرورة قليه لأنه إذا قلي يكون أقل ضررًا لذلك جرت العادة أن يقلى قبل أكله لأنه إذا أكل غير مقلي كان كثير الضرر. كذلك ينصح الأطبــاء بتناوله مع اللوز أو الفستق أو السكر أو العسل؛ ويذكر المقريزي[٢٠] أن ذلك يكون حسب أمزجة الناس، فمنهم من لا يستطيع أن يأكله مضافًا إلى غيره، ومنهم من يضيف إليه السكر أو العسل أو غيره من الحلاوات؛ مما يشير إلى أن طعمه كان غير مقبول. هذا ويؤكد البعض أنها خبيثة الطعم كريهة[٢١] لذلك يضاف إليها السكر أو العسل أو السمسم أو غيره حــتى تصبح مقبولة الطعم.

ثانيًا : الطبخ : ذكر كل من ابن البيطار والمقريــزي أنــه رأى الفقــراء (الصــوفية) يستعملونه على أنحاء شتى فمنهم من يطبخ الورق طبخًا بليغًا، ويدعكه باليد دعكًا جيــدًا، حتى يتعجن، ويعمل منه اقراصًا، ومنهم من يجففه قليلاً ثم يحمصه، ويفركه باليد، ويخلط به قليل من سمسم مقشور وسكر، ويستفه ويطيل مضغه[٢٢].

ثالثًا : الطحن والعجن : ذكر ابن سودون طريقة استعمال الحشيش بقوله : يطحن في جفنة، ويطرح بذره وقشه، ثم ينضح عليه الماء رشة بعد رشة، ثم يسكب عليه ماء الــورد ودهنه، ويحكم بهما عجنه. ثم تقطع هذه العجينة ويأكل منها[٢٣].

رابعًا : السلق : يصف البدري في مخطوطة " راحة الأرواح في الحشــيش والــراح " الطريقة التي اعتبرها قريبة من الطريقة المستخدمة في مصر، وهي عبارة عن أخذ سبعة أجزاء من نبات القنب البستاني ويضاف إليها جزء واحد من القنب البري، وهذا الجــزء الأخــير يستخدم كخميرة، ثم يوضع الجميع في الماء ويسلق على النار حتى درجة الغليــان، ثم يــتم

وضعها في آنية كبيرة محكمة الغلق ومصنوعة من الخزف. ثم توضع في مكان رطب لمدة ستة أسابيع، حتى تتعفن الأوراق، ثم يتركها في المكان أسبوع آخر وهي مغمورة في المـاء، ثم يسحقها وينعمها ويمزجها معًا، ثم يصنع من هذا الخليط حبات أو أقراص، ويتركها في الظل حتى يجففها الهواء، وتصبح ذات تأثير فعال وقوي[٢٤].

يتضح مما سبق أن الحشيش كان يؤكل كما أجمعت المصادر على ذلك، كما كان يشرب كذلك ولكن لم تذكر أي من المصادر أنه كان يدخن في ذلك العصر، وفيما يتعلق بشـرب الحشيش ذكر القسطلاني في أبيات قد نظمها لمكافحته :

لا تصغين لمادح شـرب الحشـيش فإنـه في القـول غـير مسـدد[٢٥]

وقال في موضع آخر :

قد ضل مـن أفـتى بحـل شـرابها فيمـا عُـزا للشـافعي وأحمـد[٢٦]

وذكر ابن تيمية أن الحشيشة تذاب في الماء وتشرب ... والحشيشة تؤكل وتشرب"[٢٧].

ويقول الأديب الفاضل شرف الدين أحمد بـن يوسـف (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) في الحشيشة موضحًا أنها طعام وشراب :

جمعت محاسن مـا اجـتمعن لغيرهـا من كل شـيء كـان في المعمـور
منـها طعـام والشـراب كلاهمـا وباليقل والريحان وقت الحضـور[٢٨]

فوائد الحشيش ومضاره :

أجمع الأطباء على أن القنب الهندي أو الشهدانج له فوائد جمة كعلاج أو دواء غـير أن مضاره تفوق فوائده، ومن فوائده كما يذكر جالينوس : أنه يبرئ من التخمة وجيد للهضم، وفي ذلك يقول الشاعر النور الاسعردي :

ومن فضلها في الطب جودة هضمها وهيهات يحصى فضـلها المعـدد[٢٩]

أما يحيى بن ماسويه[٣٠] فذكر في كتابه (تدبير أبدان الأصحاء) إنه يجفف من البلغم، وينصح بأن من غلب على بدنه البلغم ينبغي أن تكون أغذيته مسخنة مجففة كالزبيب والشهدانج. أما صاحب كتاب إصلاح الأدوية فذكر أن الشهدانج يدر البول، وقال لم أجد لإزالة الزفر من اليد أبلغ من غسلها بالحشيشة[٣١]. هذا إلى جانب أن الحشيش مهدئ للأعصاب ومجلب للنوم ومزيل للقلق، وقد استخدم لعلاج القلق؛ فيروي ابن سودون[٣٢] رواية عن شخص أصيب بالقلق يومًا، فتناول منه حفنة، فزال عنه القلق، وأقبل عليه النوم أفواجًا، علاوة على ذلك فإن الحشيش المخدر يقلل الإحساس بالألم كألم الأسنان والعظام وغيرها، وليس أدل على ذلك من أن استخدامه في البداية كان للعلاج لذلك سمي باسم (البنج)[٣٣]. وقيل أنها أي الحشيشة تحلل النفخ وتنفي الأبرية من الرأس عند غسله، والأبرية مرض يحدث بسطح الرأس وهي بثور بيض، والعلة في فعلها لذلك ما اشتملت عليه من الحرارة واليبس[٣٤].

وقد أجاز البعض التداوي بالحشيش بعد أن ثبت أنه ينفع في بعض الأدوية، كما أجازوا أكل الحشيشة عند قطع اليد المتأكلة وعند المخمصة[٣٥].

هذا ويكسب الحشيش آكله النشاط والسرور فيذكر ابن البيطار " أنهم يطربون عليه ويفرحون كثيرًا "[٣٦]. كما إنه يذهب الهموم الكثيفة وفي ذلك يقول الشاعر علي بن مكي:

تزيل لهيب الهم عنا بأكلها … وتهدي لنا الأفراح في السر والجهر[٣٧]

كما راح الجسر ـ المشهور بزراعة الحشيش ـ يعدد مزاياه مفاخرًا بها فيقول إنه " مفتاح الأفراح، ومصباح الأرواح، ينصر على الهم، ويكسر جيش الغم، ويجمع شمل الأحباب، ويغل حدة الشباب، ويشهي الطعام والشراب .. "[٣٨].

ولكن إذا كان للحشيش فوائد فإن مضاره تغلب فوائده، فقد نُقل عن بعض العلماء " أن في أكل الحشيشة مائة وعشرون مضرة دينية ودنيوية "[٣٩]. أما الأقفهسي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) فقال : " رأيت في كلام بعضهم مائة مضرة دينية ودنيوية "[٤٠] ثم عدد بعضها. ويمكن تقسيم هذه المضار إلى مضار خلقية وعقلية وجسمانية ومادية ودينية، وفي

ذلك يذكر ابن تيمية : " إنها مشتملة على ضر في دين المرء، وعقله وخلقه وطبعه أضعاف ما فيها من خير ولا خير فيها "[٤١].

أولاً : المضار الأخلاقية : وفيها يقول المقريزي : " ما بلى الناس بأفسد من هذه الشجرة لأخلاقهم، فهي تورث السفالة والرذالة، وأن من عاناها أي تعاطاها ينحط في سائر أخلاقه إلى ما لا يكاد أن يبقى له من الإنسانية شيء البتة "[٤٢]. وذكر القلقشندي[٤٣] " أنها تورث مساءة الأخلاق، وتحط من قدر متعاطيها عند الناس إلى غير ذلك من الصفات الذميمة المتكاثرة " علاوة على أنها تورث فساد الفكر .. وإفشاء السر، وإنشاء الشر، وإذهاب الحياء، وكثرة المراء، وعدم المروءة، وعدم الغيرة .." كما يروي الأقفهسي[٤٤]. أما ابن تيمية فيقول : " أن هذه الملعونة تورث قلة الغيرة، وزوال الحمية حتى يصير آكلها أما ديوثًا، وأما مأبونًا وأما كلاهما"[٤٥]. كما أنها تدع الشجاع جبان، كم من أسد أصبح بها مصادًا، وسائس أصبح منقادًا، ورئيس أضحى بها مرؤوسًا، وكريم غدا خسيسا.." كما يذكر صاحب المفاخرات[٤٦].

ثانيًا : المضار العقلية : أوضح ابن البيطار مضار الحشيش العقلية فقال : "وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم، وأدى بهم الحال إلى الجنون وربما قتل "[٤٧]. وقال في موضع آخر " ربما يسكرهم ويخرجون به إلى الجنون أو قريبًا منه "[٤٨]. أما ابن تيمية فذكر أن الحشيشة تورث الجنون، وكثير من الناس صار مجنونًا بسبب أكلها. وذكر في موضع آخر أنها " تفسد الأمزجة حتى جعلت خلقًا كثيرًا مجانين .. ومن لم يجن منها فقد أعطته نقص العقل، ولو صحا منها فإنه لابد وأن يكون في عقله خبل .. "[٤٩]. وهكذا فإن الحشيش يفسد العقل ويقوي الهوس، ويوضح ذلك رواية للمقريزي أوردها في حوادث عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م، وذكر فيها أن أحد متعاطي الحشيش اقتحم مجلس الأمير عز الدين الحلي نائب السلطنة بديار مصر ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة بدار العدل، فخرق الصفوف، وكان بيده قصة (شكوى) ووقف أمام الأمير عز الدين ووثب عليه بسكين أخرجها من تحت ثيابه وطعنه في حلقه، ثم حاول ضربه مرة أخرى، فأصابت سكينه الأمير صارم الدين المسعودي وكان من حضور هذا المجلس، فمات، فتكاتف عليه الجميع وانهالوا عليه بسيوفهم حتى

هلك. وكان هذا الشخص جندار به شعبة من جنون، وتعاطي أكل الحشيش فقوي جنه كما يروي المقريزي[٥٠].

ويصف ابن سودون حالة شخص أكل الحشيش، وبيّن تأثيره عليه وما أصابه من الهوس ومن هلاوس بصرية وسمعية، فذكر أن شخصًا أكل الحشيش، فأقبل عليه النوم أفواجًا، ولكن أصابه جوع لم يطق الصبر عليه، فخرج من المترل يلتمس ما يأكله، فإذا ببحر عجاج متلاطم الأمواج أرضه من الصابونية، وجوانبه من المأمونية، فسعى إليه ووقف عليه، وإذا ماؤه من القطر (العسل) المكرر، وأسماكه من الموز المقشر، على شاطئيه شباك من زلابية، فأخذ شبكة منها، وطرحها في البحر، فامتلأت سمكًا، ثم جذبها فلم يقدر على نزعها، فترع ثيابه ونزل إليها، وجعل تارة يأكل سمكة، وتارة قطعة من الشبكة، ولم يزل على ذلك سبعة أيام، ثم قذفه الموج في اليوم الثامن إلى جزيرة فيها جبال من كنايف، وأودية من قطايف، ثم سقط في بركة من ريم الليمون المالح، فسبح فيها يومًا وليلة فلما خلص منها ذهب إلى مترله[٥١]. ويقول النور الأسعردي في هذا المعنى :

وتفسد من ذهن النديم خياله   فينظر مبيض الصباح كأسود[٥٢]

تؤثر الحشيشة أيضًا على عقل آكلها، وتحدث خللاً في ذاكرته فينسى كثيرًا ويسهل التأثير عليه والإيحاء إليه، وفي ذلك يورد ابن سودون رواية على لسان أبي غيدشة الزلابياني: قال : " لما نزل بي الشيب زوجتني أمي بامرأة كانت أبعد مني سنًا إلا إنها أكبر مني عقلاً، فلما دخلت بها أطعمتني شيئًا (حشيشة) وقالت : كل هذا تر منه عجبًا فأكلته، فرأيت من عجبه إنه زادني عقلاً، على إنه لم يمض من الدخول سوى يومين، وإذ بها قد ولدت، فانكرت ذلك منها فقالت : لا تنكر، فإن الذي أطعمتك إياه من المدد إنك تأتي في كل يوم بولد، فرجعت عن الإنكار وشرعت لها في الاستغفار "[٥٣].

ويتابع ابن سودون فيذكر أن ذات الزوجة طلبت من زوجها طعامًا حارًا، فأخذ الصحفة وذهب إلى السوق دون أن يأخذ المكبة (أي غطاء الصحفة)، فرجع ليأخذها، فنسي الصحفة، وكرر ذلك مرارًا حتى غروب الشمس، ثم قال في نفسه : والله لا أشتري لها شيئًا، وأدعها تموت جوعًا، ثم رجع إلى البيت فوجدها قد ماتت .. فمضى ليحضر لها الكفن،

فضل طريق العودة إلى المترل، ويعلق على ذلك بقوله : " وها أنا في طلبه إلى يومنا هـذا " كما يروي ابن سودون[٥٤].

ولله در القائل :

قيمـة العقـل جـوهر فلمـاذا　　　يا سفيها قـد بعتـه بحشيشـة[٥٥]

ثالثًا : المضار الجسمانية : عدّد الأقفهسي[٥٦] مضار الحشيش الجسمانية فذكر أنهـا " تجفف الرطوبات، وتعرض البدن لحدوث الأمراض، وتصدع الرأس، وتقطع المني وتجففـه، وتورث موت الفجاءة .. تقطع النسل وتورث الجذام، وتورث البرص، وتجلب الأسـقام، وتكسب الرعشة ... وتسقط شعر الأجفان، وتحرق الدم، وتحفر الأسنان، وتظهـر الـداء الخفي، وتضر الأحشاء وتفتر الأعضاء، وتضيق النفس .. وتنقص القوى، تصفر الألـوان، وتسود الأسنان، وتثقب الكبد، وتورث العين الغشاء، وقلة النظر .. تجعل الصحيح عليلاً إن أكل لا يشبع وأن أُعطى لا يقنع، وإن كُلم لا يسمع، تجعل الفصـيح أبكمـا والصـحيح أبلما... ".

أما الأطباء ومنهم محمد بن زكريا الرازي فقد ذكر في كتابه الموسوم بالفاخر أن أكـل ورق الشهدانج البستاني يصدع الرأس، ويقطع المني ويجففه[٥٧].

وأجمل الشاعر شمس الدين محمد بن علي التلمسـاني (ت ٦٨٨هـ/١٢٨٩م) تـأثير الحشيشة على جسد الشخص الذي يأكلها فقال :

ما للحشيشة فضل عند آكلـها　　　لكنه غـير مصـروف إلى رشـده
صفراء في وجهه خضـراء في فمـه　　　حمراء في عينه سوداء في كبده[٥٨]

ويقول النور الأسعردي في تأثير الحشيش على الأبدان :

ويبدو على خديه مثـل اخضـرارها　　　فيضحى بوجه مظلم اللون أربـد[٥٩]

وأما ابن سودون البشبغاوي فيقول موضحًا أثرها على العين والأبصار :

بلعت يومًا بندقة في لونهــا خضــرة   رأيت بياض عيني قد صارت عليه حمرة[٦٠]

ويقول في موضع آخر :

إنها يا ناس أسرار   سرها يظهر في الأبصار   أهلها في كل الأعصار

لا يزلـــــــــوا فرحين[٦١]

رابعًا : المضار الدينية : وهي كثيرة ومتعددة، فيذكر أبو بكر القسطلاني "أنها تحول بين الشخص وبين .. الصوم والصلاة والعلم بالحركات والسكنات ... والعبد في الآخرة عــن ذلك مسئول، ومن قصر فيما وجهه الله عليه، فليس له في الآخرة محصــول "[٦٢]. وذكــر القسطلاني في موضع آخر : " إنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، فالذكر يكون أما بالقلب أو باللسان، وكلاهما إنما يقع مع صحة الذهن وسلامة العقل، وذلك إنما يقع بسلامة المحــل وهو القلب والدماغ كما قال تعالى في ذلك : [إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْــبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ]. وأما إنها تصد عن الصلاة وذلك لأن الصلاة حركات وسكنات متعلقة بشروط وأركان وهيئات وحضور قلب في مناجاة الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الفكر مشغولاً شغلاً اضطرارًا فكيف يتأتى منه القيام بهذه الأمور المطلوبة منه. ومن ثم فإن الحشيشة تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ... "[٦٣].

وأكد ابن تيمية ما ذهب إليه القسطلاني فذكر " إن آكلوها ينشون عنها ويشتهونها ... وتصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة إذا أكثروا منها "[٦٤]. وذكر في موضــع آخــر " إن كثيرها يسكر حتى يصد عن ذكر الله وعن الصلاة[٦٥].

أما الزركشي والأقفهسي فقد ذكرا في ضررها في الدين أنها " تورث نسيان الــذكر .. ومجالسة إبليس، وترك الصلوات، والوقوع في المحرمات "[٦٦].

ويقول القاضي عبدالوهاب في ذلك :

ســـلبتهم أديـــانهم وعقـــولهم   أرأيـــت عـــادم دينـــه مغتمـــا[٦٧]

هذا فضلاً عن المضار المادية فإلى جانب أنها مذهبة للأديان كما يذكر الزركشي فهي مذهبة للأموال كذلك وفي ذلك يقول : " أما الحشيشة ... المفسدة للعقول والأبدان المذهبة للأموال والأديان ... "[٦٨]. وعبر الأقفهسي عن مضارها المادية بقوله أنه يترتب عليها " إتلاف الكيس "[٦٩]. علاوة على نظرة الدولة والمجتمع إلى متعاطي الحشيش التي عبر عنها القسطلاني بقوله : " إزدراء متعاطيها واحتقاره في أعين النظار وارتداء آكلها برداء الخسار عند الأتقياء الأبرار .. والتوقع لسخط الجبار، والتطلع للإهانة من ولاة الأمصار، والتتبع لأثار الفسقة والفجار ... "[٧٠]. كما أنها تورث مهانة آكلها كما يذكر ابن تيمية[٧١].

ونظرًا لكثرة مضار الحشيش فقد وجه بعض المؤرخين والشعراء نداءات وتحذيرات ونصائح بالبعد عنه والخلاص منه، فينصح المقريزي آكليها بقوله : "فانظر كلام العارف فيها، واحذر من إفساد بشريتك وتلاف أخلاقك باستعمالها"[٧٢].

ويوجه ابن سودون البشبغاوي دعوة للخلاص من الحشيش فيقول :

يا قاتلا لحشيشة قتلته يا ... مشكاح أنت القاتل المقتول
إن شئتها تحييك أحسن قتلها ... واستكثرن فلا يفيد قليل
مهما انسطلت بها فعيشك طيب ... كم عاش فيها بالهنا مسطول[٧٣]

ويقدم الأطباء المتخصصون في معرفة هذا النبات طرقًا عدة لإبطال مفعوله والخلاص من تأثيره، فينصح الأطباء ومنهم يحيى بن ماسويه في كتابه " تدبير أبدان الأصحاء "، بأن الإنسان إذا أراد التخلص من تأثير أكل الحشيشة أو تعاطيها، وأحب أن يفارقه فعلها قطر في منخريه شيئًا من الزيت، وأكل من اللبن الحامض، كذلك مما يكسر قوة فعلها ويضعفه السباحة في الماء الجاري والنوم كذلك يبطله[٧٤]. أما ابن البيطار فيذكر أن الإنسان إذا خيف من الإكثار منه فليبادر بالقيء بسمن وماء ساخن، حتى تنقى منه المعدة، مع شرب الحامض أو الحماض فهو في غاية النفع له[٧٥].

دخول الحشيش مصر وانتشاره في العصر المملوكي :

عرفت مصر الحشيش كمادة مخدرة تستخدم في العلاج منذ عهد الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٥٠-٩٠٢م) ولكن عرف أولاً باسم البنج ثم باسم الحشيشة، وهناك روايتان تؤكد صحة ذلك، الأولى رواية ابن يوسف الكاتب ــ وهو صاحب كتاب المكافأة ــ وأحد كتاب الدولة الطولونية، وقد جاء فيها على لسانه : كنت أعرف شيخًا في أيام خماروية، حلو النادرة، مليح الألفاظ يعرف بالدفاني، وكان يتعاش من توصيل كتب الولاة إلى معامليهم (أي عمالهم) فخرج ذات مرة إلى الشرقية، فالتقى مع رجل من الأطباء، فسأله الطبيب عن صناعته، فقال له : إنه يتاجر في الغلات، فطمع فيه، ودعاه للطعام بأن أخرج رغيفين من خرجيه مشطورين، فقدم له واحد ووضع الآخر بين يديه، ثم ذهب لإحضار الماء، فما كان من الدفاني إلا أن استبدل رغيفه برغيف الطبيب، فلما أكل الطبيب شخص بصره وتمدد، ومر به جماعة فقالوا له : ما لصاحبك، قال لا أدري، فقال له : أنت مُبنج بنجت هذا المسكين، ويروي في النهاية أنه بتفتيش خُرج الطبيب وجدوا فيه شطاير تبنيج وشطاير خالية، وأوتارًا للخنق، فخنقوه بتلك الأوتار حتى مات[٧٦].

أما الرواية الثانية فهي عن ابن زولاق إذ يذكر : " كان القاضي أبو زُرعة[٧٧] يَرقى من وجع الضرس يقرأ عليه، ويدفع إلى صاحبه حشيشة فيسكن "، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على استخدام الحشيش في تلك الأونة لمجرد التبنيج وعلاج الأسنان وتخفيف ألمها[٧٨].

ويلاحظ أن الروايتين كانتا في عصر خماوريه، مما يشير إلى أنه شاع استخدام الحشيش في عصره للتبنيج والتخدير وكعلاج لبعض الآلام مثل آلام الأسنان كمادة طبية وليس لبعث النشوة والسرور.

ظل الحشيش يستخدم كعقار طبي في مصر في العصرين الأخشيدي والفاطمي وعلى نطاق ضيق، فقد اعتقد الناس أنه يخفف الآلام الناتجة عن أمراض العظام والأسنان[٧٩].

أما في العصر الأيوبي فشاع أكل الحشيش بين فئات العامة في المجتمع المصري ليس بغرض التطبب كما كان في العصور السابقة بل بغرض النشوة والسرور الطرب. ويحدد ابن تيمية

تاريخًا لظهور الحشيش واستعماله في العالم الإسلامي بغرض النشوة والسرور فيـذكر : " إن أول ما بلغنا إنها ظهرت بين المسلمين أواخر المائة السادسة وأوائل المائة السـابعة، حيـث ظهرت دولة التتر، وكان ظهورها مع ظهور جنكسخان "[٨٠]. وذكر في موضع آخر " وإنما حدثت في الناس بحدوث التتار "[٨١]. وفي موضع ثالث يؤكد ذلك بقوله " وإنمـا ظهـر في الناس أكلها قريبًا من نحو ظهور التتار، فإنها خرجت، وخرج معها سيف التتار "[٨٢].

يتضح من عبارات ابن تيمية أنه أرجع ظهور الحشيش في العالم الإسلامي إلى أواخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة، وأن التتار هم الذين أظهروه في العالم الإسلامي، ونقلـوه إلى بلاد العراق والشام، ثم انتقل إلى مصر. وقيل إنه انتقل إلى مصر من خراسان وبلاد العراق إذ نسب إظهار أكله إلى الشيخ حيدر الخراساني شيخ شيوخ الصوفية في خراسان[٨٣]. وقيل إنه وصل إلى مصر عن طريق بلاد الهند، ثم بلاد اليمن في عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠م خاصـة وقد نسب إظهاره كذلك إلى أهل الهند على بن مكي في أبيات أنشدها منها :

بهنديـة أصـل إظهـار أكلـها	إلى الناس لا هندية اللون كالسـمر[٨٤]
تزيـل هيـب الهـم عنـا بأكلـها	وتهدي لنا الأفراح في السر والجهر[٨٥]

تؤكد هذه الأبيات على معرفة الحشيش في ذلك الحين كمادة تجلب الفـرح والسـرور والنشوة، لأن الحشيش كان قد سبق وعرفته مصر كمادة مخدرة قبل التاريخ الذي حـدده ابن تيمية.

شاع تعاطي الحشيش في العصر الأيوبي بين بعض فئات المجتمع المصري وذلـك لعـدم وجود عقاب رادع لباعته وآكليه، فكانت الدولة تكتفي بمنع زراعة الحشيش، وجمعه مـن باعته ومتعاطيه وتقوم بحرقه مثلما فعل السلطان الصـالح نجـم الـدين أيـوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) فقد أمر الأمير جمال الدين بن يغمور بأن يمنع زراعة الحشيش في البستان الكافوري[٨٦]، ومع ذلك دخل هـذا البسـتان في ربيـع الأول مـن عـام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م فرأى فيه شيئًا كثيرًا منه، فأمر بأن يجمع ويحرق[٨٧]. وأنشد الأديـب شرف الدين أبو العباس يوسف في هذه الواقعة قصيدة طويلة ينعي فيها نبات الحشيش قائلاً:

زفوا لها نارًا فخلتها جنة | برزت لنا قد زوجت بالنور
ثم اكتست منها غلالة صفرة | في خضرة مقرونة بزفير
فكأنها لهب اللظى في خضرة | منها وطرف رمادها المنثور(٨٨)

ويقول أيضًا حزينًا آسفًا على إحراق الحشيش في البستان الكافوري :

لله درك حية أو ميتة | من منظر بهيج بغير نظير
أو ذيت غير ذميمة فسقى الحيا | تربًا تضمن منك ذوب عبير
عندي لذكرك ما بقيت مخلدًا | سح الدموع ونفثة المصدور(٨٩)

ما لبث أن شاع تعاطي الحشيش في مجتمع مصر المملوكية وإن كان بدرجات متفاوتة، حقيقة تعاطه الخاصة والعامة، ولكنه كان نادر الاستخدام بين السلاطين والأمراء والولاة والقضاة والعلماء، في حين تفشى بين الشعراء والأدباء، وفاق الحد بين الصوفية والعامة.

أما عن تعاطي السلاطين الحشيش، فعلى الرغم من أن المصادر أفاضت في ذكر العديد من أسماء السلاطين الذين احتثوا الخمر، إلا إنها لم تشر من قريب أو من بعيد إلى أن عددًا منهم قد أكل الحشيش وتعاطه، بل اكتفت بذكر أن بعضهم كان يتعاطى الخمور والمسطلات(٩٠). اللهم إلا ابن إياس الذي أشار في ترجمة للسلطان المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م) إلى أن غالب المؤرخين أثنوا عليه إلا الشيخ تقي الدين المقريزي، فإنه حط عليه بمساوئ كثيرة منها ... إنه كان يتجاهر بالمعاصي، وأكل الحشيش المستقطر .."(٩١). وبالرجوع إلى المقريزي اتضح أنه ذكر في كتابه السلوك في حوادث عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م وهو العام الذي توفي فيه المؤيد شيخ ذكر " إنه كان يتظاهر بأنواع المنكرات، فحاشًا، سبابًا .. "(٩٢) دون أن يذكر أنه أكل الحشيش كما أورد ابن إياس، ولعل ابن إياس قد عثر على ترجمة المؤيد في كتاب المقريزي، المقفى الكبير وهي مفقودة كما أشار من قام بطبع هذا الكتاب(٩٣). على أية حال فنادرًا ما توجد إشارة حول تعاطي السلاطين الحشيش، على عكس الأمراء المماليك الذين ولعوا بأكله فتناولوه أمام

الناس بلا تستر، ودرج عدد منهم على الترول ليلاً إلى بولاق ومنهم من كان يرتـــاد أرض الطبالة وبركة الرطلي والجسر وباب اللوق وغيرها مـــن الأمـــاكن الـــتي ينتشـــر فيهـــا الحشيش[٩٤].

كان من بين هؤلاء الأمراء من شغل مناصب مهمة في الدولة كمنصب الـــوالي، ومـــن هؤلاء الأمير التاج الشوبكي الدمشقي[٩٥] الذي استقر في سلطنه المؤيد شيخ (والي حرب) ثم ولاه أستادارية الصحبة وحسبة القاهرة وغيرها، وكان نديمه ومضـــحكه، وممـــن أكـــل الحشيش، وارتكب المحرمات إذ يذكر الصيرفي " أن عيونه من الحشيش كأنهما قطعتا بلخش خاص من شدة حمرقم " وذكر أيضًا أنه ارتكب الرذائل والقبائح حتى صار عارًا على جميع بني آدم[٩٦]. ولعل عبارات الصيرفي هذه تؤكد ما ذكره ابن إياس على لسان المقريزي مـــن أن المؤيد شيخ قد أكل الحشيش المستقطر، ما دام نديمه ومضحكه قد فعلها.

لم يسلم من هذا الداء حملة العلم والدين من العلماء والقضاة إذ فسدت نفوس بعضهم، ومرضت قلوبهم، وهم القدوة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر، وشـــغف بعضـــهم بالحشيش كثيرًا. فمن العلماء الذين دأبوا على أكل الحشيش العالم ابن الصاحب وهو الشيخ علم الدين أحمد ابن الصاحب صفي الدين يوسف بن عبدالله بن شكر[٩٧]، الـــذي درسَّ في بعض المدارس، وكانت له وجاهة ورياسة، ولكنه ترك كل ذلك وأقبل على الحرفشة، وأكل الحشيش واستعمل حشيشة الفقراء، وكان مما أغرموا به، وكان يرى أنه لا معنى لمن دعا إلى تحريمها لأن ذلك تجن إذ ليس هناك نص قرآني يحرمها صراحة، ويقول في ذلك :

في خمار الحشيش معـــنى مَرامـــي ... يـــا أهـــل العقـــول والأفهـــام
حرمُّوها مـــن غـــير عقـــل ونقـــل ... وحـــرامُ تحـــريمُ غـــير الحـــرام[٩٨]

كما أنه لم يجد غضاضة من تناولها إذا عزت الخمر، فالقصد عنده هو اللهو والتصابي على مدى الأيام، ومن الطبيعي أن تنفد واحدة منهما بصورة أو بأخرى وفي ذلك يقول :

يـــا نفـــسُ ميلـــي إلى التصـــابي ... فاللـــهو منـــه الفـــتى يعـــيشُ
ولا تملـــي مـــن شُـــكر يـــوم ... إن أعـــوذ الخمـــرُ فالحشـــيش[٩٩]

وله أيضًا :

جمعت بين الحشيش والخمر فرحتُ لا أهتدي من السُّكر
يا من يريني باب مدرستي يربح والله غاية الأجر[١٠٠]

وكان أحمد بن إبراهيم بن أحمد الإمام نجم الدين ابن الشيخ عماد الدين ابن القاضي نجم الدين (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م) ممن أكل الحشيش، وسبب له انحراف، وساء منه مزاجه، فكان يقف في الطرقات وينشد أشياء مفيدة، ويحكي أشياء قديمة وجديدة ويخالط الجد بالهزل، ثم يثوب إليه عقله ثم يعود لحالته وذلك بسبب تعاطيه الحشيش كما يذكر ابن حجر[١٠١].

اتهم كذلك الشيخ محمد بن محمود الصوفي (ت ٨٢٢هـ/١٤١٩م) وكان أحد طلبة الحنفية وفضلائهم، اتهم بأكل الحشيشة[١٠٢]. هذا في حين أن هناك من الأئمة العلماء من ذم الحشيشة ومن هؤلاء الشيخ الإمام العالم العارف محي الدين أبو بكر محمد بن الحسن الأنصاري الشاطبي يقول :

شر سكر سكر الحشيشة والسكر حرام بنص خير الأنام
يفسد العقل والمزاج جميعا بفنون الجنون والاستقام

ويقول أيضًا :

صدق القائلون بالحل فيها هي حل لكن على الإنعام[١٠٣]

أكل بعض القضاة الحشيش، وشغفوا به فقد ضبط أحد القضاة متلبسًا بأكل الحشيش في فمه، وهو القاضي حسام الدين الغوري، ضبطه بواب المدرسة الصالحية سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م على عهد السلطان كجك بن الناصر محمد - ضبطه يتناولها، ففضحه، وجمع عليه الناس، فنهبوا موجوده، وأهين ضربًا، ونتفوا لحيته حتى أجاره قاضي القضاة موفق الدين الحنبلي في بيته[١٠٤].

أما عن الشعراء في العصر المملوكي فانتشر تعاطي الحشيش بينهم وإن لم يتفقوا فيما بينهم حول أهمية الحشيشة وقيمتها، منهم من آثرها على الخمر ومنهم من ذمها، ومنهم من ساوى بينهما، ومنهم من فضلها على الخمر، وأظهر مزاياها، ثم عاد وفضل الخمر عليها، وليس هناك من مقياس إلا المزاج[١٠٥].

استند مؤثرو الحشيشة على الخمر من الشعراء إلى لونها الأخضر، وتنامي فعلها في صاحبها أكثر مما تفعله الخمر، فلا احتراق في الاحشاء، ولا عوارض صحية لاحقة .. إن هي إلا خدر نفسي يشعر معه آكلها بنعيم الفردوس وهو في الدنيا[١٠٦]. وفي ذلك يقول شرف الدين محمد بن يوسف الزرعي المعروف بابن الوحيد :

وخضراء ما الحمراء تفعل فعلها ... لها وثباتٌ في الحشى وثباتُ
توجج نارًا في الحشى وهي جنة ... وتُروى مريرَ الطعم وهي نباتُ[١٠٧]

ومن الشعراء الذين مدحوا الحشيشة كذلك محمد بن الأعمى الدمشقي الذي قال فيها :

هي البكر لم تنكح بماء سحابة ... ولا عصرت يومًا برجل ولا يد
ولا عبث القسيس يومًا بكأسها ... ولا قربوا من دنّها كل مقعد[١٠٨]

ويعد الشاعر إبراهيم بن المعمار[١٠٩] من أشهر من تغنوا بالحشيش وترنموا به في نظمهم في مصر في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وحاول من خلال أشعاره إظهار مزايا الحشيش[١١٠].

أما الذين ذموا الحشيشة فقد نظروا إلى الجانب الآخر من فعلها وتأثيرها، فهي خضراء اللون لكن شاربها يصاب بالهزل والاصفرار، لأنها تنسيه حياته ونشاطه وطعامه وغذاءه. لذلك يصبح سقيم الجسم، فاقد الرشد، ومن هؤلاء الشاب الظريف شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني (ت٦٨٨هـ/١٢٨٩م) قال في ذم الحشيش :

ما للحشيشة فضل عند آكلها ... لكنه غير مصروف إلى رَشَده
صفراءُ في وجه خضراءُ في فمه ... حمراءُ في عينه سوداء في كبده[١١١]

ومن الشعراء من أحسن بخطورة الحشيش، وراح يوصف أضراره ومن هؤلاء المتقن فتح الدين أحمد بن الثقفي (ت ٧٠١هـ/١٣٠١م) قال :

محـــا الله الحشـــيش وآكليهـــا — لقد خبثت كمـا طـاب السلاف
كما تصبي كـذا تضني وتشقى — لآكلـــها وغايتـــها انحـــراف
وأصـــغر دائهـــا والـــداء جـم — بغـــاء أو جنـــون أو نشـــاف(١١٢)

أما هارون بن موسى ابن المصلي الأرمنتي(١١٣) فقال مدحًا للخمر وذمًا للحشيش :

لـــيس في الأرض نبـــات انبتـــت — فيـــه ســـر حـــيرَّ العقـــل ســـواها
راحت الخضـــراء تحكـــي سُـــكرها — قتلوهـــا بعـــد تقطيـــع قفاهـــا(١١٤)

أما الذين فضلوا الحشيش أولاً على الخمر وأظهروا مزاياه، ثم عادوا وفضلوا الخمر عليه فيمثلهم النور الأسعردي (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)(١١٥) الذي قال أولاً مفضـــلاً حشيشـــة الفقراء :

رياضية يحكي الجنـــان اخضـــرارها — وخمـــرهم كالمـــارج المتوقـــد
مـــدامهمُ تـــنس المعـــاني وهـــذه — تذكر أسرار الجمـــال الموحـــد(١١٦)

ويقول كذلك :

ولا داسها العُصار عمدًا ودنس الـــ — دنان بمختـــوم مـــن القـــار أســـود
ولا تتعـــب الأبـــدان عنـــد نزالهـــا — وفي القـــئ إذ تبـــدو كـــزق ممـــدد
ولا تستخف الناس عقلـــك بينـــهم — لعمري ولا تدعي لديهم بمفسد(١١٧)

ويقول أيضًا في مزاياها :

وتأمن كبســـات الحمـــاة وكيـــدهم — وتسلم من جور الولاة ولا تدي(١١٨)

وأخيرًا يقول :

فلا تسـمع فيهـا مقالـة عـاذلٍ يصدك عنها واعص كل مفنـد[١١٩]

ثم يعود ذات الشاعر النور الأسعردي ويفضل الخمر على الحشيش فيقول :

أترضى بـأن تمسـى شـبيه بهيمـة بأكل حشيش يـابس غـير أرغـد
فدع رأي قوم كالـدواب ولا تُـدر سوى درةٍ كالكواكب المتوقـد[١٢٠]

ويقول أيضًا :

وخمرتنـا تكسـو الـذليل مهابـة وعزًا فتلقـى دونـه كـلّ سـيد

ويقول كذلك :

وفيها على رغم الحشـيش منـافع فقُـل في معانيهـا وصـفها وعـدد
وفي غيرهـا للنـاس كـل مضـرة فحدث بكل السوء عن وصفها الردي
وحقك مـا ذاق الحشـيش خليفـة ولا ملك فـاق الأنـام بسـؤدد[١٢١]

حاكى أدباء العصر المملوكي شعرائه في تعاطي الحشيش وفي الكتابة عنه بغرض إيضـاح مزاياه وتفضيله على الخمر، وقد غلب على بعضهم أكله ومن هؤلاء أحمد بن محمد بـن أبي بكر بن مكي بن مسلم المصري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) قال عنه ابـن حجـر : " تعـاني الآداب فمهر فيها، وجمع مجاميع كثيرة يقتصر فيها على المقطعات ... ويُصـيف غالبًـا في الشام ويشتي بمصر، إلا أنه غلب عليه محبة الحشيشة وهي محنة خسيسة "[١٢٢].

ويُعد ابن سودون البشبغاوي[١٢٣] (ت ٨٦٨هـ/١٤٦٣م) من بين الأدباء الذين أكلوا الحشيش إذ يورد في ديوانه نزهة النفوس ما يؤكد ذلك، وكان قد اعتاد الذهاب إلى بولاق والأماكن المجاورة لها وهي أماكن اشتهرت بالمجون والخلاعة وأكل الحشيش وفي ذلك يقول :

تجاور[١٢٤] بسطة فيها انبساطي ينادي بالخلاعة والمجون
عليها طاب عيش بني خضير إذا برزت لبدوهم الكمين
لقد أفسدت يا بولاق عقلي وكم قد كان أهلي أصلحوني[١٢٥]

ويقول أيضًا دلالة على استمراره في أكل الحشيش :

يا من إلى البسط بعد الكودنا قد مال قم رح لقصف أبو خالع بلا إهمال
زقزق على بندقه حتى يطير المال وايش ما انصرف جددو دولاب حشيش عملال[١٢٦]

ويقصد ابن سودون بذلك استمراره في تعاطي الحشيش مثلما يتوالى تحويل الماء بالدولاب. ويقول كذلك :

يا من أحسن البحر الواحد حداه مسطول قاعد على جنب شختوره عليه دلول
حداه عُشبو قُشيطة فوقها عسلول يقتل حشيشو ويبلع ينقلب مقتول[١٢٧]

فاق الصوفية الشعراء شغفًا بالحشيش، وتفشي أكله بينهم وشاع وانتشر، حتى نسب إليهم، وأصبح يعرف باسم " حشيشة الفقراء "[١٢٨]. وزعم بعضهم أن الحشيشة " لقيمة الذكر والفكر "[١٢٩]. وسار عادة سيئة لديهم مما دفع بعض الشعراء ومنهم ابن قزل (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) إلى انتقادهم خاصة وقد تعللوا بأنها تساعدهم على الوجد وبلوغ رتبة الجذب، قال ابن قزل :

أرى فقراءنا من كل علم ومن دين دوابًا في ثياب
يراعون الحشيشة حيث كانت وهل يرعى الحشيش سوى الدواب؟[١٣٠]

عدَّد المقريزي الأسباب التي دفعت الصوفية إلى الإقبال على أكل الحشيش بل والترويج له ومنها : ما يجدون فيه من اللذة، كما إنه يجفف المنى، ويقطع شهوة الجماع، ولكي لا تميل نفوسهم إلى ما يوقع في الزنا[١٣١]. كذلك أجمل أحد الصوفية وهو حيدر الخراساني منافع

أكل الحشيش،و شجع على أكل الصوفية إياه، فهو يذهب بآكله الهموم الكثيفة، ويجلو بفعله الأفكار الشريفة، ويكسب آكله نشاطًا وسرورًا[١٣٢]. لذلك أقبل الصوفية على أكل الحشيش وانتشر بينهم في العصر المملوكي حتى ربط البعض بين فشو الحشيش وانتشار التصوف فقالوا : أن الظاهرتين سارتا في مصر جنبًا إلى جنب[١٣٣].

لمعت بين أسماء الصوفية ممن اشتهروا بأكل الحشيش ـ في المصادر ومن أبرز هؤلاء أحد مشايخ الصوفية ويدعي المجاهد إبراهيم القطان، وقد استتابه ابن تيمية في عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات[١٣٤]. وكذلك أحمد الوريس الاقباعي كان من الصوفية الذين استحلوا المحارم، وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة ولذلك قتل في عام ٧١٥هـ/١٣١٥م[١٣٥]. فضلاً عن الشيخ شمس الدين الميموني الذي أباح لنفسه اللواط والخمر والحشيش، ولذلك تم اعتقاله، واحضر إلى مجلس السلطان وفيه ابن حجر، فأفتى بأن في عقله خللا[١٣٦].

والحقيقة أن هؤلاء ليسوا بالصوفية، ولكنهم جماعة تشبهوا بهم، وتزيوا بزيهم، لينتسبوا إليهم، وقد اتخذوا من التصوف وسيلة للحصول بها على الدنيا، وقد وصفهم السبكي بأنهم " آكلة ـ بطلة ـ سطلة لا شغل ولا مشغلة " كما أنهم اتخذوا من الخوانق أي بيوت الصوفية ذريعة للباس الزور، وأكل الحشيش، والانهماك على حطام الدنيا[١٣٧].

أما ابن سعيد المغربي الذي زار مصر فيذكر أن الفقير (أي الصوفي) له نفس يحكم فيها كيف شاء من رقص في وسط السوق أو تجريد أو سُكر من حشيشة .. إذ ما أشبه ذلك[١٣٨].

ويقول الشاعر ابن الصائغ (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) في تأثير الحشيش على فقراء الصوفية :

يغدو الفقير إذا تناول درهما ... منها له تيه على الأمراء
وتراه من أقوى الورى فإذا خلا ... منها عددناه من الضعفاء[١٣٩]

ومن ثم فقط نظر إليهم السبكي على أنهم " ليسوا من الصوفية الحقة، ولا يستحقون وقف الصوفية، وإن كل ما يأكلونه منه حرام "[١٤٠].

وقد ساعد على تغيير حال الصوفية تدفق مجموعات من الدراويش أو المجاذيب إلى مصر وانضمامهم إلى الصوفية، ومن هؤلاء الحيدرية والقلندرية وكلاهما من العجم، وهم من الذين ابتدعوا أكل الحشيش. أما عن الحيدرية فينسبون إلى الشيخ قطب الدين حيدر[١٤١]، الذي ولد بنشاور من بلاد خراسان، وكان صوفيًا، وهو الذي اكتشف سر نبات الحشيش، وأوصى تلاميذه بألا يخفوه على الفقراء أي الصوفية، كذلك أوصاهم بأن يطلعوا ظرفاء خراسان وكبراءهم على هذا العقار وسره، فاستعملوه في خراسان، وانتقل منها إلى مصر والشام كما سبق أن ذكرنا.

بدأت طوائف الحيدرية تتوافد على مصر منذ عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وفي سلطنة عز الدين أيبك، وأقامت بمصر، وحازت رعاية بعض سلاطين المماليك وأمرائهم، ومن هؤلاء الأمير برقوق العثماني فقبل أن يصبح سلطانًا على العرش، أمر في عام ٧٨١هـ/١٣٧٩م ببناء زاوية للشيخ حاجي رجب الشيرازي الحيدري، وكان هذا الشيخ قد منح لقب " خادم الفقراء "[١٤٢].

أما عن القلندرية فقد توافدوا على مصر كذلك، وسلكوا طريق التسول والشحاذة، وكانوا يحلقون لحاهم وحواجبهم وشواربهم وشعورهم، وكانوا يرتدون دوالق صوفية طويلة بسيطة[١٤٣]. ويشير إليهم ابن جابر البغدادي في هذا الزجل :

لابد تظهر بين الناس   قلندري محلوق الراس
تلبس عوض دا الكتان   وحلتك من صوف الخرفان

أو دلق أو تصبح عريان[١٤٤]

وحقيقة هؤلاء كما يروي المقريزي إنهم " قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات،وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من اللذات المباحة ... ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا، وزعموا أنهم قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك ... "[١٤٥].

علاوة على إنهم أسرفوا في أكل الحشيش وفي ذلك يقول ابن جابر البغدادي:

تغـــدو تـــدور مـــع أجنـــاس   محلقـــين الـــروس أكيـــاس
مـــا يعرفـــوا إلا الخضـــرة   والبنـــك لا شـــرب الخمـــرة

مثقالهـــا بالفـــي جـــرة

وعنـــدهم منـــها أكيـــاس   دانـــق يقـــاوم ســـبعين كـــاس
مـــن قبـــل مـــا تغـــدو مســـطول   قمـــتم في أمـــر المـــأكول

وتطلـــــع الســـــوق بالكشكـــــول(١٤٦)

وكان للقلندرية زاويتان بمصر أحدهما بدمياط وهي زاوية الشيخ جمال الدين الساوي، قدوة القلندرية، ويقال أنه كان يدرس في مستهل حياته في خانقاة بالعراق، ثم التقى بزاهد جوال، ومارس على أثر ذلك حياة الزهد والتقشف، وسقط شعره وتزي بزي الأسد، بحيث جعل نفسه ميتًا في الدنيا والآخرة، وظل حتى وفاته في دمياط سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢ يحيا حياة الزهد المتطرف(١٤٧). وقد زار ابن بطوطة زاوية الشيخ جمال الدين الساوي هذه، وكان يسكنها أثناء زيارته الشيخ فتح التكروري(١٤٨).

أما عن زاوية القلندرية الثانية فكانت بالقاهرة خارج باب النصر، أنشأها الشيخ حسن الجوالقي القلندري(١٤٩)، أحد فقراء العجم القلندرية، ولما قدم إلى مصر، تقدم في دولة زين الدين كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م) وتقدم عند سائر أمراء الدولة، وأقبلوا عليه واعتقدوه وأثرى ثراء زائدًا في دولة كتبغا وصحبه إلى بلاد الشام(١٥٠).

ظلت هذه الزاوية منزلاً لطائفة القلندرية، ولهم بها شيخ، وفيها منهم عدد موفور ــ كما يذكر المقريزي(١٥١) ــ وقام السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد ابن قلاوون بزيارتها في عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م، وأمر صوفيتها بترك زي الأعاجم والمجوس والتزي بزي المسلمين، وأنكر عليهم حلق لحاهم واستتابهم، ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله : " إنه كان من اللائق أن يؤمروا بترك أكل الحشيشة الخسيسة، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسُكرها، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء "(١٥٢). يتضح من عبارات ابن كثير أن ظاهرة أكل الحشيش قد فشت بين القلندرية وانتشرت بشكل زائد لدرجة كانت تتطلب إقامة الحد عليهم بأكلها كما أفتى

بذلك بعض فقهاء العصر، ولا عجب في ذلك فقد أقبلوا على أكل الحشيش منذ أن عرفوا سره، وذاقوا به لذة الكسل، وهربوا من نصب العمل، واستغنوا به عن الخمر، وأكلوه في الأسواق والمشاهد، وهاموا في طلب الرقص والمشاهد كما يذكر ابن دانيال في بابته طيف الخيال[١٥٣].

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنه كان للقلندرية جامع بقوص، قام ببنائه الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م) قبل موته، وكان القلندرية يتقابلون في هذا الجامع سويًا في شهر رمضان، لكي ينالوا نصيبهم من الخراف الطازجة والتوابل والخبز[١٥٤].

ومع تدفق جماعات الدراويش من الحيدرية والقلندرية على كافة أرجاء مصر، والعيش وسط أهلها والتفاعل معهم، أشاعوا في أوساط الناس بعض عاداتهم وممارساتهم الذميمة خاصة في العصر المملوكي الثاني، ومن هذه العادات أكل الحشيش، فانتشر بين العامة وروج له الصوفية الفقراء بدعوى أنه يزيل الهموم ويدخل الفرح والسرور على قلب الإنسان، وما أحوج العامة إلى ما يخفف عنهم ويزيل همومهم، لذلك شاع بينهم وفي ذلك يذكر القلقشندي : " أن الحشيشة يأكلها سفلة الناس وأراذلهم ". أما المقريزي فذكر " لقد عهدناها (أي حشيشة الفقراء) وما يرمي بتعاطيها إلا أراذل الناس، ومع ذلك فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة "[١٥٥]. مما يوحي بانتشار أكل الحشيش بشكل كبير بين عامة الناس، وقد أورد ابن سودون البشبغاوي في ديوانه أسماء الكثير من العامة ممن أكلوا الحشيش ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر ابن حجرمة الهوادفي وأبيه، أبو غيدشه الزلابياني وغيرهم[١٥٦].

وفي أحدى المفاخرات بين بركة الرطلي والجسر وكان مشهورًا بزراعة الحشيش وبيعه وتعاطيه قالت البركة : " .. فمن أصحابك يا كثير الفشار المحيرق وابن المهتار، كم افتضح عندهما من يدب دبيب الزيت، ولا يرجع ولو كان ابن صاحب البيت، ولا يفارق الخيط والكلاب، والدرج والتراب، والمقص والحلقة، والشوكة والخرقة ... "[١٥٧]. تلقى هذه العبارات الضوء على نوعية من كانوا يذهبون إلى الجسر من العامة لتعاطي الحشيش بما فيهم الصوفية الفقراء.

ومن الغريب أن تعاطي الحشيش لم يكن قاصرًا على الرجال دون النساء ويؤكد ذلك ما ذكره القسطلاني من " ... أنها (أي الحشيشة) موسومة بالخطر لمن عاناها من أنثى أو ذكر... "[١٥٨]. ويؤكد ذلك قول ابن الوردي في ديوانه يصف مليحة مسطولة فيقول :

مليحة مسطولة إن لمتها فيما جرى
تقول كل ظبية ترعى الحشيش الأخضرا[١٥٩]

ومن ثم فقد انتشر هذا الداء في مجتمعات النساء كذلك.

زراعة الحشيش وتجارته في مصر المملوكية :

تعددت أماكن زراعة الحشيش في مصر المملوكية، فصار يزرع في البساتين إذ يذكر ابن البيطار عن " القنب الهندي " ولم أره بغير مصر يزرع في البساتين، ويقال له الحشيشة عندهم "[١٦٠]. وتعد مدينة دمياط من أشهر أماكن زراعة الحشيش في العصر المملوكي، بل كان محصولاً أساسيًا بها[١٦١].

زرع الحشيش في القاهرة في كل من البستان الكافوري[١٦٢]، أرض الطبالة[١٦٣]، والجسر وبركة الرطلي[١٦٤]، باب اللوق وحكر بولاق[١٦٥].

ظل الحشيش يزرع في البستان الكافوري خلال العصر الأيوبي واستمر خلال العصر المملوكي كذلك، وكان من النوع الجيد، ويضرب به المثل في الحسن، وكان هذا النوع يتناوله الفقراء (أي الصوفية) والسفلة إذ يذكر ابن عبدالظاهر :" أنه (أي البستان الكافوري) كان عرف بالحشيشة التي يتناولها الفقراء والسفلة، وكانت تزرع به ولا ينكر ذلك أحدًا "[١٦٦].

وقال شاعر الفقراء الصوفية نور الدين أبو الحسن بن عبدالله الينبعي لنفسه مادحًا حشيش البستان الكافوري :

أمن المسك قلت ليست من المسـ ـك ولكنها من الكافوري[١٦٧]

وقال الإمام زين الدين أبو عبدالله بن محمد الحنفي لنفسه في تأثير حشيش البستان الكافوري :

وخضراء كافورية بات فعلها بألبابنا فعل الرحيق المعتق

إذا نفحتنـــا مــن شـــذاها بنفحـــة تدب لنا في كل عضو ومنطــق[١٦٨]

وقال أحمد بن الصائغ (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) في حشيش البستان الكافوري كذلك :

خضـــراء كافوريـــة رنحـــت أعطافـــه مــن شـــدة الســكر[١٦٩]

ورغم محاولة السلطان الصالح نجم الدين أيوب إحراق مـا كـان يـزرع في البسـتان الكافوري من حشيش، إلا أن زراعته ظلـت مسـتمرة في هـذا البسـتان حـتى عـام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، ففي هذا العام أزيلت جميع أشجار البسـتان الكـافوري واختطـت المماليك البحرية والعزيزية به اسطبلات، ودور ومساكن وذلك في عهد المعز أيبـك كمـا يروي ابن عبدالظاهر[١٧٠]. وبذلك وضعت نهاية زراعة الحشيش في هذا البستان.

اشتهرت أرض الطبالة كذلك بزراعة الحشيش وبيعه في العصر المملوكي، وكان بها بقعة تعرف بالجنينة ــ تصغير جنة ــ من أخبث بقاع الأرض كما يصفها المقريزي، إذ اشتهرت ببيع الحشيشة التي يبتلعها أراذل الناس[١٧١].ومن قول الشهاب المنصوري فيها :

كم بالجنينـــة مــن أصــم وأبكــم ورجلاه في قيــد وعينــاه في قفــل

أشـــبهه في خلقـــه بـــابن آدم مجازًا وفي أكل الحشيشة بالعجل[١٧٢]

ويقول أيضًا :

كم بالجنينة مــن قتيــل حشيشــة لا يســـتفيق ولا بـــنفخ الصـــور

وهبت لـــه الخضــراء مـــن أفعالهـــا آذان أطــروش وعـــين ضـــرير[١٧٣]

تزاحم الناس على باعة الحشيش في هذه الجنينة، حتى صار يركب بعضهم على بعــض كما يروي ابن سودون[١٧٤] وتعجب أحد المارة من هذا الزحام وسأل عنه فقيل له : هــذا رجل يبيع البهار، فقلت وأي شيء يكون البهار، قال : شيء يزيد الأفراح، ويزيل الاتراح، من أكل منه كفايته وجلس ساعة سارت به الأسرار في أودية الأفكار، ويرى وهو في مكانه سائر الأقطار، وكان هذا الرجل يحب السياحة والسفر، فتقدم إلى البائع واشترى منــه بمــا يساوي خمسة دراهم، في حين أن الشخص كان يكفيه في خمسة أيام بدرهم[١٧٥].

وهكذا لم تكن أرض الطبالة أرضًا لزراعة الحشيش فقط بل لبيعه، وموطأ قدم لمتعاطيه وآكليه، فقد تكاثر بها الحشاشين، ويتضح ذلك من خلال رواية لابن سودون البشبغاوي[١٧٦]. يذكر فيها : أن رجلاً عمر دهرًا طويلاً، وجمع مالاً جزيل، وأراد أن يجعل من ماله للفقراء نصيب، فصنع بمبلغ كبير من المال حلوى عبارة عن قطايف محشية .. وأمر بحملها إلى الجنينة، فصارت الحشاشية تساق إليه وهو يفرقها بالأراطيل على السادة المساطيل، ويخص بالزيادة من ثقل لسانه، واشتبه على أخوانه. ثم سمع من قال له يا صاحب القطايف المحشية هذا جزاء ما أطعمت أخوانك الحشايشية ثم أنشد قال:

أيا من يجمع المال شُتت عُمره — أتفعل ذا والموت مازال طايفا
فأطعم به أهل الحشيش قطايفا — ونم تر مثلي في المنام لطايفا

يتضح من تلك الرواية أن الجنينة كانت مركزًا لتجمع متعاطي الحشيش وأهله فضلاً عن باعته وزراعه، وظلت الجنينة كذلك حتى عصر المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م) إذ يذكر عند حديثه عن الجنينة بأرض الطبالة " وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة (أي شجرة الحشيش) في وقتنا هذا فشوًا زائدًا وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعًا كثيرًا، وتظاهروا بها من غير احتشام "[١٧٧]. وذلك رغم محاولة بعض الأمراء ومنهم الأمير " سودون الشيخوني "[١٧٨] إتلاف ما هناك من هذه الشجرة الملعونة، وقيامه بالقبض على من كان يبتلعها من أطراف الناس ورذلائهم[١٧٩]. كذلك صار يشك في كل من يمر بأرض الطبالة حتى أن بعض القضاة وهو القاضي موفق الدين أبو محمد الحنبلي[١٨٠]، حرص على ألا يأخذ بشهادة من يمر بأرض الطبالة، فحدث أن دخل إليه ثلاثة شهود ليشهدوا في مكتوب، فأعلم اثنين وترك الثالث، ومضوا، فحضر إليه الشاهد الثالث وجده وسأله: يا مولانا قاضي القضاة، ما ذنبي أتوب منه، قال : رأيتك منذ أيام مارًا بأرض الطبالة، فقال : الأمر أمركم، كان العبد هناك في ريبة، فمولانا القاضي، ما سبب كونه هناك. فما كان من قاضي القضاة إلا أن سمع شهادته خشية أن يجيبه الشاهد بأنه كان هناك لضرورة، فيرد عليه بنفس الرد[١٨١].

زرع الحشيش أيضًا في باب اللوق وفي حكر واصل ببولاق، فقد حدد المقريزي تلك الأماكن لزراعته أيضًا[١٨٢]. وأكد ابن سودون البشبغاوي ذلك حتى أنه كني أو سمي

الحشيش بالبولاقة نسبة إلى زراعته في بولاق فعند حديثه عن بولاق كواحدة من متنزهات القاهرة قال :

هَـــتْ لي بولاقـــه   يـــا رايـــح بـــولاق
أو جـــب لي قاقـــه   مـــن عنـــد ابـــن القـــاق[١٨٣]

اشتهرت أرض الجسر كذلك بزراعة الحشيش، وهو الجسر الذي يفصل بين بركة الرطلي والخليج الناصري، وبنيت به العديد من الدور التي كانت تطل على بركة الرطلي، كما كان الجسر مرتعًا لمتعاطي الحشيش، وقد راح يفاخر بنفسه على بركة الرطلي قائلاً : " إني أبو المحاسن واللطايف والخلاعة والمقاصف، ونزهة الأحداق والمهج، ومحل البسط والفرج، ومربع الأنس في الأوطان ... " فردت عليه البركة قائلة :" يا رديء الطباع، وأخس البقاع تفخر عليَّ بحشيشك الخسيس وتغزوني من الغواة بجنود إبليس "[١٨٤].

وقالت له البركة في موضع آخر :" يا سوق الفسوق، وأخو الجنينة وابن عم باب اللوق"[١٨٥]. وكانت الجنينة وباب اللوق من مواطن زراعة الحشيش وبيعه وتعاطيه كما سبق أن ذكرنا.

لم تلبث أرض بركة الرطلي أن صارت بدورها موطنًا لزراعة الحشيش، وإن زرع فيها في وقت متأخر من العصر المملوكي فيروي ابن إياس في حوادث عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م أن شخصًا يدعى كمال الدين بن قوسان، استأجر أرض بركة الرطلي، وزرع بها الحشيش، وكان كل من يدخل إليها يبتهج بذلك، ولاسيما أصحاب الكيفة من الحشاشين؛ وجاءت إليها أفواجًا يتفرجون على ذلك الحشيش، فعد ذلك من النوادر الغريبة[١٨٦]. وفي ذلك يقول بعض شعراء العصر :

تناهت بركة الرطلي حسنًا   وصارت جنة فيها عروش
وقد زرعوا الشدانق في ثراها   يبدو نسيمها طلع الحشيش[١٨٧]

ويقول آخر:

بمصر لأهل اللهو والتيه بركة   تولع فيها بالحشيش أولو العقل[١٨٨]

يقول ابن سودون اليشبغاوي[١٨٩] :

بركة الرطلي هواها يكسب الأرواح مناها وترى الجسر حداها

فيـه غـــــزلان راتعين

كم ترى فيه من ملاح انعشوا الأرواح براح ومساطيل في انشراح

للخضيـــر مايليـــــــن

ظلت بركة الرطلي موطنًا لزراعة الحشيش وأكله وتعاطيه حتى عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م حين أمر الأمير الدوادار نائب الغيبة الناس أن لا يسكنوا الجسر الذي ببركة الرطلي، ومنع المراكب من أن يدخلوها، فصارت خاوية على عروشها، ليس بها دُبار ولا نافخ نـار كمـا يروي ابن إياس[١٩٠]. لذلك رثاها الشيخ بدر الدين الزيتوني في قصيدة طويلة قال في بعض أبياتها :

على بركة الرطلي نوحوا وعـددوا لما حل فيها من نكال ومـن خُسـر

كان بهـا الحشـاش يُسـرد بهجـة فمذ قطعوا لذاته صار في فكـر[١٩١]

أما عن تجارة الحشيش فقد راجت في العصر المملوكي، ويرجع ذلك إلى إقبال الكثيرين على شرائه وذلك بسبب رخص سعره، إذ كان في متناول العامة والخاصة وفي ذلك يقـول النور الأسعردي :

وتشربها في العسر واليسـر دائمـا ولا تتقي فيهـا ليـالي التعبـد[١٩٢]

هذا إلى جانب سهولة تناوله في الحدائق والبساتين حيث أماكن زراعتـه، في الأسـواق والمشاهد، في الربط والمساجد وغيرها من أماكن العبادة، وكذلك في الحمامات العامـة[١٩٣] وفي ذلك يقول صاحب المفاخرات : " ولا يختص ببعض المواضع، بل يستعمل في السـوق والجامع .. وليس في تحريمه نص مسموع، ولا علي بائعه حد مشروع ... "[١٩٤].

ويقول النور الأسعردي في هذا المعنى :

وحقك ما بـالخمر بعـض صـفاتها أتشرب جهرًا في رباط ومسجد؟[١٩٥]

ويبدو أن المشاعلية[١٩٦] قد مارسوا تجارة الحشيش، إذ يصف ابن دانيال في البابة الثانية (عجيب وغريب) شخصية المشاعلي ويتحدث عن مهنته والدور الذي يلعبه في المجتمع،ويذكر من بين مهامه أنه مارس تجارة الحشيش، وفي ذلك يقول ابن دانيال : حمال المشاعل وهو جايل في ميدانه، ومفتخر على أقرانه وينشد قصيدة من أبياتها :

وكم لنا تجارة في خير نبات خضل
حشيشة لون العذار فوق خد صقل
يبيعها للناس أن رخصت بيع العسل[١٩٧]

وتوضع هذه الأبيات أن المشاعلية تاجروا في الحشيش، وأن أسعاره لم تكن باهظة لذلك راجت تجارتهم فيه، ولكن ما هو رأي فقهاء العصر في زراعة الحشيش وتجارته ؟

حرم ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م) تلميذ ابن تيمية بيع الحشيش مستندًا في ذلك إلى ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن ابن عباس قوله : " إن الله إذا حرم أكل شيء حرم ثمنه "[١٩٨]. أما الزركشي (ت٧٩٤هـ/١٣٩١م) والأقفهسي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) فذكرا أن زراعتها أي الحشيشة لغرض الاستعمال والإسكار حرام، ويجوز لغرض التداوي. أما بالنسبة لبيعها فإنه يجوز في رأيهما بيعها لأنه ينتفع بها في الأدوية كالسقمونيا ... بشرط أن يكون يسيرًا، أما بيعها لمن يتحقق منه تعاطيها فهو حرام[١٩٩]. وهذا يتطلب وقفة لمعرفة رأي فقهاء العصر في تعاطي الحشيش وتناوله.

رأي فقهاء العصر في تعاطي الحشيش :

حار فقهاء العصر المملوكي في أمر تعاطي الحشيش وأكله، فمنهم قلة أفتت بإباحة أكل الحشيش وأجازته، والغالبية العظمى منهم حرمته. وقد استند القلة في إباحته إلى أنه لم يرد نص في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية المشرفة، وكذلك عم وجود نص عند فقهاء المذاهب الأربعة بشأن تعاطي الحشيش وأكله، وقيل في هذا المعنى :

حرموها من غير عقل ونقل وحرام تحريم غير الحرام

ويقول الشاعر محمد بن علي بن الأعمى أيضًا :

ولا نص في تحريمها عنـــد مالـــك ولا حد عند الشافعي وأحمد[٢٠٠]

ويعد الجمال يوسف بن محمد الملطي (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م) قاضي الحنفية[٢٠١] ممـن اشتهروا بالإفتاء بجواز أكل الحشيش، فيذكر ابن حجر[٢٠٢] إنه كان يفتي بإباحة الحشيشـة لذلك أنشده ابن حجر وكأنه يخاطب غيره وإنما عاناه قائلاً :

عجبت لشيخ يأمر الناس بـــالتُقى وما راقب الرحمن يوما وما اتقـى

يرى جائزًا أكل الحشيشـــة والربـا ومَن سمع الوحي حقـا تزنـدقا[٢٠٣]

وأفتى بجواز أكل الحشيش كذلك الشيخ محمد بن محمد بن محمود بن غازي ابن أيـوب (ت٨١٥هـ/١٤١٢م) وكان نابغة في الفقه والأدب والفنون، واشتغل بالتدريس ونشـر العلم[٢٠٤].

أما الغالبية العظمى من الفقهاء التي حرمت أكل الحشيش فقد وجدت أنه ليس في عدم ورود تحريمه في الكتاب والسنة ولا عند الفقهاء الأربعة ما يعني أنـه حـلال لأن التحـريم للشيء قد يكون بنص أو إجماع أو قياس، والقياس معناه : الحاق أمـر لم يـرد في حكمـه الشرعي نص من القرآن أو السنة بأمر آخر ورد في حكمه الشرعي نص لاشتراك الأمـرين في علة الحكم. وأركان قياس الحشيش على الخمر في التحريم متوافرة منها، الإسكار، حجب العقل والذهاب به، إضاعة المال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة وغيرها، ومادام الأمـر كذلك انسحب حكم الخمر وهو التحريم على الحشيش لاشتراكهما في الحكم. هذا فضـلاً عن أن الحشيش لم يرد تحريمه باسمه المعروف لا في القرآن ولا في السنة النبويـة المشـرفة، وذلك لأنه لم يكن موجودًا في العهد النبوي ولا في عهد الصـحابة، ولا في عهـد الدولـة الأموية[٢٠٥]. وعلى ذلك فقد حمل عدد من الفقهاء في العصر المملوكي حملة شعواء على من أجازوه أو افتوا بأكله وتعاطيه ومن هؤلاء أبو بكر القسـطلاني (ت ٦٨٦هـــ/١٢٨٧م) الذي راح يتحرى أمر هذه الحشيشة، وهل هي مسكرة ومفسـدة للعقـل أم لا؛ وذلـك بالاعتماد على رأي الأطباء والعلماء بأحوال هذا النبات ومنهم ابن البيطار الذي يقول عن

الحشيش (القنب الهندي) : هو يسكر جدًا إذا تناول منه الإنسان يسيرًا قدر درهم[٢٠٦] أو درهمين "[٢٠٧]. كما رجع القسطلاني إلى رأي العلماء الأعلام من أهل الحجاز واليمن والعراق والشام، وفي النهاية أفتى بأن تناول الحشيش حرام اعتمادًا كذلك على الحديث المروي عن خير الأنام " ما أسكر كثيره فقليله حرام "[٢٠٨].

ورد القسطلاني أيضًا على من ادعى أن ما يحدثه الحشيش ليس سكرًا يقضي باختلال، وإنما هو أمر يفرح النفس، ويروح الخاطر ويجمع الهمم ويحضر الفكر، ويشتغل بها السر عن الخوض فيما لا يعنيه؛ رد مستندًا إلى الأضرار الدنيوية والأخروية[٢٠٩] التي تعود على من يتعاطها، إلى جانب مشاهدته لمن تعاطى منها درهمين أو ثلاثة وكيف تؤثر فيه تأثيرًا بليغًا إن لم تقتله[٢١٠] فضلا عن اعتماده على العديد من الأحاديث الصحيحة التي تؤكد تحريم كل مسكر ومفتر، وعلق بأن الحشيش إذا لم يسكر كان مفترًا مخدرًا، لذلك يكثر مستعمله من النوم وتثقل رأسه كثيرًا[٢١١]. ويؤكد ذلك ما روته أم سلمة رضي الله عنها قالت :" نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر " والمفتر كل شراب يورث الفتور والخور في الأعضاء، وفي هذا الحديث دليل على تحريم الحشيش لأنه يخدر ويفتر.

رد القسطلاني كذلك على من اعتبر الحشيش دواء، فذكر أن الأدوية نوعان أو ضربان : سليمة فاضلة وخطيرة قاتلة، واعتبر الحشيشة من قبيل الخطيرة القاتلة وذلك بسبب تأثيرها في الأجسام فضلاً عن مضارها الأخرى[٢١٢].

وتصدى أبو بكر القسطلاني لمن أفتى بأكل الحشيش من الفقهاء وقال عنهم : " إنهم سفهاء الأحلام، ضعفاء العقول والأفهام، راموا بذلك التحريض على ارتكاب الآثام، وصدق أن يتلى علهيم في ذلك المقام وهم إلا كالأنعام، ولم يستجيبوا للنهي والأمر في الحلال والحرام، فاقتدى بهم في محبتها من جهل أمرها ... "[٢١٣].

لم يكتف أبو بكر القسطلاني بذلك بل قال :

قد ضل من أفتى بحل شرابها ... فيما عزا للشافعي وأحمد
هي حل وإن غدت لأحد مثل ... الخمر فيما يعتدي للمعتد[٢١٤]

ووجه دعوة لمحاربة كل من يمدح شرب الحشيش قائلاً :

لا تصغين لمادح شــرب الحشـــيش	فإنـــه في القـــول غـــير مســـدد
وانهـــض بعزمـــه ماجـــد في صـــده	عن قصده بالسوط حينا وباليـــد(٢١٥)

أما عن شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ/١٢٦٢-١٣٢٧م) فقد ذهـــب في جميع كتاباته إلى أن الحشيشة القنبية حرام فيقول في كتابه " الحسبة في الإســـلام" أن كـــل مسكر من الطعام والشراب حرام، ويدخل في ذلك البتع والمزر والحشيشة القنبيـــة وغـــير ذلك"(٢١٦). وأكد ذلك في كتابه السياسية الشرعية حيث يقول : " أن الحشيشة المصـــنوعة من ورق القنب حرام أيضًا " والأحاديث في هذا الباب كثيرة ومستفيضة ويقول أيضًا، جمع الرسول صلى الله عليه والسلام، بما أوتيه من جوامع الكلم كل ما غطى العقل وأسكر، ولم يفرق بين نوع نوع، ولا تأثيره لكونه مأكولاً أو مشروبًا ... كل ذلك حرام "(٢١٧).

ونادى ابن تيمية في كتابه الفتاوى بضرورة تحريمها، وأعلن أن الحشيشة الملعونة المسكرة بمترلة غيرها من المسكرات، والمسكر منها حرام باتفاق العلماء، بل أن كل ما يزيل العقـــل فإنه يحرم ولو لم يكن مسكرًا : كالبنج(٢١٨). وذكر في موضع آخر ردًا على من سأله عمـــا يجب على من أدعى أن أكل الحشيشة جائز، حلال، مباح؛ بقوله : " أكل هذه الحشيشـــة الصلبة حرام، وهي من أخبث الخبائث المحرمة، وسواء أكل منها قليلاً أو كـــثيرًا .. ومـــن استحل ذلك فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافرًا مرتدًا، لا يُغسل، ولا يُصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين "(٢١٩).

أرجع ابن تيمية عدم وجود نص بتحريمها في القرآن والسنة ولا عند أصحاب المـــذاهب الأربعة إلى أنها ظهرت في آخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة للهجرة حين ظهرت دولة التتار(٢٢٠). لذلك لجأ في تحريمها إلى القياس معتمدًا على الكثير من الأحاديث مثلمـــا فعـــل القسطلاني من قبل ومن تلك الأحاديث "الخمر ما خمر العقل"؛ " ما أسكر كـــثيره فقليلـــه حرام "؛ " كل مسكر خمر وكل مسكر حرام "، فضلاً عن حـــديث أم ســـلمة، وحـــديث السيدة عائشة " كل شراب أسكر فهو حرام "(٢٢١). وغيرها من الأحاديث. كذلك استند ابن تيمية إلى رأي المحققين من الفقهاء، الذين قالوا بكونها مسكرة لما فيهـــا مـــن النشـــوة والطرب، وقرر على من يتناولها حد الشرب : ثمانون سوطًا أو أربعون(٢٢٢).

سار ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ/١٢٩١-١٣٥٠م) على نهج أستاذه ابن تيمية فنادى بتحريم الحشيش كذلك قائلاً :" يدخل في تحريم كل مسكر مائعًا كـان أو جامـدًا، عصيرًا أو مطبوخًا، يدخل فيه عصير العنب، وخمر الزبيب والمزر، والذرة، والشعير والعسل والحنطة ـ اللقمة الملعونة لقمة الفسق والقلب التي تحـرك القلـب السـاكن إلى أخبـث الأماكن... " يقصد الحشيشة واعتبر ذلك كله خمر بنص رسول الله صلى الله عليه وسـلم الصحيح الصريح الذي لا مطعن في سنده، ولا إجمال في متنه، إذ صح عنه قولـه " كـل مسكر خمر "[٢٢٣]. لذلك أخذ بالقياس في تحريمه للحشيش القياس على الخمر، وجعل حـد متعاطيه حد الخمر وهو الجلد ما بين ثمانين وأربعين جلدة[٢٢٤].

وإذا كان ابن تيمية وتلميذه ابن القيم قد نادا بضرورة تحريمها وبأن حدها هـو الجلـد كالخمر، فإن بعض الفقهاء ومنهم الإمام القرافي (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) يعتقد أنهـا مـن المفسدات[٢٢٥] وليست من المسكرات، ومن ثم لا يوجب فيها الحد، ولا يبطل بها الصـلاة، بل التعزير[٢٢٦] الزاجر عن ملابستها[٢٢٧].

واتفق الإمام الرافعي مع القرافي إذ ذكر في باب الشرب : " ما يزيل العقل غير الأشربة كالبنج لا حد في تناوله لأنه لا يلذ ولا يطرب ولا يدعو قليله إلى كثيره "[٢٢٨]. كذلك قال الإمام علاء الدين ابن العطار صاحب النووي وتلميذه وهو الذي جمع فتاويه " أما الحشيشة المسماة الغبيراء المفسدة للعقول والأبدان ... لم أعلم لتحريمها اختلافًا بين علماء الإسـلام الذين أدركتهم، ولكنهم لم يصرحوا بوجوب الحد فيها مع اتفاقهم على وجوب التعزير فيها بالضرب وغيره[٢٢٩].

وذهب فريق ثالث من الفقهاء إلى أن متعاطيها لا يُحد بحال وإن تعمد تناولها فُسق بـه، وإن تناولها خطأ أو للتداوي لم يُفسق[٢٣٠].

هكذا أجمع فقهاء العصر على تحريم الحشيشة ولكن اختلفوا في هل فيها الحد أم التعزير، وكان لكل فريق منهم أدلة على صحة رأيه. ولكن إلى أي مدى طبق حكـم الشـرع في متعاطي الحشيش في العصر المملوكي سواء بإقامة حد الجلد أو بالتعزير ؟

دور الدولة في مكافحة ظاهرة تعاطي الحشيش في مصر المملوكية :

اعترفت دولة المماليك في بداية عهدها بالحشيش، وأباحت زراعته وبيعه وأكله، وذلك لأنها في إطار حاجتها إلى الأموال لجأت إلى العديد من الوسائل المشروعة وغير المشروعة، ففرضت ضرائب ثقيلة على باعة الحشيش وتجاره، عرفت باسم " ضمان الحشيشة " فيذكر ابن حجر :" إنه كان في القاهرة وغيرها من الأعمال على ذلك أي على الحشيش ضمان، وعليه اقطاعات لأناس "(٢٣١). وقد جمعت الدولة من هذا الضمان " جملة كافية " كما يذكر ابن دقماق(٢٣٢) وسعيا وراء تمويل الخزانة السلطانية بحاجتها من المال، لجأت الدولة المملوكية إلى فرض هذا النوع من الرسوم على باعة الحشيش وتجاره. فعندما عهد السلطان عز الدين أيبك (٦٤٨-٦٥٥هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م) بالوزارة إلى الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله ابن صاعد الفائزي، أحدث هذا الوزير في مصر مظالم كثيرة على الرعية، ورتب مكوسًا وضمانات على المنكرات من الخمور والحشيش وبيوت الزواني وغيرهم وسماها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية(٢٣٣).

ظل ضمان الحشيش معمولاً به حتى أبطله السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م أو سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م، فقد ذكر المقريزي في حوادث شهر ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م " وفيه أبطل السلطان ضمان الحشيشة الخبيثة، وأمر بتأديب من أكلها "(٢٣٤). في حين ذكر في موضع آخر " وأبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها في سنة خمس وستين وستمائة "(٢٣٥). وأضاف ابن إياس إلى جانب إبطال السلطان بيبرس ضمان الحشيش وتأديب من أكلها، أمر السلطان كذلك بإحراقها(٢٣٦).

وأصدر السلطان الظاهر بيبرس أوامره بإرسال المراسيم الشريفة بمنع الحشيش وغيره من المنكرات إلى سائر الجهات، وعندما وردت تلك المراسيم إلى القاضي ناصر الدين أحمد بن منصور بن أبي بكر (٦٢٠-٦٨٣هـ/١٢٢٣-١٢٨٤م) قاضي الإسكندرية استبشر بالخبر وقال :

ليس لإبليس عندنا أرب ... غير بلاد الأمير مأواه
حَرَمْتَه الخمر والحشيش معًا ... حرمته ماءه ومرعاه(٢٣٧)

امتنع الناس عن أكل الحشيش في أيام الظاهر بيبرس غاية الامتناع، وطهرت البلاد منه ويذكر ابن دانيال (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م) الذي زار مصر في أيامه " وقد هزم أمر السلطان جيش الشيطان، وتولى (الخوان) والي القاهرة، إهراق الخمور، وإحراق الحشيش .. وشاعت بذلك الأخبار، ووقع الإنكار، واختفى المسطول في الدار، وأقيمت الحدود..."[٢٣٨].

وقال القاضي ناصر الدين ابن النقيب الفقيسي :

منع الظاهر الحشيش مع الخمـ ـر فولى إبليس من مصر يسعى
قال ما لي وللمقام بأرض لم أمتع فيها بماء ومرعى[٢٣٩]

وعبر ابن دانيال عن حالة آكلي الحشيش عندما سمعوا بخبر السلطان بضرورة إحراق الحشيش وإلغاء ضمانه قال في بابته (طيف الخيال) :

أين عيناه والحشائش تحرقن بنار تُراع منها المجوسُ
قلعوها من البساتين إذ ذاك صغارًا خضراء وهي عروس
والحرافيش حولها يتباكون وهذا يطفئ لهذا الوطيس[٢٤٠]

أبطلت المنكرات كذلك في أيام حسام الدين لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦-١٢٩٨م) ومنها الحشيش، وفي ذلك يقول ابن دانيال :

ذي دولة المنصور لاجين الذي قهر الملوك وكان سلطان الورى
إياك تأكل أخضرا في عصره ياذا الفقير يصير جسمك أحمرا[٢٤١]

شاع أكل الحشيش في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وانتشر انتشارًا واسع النطاق، لدرجة حركت أقلام شعراء عصره ومن هؤلاء فتح الدين أحمد بن الثقفي (ت ٧٠١هـ/١٣٠١م) الذي راح يسوق شعرًا يوضح من خلاله مضار الحشيش وآثاره السيئة على متعاطيه؛ ومن شعره :

محا الله الحشيش وآكليها لقد خبثت لما طاب السلاف
كما تصبى كذا تضني وتشقى لآكلها وغايتها الخراف[٢٤٢]

سعى السلطان الناصر محمد لمكافحة ظاهرة أكل الحشيش، التي شاعت في عصره، فعين واليًا على القاهرة شديد البأس وهو الأمير (قدا دار)[٢٤٣] في سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م، فبدأ عهده بتعقب المفسدين، وكبس أماكن زراعة الحشيش، ومنها خط باب اللوق، وأخذ منه شيئًا كثيرًا، وصادر ما فيه من الحشيش وأحرقه عند باب زويله، واستمر يفعل ذلك مدة شهر، وما من يوم إلا ويحرق فيه الحشيش عند ذلك الباب، مما يظهر كثرة كمية الحشيش التي كانت تزرع في باب اللوق. وأثنى السلطان الناصر محمد على جهود الأمير قدا دار وشكره شكرًا زائدًا، ومكنه تمكينًا قويًا[٢٤٤].

استمرت مكافحة الدولة للحشيش ففي ربيع الآخر من عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م قام الأمير الحاج آل ملك[٢٤٥]، نائب السلطنة في عهد الصالح إسماعيل ـ بعد أن دله بعض العامة على موضع يباع فيه الخمر والحشيش ـ بإحضار من يبيعونها، وضربهم في دار النيابة بالمقارع وشهرهم، وخلع على ذلك العامي، وأقامه عنه في إزالة المنكرات[٢٤٦].

رغم جهود الدولة ورجالاتها في مكافحة هذه الظاهرة، إلا أن الناس أقبلوا على أكل الحشيش حتى في أوقات الأزمات التي كانت تحل بالبلاد، فقد انشغل الكثيرون في عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م أثناء الوباء الأسود، الذي حل بمصر في أيام السلطان الناصر حسن، انشغلوا بأكل الحشيش لدرجة قال معها إبراهيم بن المعمار:

قلت لمن بالحشيش مشتغل ويلك أما تخش هذه الكتبة
فالناس ماتوا بكبة ظهرت قال إني أعيش بالكبة[٢٤٧]

ووقع في دولة الأشرف شعبان بن حسين ما يقرب من هذه الوقعة فحرم السلطان أكل الحشيش في عام ٧٦٩هـ/١٣٦٧م، فقال الأديب عينه إبراهيم بن المعمار :

أمر ببلع الحشيشة تكتسب أجران وتغتنم دعوة المصطول والسكران[٢٤٨]

ومن ثم فإن الأزمات التي كانت تمر بالبلاد لم تؤثر على باعة الحشيش وآكلته، رغم أن مثل هذه الأزمات كانت تدفع الكثيرين إلى البعد عن المعاصي والمنكرات.

لم تأل الدولة جهدًا للحد من ظاهرة أكل الحشيش، فقام الأمير سودون الشيخوني[٢٤٩] في عام ٧٨٠هـ/١٣٧٨م، في عهد المنصور علاء الدين علي ــ بتتبع الموضع الذي يعرف بالجنينة من أرض الطبالة، وباب اللوق، وحكر واصل ببولاق وغيرها من أماكن زراعة الحشيش، وأتلف ما هناك من هذه الشجرة الملعونة، وقبض على من كان يتبلعها من أطراف الناس ورذلائهم، وعاقب على فعلها بقلع الأضراس، فقلع أضراس كثير من العامة، كما يذكر المقريزي[٢٥٠]. مما يوضح انتشار الحشيش بينهم.

تابع الأمير سودون حملاته وكبساته على أماكن بيع الحشيش، فهاجم في عام ٧٨٩هـ/١٣٨٧م، وكان يشغل ساعتها وظيفة نائب السلطنة في دولة الظاهر برقوق، هاجم أحد أماكن تخزين الحشيش وبيعه، واستولى على كميات ضخمة ضبطها هناك، وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة[٢٥١].

ظل أكل الحشيش حتى عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م يُعد من القاذورات كما يذكر المقريزي، بدليل أن الناس شنعوا على سلطان بغداد أحمد بن أويس، حينما قدم إلى القاهرة فارًا من تيمورلنك، وتظاهر هو وأصحابه بأكلها، لذلك استقبح الناس في مصر فعلهم هذا وعابوه عليهم[٢٥٢]. ولكن في عام ٨١٥هـ/١٤١٢م شنع التجاهر بالشجرة الملعونة ــ كما يروي المقريزي ــ فظهر أمرها، واشتهر أكلها، وارتفع الاحتشام من الكلام بها حتى لو كادت أن تكون من تحف المترفين[٢٥٣]. مما يوضح أن أكل الحشيش ظل حتى هذا العام يؤكل سرًا وفي الخفاء، ثم بدأ الناس يتجاهرون بأكله دون حياء أو احتشام أو خجل، وزاد الإقبال على أكله بين طوائف الخاصة والعامة، لذلك قام صدر الدين محتسب القاهرة في ربيع الأول عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م بتتبع أماكن الفساد بنفسه ومعه والي القاهرة، فأراق آلافًا من جرار الخمر .. ومنع من التظاهر بالحشيش[٢٥٤].

أما عن ضمان الحشيش خلال تلك الفترة فيذكر ابن حجر أنه كان قد بطل ولله الحمد، ثم أعيد قليلاً بدسائس أهل الظلم والمكر، غير أنه ما لبث أن بطل ثانية، وعاد كما كان بعد مدة قريبة[٢٥٥].

شن السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) حملة شواء على مواضع الفساد، ففي شهر ربيع من عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م شدد السلطان في أمر الحشيش، وأمر بإحراق ما يوجد منه، فأحرق من الحشيش ما لا يحصى كثرة، وأكثر ذلك كان بدمياط

كما يروي ابن حجر[٢٥٦]. مما يوحي بانتشاره وزراعته على نطاق واسع بها، ولم يكتف السلطان بذلك بل حجر عليه جيدًا كما يذكر ابن إياس[٢٥٧].

تتابعت جهود الدولة في عصر برسباي من أجل القضاء على هذه الآفة ففي المحرم من عام ٨٣٢هـ/١٤٢٨م تتبع الأمير قرقماس الشعباني حاجب الحجاب مواضع الفساد، فأرق الخمور، وحرق من الحشيشة المضرة للعقل شيئًا كثيرًا، وذلك بتكليف من السلطان برسباي[٢٥٨]. وفي ذي القعدة من عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م، قام الوالي عمر بن سيفا الشوبكي[٢٥٩] بكسر جرار الخمر، وحجر على الحشيش[٢٦٠].

وفي عهد السلطان الغوري ارتبطت سياسة الدولة في محاربة ظاهرة أكل الحشيش وغيره من المفاسد بما تعرضت له البلاد من أزمات اقتصادية ففي عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م وعلى أثر الطاعون الذي ضرب البلاد في ذلك العام رسم السلطان الغوري لحاجب الحجاب ووالي القاهرة الأمير علان من قراجا بأن يكسروا جرار الخمر، ويحرقوا أماكن الحشيش والبوزة، ولا يبقوا في ذلك ممكنا كما يذكر ابن إياس[٢٦١].

نادى السلطان الغوري كذلك في ٢٦ صفر من عام ٩١٩هـ/١٥١٣م بمنع بيع الحشيش والبوزة وذلك على إثر انتشار الطاعون بالبلاد، واستمر يشهر المناداة بذلك ثلاثة أيام متوالية[٢٦٢]. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على انتشار تلك الظاهرة بشكل كبير في مجتمع مصر المملوكية في تلك الآونة.

ولكن ما إن انتهت الأزمة حتى عاود الناس سيرتهم الأولى، فاستمر بيع الحشيش وأكله، مما دفع السلطان الغوري إلى المناداة بتحريم بيعه مرة أخرى في ذي القعدة من عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، ولكن كما يذكر ابن إياس " لم يسمع له أحد ذلك، ولم ينتهوا عما هم فيه "[٢٦٣]. ومن ثم فقد قوبل قرار السلطان بنوع من السخرية والاستنكار.

ملاحظات على جهود الدولة والفقهاء في مكافحة ظاهرة أكل الحشيش :

أولاً : بذل عدد من السلاطين جهودًا كبيرة في سبيل مكافحة تلك الظاهرة ومحاولة الحد من انتشارها ومن آثارها السلبية،ويأتي على رأس هؤلاء السلطان الظاهر بيبرس، والناصر محمد، برسباي والسلطان الغوري وغيرهم، وقد عهدوا بهذه المهمة إلى كبار رجالات الدولة

وفي مقدمتهم والي القاهرة الذي كان من حقه كما يذكر السبكي[٢٦٤] " الفحص عن المنكرات من الخمر والحشيش، ونحو ذلك وسد الذريعه فيه ". كذلك أوصى العمري[٢٦٥] الوالي بأن يُعقم نسل الخمر .. وكذلك أختها في مخامرة العقل وشقيقتها في التأديب، إن لم يكن الحد لعدم النقل، وهي الحشيشة التي يعرف آكلها دون الناس بعينه..." وشارك الوالي في بعض الأحيان حاجب الحجاب والمحتسب، وفي أحيان قليلة نائب السلطنة وذلك في محاولة للحد من انتشار تلك الظاهرة أو القضاء عليها.

ثانيًا : اتبع السلاطين ورجالات الدولة عدة طرق في مكافحة ظاهرة أكل الحشيش منها: إحراقه، مصادرته، الحجر عليه، إتلافه بالتراب، تحريم بيعه، منع زراعته خاصة في الأماكن التي اشتهرت بزراعته. أما عن آكل الحشيش أو متعاطيه فكان يعاقب أما بالضرب بالمقارع، أو بالتشهير والتجريس[٢٦٦]، أو بقلع الضروس، ولم يتم تطبيق حد الخمر عليه كما نادى بذلك بعض الفقهاء، ومن ثم فقد راحت جهودهم هباء.

ثالثًا : لم تتشدد الدولة في مكافحة تلك الظاهرة إلا في أوقات الأزمات الاقتصادية والأوبئة أي في أوقات الشدة التي تعاني منها البلاد كتأخر الفيضان، أو ارتفاعه، وانتشار الأوبئة والمجاعات وغيرها، في هذه الأوقات يلجأ الناس عادة إلى الله تعالى، ويعتصمون برداء الدين، ويكثرون من العبادة، ويتجنبون المحرمات، ويصدر السلاطين أوامرهم بتحريم الحشيش ومهاجمة مخازنه والبعد عن غيره من المفاسد والمحرمات وعدم ارتكاب المعاصي. ويستجيب الناس وقتيًا حتى تنتهي الأزمة، فتعود الأمور سيرتها الأولى، ويعود الناس إلى التظاهر بأكل الحشيش وغيره.

رابعًا : ساهمت الدولة في نشر ظاهرة أكل الحشيش بين العامة والخاصة، وذلك عن طريق ما فرضته عليه من ضمان عرف بضمان الحشيشة، كان تجارها وباعتها يدفعونه للدولة بانتظام. حقيقة حاول بعض السلاطين إبطاله إلا أنه سرعان ما كان يعود ثانية، ويرى البعض[٢٦٧] أن تجار الحشيش وباعته كانوا يمثلون احتياطيًا ماليًا طارئًا للدولة عندما يضيق بها الحال، فيسعى الولاة والجباة إلى مهاجمة أماكنه ليلاً ومصادرة ما فيها من الأموال، وذلك رغبة من الحكومة في مشاركة هؤلاء التجار في مكاسبهم المالية الباهظة، ومن ثم فقد كان لتجار الحشيش أهمية اقتصادية بالنسبة للدولة كما أن باعته كانوا يعيشون على تلك التجارة

فهي مصدر رزقهم، مما جعل مكافحة الدولة لهذه الظاهرة أمرًا بالغ الصعوبة[٢٦٨] ونظرًا لحاجة الدولة الماسة إلى المال فقد أظهرت أحيانًا بعض التراخي في مكافحة هذه الظاهرة.

خامسًا : لعب الفقهاء ورجالات الدين دورًا في مكافحة هذه الظاهرة مشاركة من جانبهم للدولة، وتمثلت مشاركتهم أما بالكتابة والتأليف، أو استتابة آكليها، فبالنسبة للكتابة فقد أفرد أبو بكر القسطلاني (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م)[٢٦٩] لها تصانيف منها : تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة، وإتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم[٢٧٠]، وحاول فيها إبراز مساوئ الحشيش الدنيوية والأخروية ومضاره على آكليه حتى يبتعدوا عنه. وكذلك صنف الزركشي (ت ٧٩٤هـ/١٣٩١م) زهر العريش في تحريم الحشيش أو زهر العريش في الكلام من الحشيش[٢٧١]. وكتب الأقفهسي[٢٧٢] (أحمد بن عماد بن محمد بن يوسف ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) كذلك كتاب " إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش "[٢٧٣]. ونادى هؤلاء جميعًا من خلال مؤلفاهم بضرورة تحريم الحشيش لأثره المتلف للعقول والأخلاقيات علاوة عن إشاعة السلوك الإجرامي في المجتمع.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فكان يستتيب آكل الحشيش فحدث في رجب من عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م أن أحضر إليه شيخ كان يلبس دلقًا كبيرًا متسعًا جدًا، يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمره ابن تيمية بتقطع ذلك الدلق، وحلق رأسه، وتقليم أظافره، وكانوا طوالاً جدًا، واستتابه من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل من الحشيشة، وما لا يجوز من المحرمات وغيرها[٢٧٤]. كما تعالى صوت ابن تيمية موجهًا نداءات إلى الصوفية بالذات بأن يتركوا أكل الحشيشة الخسيسة، ودعا لإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء وذلك في عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م[٢٧٥]. هذا فضلاً عما أورده بشأن الحشيش في فتاواه وكتابيه السياسة الشرعية والحسبة في الإسلام وسبق الإشارة إلى ذلك.

غير أن صيحات فقهاء العصر ونداءاتهم، التي تعالت منادية بضرورة الحد من تعاطي الحشيشة وفرض الحد على آكلها أو تعزيره، ضاعت هباءً ولم تجد آذانًا صاغية، وتفشت ظاهرة أكل الحشيش فشوًا كبيرا في العصر المملوكي.

الحواشي

(١) المعجم الوسيط، ج١، القاهرة ١٩٦٠م، ص١٧٦؛ المعجم الوجيز، القاهرة ٢٠٠٠م، ص١٥٣.

(٢) القنب نبات حولي غزير النمو، شجري المظهر، وله عدة أنواع، يصنع من أحداها التيل، وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من القنب كان يوجد بالإسكندرية بوفرة، ويصنع منه التيل الجيد، وقد شهد بذلك الرحالة طافور الذي زار مصر في القرن ٩هـ/١٥م؛ كذلك ذكر الحسن الوزان أن بني سويف تجود فيها زراعة الكتان والقنب. انظر: أحمد تيمور، معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، تحقيق حسين نصار، القاهرة ٢٠٠١م، ج٥، ص١٦٦-١٦٧؛ المعجم الوجيز، ص٥١٦؛ طافور، رحلته في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، القاهرة١٩٦٨م، ص٦٤؛ الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ترجمة عبدالرحمن حميدة، القاهرة ٢٠٠٥م، ص٦٠٩؛ وانظر أيضًا عزت حسين، موسوعة المسكرات والمخدرات الجديدة، القاهرة ١٩٩٠م، ص١٨٩، ١٩٠.

(٣) محمد السيد الأرناؤوط، المخدرات والمسكرات بين الطب والقرآن والسنة، القاهرة ١٩٩٠م، ص٣٦.

(٤) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، القاهرة بدون تاريخ، ص٣٩. أما عن ابن البيطار فقد توفى في ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، وانظر ترجمته في الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، بيروت بدون تاريخ، ص٢٣٤.

(٥) انظر المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، م٢، ص١٢٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٢، ص١٥٣؛ وانظر أيضًا :

Franz Rosenthal, The Herb Hashish versus Medieval Muslim Society, Leiden 1971, p. 22.

(٦) عنه انظر ما يلي هامش ٨٣.

(٧) المواعظ، ج٢، ص١٢٧.

(٨) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٧.

(٩) مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه المذاهب الأربعة، ميكروفيلم رقم ٤٦٦٤٢، ورقة ٨٦-٨٧. وعن مسميات الحشيش انظر أيضًا : Rosenthal, The Herb, pp, 19-41

(١٠) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص١٢٦-١٢٨.

(١١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(١٢) ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبدالمجيد، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٣٧٣.

(١٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨، ص١٢٩.

(١٤) ديوان نزهة النفوس، ص٢١٥.

(١٥) زهر العريش في تحريم الحشيش، مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه تيمور ٧٢٥، ميكروفيلم رقم ١٢٤٩٤، ورقة ٢. وقد قام روسنتال Rosenthal بنشرها كملحق في كتابه The Herb انظر p.176

(١٦) أما عن تسمية الحشيشة بالغبيراء فقد ذكر ابن الوردي في خريدة العجائب أن الغبيراء شجرة خشبها أصبر من كل خشب الماء كالأرز والتوت، وزهرها إذا شمتها المرأة هاجت بها شهوة الجماع حتى تطرح الحياء، والتنقل بثمرها يبطئ السكر، ويحبس القئ، وينفع من إكثار البول، ص١٧٦. وقيل أن الغبيرة هي شجرة الزقوم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى [لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ] الواقعة ٥٢، وفي قوله تعالى [أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ] الصافات ٦٢، وانظر أيضًا الدخان آية ٤٣. وعن شجرة الزقوم انظر الإمام القشيري، تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم، القاهرة ١٩٧١م، ص٨٩؛ وانظر أيضًا : Rosenthal, The Herb, pp. 46-47.

(١٧) عن حيدر، انظر ما يلي هامش ٨٣.

(١٨) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٧؛ وانظر أيضًا: الجوبري، المختار في كشف الأسرار، دمشق ١٣٠٢هـ، ص٢٩.

(١٩) الزركشي، زهر العريش، المخطوط ورقة ٢ ، ونشر روسنتال، ص١٧٧، وعن القلندري، انظر ما يلي، ص .

(٢٠) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٢١) الأقفهسي، إكرام بن يعيش بتحريم الخمر والحشيش، طنطا ١٩٩١م، ص٦٢

(٢٢) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨؛ ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص٣٩.

(٢٣) نزهة النفوس ومضحك العبوس، ص٢٠٦.

(٢٤) نقلاً عن : Rosenthal, The Herb, pp. 57-58

(٢٥) تكريم المعيشة، ورقة ٤١.

(٢٦) تكريم المعيشة، ورقة ٤٢.

(٢٧) السياسة الشرعية، ص٦١؛ وانظر أيضًا : Rosenthal, The Herb, pp. 64-65.

(٢٨) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ح٢، ص٢٦.

(٢٩) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، بيروت ١٩٧٣م، ص٢٧٤.

(٣٠) يحيى بن ماسويه من علماء الأطباء، سرياني الأصل مستعرب، كان أحد من عهد إليهم هارون الرشيد بترجمة ما وجد من كتب الطب القديمة في أنقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم، وقام بمعالجة الرشيد والمأمون ومن بعدهم إلى أيام المتوكل وتطبيب مرضاهم. له نحو أربعين كتابًا كلها في الطب، وتوفي

بسامراء ٢٤٣هـ. انظر: الحسن بن زولاق، تراجم كتاب أخبار سيبويه المصري، نشر محمد إبراهيم أسعد وحسين الديب، القاهرة ١٤١٠هـ، ص٧٠-٧١.

(٣١) نقلاً عن المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٣٢) نزهة النفوس، ص٢٠٦.

(٣٣) Rosenthal, The Herb, pp. 57-58.

(٣٤) الزركشي، زهر العريش، نشر روسنتال، ص١٩٤؛ والأقفهسي، إكرام من يعيش، ص٦٣.

(٣٥) الزركشي، زهر العريش، نشر روسنتال، ص١٩٥؛ الأقفهسي، إكرام من يعيش، ص٦٣.

(٣٦) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص٣٩.

(٣٧) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(٣٨) مجهول المؤلف، المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، دراسة وتحقيق وتعليق محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٩م، ص٣٩-٤٠.

(٣٩) الزركشي، زهر العريش في تحريم الحشيش، مخطوط، ورقة ٣.

(٤٠) الأقفهسي، إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، ص٦٥.

(٤١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص٢٢٢.

(٤٢) المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(٤٣) صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٢، ص١٥٣.

(٤٤) الأقفهسي، إكرام، ص٦٥.

(٤٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد النجدي، المبطعة السلفية، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، ج٣٤، ص٢٠٥، ٢٢٣.

(٤٦) المفاخرات الباهرة، ص٤٢.

(٤٧) ابن البيطار، الجامع، ج٣، ص٣٩؛ وانظر أيضًا: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٤٨) الجامع لمفردات الأدوية، ج٣، ص٣٩؛ وانظر أيضًا: المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(٤٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص٢٠٥، ٢٢٤.

(٥٠) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق١، ص٥٥٠-٥٥١. والجندار هو الأمير الذي يستأذن عند دخول الأمراء الخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان.

(٥١) نزهة النفوس، ص٢٠٦-٢٠٨

(٥٢) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٢٧٥.

(٥٣) نزهة النفوس، ص٢٠٨-٢٠٩.

(٥٤) نزهة النفوس، ص٢٠٩-٢١٠.

(٥٥) انظر الزركشي، زهر العريش، مخطوط ورقة ٥؛ والأقفهسي، إكرام من يعيش، ص٦٢. وقد أورد روسنتال هذا البيت في نشره لزهر العريش على النحو التالي :

دية العقل بدرة فلماذا   يا سفيها قد بعتها بحشيشة

The Herb, p. 179 .

(٥٦) إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، ص٦٥؛ وانظر أيضًا الزركشي، زهر العريش، مخطوط ورقة ٣-٤.

(٥٧) انظر أبو بكر القسطلاني، إتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم، ورقة ٥٦؛ الزركشي، زهر العريش، مخطوطورقة ٣، ٤؛ ونشر روسنتال، ص١٧٧-١٧٨.

(٥٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٨١.

(٥٩) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٢٧٥.

(٦٠) نزهة النفوس، ص٢٠٢.

(٦١) نزهة النفوس، ص٣٧٣.

(٦٢) تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة، ورقة ٣٠-٣١.

(٦٣) إتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم، ورقة ٥٩-٦٠.

(٦٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص٦٠.

(٦٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٥، ص٢٢٤.

(٦٦) الزركشي، زهر العريش، المخطوط، ورقة ٣، والمنشور Rosenthal, The Herb, p.178. ؛ الأقفهسي، إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، ص٦٥.

(٦٧) انظر : الزركشي، زهر العريش، ورقة ٧، والمنشور Rosenthal, The Herb, p. 182

(٦٨) زهر العريش، نشر روسنتال، ص١٨٧.

(٦٩) إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، ص٦٥؛ وانظر أيضًا الزركشي، زهر العريش المخطوط، ورقة ٣، والمنشور Rosenthal, The Herb, p. 178

(٧٠) تكريم المعيشة، ورقة ٢٤.

(٧١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص٢٢٤.

(٧٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٧٣) ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، ص١٤٧.

(٧٤) نقلاً عن المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٧٥) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص٣٩.

(٧٦) المكافاة، تنسيق وتصحيح وتعليق، أمين عبدالعزيز، مصر ١٩١٤م، ص٨٨-٨٩.

(٧٧) هو محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زُرعة الثقفي، ولي قضاء مصر في سنة ٢٨٤هـ في إمارة خماويه بن أحمد بن طولون أو في عهد هارون ابنه، وكان محمودًا في ولايته، ثقة، كما كان حسن المذهب عفيفًا عن أموال الناس، وظل على القضاء في مصر حتى صرفه محمد بن سليمان الكاتب في عام ٢٩٢هـ، ومات في عام ٣٠١ أو ٣٠٣هـ. لمزيد من التفاصيل حول سيرته انظر: الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق رفن كست، بيروت ١٩٠٨م، ص٥١٨-٥٢٣.

(٧٨) انظر : الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص٥٢١؛ وانظر أيضًا، أحمد عبداللطيف، "الأمراض الاجتماعية في مصر الإسلامية ففي عصر الدولة الطولونية"، بحث منشور في مجلة آداب قنا، العدد الثامن، ١٩٩٨م، ص١٢٧.

(٧٩) ممدوح عبدالرحمن، المساوئ الاجتماعية في مصر الفاطمية ومقاومة الخلفاء الفاطميين لها، ص٤٠.

(٨٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج٣٤، ص٢٠٥.

(٨١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج٣٤، ص٢١١.

(٨٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج٣٤، ص٢١٤

(٨٣) ولد بنشاور من بلاد خراسان، وأقام في زاوية في جبل وفي صحبته جماعة من الفقراء (الصوفية) وخرج من زاويته في يوم منفردًا بنفسه إلى الصحراء، ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف العادة، ولما سأله أصحابه، قال لهم : أنه وجد في الصحراء شيء من النبات ساكنًا لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيظ، ومر بنبات له ورق فرأيته في تلك الحالة يميس بلطف ويتحرك من غير عنف كالثمل النشوان، فقطف منه أوراقًا وأكلها، وأخذ أصحابه لوقفهم على هذا البات فلما شاهدوا هذا النات عرفوا أنه القنب، وأمرهم الشيخ حيدر بأن يأكلوا منه، فأشاع فيهم الفرح والسرور، وأمرهم بزراعته بزاويته. وظل يتناول منه عشر سنين حتى توفى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م بعد أن أوصاهم بأن يوقفوا ظرفاء أهل خراسان وكبراءهم على هذا العقار وسره. المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٦.

(٨٤) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٧.

(٨٥) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(٨٦) عن زراعة الحشيش في البستان الكافوري، انظر ما يلي ص .

(٨٧) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٥-٢٦؛ وانظر أيضًا شلبي إبراهيم، العامة في العصر الأيوبي، ص١٥٠.

(٨٨) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٦.

(٨٩) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٦.

(٩٠) لمزيد من التفاصيل عن شرب السلاطين الخمر، انظر إسماعيل عبدالمنعم محمد قاسم، "الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب عين شمس ١٩٨٨م، ص١٥٤ وما يليها؛ عبدالمنعم ماجد، نظم دولة المماليك ورسومهم، ج١، ص١١٧.

(٩١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٢، ص٦٢؛ وانظر ترجمة المؤيد شيخ في ... العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمد الخليلي، بيروت ٢٠٠٢م، ج٢، ص

(٩٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ق١، تحقيق سعيد عاشور، ص٥٥٠-٥٥١.

(٩٣) المقريزي، المقفى الكبير، ج٧، ص٧١، حاشية ٣.

(٩٤) مجهول، المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، ص٤٢-٤٣؛ وانظر أيضًا : عبدالمنعم ماجد، نظم دولة المماليك، ج١، ص١١٧؛ إسماعيل عبدالمنعم، الأمراض الاجتماعية، ص١٥٤، ١٦٦؛ وعن أرض الطبالة وبركة الرطلي والجسر انظر ما يلي هوامش ١٦٣، ١٦٤.

(٩٥) التاج الشوبكي توفى (٨٣٩هـ/١٤٣٥م)، انظر ترجمته عن ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٤، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٦م، ترجمة رقم ٧٥٢، ص٥-٨؛ السخاوي، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ج٣، ص٢٤-٢٥؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٩٨٣-٩٨٤.

(٩٦) نزهة النفوس والأبدان، تحقيق حسن حبشي، ج٣، ص٣٥٧-٣٥٨؛ وانظر أيضًا : ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٤، ص٥-٦، ٨.

(٩٧) توفى عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، انظر ترجمته المطولة عند ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٧٨-٣٨٠. وعن تأثير الحشيش عليه، انظر : المقريزي، المقفى الكبير، ج١، ص٧٤٣-٧٤٥، ترجمة رقم ٦٨٥؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج١، ص١٤٣؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٠٣-٤٠٤.

(٩٨) ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٣٨٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣١٩.؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٠٤.

(٩٩) ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٣٨٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣١٩.

(١٠٠) ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣١٩.

(١٠١) ابن حجر، الدرر، ج١، ص٨٥، ترجمة رقم ٢١٩.

(١٠٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ص٥١٤.

(١٠٣) أبو بكر القسطلاني، تكريم المعيشة، ورقة ٤٠.

(١٠٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٥٩١.

(١٠٥) ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، لبنان ١٤١٥هـ، ص١٤٦.

(١٠٦) ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص٣٤٧.

(١٠٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص٣٨٠.

(١٠٨) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٧؛ وانظر أيضًا : مجهول المؤلف، المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، ص٤٠.

(١٠٩) انظر ترجمة إبراهيم بن علي المعمار في ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٩؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص١٧٤؛ وانظر أيضًا : أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في العصر المملوكي، ص١٨٥-١٨٩.

(١١٠) إبراهيم الدسوقي، ابن مكناس والشعر في عصر المماليك، القاهرة ١٩٩٠م، ص٢٥، ٢٦.

(١١١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٨١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣٢٠؛ وانظر أيضًا : أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في العصر المملوكي، ص٦٣؛ ياسين الأيوبي، آفاق الشعر، ص٣٤٧؛ وانظر ما سبق.

(١١٢) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٢؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٩٢م، ص١٨٣.

(١١٣) انظر ترجمته في الأدفوي، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة ١٩٦٦م، ص٦٨٦-٦٨٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٩٩.

(١١٤) الأدفوي، الطالع السعيد، ص٦٨٧.

(١١٥) انظر ترجمته في الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، م٣، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٤م، ص٢٧١-٢٧٥، ترجمة رقم ٤٢٢.

(١١٦) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.

(١١٧) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.

(١١٨) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.

(١١٩) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤؛ أحمد صادق الجمال، الأدب العامي، ص٦٣-٦٤.

(١٢٠) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.

(١٢١) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤-٢٧٥.

(١٢٢) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج١، ص٢٧٢، ترجمة ٦٥٨؛ وانظر أيضًا : ابن قاضي شهبة، تاريخه، م٢، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م، ص٥٦٦.

(١٢٣) انظر ترجمته في الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٣٠٧-٣٠٨.

(١٢٤) يقصد بولاق.

(١٢٥) نزهة النفوس، ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبدالمجيد، القا[illegible] ٢٠[illegible]م، ص١٨٦-١٨٧.

(١٢٦) نزهة النفوس، ص٣٠١.

(١٢٧) نزهة النفوس، ص٣٠٢.

(١٢٨) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(١٢٩) ابن تيمية، مجموع فتاوى، ج٣٤، ص٢١٠؛ وانظر أيضًا : سعيد عاشور، المجتمع المصري في العصر المملوكي، ص٢٥٢.

(١٣٠) إبراهيم الدسوقي، ابن مكناس والشعر في عصر المماليك، ص٣٠.

(١٣١) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(١٣٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٦.

(١٣٣) سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م، ص٢٥٣.

(١٣٤) ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٤٠٧.

(١٣٥) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٣٥.

(١٣٦) أحمد صبحي، العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، القاهرة ٢٠٠٠م، ص٢٠٠.

(١٣٧) معيد النعم ومبيد النقم، ص١٢٥.

(١٣٨) النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، القاهرة ١٩٧٠م، ص٢٩-٣٠.

(١٣٩) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٥-٢٦؛ وانظر أيضًا : أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٦٦م، ص٦٢.

(١٤٠) معيد النعم ومبيد النقم، ص١٢٥.

(١٤١) توفى في عام ٦١٨هـ/١٢٢١م. لمزيد من التفاصيل انظر المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٦؛ وانظر ما سبق هامش ٨٣.

(١٤٢) ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص١٧٩؛ آدم صبره، الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠-١٥١٧م، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٥٣.

(١٤٣) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت بدون تاريخ، ص٣٠؛ وانظر أيضًا الجوبري، كشف الأسرار، ص٣٠؛ طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر، ترجمة حسن حبشي، ص٦١. الدوالق مفردها دلق وهو رداء يتكون من عدة قطع من القماش على ألوان مختلفة يشبه العباءة وكان يرتديه المتصوفة.

(١٤٤) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج١، أسكندرية بدون تاريخ، ص٨١

(١٤٥) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٣٢-٤٣٣.

(١٤٦) عن إسراف المتصوفة في أكل الحشيش. انظر: الجوبري، كشف الأسرار، ص٢٩؛ محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج١، ص٨١.

(١٤٧) آدم صبره، الفقر والإحسان، ص٥٢.

(١٤٨) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٣٠.

(١٤٩) انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، ترجمة ١٥٧٩، ص١٣٥-١٣٦.

(١٥٠) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٤٣٣؛ وانظر أيضًا : محمد المرسي حسن، " الزوايا في العصر المملوكي بالقاهرة "، رسالة ماجستير غير منشورة، آثار القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٢٨؛ آدم صبره، الفقر والإحسان، ص٥٣. وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ حسن الجوالقي توفى في عام ٧٢٢هـ.

(١٥١) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٣٣.

(١٥٢) البداية والنهاية، م٧ ص٧٠٩؛ وانظر أيضًا : ابن قاضي شهبه، تاريخه، م٣، ص١٦٣

(١٥٣) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، تحقيق إبراهيم حمادة، القاهرة ١٩٦١م، ص١٤٩.

(١٥٤) آدم صبره، الفقر والإحسان، ص٥٣.

(١٥٥) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(١٥٦) انظر ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، ص٢٠٥-٢١٠؛ وانظر أيضًا : ص٢١٣-٢١٧، ص٣٦٦ وغيرها.

(١٥٧) مجهول المؤلف، المفاخرات الباهرة، ص٤٣-٤٤.

(١٥٨) تكريم المعيشة، ورقة ٣٢.

(١٥٩) علي السيد، الجواري في مجتمع مصر المملوكية، القاهرة ١٩٨٨م، ص٤٨؛ سامية مصيلحي، " البغاء في مصر في العصر المملوكي ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧ "، بحث منشور في حوليات آداب عين شمس، مجلد ٣٣، مارس ٢٠٠٥م، ص١١٩.

(١٦٠) الجامع لمفردات الأدوية، ج٣، ص٣٩.

(١٦١) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٨، ص١٣٩، ١٤٩؛ سهام أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية، ص١٩٦؛ عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج١، ص١١٧؛ Rosenthal, The Herb ,p. 132.

(١٦٢) البستان الكافوري أنشأه محمد بن طغج الأخشيد (٣٢١-٣٣٤هـ ٦م) ولما قدم جوهر الصقلي إلى مصر في عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م، جعل هذا البستان داخل القاهرة، وعرف في الدولة الفاطمية بالبستان الكافوري. انظر ابن عبدالظاهر، الروضة البهية في القاهرة المعزية، ص٦٢-٦٣؛ المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٥.

(١٦٣) تنسب أرض الطبالة إلى نسب طبالة الخليفة المستنصر الفاطمي، وكان الخليفة قد منحها الأرض المجاورة للمقس، فعرفت بها، وذلك منذ عام ٤٥٠هـ/١٠٥٩م، وظلت تعرف بها حتى العصر المملوكي. لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٥-١٢٦.

(١٦٤) كان الجسر يقع بأرض الطبالة وكان يفصل بين بركة الرطلي وبين الخليج الناصري أقامه الأمير الوزير سيف الدين بكتمر الحاجب في سنة ٧٢٥هـ عندما انتهى من حفر الخليج الناصري، وأذن للناس في البناء عليه فحكر وبنيت فوقه الدور، فصارت تشرف على بركة الرطلي وعلى الخليج. انظر: المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٢، ١٦٥-١٦٦. أما عن بركة الرطلي فهي جملة أرض الطبالة، وعرفت أيضًا ببركة الطوابين من أجل إنه كان يعمل فيها الطوب، وكان في شرقيها زاوية بها نخل كثير، وفيها شخص يصنع الأرطال الحديد التي تزن بها الباعة، فسماها بركة الرطلي نسبة لصانع الأرطال. لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٦٢.

(١٦٥) المقريزي، المواعظ، ح٢، ص٢٥، ١٢٥-١٢٦، ١٢٨.

(١٦٦) الروضة البهية، ص٦٣.

(١٦٧) ابن عبدالظاهر، الروضة البهية، ص٦٣؛ المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٥.

(١٦٨) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٥.

(١٦٩) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص٢٦.

(١٧٠) الروضة البهية، ص٦٢؛ وانظر أيضًا : القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٣٥٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٤٨؛ Rosenthal, The Herb, p. 135.

(١٧١) المواعظ، ج٢، ص١٢٦.

(١٧٢) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص٦١.

(١٧٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص٦١.

(١٧٤) ديوان نزهة النفوس، ص٢١٥-٢١٦.

(١٧٥) عن الدرهم انظر ما يلي هامش ٢٠٦.

(١٧٦) ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، ص٢١١-٢١٣.

(١٧٧) المواعظ، ج٢، ص١٢٦.

(١٧٨) سودون الشيخوني عنه انظر ما يلي هامش ٢٤٩.

(١٧٩) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨.

(١٨٠) انظر ترجمته عند ابن حجر، رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق على محمد عمر، ص٢٠٠-٢٠١. وتجدر الإشارة إلى أنه من قضاة المائة الثامنة.

(١٨١) ابن حجر، رفع الآصر، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة ١٩٩٨م، ص٢٠١.

(١٨٢) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(١٨٣) ديوان نزهة النفوس، ص٢٨٦.

(١٨٤) مجهول، المفاخرات الباهرة، ص٣٧-٣٨.

(١٨٥) مجهول، المفاخرات الباهرة، ص٤٥.

(١٨٦) بدائع الزهور، ج٤، ص١٥٦.

(١٨٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٥٦.

(١٨٨) ابن ظهيره، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٦٩م، ص٢١١.

(١٨٩) ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، ص٣٧٣.

(١٩٠) بدائع الزهور، ج٥، ص٥٦-٥٧.

(١٩١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٥٨.

(١٩٢) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٣٧٤.

(١٩٣) Rosenthal, The Herb, pp. 66,67-68.

(١٩٤) مجهول، المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، ص٣٩-٤٠.

(١٩٥) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٣٧٣.

(١٩٦) عن المشاعلية انظر نجوى كيره : " المشاعلية وأثرهم في المجتمع المصري خلال العصر المملوكي "، بحث منشور في كتاب المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٨٧، ٨٩، ١٠٥، ١٠٦، ١١٢.

(١٩٧) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، دراسة وتحقيق إبراهيم حمادة، ص٢٢٥، ٢٢٨، ٢٩؛ وانظر أيضًا : عبادة كحيلة، الرط، القاهرة ١٩٩٤م، ص١٠٤؛ نجوى كيره، المشاعلية، ص٨٧، ٨٩، ١٠٥، ١٠٦، ١١٢.

(١٩٨) زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، ج٥، بيروت ١٩٩٨م، ص٦٦١.

(١٩٩) الزركشي، زهر العريش في تحريم الحشيش، مخطوط ورقة ١٧، والمنشور؛ انظر Rosenthal, The Herb, pp. 195-196 ؛ الأقفهسي، إكرام من يعيش، ص٦٦، ٦٧.

(٢٠٠) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٧.

(٢٠١) انظر ترجمته عند ابن قاضي شهبه، تاريخه، م٤، ص٢٠٥-٢٥١؛ ابن حجر، رفع الأصر عن قضاة مصر، ص٤٧٧؛ إنباء الغمر، ج٤، ص٣٧٦-٣٥٠؛ السخاوي، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ج٥، ص٢٠٥؛ الحنبلي، شذرات الذهب، بيروت بدون تاريخ، ج٧، ص٤٠-٤١.

(٢٠٢) رفع الأصر عن قضاة مصر، ص٤٧٧ (ترجمة ٢٥٩)؛ انظر : الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٤٠.

(٢٠٣) رفع الأصر، ص٤٧٧.

(٢٠٤) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج٢، ق٣، ص٥٩١.

(٢٠٥) محمد السيد الأرناؤوط، المخدرات والمسكرات بين الطب والقرآن والسنة، القاهرة ١٩٩٠م، ص١٢٣، ١٢٤.

(٢٠٦) وزن الدرهم يساوي ٣,١٢٥ جرام. انظر: فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، عمان ١٩٧٠م، ص٤٧؛ Rosenthal, The Herb, p. 73. note 2

(٢٠٧) انظر ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص٣٩؛ أبو بكر القسطلاني، تكريم المعيشة، ورقة ٢٣.

(٢٠٨) تكريم المعيشة، ورقة ٢٥.

(٢٠٩) انظر ما سبق، ص .

(٢١٠) إتمام التكريم، ورقة ٦١.

(٢١١) إتمام التكريم، ورقة ٨٦.

(٢١٢) إتمام التكريم، ورقة ٨٤، ٨٥.

(٢١٣) تكريم المعيشة، ورقة ٣٣.

(٢١٤) تكريم المعيشة، ورقة ٤٢.

(٢١٥) أبو بكر القسطلاني، تكريم المعيشة، ورقة ٤٢.

(٢١٦) نشرها قصي محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٨٧هـ، ص٣٦. أما المزر فشراب يصنع من الذرة، في حين أن البتع هو من نبيذ العسل وكان يصنع في اليمن، انظر : مجموعة فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص١٩٧، ٢١٥

(٢١٧) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، نشرها قصي محب الدين الخطيب، ص٦٠، ٦١.

(٢١٨) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج٣٤، ص٢٠٤-٢٠٥.

(٢١٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص٢١٠، ٢١٣.

(٢٢٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص٢٠٥، ٢١٤.

(٢٢١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج٣٤، ص١٩٧، ٢١٢، ٢١٥، ٢٢٤؛ وانظر أيضًا . ابن حجر العسقلاني، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ص٢٨٠.

(٢٢٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج٣٤، ص٢١١، ٢١٢. قال عليٌّ رضي الله عنه : جَلَدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر أربعين وأبو بكر أربعين وكملها عمر ثمانين. ومن ثم فقد جعل ابن تيمية الجلد بين ثمانين جلدة وأربعين جلدة عملاً بهذا الحديث. انظر ابن حجر، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ص٢٧٩.

(٢٢٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٥، ص٦٦٢

(٢٢٤) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٥، ص٤٢، ٦٦٤.

(٢٢٥) المفسد هو المشوش للعقل مع عدم السرور في الغالب كالبنج، انظر القرافي، كتاب الفروق أنوار البروق في أنواء الفروق، ج١، دراسة وتحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة محمد، ص٣٦٤.

(٢٢٦) التعزير لغة الرد والمنع وشرعًا : تأديب على ذنب لا حد فيه، من ثم فهو تأديب دون الحد وليس فيه شيء مقدر إنما هو متروك لرأي الإمام أو الحاكم حسب المصلحة، وحده الأدنى النصيحة ويتدرج إلى الضرب والإعدام. انظر ابن حجر، بلوغ المرام في أدلة الأحكام، ص٢٨١، هامش ٢ ، ٣.

(٢٢٧) الفروق، ج١، ص٣٦٤.

(٢٢٨) انظر الزركشي، زهر العريش، المنشور p. 189 ؛ الأقفهسي، إكرام من يعيش، ص٦١.

(٢٢٩) انظر : الزركشي، زهر العريش، المنشور P. 187

(٢٣٠) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٢، ص١٥٣-١٥٤.

(٢٣١) إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٨، ص١٣٩؛ وانظر أيضًا : سهام أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية، ص١١٤؛ عبدالمنعم ماجد، نظم سلاطين المماليك ورسومهم، ج١، ص١١٧.

(٢٣٢) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، بيروت ١٩٨٥م، ج٢، ص٧٤.

(٢٣٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٤؛ سامية مصيلحي، البغاء في مصر، ص١١٤.

(٢٣٤) السلوك، ج١، ق٢، ص٥٥٠.

(٢٣٥) المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٠٦؛ وانظر أيضًا : ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٧٤؛ ابن إياس، ج١، ق١، ص٣٢٦.

(٢٣٦) بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢٦.

(٢٣٧) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٥٣-٥٥٤؛ المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٠٦؛ بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية في تاريخ الدولة التركية، نشر عبدالحميد صالح حمدان، القاهرة ١٩٨٧م، ص٥٦.

(٢٣٨) ابن دانيال، خيال الظل، تحقيق إبراهيم حمادة، ص١٥٠؛ وانظر أيضًا : ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٢٣٩) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٢٤٠) ابن دانيال، خيال الظل، ص١٥٢؛ وانظر أيضًا : ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢٧.

(٢٤١) نقلاً عن ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص٣٣٥؛ أحمد صادق الجمال، الأدب العامي، ص٢٠٦.

(٢٤٢) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٢.

(٢٤٣) توفي في عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م، انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٣، ص٣٢٨-٣٢٩، ترجمة رقم ٣٢٤٠؛ المقريـزي، المـواعظ، ج٢، ص١٤٨-١٥٠؛ Rosenthal, The Herb, p..

(٢٤٤) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٤٩؛ السلوك، ج٢، ص٢٥٦، ج٢ ق٢، ص٣٢٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٣٢٨-٣٢٩؛ أحمد عبدالرازق، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليـك، القـاهرة ١٩٨٢م، ص٢٣؛ سهام أبو زيد، الحسبة، ص١٩٤.

(٢٤٥) انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج١، ص٤٣٩-٤٤٠.

(٢٤٦) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٦٧؛ السيوطي، حسن المحاضـرة، ج٢، مصـر ١٢٩٩هـ، ص٢١٣-٢١٤؛ ليلى عبدالجواد، " نائب السلطنة في القاهرة في عصر دولة المماليك البحرية "، بحث منشور في مجلة المؤرخ المصري، العدد الأول ١٩٨٨م، ص١٩٢؛ محمد عبـدالغني الأشـقر، نائـب السلطنة المملوكية في مصر، القاهرة ١٩٩٩م، ص١٩٧.

(٢٤٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٣٢.

(٢٤٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٧٧.

(٢٤٩) انظر ترجمة الأمير سودون الشيخوني عند ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، تحقيق محمـد محمـد أمين، ترجمة رقم ١١٢٨، ص١٠٤-١٠٩؛ النجوم، ج١٢، ص١٥١-١٥٢؛ ابن حجـر، إنبـاء الغمر، ج٣، ص٣٠٣-٣٠٤؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٨٦٥.

(٢٥٠) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.

(٢٥١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٩، م٢، ص٩؛ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصـر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٨م، ص٧١.

(٢٥٢) المقريزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨-١٢٩.

(٢٥٣) المواعظ، ج٢، ص١٢٩.

(٢٥٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٧، ص٣٤٧-٣٤٨؛ المقريزي، السـلوك، ج٤، ق١، ص٤٨٦؛ حامـد زيان، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٦م، ص٨٢.

(٢٥٥) إنباء الغمر، ج٨، ص١٣٩.

(٢٥٦) إنباء الغمر، ج٨، ص١٣٩، ١٤٩.

(٢٥٧) بدائع الزهور، ج٢، ص١١٩.

(٢٥٨) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص١٤٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٢٢؛ محاسن الوقاد، " الحجابة زمن سلاطين المماليك "، بحث منشور في كتاب مصر في العصر المملوكي، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٢٣٦.

(٢٥٩) تولى ولاية القاهرة بعد وفاة أخيه تاج الدين الشوبكي، وذلك في ربيع الأول ٨٣٩هـ/ أكتوبر ١٤٣٥م. انظر المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٩٥٩، ٩٩٣؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص٣٣٢.

(٢٦٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٦٣.

(٢٦١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ح٤، ص٧٦-٧٧؛ وانظر أيضًا : محاسن الوقاد، الحجابة، ص٢٣٦، ٢٣٨-٢٣٩؛ قاسم عبده قاسم، النيل، ص٧١؛ حامد زيان غانم، الأزمات الاقتصادية، ص١٢٠. أما عن الوالي علان من قراجا فقد تولى ولاية القاهرة في جمادي الأولى سنة ٩٠٧هـ. انظر : ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢١.

(٢٦٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٠٣؛ حامد زيان، الأزمات الاقتصادية، ص١٢٠-١٢١؛ لطفي نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، القاهرة ١٩٩٦م، ص١٢٣.

(٢٦٣) بدائع الزهور، ج٥، ص١٢٨.

(٢٦٤) معيد النعم ومبيد النقم، ص٤٣.

(٢٦٥) التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٠.

(٢٦٦) التشهير والتجريس الأولى من شهر والثانية من جرس، ومعناها اللغوي التنديد والتسميع وإذاعة ما يشين الذنب، وهو بغرض الإيلام النفسي للمذنب. فهو من ناحية ردع للمذنب وعبرة وعظة لغيره ممن تسول لهم أنفسهم الإقدام على فعله من ناحية أخرى. انظر : علاء طه، السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ٢٠٠٢م، ص١٦٢، هامش ١.

(٢٦٧) ء طه، عامة القاهرة، ص١٣٦-١٣٧.

(٢٦٨) osenthal, The Herb, pp. 136-137.

(٢٦٩) مام العلامة قطب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ الإمام ابن العباس أحمد بن علي النوري المصري ثم المالكي الشافعي المعروف بالقسطلاني، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة، ولد سنة ٦١٤هـ، أقام بمكة مدة طويلة، ثم صار إلى مصر، وكان حسن الأخلاق محبًا إلى الناس، توفى آخر المحرم من سنة ٦٨٦هـ انظر : ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣١٤.

(٢٧٠) هما مخطوط بدار الكتب المصرية فقه المذاهب الأربعة ٤٦، رقم الميكروفيلم ٤٦٦٤٢

(٢٧١) بداو الكتب المصرية فقه تيمور ٧٢٥، ميكروفيلم رقم ١٢٤٩٤. وقد قام فرانز روسنتال Franz Rosenthal بنشر مخطوطة ثالثة منه في كتابه .

The Herb. Hashish versus Medieval Muslim Society, Leiden1971 .
Pp176-197 .

(٢٧٢) المحرم من سنة ٨٠٨هـ وهو أحد أئمة الفقهاء الشافعية في ذلك العصر.كما يذكر ابن حجر. وصنف التصانيف المفيدة، وله أحكام المساجد وأحكام النكاح وحوادث الهجرة وغير ذلك ابن حجر، إنباء الغمر، ج٥، ص٣١٣-٣١٥، وانظر . مقدمة التحقيق لمخطوط إكرام من يعيش، ص٤-٦.

(٢٧٣) معرفة دار الصحابة للتراث بطنطا، ١٩٩١م.

(٢٧٤) ير، البداية والنهاية، م٧، ص٤٠٧.

(٢٧٥)كثير، البداية والنهاية، م٧، ج١٤، ص٧٠٩؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه، م٣، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م، ص١٦٣.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات :

- أبو بكر القسطلاني (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م) :

– تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة، مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه المذاهب الأربعة ٤٦ ميكروفيلم رقم ٤٦٦٤٢.

– إتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم، مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه المذاهب ٤٦، ميكروفيلم ٤٦٦٤٢.

- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبدالله ت ٧٩٤هـ/١٣٩١م) :

– زهر العريش في الكلام على الحشيش، مجاميع ٦٤٣ ميكروفيلم ٤٩٧٨.

– زهر العريش في تحريم الحشيش، فقه تيمور ٧٢٥ ميكروفيلم ١٢٤٩٤.

ثانيًا : المصادر العربية والمعربة :

- ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م) :

– بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، تحقيق محمد مصطفى، فيسبادن ١٩٧٥م.

- ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن إبراهيم اللواتي ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :

– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دائرة معارف الشعب، بدون تاريخ.

- ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) :

– الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، بولاق ١٨٧٤م.

- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) :

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الأجزاء ٤ ، ٧، طبعة دار الكتب، القاهرة، بدون تاريخ.

• ابن تيمية (تقي الدين أحمد ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م) :

- الحسبة في الإسلام، نشر قصي محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٨٧هـ.

- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، نشرها قصي محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٨٧هـ.

- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية،جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدي الحنبلي، مجلد ٣٤، ٣٥، الطبعة الثالثة، المطبعة السلفية، ١٤٠٣هـ.

• ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) :

- رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة ١٩٩٨م.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م.

- بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ضبط وتصحيح السيد محمد أمين وعبدالوهاب عبداللطيف، دار الفتح، بدون تاريخ.

• ابن دانيال (شمس الدين بن دانيال الموصلي ت ٧١١هـ/١٣١١م) :

- خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، دراسة وتحقيق إبراهيم حمادة، القاهرة ١٩٦١م.

• ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م):

- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال عز الدين، جزءان في مجلد واحد، بيروت ١٩٨٥م.

• ابن سودون البشبغاوي (ت ٨٦٨هـ/١٤٦٣م) :

- ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبدالمجيد، القاهرة ٢٠٠٣م.

- ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) :

- فوات الوفيات والذيل عليها، ٤ مجلدات، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٢-١٩٧٤م.

- ابن ظهيرة (أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن علي ٨٢٥-٨٩١هـ) :

- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، القاهرة ١٩٦٩م.

- ابن عبدالظاهر (محي الدين بن عبدالظاهر المصري ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) :

- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، بيروت ١٩٩٦م.

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) :

- تاريخ ابن الفرات، م٩، ج٢، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عزالدين، بيروت ١٩٨٣م.

- ابن قاضي شهبة (تقي الدين أبي بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م) :

- تاريخ ابن قاضي شهبة، المجلد الثاني، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م، المجلد الرابع، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٧م.

- ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبي عبدالله محمد الزرعي الدمشقي ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م):

- زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، الجزء الخامس، بيروت ١٩٩٨م.

- ابن كثير (عماد الدين أبي الفدا إسماعيل ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) :

– البداية والنهاية، المجلد السابع (ج١٣، ١٤) تحقيق محمد عبدالعزيز النجار، القاهرة ١٩٩٢م.

• ابن الوردي (سراج الدين أبي حفص عمر (منتصف القرن ٩هـ/١٥م) :

– خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة بدون تاريخ.

• ابن الوزان الزياتي (المعروف بالحسن الوزان وبليون الأفريقي ت ٩٥٧هـ/١٥٥٠م):

– وصف أفريقيا، ترجمة عبدالرحمن حميدة، القاهرة ٢٠٠٥م.

• الأقفهسي (أحمد بن عماد بن محمد بن يوسف ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) :

– إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، تحقيق دار الصحابة للتراث، بطنطا ١٩٩١م.

• الجوبري (عبدالرحيم بن عمر الدمشقي) :

– المختار في كشف الأسرار.

• الحنبلي (أبو الفلاج عبدالحي بن العماد ت ١٠٨٩هـ) :

– شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الأجزاء من ٥-٧، بيروت، بدون تاريخ.

• السبكي (تاج الدين عبدالوهاب ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) :

– معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، أبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، القاهرة ١٩٤٨م.

• السخاوي (محمد بن عبدالرحمن محمد بن عثمان ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) :

– الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ١٢ جزء، بيروت، بدون تاريخ.

• الصيرفي (علي بن داود الخطيب الجوهري ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م) :

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، أربعة أجزاء، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٧٤م.

• طافور :

- رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م.

• العمري (ابن فضل الله شهاب الدين أحمد ٧٠٠-٧٤٩هـ/١٣٠٠-١٣٤٩م) :

- التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت ١٩٨٨م.

• القرافي (شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) :

- كتاب الفروق أنوار البروق في أنواء الفروق، دراسة وتحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة محمد، المجلد الأول، القاهرة، بدون تاريخ.

• القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) :

- صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٢، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة، بدون تاريخ.

• الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف المصري) :

- كتاب الولاة وكتاب القضاة، صححه رفن كَست، بيروت ١٩٠٨م.

• مجهول المؤلف :

- المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، دراسة وتحقيق محمد الششتاوي، القاهرة ١٩٩٩م.

• المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، جزءان، عن طبعة بولاق، بدون تاريخ.

- السلوك لمعرفة دول الملوك، الأجزاء ١ ، ٢ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٧١م؛ والأجزاء ٣-٤ تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢م.
- كتاب المقفي الكبير، ج١، ٧ ، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بدون تاريخ.

ثالثًا : المراجع العربية والمعربة :

- إبراهيم الدسوقي جاد الرب، ابن مكناس والشعر في عصر المماليك، القاهرة ١٩٩٠م.
- أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٦٦م.
- أحمد صبحي منصور، العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، سلسلة تاريخ المصريين ١٨٦، القاهرة ٢٠٠٠م.
- أحمد عبدالرازق، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٢م.
- أحمد عبداللطيف، " الأمراض الاجتماعية في مصر الإسلامية في عصر الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م) " بحث منشور في مجلة كلية الآداب ـــ قنا، العدد الثامن ١٩٩٨م، ص١٠٣-١٤٢.
- آدم صبره، الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠-١٥١٧م، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ٢٠٠٣م.
- إسماعيل عبدالمنعم محمد قاسم، " الأمراض الاجتماعية بين الطبقةالارستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م "، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس ١٩٨٨م.

- سامية علي مصيلحي، " البغاء في مصر في العصر المملوكي ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م "، بحث منشور في حوليات آداب عين شمس، مجلد ٣٣، سنة ٢٠٠٥م.
- سعيد عبدالفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م.
- سهام أبوز يد، الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربية إلى نهاية العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٦م.
- شلبي إبراهيم الجعيدي، طبقة العامة في مصر في العصر الأيوبي، ٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧٠-١٢٥٠م، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة ٢٠٠٣م.
- عبادة كحيلة، الزط والأصول الأولى لتاريخ الغجر، القاهرة ١٩٩٤م.
- عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٩م.
- عزت حسين، موسوعة المسكرات والمخدرات الجديدة، القاهرة ١٩٩٠م.
- علي السيد محمود، الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، القاهرة ١٩٨٨م.
- علاء طه رزق، السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ٢٠٠٢م؛ عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ٢٠٠٣م.
- قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٨م.
- محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، إسكندرية ١٩٩٠م.

الأدب في العصر المملوكي، ٣ أجزاء، الإسكندرية بدون تاريخ.

- محمد السيد أرناؤوط، المخدرات والمسكرات بين الطب والقرآن والسنة، القـــاهرة ١٩٩٠م.
- ممدوح عبدالرحمن عبدالرحيم، المساوئ الاجتماعية في مصر الفاطمية ومقاومة الخلفاء الفاطميين لها (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م).
- لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، سلسلة تـــاريخ المصريين، القاهرة ١٩٩٦م.
- نجوى كمال كيره، " المشاعلية وأثرهم في المجتمع المصري خلال العصر المملوكي "، بحث منشور في كتاب المجتمع المصري في العصرين المملـــوكي والعثمـــاني، ص٨٥-١٢٥، القاهرة ٢٠٠٧م.

رابعًا : المرجع الأجنبية :

- Franz Rosenthal, The Herb Hashish versus Medieval Muslim Society, Leiden 1971

ومطحق به تحقيق لمخطوطة الزركشي، زهر العريش.

دكتور بشير زين العابدين *

تحقيق مخطوط : «تاريخ الأستاذ سيدى على أبو الحسن وفا»

(١٠٧١-١٠٧٧هـ / ١٦٦١ - ١٦٦٥م)

لم تكد تهدأ الأوضاع فى مصر عقب أحداث فتنة قتل الفقارية التى اشتهرت باسم : «واقعة الصناجق» سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م ، حتى برزت فتنة أخرى ، اصطلح المؤرخون المحليون على تسميتها : «واقعة الضرب» والتى وقعت أحداثها سنة ١٠٧٧هـ / ١٦٦٥م، وكانت السمة الغالبة للفترة الممتدة ما بين واقعة الصناجق وواقعة الضرب هى التوتر السياسى وتدهور الأوضاع الأمنية بسبب هيمنة قادة الفرق العسكرية على النظام الإدارى والمالى، وإغراقهم البلاد فى حالة من الفوضى نتيجة الصراع الدائم بينهم على السلطة والنفوذ . وفى خضم هذه الأحداث تصدى عدد من مؤرخى مصر خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى لتدوين هذه الأحداث وتوثيقها ، لتظهر ملامح مدرسة تاريخية متكاملة خلال تلك الفترة ، من أبرز مصنفيها : إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى[1]، وعلى أبو الحسن وفا ، ومحمد بن محمود [2]، وعلى بن رضوان [3]، حيث شكلت هذه المجموعة جيلاً من المؤرخين يقع في مرحلة وسطى؛ ما بين مؤرخى النصف الأول من القرن السابع عشر وعلى رأسهم : الإسحاقى ومرعى بن يوسف والغمرى وابن أبى السرور [4]، ومجموعة مؤرخى القرن الثامن عشر ومن أبرزهم : المللوانى وأحمد شلبى والشاذلى والدمرداش [5].

وفى عمله التاريخى الفريد يعمد على وفا إلى تفصيل أحداث الفترة الممتدة ما بين ١٠٧١ و ١٠٧٧هـ / ١٦٦١-١٦٦٥م . وذلك من خلال تقديم وجهة نظر السلطة الدينية فى مصر ، ونظرتها لتطور الأحداث السياسية فى مصر العثمانية خلال تلك الفترة، حيث يعكس المؤرخ .

---

* قسم العلوم الاجتماعية - جامعة البحرين .

مكانة رجال الدين فى الحياة السياسية، فقد كان الجامع الأزهر والجامع المؤيد وجامع الداودية والمحمودية وغيرها من مساجد القاهرة محور الأحداث السياسية، بل إن كثيراً من الضباط المتمردين كانوا يلجأون إلى الجامع الأزهر طلبًا للآمن ، وكان رجال السلطة يتهيبون من انتهاك حرمة السلطة الدينية. كما يعكس المصنف في تاريخه أهمية الدور الذى لعبه كبار رجال الدين المتمثلين فى قاضى القضاة وعلماء الأزهر والأشراف والسادة البكرية والوفائية ، كحضورهم الديوان وإصدارهم الفتاوى الحاسمة للخلافات السياسية وقيامهم بدور الوساطة بين ضباط الأوجاقات المتصارعين . ويحرص أبو الحسن وفا كذلك على ذكر جملة من القصائد التى صنفها بعض المحسوبين على السلطة الدينية فى التعليق على الأحداث مما يوفر مادة خصبة حول طبيعة العلاقة بين السلطة الدينية والسياسية فى مصر إبان العصر العثمانى.

ويشكل مخطوط على أبو الحسن وفا أهمية كبيرة لاستكمال الجهود الهادفة إلى توثيق تاريخ مصر خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر ، حيث يبذل المصنف جهداً كبيراً فى تدوين أحداث السنوات الممتدة ما بين واقعة الصناجق وواقعة الضرب، وتقع النسخة الوحيدة من هذا المخطوط فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٢٢٦٩ تاريخ) وهى ضمن مخطوطين آخرين فى مجموعة واحدة تقع فى ٢٤٦ ورقة (٤٩٢ صفحة ، حجم الصفحة ١٧ سم × ١٢ سم) [٦]، تحتوى الصفحة الواحدة على حوالى ١٧ سطراً .

وقد أثار هذا المخطوط اهتمام المؤرخ الكبير عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم الذى كتب عنه فى عدة مواضع، وذهب إلى أن مصنف تراجم الصواعق - إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى- قد ألحق بمؤلفه بعد الباب الثانى تواريخ أخرى هى :

١- تاريخ سيدى على أبو الحسن وفا .

٢- تاريخ وقعة الضرب فى شهر صفر ١٠٧٦هـ / أغسطس ١٦٦٥م.

٣- تاريخ الشيخ محمود (ابن محمود) عن أحداث سنة ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩- إبريل ١٦٧٠م.

٤- تسجيل الصوالحى الخاص لأحداث التاريخ المصرى حتى توقفه عن التدوين سنة ١١١٣هـ / ١٧٠١م.

معلقًا على ذلك بقوله :

«كما أننا نستطيع أن نؤكد أنه [أى الصوالحى] قد عاش النصف الثانى من القرن السابع

عشر ومطلع القرن الثامن عشر حيث إنه لم يتوقف عن الكتابة إلا فى عام ١١١٣هـ / ١٧٠١م"[٧].

ولكن القراءة المتأنية للمخطوط تدفعنا للاختلاف مع د. عبد الرحيم فى نسبة العمل الأخير إلى الصوالحى ، والتأكد على أن المخطوط يتضمن ثلاثة فقط، وهى على النحو التالى :

١- تاريخ ربراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى فى واقعة الصناجق سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، (يقع فى ٥٤ ورقة) .

٢- تاريخ الأستاذ سيدى على أبو الحسن وفا ، ابتداء من جماد الثانى سنة ١٠٧١هـ / فبراير ١٦٦١م ، حتى سنة ١٠٧٦ هـ / ١٦٦٥م، (يقع في ١٩ ورقة) .

٣- تاريخ محمد بن محمود ابتداء من وقعة الضرب في شهر صفر سنة ١٠٧٦هـ / أغسطس ١٦٦٥م، وحتى شهر ربيع الأول سنة ١١١٣هـ / أغسطس ١٧٠١م، (يقع فى ١٧٤ ورقة) [٨].

وقد أغفلت كتب التاريخ المعاصرة ومعاجم المؤلفين وكتب التراجم الإشارة إلى : «على أبو الحسن وفا» ضمن مؤرخى مصر خلال القرن السابع عشر الميلادى . وحيث إن المصنف لم يترجم لنفسه فإن الطريقة الوحيدة لتقصى بعض المعلومات عنه هى الرجوع إلى كتابه ومحاولة التعرف عليه من خلال الاستئناس بالقرائن المتوفرة فى ثنايا المخطوط ، ويمكن من خلالها الاستنتاج بأن المؤلف كان معاصراً للأحداث التى وقعت فى مصر خلال الفترة التى يغطيها فى تاريخه ، وذلك من خلال استخدامه لكلمة : «حالا» للإشارة إلى أن الشخص المشار إليه لايزال على رأس منصبه ، كما يترك المصنف انطباعًا لدى القارئ بأنه كان على صلة وثيقة بعلماء الأزهر حيث ينفرد بذكر مادة مهمة عن دور العلماء فى الأحداث السياسية التى وقعت فى القاهرة آنذاك ، ويورد العديد من الأبيات الشعرية لعلماء مصر فى التعليق على الأحداث السياسية ومحاولتهم التأريخ للأحداث باستخدام الحروف الأبجدية .

وفى الوقت الذى لايذكر فيه المصنف أى سبب واضح لكتابة تاريخه ، إلا أنه من الواضح أن على وفا قد كرس شهادته التاريخية للحديث عن الأوضاع السياسية والإدارية فى القاهرة خلال الفترة : ١٠٧١-١٠٧٧ هـ / ١٦٦١-١٦٦٥م، حيث يتسم عمله بصبغة محلية تجعل من قلعة الجبل مركزاً للأحداث التى وقعت فى القاهرة ، دون الاهتمام بأحوال الأقاليم أو بذل

أى جهد لترجمة الشخصيات السياسية أو الدينية التى يرد ذكرها ، بل يولى جل اهتمامه لتدوين الأحداث السياسية فيرصد حركة تعيين الصناجق وعزلهم فى المناصب الإدارية ، وخاصة مناصب القائمقامية والدفترادرية وإمارة الحاج وسردارية السفرات السلطانية والتجريدات المحلية التى كانت توجه إلى الأقاليم، وقد هيمنت خلافات الفرق العسكرية على غالب مادة المخطوط ، حيث يكثر المصنف من سرد خلافات الفرق العسكرية التى كان تحل عن طريق خروج بعض الأنفار من بلد إلى آخر، أو الاتفاق مع الباشا على نفى مثيرى الشغب إلى مناطق نائية ، وقد يصل الأمر إلى التخلص منهم عن طريق قتلهم من قبل خصومهم.

وقد قام الباحث بمراجعة النص، وحيث إنه لايتوفر سوى نسخة واحدة منه، فقد قام بمقارنته مع المخطوطات المعاصرة له وبالأخص منها: إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى؛ **تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق** . محمد بن محمود ؛ **تاريخ مصر ابتداء من وقعة الضرب** . على بن رضوان ؛ **زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة** . يوسف الملوانى؛ **تحفة الأحباب** أحمد شلبى ؛ أوضح الإشارات. مع الإشارة إلى بعض الفروقات بين ما ورد فى المخطوط بالمقارنة مع المصادر الأخرى، كما تم إثبات المخطوط كما هو دون إجراء أى إضافة باستثناء إضافة الهمزات ووضع الفواصل والنقاط ليستقيم المعنى، وتركت سائر الأخطاء اللغوية والإملائية على حالها ، نظراً لما فى ذلك من أهمية لتكوين تصور واضح عن المستوى الثقافى والعلمى للمصنف ، مع الإشارة لتراجم بعض الشخصيات المهمة فى تلك الفترة ، والتعريف بأهم المناطق والأقاليم ، والمصطلحات الإدارية وغيرها من المعلومات التى تساعد على فهم النص وتكوين صورة واضحة حول ظروف العصر. وبالإضافة إلى ذلك فقد تم ضبط التواريخ الهجرية ومقارنتها بالميلادية فى الهامش لتمكين القارئ من تتبع الأحداث وفق أشهر السنة الشمسية.

النص كاملاً ومحققًا

تاريخ الأستاذ سيدى على أبو الحسن وفا حفظه الله تعالى (فى قتل الفقارية) [٩]: قد قدر الله على فتية تنغيص عيش كان فيهم هنى لما فتنوا بحبهم لمحنة تختم الكف على الألسن، فإنهم قد جاءنا تاريخهم ، فرحمة على المؤمنين .

تخميس آخر للشيخ محمد أبى السرور الهوى[١٠]:

عيونى والمدامع قرحتها ... وأحشاء عدا شرحتها
بأفعال لقتلى أستها ... تجنوا لى ذنوبًا ما جنتها

يداى ولا أمرت ولانهيت

ولا سوءاً أردت أسؤ مصرا ولاتمليكها أخذاً وقهرا

ولاخنت الإمام وملت دهرا ولا والله ما أضمرت غدرا

كما قد أضمروه ولانويت

لمولى الأنام يخان عهدا وكم لى منه إحساناً ورفدا

ولكن للأعادى تم قصدا ويوم الحشر موقفنا وتبدوا

صحيفة ما جنوه وما جنيت

ويعلم شينهم جعلوه شينى وما نقلوه من عذرى ومينى

فكفا مقلتى فبأى ذنبى سيحكم بينهم ربى وبينى

فويل للخصوم إذا التقيت

ولبعضهم تخميس آخر

ألا كم من خطوب قد جنتها فى الدنيا ومظلمة أتتها

ولما عاينوا الحسنى محتها تجنوا لى ذنوباً ما جنتها

يداى ولا أمرت ولانهيت

فصبراً يا أولى العزمات صبرا على حكم القضا نفعًا وضرا

فلم تترك لى الأعداء عذرا ولا والله ما أضمرت غدرا

كما قد أضمروه ولانويت

فكم ذنب لى الأعدا أعدوا وكم زور وبهتان أعدوا

فحسبى منهم قولا يعد ويوم الحشر موعدنا وتبدوا

صحيفة ما جنوه وما جنيت

فيا من رام بعد القرب بينى بما أبداه من كذب ومينى

عسى يوم الحساب تقر عينى ويحكم بينهم ربى وبينى

فويل للخصوم إذا التقيت

بمصـــــر كـــــان وزيـراً لـنعم الـلـه حـــــامـــــد

كم جـــاهد الجـــور غـــزواً بـســيـف عــدل وســاعــد

بشّــر مــات شــهــيــداً أرخــت غــازى مــجــاهد[١١]

أ- ولاية إبراهيم باشا[١٢]:

وفى أواخر جمادى الثانى سنة ١٠٧١ حضر قابوجى من الديار الرومية وصحبته أمرين وقـريت بالديوان [١٣]، الأول مضمونه : بأن يدفع ديون الأمراء المقتولين على وجه الحق، والثانى : لا أحد يتصرف فى جامكيته ولايفرغ[١٤] منها وإن مات وخلف أولاد لايعطى لأولاده شيئًا وأكد فى الأمر الشريف غاية التأكيد ، فلما سمعت العسكر ذلك قالت : هذا ما هو قانون ، والعسكرى ما له غير جامكيته عندما يتعين لسفر السلطان يبيع منها ما يحتاج لأجل ما تعيينه على السفر، ومن مات منا وخلف أولاد لايعطى لولده شيئا منها، وكان حينئذ فى السفر كريد[١٥] فطلبوا العسكر من مصطفى باشا بيورلدى[١٦] فى الفراغات .

وفى مستهل رجب سنة تاريخه [١٧]، تجمعت جميع الأمرا والأغوات والعسكر واتفقوا على كتابه محضر إلى مولانا السلطان محمد[١٨] بأن الذى أمر به لم يحصل للخزينة ضرر وكنا قبل تاريخه نضبط الخزينة[١٩] والآن حضر خط شريف[٢٠] بأن ولاية مصر أوليتها لوكيلى ، فامتعنا من الضبط وإن الباشات الذى يتولوا مصر هم الذى يتعللوا بذلك ، فبلغ مصطفى باشا فنزل بيورلدى إلى الأمرا والعسكر أنكم تكتبوا المحضر ونحن نرسله صحبة طائفة من عندى وطائفة من عندكم فاتفق رأيهم وكتبوا عرض وعينوا أحمد بيك بقناطر السباع وطاش يطر على آغا الطواشى ومن كل بلك نفر واحد وتوجهوا فى تاسع شهر رجب سنة تاريخه، فلما وصل أحمد بيك أرسل لجميع الأمرا مكاتيب يخبرهم [...][٢١] وقرئت الأمورات الذى جاء بها ابراهيم باشا مضمونها : أن تخرجوا أولاد العرب من جميع البلكات [٢٢]، ويرفع المرتبات واسم أولاد وعيال بمكة المكرمة والمدينة المنورة فوافقت الأمرا والعسكر وكتبت حجة[٢٣] بالديوان ثم تسلسل الأمر ، وكان إبراهيم باشا حاكمًا كاتبًا قد ضبط الأموال الديوانية وأخذ دفاتر العنبر الشريف واطلع على الغلال السلطانية وأخذ الجراية والعليق للعساكر وغيرهم وكذلك الجوامك[٢٤] عند حلولها فارتفعت من جوامك النساء الثلث وذلك فى غرة شهر ذى القعدة سنة ١٠٧١ [٢٥].

وفي أواخر ذى الحجة سنة تاريخه حضر خاسكى[٢٦] من الديار الرومية وبيده أمورات وقرئت بالديوان العالى ، فعند قراءتها قال الأمراء والعسكر فيما بينهم : نحن نجعل لنا جمعية[٢٧] فى سبيل على باشا، وتعهدوا بأننا رجل واحد . فبلغ ذلك ابراهيم باشا فنزل لهم بيورلديات لجميع البلكات : أنكم لاتجعلوا لكم جمعية فى سبيل على باشا ولا فى غيره، وكل منكم يلزم بيته إلى أن يتوجه خاسكى السلطان ، ومهما كان لكم من الكلام وغيره العهدة عليّ وفى حال لكم سؤال أو كلام أنا القائم به، فبعد ذلك عمل أحمد بيك ضيافة إلى الخاسكى وكذلك عوض بيك الدفتردار[٢٨] وتوجه الخاسكى فى ٢٤ محرم سنة ١٠٧٢ [٢٩].ويوم توجه الخاسكى عزل سنان جاويش زعيم مصر[٣٠] كان وقع يوم تاريخه غلغلة كبيرة، فقيل إن إبراهيم باشا طلب ثلاثمائة نفر من البلكات ومن جملتهم أحمد بيك حاكم[٣١] جرجه سابقًا فمشوا بذلك الذى ذكرناه ، فقامت العسكر على إبراهيم باشا وقالوا: ما نريد مصطفى آغا[٣٢] كتخدا[٣٣] الجاوشية [٣٤]، فعزله وولى يوسف آغا الذى كان ترجمان الديوان، وفى ثامن عشرين شعبان سنة ١٠٧٢ [٣٥]، عزلوا إبراهيم كتخدا طائفة الينكجرية[٣٦]، وسجنوا ثمانية أنفار فى القلة[٣٧] ولم أحد يعلم ما فعلوا بهم، فلما حصل ذلك بطل القال والقيل، وفى ثانى يوم تاريخه طلع أحمد بيك وصحبته السادة البكرية[٣٨] إلى إبراهيم باشا وتصالحوا بحضرة الوزير ووقع الصلح بينهم .

وفى عاشر شهره جماعة من بلك الينكجرية قطعوا الطريق على امرأة ويهدلوها وفتحوا ابزازها وأخذوا السوار منها وخلعها ولولا أن الله تعالى أرسل إلى المرأة عبداً لهؤلاء حتى خلصها من أيديهم لكانوا استفعلوا بها على قارعة الطريق ، وكان معها آغا طواشى فتوجه إلى باب[٣٩] الينكجرية وأخبرهم بما وقع من الخبر ، فنزل جاويش من بابهم وأخذ الذى فعلوا ذلك، وثانى يوم نزلوهم فى حديد فما نعلم ما فعلوا بهم.

وفى أواخر ذى القعدة ، عين أربعة أنفار من الجاوشية على كاشف[٤٠] الفيوم لتخليص مال السلطان، فتوجهوا له فوجدوا عنده اغا من آغاوات إبراهيم باشا بطلب مال السلطان ، فقال الآغا للجاوشية: أنا عيننى كتخدا الجاوشية بمعرفة الوزير، فأرسلوا الجاوشية عرفوا طائفة الجاوشية بذلك فاعرضوا الأمر على إبراهيم باشا فكان من جوابه إلى طائفة الجاوشية: إن كان عندكم حجة أو بيورلدى يشهد لكم ما يتعين فى خلاصه إلا طائفة الجاوشية أظهروه ولم بقيت لكم فى البيورلديات حتى تظهروه ، وكان ذلك فى ٢٩ ذى القعدة سنة ١٠٧٢[٤١]، فقالوا له

إن الحجة موضوعة فى صندوق فى نوبة خانه، فطلعوا بها يوم الأحد فقرأها حرفًا حرفًا وكتب عليها بيورلديًا بعمل ما فيها ، ثم إن طائفة الجاوشية قاموا قومة واحدة على كتخدا الجاوشية وقالوا ما نريده ، فعزله وولى محمود آغا الذى كان ترجمان الديوان حالاً يوم تاريخه .

وثانى يوم شهر ذى الحجة تجمع العسكر بالرميلة[٤٢] وقالوا : إن بيننا أنفار يستحقون التأديب ، فأمر إبراهيم باشا بنفى محمد بيك كاشف المنصورة حالاً، وكان بجدة سابقًا وهو من جماعة الفقارية [٤٣]، وإبراهيم بيك أمير الحاج[٤٤] الشريف حالاً ، ومصطفى آغا معمار باشه من المتفرقة [٤٥]، وسليمان آغا كتخد الجاوشية سابقًا ، ويوم تاريخه اخلع على ابن منديل خلعة بآغاوية الجملية[٤٦] وأحمد آغاة الجملية كان ألبسه كشف المنصورة ومرتضى باش طائفة المتفرقة اخلع عليهم الخلع ، وثالث يوم اخلع على أزبك بيك وسليمان آغا خلعتين ووجههم إلى أرض الحجاز يجيبوا الحاج الشريف، ورسم إلى ابراهيم بيك أمير الحاج الشريف المذكور بخمسمائة عثمانى وعشر جرايات[٤٧] وعشرة علايق ويقعد بالمدينة المنورة، وكذلك مصطفى آغا المعمار رسم له بمائة عثمانى بالمتقاعد[٤٨] بالمدينة المنورة ، فتوجه أزبك بيك فى خامس شعر ذى الحجة سنة ١٠٧٢ [٤٩].

وفى يوم الثلاث تاسع ذى الحجة طلع أحمد بيك فاتح الحبش[٥٠] سكنه بقناطر السباع يسلم على ربراهيم باشا فقتله وقتل مصلى كتخدائه فى يوم تاريخه .

من الملك الجبار ما أسرع النقم ... على هوة تأتى وقد خاب من ظلم
بغى أحمد البشناق فى مصر واعتدى ... وخالف مولاه ولم يحفظ النعم
وبالغ بالطغيان والظلم والأذى ... وحقر أرباب العلوم ذوى الفهم
وشبّه بالطغيان جامع أزهر ... بمالطة الكفار عبادة الصنم
وزاد علواً واحترابًا وغلظة ... وآذى عباد الله فى الحل والحرم
ولما تناهى فى الغرور وفى الأذى ... وفى قهره الأيتام وهتكه الحرم
أتى من مليك العصر مرسومه الذى ... به قلم الإسعاد فى الطرس وقد رقم
بتجريعه كأس المنية سرعة ... وتفسيره فى حدى ذى الهلك والعدم
فبعد امتثال الأمر فى الحال حين جرى ... عليه سيوف قاهرات من القدم

فقطع بالديوان حين قدومه على يد مولانا الوزير وقد حكم
بوقفة عيد النحر قد كان نحره ككبش الفدا يبغى التشبه بالغنم
وأرخت فى هذا حروفًا لطيفة فخذ عدها تظفر بنوع من الحكم
شقى عصى سلطانه لاح قبره بذلك تاريخ الذى عزه انعدم[٥١]
فلازال إبراهيم حاكم مصرنا ونار قره فى النار يهوى بما ظلم
وصلى إله العرش ربى دائمًا على المصطفى المبعوث فى ن والقلم
كذا الآل والأصحاب ما قاله من الملك الجبار ما أسرع النقم

لعمر النهوانى :

لما طغى البشناق فى عصره وعارض السلطان فى أمره
فى يوم وقفة عيد نحرانه طلع إلى الديوان فى جهله
أهلكه الله ولم يبقه ومات مكبويًا على وجهه
قد قلت فى الظلم مذ أرخوا جهنم تأتيه مع لحده
يارب بحق الحبيب النبى محمد المبعوث من ربه
أبقى وزيراً حاكمًا عادلاً يسمى إبراهيم والطف به
وأهلك جميعًا كل أعدائه [شطر البيت غير مقروء]
صلي إله العرش ربى على محمد الممدوح فى كتبه
نبينا شافعنا المجتبى وآله الابرار مع صحبه
زباد الجنود بنقض العهود وضم النقود إلى جنبه
تقرب في ليلة الأضحية فتاريخه جاء باغى هلكه

وفى يوم الأربعاء رابع عشرين ذى الحجة سنة تاريخه حضر أميراخور[٥٢] من البلاد الرومية وصحبته سهام وخلعة وسروال إلى إبراهيم باشا وأمر شريف فى حق أحمد بيك المقتول المذكور، وفى ثالث عشرين ربيع الثانى سنة تاريخه انجمعت العسكر فى الرميلة طلبوا من إبراهيم باشا أن يطلع الخزنة فأرسل إليهم يقول : تمهلوا علينا عشرين يومًا وأنا اطلع الخزينة،

وكان ذلك بواسطة درويش كتخدا الينكجرية ، فاتفقت العسكر على ذلك وقالوا : بشرط أن يكتب إلى جميع البنادر بيورلديات ما أحد من الأفاقية يطلع من مصر، وإن وجدوا الأولاق(٥٣) يأتوا به إلى إبراهيم باشا، وكتب ذلك واخلع على حسين بيك خلعة سردارية(٥٤) من الديوان فى سابع جماد الأول سنة **١٠٧٣** ، وشالت الخزينة من العادلية(٥٥) فى سابع عشرين شهر تاريخه (٥٦).

وفى رابع عشر شهر رجب حضر أمر شريف برفع صنجقية(٥٧) حسين بيك كتخدا أحمد بيك المقتول وأمره بالتوجه إلى ثغر اسكندرية وعين له مائتين عثماني وجرايات من محصول اسكندرية، وقرئ الأمر الشريف بالديوان ، وفيه : من كان أهل شقاوة وفساد تنظرهم وترسل تعرفنا عن المفسدين، ونزل حسين بيك المذكور فى المركب إلى اسكندرية.

وفى سادس عشر رجب جمع الأمراء وآغاوات البلك وأبرز بيورلدى شريف بنفى قيطاس آغا كتخدا أحمد بيك المقتول إلى إبريم، ومصطفى كتخدا شعبان بيك وقانصوه كتخدا أحمد بيك بأنهم يتوجهون إلى ولاية جرجه يقعدون بها، وحسين بيك يقعد باسكندرية، فقيطاس بيك المذكور توارى فى مقام سيدى إبراهيم الدسوقى ، وبعد مدة من الزمان حضروا بمصر غير إبراهيم بيك أمير الحاج فإنه توفى بالمدينة المنورة، وفى سابع عشرين رمضان سنة تاريخه خلع على محمد بيك المتقدم ذكره خلعة الدفتردارية .

وفى ثالث عشر شعبان سنة ١٠٧٤ (٥٨)، جمع إبراهيم باشا الأمراء والآغاوات والاختيارية(٥٩) وغيرهم وجعل على الأموال الديوانية على كل كيس خمسة آلاف نصف ، وعلى الغلال كل أردب نصفين فضة تؤخذ من الملتزمين(٦٠) لأجل تكميل الخزينة ، وكتب حجة بما تقدم ذكره إلى الأمناء (٦١)، وأرسلوها إلى حضرة مولانا السلطان محمد صحبة مرزا آغا ومن كل بلك شخصًا واحداً وتوجهوا بالحجة.

ويح مصر بعد عز لقيت   سوء ذل وكذا خطبًا جسيما
كيف لاتخرب مصر وبها   حاكم بل ظالم فظ غليظا
جار عسفًا وعتواً واعتقب   ما بأيدى مستحق ويتيما
ونسا أرملات سباهم   بعد قطع الرزق لم يلقوا رحيما
وأخرب الأوقاف والأشراف وقد   أهانهم ما يخشى يومًا عظيما

لیت شعری فی غد ما عذره ... إله حاكم ربًا حكيما
سوف يلقى الهلاك وكذا ... من أراد السوء فی مصر ذميما
قاله محيى الدين عنه خبراً ... شيخنا الأكبر قولاً مستقيما
وهو فی الحبر للتاريخ تم ... إن ربراهيم شيطانًا رجيما

وقال:

جاء بالصدق حديث مستند ... قد رووه الناس عن خير البشر
من نوى سوءاً لمصر عاجلاً ... سوف يلقى هلاكا وضرر
وكذا إبراهيم لما أن طغى ... لقى الساعة أدهى وأمر
عزلوه ثم ولوا عمراً ... وله المقدور بالسجن أمر
رخصت أسعار مصر وغدت ... فی هنا وكذا جاء المطر
فهو شيطان وقد أرخته ... يهرب الشيطان فی يوم عمر

وفی ثامن شهر رمضان عزل زعيم مصر وتولى عوضه حسين بغانه، وولوا آغاة الجراكسة(٦٢) فی منصبه، وعزل ابن يحيی زاده الذی أخذ عنه ، وعزل جالق مصطفی من آغاواة الجبجية، وفی ثالث عشر رمضان نزلوا مصطفی آغا المذكور إلی بلك الكشيدة(٦٣) وعابدين جاويش وزندار طائفة المتفرقة سابقًا وقريبه حسن جاويش وأمين الخردة الجميع من بلك المتفرقة نفوهم إلى اسكندرية ، وفی خامس عشر رمضان ظهرت قائمة مكتتبة عن طائفة الجاوشية أولها شاويش آغا كتخدا الجاوشية وإبراهيم آغا بن حجی باشا ترجمان الديوان حالاً، وكاتب حوالة الجاوشية وهو يومئذ أحمد أفندی(٦٤) الشهير بشكر باره، وأحمد جاويش الشنكجی وبعض أنفار ، وثانی يوم وقع تنبيه(٦٥) واجتمعوا ببيت كتخدائهم وقروا فاتحة بأنهم رجل واحد وإن حصل طلب فی أدنی نفر منهم لم يسلموا فيه.

وفی سابع عشر شوال سنة ١٠٧٤ (٦٦)، اجتمعت الصناجق على العادة ببيت قائم مقام(٦٧) وتمت محاسبة إبراهيم باشا ، فالذی طلع عليه ألف ومائتين كيس وسبعة وثلاثون كيسًا بما فيه المواجب والصر غير محاسبة الغلال، وفی يوم تاريخه حضر أولاق من الديار الرومية برجوع دلاور آغا من إبريم ، وقيل : أنعم عليه مولانا السلطان محمد بثلثمائة عثمانی وخمس

جرايات وخمس علايق ، وثاني يوم أرسلوا الحجة والفتوة الذى ربطوا بها الخمسة آلاف نصف المضاف[٦٨] على الأموال ومحاسبة إبراهيم باشا وأرسلوها صحبة نفرين؛ نفر من المتفرقة ونفر من الجاوشية، وأرسلوا إلى مرزه بأنه يرجع العرض الذى كان توجه به .

وفى ٢١ رمضان وقع كلام بين سليمان آغاة الينكجرية سابقًا وبين كتخدا الجاوشية بسبب المحتسب ، فقيل : إن سليمان آغا قلّ أدبه على كتخدا الجاوشية ، فقاموا عليه طائفة الجاوشية وأخذوا عليه بيورلدى شريف بأنه يلزم بيته إلى آخر رمضان وثالث يوم العيد يتوجه إلى بلاده ، وفى ٢٦ رمضان سنة تاريخه قاموا على أحمد جاويش الشنكجي بنوبة خانه وبهدلوه بهدله زايدة وأنزلوه ببلك المتقاعدين ، وكذلك كاتب الحوالة ويوسف الشهير بيرجي يوسف نزلوهم فى بلك المتقاعدين وكان ذلك يوم الأربعاء، وصروا المواجب يوم تاريخه ، ورفعوا قلم أحمد أفندى المذكور من مقاطعة الغربية[٦٩] وقرروا فيه محمد أفندى بن قادرى زاده ، وفى سنة تاريخه نزلوا قلعلى حسين جاويش وسنان جاويش الوزندار وأبرش حسين ورضوان جاويش الطويل فى بلك المتقاعدين ، ومحمود جاويش برابع نوبه وعبد الكريم جاويش طردوهم من نوبهم ، وشاويش كتخدا الجاوشية أرسلوا له بيورلدى أن يتوجه إلى بلاده ولاينام تلك الليلة فى بيته ، فتوجه فى ساعته ، وفى ثالث شوال ألزموا عشرة أنفار من الجاوشية أن يلزموا بيوتهم ، ستة من عصبة أحمد جاويش الشنكجي وأربعة أنفار من النوب، وفى رابع شهر شوال وهو يوم الخميس طلعوا إبراهيم باشا قصر يوسف سجنوه به وكتخدائه وكاتب الديوان والمقابلجى وناظر الشون وخاص وكيل خراج سجنوهم بالبرج ، وصراف باشا ويهودى ثانى سجنوهم بالعرقانة[٧٠].

وفى سابع عشر شوال سنة ١٠٧٤ [٧١]، تجمعت طائفة الجاوشية في جامع الداودية واتفقوا بأن السبعة أنفار الذين نزلوهم بلك المتقاعدين ينفوهم إلى إبريم ، فنزلت لهم أربعة جاوشية بناء على ينزلوا بهم إلى إبريم ، فوجدوا حسين ويرجي يوسف فأخذوهم ونزلوا بهم إلى بولاق، فساعة أخذهم توجهت أهل بيوتهم إلى باب الينكجرية وشكوا إليهم بما وقع فتشفعوا طائفة الينكجرية فيهم وكذلك جميع البلكات، وقرأوا فاتحة بأنهم يقعدوا فى بيوتهم بأدبهم ولم أحدا منهم يطلع من بلك المتقاعدين إلى بلك غيره .

وفى حادى عشر شوال نزلوا إبراهيم باشا من قصر يوسف وحاسبوه فوجدوا فى ذمته تسعمائة كيس وكسور، فأخذوا منه ستمائة كيس وكسور وتفضل عنده ثلثمائة كيس[٧٢].

وثانى يوم تاريخه صلى صلاة الجمعة فى أثر النبى صلى الله عليه وسلم الذى بمصر القديمة ، فإن إبراهيم باشا المذكور وسعه وجدده وبنى تحته رصيفًا لدفع ماء النيل عن بنائه ورتب له مائة عثمانى وارصد له طين وعين به قراء وطائفة وحراس قاطنين بأثر النبى، وشرط النظر أن يليه آغاوية الينكجرية بمصر المحروسة وحسين جاويش وأحمد جاويش المتقدم ذكرهم، فحسين جاويش عمل جركس بيك وأحمد جاويش نزل بلك الينكجرية . وأرسل إبراهيم باشا بيورلدى إلى شاويش كتخدا جاوشان سابقًا برجوعه إلى مصر لأجل محاسبة محمد آغا آغاة البنات الذى كان منفيًا فى إبريم فإنه رجع من إبريم بأمر من السلطان ، فأحضروا شاويش كتخدا الجاوشية بسبب محاسبته وأيضًا حسين بيك الذى نفوه إلى ثغر اسكندرية أرسل له قائم مقام بيورلدى بالتوجه إلى بلده، وكذلك سليمان آغا آغاة الينكجرية سابقًا توجه إلى بلاده .

وفى ١٧ ذى القعدة سنة ١٠٧٤[٧٣]، اجتمعت طائفة الينكجرية فى باب آغاتهم وعزلوا كتخدائهم هو مصطفى القندقجى ، وأمين بيت المال ببابهم نفوه إلى قبرص ، وجقرجى على ويندقجى ولى ويوسف أوضه باشه[٧٤] نفوهم إلى إبريم ، وأربعة أنفار كانوا طلعوهم من بلكهم سابقًا رجعوهم إلى البلك يوم تاريخه .

ب- ولاية عمر باشا [٧٥]:

وفى أواخر ذى الحجة سنة ١٠٧٤ حضر عمر باشا، وطلع الديوان فى يوم الخميس ابتداء شهر ذى الحجة ، وثانى يوم تاريخه حضرت بشاير من السلطان محمد نصره الله وأطال بقاءه جاء له ولد ذكر واسمه مصطفى، وزينت مصر المحروسة سبعة أيام ، ويوم تاريخه قرئ الأمر الشريف بالزينة[٧٦] وقرئ أيضًا بحضرة الصناجق والآغاوات والعسكر، وأكد فيه أمره الشريف مضمونه : أنكم اجتهدتم فى تكميل الخزنة وتشكر من العسكر جميعهم وبيض الله وجوههم ، وأرسلتم سابقًا عرضًا باتفاقكم على خمسة آلاف نصف تصاف على كل كيس لاجل يكميل الخزينة ، ثم أرسلتم عرضًا ثانيًا تعتذروا فيه وذكرتم تقولوا ما فعلنا هذا وكتبنا حجة وفتاوى السادة العلماء، وتقولوا فى العرض هذه مظلمة أيش هذا الكلام ؟ وتربة أجدادى الشريفة تقتدوا الأمر بالروزنامة[٧٧] وكل من عاند أقتله بأشد العذاب . فعندما سمعت أرباب الديوان والصناجق غلغلت فى الكلام فى تلك الساعة ، فعند سماع عمر باشا غلغلتهم تعهد إلى العسكر : إن حصل لهم ضرراً وغير ضرر يكون المشار إليه دافع عنهم ما يضرهم ، وفى يوم الاثنين اجتمعت الصناجق والآغاوات حكم العادة ببيت[٧٨] بيك قائم مقام واتفقوا بأنهم يجعلوا

على كل كيس ألفين نصف فضة وعلى كل أردب من الغلال نصفين فضة، فجمعوا ذلك فبلغ مائتين كيس وعشرة آلاف نصف فضة ، وجعلوا على الكشوفية الكبرى وهى أرباب المناصب على كل كيس ألف نصف فضة ، وينزلوا من ثمن القفاطين ثلاثون كيسًا ، وفى يوم الثلاثاء رفعوا الحراس عن إبراهيم باشا وحصل الاتفاق بينه وبين عمر باشا وكذلك العسكر، والذى تفضل بذمته يدفعه فى الديار الرومية ، وفى ثالث عشر ذى الحجة توجه إبراهيم باشا إلى الديار الرومية فكان مدة تصرفه بمصر سنتان وعشرة أشهر.

وفى ثالث عشر ذى الحجة اخلع عمر باشا على كتخدا الجاوشية والترجمان والمحتسب ومصطفى آغا الشهير بقطلك كيله سى باش طائفة المتفرقة ، وباش متفرقة ولاه آغاوية الجراكسة، ويوم تاريخه انجمعت العسكر بالرميلة وعزلوا يوسف آغا الينكجرية وولوا عوضه مصطفى آغا باش المتفرقة المذكور أعلاه، وولوا حسن آغا الشهير بلفيا عوضه(٧٩)، ومصطفى آغا المذكور لم وجدوه بمصر ، وقيل : إن يوسف آغا ومصطفى آغا المذكورين كانوا متفقين مع ابراهيم باشا على الخمسة آلاف المضافة الذى تقدم ذكرها .

وفى ثامن شهر صفر وهو يوم الجمعة سنة ١٠٧٥ (٨٠)، انجمعت طائفة الينكجرية وطائفة العزب(٨١) بالرميلة بأسلحتهم وأرسلوا إلى أغوات بلك الاسباهية(٨٢) والصناجق فحضروا عندهم، وتكلموا معهم من جهة مصطفى آغا كتخدا الجاوشية أن جميع العسكر ما يريدون المذكور أن يكون كتخدا الجاوشية ، فطلعت الأغوات إلى عمر باشا وعرفوه عن ذلك ، فأرسل يقول للعسكر : اطلبوا من يكون كتخدا ، فاعرضوا على حضرة عمر باشا أننا ما نطلب سليمان آغا آغاة الينكجرية سابقًا ولاشاويش كتخدا الجاوشية ولا ابن حجى باشا ، هذه الثلاثة أنفار لايعطى لهم منصب ، ويعطى لمن يختاره صاحب الدولة ، فعند ذلك خلع على يوسف آغاة التفكجية خلعة كتخدا الجاوشية ، وولى رمضان أفندى كاتب المتفرقة سابقًا آغاوية التفكجية وعزل يوسف كتخدا الجاوشية فى ثامن ربيع الثانى سنة ١٠٧٥ (٨٣).

وفى سنة تاريخه تولى رمضان اغا الشهير بالأرمنى الشون الشريفة وأمين البحرين، وفى تاسع ربيع الأول وهو يوم الاثنين سنة تاريخه انجمعت طائفة الينكجرية فى باب آغاتهم وقاموا على درويش كتخدائهم سابقًا ومراد كتخدائهم سابقًا ويهدلوهم وضربوهم وحبسوهم فى القلة، واعرضوا فيهم إلى عمر باشا وطلبوا منه بيورلدى بقتلهم ، فأعرض عنهم ولم أعطاهم بيورلدى ، فراجعوه ثانى مرة فأعطاهم بيورلدى بخنقهم فى القلة يوم تاريخه ، وفى شهر تاريخه توفى

إلى رحمة الله تعالى محرم بيك بن ماماى بيك، وفى يوم الثلاث خلع على رمضان آغاة التفكجية حالاً خلعة الصنجقية ، ومصطفى آغاة العزب خلع عليه بآغاوية الينكجرية ، وشاويش كتخدا الجاوشية سابقًا ولاه آغاوية العزب، ومحمد آغا الشهير بابن يحيى زاده ولاه آغاوية التفكجية يوم تاريخه ، ثم إن طائفة الينكجرية انجمعت فى باب آغاتهم وقالوا : ما نريد مصطفى آغا يكون آغاتنا ، فعزلوه ولبسوا الشريف حسين آغات الجراكسة سابقًا ، وفى يوم الأربع قامت طائفة الجاوشية على يوسف كتخدائهم وعزلوه وولوا مصطفى أفندى الذى كان ترجمان ، وولى جعفر آغا تابع قاسم بيك آغاوية الجراكسة ، وأحمد بيك سردار كريد ولاه كشوفية الغربية، وأحمد أفندى ابن بواب زاده ولاه الترجمانية فى حادى عشر شهر ربيع الثانى سنة ١٠٧٥ .

وفى ثالث عشر ربيع الثانى اخلع على أحمد بيك خلعة بسردارية الخزينة، وفى ١٣ جمادى الأول سنة ١٠٧٥ حصلت زلزلة، وفى تاسع عشر ربيع الثانى وهو يوم السبت انجمعت طائفة الينكجرية وطائفة العزب بالرميلة بأسلحتهم وجمعوا بقية البلكات ، وقالوا : نحن لنا دعوة شرعية على أويس بيك قائم مقام سابقًا ، فقالوا لهم : إن كان لكم دعوة شرعية على أويس بيك نحن وأنتم رجل واحد، وأرسلوا الصناجق وأغوات البلكات الخمسة فحضروا بالرميلة يوم تاريخه ، راعرضوا الأمر على عمر باشا فأرسلوا إلى أويس بيك وقت أذان الظهر فطلع الديوان، ثم إنهم ادعوا عليه طائفة الينكجرية وطائفة العزب أنه قتل شخص منهم ، فقال : نعم مملوكى وقتلته، فثبت عليه القتل بحضرة قاضى العسكر(٨٤) بالديوان فخنقوه بالديوان يوم تاريخه ، وكان قبل تاريخه أرسل عمر باشا إلى محمد بيك أمين جدة أن يطلع وطاقه(٨٥) ويتوجه فطلع وطاقه يوم تاريخه ، وكان زعيم مصر سنة تاريخه محمد مملوك الشكعة .

وفى ثالث عشر جماد الأول سنة ١٠٧٥ (٨٦)،خلع عمر باشا على محمد بيك خلعة حكومة ولاية جرجه عوضًا عن دلاور بيك، وفى شهر تاريخه ظهر نجم بالسماء وله ذنب طوله ذراعين أو أكثر وحصل زلازل ثلاثة مرار، وفى شهر تاريخه انجمعت طائفة الينكجرية والاسباهية فى الرميلة وعزلوا جعفر آغاة الجراكسة ونفوا ثمانية أنفار من الاسباهية إلى الواح، منهم : قيطاس شربجى واكشى أحمد من طائفة الجملية، وثانى يوم ولوا حسين بيك كاشف المنصورة سابقًا آغا على طائفة الجراكسة ، وذو الفقار(٨٧) كاشف الشرقية(٨٨) حالاً خلع عمر باشا عليه خلعة الصنجقية وأمينية جده وهى صنجقية أويس بيك، وفى ثانى عشر جمادى الثانى لبس

مصطفى أفندى كاتب المتفرقة سابقًا آغاوية التفكجية ، والذى نفوهم من بلك الجراكسة ثلاثة منهم دخلوا الجامع الأزهر وواحد دخل بيت البكرية ، ويوم تاريخه أرسلوا إلى ابن منديل ومصطفى كتخدا الجاوشية وسليمان آغا آغات الينكجرية[٨٩] سابقًا وجعفر آغاة الجراكسة وحسن كاشف تابع أحمد بيك وقانصوه ومحمد كاشف وهو ابن المقرقع الجميع من بلك المتفرقة ، منهم من نفوهم إلى قبرص ومنهم من فر ، ومنهم من خلص .

وفى ثانى عشرين جمادى الأول سنة تاريخه انجمعت الصناجق وأغوات البلك والعسكر فى بيت محمد بيك ، وقروا الفاتحة ووقع الصلح بينهم جميعًا ، والذى وقع لم يسأل عنه ، والذى مضى لم يسأل عنه ، والذى نفوه سابقًا أرسلوا جابوهم وعفوا عنهم ، وفى سادس عشرين جمادى الأول اخلع على حسين بيك خلعة الدفتردارية ، وفى تاريخه عزلوا على أفندى كاتب حوالة الجاوشية سابقًا وهو ابن مصلح الدين أفندى فكان مقاطعجى الصرف ونبهوه أنه ما يطلع الديوان ، ويقعد ببيته ، ثم بعد ذلك طلع مكانه .

وفى يوم الثلاث سادس عشرين جمادى الأول سنة ١٠٧٥ حضر أمر شريف من الديار الرومية وقرئ بالديوان مضمونه : بموجب عرض إبراهيم باشا تجهز ذو الفقار بيك الشهير بالماحى وصحبته مصطفى أفندى الرزونامجى[٩٠] سابقًا الشهير بابن سهراب[٩١] باقيد بند ، فلما فرغوا من قراءة الأمر الشريف حاش ذو الفقار بيك المذكور بجنبه وأرسل ختم بيته وأرسله إلى الديار الرومية قبل الظهر يوم تاريخه ، وأرسل أحضر مصطفى أفندى المذكور وأرسله خلف ذو الفقار بيك بعد العصر ، وفى أواخر شهر تاريخه أمر عمر باشا محمود آغا كتخدا الجاوشية سابقًا بأن يتوجه إلى المدينة المنورة صحبة يوسف آغا شيخ الحرم النبوى ، ونزلوا ختموا بيت حسين بيك الذى كان نفوه سابقًا إلى اسكندرية ، وكان قائم مقام وجّه حسين بيك من اسكندرية إلى بلده ، فأمر عمر باشا أن يطلع من بلده ويتوجه إلى اسكندرية ، فطلع من بلده ونزل بمركب ليتوجه إلى اسكندرية فأرسل خنقه فى المركب وهو متوجه ، وفى تاريخه طلّعت الينكجرية من بلكهم أربعة أنفار إلى بلك المتفرقة ؛ نفرين من توابع درويش كتخدائهم ونفرين من توابع مراد كتخدائهم المذكورين ، وفى شهر رجب سنة ١٠٧٥[٩٢] ، وهو يوم السبت خلع عمر باشا على ذو الفقار بيك خلعة بحكومة ولاية جرجه ، وعمر باشا فى قرا ميدان[٩٣] عوضا عن محمد بيك الفقارى الذى كان ضربة[٩٤] مصر وكان سكنه ببيت اقبردى .

وفى تاسع عشر شعبان سنة تاريخه انجمعت الصناجق وأغوات البلك فى بيت محمد بيك

المذكور واتفقوا على تعيين تجريدة(٩٥) إلى جميع البلاد بالتفتيش على السلاح، وثانى يوم عين عمر باشا شاويش آغا آغات الجملية وحسين آغا وعسكر من الاسباهية ومائة نفر من الينكجرية وخمسين من العزب وأعطاهم بيورلدى على بياض بالتفتيش على السلاح ، فتوجهوا فى غاية شهر رمضان سنة تاريخه، وحضروا فى ابتداء شهر ذى القعدة وجابوا معهم نحو اثنى عشر حمل مزراق وجانب بندق ونزل عمر باشا كشف عنهم فى قرا ميدان، وخلع على الأغوات الخلع . وفى خامس عشر رمضان سنة تاريخه خنقوا اكشى أحمد باش جاويش الجراكسة سابقًا فى بيت مصطفى اغاة التفكجية حالاً الذى كان بيته بقرب الحنفى وهو من جماعة(٩٦).

وفى سادس عشر رمضان انجمعوا الصناديق وأغوات البلك على العادة فى بيت محمد بيك حاكم ولاية جرجه وهو الضربه واتفقوا على نفى خمسة أنفار إلى جرجه ، فأخذوا البيورلدى عليهم من عمر باشا، وفى ١٧ شهر رمضان (٩٧)، توجه إلى جرجه مصطفى آغا كتخدا الجاوشية وآغاة التفكجية سابقًا أرسلوه إلى بلده خاصة يقعد بها، ومصطفى كتخدا الجاوشية المذكور أرسلوا خلفه بيورلدى شريف بأن يتوجه إلى المدنية المنورة بجميع علوفته (٩٨)، وتوجه من على القصير، ومحمد آغا البلطجى دخل الجامع الأزهر، وإبراهيم جاويش وكيل خراج حضرة مولانا السلطان محمد توارى فى مقام سيدى أحمد البدوى، وفى غاية رمضان سنة تاريخه وقع من فوق الحصان فى بيته تقنطر به فمات ودفن ثانى يوم، وفى حادى عشر شوال توارى حسين جاويش التفكجية الشهير باليمنلى بالجامع الأزهر ومكث فيه أيامًا، قيل : إنه ذكر لمحمد بيك نورالى بأن محمد بيك حاكم جرجه وهو الضربه اتفق على قتله فتحذر على نفسك، فبلغ محمد بيك الضربه فأخذ عليه بيورلدى بنفيه، فبلغ يمنلى حسين فدخل الجامع الأزهر وتوارى فيه، وفى ثالث عشر شوال سنة تاريخه أرسل عمر باشا بيورلدى شريف إلى الجامع الأزهر بأن الذين تواروا عندكم تطلعوهم من الجامع وهم عشرة أنفار وتسلموهم، فاجتمعت العلما والمدرسين والطلبة والبكرية والسادة الوفائية ونقيب الأشراف وهو برهان الدين أفندى وأولاد المكاتيب وتوجهوا إلى بيت قاضى العسكر وعرفوا القاضى بأنه حضر لنا بيورلدى شريف على بياض على يد كتخدا القابوجية من حضرة عمر باشا بخروج عشرة أنفار فارين من القتل، فإننا لم نخرجهم من الجامع ولانسلم فيهم، فأرسل حضرة القاضى جوخدار إلى عمر باشا وعرفه أن أهل الجامع الأزهر والعلما والشرفا والبكرية والسادة الوفائية لم يسلموا لكم فى ذلك الأمر، فأرسل إليهم بيورلدى شريف بالأمان ، وبعد ذلك أمر عمر باشا

المنادى بإشهار الندا أن لا أحد يخرج من بعد العشاء من بيت إلى بيت فلما أشهر الندا المنادى قفلت أبواب الجامع الأزهر الثلاثة، وقيل يوم تاريخه وجه عمر باشا نظارة الجامع الأزهر إلى يوسف أوضه باشة الينكجرية ، فلما وجه النظارة للمذكور بلغ أهل الجامع الأزهر، فقالوا : لم نريده ولانطلب إلا محمود الشهير بالهربطلي يكون ناظراً ، وفى يوم تاريخه قرأت العلماء والمجاورين بالأزهر سورة الأنعام أربع مرات ، وتوسلوا إلى الله تعالى بالدعاء على محمد بيك حاكم جرجه حالاً والضرب ، وقالوا فى دعائهم : يا مفرج الكرب عليك بمحمد بيك والضرب ، وطلعوا على مواذن الجامع الأزهر بالبيارق وطلبوا من الله سبحانه وتعالى بإزالة المذكورين ، وقيل : إن فى ليلة تاريخه اجتمعوا الصناجق والضرب بعد العشاء فى الرميلة وعلقوا مصحف شريف وسهام، وحلفوا أنهم لايضروا أحداً غير أنهم مصممين على العشرة أنفار الذى بالجامع الأزهر وراجعوا فيهم العلماء والمجاورين ، وفى ثانى يوم تاريخه شاهين زعيم مصر قطع رأس شخصين بجنب حوض الجامع الأزهر فضربوه المجاورين بالحجارة ، وقيل إن المجاورين بالجامع الأزهر أخذوا بيورلدى شريف من عمر باشا يوم الأربع وضربوا عيسى الشرقاوى وبهدلوه وقطعوا ثيابه ، وفى ٢٦ شهر جمادى الثانى سنة ١٠٧٥ (٩٩)، توفى إلى رحمة الله الشيخ سلطان المدرس الشافعى بالجامع الأزهر.

وفى شهر محرم سنة ١٠٧٦ (١٠٠)، لبس رمضان بيك الفرجانى سرداراً على سفر جزيرة كريد وتوجه بالعسكر فى ابتداء شهر صفر سنة تاريخه وتوفى بها ، وفى سادس عشرين محرم سنة تاريخه أرسل عمر باشا جاب مصطفى أفندى بن سهراب الروزنامجى، فإنه انقطع فى الطريق عن التوجه صحبة ذو الفقار بيك، فلما حضر أرسلوه إلى ولاية جرجه ، وقيل إن ابن منديل وسليمان آغا ومحمد بن المقرقع ومصطفى القندقجى كان عمر باشا أمر بنفيهم فطلعوا فارين ، فمنهم من توجه إلى الشام ومنهم من توجه إلى الديار الرومية .

وفى ٢٢ شهر صفر الخير سنة ١٠٧٦ (١٠١)، وهو يوم الأربع طلع محمد بيك الضربه إلى عمر باشا فأمر جماعته فضربوه بالسيوف فوقع ذراعه داخل السرايا (١٠٢)، ثم إنهم قطعوا رأسه وأرسلها إلى الديار الرومية ، فكان محمد بيك المقتول حاكم بولاية جرجه والشرقية والمنوفية والفيوم، وفى يوم تاريخه خلع عمر باشا على محمد بيك الشهير بمحمد جاويش كتخدا رضوان بيك سألوه لتولية حكومة جرجه ، وفى رابع عشرين صفر الخير سنة تاريخه جاء لعمر باشا من الديار الرومية خلعة وقرئ الخط الشريف ، فمضمونه : أنك تخرج من حق

المفسدين وأهل الشقاوة وأكد فى الخط الشريف [...] (١٠٣)، وفي يوم تاريخه لبس عوض بيك كشف ولاية المنصورة ، وأحمد بيك تابع قيطاس بيك القديم الساكن بسويقة اللالة كشوفيه ولاية المنوفية، وأرسل عمر باشا إلي شاويش آغاة الجملية سابقًا خلعة بآغاوية الجراكسة عوضًا عن حسين آغا ، قيل : إن حسين آغا كان ضعيفًا . وفى يوم تاريخه لبس مصطفى شربجى مملوك قرا محمد آغا باش قافلة السويس.

وقيل: إن فى يوم تاريخه قبل الظهر بلغ عمر باشا بأن الضرب اتفقوا بأنهم يهجموا على عمر باشا فى القلعة فأمر بقفل أبواب القلعة ، وفى يوم الاثنين سادس عشرين صفر سنة تاريخه أرسل عمل باشا إلى الصناجق وإلى آغاوات البلك : بأنكم تحضروا عندى بعد نصف الليل، فلما أصبح الله بالصباح وأضاء بنوره ولاح انجمعت بقية العسكر وقرئ بحضرتهم أمرين شريفين ، أحدهما : فى حق يملى فضلى ، والثانى: فى حق يوسف أوضه باشا الينكجرية ودرويش على وأصلان جميعهم أوضه باشا طائفة الينكجرية ، فقال عمر باشا إلى باش جاويش الينكجرية : أيش تقول؟ فذكر أنه توجه إليهم فقالت: طائفة مستحفظان أنهم ما يسلموا فى الخمسة المذكورين ما داموا طيبين، فأرسل عمر باشا إلى العلماء والبكرية ونقيب الأشراف وقرئ الأمر الشريف بحضرتهم بالديوان، فرد عليهم باش جاويش مستحفظان بالكلام الذى ذكره عنهم أولاً ، فأمر بكتابة بيورلدى وأعطى إلى زعيم مصر وهو بغانه حسين بإشهار الندا على الخمسة المذكورين بأن جوامكهم رفعت ومن كان ملجئ لهم أو يكون معهم أو بصحبتهم ترفع علوفته ، فبعد ذلك أفتت السادة العلماء بأنهم عصوا الله وأولوا الأمر ، فنزل عمر باشا والصناجق وأغوات البلك إلى قرا ميدان، ونزلوا بيرق النبى صلى الله عليه وسلم معهم وجعلوه فوق باب قرا ميدان، ونزل ستة مدافع فى الرميلة وحطوهم تحت قلعة السلسلة، وباتت تلك الليلة العسكر والصناجق وأغوات البلك فى الرميلة ، وحصنوا الدروب والطرق وعمر باشا بات بقرا ميدان وكان عنده الشيخ البكرى وتوجه إلى منزله .

وفى يوم الاثنين سابع عشرين صفر سنة تاريخه باتت العسكر والصناجق فى قرا ميدان وفى الرميلة وهى ليلة الثلاث، فلما أصبح الله بالصباح أرسل عمر باشا إلى الضرب وهما شخصين داخل جامع المؤيد(١٠٤) وبعض طائفة مستحفظان معهم جوا(١٠٥) الجامع ، وهم قافلين الأبواب وطلعوا على المواذن وسطح الجامع، فقالوا لهم : إن عمر باشا طلب الضرب الخمسة أنفار لا غير وأنتم عليكم الأمان ، فقالوا : ما نسلم فيهم أبداً ولو تروح أرواحنا على

السيوف، فراجعوهم أول وثانى فلم وافقوا فى تسليمهم ، فأخبروا عمر باشا بما ذكروه فأمر بتعيين محمد بيك الشهير بمحمد جاويش وأبى قوره، وأمر العسكر أن يحاصروا الجامع من كل جانب ، وكان يوم السبت ثامن عشرين صفر سنة ١٠٧٦ (١٠٦)، فحاصروهم وأخذوا العسكر ينهوهم فلم يمتثلوا لكلام العسكر ولم يوافقوا على تسليم المذكورين، فنزل عمر باشا المدافع للعسكر بعد أن أفتت السادة العلماء بأن الجامع إن تهدم منه شئ يعمره عمر باشا ، فضربوا المدافع والبندق على الجامع من الظهر إلى وقت العصر ، فأجابوا بالأمان وفتحوا الباب الذى عند السكرية وارموا أسلحتهم ، وخرج منهم نحو خمسين نفر أو أكثر وهم شاهرين السيوف ، فمنهم من أخذه طائفة مستحفظان وحماه، ومنهم من أخذه طائفة العزب، ومسكوا نحو عشرين نفراً باليد وأخذوا أسلحتهم، وقيل : منهم محمد بيك الذى هو معين بالعسكر، ومسكوا درويش على ويمنلى فضلى فى ساعة خروجهم من الجامع ، وأصلان هرب فأخذوا فى أثره فجابوه من قنطرة الدكة ، وقطعوا رؤوسهم فى باب زويلة ، وحضروا برؤوسهم إلى عمر باشا، ويوسف مسكوه فى بيت الشيخ الميمونى فطلعوه يوم الأربعاء وقطعت رأسه بالديوان، وكذلك قرا فضلى ، ثم بعد ذلك خلع عمر باشا على الصناجق والأغوات والكواخى وأرباب الدولة الذى حاضرين خلعًا نفيسة، والذى ما حضر الخلع أعطاه خمسة شريفية(١٠٧) عوض الخلعة وقيل : ما ضبط من عدة الخلع يوم تاريخه مائة وإحدى وعشرين خلعة ، وضبط مال المذكورين بيت مال أمين المال العامة لأن عمر باشا رفع علوفتهم قبل الواقعة.

وقال :

قوم بمصر عتوا بالظلم ثم طغوا إذا أتى إليهم فتى سوء إليه صغوا

هم زربة حين تولوا مصر ما أمنت قالوا متى هلكوا أرخت حين بغوا(١٠٨)

قل للذين أبانوا الظلم واعتصبوا فى مصر قد حكموها زربة ونفر

الميم والخمس الذى كانوا فما رحموا وظلمهم فى البرايا قد فشا وظهر

أراد ربى بأخذ الكل حين بغوا بصرعهم فى الحقيقة إن تراه عبر

هم عصبة قد تراهم إذا تاريخهم سأريكم دار الفاسقين جهر

وزير مصر عمر قد هم فى همه قتل وبين له عليه حرمه

وأهلك الزرب ونصر الأمه وانفك عن مصر فى تاريخها الغمة

الهوامش

١- إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى، تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المعهد العلمى الفرنسى للاثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ويتناول أحداث سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م.

٢- محمد بن محمود ، تاريخ مصر ابتداء من وقعة الضرب، تحقيق بشير زين العابدين، دار الفضيلة ، القاهرة ٢٠٠٧ ، ويغطى الفترة الممتدة ما بين عامى ١٠٧٦ و ١١١٣ هـ / ١٦٦٥-١٧٠١م.

٣- على بن رضوان ، زبدة اختصار تاريخ مصر المحروسة ، تحقيق بشير زين العابدين ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ويتناول فترة الحكم العثمانى بمصر حتى عام ١١١٣هـ/ ١٧٠١م.

٤- ذكرت ليلى عبد اللطيف من المؤلفات التاريخية خلال تلك الفترة: محمد بن عبد المعطى الإسحاقى، لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، القاهرة ١٨٩٧ (ويتوقف عند أحداث سنة ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م، وتستمر تتمة الكتاب حتى أحداث سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م) . ومؤلفات محمد بن أبى السرور مثل : الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة ، والنزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، وعيون الأخبار ونزهة الأبصار ، وكشف الكربة فى رفع الطلبة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلة التاريخية المصرية، العدد ٣٣، سنة ١٩٧٦ (تتوقف أعمال ابن أبى السرور عند أحداث سنة ١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م(، أما كتاب الغمرى ذاكرة الإعلام، فإنه يتوقف عند أحداث سنة ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م انظر ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى ، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٨٠ ، ص١٨٠ .

٥- يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب بمن ملك مصر القاهرة من الملوك والنواب، مخطوط رقم ٥٦٢٣ تاريخ، دار الكتب المصرية، القاهرة، وقد قام بتحقيقها إبراهيم يونس محمد، وحصل بها على درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٨١ ، ثم قام عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم بتحقيقها ونشرها فيما بعد (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٣٦هـ / ١٧٢٣م) أحمد شلبى ابن عبد الغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٧٨ (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م) مصطفى بن الحاج ابراهيم تابع حسن آغا عزبان الدمرداشى ، تاريخ وقائع مصر القاهرة المحروسة، تحقيق صلاح أحمد هريدى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة سنة ٢٠٠٢ ، وقد نشرت الطبعة الأولى من الكتاب فى الاسكندرية سنة ١٩٨٩ ، (ويتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٥٣هـ / ١٧٤١م) أحمد الدمرداش ، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد

الرحيم ، المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٩ (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٦٥هـ / ١٧٥١م) .

٦- يشير الترقيم في أعلى صفحات المخطوط إلى وجود ٢٤٤ ورقة أى ٤٨٨ صفحة، والصحيح هو أن عدد أوراق المخطوط هي كما ورد أعلاه أى ٢٤٦ ، حيث إن ترقيم الصفحتين : ٨٨٠ و ٩٥٨ قد تكرر مرتين، وقد يكون هذا الخطأ من الناسخ أو من المصور الذى أنجز تصوير الكتاب في دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٣ ، كما يظهر في الصفحة الأخيرة من المخطوط .

٧- إبراهيم بن أبي بكر الصوالحي العوفي، تراجم الصواعق في واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ص.١٠-١٤ .

٨- وذلك بخلاف ما ذكره عبد الرحيم في نسبة الجزء الأخير من المخطوط للصوالحي حيث يبرر وجود نقص في نسخة دار الكتب عن النسخ الأخرى التى عثر عليها في المكتبات الوطنية بميونيخ وباريس، بقوله : "ونرى أن السبب في هذا النقص ، أن المؤلف بعد أن وضع مؤلفه عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م، وفرغ منه على الصورة التى رسمها في المقدمة كما هو واضح من النسخ الكاملة لهذا المخطوط، والتى نص فيها على الفراغ منه، وطال به العمر بعد ذلك، فأراد أن يخص الصراعات السياسية بين الصناجق ، فجمع التواريخ السابقة الذكر دون أن يجرى تعديلاً على ما ذكره في المقدمة، ولم يرد داع لتسجيل أحداث واقعة محمد بيك السابقة على أحداث ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م فأهملها وأهمل الخاتمة ، وخصص هذا المجموع لتسجيلاته الخاصة بالفترة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، والتواريخ الأخرى التى ضمها إلى مؤلفه حتى توقفه عن الكتابة يوم السبت ٢٢ ربيع الأول ١١١٣هـ / ٢٧ أغسطس ١٧٠١ م" المصدر السابق، ص ص١١-١٢ . وما ذكره د. عبد الرحيم هو افتراض تدحضه المعلومات الواردة في ثنايا الجزء الثالث من هذه المجموعة ، والذى يمتد عبر ١٧٤ ورقة ـ٣٤٨ صفحة) ترد فيها إشارات عديدة إلى أن تاريخ الفترة ١٠٧٦-١١١٣هـ / ١٦٦٥-١٧٠١م ، هو من تأليف محمد بن محمود ، وليس من تأليف الصوالحي، الذى نص على الفراغ من عمله سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، وليس هناك أى دليل على أنه استأنف الكتابة بعد ذلك العام، وقد قام الباحث بتحقيق تاريخ ابن محمود ونشره في كتاب مستقل سنة ٢٠٠٧ .

٩- هذه زيادة من الناسخ ، والصحيح هو أن على وفا يؤرخ للمرحلة التى أعقبت واقعة الصناجق (قتل الفقارية) مباشرة ، ولايتطرق للحديث عن هذه الحادثة بل يفصل في ولاية كل من ابراهيم باشا عمر باشا ، حتى انتهاء واقعة الضرب سنة ١٠٧٧هـ / ١٦٦٥م.

١٠- يستهل المصنف تاريخه بتخميس أبيات شعرية نسبت لغازى باشا الذى تولى بمصر خلال الفترة .

١٠٦٧-١٠٧٠هـ / ١٦٥٧- ١٦٦٠م، ثم أعدم بعد عزله بناء على أوامر وردت من اسطنبول ، وقد ذكرت هذه الأبيات فى عدة مصادر، ونصها :

أمـور للأعـادى أنتـجـتـهـا يد الأقـدار حـتى أحكمـتـهـا

بنا ـ فى فـؤادى أضـرمـتـهـا تجنوا لى ذنوبًا مـا جنتـهـا

يداى ولا أمرت ولانهيت

انظر . أحمد شلبى، أوضح الإشارات، مصدر سابق، ص١٥٧ ، وابراهيم الصوالحى العوفى، تراجم الصواعق ، مصدر سابق ، ص٨٩ .

١١- سنة ١٠٧١ واحد وسبعين وألف.

١٢- مدة ولايته : غرة جماد الآخر ١٠٧١- ٤ شوال ١٠٧٤هـ / ١ فبراير ١٦٦١-٣٠ أبريل ١٦٦٤م.

١٣- الديوان . يقصد به الاجتماع الدورى الذى يعقده باشا مصر فى القلعة ويحضره كبار الموظفين فى السلك الإدارى بمصر كالروزنامجى والدفتردار ويحضره كذلك ضباط الأوجاقات والعلماء وكبار التجار وغيرهم ، وينقسم إلى قسمين : الديوان الخصوصى ؛ وتغلب عليه الصفة التنفيذية ، والديوان العمومى، الذى يتسم بحضور أوسع ويحمل صفة استشارية غير ملزمة. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٨ . ص٧٦ .

١٤- فرغ . أى تنازل عن حق فى منصب إدارى أو التزام أو مرتب. المصدر السابق، ص٤٥١ .

١٥- كريد: جزيرة كريت التى كان العثمانيون قد قرروا فتحها فى تلك الفترة ، وجهزوا أسطولاً ضخمًا وادعوا بأن الهدف منه هو غزو مالطا ، ولكن الحملة غيرت وجهتها بعد الانطلاق وحاصرت جزيرة كريت التى خضعت لهم إلا أن البنادقة حاولوا استعادة سيطرتهم على الجزيرة فسيطروا على بعض المناطق منها وأهمها قلعة كانديه . يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية. اسطنبول ، ١٩٨٨ ، ص ص٤٩٢-٤٩٤

١٦- بيورلدى: كلمة تركية تعنى الأمر العالى الصادر من الباشا ومحلى بالطغراء أو الختم. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤٢

١٧- مارس ١٦٦١م

١٨- السلطان محمد الرابع : اعتلى السلطان محمد بن ابراهيم سدة الحكم عقب عزل والده سنة ١٠٥٨ هـ/ ١٦٤٨م، وكان عمره آنذاك ٦ سنوات و٧أشهر، وعزل إثر تمرد للانكشارية فى ٢ محرم ١٠٩٩هـ/ ٨ نوفمبر ١٦٨٧م، فكانت مدة حكمه ٣٩ سمة و٣ أشهر ، وتوفى نى ٨ ربيع الآخر سنة

١١٠٤هـ/ ١٧ ديسمبر ١٦٩٢ بالغًا من العمر ثلاثة وخمسين عامًا . محمد فريد بيك المحامى، تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ص١٢٩-١٣٩

١٩- الخزينة : أو الخزنة في الاصطلاح العثماني هي مقدار ما يرسل إلى عاصمة الدولة العثمانية من عوائد بعد إنفاق كل ما قرر السلطان إنفاقه في مصر، حيث يتم إرساله سنويًا بمعية فرقة عسكرية يرأسها «سردار الخزنة» . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني. ص٨٤ .

٢٠- الخط الشريف : فرمان عالى سلطانى . المصدر السابق، ص٤٤٦ .

٢١- وردت هنا عبارة غير واضحة.

٢٢- اللكات : مفردها بلك وتسمى كذلك الأوجاقات ومفردها أوجاق ، وهى كلمة تركية تطلق على الطائفة من الجند وقد تكونت الحامية العثمانية في مصر من سبعة أوجاقات . هى: المتفرقة والجاوشان والجمليان والتفكجيان والجراكسة والمستحفظان (ويطلق عليهم اسم الانكشارية) ، والعزبان . مصطفى رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٨٣ ، ص٧٣ .

٢٣- حجة . الورقة التى تحوى حكمًا شرعيا أو تثبت اتفاقًا بين رجال الإدارة وغالبًا ما تتم على يد القاضى وتعرف بالحجة الشرعية . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٤٤٥ .

٢٤- الجوامك : مفردها الجامكية ، وهى كلمة فارسية الأصل تطلق فى الأصل على المرتب الذى يصرف لشراء ملبس، ثم استخدمت فى سجلات الروزنامه بمعنى المرتب الذى يعطى للموظف أو المعاش الشهرى الذى يصرف للجنود . رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٨٣ .

٢٥- يوليو ١٦٦١م

٢٦- الخاصكى هو الذى يلازم السلطان فى خلواته، وقد أخذ اسمه من الاختصاص ، ويطلق اسم الخاصكية على الذين يسوقون المحمل الشريف ويجهزون المهام الشريفة، وكان فى مصر نوعان من الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين يطلق عليهما لفظ الخاصكية ، فالأول هو وقف الخاصكية المستجدة لوالدة السلطان أحمد ، والثانى هو وقف الخاصكية القديم، وكان أمير الحاج المصرى يحمل معه كل عام إلى الحجاز صرة من ريع هذه الأوقاف وبعض الغلال التى كانت تسمى غلال الحرمين . رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، مصدر سابق، ص ص٧١-٧٢ ، ويلاحظ بأن المصنف يستخدم كلمة خاصكى فى عدة مواضع من المخطوط للإشارة إلى الرسل الذين يأتون بالأوامر السلطانية من اسطنبول.

٢٧- جمعية. اجتماع هام يعقده الأمراء المماليك وكبار موظفى الإدارة وكبار العلماء بأمر السلطة لحل مشكلة عامة تمس حياة الشعب. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى،ص٤٤٤ .

٢٨- الدفتردار : أحد أهم المناصب فى النظام الإدارى بمصر، ويشرف صاحبها على مالية مصر ، وقد حل هذا المنصب محل وظيفة ناظر الأموال، وهيمن الأمراء المماليك على هذا المنصب ، الذى كان يعين صاحبه بأمر سلطانى . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٢٩٨-٣٠١ .

٢٩- سبتمبر ١٦٦١م .

٣٠- زعيم مصر . يقصد بذلك والى مصر ، المسؤول عن صيانة الأمن بالقاهرة، وكان هناك ثلاثة ولاة من هذا القبيل ؛ والى القاهرة ووالى بولاق ووالى مصر القديمة (الفسطاط) ، وكانوا جميعا تحت رئاسة آغا الانكشارية. رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث ، ص٧٦ .

٣١- حاكم : استخدمت هذه الكلمة كلقب للصناجق المشرفين على أقاليم جرجا، الشرقية الغربية، المنوفية، البحيرة، ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ،ص٤٤٥ .

٣٢- اغاوات الأوجاقات : هم ضباط الأوجاقات ورؤسائهم مثل: آغا الانكشارية وآغا العزب وغيرهم، وكان لأصحاب الرياسة فى الأوجاقات حضور جلسات الديوان، والمشاركة فى اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية فى مصر. رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٦ .

٣٣- الكتخدا : هو وكيل الباشا بمصر ، ويطلق عليه أيضًا لقب الكيخيا، وقد أصبحت هذه الكلمة تطلق على كل من ينوب محل رئيس فرقة عسكرية أو منصب إدارى، رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٤ .

٣٤- الجاوشية ، أى فرقة الجاوشان . جمع جاووش وهو الفارس، ومنهم أرباب الديوان العمومى الذين عليهم حضور الديوان لتحصيل الأموال الميرية، ومنهم أمير الشون الذى يشرف على شئون الغلال الاميرية، وكان لهذه الوظيفة أهميتها نظراً لأن الجزء الأكبر من أرض الصعيد كان يجبى ماله غلالاً، رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث. ص٧٤ .

٣٥- مايو ١٦٦٢م

٣٦- اليكجرية وتسمى كذلك مستحفظان ، وتعتبر هذه الفرقة أهم فرق الحامية العثمانية فى مصر وقد أوكلت إليها أعمال المحافظة على القلعة وضبط مدينة القاهرة، وينسب لهذه الفرقة عدد كبير من أصحاب المناصب ، منهم الكتخدا وكيل الباشا ، ومنهم سردار الحج وسردار الخزنة ، ويقيمون فى

قلعة صلاح الدين بالقاهرة، وقد خصصت لهم عوائد من رسوم بعض الجمارك في مصر القديمة وبولاق والاسكندرية ودمياط انظر: رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٥ ؛ وليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني، ص٤٤٠ .

٣٧- القلة: مكان للحبس ، كان يوجد داخل باب الانكشارية بالقلعة.

٣٨- البكرية : يرجع نسبهم إلى أبي بكر الصديق، وكان لهم مكانة كبيرة في المجتمع المصري، إبان العصر العثماني، وكانوا يدعون لحضور المجالس الرسمية كاجتماعات الديوان والجمعيات . ليلى عبد اللطيف ، دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني، مصدر سابق، ص١٦٣ .

٣٩- باب : مفرد أبواب ، ويقصد بها ثكنات الأوجاقات في قلعة الجبل .

٤٠- كاشف : تطلق على حاكم الولاية الذي لم يبلغ مرتبة الصنجقية ، ويطلق على المنطقة التي يحكمها لقب كشوفية، وكان دخل الكشاف من إيرادات الأراضي الزراعية التي تقع تحت إدارتهم ، وعليهم مال يؤدونه إلى الحكومة نظير تعيينهم في هذه المناصب يسمى بالمال الميري. والكشوفية هي الجزء الذي يخصم من إيرادات ضرائب الأقاليم ويخصص لنفقات الإدارة المحلية. رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث ، ص٧٩ .

٤١- يوليو ١٦٦٢م.

٤٢- الرميلة : هو الميدان الممتد أسفل سور القلعة ، وكان يطلق عليه قرا ميدان، ومكانه الحالي: منطقة المنشية وميدان صلاح الدين أسفل القلعة .

٤٣- الفقارية : انقسم مماليك مصر خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى فرقتين رئيسيتين هما الفقارية والقاسمية، ويعتبر رضوان بيك الكبير (ت ١٠٦٦-١٦٥٥م) هو المؤسس الفعلي للبيت الفقاري الذي هيمن على عدة مناصب إدارية في مصر أبرزها إمارة الحج، التي تولاها تابعه ذو الفقار بيك (ت ١١٠٢هـ / ١٦٩٠م) لمدة أحد عشر عامًا ، ومن ثم تولاها تابعه إبراهيم بيك (ت ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م) لمدة خمس سنوات ، وتولى بعد إبراهيم بيك تابعه قيطاس بيك (ت ١١٢٦هـ / ١٧١٤م) إمارة الحج لمدة خمس سنوات أخرى، وقد قتل أبرز رجال البيت الفقاري في الحادثة الشهيرة بواقعة الصناجق سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م انظر : إبراهيم بن أبي بكر الصوالحي العوفي، تراجم الصواعق في واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٨٦ .

٤٤- أمير الحاج : الصنجق المختص بالإشراف على سفر الحجاج والعودة بهم وتأمين طريقهم وأرواحهم وأموالهم وتوصيل الصرة إلى الحرمين الشريفين . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني ، ص٤٣٩

٤٥- المتفرقة : تقوم خدمتهم فى مصر على حفظ القلاع الخارجة عن القاهرة ، مثل العريش والاسكندرية ودمياط وأبوقير وأسوان وأبريم وغيرها، وللقلاع المذكورة أنفار معلومون وتصرف لهم مرتبات من حكومة القاهرة، ومنهم الجبجى (فى الأصل جبه جى باشى) الذى يشرف على صناعة البارود المطلوب لحفظ القلاع . رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٤ .

٤٦- فرقة الجملية: وهى تحريف لكلمة جنلليان، جمع فارس للكلمة التركية جنللو، وهم فرقة من الفرسان الموكل إليها حفظ الجسور السلطانية. رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، مصدر سابق، ص٧٤ .

٤٧- الجرايات : مفردها جراية، وتعنى المرتبات العينية من قمح وشعير، والتى كانت تصرف من الخزينة للباشا وكبار موظفى الإدارة . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤٤ .

٤٨- المتقاعدين : المحالين إلى المعاش من موظفى ولاية مصر ، حيث كانت تصرف لهم مرتبات عينية. ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، مكتبة الخانجى، القاهرة ، ١٩٨٠، ص٤٤ .

٤٩- أغسطس ١٦٦٢م.

٥٠- الحبش : جعل العثمانيون من ميناء جدة، ومن بعض الموانئ التى خضعت لهم على ساحل البحر الأحمر المقابل مثل سواكن ومصوع باشوية خاصة سميت باسم ولاية الحبش، أو ولاية جدة، وأسندوا حكمها إلى أحد الباشاوات الذى كان يعين من قبل السلطة المركزية باسطنبول . ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى ، ص١١٩ .

٥١- ورد فى الهامش : «١٠٧٢» .

٥٢- أمير اخور : كلمة فارسية مركبة من «أمير » وهى كلمة عربية، و«آخور» كلمة فارسية معناها الاصطبل ، وكانت تطلق على الشخص المنوط به أمور الخيل، أى ناظر اصطبلات الخيل، ونظراً لارتباط القائمين على الخيول بمهام البريد بين مركز الدولة وأقاليمها فقد أصبحت هذه الكلمة تطلق على المسؤولين الذين توكل إليهم مهمة توصيل المراسلات الرسمية. رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧١ .

٥٣- أولاق : تعنى الرسول.

٥٤- سردار : أى قائد القوات المصرية المتوجهة لجبهات القتال بأوامر من السلطة المركزية ، أو لشن حملات عسكرية محلية ضد العربان فى مصر بتوجيه من الباشا.

٥٥- العادليه : هى القبة التى بناها السلطان الملك العادل طومان باى فوق تربته التى عرفت بالعادليه.

٥٦- فبراير ١٦٦٣م.

٥٧- صنجق كلمة تركية تعنى علم، وتطلق فى المصطلحات الإدارية على قسم من ولاية كبيرة، كما تطلق على الحاكم لقسم من الولاية، وكان فى مصر ٢٤ صنجقًا يعين منهم السلطان صناجق الثغور المهمة كالاسكندرية ودمياط والسويس، ومن أهم هذه الصنجقيات فى مصر العثمانية صنجقيات جرجا والشرقية والغربية والمنوفية، والبحيرة، رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٩

٥٨- مارس ١٦٦٤م

٥٩- اختيارية الأوجاقات · هم المسنون من رجال الفرق العسكرية ووجهائهم وأقدمهم فى الخدمة رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٥

٦٠- الملتزم . الشخص الذى يتعهد بتحصيل الأموال الأميرية المقررة على أرض أو جمرك ويورد للخزينة الضريبة المقررة كخراج ، ويحتفظ بالباقى كربح له . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٥٦ .

٦١- الأمناء : هم أمناء شئون الغلال بميناء بولاق آنذاك ، والمتعهدون بالمحافظة عليها وحفظ حساباتها وغلالها ، والمسئولون كذلك عن جمع الغلال والتبن والأرز، وغير ذلك وإحضارها إلى الوكالات ببولاق ومصر القديمة . أحمد الدمرداشى، الدرة المصانة، ص١٧ .

٦٢- الجراكسة : تلفظ أحيانًا «الشراكسة»، وهى فرقة تتكون من فرسان المماليك ، المصدر السابق، ص٧٥ .

٦٣- الكشيدة . كلمة فارسية تعنى «المحرر».

٦٤- أفندى . كلمة تركية تعنى المولى أو السيد أو الخواجة ، ويشترط فى الأفندى العلم، وقد لقب بهذا اللقب العلماء والكتاب وجمع بين الفريقين كونهم من أهل العلم ، كما كان لكل بلك من البلكات العسكرية فى مصر أفندى . ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ مصر والشام إبان العصر العثمانى ، ص٢٢ .

٦٥- تنبيه جمعها «تنابيه» وهى تذاكر الدعوات التى كانت ترسل لأعضاء الديوان العالى لحضور اجتماعاته. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤٣

٦٦- أبريل ١٦٦٤م

٦٧- قائم قام: منصب كان يشغله الشخص الذى يتولى عمل الباشا فى فترة خلو منصب الباشوية، سواء بعزل الباشا أو وفاته . وكان هذا المنصب يسند إلى قاضى القضاةأو الدفتردار ، ولكن عندما ازداد نفوذ الأمراء المماليك أصبح هذا المنصب يسند إلى أحدهم، ص ص١١٨-١٢٠.

٦٨- مضاف : الضريبة المستجدة التى تمثل زيادة فى الأموال الأميرية ، المصدر السابق، ص٤٥٦ .

٦٩- كان إقليم الغربية يشكل أحد مصادر إيرادات الخزينة ، وخصص له فى الروزنامه دفتراً لتدوين إيرادات ضرائب الأرض فى إقليم الغربية والمنوفية ويرأسه أفندى الغربية ويساعده ثلاثة مباشرين .
ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، ص٢٤ .

٧٠- العرقانة : السجن الرئيسى فى قلعة الجبل.

٧١- أبريل ١٦٦٤م.

٧٢- فى الهامش : «مطلب ابراهيم» .

٧٣- مايو ١٦٦٤م.

٧٤- أوضه باشى : رئيس إحدى أورط الانكشارية التى تقيم فى أوضه (غرفة) وياش أوضه باشى هو رئيس الأوضة باشية . ليلى عبد اللطيف الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤١ .

٧٥- مدة ولايته : ١٥ ذو الحجة ١٠٧٤ - غاية رمضان ١٠٧٧هـ / ٨ يوليو ١٦٦٤- ٢٦ مارس ١٦٦٧ م.

٧٦- الزينة : مظاهر الاحتفال التى تتم فى القاهرة فى مناسبات عديدة بأمر من السلطان العثمانى، منها انتصارات الجيوش العثمانية وكذلك لدى قدوم الخبر بمولود جديد للسلطان وتزين مصر كذلك عندما يرد الخبر بتولى سلطان جديد سدة الحكم فى اسطنبول ، وتتضمن مظاهر الزينة إطلاق المدافع والألعاب النارية وتقديم الوجبات وعزف الموسيقى الرسمية وغيرها من مظاهر الاحتفال.

٧٧- الروزنامة : كلمة فارسية مكونة من لفظين «روز» بمعنى يوم أو نهار، ونامه بمعنى سجل أو كتاب، فيكون معناها سجلات الأصول اليومية، ويسمى رئيسها «الروزنامجى» وكتبه الروزنامه يسمون «أفندية الروزنامة» وكانت الروزنامة تكتب بخط القرمة التى تعتمد على رموز يصعب قراءتها من قبل غير المتخصصين رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٨٥ .

٧٨- أغفل الكاتب اسم قائمقام ، ولم تذكر المصادر الأخرى من الذى عين قائم مقام بمصر لدى عزل إبراهيم باشا، ولعله أويس بيك الذى تم قتله سنة ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٥م، كما سيأتى ذكره .

٧٩- حسن آغا بلفية (ت ١١١٥هـ / ١٧٠٣م) : من زعماء البيت الفقارى، زوج ابنته لاسماعيل بيك الدفتردار وأنجبت له ابنه محمد بيك (ت ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦م) الذى آلت إليه سيادة البيت الفقارى، وقد انقسم البيت الفقارى فيما بعد إلى عدة أقسام أشهرها الفازدغلية التى تنسب لمصطفى الفازدغلى (ت ١١١٥هـ / ١٧٠٣م) ومن أتباعه كذلك ذو الفقار بيك (ت ١١٤٢هـ / ١٧٢٩م)

الذى آلت إليه مشيخة البلد فيما بعد. يشير زين العابدين، النظام السياسى لمصر العثمانية ١٠٩٩-١١٤٣هـ / ١٦٨٧-١٧٣٠م) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية ، جامعة لندن ، ص٢٣١

٨٠- سبتمبر ١٦٦٤م.

٨١- العزب: أو عزبان في الأصل نوع من جند البحرية ، وقد وجد فى مصر أوجاق عزبان وهو ثانى الأوجاقات أهمية بعد الانكشارية ، وعهد إليهم بمهمة حراسة القلعة والإشراف على جمارك البحرين وترسانة الاسكندرية ، ومنهم أمين البحرين وأمين الخردة وخصصت لهم عوائد من هذين المصدرين بعد استخلاص المال الميرى، مصطفى رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٥ .

٨٢- فرقة السباهية: وتكتب كذلك «الاسباهية» وتعنى الخيالة، وتطلق على الأوجاقات الثلاثة: الجمليان والتفكجيان والجراكسة، ومهمتهم خدمة الباشا ورحاله فى القاهرة، وخدمة عمالهم فى الأقاليم بواسطة من يقيم فيها من أفراد هذه الأوجاقات المصدر السابق، ص٧٥ .

٨٣- نوفمبر ١٦٦٤م.

٨٤- قاضى عسكر هو قاضى القضاة فى مصر إبان العصر العثمانى، وهو نائب السلطان فى الأحكام الشرعية ومذهبه حنفى ، يعينه السلطان لإدارة شؤون المحاكم بمصر ، وتعيين النظار على الأوقاف ،وله حق حضور الديوان الخصوصى، وكان يتبعه بعض المترجمين ، ومقره فى محكمة الديوان العالى، وله نواب فى محاكم القاهرة والأقاليم، رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص٧٧ .

٨٥- وطاق: هى الكلمة التركية أوتاق آوتاغ وقد دخلت فى اللغة الفارسية فى صيغ أطاق وأتاق وأتاغ بمعنى الغرفة ،والأطاق فى التركية اسم للخيمة الكبيرة المزخرفة، والوطاق فى العربية هو الخيمة والمعسكر المكون من خيام. اظر تعليق عبد الرحيم عبد الرحمن فى : أحمد الدمرداشى ، الدرة المصانة، ص٤٦ .

٨٦- ديسمبر ١٦٦٤م.

٨٧- ذو الفقار بيك (ت ١١٠٢هـ / ١٦٩٠م) : من أعيان البيت الفقارى، تولى إمارة الحاج لمدة أحد عشر عامًا وقد تولى زعامة الفقارية عقب مقتل سيده حسن بيك فيو اقعة الصناجق سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م. بشير زين العابدين، النظام السياسى لمصر العثمانية، ص٢٣١ .

٨٨- كان إقليم الشرقية يوفر إيرادات للخزينة المركزية وخصص له فى الرزونامة دفترا لتدوين ايرادات ضرائب الأرض التى كانت تحصل من مقاطعات الأرض فى أقاليم الشرقية، المنصورة المنزلة، قليوب ،

البحيرة، الطرانة، اطفيح ، فارسكور، قطيا والواحات، ويرأس هذا القلم أفندى الشرقية ويساعده خمسة مباشرين أو خلفاء ، ليلى عبد اللطيف، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، ص٢٣ .

٨٩- آغات الانكشارية : قائد فرقة الانكشارية وله الرئاسة على أغوات باقى الفرق، واختص بحفظ الأمن فى القاهرة، ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ،ص٤٣٨ .

٩٠- الروزنامجى : رئيس ديوان الروزنامة والمشرف على أفنديتها ، المصدر السابق، ص٤٤٧ .

٩١- ورد ذكر مصطفى بن سهراب أفندى أيضا فى : تحفة الأحباب ، مصدر سابق، ص١٠٣ ، وكذلك فى: أوضح الإشارات ، مصدر سابق، ص١٦٣ ، حيث أضاف أحمد شلبى بأنه كان : «عارفا بعلم الرمل والزايرجية والروحانى والنجم والميقات والكيمياء» وذكر على بن رضوان تفاصيل ما أمر السلطان العثمانى باستحداثه فى مصر لدى عودة ابن سهراب مما أدى إلى سعد كيخية الباشا لقتله بالسم . على بن رضوان ، زبدة الاختصار، ص١٤٣-١٤٤ .

٩٢- فبراير ١٦٦٥م.

٩٣- قرا ميدان : هو الميدان الممتد أسفل سور القلعة فى الناحية الشمالية الغربية، ومكانه الحالى منطقة المنشية وميدان صلاح الدين بقسم الخليفة . تعليق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، أحمد الدمرداشى، الدرة المصانة، مصدر سابق، ص٨ .

٩٤- ضربه: هكذا وردت فى النص، وقد وردت فى مصادر أخرى بصبغ مختلفة مثل: «الطرب والزرب» وهى جمع «زربة التركية، وتعنى العصاة من العسكر، أحمد شلبى بن عبد الغنى ، أوضح الإشارات، ص١٦٢ .

٩٥- تجريدة : حملة عسكرية يوجهها الباشا لمحاربة المتمردين من أمراء المماليك أو العربان . ليلى عبد اللطيف، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤٢ .

٩٦- أغفل الكاتب ذكر الجماعة التى ينتمى إليها أحمد باش جاويش الجراكسة.

٩٧- أبريل ١٦٦٥م.

٩٨- علوفات : مفردها علوفة وهى مرتبات العسكر. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٥٠

٩٩- يناير ١٦٦٥م.

١٠٠- يوليو ١٦٦٥م.

١٠١- أغسطس ١٦٦٥م.

١٠٢- السرايا: كلمة تركية مأخوذة من الفارسية ومعناها القصر، والسرايا المذكورة هنا هي القصر المخصص لسكنى الباشا في القلعة، وقد هدمت هذه السرايات في عهد محمد على وبنى مكانها قصر الجوهرة الحالي . أحمد الدمرداشي ، الدرة المصانة، مصدر سابق، ص٧ .

١٠٣- وردت هنا عبارة غير واضحة.

١٠٤- جامع المؤيد : انشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري، وكان الفراغ من بناءه في ربيع الأول ٨١٩هـ / ١٤١٦م، ووقف عليه عدة مواضع بمصر والشام ، على مبارك ، الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٩ ، ج٥ ، ص١٢٤-١٢٨

١٠٥- حوا الجوامع : أي داخل الجوامع

١٠٦- ٥ ستمبر ١٦٦٥م.

١٠٧- الشريفي: عملة تركية أعلى قيمة من الريال الحجر والريال البندقي. وكانت قيمتها تختلف من فترة لأخرى ، ففي سنة ١٠٨٦هـ/ ١٦٧٥م على سبيل المثال ، كانت تعادل ٨٥ نصف فضة ، ثم ارتفعت بعد ذلك لتتجاوز ١٠٠ نصف فضة في مطلع القرن الثاني عشر الهجري، انظر تاريخ محمد ابن محمود ، مصدر سابق. ص٣٩

١٠٨- سنة ١٠٧٦

مصادر ومراجع التحقيق

١- إبراهيم بن أبي بكر الصوالحي العوفي، تراجم الصواعق في واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٦ .

٢- أحمد الدمرداشي، الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٩م.

٣- أحمد شلبي بن عبد الغني، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٧٨ .

٤- بشير زين العابدين ، النظام السياسي لمصر العثمانية ١٠٩٩- ١١٤٣هـ / ١٦٨٤-١٧٣٠م، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية ، جامعة لندن، ١٩٩٩ .

٥- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة ١٩٠٤ .

٦- علي بن رضوان ، زبدة اختصار تاريخ مصر المحروسة، تحقيق بشير زين العابدين ، دار الفضيلة ، القاهرة ٢٠٠٦ .

٧- علي مبارك الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٩ .

٨- ليلى عبد اللطيف ، الإدارة في مصر في العصر العثماني، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٨ .

٩- ـــــــ دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني، مكتبة الخانجي القاهرة، ١٩٨٠ .

١٠- محمد رمزي ، القاموس الجغرافي، دار الكتاب المصري، القاهرة ١٩٥٤ .

١١- محمد فريد بيك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل بيروت ، ١٩٧٧ .

١٢- محمد بن محمود ، تاريخ مصر ابتداء من وقعة الضرب، تحقيق بشير زين العابدين، دار الفضيلة القاهرة، ٢٠٠٧ .

١٣- مصطفى رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، جامعة الأزهر، القاهرة ١٩٨٣ .

١٤- يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية، اسطنبول ١٩٨٨ .

١٥- يوسف الملوانى، تحفة الأحباب بمن ملك مصر القاهرة من الملوك والنواب، مخطوط رقم ٥٦٢٣ تاريخ، دار الكتب المصرية ، القاهرة.

دكتور السيد حسين جلال *

التاريخ الاجتماعى لسكان منطقة برزخ السويس

(فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر)

جغرافية برزخ السويس وأهميته :

يقصد بمنطقة برزخ السويس الجزء الواقع بين خليج الطينة شمالاً على البحر المتوسط ومدينة السويس جنوبًا على قمة خليج السويس. وهى أرض سهلة لاتخترقها عقبات طبيعية ولاتعترضها أى تضاريس يمكن آن تحول دون الحركة السهلة بين البحرين أو بين البرين الآسيوى والأفريقى ، والبرزخ صحراوى أو شبه صحراوى وكان أحد أفرع النيل يتجه شمالاً بشرق ليروى أطرافه الشمالية. كما أن عدم وجود عقبات نباتية ، كالغابات ، سهل أمر الحركة البشرية عبره خلال العصور التاريخية .

كما أن هذا البرزخ كان يتعرض أيضًا لطغيان الماء فى جزئه الشمالى أو الجنوبى أو كلاهما معًا فى بعض فترات العصر الجيولوجى الأخير والعصر الجيولوجى الحديث. لقد كان هناك ذراع ضحل من الماء يغطى خليج السويس خلال العصر الكربونى. كما يدل إرساب الصخور الرملية من الخرسان الجنوبى فى العصر الكرياسى الأسفل على أن البحر ظل طاغيًا فى منطقة الخليج من العصر الكربونى حتى العصر السينومانى. ولقد استمر هبوط الخليج فى أواخر الزمن لجيولوجى الثانى . وطغى الماء على حواف الخليج الجنوبية وانحساره عن حوافه الشمالية ، ثم حدث تجدد فى هبوط الخليج فى عصر الأيوسين الأوسط . ولقد خلقت هذه الحركات الأرضية لحديثة سلسلة من البحيرات الضحلة ، بعضها يمتد من خليج السويس شمالاً وينقطع عنه،

---

* كلية الآداب بدمنهور - جامعة الاسكندرية .

مثل البحيرات المرة وبحيرة التمساح ، وبعضها امتداد للبحر المتوسط جنوبًا مثل بحيرة المنزلة.

غير أن البرزخ الأرضى ظل موجودا خلال العصور التاريخية يصل بين اسيا وأفريقيا ، أى أن هناك طريق برى يصل بين شمال سيناء والدلتا خلال التاريخ الإنسانى المعروف ويقع هذا البرزخ شمالى بحيرة التمساح وجنوبى طرف بحيرة المنزلة الجنوبى. أما البرزخ الذى يقع جنوبى بحيرة التمساح فلم يكن أرضا يابسة باستمرار فمن المؤكد أن البحيرات المرة كانت أكثر اتصالا خلال فترات أطول من الزمن بالطرف الشمالى لخليج السويس(١).

والطريقان البريان اللذان كانا يمران بهذه المنطقة هما: طريق وادى الطميلات والطريق الصحراوى أو طريق الحجاج، ويرجعان إلى عصر ما قبل الأسرات . وكانا يخرجان من مدينة منف ، وهى نقطة تلاقى أكثر الخطوط الرئيسية فى مصر ، ثم يتبعان ضفة النيل اليمنى حتى بابليون (مصر القديمة) ومنها إلى هليوبوليس (المطرية) حيث كانا يفترقان . فكان طريق وادى الطميلات يتجه نحو الشمال الشرقى أما الطريق الصحراوى فإنه بعد انفصاله عن الطريق السابق عند هليوبوليس كان ينثنى نحو الشرق ويتجه مباشرة نحو السويس مخترقًا الصحراء(٢).

وبرزخ السويس هو ملتقى البرين ومفرق البحرين ، وقد لعبت هذه المنطقة دوراً هامًا فى تاريخ مصر والإنسانية كلها ، فهى بحق مدخل مصر الشرقى، وعن طريقه دخلت جميع الهجرات البشرية من جنوبى غربى آسيا . كما أنه حلقة الوصل بين مصر وشقيقاتها العربيات فى جنوبى غربى آسيا . وعن طريقها شاركت مصر فى المؤثرات السامية أو العربية القديمة التى كانت تموج بها شبه جزيرة العرب وبلاد الشام .

عمال السخرة فى برزخ السويس :

جاء فى عقد الامتياز الثانى (٥يناير ١٨٥٦) بالمادة الثانية نص على أن عدد العمال المصريين الذين تستخدمهم الشركة يجب أن يكون على الأقل أربعة أخماس مجموع العمال. فقد كان يتعذر على الشركة أن تستخدم أفواجًا هائلة من العمال الأوربيين يقيمون فى صحراء برزخ السويس لتنفيذ المشروع فى مراحله الأولى، فقد كانت هناك مخاطر شديدة لاستخدام العمالة الأوربية على نطاق واسع أمر يكاد يكون مستحيل للشركة بعد تأسيسها للأسباب الآتية :

١- ارتفاع أجور العمال الأوربيين فى سبيل الاغتراب والعمل فى الصحراء وهو أمر لم تكن تستطيع أن تتحمله ميزانية الشركة الناشئة .

٢- إن إنتاجية العامل الأوربى منخفضة بالنسبة للعامل المصرى.

٣- لم يألف العمال الأوربيين الجو الحار ويتعرضون للأمراض التى تصيبهم من شدة الحر فتفتك بهم.

٤- امتاز العمال المصريون بقوة الاحتمال والصبر والقدرة على متابعة العمل المضنى فى الجو الصحراوى الحار .

٥- اختلاف عادات العمال المصرين عن عادات العمال الأوربيين ، فنجد الأولين تعودوا على التقشف والقناعة ، بينما نجد فى الآخرين ميلاً إلى الإفراط فى الخمور ونزوعًا إلى الملذات والنسائيات وانكبابًا على لعب الميسر(٣).

أيضًا وصلت إلى الشركة اقتراحات بإرسال عمال صينيين إلى برزخ السويس للقيام بأعمال الحفر . وقد تم تقديم أدلة فى صالح هذا المشروع تمتدح مميزات العمال الصينيين، مثل صلابتهم وأسلوب التغذية التى يسهل إشباعها فى مصر .

ويشمل هذا العرض من خمسة آلاف إلى عشرين ألف عامل يتعاقدون لمدة خمس سنوات . ولكن لم تنل عروض الخدمة «الصينية» رضاء وموافقة الشركة(٤).

أضف إلى ذلك أن توافد عدد ضخم من العمال الأجانب إلى برزخ السويس يسبب صعوبات مادية وسياسية ، بل إن السلطات المصرية خشيت من احتلال أراضيها . ثم أن الحكومة العثمانية خافت أن تساعد قوى أجنبية مصر فى حصولها على الاستقلال ، وأخيراً الخارجية البريطانية التى لن ترضى أن ترى فرنسا توطد علاقاتها ونفوذها بهذه الطريقة فى هذا القطر (٥).

مساعى الشركة لجلب عمال عرب فى البرزخ :

سعت الشركة فى بادئ الأمر لجذب عمال عرب من مصر والشام والحجاز للعمل فى ساحات الحفر، وكونت لجنة مهدت إليها بالطواف فى قرى الوجه البحرى واستمالة العمال المصريين للالتحاق بخدمة الشركة فى البرزخ (٦). وفى ظل التدابير التى اتخذها سعيد باشا نجحت الشركة فى استخدام أفواجًا من سكان بحيرة المنزلة فى حفر القناة.البحرية الصغيرة (La Rigole De Service) فى منطقة البحيرة . وشكل صيادو بحيرة المنزلة أول مجموعة كبيرة من

عمال الحفر الذين خدموا ورش الشركة . وقاموا طوال عام ١٨٦٠ بحفر مجرى مياه عبر البحيرة . وقد عانى هؤلاء العمال الذين قاموا بعمليات الحفر الأولى وسط هذا المستنقع الأسود الشاسع المكون من الطمى الموحل فقد كانوا ينحنون للأمام ويغرسون الأقدام والأرجل حتى الركب فى المياه ليأخذوا بأيديهم أكوام التراب من القاع بعد أن يقوموا بتقليبها بالفأس ، وتنقل بعد ذلك هذه الأكوام من يد لأخرى حتى الشاطئ . وضاعف من مشقة هذا العمل القائم على أساليب بدائية روائح الهيدروجين المكبرت المنبعثة من الطين المتقلب تحت الشمس المحرقة وبلغ مجموع ما تم استخراجه أربعمائة ألف متر مكعب من الطين بهذه الطريقة (٧).

ويصف أحد الكتاب الإنجليز (A. Wilson) هؤلاء العمال التعساء بقوله :

"To these men , unhonoured and unsung, their posterity owes a debt which it has , perhaps fortunately, not attempted to symbolize by any monuments of marble or perennis" (٨)

«إن هؤلاء الرجال التعساء لم يحظوا من خلفائهم بأى ذكر حتى بتخليدهم بتمثال من رخام»

والفترة من عام ١٨٥٩ حتى ١٨٦٠ شهدت تحركا فاشلا من الشركة لجمع العمال من الشام ومصر ، وقامت بدعاية كاذبة مفادها أن الشركة قد انشأت قرى لسكنى العمال وأنها أقامت مسجداً فى كل موقع وأن ماء الشرب متوفرا وأن الأجور على أساس إنتاجهم وليس على أساس عدد الأيام التى يقضيها العامل فى ساحات الحفر وأن أجر العامل سيتراوح بين ستة قروش وثمانية فى اليوم وأن يترك للعمال حرية شراء ما يروق لهم من مخازن المقاول بالأثمان المحددة فى التسعيرة أو من الباعة المتجولين وأضاف دى لسبس أنه حرم على الرؤساء الأوربيين مهما كانت مناصبهم أو درجاتهم ضرب الفلاحين أو إساءة معاملتهم(٩).

وقد طبع من هذا الإعلان آلاف النسخ وزعت فى المدن والقرى وألصقت نسخ منها على أبواب المساجد ومحطات السكك الحديدية وأقسام البوليس والأسواق والشوارع الآهلة بالسكان. كما علقت منه نسخ فى ساحات الحفر المختلفة (١٠).

كما أن الشيخ رفاعة الطهطاوى كان من المؤيدين لمشروع القناة والداعين له فى مصر بعد أن وطد دى لسبس علاقته معه . وقد نظم قصيدتين امتدح فيهما مشروع القناة وتمت ترجمتهما للفرنسية(١١).

وعلى الرغم من كل الجهود ووسائل الدعاية وتنوعها لجمع أعداد كبيرة من العمال، إلا أنها لم تسفر عن نجاح يذكر، وفشلت جهودها في حركة جمع العمال العرب وفق الطريقة الحرة.

وهنا بدأت مرحلة جديدة لدى لسبس ، فقد كانت المادة الثانية من عقد الامتياز الثاني (١٨٥٦) هي الركيزة القوية في تنفيذ المشروع والتي جعل منها دي لسبس أساسًا لنظام السخرة في حفر قناة السويس ورتب عليها وفرع منها حقوقًا جديدة للشركة صاغتها « لائحة استخدام العمال الوطنيين في أشغال قناة السويس » استصدرها من صديقة محمد سعيد في ٢٠ يوليــو ١٨٥٦ [١٢]. وتنفيذا لهذه المادة وتطبيقًا لهذه اللائحة فقد سيق المصريون إلى ساحات الحفر زمراً لشق قناة السويس . فقد كانت قوافل عمال السخرة تسحب سيراً على الأقدام إلى ساحات الحفر في برزخ السويس وقد ربط بعضهم ببعض كالجمال أو مثل قطعان العبيد في أفريقيا والتي كان يسوقها تجار الرقيق ومن الأقاليم الداخلية إلى الساحل حيث تكون السفن في انتظارهم لنقل هذه السلع الآدمية[١٣].

وكان الوالي (سعيد باشا) قد اصدر أوامره لمديري الأقاليم لحشد عمال السخرة بحيث وصل عددهم في نهاية ديسمبر ١٨٦١ إلى خمسة عشر ألف رجل، على أن يزداد هذا العدد خلال الشهور التالية إلى خمسة وعشرين ألف مصري، وذلك بالإضافة إلى جموع أخرى من العمال وعد سعيد بأن يبعث بها من أقاصي الصعيد[١٤].

وقد استخدم دي لسبس كل الضغوط النفسية على صديقه سعيد باشا، تارة بأن التاريخ سيخلده بحفر القناة وأخرى بأن أوروبا ستنظر إليه أنه حاكم مستنير ، وأحيانًا يستعين بالضغوط الدبلوماسية من جانب الحكومة الفرنسية والإمبراطور نابليون الثالث للوصول إلى أهدافه .

وقد أجمعت الدراسات أن الحشد الآدمي في ساحات الحفر في برزخ السويس كان لايقل عن عشرين ألف رجل شهريا طوال عام ١٨٦٢ . فالباب العالي أعلن أن عمال السخرة (Forced Labor) في البرزخ بلغت ستين ألف رجل شهريا ، وهذه العمالة قد استبعدت من مزارعها، وبذلك عطلت إنتاجية البلاد وقد استند الباب العالي في حساباته لهذا الرقم إلى الآتي :

العاملون في ساحات الحفر بلغ عددهم ٢٠٠٠٠ عامل وهي الحصة الشهرية التي التزم الخديوي سعيد بتقديمها للشركة، ومثلهم عشرون ألف آخرون في طريقهم للعودة لديارهم، وعشرون ألف آخرون يشدون رحالهم إلى ساحات الحفر في البرزخ، فيكون المجموع ستون ألف

رجل . وهكذا أضيرت الزراعة فى مصر من جراء غياب هذا العدد الضخم ضررا بالغا [١٥].

وقد بلغ إجمالى عدد المصريين الذين أكرهوا على الحفر خلال عام ١٨٦٢ (وهى السنة التى شهدت أكبر حشد بشرى فى تاريخ الشركة) ربع مليون مصرى وهو عدد هائل بالنسبة لتعداد مصر فى هذه السنة وهو حوالى ٤,٨ مليون نسمة.

وكانت أفواج العمال يتتابع قدومها شهراً بعد شهر مجتازة فى طريقها إلى البرزخ وعودتها منه الوجه القبلى والوجه البحرى . وأشرف موظفو الحكومة المصرية على جمع العمال وإرسالهم ومرافقتهم. وكان يصحبهم أيضا أحد ضباط الشرطة من المديرية التى يقدمها الفوج حتى يتم وصولها إلى الزقازيق ، حيث يتم تسليم الأنفار إلى مندوب شركة القناة هناك[١٦].

وكان سفر عمال الوجه القبلى يتم بالسفن النيلية إلى القاهرة، ومنها بالسكك الحديدية إلى بنها والزقازيق - نهاية الخط الحديدى آنذاك - ومن هناك يساقون زمراً إلى ساحات الحفر فى برزخ السويس، سيراً على الأقدام تحت الحراسة المشددة وكانوا يقطعون المسافة فى أربعة أيام. أما عمال الوجه البحرى فكانوا يسافرون إما بالسكك الحديدية وإما فى السفن النيلية حتى يصلوا إلى الزقازيق ومنها إلى ساحات الحفر سيراً على الأقدام [١٧].

ويقوم مندوبو الشركة - فى الزقازيق - بعملية فرز للعمال، فيستبعدون العمال هزيلى الأجسام ويأخذون الشبان الأقوياء الأصحاء ويوقعون إقراراً بتسلم السخرة ويذكرون فيه عددهم، ثم يرسل الإقرار إلى مدير المديرية التى وفد منها أفراد الفوج. ثم تصدر الأوامر للفوج باستئناف السير إلى ساحات الحفر بالبرزخ سيراً على الأقدام . وكان يسير فى مقدمة الفوج عدد من الجمال تحمل أمتعه العمال وزكائب تحوى مأكلهم وقلل الماء ، ثم يسير العمال فى خط طويل خلف الجمال [١٨].

ويصل عمال السخرة إلى ساحات الحفر منهوكى القوى بعد هذا السفر الطويل الشاق، وهناك تبدأ عملية فرز أخرى بعد عملية الفرز الأولى التى تمت فى الزقازيق . فيقسم رجال الشركة العمال إلى فريقين ، فريق قوى وفريق أقوى. ويعطى كل عامل من الفريق القوى قفة يضع فيها الأنقاض التى تتخلف من عملية الحفر ثم يحملها ليلقى بمحتوياتها بعيداً عن مجرى القناة ، أما عمال الفريق الأقوى فيعطى كل منهم فأسا يضرب به الأرض لحفر القناة، ويهبط فى الأرض إلى أن يبلغ فى حفرها العمق المطلوب. وكان العامل قبل أن يشرع فى عمليات الحفر يقوم بخلع جلبابه ويلقى به جانبا على الأرض، وبجواره قلة الماء يشترك معه

فيها عدد من زملائه . وكان العامل يشتغل فى ظل إكراه المشايخ : وكان «الشيخ» يمسك يده طوال النهار بالكرباج يضرب به كل من يتكاسل عن العمل، وكان العامل يشترك فى عمليات الحفر لمدة شهر واحد يسمح به بعد انتهائه بالعودة إلى قريته . وكانوا يغادرون البرزخ بمجرد انتهاء المدة المفروضة عليهم، وكان الكثيرون منهم يتمنون الفرص للهرب مع إنه لم يمض عليهم بضعة أيام فى ساحات الحفر، وعلى الرغم من الرقابة المشددة عليهم ، وقد ضجت شركة القناة من تعدد حوادث الهرب[١٩].

الوضع المأساوى لعمال السخرة فى ساحات الحفر :

أولاً مشكلة الماء العذب :

تعد هذه المشكلة من أعقد المشاكل التى واجهت الشركة وجيوش عمال السخرة فى صحراء البرزخ القاحلة فالماء ضرورى للحياة، وكانت هناك بعض الآبار التى يستعملها البدو، ولم تكن بالقدر الكافى لتوفير إمداد منتظم لسكان فى ازدياد مستمر . فالآبار التى قامت بحفرها قافلة الدراسات [٢٠]، لاتعطى إلا مياه شديدة الملوحة وغير وفيرة . ولتموين عمال الحفر فى بورسعيد بالمياه قامت الشركة بطلب إلى صناع من امستردام لتصنيع ثلاثة أجهزة لتقطير مياه البحر ، يوفر كل جهاز خمسة آلاف لتر ماء يوميًا [٢١]. ولكن ظل إنتاج هذه الأجهزة ضعيفًا بالنسبة لكميات الفحم التى تستهلكها وتكاليفها المرتفعة[٢٢].

وكانت الشركة قد لجأت إلى أحد كبار المصريين المشتغلين بتجارة صيد الأسماك (مصطفى عنانى بك) فى منطقة بحيرة المنزلة، امتلك أعداداً كبيرة من سفن الصيد واتفقت معه على أن يرسل كميات من الماء العذب لاتقل عن ستة أمتار مكعبة فى اليوم ويضعها فى براميل تقدمها له الشركة وينقلها فى قواربه لترسو بها تجاه الفنار المقام فى ميناء بورسعيد ، وذلك مقابل ستة فرنكات للمتر المكعب من الماء. وكان هذا الاتفاق فى مصلحة الشركة، إذ كان المتر المكعب من الماء الذى تنتجه المكثفات يكلف الشركة عشرين فرنكًا ولم يستمر هذا الاتفاق طويلاً فقد اعتمدت الشركة على وسائلها الخاصة فى جلب ماء الشرب عبر بحيرة المنزلة[٢٣].

ثم بعد ذلك تم التعاقد مع محمد الجيار فى يونيو ١٨٦١ (مالك قوارب مشهور فى بحيرة المنزلة) تعهد بتوصيل المياه إلى معسكر العمل على بحيرة الشاطئ، ويتم تخزين المياه بمجرد أن تصل بالقارب من دمياط ، واتضح أن تزويد المياه عن طريق القوارب هى الوسيلة الأقل

تكلفة بعد أن تم توفير كميات المياه الضرورية وكانت احتياجات الاستهلاك تتراوح بين ١٦ ألف إلى ١٧ ألف لتر يوميًا . ومع الوقت استمر انخفاض السعر الذى طلبه الجيار من ١٦ فرنك إلى عشرة فرنكات للمتر مكعب فى عام ١٨٦٢، ثم إلى ٥,٥ فرنك فى عام ١٨٦٤ . وكان كل زورق يحمل خزانين من الصفيح قدمتهما الشركة ، سعة كل منهما متر مكعب[٢٤].

وكان يتم توزيع المياه لأماكن إقامة العمال بواسطة السقايين ويدفع الخاصة ١٢,٧٥فرنكا للمتر المكعب ، أما ساحات الحفر فى البرزخ فيتم تزويدها بالمياه بواسطة الجمال وعند وصول المياه إلى المخيم تنقل فى براميل وتفرغ فى صناديق من الصفيح أعدت لهذا الغرض[٢٥].

استمر الاتفاق نافذا مع محمد الجيار حتى فرغت الشركة من مد خط أنابيب الماء من الإسماعيلية إلى بورسعيد فى أبريل ١٨٦٤ [٢٦]. وأيضًا كانت المياه تصل من الإسكندرية إلى بورسعيد بالسفن ولكن غالبا ما تحول حالة البحر دون رسو السفن على الشاطئ.

وكانت مشكلة إمدادات المياه العذبة لعمال السخرة بعد تزايد أعدادهم فى ساحات الحفر عقبة أمام الشركة بعد أن مات العديد من العمال عطشًا فى ساحات الحفر لنقص المياه، وكانت الشركة قد أخطأت فى تقدير وتقييم احتياجات العمال من الماء وقت أن دفعتهم لساحات الحفر فى البرزخ وخاصة فى منطقة الجسر خلال عام ١٨٦٢ [٢٧]. وكان الموقف مروعًا فى أعماق صحراء البرزخ فى القنطرة والفردان ومرتفعات عتبة الجسر حتى بحيرة التمساح، وأخذت الشركة تنقل الماء إلى العمال فى ساحات الحفر من بعض آبار متناثرة فى الصحراء فى أبوصير (غرب عتبة الجسر) وفى نفيشة وفى أبوشنان (جنوبى القنطرة) . وكان هذا الأسلوب الذى سارت عليه الشركة فى جلب ماء الشرب إلى ساحات الحفر بدائيًا باعتراف أشد الكتاب الفرنسيين مناصرة لدى لسبس (فونتان ماريوس)[٢٨] وكانت قافلة الجمال- التى تنقل المياه- تستغرق أربعة أيام فى ذهابها إلى مورد الماء فى القنطرة والعودة منه [٢٩]. وإذا تأخر وصول القافلة كان الموت يحصد العمال حصداً [٣٠].

وكان عمال السخرة « يعاملون بمنتهى القسوة ويموتون كالذباب » وذلك على حد وصف ألبرت فارمان (قنصل عام الولايات المتحدة فى ذلك الوقت)[٣١] أما كاتب آخر (Dicey) فيقول : « أنهم كانوا يموتون كالماشية »[٣٢] وكان العمال يلوذون بالفرار من ساحات الحفر حين يشعرون بالخطر الداهم بسبب نفاد كميات المياه وتأخر وصول مقادير أخرى منها فيهربون قبل أن يدركهم الموت ، إلا أنهم كانوا يلقون حتفهم فى الطريق وهم يعبرون الصحراء التى تفصل

بين ساحات الحفر وبين الأماكن المأهولة بالسكان والتى توجد بها مياه الشرب وتظل جثثهم فى العراء على رمال الصحراء تنهشها الذئاب .

وكان هناك قلة من العمال يستسلمون لقضاء الله وقدره، ولايبرحون ساحات الحفر يحدوهم الأمل فى وصول القافلة التى تحمل ماء الشرب، وكان يطول انتظارهم ويلفظون أنفاسهم قبل أن تدركهم قافلة الجمال (٣٣).

وظل العمال يعانون من قلة الماء إلى أن دل أحد روساء الأعراب رجال الشركة (فى أغسطس ١٨٦١) إلى موقع بئر بالقرب منهم هو بئر (أبوشنان) تصلح مياهه لشرب الإنسان، فوجهت الشركة قوافل الجمال شطره تنقل مياهه للعمال (٣٤).

واعترف دى لسبس أن شغله الشاغل كان إعداد الوسائل اللازمة لتموين العمال وسط الصحراء وعلى الأخص إمدادهم بماء الشرب قبل كل شئ ، وقد ذهب إلى أن مشكلة حفر قناة السويس إنما هى فى توفير ماء الشرب فى ساحات الحفر. وحاول دى لسبس الدفاع عن الشركة التى هى المسئول الأول عن الخسائر الجسيمة فى الأرواح(٣٥).

ولقد كانت الشركة مسؤلة حسب عقد الامتياز الثانى (يناير ١٨٥٦) عن حفر ترعة للماء العذب تستخدم فى الرى والملاحة النهرية ، تخرج من النيل إلى بحيرة التمساح ، وهناك تتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه شمالاً إلى بورسعيد والآخر جنوبا حتى السويس. ولكن الشركة أجلت حفر هذه الترعة واهتمت بحفر القناة البحرية ، وهنا جاءت مأساة هذه الآلاف المؤلفة من المصريين المسخرين فى ساحات الحفر ، وبرزت مشكلة إمدادهم بالمياه.

وحلاً لهذه المشكلة قامت الحكومة المصرية بأمر من سعيد باشا بحفر ترعه الماء العذب ، هذه على نفقتها وبأعداد بلغت ٥٥٨٩٣ رجلاً من المصريين وتم حفرها خلال تسعة أشهر من قرية القصاصين إلى نفيشة بالقرب من بحيرة التمساح فى ٢٣ يناير ١٨٦٢ وبلغ طولها ٣٤٨٣٨ مترا وهنا خفت مشكلة ماء الشرب فى ساحات الحفر(٣٦).

ثانيًا : تفشى الأوبئة والأمراض بين العمال فى ساحات الحفر:

الكارثة الأخرى التى حلت بعمال السخرة تمثلت فى الأوبئة التى اجتاحت ساحات الحفر نتيجة لانعدام الماء العذب فى البرزخ إلا من بعد آبار قليلة- كما سبقت الإشارة- فلم يكن فى الاستطاعة إقامة الحمامات العامة أو المغاسل وغير ذلك من وسائل المحافظة على الصحة

العامة . فقد كان الماء لازال يحمل على ظهور الجمال لساحات الحفر، ولم يكن يفي بحاجات العمال الضرورية .

كل ما هناك أن الشركة انشأت إدارة صحية تتبعها مراكز الإسعاف متنقلة مصنوعة من الخشب تتبع ساحات الحفر [٣٧]. ولكن الدكتور أوبار روش Aubert Roche رئيس الشئون الصحية في الشركة[٣٨] أمر بإلغاء المخيمات وأكواخ الخشب وإقامة المنازل المبنية من الطوب اللبن، كما نصح بالاهتمام بالتهوية في كل مكان وتجنب التكدس والازدحام وأوصى بتنظيف أرض المنازل وطلاء الحوائط باللون الأبيض وتنظيف الشوارع [٣٩].

وكانت أهمية مراكز الإسعاف تتوقف على عدد العمال الذين يعملون في دائرتها أو على جنسية المقيمين هناك. فكانت عناية الشركة بصحة مستخدميها وعمالها الأجانب تفوق بكثير عنايتها بصحة العمال المصريين [٤٠].

واتبع «أوبار روش» طوال فترة حفر القناة سياسة «الوقاية الصحية» والسلامة من الأمراض وأقام مستشفى في بورسعيد عام ١٨٦٠ لعلاج العاملين بالشركة ومع ازدياد عدد العاملين في ساحات الحفر والمقاولين وأتباعم تم إقامة مستشفى آخر في الإسماعيلية في منتصف البرزخ [٤١].

وكانت أكثر الأمراض انتشارا بين العمال المصريين في ساحات الحفر هي : النزلات الشعبية والأمراض الصدرية والرمدية ، وحالات الإسهال الشديد والدوسنتاريا وأمراض الكبد[٤٢].

والحقيقة أن النشرة الصحية التي كان يقدمها أوبار روش كل حين قد جانبها الكثير من الصواب لمحاولتها إخفاء الحقائق المؤلمة حول عدد الموتى الذين عصفت بهم الأوبئة في ساحات الحفر . والأوبئة التي اجتاحت برزخ السويس حسب ترتيب ظهورها هي : التيفود – التيتنوس – الجدري – الكوليرا– الحمى الراجعة .

التيفود : ظهر في إبريل ١٨٦٢ في ساحة الحفر رقم ٦ واتخذ مظهر الوباء بين العمال من النوبة وتبت مسئولية الشركة وتقصيرها ، فكان حري بها أن تتخذ التدابير الوقائية لمنع تسرب المرض إلى ساحات الحفر، علاوة على أن العمال قد حملوا العدوى لقراهم بعد عودتهم[٤٣]. ويذكر المؤرخ الايطالي «انجلو ساماركو» أن الشركة كانت سبباً في ذلك[٤٤] .

كافحت الشركة الوباء في تكتم شديد، فلم يذكر أحد من رجال الشركة على الإطلاق اسم ذلك المرض حتى لايثير الرعب والاضطراب في ساحات الحفر، حتى أن المرضى أنفسهم كانوا يجهلون أنهم مصابون بهذا المرض[٤٥].

وتذكر الشركة أنها تغلبت على الوباء خلال شهر واحد ، وأن عدد الإصابات بلغت ٥١٢ عاملا والوفيات ٢١ فقط !! ولكن هذه الأرقام كانت دون الحقيقة بكثير فى ساحات الحفر التى لايقل عدد العمال فيها عن عشرين ألف عامل . وتعطلت عمليات الحفر بسبب الوفيات، وهذا دليل على جسامة عدد الضحايا . كما أن مدير عام الأشغال بالشركة- فوازان بك- Voisin bey الذى كان يشرف على عمليات الحفر فى تلك المنطقة وصف ذلك الوباء بأنه «حادث خطير»[٤٦].

وفى العام التالى (١٨٦٣) انتشر وباء التيفوس والتيفود معًا فى ساحات الحفر، وكانت مصر قد ابتليت بهذين الوبائين قبل انتقالهما إلى منطقة البرزخ، وكان من المتعذر أن يظل برزخ السويس بمنجاة منهما .

وفى عام ١٨٦٤ تسرب وباء الجدرى إلى ساحات الحفر، وهنا أيضا يتأكد تقصير القسم الطبى بالشركة فى اتخاذ التدابير الوقائية لمنع تسرب الأمراض والأوبئة إلى برزخ السويس[٤٧].

الكوليرا : تفشى وباء الكوليرا فى ساحات الحفر فى صيف عام ١٨٦٥ وكان أخطر وأشد وباء شهدته منطقة برزخ السويس ، ونشر الذعر بين الناس مما أدى إلى تعطيل الأعمال [٤٨].

وقد ظهر هذا الوباء أولاً فى عام ١٨٦٤ فى البنغال بالهند ثم انتقل إلى بمباى ، وفى سنه ١٨٦٥ انتشر على ساحل ملبار إلى كراتشى وبلوخستان ثم نقلة الحجاج الهنود المسلمون إلى الحجاز (مكة) وانتشرت العدوى بين الحجاج المصريين هناك، فلما عاد حجاج مصر وشمال أفريقيا إلى ميناء السويس وفد الوباء معهم إلى ذلك الثغر ومن ثم انتشر فى مصر وفى ساحات الحفر ببرزخ السويس[٤٩]. وقد أثار الذعر بين السكان والعمال العرب والأجانب على السواء وخرج الأجانب هائمين على وجوههم صوب بورسعيد يقطعون المسافة سيراً على الأقدام ويحملون معهم أثقالا من المتاع . ومع ازدياد أعداد الموتى زيادة مروعة اعتقد الجميع أن الوسيلة الوحيدة للنجاة من الوباء هى مغادرة المدينة بأسرع ما يمكن، وعجزت الإدارة الصحية للشركة عن الحصول على رجال ينقلون المرضى إلى مراكز الاسعاف أو يرفعون جثث الموتى[٥٠].

ومن العجيب أن يظل عدد الإصابات بالكوليرا بين العمال المصريين فى ساحات الحفر أمراً غامضًا لم تشر إليه تقارير الإدارة الصحية فى شركة القناة إلا لماما، وقصرت الشركة

إحصائياتها على العمال الأجانب . وقد ذكر كبير أطباء الشركة (أوبار روش) فى تقريره عن « سير الكوليرا » وكذلك مدير الأشغال (فوازان بك) أنه كان من الصعب للغاية الوقوف على عدد الوفيات والإصابات بين العمال المصريين، وهو أمر أريد به إخفاء نسبة الوفيات العالية بينهم[٥١].

ثالثًا : سوء التغذية وانعدام الأجور وسوء المعاملة :

أوردت الباحثة الفرنسية « نتالى مونتل » تقريراً عن حالة عمال السخرة في البرزخ خلال الفترة الأولى قبل إلغاء السخرة فى عام ١٨٦٤ جاء فيه :

« أما الظروف التى كان يعيش فيها رجال الورشة فلم تتحسن تمام ويبدو أن الوضع كان أكثر صعوبة في وسط الخليج والصورة التى رسمها المهندس مانتو Montaut[٥٢] تعطى فكرة عن ذلك، فقد كان تموين علف الماشية من التبن والفول والشعير أيضًا غير منتظم وكان عدد الوفيات ضخمًا بسبب المجاعة ، ولم تكن تدفع الأجور وهناك نقص فى المؤن- نقص فى الأوعية والملابس والأحذية الملائمة لطبيعة المكان ، ولم تصل ملابس صيفية طوال الصيف ، كما كان يوجد داخل البرزخ معتقل يرسل إليه من يسئ السلوك، وليس على المرء أن يشكو ما لم يمت جوعا ... إن المواد الغذائية الموجودة فى مخزن دمياط لاتصل »[٥٣].

وقد كشف أيضًا مانتو- بعد استقالته- كيف كانت النوايا السيئة للمقاول العام « هاردون » واضحة فقد جاء إلى مصر بعمال أوربيين مع أسرهم ووعدهم بشروط مميزة ثم دفع لهم أجور أقل بكثير مما صرح به، وكانوا يتقاضون ما يكفى لأكلهم ، وكيف جاء بحرفيين سرحهم عندما تتوافر المواد اللازمة لعملهم وظهرت تعسفات وتجاوزات المقاول العام أكثر تجاه العمال العرب. وتكشف بوضوح الهوة بين الحقوق المكتسبة التى أعلنت على الملأ بواسطة الدعاية الضخمة وبين التصرفات الفعلية[٥٤]. وإن كان الخديوى سعيد قد احترم تعهداته واستدعى الآلاف من الفلاحين من قرى مصر وأرسلهم إلى ساحات الحفر فى البرزخ- كما ذكرنا- فعلى العكس من ذلك لم يكن وكيل الأعمال ينفذ تعهداته . ولاحظ مانتو ضعف الأجور التى تدفع للفلاحين . إذ كانت أقل بكثير عما أعلن عنه، ورأى أيضا أن مراقب المقاول فى موقع الحفر فى منطقة البلاح استخدم فلاحين فى أراضى وعرة بالإضافة إلى عدم استطاعته تزويدهم بالمعدات المناسبة وقرر أن يدفع ٤٠ سنتيما عن كل متر مكعب تم استخراجه أكثر قليلا عن الأجر المعتاد ، فوجه المقاول العام له اللوم على مبادرته ، كما أن

العمال كانوا ينتظرون أجورهم طوال أسابيع كاملة، وكانوا يضطرون للعودة إلى قراهم دون مال[٥٥].

وهذا ما أكده أيضا (البرت فارمان) بقوله : «بناء على بعض المعلومات التى حصلت عليها من بعض المطلعين على الحقائق ، أن المبالغ الضئيلة التى اتفق على دفعها للعمال لم تكن تدفع لهم فى أغلب الأحيان . ولقد اتضح من القضايا التى رفعت بعد ذلك أن حوالى مليون دولار (٤.٥ مليون فرنك) من المبالغ الصغيرة المستحقة لهؤلاء الناس الذين كان من بينهم نسبة كبيرة من الأطفال ، لم تدفع لأى شخص منهم. والأدهى من ذلك أنها لم تدفع على الإطلاق ، بل حجزت نظير الفائدة المستحقة على التعويضات الناجمة عن عدم الاستمرار فى توريد عمال السخرة»[٥٦].

وتجدر الاشارة إلى أن عمال السخرة كانوا يعملون فى شهر رمضان ، وقد بلغ عددهم فى شهر رمضان عام ١٢٧٨هـ (مارس ١٨٦٢م) ١٩٦٧٨ عاملا سيقوا إلى ساحات الحفر وعمل الكثير منهم فى حفر القناة أثناء الليل، وكانت الشركة قد اتخذت عدتها لهذا التجديد فى نظام العمل، فابتاعت ألف مشعل من القاهرة استخدمتها فى إنارة ساحات الحفر حيث ظل العمال يعملون على ضوء المشاعل طوال شهر رمضان [٥٧].

العمالة الأجنبية فى البرزخ وتبعاتها :

بعد إلغاء أعمال السخرة فى ١٥ مارس ١٨٦٤ استلزم الأمر كثرة من العمال الفنيين وعمال الحفر على السواء. وكان العمال الفنيون ، الذين يعملون على الكراكات والمعدات الميكانيكية وغيرها، من الأجانب أما عمال الحفر فكانوا فى غالبتهم العظمى من العرب[٥٨] جاءوا للعمل بمحض إرادتهم[٥٩] وخاصة بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦٥) وإنخفاض أسعار القطن المصرى انخفاضا كبيراً . ويؤكد ذلك تقرير محافظ القناة (إسماعيل حمدى بك) أن عمال الفحت فى رمال القناة أكثر الشغالة فيها من أبناء العرب، أما الأروام وغيرهم من الأجانب فهم قله بالنسبة للأول [٦٠].

وعلى أية حال فقد شهدت مصر عهد التسلط القنصلى، إذ كانت الغالبية العظمى من قناصل الدول يتدخلون فى صميم الشئون الداخلية للحكومة المصرية، وازداد تدفق الأجانب على مصر منذ تولى سعيد حكم مصر، جاءوا بحثًا عن المأوى والمطعم ، تحت حماية قناصل دولهم وأصبحت مصر مقصد كل عاطل وحالم كأنها أصبحت «كاليفورنيا جديدة» تزخر بمناجم

الذهب، وكان معظم هؤلاء الأجانب قد جاءوا من جنوبى شبه الجزيرة الايطالية ومن اليونان وفرنسا والنمسا . وكان الأجانب -آنذاك- لايخضعون للقضاء الإقليمى فى مصر ، ولايخضعون للتشريع المصرى ولايخضعون للسلطة التنفيذية المحلية ، ونتيجة لذلك أصبحت شركة القناة بأراضيها قد تحولت إلى مستعمرات فرنسية تحظى بحماية ورعاية فرنسا كأنها «حكومة داخل الحكومة المصرية» (Imperium in Imperio) (٦١).

وهكذا وفد إلى مصر جموع متباينة من العمال الأجانب- بعد إلغاء السخرة- فاضطرب حبل الأمن وكثرت حوادث القتل والسطو وتعددت حوادث الاعتداء على رجال الشرطة ومهاجمة مراكز قواته وغير ذلك من الشرور الاجتماعية . وكان العمال الأجانب فى برزخ السويس على قدر كبير من التنافر فى الأخلاق والعادات والتقاليد والأمزجة واللغة ، فكان حتمًا وقوع الاحتكاك والاضطراب وكثيراً منهم كانوا من المتعطلين فجاءوا إلى مصر التماسا للرزق فى عمليات حفر القناة (٦٢). وقد وصف محافظ الاسكندرية- آنذاك- العمال الايطاليين الذين وفدوا إلى مصر فى أكتوبر ١٨٦٥ بأنهم من سفلة الناس (٦٣).

أكدت الوثائق المحفوظة بشركة قناة السويس والمتعلقة بالأمن إلى وجود اضطرابات كثيرة فى ساحات الحفر ببرزخ السويس فى أعقاب تدفق العمالة الأجنبية هناك . وقد أكدت الباحثة الفرنسية «نتالى مونتل» أنه بالرغم من التصريحات العامة المتعارضة للشركة، فإنه يكاد يظهر العنف يوميًا فى البرزخ ، إذ تعكر المشاجرات والصراعات العنيفة التى تنفجر غالبًا لأسباب تافهة ، هدوء الورش والمخيمات ، بشكل دائم وتزيد من العداوة بين أفراد من جنسيات مختلفة . وبعد توقف إرسال قوافل عمال السخرة قام فى الحقيقة خليط من الجنسيات المتعددة من العمال بالعمل فى ساحات الحفر فى القطاع الجنوبى من برزخ السويس، بينما كان معظم عمال الحفر من المصريين أو السوريين. أما العمال الحرفيون من بنائين ونجارين وحدادين وميكانيكية فقد تم اختيارهم من إيطاليا وشمال بحر الادرياتيك وشكل اليونانيين طاقم ملاحى الجرافات والزوارق المتنوعة (٦٤).

وهكذا انقضى عهد الهدوء والأمن الذى نعمت به منطقة البرزخ عندما كانت تعج بعشرين ألف عامل مصرى من عمال السخرة ، فلقد عرف عن أولئك العمال الوداعة والطاعة والانصراف إلى العمل فى هدوء ، مما سهل على الحكومة حفظ الأمن فى ساحات الحفر . وقد اعترف المسئولون فى شركة القناة والكتاب الفرنسيون أنفسهم بهذه الخصال الحميدة التى امتاز بها العمال المصريون (٦٥).

يقول رئيس ساحة الحفر في منطقة سرابيوم أن العمال اليونانيين كانوا بمثابة الطاعون الحقيقى الذى يجتاح البرزخ، فكانوا يرتكبون حوادث النشل والسرقات والاعتداء. وكان إذا قبض على هؤلاء اليونانيين وثبت عليهم الجريمة أرسلوا إلى القنصلية اليونانية فى الإسكندرية لتقوم بأبعادهم إلى بلادهم ، وهناك لايتورعون عن تغيير أسمائهم وسرعان ما يعودون إلى البرزخ لاستئناف نشاطهم . وقد خاطب دى لسبس العمال بقوله : «كل إنسان حر فى البرزخ، ولكن على الذين لايريدون عملاً أن يرحلوا وهذه أجل خدمة يستطيعون إسدائها لنا»[٦٦].

كذلك أدت مشاجرة نشبت بين اليونانيين والعرب في يومى ٣٠ و ٣١ أكتوبر ١٨٦٤ إلى إصابة اثنى عشر عاملاً يونانيًا بجروح خطيرة وتم نقلهم إلى مستشفى الإسماعيلية [٦٧]. أيضا اندلعت معركة حامية بين اليونانيين والزنوج (يقصد النوبيين) فى نوفمبر ١٨٦٥ فى ورشة التل الكبير ونتج عنها ستة جرحي من بينهم مشرف فرنسي. أما المعركة التى وقعت بين العرب ورجال من الجبل الأسود في ورشة القنطرة فى أبريل ١٨٦٦ فكانت نتيجتها ثلاثة قتلى. وفى عام ١٨٦٤ اندلعت أحد أكبر المشاجرات ضراوة فى ورشة بقسم الاسماعيلية وتدخل المستخدمون بالشركة لمنع مجزرة حقيقية وأدى هذا الصراع بين ثلاثين يونانيا وخمسمائة عربى إلى خمسة قتلى وعشرين جريحًا [٦٨].

ونتيجة لهذه الحوادث المتكررة أدخلت الحكومة المصرية فى البوليس المصرى بعض الأجانب المشهود لهم بالذكاء ، كشفوا عن الحيل التى كان يلجأ إليها الأجانب المشاغبون وقاموا بترحيلهم إلى بلادهم وأدرك اليونانيون أن ارتكاب الجرائم حرفة غير مجزية فاختفوا من ساحات الحفر، ولم يبق فيها من الجالية اليونانية إلا العمال الأمناء والتجار الشرفاء[٦٩].

وتنقسم الحوادث التى وقعت فى ساحات الحفر من حيث عدد المشتركين فيها إلى نوعين:

الأول : حوادث جماعية تقع بين جموع العمال ويتراوح عددهم بين ألفين وثلاثة آلاف ويكون للتعصب الجنسى الأثر الأكبر فى تفاقم الحال، إذ سرعان ما ينقسم المشتركون فيها إلى فريقين ينتمي كل فريق إلى جنسية واحدة، أو ينقسم المشتركون إلى فريق من العمال المصريين وفريق من العمال الأجانب على اختلاف جنسياتهم ، ممن يتصادف وجودهم فى منطقة الحادث ، وتسفر عن وقوع قتلى وجرحى من الفريقين .

الثانى : حوادث فردية تقع بين عامل مصرى وآخر أجنبى ، أو بين عامل أجنبى وآخر أجنبى [٧٠]، ووثائق شركة قناة السويس (الفرنسية) وأيضًا وثائق محفوظات عابدين (المصرية) تفيض بأخبار هذه الحوادث بنوعيها .

وسنذكر هنا بعض الأمثلة لهذه الحوادث ، اصطدام بين العمال الفرنسيين والعمال اليونانيين، نشأ من أن بعضًا من العمال الفرنسيين دخلوا بعد منتصف الليل محل بقاله يوناني يريدون شراء الخمر ، ولما كانوا فى حالة سكر شديد امتنع البقال اليونانى عن إعطائهم الخمر فثارت ثائرتهم وشرعوا يحطمون المحل وما فيه من زجاجات الخمر وعلا ضجيجهم وعندئذ انضم إلى صاحب المحل بنو جنسه من اليونانيين، كما انحاز الفرنسيون إلى العمال السكارى ، وهكذا اتسع نطاق الحادث. ويذكر محافظ القناة- إسماعيل حمدى بك- في تقريره عن هذا الاشتباك : «وإنما تمكنت من إسكات الفتنة بعد جهد كبير وعناء شديد نظراً لأن عدد المتشاجرين كان يربو على خمسمائة شخص» (٧١). وأسفر الحادث عن وقوع إصابات بين الفريقين .

حادثة أخرى تتمثل فى أن جماعة من العمال الايطاليين الذين كانوا يعملون فى مركز الشلوفة أرادوا ابتياع كميات من الخمور يحتسونها وقت القيلولة فى أحد أيام ديسمبر ١٨٦٥ فوجدوا أن الموسسة الاقتصادية الفرنسية Bazin مغلقة في تلك الفترة من النهار، ولم يرق للايطاليين ذلك فحطوا باب المحل واقتحموه ، وقد طلب رئيس ساحة الحفر في قسم الشلوفة وهو رجل فرنسى من قوات البوليس المرابطة فى تلك الناحية القبض على اثنين من متزعمى هذه الحركة فما أن ألقى القبض عليهما ، حتى ثار العمال الأجانب وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف، فهجموا على مركز البوليس بعد أن حبطت محاولة قاموا بها لحرق رجال البوليس أحياء، كما حطموا مخزن الشركة فأرسلت على عجل من السويس قوات من البوليس المشاة والفرسان وصلت بعد منتصف الليل ولم تهدأ الحال إلا فى الساعة الخامسة صباحًا وبعد أن وقعت إصابات بين أفراد البوليس والعمال (٧٢).

أيضا كان العمال الأجانب يجنحون دائمًا إلى الإضراب إذا تأخر المقاولون عن دفع أجورهم. وقد وقع هجوم منهم على مركز الشركة فى السلوفة، لأن المقاول أراد أن يستقطع من كل عامل ١١ فرنكا بمثابة تأمين عن السرير الذى تم صرفه لكل منهم، ورفض العمال الإذعان لرغبة المقاول، وكان عددهم يزيد على ألفين ، فلجأوا إلى أعمال الشغب ووقعت خسائر فى الأكواخ الخشبية والأسرة المعدة لنومهم ، وأبلغ أمر هذا النزاع إلى قناصل الدول، فحضر قنصلا فرنسا والنمسا إلى مكان الحادث وفصلا فى النزاع لمصلحة العمال(٧٣).

ولما أدرك العمال الأجانب أنهم قد نجحوا فى فرض إرادتهم على المقاولين والشركة ، طالبوا فى اليوم التالى بزيادة أجورهم واتفقوا على الإضراب عن العمل إذا لم تجب مطالبهم وحددوا

لإجابته أربع وعشرين ساعة ، فلما انقضى الموعد وشرعوا فى الإضراب طلبوا من العمال المصريين مشاركتهم فى الإضراب فأبى المصريون ووقع صدام بينهم وأطلق العمال الأجانب الأعيرة النارية ، ولجأ العمال المصريون إلى استخدام الفؤوس يضربونهم بها واتسع نطاق المعركة ووقع فيها عدد كبير من القتلى والجرحى، كما أصيب مأمور الشلوفة [٧٤]. وقد استنجد البوليس هناك بقوات إضافية حضرت على عجل من السويس والإسماعيلية وإقليم الوادى وكانت هذه القوات من المشاة والفرسان . كما قامت من القاهرة فى قطار خاص كتيبة من الجيش المصرى بقيادة السردار راتب باشا وعسكرت فى السويس ووزع بعض أفرادها فى الشلوفة وغيرها من مراكز الحفر الواقعة شمالى السويس على أهبة التدخل .

وقد خف إلى مكان الحادث رجال الداخلية ووكيل قنصل النمسا ووكيل قنصل ايطاليا لتهدئة الحال، وهناك علموا أن العمال الأجانب فريقان : فريق يرى المضى فى سياسة الإضراب حتى تجاب مطالبهم ، وفريق يريد العودة للعمل، ولكنه يخشى سطوة الفريق الأول . وقد استقر الرأى على إنذار أفراد الفريق الأول بضرورة العودة للعمل فورا وإلا أعيدوا إلى بلادهم بواسطة قناصل دولهم. وألقت السلطات المصرية القبض على اثنين من رجال الجبل الأسود وثلاثة عمال نمساويين كطلب سلطات الشركة والمقاولين وموافقة قنصل النمسا وأرسلوا إلى السويس تحت حراسة مشددة تمهيداً لترحيلهم إلى بلادهم[٧٥].

أما الحوادث الفردية فكانت ترجع إلى سوء سلوك العمال الأجانب وإلى سوء الحالة المالية وخاصة بعد أن تعطل عدد كبير منهم عن العمل وأصبحوا ينتقلون من ساحة حفر لأخرى بقصد البحث عن أشغال يتعيشون منها[٧٦].

وساعد على كثرة هذه الحوادث أن الأسلحة النارية كانت تتداولها أيدى العمال الأجانب الذين كانوا يستعملونها لأوهى الأسباب . ومن أسباب زيادة عدد الجرائم الفردية فى منطقة البرزخ الإفراط فى تناول الخمور، مما كان موضع شكايات عديدة استفاضت بها تقارير اوبار روش (Aubert Roche) كبير أطباء شركة القناة [٧٧]. كما أشار إليها محافظ القناة فى برقياته إلى المعية السنية[٧٨].

الخمارات ونوادى القمار :

نتيجة للحوادث الناجمة عن تعاطى الخمور، تم حظر بيعها ، ورغم ذلك ومع تطور التجارة استمر استهلاك شراب الأفسنتين (الأبسنت) وماء الحياة بصورة كبيرة، تثير الثمالة

والصراعات وتولد العنف . ففى مارس ١٨٦٨ حدثت مشاجرة أمام محل بيع مشروبات بالقرب من البحيرات المرة نتج عنها أن تلقى إيطالى رصاصة فى ظهره وطعنة سكين بجانب عينه اليسرى دخل على أثرها المستشفى[٧٩]. وقد افتتح بعض الأجانب محلات عامة فى بعض جهات البرزخ للعب القمار وانتشرت لعبة الروليت (Roulette) فى أوساط العمال الأجانب وكان اليونانيون بوجه خاص هم الذين يديرون تلك المحلات[٨٠].

أيضا حصل المسيو شكتران (السويسرى) فى إبريل ١٨٧٤ على ترخيص بانشاء فابريقة لعمل البيرة بالإسماعيلية ، مع إعفاء الآلات والعدد الخاصة بتلك الفابريقة من الرسوم الجمركية لمدة سنة[٨١].

وكان العمال الأجانب يدخلون محلات القمار بعد أن يتسلموا أجورهم فيخسروا فى ساعة أو بعض ساعة الكسب الذى أصابوه من عملهم[٨٢] وقد أزعج هذا الأمر كلاً من Voisin Bey (مدير الأشغال بالشركة) ودى لسبس ، فاتخذوا موقفا حازما من هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة ، إذ طلبا من محافظ القناة رسميا إغلاق دور القمار فى منطقة البرزخ، وقد تظلم أصحاب هذه المحلات إلى قناصل دولهم من تصرف البوليس المصرى، وكان منع القمار فى موضوع مكاتبات رسمية بين نظارتى الخارجية والداخلية وقصر عابدين[٨٣].

وبلغ من إقبال العمال الأجانب على تناول الخمور أن كانت هناك حانات متنقلة تتبع كل منها مجموعة من الكراكات فى سيرها فى القناة[٨٤]. وكانت إذا حلت مجموعة من الكراكات فى إحدى جهات البرزخ الآهلة بالسكان وألقت مراسيها فى القناة، انتشر الخبر بسرعة بين سكان تلك الجهة فهرع التجار إليها يقيمون الأكواخ الخشبية ويعلقون اللافتات ويعرضون البضائع وتفتح المقاهى على مقربة منها، وسرعان ما يدب النشاط والحياة فى الجهة بأسرها. وكانت مجموعة الكراكات تتألف فى العادة من خمس وحدات[٨٥].

عنصر النساء فى البرزخ :

كانت شركة المقاولات (Borel & Lavalley) التى أبرمت معها شركة القناة عدة اتفاقيات لحفر الجزء الأكبر من القناة بالوسائل الميكانيكية تعمل على جلب النساء إلى منطقة البرزخ وكثير منهن كن ساقطات كى يقمن بالرقص فى بعض المقاهى والحانات ترويحًا عن العمال. وقد احتج محافظ القناة (إسماعيل حمدى بك) لدى فوازان بك (مدير عام الأشغال فى شركة القناة) ولدى بوريل Borel على هذا التصرف ، إذا كان يتأتى من ذلك أمور مغايرة وحصول مشاحرات ، وأن الأصول لاتجيز ذلك». وكان رأى الشركة أن رقص النساء فى المحال العامة

إنما هو عنصر هام من عناصر الحياة الاجتماعية يستهوى العمال على الإقامة فى منطقة البرزخ ويروح عن نفوسهم متاعب العمل ، ولم يسفر احتجاج المحافظ عن نتيجة إيجابية ، إذ رأى أن رجال الشركة يعتزمون إجراء بعض أمور توجب وقوع مفاسد فى المستقبل بشأن هذا القبيل. وكتب تقريرا بذلك إلى رجال المعية السنية وطلب إليهم رفعه إلى الخديوى إسماعيل إذا رأوا أنه ليس هناك ما يحول دون عرض «مادة النساء الفواحش على سموه»(٨٦).

والحقيقة أن وجود هذه النوعية من النساء فى البرزخ كانت سببًا فى قيام الخلافات والصراعات . وتشير الإحصائيات الطبية لعام ١٨٦٨- ١٨٦٩ إلى أن هناك ألفى امرأة من البيض ونفس العدد من أهالى البلد أى ما يساوى ١٢٪ من جملة السكان(٨٧).

وقد تم اغتيال نمساوى فى ١٤ أغسطس ١٨٦٧ فى مقهى إيطالى بالحى الصناعى بالإسماعيلية وقد توصل المحقق إلى أن «المرأة» هى دافع الجريمة وبالرغم من أن المرأة موضوع الخلاف إلا أنها أحيانا ما تكون الضحية . وفى ١٢ أكتوبر ١٨٦٨ أوضح تقرير رسمى أن عاهرة نمساوية عمرها يقل عن ٢٥ سنة قتلت فى بيت بغاء فى بورسعيد (٨٨).

وشملت شكاوى غاية فى الحدة وأشير إلى أن عدة منازل فى القرى العربية بالقرب من المخيمات الأوربية فى منطقة الجسر، يوجد فيها ناد للقمار وبيت للدعارة ، يتردد عليها عدد كبير من الأوربيين العاملين فى المخيم لقضاء الليل ومن جراء ذلك انتشرت الأمراض التناسلية بشكل مفجع بين السكان وكان لابد من وضع قوانين لذلك وإصدار قرارات من الأمن بتحديد ساعة إغلاق الحانات والمقاهى وإجبار السيدات اللاتى يمارسن البغاء على الكشف الدورى وهذا ما تم بالفعل (٨٩).

ومنذ عام ١٨٦٥ ، أصدر المدير العام تعليمات تتعلق بشرطة الآداب تلزم كل عاهرة بأن تخضع أسبوعيا لكشف طبيب ليتأكد أنها سليمة ويسلم لها بطاقة أسبوعية محددة. وتنص هذه التعليمات على أنه من مسئولية من «يديرون هذه البيوت» مراقبة هذه الأوامر، وطرد كل بنت مريضة دون بطاقة أو انتهى تاريخ بطاقتها . وقد اتخذ فوازان بك أيضا التدابير لتضييق الخناق على زيادة عدد الملاهى بضواحى الورش . وفى مايو ١٨٦٧ رأى المقاول كوفرو أن الدعاة انتشرت بكشل غير عادى، ثم جاء بعد ذلك دور شركة مقاولات بوريل ولافالى وشركائهما فى الشكوى من أن عدداً ضخمًا من الملاهى مفتوحة طوال الليل مما يستبقى الموظفين والعمال لساعات متأخرة وينال من مدخراتهم ويجعلهم غير قادرين على العمل فى اليوم التالى (٩٠).

وطلبوا من الشركة اتخاذ إجراءات تهدف إلى إبعاده هذه الأماكن عن مساكن العاملين . أيضا . تجدر الإشارة إلى أن كثيرا من العمال الأجانب كان يصحب معه خليلة له تقيم في مسكنه وهو أمر كان يؤدى إلى وقوع جرائم قتل تذهب ضحيتها الخليلة إذ يقتلها جار منافس لحائزها [٩١].

الباعة المتجولون والمحلات العامة :

شهدت منطقة البرزخ نظاما فريدا للباعة المتجولين ذلك أن لفيفًا من التجار اليونانيين كانوا يستقلون مراكب تسير في القناة البحرية الصغيرة من بورسعيد متجهين بها صوب الجنوب إلى داخل البرزخ، وكانت هذه المراكب تحمل ألوانًا مختلفة من الأطعمة والمشروبات والفواكه وما إلى ذلك . ويبيع بحارة المراكب هذه الأنواع المختلفة إلى العمال الذين يعملون في الكراكات حيث تكون في جهات بعيدة عن المراكز الآهلة بالسكان ، وكان أصحاب هذه المراكب هم بحارتها وهم أصحاب تلك البضاعة وهم الذين يتولون بيعها ولذلك كانوا يعرضونها بأسعار منخفضة نسبيًا [٩٢].

هذا في حين ازدحمت بعض مراكز الحفر بالمحلات العامة مثل المطاعم والمقاهي ومحلات بيع الحلوى (والكباريهات Cabarets) حتى أطلق على بعض تلك المراكز اسم باريس الصغرى Le Petit Paris [٩٣]. وكانت فرق الموسيقى الأجنبية تعمل في المقاهي ويستمر العزف إلى وقت متأخر من الليل[٩٤].

كما شاهد البرزخ الألعاب النارية يقوم بها العمال الأجانب في احتفالاتهم وأعيادهم[٩٥]. وكثر إقبال الأجانب على صيد الطيور بين المساكن مما عرض حياة الجماهير للخطر، ولذلك فكرت الشركة بالاتفاق مع محافظة القناة في وضع لائحة تحرم صيد الطيور بين المساكن وعلى إلزام أصحاب المقاهي بغلق محالهم ليلاً في الميعاد الذي يحدده فوازان بك [٩٦].

هذا وقد شهدت طلبات امتياز ملكية الأراضي التي قدمت في عام ١٨٦٧ في بورسعيد على تنوع الاحتياجات وتطور المدينة، إذ قدمت الطلبات بغرض إقامة مطعم ومخبز وورشة نجارة وفندق ومساكن ومحل أزياء حديثة ومحل مأكولات ومحل بيع مشروبات كحولية ومغسلة ملابس وبار (خمارة) وورش خشب ومحل معدات ومصنع لشراب الليمون وجزارة ومجمع وصالون حلاقة وحمامات عامة ومحلات للبقالة والتبغ ومصنع للخمور وورشة أسلحة وورشة خياطة ... الخ [٩٧].

النمو السكانى فى البرزخ :

بعد أن كانت أعمال حفر القناة محصورة فى البداية فى نقطة واحدة هى بحيرة شاطئ بورسعيد (١٨٥٩) امتدت تدريجيا لتشمل كل من برزخ السويس الذى كان من قبل مكانا قاحلاً ومعزولاً ولاتطرقه إلا قوافل البدو ، صار بعد ذلك أرضا آهلة بالسكان وفى نمو مستمر، وانضم إلى العمال الملتحقين بأعمال حفر القناة بعد ذلك جماعة من المقاولين والتجار والعمال من جنسيات مختلفة بحثًا عن فرص للعمل .

وعلى أية حال فقد شهدت الفترة من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٩ جذبًا سكانيا كبيراً لمنطقة برزخ السويس، وخاصة من الأجانب الذين قدموا بحثًا عن الثروة والعمل فى هذا الموضع الاستراتيجى الهام، وساعد على ذلك سياسة دى لسبس من جهة وسياسة سعيد باشا وإسماعيل من جهة أخرى، فقد فتحوا أبواب مصر على مصراعيها للأجانب . ويذهب الدكتور محمد صبرى (السربونى) فى وصف هذه الموجه من الهجرة «إلى أنها كانت أقرب إلى الغزو منها إلى الهجرة»[٩٨].

بلغ عدد سكان بورسعيد فى عام ١٨٦٨، الأهالى ٢٧٠٠ رجلاً بينما بلغ عدد الأجانب ستة آلاف شخص [٩٩]. وفى العام التالى كان عدد السكان يتراوح بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف نسمة وفى عام ١٨٧٤ بلغ عدد سكان بورسعيد ١٠٢٥٥ نسمة، منهم ٤٠٣٦ أجنبى و ٦٢١٩ من المواطنين . وقد استمر عدد الأجانب فى التناقص حيث بلغ عددهم ببورسعيد ٣٤٥١ شخصًا فى أوائل عام ١٨٧٦ . وذلك لأن من بقى ببورسعيد من الأجانب كان قد ارتبطت حياته بها فاستقر بها متخذاً منها موطنا له . أما الذين قدموا إليها للعمل بشركة القناة أو أى أعمال أخرى ، فإنه بانتهاء العمل فى منطقة القناة فضل بعضهم العودة إلى بلادهم لانتهاء أعمالهم بالقناة ، والبعض الآخر تم استبعادهم خاصة الأشرار منهم إذ أن وجودهم سيحدث مشاكل للأمن [١٠٠]. كما يمكن القول أن افتتاح قناة السويس كان أيضا عامل جذب للعديد من السكان الوطنيين لبرزخ السويس. وطبقًا لتعداد ١٨٨٢ بلغ عدد سكان بورسعيد ١٦٥٦٠ نسمة منهم ١٠٦٩٣ من المصريين ، ٥٨٦٧ من الأجانب ونلحظ هنا أن عدد المصريين قد أصبح ضعف الأجانب وكان أغلب هؤلاء الأجانب من اليونانيين حيث بلغت أعداد الجالية اليونانية فى بورسعيد ٢٣٧١ نسمة ويليهم الايطاليون وعددهم ١٠٥٥ نسمة ويلاحظ أن أعداد الجالية الفرنسية قد بلغوا ٧٨٠ نسمة ، أما الإنجليز فكان عددهم ٧٧٥ شخصا يليهم النمساويون حيث بلغوا ٧٦٦ شخصا بالإضافة إلى أعداد قليلة من : الألمان

والبلجيكيين والإسبان والإيرانيين والآسيويين والهولنديين والدانمركيين ، وإثنان من أمريكا ٢٨٩ من أصل عثماني و ٣٣٣ من السودان والبرابرة[١٠١].

أما عدد سكان الإسماعيلية في عام ١٨٦٩ فقد بلغ ٦٠٠٠ نسمة ثلثهم من الأوربيين[١٠٢] وفي عام ١٨٨٢ بلغ ٣٣٦٤ نسمة منهم ٢٤٢١ مصريا و٩٤٣ أجنبيا . أما مدينة السويس فقد بلغ عدد سكانها في عام ١٨٨٢ ، ١٠٩٠٩ نسمة منهم ٩٧٢٦ مصريا و١١٨٣ أجنبيًا [١٠٣]. وبلغ عدد سكانها في عام ١٨٦٠ ، ٣٠٠٠ نسمة ، وفي عام ١٨٨٢، ١١٣١٦ نسمة وفي عام ١٨٩٧ ، (١٧,٣٦٦ نسمة) [١٠٤].

التركيب الاجتماعي لسكان البرزخ :

يمثل سكان بورسعيد خليطًا من الجنسيات : اليونانيين والفرنسيين والايطاليين والنمساويين والمالطيين والعثمانيين هذا علاوة على المصريين : منهم من عمل بشركة القناة وآخرون جاءوا بحثًا عن فرص للعمل والمال وللاشتغال بالحرف والأعمال التي يجيدونها . وقد اتجه معظم اليونانيين إلى أعمال التجارة وعمل معظم الايطاليين في الحرف المختلفة وكذلك شارك النمساويون في الأعمال الفنية الدقيقة بمشروع القناة، كما قام بعض الأجانب من جنسيات مختلفة بإقامة عدة مشروعات استثمارية ببورسعيد[١٠٥].

ومع تقدم العمل في برزخ السويس وافتتاح القناة للملاحة العالمية ١٨٦٩ ، أدى ذلك إلى جذب الكثير من الأجانب للعمل هناك ، سواء في شركة القناة أو للتجارة والحرف المختلفة أو في الخدمات المقدمة للسكان ووجد بعض الأتراك والشوام في برزخ السويس. ونتج عن ازدياد أعداد الأجانب من بلاد معينة إلى وجود جاليات أجنبية كثيرة العدد مثل بورسعيد التي كانت بها جالية يونانية كبيرة العدد ، وأيضا جاليات فرنسية وإيطالية وقد كان لهم تأثير كبير في حياة المدينة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية[١٠٦].

الوطنيون :

مع تقدم العمل في القناة ومع وصول المياه العذبة لبورسعيد بصفة منتظمة وتوفر المأكولات وتحسن الظروف المعيشية وفد إليها السكان من داخل البلاد ، سواء للعمل في المشروع أو في الخدمات والأنشطة المختلفة، وأيضا للعمل في الميناء وخدمة السفن (شحن وتفريغ) وأيضا في صيد الأسماك وكان لمحافظة دمياط نصيب الأسد في هذه الهجرة إلى بورسعيد ، ومن مديريات الدقهلية والشرقية والغربية والقليوبية كما هاجر إليها العديد من أهالي الوجه القبلي من جرجا وأسيوط وسوهاج وقنا وأسوان [١٠٧].

ومن عوامل جذب السكان المحليين إلى الهجرة لبرزخ السويس وجود فرص العمل علاوة على وجود العديد من المميزات مثل : المساكن الحديثة ودور اللهو والإنارة والنظافة والحياة الميسورة ، وأن ساعات العمل هناك أقل من مثيلاتها فى الريف، الأمر الذى يسمح بوجود وقت فراغ كبير فى حياة سكان مدن البرزخ . ويلاحظ أن مدينة بورسعيد قد تقدمت على مدينتى الإسماعيلية والسويس فى جذب السكان إليها على الرغم من أن مدينة الإسماعيلية كانت أقرب إلى العمران وتتوافر بها مياه الشرب والمواد الغذائية والمأكولات عن بورسعيد . فقد بدأت مراكز إدارة منطقة البرزخ وتوافرت بها عناصر الرقى والتقدم، أما مدينة السويس فهى من أقدم المدن فى منطقة القناة. وكان من الممكن أن تنمو وتزدهر بدرجة تفوق كثيرا بوررسعيد [١٠٨]. وهكذا نجد أن بورسعيد قد جمعت بين أخلاط شتى من البلدان الأوربية والشرقية والآسيوية كما جمعت بين لغات عديدة يتحدث بها سكانها إلى جانب المصريين الذين نجح بعضهم فى إتقان عدة لغات للتعامل مع الأجانب المقيمين بالمدينة أو مع الأجانب فى السفن التى تفد إلى ميناء بورسعيد . وهكذا جمعت مدن البرزخ بين جنسيات شتى لهم من العادات والتقاليد واللغات واللهجات والأشكال والأزياء والألوان[١٠٩].

الحرف والطوائف فى بورسعيد :

شهدت المدينة وخاصة بعد افتتاح القناة بفترة ظهور العديد من الطوائف والحرف مثل: حمالى الفحم (الفحامة) - حمالى البضائع- الفلايكية والقواربية- النجارين- القماشة- القلافطة- السماسرة- التراجمة- البمبوطية- العيادين والفساخة- البنائيين- النقاشين- البرشمجية- الحدادين- السمكرية- النحاسين ومبيضى النحاس- أهل العلم- العرضحالجية- الصيارفة- الصياغ- الخياطين- المنجدين- الصباغين- العطارين- الدخاخنية- تجار البذور والزيوت- تجار الخضروات- طائفة القهوجية الشرباتلية- السقايين- الفراشين- القبانية- الفرانين- العياشة- (بائعى الخبز) - الحلاقين- الإسكافية- الحمارة والجمالة- الدلالين - الخدامين- البوابين[١١٠].

كما كانت هناك جماعات وفئات معينة ارتبطت بينها بروابط إقليمية وعقائدية واجتماعية وهى: طوائف الصعايده والعربان- وطوائف الشوام والأروام والموارنة والأرمن والايرانيين واليهود وطائفة العبيد[١١١]. وكانت كل طائفة تنتخب شيخًا لها لإدارة شئونها .

التطور العمرانى والطابع الجمالى للمبانى فى برزخ السويس:

كانت الخيام فى مطلع عمليات الحفر وسيلة لإيواء الرواد الأول من العمال، وكانت مخيمات موقتة ثم بعد ذلك شيدت أكشاك خشبية بالقرب من ساحات الحفر، كان قد استخدمها من قبل الجيش الفرنسى إبان حرب القرم (Crimée) وقد شيدت على الشريط الأرضى الذى يفصل البحر المتوسط عن بحيرة المنزلة. ثم بعد ذلك حلت محل الأكواخ الخشبية منازل متنقلة وشاليهات وأكشاك من الخشب مستوردة من فرنسا [١١٢].

ويشمل المخيم النموذجى مثل مخيم هضبة الجسر المبانى الآتية [١١٣]:

مستشفى ومساكن للطبيب والصيدلى ومخبز جزارة ومساكن راهبات وكنيسة صغيرة وبيت للكاهن ومحل مركزى ومحل بيع بالتجزئة ومساكن للمستخدمين فى المقاولات والعاملين بالشركة والمقاول العام والمهندس رئيس القطاع ومكاتب المقاولات ومكاتب شركة القناة ، وورش النجارة والحدادة وصناعة العربات والمناشر والمخارط. ومكتب إنشاء الخيام، وسوق للتجارة الحرة وحلقة ترفيهية وفندق للمسافرين ومقاهى ومطعم ومساكن للعمال الأوربيين ومكتب هيئة النقل والإسطبلات وحظيرة الجمال . وبجوار المخيم قرية عربية بها مساكن يختلط فيها التجار والمقاهى وتختلف عن أساليب تشييد المخيم المخصص للأوربيين، ذلك أن معظم مبانى القرية العربية من أكواخ خشبية ، وبعض هذه الإنشاءات لها وجود مؤقت للغاية، إذ إنه بعد انتهاء العمليات القريبة منها تختفى هذه المخيمات المتنقلة أو المؤقتة أو تنقل لتلحق بمواقع الأشغال . وفى عام ١٨٦٤ أقام العاملون فى أكواخ عائمة تأوى وتحفظ معداتهم وتجنبهم مشقة ومتاعب السفر فى الصحراء [١١٤].

أما مدينة الإسماعيلية فتعتبر حالة منفردة من البداية فقد وضع تصميم بنائها لتقوم بدور مركزى كعاصمة إدارية بعد تولى فوازان بك رئاسة قسم الأشغال الذى رأى أنها تقع فى منتصف المسافة فى البرزخ وتم وضع حجر الأساس للمدينة الجديدة فى أبريل عام ١٨٦٢ وأطلق عليها فى أول الأمر اسم (التمساح) وابتداء من ٤ مارس ١٨٦٣ أطلق عليها اسم (الاسماعيلية) تكريما لجلوس الخديوى إسماعيل على العرش وأصبحت المقر العام للشركة حيث يربط التلغراف بينها وبين بقية ورش القناة المختلفة وكذلك بين الزقازيق والقاهرة والإسكندرية ومرسيليا وحتى باريس [١١٥].

والجدير بالذكر أن مدينة الإسماعيلية قد أنشئت بخلاف بورسعيد على أساس مخطط منذ البداية فقد نشأت الإسماعيلية مع الورشة، على شكل هندسى يحدد تخطيط الطرق والمبانى

بشكل منسق . وتم وضع برنامج للتمييز بين المخيمات فى الإسماعيلية ، كما هو الحال فى بقية المخيمات فى البرزخ بحيث تظهر فعلا على الوحدات تسمية أحياء كثيرة تشكل وحدتان مركزيتان : «الحى الأوربى» بينما الوحدة الواقعة فى الشرق تصور مسبقا «الحى اليونانى» والوحدة الواقعة فى الغرب تدل على أنها «الحى العربى».

وهكذا بنيت الإسماعيلية من العدم فليس لها ماضى ولاتاريخ وأطلق على الميادين والشوارع أسماء تتصل جميعها بحفر قناة السويس، من أجل ترسيخ اقتران المدينة بالقناة رمزيًا (١١٦).

وقد أقامت الغالبية العظمى من مستخدمى شركة القناة فى وسط المدينة بالقرب من ميدان شامبليون فى مبانى متناسقة الشكل، وخصصت المنازل حول الميادين للمستخدمين المتزوجين. أما المنازل التى تحتل الزوايا فقد أعدت خصيصًا لرؤساء إدارة الشركة. وقد تم عزل المستخدمين غير المتزوجين فى جزيرة صغيرة مخصوصة أطلقت عليها الشركة «مربع غير المتزوجين» ، وأطلق عليها السكان اسم «أحياء المسعورين» . وهكذا لم يتردد فوازان بك فى إقامة ألوان عديدة من التفرقة فى مدينة الإسماعيلية (١١٧).

جدير بالذكر أن الفرنسيين كانوا يخططون المدن فى برزخ السويس على اعتقاد راسخ أنهم سيبقون فيها أبدا الدهر باعتبارها قطعة من أرض فرنسا تتخذ الطابع الفرنسى من حيث التخطيط والتنسيق والشكل الجمالى، وتلك هى طبيعة الاستعمار الاستيطانى .

حددت الشركة فى عام ١٨٦٥ أنماطا خاصة للمبانى السكنية للعمال والمستخدمين بالشركة من أجل تخفيض تكاليف المبانى فى مدن البرزخ وفى نفس الوقت إشباع بعض المتطلبات الجمالية أما بالنسبة للمبانى الأكثر تعقيداً فقد اتبع أسلوب المخيمات العسكرية.

وعندما زار هنرى بلور (Sir Henry Bulwer)(١١٨) مدن القناة أعطى لنا وصفا دقيقًا لتلك المساكن التى شيدتها الشركة بقوله : «أنها نصف كوخ ونصف منزل» "Half Hut , Half House " وأنها تشبه تلك المساكن المقامة على مراكز الحدود طبقا للحضارة الأمريكية(١١٩).

والطابع الغالب الذى ما زال موجودا لجميع مساكن الشركة المؤممة فى مدن القناة الثلاث يشهد بهذا الطابع المعمارى المكون من شرفات خشبية وجسم المسكن من الطوب . هذا الطابع الفرنسى (لمدن البرزخ التى أخذت تتكاثر) أكده السفير «هنرى بلور» بقوله :

" Here at Port Said, Timsah and Suez, were Growing French Towns, French Lands Around of Them ..."(١٢٠).

دور العبادة فى برزخ السويس :

حرص دى لسبس على أن يوفر أماكن للعبادة حرصا منه على الظهور بمظهر التسامح الدينى والحفاظ على حرية إقامة الشعائر الدينية لأنه قد جمع بين مختلف الأديان والمذاهب ، كل ذلك بهدف استمرار إقامة العاملين بمشروع القناة وأنها قد استطاعت أن تجمع بين مختلف الأديان والمذاهب، وأيضا فى إطار المحافظة على الأمن بدليل أن شركة قناة السويس خصصت موظفين مسئولين عن الأمن والأديان فى نفس الوقت .

وقد قام دى لسبس بنشاط ملحوظ فى الحقل الإسلامى، كان من مظاهره الحرص على أن يذكر فى إعلانات الشركة أنها قد شيدت مسجداً فى كل قرية من القرى التى أقامتها فى ساحات الحفر، واستعانت الشركة ببعض رجال الأزهر، فبادرت سنة ١٨٦٠ إلى تعيين إمام للمسلمين فى الحى العربى ببورسعيد، الذى انشأته شرقى الميناء ، لتكون إقامته المستمرة هناك من أسباب إقبال المسلمين على ذلك المكان المقفر(١٢١). وفى حقيقة الأمر لم يكن هذا المسجد سوى شونة غلال عليها مئذنة لاتليق به رغم اهتمامها ببناء الكنائس للأجانب بشكل جيد(١٢٢).

وبازدياد عدد سكان بورسعيد واتساع رقعتها وبخاصة فى قرية العرب، أمر الخديوى توفيق فى ديسمبر ١٨٨٢ بإنشاء مسجد كبير فى المدينة هو «المسجد التوفيقى» سمى باسمه. أيضًا أقام دى لسبس كنيسة لليونانيين الموجودين فى بورسعيد تشجيعا لهم على الإقامة بها، وتنازل لهم عن الأرض المقامة عليها مجانًا، وكانت هذه الكنيسة تتبع بطريرك الأرثوذكس ، كما أقيمت كنيسة أخرى للكاثوليك فى بورسعيد فى أواخر الستينات(١٢٣).

هذا وقد خضعت إدارة الخدمات الدينية، مثلها فى ذلك مثل إدارة الخدمات الصحية فى السنوات الأولى، للوكالة العليا والإدارة العامة للأشغال بالشركة بالتناوب . ففى عام ١٨٦٥ دخلت هذه الإدارة «إدارة المراسم الدينية» فى اختصاصات إدارة الأشغال العامة للشركة وقامت وعلى نفقتها ببناء مساجد وكنائس كاثوليكية ودور عبادة صغيرة أرثوذكسية فى مراكز النشاط الرئيسية فى البرزخ، وفى أول فبراير ١٨٦٢ تم افتتاح كنيستين :

الأولى : فى الجسر مهداه إلى «سانت مارى دى ديزار» تخليدا لمرور العائلة المقدسة عند هروبها إلى مصر[١٢٤]. **والثانية**: أقيمت فى بورسعيد برعاية سانت أوجينى، كما حظيت الإسماعيلية بكنيسة أخرى تحت شفاعة سان فرانسوا دى سال (Saint Francois De Sales) وأثار طرازها المعمارى القوطى الحديث بعض التهكم من جانب كثير من المسافرين المارين بقناة السويس وكان فوازان بك مسئولا عن اختيار هذا الطراز المعمارى فقد عدل مشروع المهندس Viller عندما عدل شكل النوافذ مقترحا أقواسا من الطراز القوطى بدلا من المستطيلات[١٢٥].

وفى السويس تم حصر سبعة مساجد وكنيسة كاثوليكية يخدم بها آباء الأرض المقدسة وكنيسة صغيرة انجليكانية وكنيسة يونانيه، ونجد أيضًا رهبان فرنسيسكان فى بورسعيد والإسماعيلية[١٢٦].

وقد تحملت الشركة صيانة دور العبادة، كما حرصت على مكافأة القائمين على خدمة مختلف الديانات، ففى شهر إبريل ١٨٦١ عينت الشركة فى منطقة الجسر الشيخين : إبراهيم عبد العزيز إمام وقاضى، وعمر مؤذن للقرى العربية، ومنحت الأول راتبًا شهريا قدرة ١٢٥ فرنكا والثانى ١٣ فرنكًا . مما ترتب عليه زيادة عدد السكان فى هذه المنطقة فقد لاحظ المهندس مانتو فى عام ١٨٦٠ من أن القرية العربية فى بورسعيد قد ازداد عدد سكانها كثيراً منذ وصول هذا الإمام. ويقوم الأئمة المنتمون إلى مفتى القاهرة الكبير بمهام القضاة للصلح بين الأهالى ، كما كانوا يحررون العقود ووثائق الزواج. ومع ازدياد عدد السكان فى برزخ السويس ، صاحبه ازدياد فى عدد رجال الدين الذين يتقاضون أجور من الشركة ، ففى عام ١٨٦٨ شملت الخدمة الدينية خمسة كهنة وثلاثة خدام كاثوليكيين وأربعة مؤذنين وكاهنين أرثوذكس وثلاثة خدام يونانيين تم توزيعهم على المخيمات الرئيسية .

وفى هذه السنة تقاضى الكهنة الأرثوذكس ٢٤٠٠ فرنكا وخدامهم ٩٦٠ فرنكا، أما المؤذنون فأجرهم ٩٠٠ فرنكًا ما عدا مؤذن بورسعيد فقد تقاضى ١٥٠٠ فرنكًا دون معرفة سبب هذا التمييز، فلم تتعامل الشركة مع كل الديانات على قدم المساواة[١٢٧].

وكان للشركة حق اختياريهم وأيضا حقها فى طرد الذين لاترضى عنهم بسبب أفكارهم أو تصرفاتهم . فقد طردت الكاهن نيكيتا Nekita فى يناير ١٨٦٤ بحجة أنه يمثل خطرا حقيقًا لتأثيره السيئ فى نفوس الرجال، ونتج عن ذلك مظاهرة احتجاج فى بورسعيد نجح رجال شركة القناة فى تهدئتها [١٢٨].

وحقيقة الأمر أن دى لسبس قد أجاد فن الدعاية للمشروع واستغل الجانب الدينى استغلالًا جيداً والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها :

وطد دى لسبس علاقته بالشيخ رفاعة الطهطاوى الذى أصبح من المؤيدين لمشروع القناة والداعيين له فى مصر، فنظم الطهطاوى قصيدتين امتدح فيهما مشروع القناة، وقام الدكتور بيرون Peron بترجمتهما للغة الفرنسية .

وأيضا كانت الشركة تستكتب بعض الكتاب المصريين مقالات تهدف إلى الدعاية للمشروع ودعوة الجماهير فى مصر إلى الاشتراك فى تنفيذه ، وقد ذهب هؤلاء الكتاب إلى أن حفر القناة فى البرزخ «بين البحرين» إنما هو تطبيق عملى لما ورد فى القرآن الكريم !!! وجريدة شركة القناة سجل يحفل ببعض من هذه المقالات التى ترجمت إلى الفرنسية وفيها ذكر بعض آيات القرآن الكريم[١٢٩]. وهذه السياسة التى سار عليها دى لسبس هى نفس السياسة التى تسير عليها حاليا ما يعرف باسم : «جمعية أصدقاء فردنياند دى لسبس»[١٣٠].

الحدائق والتماثيل والاحتفالات :

ازدانت مدن البرزخ بالعديد من الحدائق ، ففى بورسعيد وجدت حديقة المنشية فى وسط المدينة، التى اهتمت بها المحافظة فقامت بغرس العديد من الأشجار والأزهار بها. وقامت شركة القناة بتوسيع هذه الحديقة فى عام ١٨٧٣ وأصلحت فسقيتها وطرقها ، وإقامت كشك لعزف الموسيقى بها مرتين أسبوعيا ، كما أجرى توسيع آخر بها عام ١٨٧٥ وأضيئت بالفوانيس التى أحضرت إليها من الإسكندرية ، كما زودت بكراسى خشبية لراحة روادها[١٣١].

حرصت شركة القناة على إقامة العديد من التماثيل فى مدن القناة التى تمجد تاريخ عظمائها ، وأول تلك التماثيل تمثال دى لسبس الذى أقيم فى مدخل القناة فى بورسعيد (ليشاهده كل من يعبر القناة) فى إحتفال مهيب فى عام ١٨٩٩ [١٣٢]. وتمثال آخر لتوماس واجهورن (ضابط بحرى انجليزى) أقامه دى لسبس، وهو تمثال نصفى عند مدخل قناة السويس الجنوبى بمدينة بور توفيق نقشت على قاعدته العبارة التالية : «أقامت الجمعية العمومية لقناة السويس هذا النصب التذكارى للملازم واجهورن المولود فى شاتام سنة ١٨٠٠ والمتوفى بلندن سنة ١٨٥٠ وذلك اعترافا باخلاصه فى افتتاح الطريق البرى بمصر» [١٢٣].

شهدت مدن القناة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر العديد من الاحتفالات أقامها الأجانب المقيمون فى البرزخ فى مناسبات عديدة ترتبط بأعيادهم القومية وأيضًا للترويح والاستمتاع فى الأجازات ، وكانت هذه الاحتفالات مصحوبة بالموسيقى والرقص والمسابقات الرياضية وغيرها بدعم من شركة القناة . وعلى الجانب الوطنى كانت هناك الموسيقى والأغانى الشعبية ومن أهمها «السمسمية» التى هى من تراث وانعكاسات مرحلة السخرة فى حفر قناة السويس [١٣٤].

المقابر :

أقامت شركة القناة عدداً من المقابر غرب بورسعيد جنوب قرية العرب وبجوار بحيرة المنزلة، للموتى من كافة البلاد ومختلف الأديان : واحدة للمسلمين والثانية لليونانيين والكاثوليك وأخرى للبروتستانت ونظراً لارتفاع منسوب المياه فى أرض بورسعيد ، فقد كان يتم بناء حجرات أو حوائط من الحجارة وكانت تقام الواحدة فوق الأخرى. ولم تكن شركة القناة تسمح بالدفن فى هذه المقابر دون دفع ثمن هذه المقبرة ، وكان بواقع خمسين فرنكا للرجل و٢٥ فرنكا للطفل بخلاف باقى المصاريف ، ويقتصر القبر على شخص واحد . أما الموتى والفقراء من جميع الأجناس فكان يتم دفنهم مجانا وكانت محافظة بورسعيد تتولى بعد ذلك دفع المصاريف الخاصة بإجراءات دفن الفقراء من أبناء العرب على سبيل الإحسان . وفى عام ١٨٦٦ طالبت محافظة بورسعيد شركة القناة إقامة عدد من المقابر للإسرائيليين لعدم وجود مقابر لهم[١٣٥].

ولما كانت شركة القناة ترفض أحيانا دفن بعض الفقراء من أبناء العرب، ما لم يدفع عنهم القيمة التى حددتها ، فقد قامت المحافظة ببناء عدد من المقابر تخصص لأمثال هؤلاء فى قطعة أرض تقع غرب قرية العرب [١٣٦]. ثم بعد ذلك أشرفت محافظة بورسعيد على المقابر ابتداء من يوليو ١٨٧١ . هذا وقد تقدم (حاخام باشى) طائفة الإسرائيليين فى بورسعيد سنة ١٨٧٠ بطلب لمحافظة بورسعيد لبناء عدد من المقابر لأبناء طائفته وذلك لأن موتاهم يدفنون بمقابر المسلمين مما يتعارض مع شريعتهم ووافقت الحكومة المصرية على تخصيص قطعة أرض لجعلها جبانة للإسرائيليين أسوة بباقى المقابر مع إنشاء سور خاص بها[١٣٧].

الهوامش

١- د. محمد السيد غلاب ، منطقة السويس الجغرافية خلال التاريخ، بحث فى كتاب بعنوان : السويس. القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة . د.ت ص ص١٦-٢٢ .

٢- د. إبراهيم نصحى ، السويس فى العصور القديمة حتى الفتح العربى، بحث فى كتاب: السويس، المرجع السابق، ص ص٤٣-٤٥ .

٣- د. عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢٢٦)، ٢٠٠٢ ص ص١٤-١٥ .

٤- نتالى مونتل، حفر قناة السويس (المشروع والتنفيذ دراسة في تاريخ ممارسات التقنية) ترجمة د.عباس أبو غزالة ، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ، ص٤٠ .

٥- نتالى مونتل، المرجع السابق، ص ص٣٧-٣٨ .

٦- Voisin Bey , Le Canal de Suez . T.6. Description des travaux de Premier etablissement. Paris 1906 , p. 67 .

٧- نتالى مونتل، مرجع سابق ذكره ص٤٠ ، وراجع أيضًا كلا من . عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس، مرجع سبق ذكره ص٦٨ ، Voisin Bey , Op. Cit.p.163 وراجع أيضًا : Arnold Wilson , The Suez Canal, Its Past Present and Future, London 1939 . pp. 32-33.

٨- Arnold Wislon . Op. Cit, p. 33 .

٩- التشناوى ، مرجع سابق ذكره ص٨٣ .

١٠- المرجع السابق، .

١١- المرجع السابق ، ص ص٨٨-٨٩

١٢- راجع تفاصيل هذه اللائحة فى كتاب فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس، القاهرة ، مطبعة المعارف ومكتبتها فى مصر ١٩٤٤ ، ص ص١٨٠-١٨١ .

١٣-الشناوى ، السخرة مرجع سبق ذكره ص١٠٩

١٤- المرجع السابق، ص١٢٩

١٥- Hallberg, Charles W, The Suez Canal. N.Y . 1931 . p. 201 .

وراجع أيضا : Douim George: Histoire de Régne du khédive Ismail . T.I. Rome , 1933 , p. 24 .

وراجع أيضا : Lord Kinross, Between two Seas , the Creation of the Suez Canal . London . John Murray , 1968 , p. 156 .

١٦- الشناوى ، السخرة ، ص٣٠ ، ص ص١٢٩-١٣٥ .

١٧- المرجع السابق، ص١٤٧ .

١٨- المرجع السابق، ص١٤٨ .

١٩- المرجع السابق ، ص ص١٤٧-١٤٩ .

٢٠- انظر الخريطة رقم١ على موقع الآبار (مأخوذة عن Voisin Bey. Op. Cit لوحة رقم٤) .

٢١- Voision Bey , Op. Cit., T.VI , pp. 79 , 145 , 168 .

٢٢- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٣٣ .

٢٣- الشناوى، مرجع سبق ذكره ص٢٢٨ .

٢٤- نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره ص٣٥ وأيضا الشناوى، مرجع سابق، ص٢٢٨ .

٢٥- نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره ص٣٥ انظر الخريطة رقم ٢ .

٢٦- الشناوى ، السخرة ص٢٢٩ .

٢٧- الشناوى ، ص٢٣٢ ، نتالى مونتل ، مرجع سابق، ص ص١٣٥-١٣٦ .

٢٨- Fontane Marius , le Canal Martime de suez , Paris , 1869 . T. 2, p. 138 .

٢٩- Vosion Bey . Op. Cit. T. p. 168 .

٣٠- Hoskins Halford Lankester, British Routes to India, N.Y. 1928 , p. 365 .

٣١- ألبرت فارمان، مصر وكيف غدر بها، ترجمة عبد الفتاح عنايت ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤م، ص١٩٥ .

٣٢- Diecy Edward : The Story of Khedivate. London 1902, p. 36 .

٣٣- الشناوى ، السخرة ص ص٢٣٢-٢٣٣ .

٣٤- المرجع السابق ، ص٢٣٤ وراجع أيضا Vosion Bey, Op. Cit. T. p. 220 .

٣٥- الشناوى، المرجع السابق ، ص٢٣٦ .

٣٦- المرجع السابق، ص٢٤٩

٣٧- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢٠٧ .

٣٨- المرجع السابق، ص٢٠٨

٣٩- المرجع السابق، ص٢٠٨

٤٠- التناوى ، السخرة ، ص٢٦٢ .

٤١- نتالى مونتل ، مرجع سابق ذكره ، ص٢٠٨ .

٤٢- الشناوى : السخرة ، ص٢٦٤ . وقد ذكر اوبار روش ذلك فى تقاريره السنوية التى كان يرفعها إلى إدارة الشركة . وراجع أيضا : نتالى مونتل، ص٢١١ .

٤٣- الشناوى، السخرة، ص٢٧٦ .

٤٤- Angelo Sammarco , Histoire de L'Egypte Moderne, Depuis Mohammed Ali Jusque L'Occupation Britannique (1801-1882), T. 3 le Caire 1937 , p. 55 .

٤٥- الشناوى، السخرة ص٢٦٨ .

٤٦- Voisin Bey , Op. Cit . tom .6, p. 280 .

٤٧- التناوى، السخرة ، ص٢٧٢ .

٤٨- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١١

٤٩- الشناوى، السخرة ص ص٢٧٤-٢٧٦ .

٥٠- المرجع السابق، ص٢٧٧ .

٥١- المرجع السابق، ص ص٢٨٠-٢٨١ وراجع أيضا : نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ص٢١١-٢١٢ .

٥٢- المهندس برنارد مانتو Bernard Mantaut مهندس الطرق والكبارى شغل فى بادئ الأمر بشركة القناة وظيفة رئيس القسم المركزى للأعمال بالإسكندرية ثم مسئول قطاع التمساح فى البرزخ وهو أمر يعتبر فى غاية الأهمية لمعرفة نشاط الشركة فى سنواتها الأولى وطبيعة الصعوبات التى قابلها فى ذلك الوقت : فقد كتب مانتو لوزير التجارة والاشغال العامة فى فرنسا فى بداية عام ١٨٦٢ مذكرة سريه يشرح فيها الأسباب الحقيقية التى دفعته إلى الاستقالة والعودة إلى فرنسا وتعتبر هذه الشهادة

في غاية الأهمية، لأنها تكشف العديد من خفايا الأمور، وأنها لجأت إلى استخدام الأسلوب المباشر والصراحة المطلقة (ملف مانتو تقرير رقم (2 / 2285-ANF 14 وهو موجود بالأرشيف القومى الفرنسى) راجع : نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره، ص٤٢ .

٥٣- نتالى مونتل، المرجع السابق، ص٥١ .

٥٤- نتالى مونتل ، ص٤٨ .

٥٥- المرجع السابق، ص ص٤٨-٤٩ .

٥٦- ألبرت فارمان، مرجع سبق ذكره ص١٩٤ .

٥٧- Voisın Bey , Op. Cit. T.6,. p. 276 .

٥٨- Bertrand Alphonse et Emile Ferrier . Ferdenand de Lesseps , sa vie son ouvre , Paris , 1887 , p. 290 .

وهناك وثيقة يرجع تاريخها إلى أوائل عام ١٢٨١ هـ (الموافق ٤ أغسطس سنة ١٨٦٤) تفيد «أن مجموعة من أبناء قبيلة غامد قد شاركوا فى حفر قناة السويس ، وهى رسالة من شخص يدعى مساعد أرسلها لوالده بعد ٢٧ يومًا من وصوله إلى السويس . وسيره يومين على الأقدام حتى وصل إلى مواقع الحفر فى برزخ السويس. ويشرح فيها هواجسه وقلقه على أهله وكيف أن (شوطة) مرض الكوليرا قد أهلكت الكثير من الخلق وأن هناك عدد كبير من قبيلة غامد سافر فى شكل جماعات للمشاركة فى حفر قناة السويس».

من تاريخ الوثيقة يتضح أنها بعد الغاء السخرة (الذى تم فى ١٥ مارس ١٨٦٤) أى أنه كان فى ظل العمل الاختيارى، أما وباء الكوليرا فكان كما ذكرنا من قبل فى ١٨٦٥ ، ولذا فإن تاريخ الوثيقة فى حاجة إلى إعادة دراسة. (المصدر: جريدة عكاظ بتاريخ ٢٥ ذو الحجة سنة ١٤٢٥هـ نقلا عن :موقع الانترنت «مجالس الصقور» منتدى قبيلة غامد الرئيسى) .

٥٩- Ritt Olivier , Histoire de L'isthme de Suez , Paris, 1889 , p. 318 .

٦٠- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٤٣ معية تركى وثيقة رقم ٥٣ من إسماعيل حمدى بك محافظ القناة إلى المعية السنية بتاريخ ١٧ شوال ١٢٨٤هـ (١١ فبراير ١٨٦٨) .

٦١- الشناوى ، السخرة ص٧ وراجع أيضًا : Lord Kinross , Op. Cit, p. 156 .

٦٢- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٥ معية تركى وثيقة رقم ٢٦٨ من محمد شريف باشا ناظر الخارجية إلى المعية السنية بتاريخ ٢٩ جمادى آخر ١٢٨٢ (١٩ نوفمبر ١٨٦٥) .

٦٣- محفوظات عابدين- دفتر تلغرافات رقم ١ وارد عابدين برقية رقم ٦٢٥ من محافظ الاسكندرية إلى رياض باشا فى ١١ جمادى آخر سنة ١٢٨٢ (أول نوفمبر ١٨٦٥) .

٦٤- نتالى مونتل ، المرجع السابق، ص٢١٣ .

٦٥- Voisin Bey , op. cit, T. p. 274. وراجع أيضا . Ritt Olivier, Op. Cit , pp. 285-286

٦٦- Erckman - Chatrian . Souvenirs d'un Ancient Chef du Chantier a L'isthme de Suez . Paris 1988 , pp. 76-77 .

٦٧- نتلي مونتل، مرجع سبق ذكره ص٢١٣ .

٦٨- المرجع السابق، ص٢١٤ .

٦٩- Erckmann , Op. Cit, pp. 76-77 .

٧٠- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١٣ .

٧١- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٣ معية تركى وثيقة رقم ١٠٦ ، من إسماعيل حمدى بك محافظ القناة إلى مهردار الخديوى بتاريخ ٦ ذى القعدة ١٢٨١ (١٣ إبريل ١٨٦٥) .

٧٢- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٦ معية تركى وثيقة رقم ١٩١ ، من شريف باشا إلى الباب العالى (إسماعيل) وبها مرفق عربى من على رشاد محافظ السويس إلى ناظر الداخلية والخارجية بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٨٢ (٣ يناير ١٨٦٦) ومرفق بها أيضا تقرير عن الحادث وضعه على كشك (معاون ضبطية السويس) ووقعه معه بدر أغابلوكباشى السوارى بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٨٢ .

٧٣- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٤٢ معية تركى وثيقة رقم ٥٣٢ ، من حسين فهمي بك محافظ السويس إلى المعية السنية بتاريخ ٩ رمضان ١٢٨٤ (٤ يناير ١٨٦٨) ووثيقة رقم ٥١٨ بها مرفق عربى من مأمور الشلوفة محافظ السويس بتاريخ ٢ رمضان ١٢٨٤ (٢٨ ديسمبر ١٨٦٧) ومرفق عربى بتاريخ ٣ رمضان ١٢٨٤ (٢٩ ديسمبر ١٨٦٧)

٧٤- المصدر السابق.

٧٥- المصدر السابق.

٧٦- محفوظات عابدين- دفتر تلغراف دار عابدين برقية ١١٥٢ من محافظ القناة إلى رياض باشا بتاريخ ٢٠ حمادى الأولى ١٢٨٦ (٢٨ أغسطس ١٨٦٩) .

٧٧- Roche. Aubert, Rapports sur L'etat Sanitaire et Medical des travillurs et des Etablissment, du Canal Maritime de L'isthme du Suez , paris 1868 .

وراجع أيضًا : نتالي مونتل ، ص٢٢١ .

٧٨- محفوظات عابدين - دفتر ٩ تلغرافات - وارد عابدين .

٧٩- نتالي مونتل : ص٢٢١ .

٨٠- Ereckmann. Op. Cit, p. 268 .

٨١- عبد السلام عبد الحليم عامر، طوائف الحرف فى مصر (١٨٠٥-١٩١٤)، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر العدد ٤٥- الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣. ص٢٠٠ .

٨٢- Ereckmann , Op. Cit , p. 76 .

٨٣- محفوظات عابدين - محفظة رقم ٤٢ معية تركى وثيقة رقم ٢٧٥ ، من مراد إلى مهر دار جناب الخديوى بتاريخ ٢٨ ذى الحجة ١٢٨٤ (٢١ إبريل ١٨٦٨) .

٨٤- Ereckmann. Op. Cit, p. 155 .

٨٥- Ibid .

٨٦- محفوظات عابدين- محفظة ٣٥ معية تركى وثيقة عربية رقم ٣٨٧ من إسماعيل حمدى بك إلى مهردار جناب الخديوى بتاريخ ١١ جمادى آخر ١٢٨٢ (١ نوفمبر ١٨٦٥) .

٨٧- نتالي مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١٦ .

٨٨- المرجع السابق، وراجع أيضًا عن هذا الموضوع: زين العابدين شمس الدين، بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢ . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ ، ص ص١١٤-١١٥ .

٨٩- نتالي مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢٢٠ .

٩٠- المرجع السابق نقلا عن وثائق شركة قناة السويس : AN 153 AQ/ TE137 رسالة من مقاولات بوريل ولافالي وشركائهما إلى فوازان (٢١ مايو ١٨٦٩) .

٩١- محفوظات عابدين- دفتر رقم ١٠ تلغراف وارد عابدين برقية رقم ٨٥٨ من محافظ القناة إلى المعية السنية بتاريخ ٢٨ رجب ١٢٨٧ (٣ نوفمبر ١٨٦٩) ويوجد فى دفاتر التلغرافات الواردة إلى

قصر عابدين عدد كبير من البرقيات بهذا الخصوص.

٩٢- Ritt, Op. Cit, pp. 351-352 .

٩٣- Erckman, Op. Cit, p. 267 .

٩٤- Ibid, p. 155 .

٩٥- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٦ معية تركى وثيقة رقم ١٤٥ من إسماعيل حمدى بك إلى سعادة مهر دار الخديوى بتاريخ غرة شعبان ١٢٨٢هـ (٢٠ ديسمبر ١٨٦٥م) .

٩٦- محفوظات عابدين- محفظة ٣٢ معية تركى وثيقة رقم ١٢٢ من إسماعيل حمدى بك إلى سعادتلو أفندم بتاريخ ٢٠ ذى القعدة ١٢٨١ (١٦ أبريل ١٨٦٥) .

٩٧- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٠٤ .

٩٨- Sabri , M. Bey . L'Empire Egyptienne sous Ismail et L'ıngerence Anglo- Francıse, Paris , 1939 , p. 207 .

٩٩- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٥٣ .

١٠٠- المرجع السابق، ص٥٤ .

١٠١- المرجع السابق، ص ص٥٤-٥٥ .

١٠٢- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس ومدن القناة ، القاهرة ١٩٤٤ ، ص٢٩٢ .

١٠٣- زين العابدين ، مرجع سابق ذكره ص٥٥

١٠٤- فؤاد فرج، مرجع سابق ذكره، ص٣٦٦ .

١٠٥- زين العابدين ، مرجع سابق ذكره ص ص٥٥-٥٦ .

١٠٦- المرجع سابق ذكره ص٥٦ .

١٠٧- المرجع السابق ، ص٥٧

١٠٨- المرجع السابق، ص٥٩ .

١٠٩- زين العابدين ، ص٥٩

١١٠- المرجع السابق ص ص٧٧-٧٨ .

١١١- المرجع السابق، ص٧٨ ، بعد توقيع معاهدة ١٨٧٧ بين مصر وانجلترا بشأن التعاون على منع تجارة الرقيق ابلغ قسم جوازات بورسعيد بأن يوضح فى جوازات السودانيين أو الأحباش المغادرين للنظر بأنهم أحرار ، المرجع السابق، ص٩١ .

١١٢- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ص١٩٨-١٩٩ .

١١٣- وهى أصعب منطقة فى ساحات الحفر أخذت مجهودا هائلا من عمال السخرة لارتفاعها وهى المنطقة الواقعة بين القنطرة وبحيرة التمساح ، راجع . Lord Kinross, Op. Cit, p. 154

١١٤- نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره ص ص١٨٩-١٩٠ ، ١٩٨ .

١١٥- المرجع السابق ص ص١٩١-١٩٣ .

١١٦- المرجع السابق، ص ص١٩٢-١٩٦ .

١١٧- المرجع السابق، ص١٩٧ .

١١٨- سفير بريطانيا فى الآستانة قام بزيارة لبرزخ السويس - بدعوة من دى لسبس - بعد بضعة أسابيع من تدفق مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح، وكان قد زار الصعيد من أجل الاستشفاء صحيًا ثم قام بزيارة القطاع الشمالى للقناة بصحبة دى لسبس ، ونزل فى مبنى بالإسماعيلية تابع للشركة يطل على بحيرة التمساح ، راجع . Lord Kinross, Op. Cit, p. 155

١١٩- أنظر الشكل رقم (٢) الخاص بمساكن العمال والموظفين للشركة.

١٢٠- . Lord Kinross, Op. Cit, pp. 155-156

١٢١- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ، ص١٠٣ وما زال هذا المسجد فى بورسعيد وبعد تجديده يعتبر من أكبر مساجد بورسعيد .

١٢٣- المرجع السابق، ص١٠٤ .

١٢٤- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١٧ .

١٢٥- المرجع السابق.

١٢٦- المرجع السابق ص ص٢١٧-٢١٨ .

١٢٧- المرجع السابق. لقد أنصفت الباحثة الفرنسية فى تعليقها هذا ذلك أن الشركة قد دأبت فى تعاملها مع الجانب الوطنى فى البرزخ، بأنه فى المرتبة الثانية فى كل الأمور ولاسيما الإسكان ، المياه، الأجور والخدمات المختلفة... الخ .

١٢٨- المرجع السابق، ص٢١٨ .

١٢٩- لمزيد عن هذا الموضوع راجع : الشناوى ، السخرة ص ص٨٨-٨٩ .

١٣٠- L'Association du Souvenir de Ferdinand de Lesseps et du Canal de Suez.

ظهرت هذه الجمعية فى السنوات الأخيرة ويرأسها حاليا السيد / أرنودى رامير -Arnaud Ra (mıere) أما الرئيس الفخرى حاليا هو السيد/ جون بول كالون الذى كان المفاوض الفرنسى ، عند تأميم القناة ١٩٥٦ ، مع الجانب المصرى للوصول إلى التعويض المناسب للشركة . وقد تكونت هذه الجماعة بعد التأميم وتحولت الشركة الفرنسية فى باريس إلى مجرد شركة استثمارية تملك الأموال ولاتدير القناة وليس لها أى دور ، ولكنها ملكت أرشيف بباريس، فتكونت هيئة أهلية أطلقت على نفسها اسم المذكور ، وأعلنت أنها تعتبر نفسها اتحاد يمجد ذكرى فرديناند دى لسبس وقناة السويس ، وأنها مسئولة عن التراث التاريخى الذى يسرد تاريخ قناة السويس وأن هذا الإرث التاريخى قد تم تصنيفه مؤخرا بمعرفة هيئة اليونسكو كذاكرة للعالم Memore du Monde وأنه لايخص فقط كل من مصر وفرنسا وإنما يخص العالم أجمع ويضم وثائق الشركة عن الفترة من ١٨٥٤ حتى ١٩٥٧ . وقد تم نقلها إلى الأرشيف القومى الفرنسى خلال الفترة من ١٩٧٨ حتى ١٩٨٠ وهى تشمل الآن بحجمها مساحة ١٦٠٠ متراً من الأرفف . وبالنسبة لنشاط هذه الجمعية فى مصر نلحظها فى محاولاتها لربط هذا الاتحاد بمكتبة الاسكندرية ، فقامت بإهدائها ميكروفيلم لبعض هذه الوثائق الخاصة بالشركة ومعظمها مؤلفات دى لسبس وأقرانه من المؤيدين للشركة.

وشاركت هذه الجمعية فى العديد من الأنشطة الثقافية مع المكتبة ، وأيضا باتصالاتها مع هيئة قناة السويس لإنشاء متحف لقناة السويس وترميم حجرة دى لسبس فى الاستراحة الرئيسية بالاسماعيلية والمسجلة كأثر تاريخى. وقد حاولت إعادة تمثال دى لسبس الذى حطمه البورسعيديون إبان العدوان الثلاثى على مصر ١٩٦٥ ، وقد فشلت حتى الآن فى تحقيق هذا الهدف .

وجدير بالذكر أن دى لسبس كان حريصا على إخفاء كل وثيقة تدين الشركة فيما يتعلق بالسخرة فى حفر قناة السويس والمآسى التى عاناها عشرات الآلاف من الفلاحين فى ساحات الحفر . ذلك أنه قد احتفظ لنفسه بحق نشر المعلومات وفرض الصمت على الجميع ، وإصدار تعليماته إلى جميع العاملين بالشركة من الأوربيين بموجب أمر إدارى رقم ٦٤ (٢٤ يناير ١٨٦٢) بالفصل من العمل فى حالة التصريح بمعلومات أو خواطر عن شؤن الشركة إلى وكالات الأنباء أو الصحف التابعة لأي بلد كان أو إلى مجرد أشخاص (راجع ذلك فى كتاب . نتالى مونتل ص١٤) . وقد تم تنفيذ ذلك فى الكثيرين، نذكر منهم دانيل لانج- العضو البريطانى فى الشركة - وعن تفاصيل هذا الموضوع راجع : السيد حسين جلال ، قناة السويس والأطماع الاستعمارية الدولية - القاهرة سلسلة تاريخ المصريين عدد رقم ٢٥٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦، ص ص١٨٧-١٨٨

١٣١- زين العابدين شمس الدين، بور سعيد ص ص١١٦-١١٧ .

١٣٢- لمزيد من التفاصيل راجع : السيد حسين جلال، «بورسعيد مركز التقاء ثقافات وحضارات الشرق والغرب» مجلة المؤرخ العربي- العدد العاشر- المجلد الأول، مارس ٢٠٠٢ ، ص ص٣٦٧-٤١١ .

١٣٣- فؤاد فرج، مرجع سابق، ذكره ص٣١٥ .

١٣٤- راجع بالتفاصيل عن هذا الموضوع : السيد جلال ، بورسعيد مركز التقاء ثقافات ، ص ص٣٦٧-٤١١ .

١٣٥- زين العابدين شمس الدين ، بورسعيد، ص ص١١١-١١٢ .

١٣٦- المرجع السابق، ص١١٢ .

١٣٧- المرجع السابق، ص ص١١٣-١١٤ .

ضياء الدين حسن القاضى *

تاريخ الجاليات الأجنبية فى مدينة بورسعيد

التعريف بمدينة بورسعيد

ارتبط تاريخ مدينة بورسعيد ونشأتها وظهورها على خريطة العالم بتاريخ حفر قناة السويس ذلك الشريان الحيوى والاستراتيجى الذى يربط البحرين الأبيض بالأحمر والتى بدأ العمل فى شقها فى بورسعيد فى ٢٥ أبريل ١٨٥٩ فى عهد والى مصر محمد سعيد باشا واستمر الحفر قرابة العشر سنوات حيث احتفل بافتتاحها فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ فى عهد خديوى مصر اسماعيل باشا فى احتفال مهيب حضره ملوك وأباطرة العالم وفاقت تلك الاحتفالات من الأبهة والفخامة ما جاء فى وصف ليالى ألف ليلة وليلة.

إلا أن المنطقة التى نشأت عليها الآن كانت تحوطها من الشرق والجنوب فى الأزمنة الغابرة حضارات سادت ثم بادت بفعل الزلازل أو الأمر بهدمها وإخلائها خوفًا من استيلاء المغيرين عليها وتلك الحضارات كانت الفرما وبيلوز وتنيس وتانيس ونتونة.

وتعتبر بورسعيد الميناء الثانى فى الأهمية بالنسبة لمصر بعد ميناء الاسكندرية.

وتقع مدينة بورسعيد فى الطرف الشمالى الشرقى لقارة أفريقيا أما مدينة بور فؤاد التى قام بافتتاحها الملك فؤاد فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٦ التى هى إحدى أحياء مدينة بورسعيد السبعة وتقع شرق قناة السويس فى الطرف الشمالى الغربى لقارة آسيا .

وموقع مدينة بورسعيد الفريد أكسبها أهمية على خريطة العالم جعلها محط أنظار كثير من أبناء شعوب العالم تتوافد عليها بعد حفر القناة أناس من شتى بقاع العالم وبالأخص

---

* عضو اتحاد المؤرخين العرب وعضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

من ربوع أوربا عبر البحر الأبيض المتوسط في شكل جاليات طامعين في الثروة والغنى السريع، وحملت كل جالية معها ثقافتها وعلى رأسها الثقافة الأنجلو سكسونية والثقافة اللاتينية والاغريقية وتلك الجاليات حسب كثافتها اليونانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية وشتات من جنسيات شعوب أوروبا والأمريكتين وأسيا وأفريقيا حتى عرفت مدينة بورسعيد بالمدينة الكوزموبولنان أى ذات الصبغة العالمية المتشعبة .

الكل جاء لبورسعيد باعتبارها قلعة اقتصادية ضخمة (تجارية صناعية وخدمية ملاحية مرتبطة بالميناء والسفن المارة بالقناة) الكل يبحث فيها عن الثروة وبريق الذهب ، وحظيت الجاليات الأجنبية في مدينة بورسعيد بكم هائل من الثروة والمكانة والاحترام بحكم عوامل على النقيض من أبناء البلد الأصليين من أبناء مصر الوافدين إليها من شتى أقاليم مصر بحثًا عن حياة أكثر رخاءاً وهناءاً عن تلك البسيطة والفقيرة في ديارهم الأصلية إلا أن الحروب التي كرت على بورسعيد وعلى رأسها حروب ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ كانت عوامل طرد لبعض من سكان بورسعيد وبالأخص الأجانب الذين عادوا إلى بلادهم .

وسردى للأحداث في بحثي هذا عن تاريخ الجاليات الأجنبية في بورسعيد سوف يمثل فترة تواجدهم على أرض بورسعيد منذ دق أول معول في أرض قناة السويس من عند بورسعيد في يوم الإثنين ٢٥ أبريل ١٨٥٩ مروراً بافتتاح قناة السويس للملاحة العالمية في ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ انتهاء بحرب يونيو ١٩٦٧ وما استتبع ذلك لهجرة اجبارية لأهل بورسعيد في محافظات مصر إلى هجرة نهائية للأجانب منذ أوائل ١٩٦٨ وبعد انتصارات حرب أكتوبر ١٩٧٣ وعودة الحياة الطبيعية لمدينة بورسعيد التي لم يعد إليها إلا القلة القليلة من الأجانب ومن اليونانيين بالذات الذين لم يعد لهم أى كيان يذكر .

كان التكوين السكاني لمدينة بورسعيد في أول عهدها يعتمد على تجمعين للسكان.

الأول : في أقصى الغرب من المدينة حيث قرية العرب (حي العرب فيما بعد) وهو عبارة عن مجموعة من العشش الخشبية المتواضعة المصنوعة من أخشاب صناديق البضائع الواردة للمدينة على ظهر البواخر التي ترسو في الميناء، وكان يقطن قرية العرب المصريون الوافدون على المدينة الوليدة من شتى أقاليم مصر للعمل في المهن الدنيا في المدينة كفحامين يقومون بشحن السفن العابرة في القناة بالفحم الذى كانت تستخدمه السفن في ذلك الوقت لتشغيل آلاتها ، أو للعمل كسقائيين وظيفتهم امداد مساكن المدينة بالمياه التي ترد لبورسعيد بالمراكب

الشراعية عبر بحيرة المنزلة المتاخمة للمدينة فى جهتيها الغربية والجنوبية وكانوا يقومون أيضًا بامداد السفن بما تحتاجه من الماء، وهناك مجموعة من الفواعلية الذين يعملون تحت رحمة المقاولين البحريين الأجانب (الكومندات) فى شحن وتفريغ السفن العابرة للقناة بالبضائع ، وأناس كثيرون لا عمل لهم إلا اكتساب أرزاقهم اليومية إلا بالكاد (بالعافية) .

وكانت فرقة العرب ومساكنها خالية من أي مقومات آدمية ضرورية لحياة صحية ، فشوارعها رملية غير مرصوفة تلقى فيها القاذورات والمياه غير النظيفة فى كافة أرجائها مما يجعل انتشار الأمراض والأوبئة سهلاً بالإضافة إلى انتشار الذباب والبعوض اللذين ينقلان الأمراض، يضاف عدم توفر الاضاءة فيها ليلاً، ولقد دام لهذا الحى أن يكون خاليًا من أية وسائل للترفيه والتسلية (سينمات، مسارح مكتبات عامة، نوادى...) وفى أقصى قرية العرب جهة الغرب ظهر تجمع سكانى أطلق عليه حى المناخ نسبة إلى اناخة ابل القوافل التى كانت تأتى محملة بالبضائع من دمياط..

أما التكوين السكانى فيقع فى شرق المدينة وهو حى الافرنج (نسة للفرنج الأجانب) فهو على النقيض يحظى بالأهمية الكبرى فهو ملاصق للميناء ولقناة السويس مما يرفع من أثمان أراضيه ويعطيها أهمية فبنت فوق أرضه المساكن الحجرية المكونة من عدة أدوار وطوابق Et-age تصل إلى أربعة أو خمسة ذات شرفات (بلكونات أو ترسينات بلغة أهل بورسعيد) مصنوعة من الخشب أو الحديد المشغول Fer Battu التى تطل على الشوارع الطولية والعرضية المتعامدة والمرصوفة والمغروس على جانبها أندر أنواع الأشجار المجلوبة من أوربا لتظلل المارة والسيارة عند غدوهم ورواحهم صيفًا وقاية من لهيب الشمس والمضاءة بفوانيس غاز الاستصباح ليلاً والتى استبدلت بالكهرباء فيما بعد ويتولى عمال المجلس البلدى (افتتح أول مجلس بلدى لمدينة بورسعيد فى ٢٣ فبراير ١٩١١ فى عهد المحافظ محمد محمود بك ليكون مختلطًا بين المصريين والأجانب) ومن قبله نادى المحافظ محمد ماهر باشا بتكوين مجلس أهلى يتولى جباية العوايد والصرف منها على رقى مدينة بورسعيد مكون من ٢٤ عضواً نصفهم مصريين والنصف الآخر أجانب افتتح فى ٢٦ فبراير ١٨٩٤) فيتولى كنس شوارعها فى الصباح الباكر ورشها بالمياه . وأسفل تلك العمارات الشاهقة بحى الافرنج كثرت الحوانيت الكبيرة التى تعج بشتى صفوف البضائع التى ترد لبورسعيد فى شتى بقاع العالم وتنتشر المقاهى والبارات التى تصرح أمامها الفرق الموسيقية بأعذب المعزوفات وبالأخص فى حالة

وصول باخرة تحمل ركابًا (بساجيرى بلغة أهل بورسعيد) Passenger من شتى بقاع العالم فتسمع أصحاب تلك المحلات ينادون عليهم بشتى لغات العالم لتمتلئ جيوبهم بشتى أنواع العملات الأجنبية بعد أن يقوموا بشراء عاديات وتذكارات تذكرهم بمدينة بورسعيد فتنتعش الحياة الاقتصادية بوصول مثل تلك البواخر، لقد عرف حى الافرنج وسيلة مواصلات كانت فى ذلك الوقت متقدمة هو الترام الذى تجره البغال وقام بتشغيله الاقتصادى اليونانى قسطنطين زوروس ١٨٩٢ لتجوب عرباته أرجاء المدينة .

تلك صورة مختصرة عن حى الافرنج الذى كانت تقطنه كافة الجاليات الأجنبية ويكاد يكون محرمًا على المصريين أن يقطنوا فيه أو يدخلوا إليه إلا للعمل طرف الأجانب كخدم منازل أو قواصه (حراس) أو عمال فى المحال والمخازن المنتشرة داخل هذا الحى.

وأحب أن أنوه أنه فى التخطيط المبدئى لمدينة بورسعيد خطط لنشأتها بأن تكون غرب القناة سواء كان ذلك حى الافرنج أو قرية العرب (حى العرب فيما بعد) هم حى المناخ .

ففى الضفة الشرقية للقناة التى كان يطلق عليها بالشواطئ الخالدة أو كما يطلق عليها الاجانب Bousqvet كانت عبارة عن تجمع للورش الخاصة بشركة قنال السويس لاصلاح السفن ومعداتها إلى أن جاء الوقت لاقامة ضاحية سكانية فوقها عرفت بمدينة بور فؤاد نسبة لملك مصر فؤاد الأول الذى افتتحها فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٦ تكفلت شركة قنال السويس ببنائها للعاملين فيها فصممت ڤيلاتها على نمط واحد أخذ أسلوب العمارة الفرنسية.

الجاليــة اليونانيــة

الجالية اليونانية كانت أكبر الجاليات الأجنبية تواجداً على أرض بورسعيد .

ففى عام بداية الحفر ١٨٥٩ بلغ عدد الأجانب الذين وصلوا إلى بورسعيد ٤٩ أجنبيًا أغلبهم من الفرنسيين وفى العام التالى ١٨٦٠ بلغ عددهم ١٥٨ أجنبيًا أغلبهم من اليونانيين والفرنسيين . أما فى سنة ١٨٧٦ بلغ عددهم ٣٤٥١ أغلبهم من اليونانيين واستمر عدد الأجانب فى الزيادة بعد احتلال انجلتر لمصر سنة ١٨٨٢م وفى تلك السنة تم اجراء أول تعداد للسكان فى مصر كان إجمالى السكان فى بورسعيد ١٦٩٧٨ نسمة منهم ٢٩٣٧ أجنبى واليونانيون منهم ١١١٦ يونانى .

أما فى التعدد التالى سنة ١٨٩٧ فوصل عدد سكان بورسعيد ٤٢٩٧٢ نسمة وصل عدد الأجانب فيها ١١٤٨٠ أجنبى أكثرهم اتراك وشوام ويونانيون وبريطانيون وإيطاليون وفرنسيون.

أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ فظهرت تعداد الجالية اليونانية

١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧	
٣٤٦١	٤٠٤٧	٥٣٤١	٦٢٠٦	٤٠٤٧	يونانى

لقد اشتهر أبناء الجزر اليونانية بأنهم بحارة مهرة ذو خبرة فى أعمال لذلك استعان بهم دى ليسبس عندما بدأ مشروعه فى حفر قناة السويس من بورسعيد ١٨٥٩م وفى ذات السنة قام دى ليسبس بانشاء فنار على أعمدة خشبية بارتفاع ٢٠ متراً لإرشاد السفن القادمة للميناء المرتقب والمحملة بأدوات الحفر والمياه والأطعمة لعمال الحفر (فى منطقة المرسومة الحالية) وعين له دى ليسبس اليونانى من أبناء جزيرة كاسوس Gorge Anetas لتشغيله الذى توقف فى ١٨٦٩ عند افتتاح القناة بعد أن حل محله الفنار الحجرى المشهور المطل على ميناء بورسعيد واستمر عمل اليونانى انستاس بشركة القنال ٤٦ سنة أحيل بعدها للمعاش وله ذكريات كثيرة قصها فى المرجع اليونانى ذكريات وأحداث عن مدينة بورسيعد لديمتريوس خالدوبيس المطبوع فى الاسكندرية ١٩٣٩ .

وازدادت أهمية اليونانيين بعدما ألغى دى ليسبس السخرة فى حفر قناة السويس ١٨٦٤ وقامت الحكومة المصرية بسحب ٢٠ ألف عامل مصرى فى المشروع بإيعاذ من إنجلترا فاضطر دى ليسبس فى النشر فى الصحف العالمية وعن طريق البعثات الدبلوماسية الفرنسية عن رغبة شركة قنال السويس فى تشغيل عمال أوربيين فى أعمال حفر قناة السويس وتلبية لهذا النداء وصل إلى مناطق الحفر خمسة آلاف عامل من أبناء الجزر اليونانية أغلبهم بحارة من جزيرة كاسوس والذين كانوا يطلقون على تلك النقطة التى نشأت عليها بورسعيد Kavo Poulio أى محطة العصافير لكثرة طيور البحر المهاجرة فى تلك المنطقة وقد اشتهروا بـ الكاشوتية » والذين فضلوا العمل فى حفر قناة السويس عما يتعرضون له من مخاطر البحر حيث وصل أجر العامل اليونانى من ١٥ إلى ٢٥ ريال فى الشهر فكان هذا الأجر مرتفعًا إذا ما قورن بما يتقاضاه الواحد منهم على ظهر إحدى السفن.

لقد ذكر لنا المرجع اليوناني أن أول حفل زفاف تم على أرض بورسعيد سنة ١٨٦٣ للميكانيكي اليوناني Manolis Kalangas والذى أقام مراسم الزواج القسيس Papanikits (مما يدل على أن اليونانيين كانوا يصحبون معهم زوجاتهم وأسرهم فى مناطق الحفر).

وأكمل العمال اليونانيون أعمال الحفر التى توقفت ابتداء من سنة ١٨٦٥ وعمل بجانبهم بعض العمال المصريين الذين عادوا لمناطق الحفر برغبتهم وعرفوا «بالرغوبية» وأكمل الجميع الحفر حتى افتتحت القناة للملاحه العالمية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ .

وقد تولى اليوناني Klodrs مهمة توزيع البريد على المحطات المنتشرة على امتداد قناة السويس.

وفى حفلات افتتاح القناة والتى بدأت بيوم قبل تاريخ الافتتاح من بورسعيد حيث اقيمت ثلاث منصات الأولى لكبار الزوار وعلى رأسهم الامبراطورة أوچينى زوجة نابليون الثالث امبراطور فرنسا الذى انشغل بالقلاقل التى كانت دائرة بفرنسا وأناب عنه زوجته أوچينى، والمنصة اليمنى لرجال الدين الإسلامى واليسرى لرجال الدين المسيحى لتبريك المشروع كان من بينهم بطريرك اليونانيين Sofronios بل أن المرشد اليوناني فى شركة قنال السويس Ag-isiladis Podimitras هو الذى قاد اليخت L'Aigle أى النسر والذى كان يقل أوچينى عند عبوره القناة يوم الافتتاح ومنحته نيشان فرنسى بعد نجاحها فى عبور قناة السويس وأصبح من بعدها المرشد المتخصص فى قيادة سفن الملوك والأمراء وكبار الشخصيات العالمية المارة بالقناة ومنح منهم العديد من النياشين والأوسمة لبراعته فى قيادة السفن .

ومن مرشدى شركة القنال المشهورين فى أول عهدها الأخوان مليكاديس وأبوليونيس زاخبوليس اللذين وصلا إلى بورسعيد من اليونان لأول مرة ١٨٨٥م على الوابور الخشبى Crocodile الذى كانت حمولته ٥٠٠ طن والذى كان يعتبر فى ذلك الوقت شئ خرافى، المرشد الأخير كان مشهوراً بأنه مرشد المهام الصعبة فى شركة قنال السويس لما يمتاز به من شجاعة ، فلما جنحت إحدى السفن العابرة للقناة وأضرمت فيها النيران وكان على ظهرها شحنة متفجرات تقدم نحوها بقاطرة الانقاذ التى يقودها وقطرها بعيداً عن مجرى القناة كذلك منح عند نهاية خدمته نيشان من شركة القنال على خدماته البطولية.

ولايمكن أن نجهل المرشد نيقولا سيتيناس وكانت له عمارات شاهقة ببورسعيد والاسماعيلية، وكان اليونانيون من أولى الجاليات التى تقدمت لافتتاح توكيلات ملاحيه فقبل

افتتاح القناة قامت السيدة اليونانية Helnh Gilierme Zannos بافتتاح مكتب ملاحي وذلك لخدمة البواخر وبالأخص التي تتملكها كما شارك CH.M.Lambis المصري رجب القصيفي بافتتاح توكيل ملاحي شارع ممفيس.

نعود إلى حالة الجالية اليونانية في بورسعيد فبعد افتتاح القناة للملاحة عاد لليونان من عاد وبقي من بقي بعد أن قاموا باحضار عائلاتهم من كافة الجزر اليونانية وعلى رأسهم أبناء جزيرة كاسوس الذين كان لهم دلالهم الخاص والمتميز عند دي ليسبس وأقاموا تجمعًا سكانيا خاصا بهم في أقصى حي الافرنج وبالقرب من قرية العرب عرف بحارة الكاشونيه فملكهم تلك الأرض ليقيموا فوقها مبانيهم وكان مجتمعهم مجتمعًا مغلقًا على عكس باقي أبناء الجزر اليونانية فهم قوم محافظين كابناء صعيد مصر لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة وكان من شدة دلالهم عند دي ليسبس أنه كان أول ما يخطب فيهم يقول لهم «يوناي» أي اليونانيين المحببين إليه وفي أحد المرات ذكر لهم أنه لايمكن أن يؤخر لهم طلبًا فاغتنموا تلك الفرصة وطلبوا من دي ليسبس أن يطلق على بور سعيد اسم «كاسوس الصغرى» إلا أنه تأسف لهم خوفًا من الخديوي اسماعيل . وهذا ما ذكره المرجع اليوناني لخالدويس ص٥٣ .

وكان للكاشوتية جمعياتهم الاجتماعية الخاصة ففي سنة ١٩٠٦ تأسست جمعية للخدمات الاجتماعية باسم القديس (سان ديمتري) لتقديم المساعدات الاجتماعية للكاشوتية . بالإضافة إلى جمعية أبناء كاسوس .وفي ٧ يونيو من كل عام كانوا يحتفلون بذكرى ابادة تركيا لأبناء جزيرة كاسوس في ٧ يونيو ١٨٢٤ وكان أشهر رؤساء جمعية أبناء جزيرة كاسوس الكريو Evan. Arvanitopovlos في أوائل الخمسينات من القرن العشرين وكان يتصدر احتفال تأبين قتلى كاسوس مع القنصل Avramid .

كما أصدر أبناء كاسوس جريدة خاصة بهم تحت اسم Voix De Cassos أي صوت كاسوس ومديرها المسئول جورج جرمانوس (وهو في ذات الوقت لاعب مشهور لكرة القدم في نادي اسبيريا اليوناني في بورسعيد) ومدير تحريرها «جورج يوانو» وفي العدد الصادر ٢٤ أبريل ١٩٥٩ كتب العلامة اليوناني Philippe Glytsis مدير مدارس الجمعية اليونانية ببورسعيد مقالاً بمرور مائة عام على حفر قناة السويس يشع حبًا لبلده الثاني مصر ولزعيمها جمال عبد الناصر يعيد فيه تأييد الجالية اليونانية لاستعادة مصر حقها المسلوب بتأميم شركة قنال السويس العالمية في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ كما تأسست جمعية نسائية لسيدات كاسوس

برئاسة مدام Arvanitopulos ونائبتها مدام Papadimtriou والسكرتيرة مودموزيل Macris.

وكما هو معروف عن اليونانيين بأنهم بحارة مهرة معروف عنهم أنهم تجار محنكين نافسوا الفرنسيين فى التجارة خلال نقاط الحفر وأصبحت تجارة التجزئة بصفة عامة فى أيديهم.

وكانت تجارة الدقيق والبقالة والدخان يسيطر على غالبيتها تجار يونانيون وكان على رأس تجار الجملة للبقالة والتجزئة فى بورسعيد ١٨٨٥ Stavan Panayotos وكان من بلدة زعيرن وكان محترمًا بين عشيرته وفى نفس الوقت كان محبوبًا جداً من المصريين وكانوا يطلقون عليه الشيخ ستاڤرو لأنه كان يرتدى الطربوش على رأسه فى تجواله وترحاله . أما تاجر البقالة الآخر فهو Parlis Livieatos وكان من بلد كيفالونيا . ورأسمالها فى التجارة يقدر بعشرة آلاف جنيه وهو مبلغ كبير جداً فى ذلك الوقت ١٨٨٥ . وبمناسبة حب المصريين لليونانيين والعكس بمناسبة اطلاق الشيخ استاڤرو على أحدهم كانوا من أسرع الجاليات الأجنبية فى تعلم اللغة العربية ونطقها بطريقة محببة .

أما أول سوق للمأكولات فى بورسعيد خرج بشكل حضارى نسبيًا لوقت إنشائه سنة ١٨٧٠ فهو السوق الذى انشأه Poul Lovzides بشارع فرعون (الشهيد عطعوط) وهو موجود حتى الآن ويعرف عند أهل بورسعيد بسوق البازار Bazar.

أما أشهر أسواق حى الافرنج لغير المأكولات فكان شارع التجارة وكان أغلب تجاره من اليونانيين (شارع عبد المنعم رياض حاليًا) وأهم المحلات Mikado و Boudoah و Selecta بلغت جملة محلات هذا الشارع ٣٠٠ محل .

أما أشهر الحلوانية فى بورسعيد كيريوكوستيفتديس» بميدان دى ليسبس (المنشية) وقام ببناء منزل من ثلاث أدوار فى أراضى طرح البحر بشارع صلاح الدين كان يطل على نادى الطلبة وقام ببنائه فى نهاية القرن التاسع عشر وقام والدى بشرائه منه سنة ١٩٥٢

أما أول من أدخل نظام الميكنة فى المخبوزات فكان «جريجوار دارس» صاحب المخبز الشهير Dimitra وحول تجارته فيما بعد لتجارة الدقيق حيث استورد ماكينة لتقطيع العجين وتشكيله فى مايو سنة ١٩٠١ .

وحذى حذوه فيما بعد الافران التى يملكها خريستوفيديس ، ألكسندراس جريك نريك،

خزاينى (بالبزار) ، كستنويديس (بجوار قهوة البلياردو)، إخوان ساس (نهاية البزار) ، لويز باديس (خلف الكنيسة اليونانى) .

أما أشهر تجار الدخان والسجاير دوروس وميرزانس وڤافيديس وكان محله خمسين ألف صنف Bazar Egyptien بميدان المنشية للأدوات المنزلية أما تجار البن والشاى فهم اسطفانوس وداراس.

وقد أثرى هؤلاء التجار ثراءً فاحشًا من الصفقات التجارية التى عقدت فى زمن الحرب العالمية الأولى حيث وضعوا أيديهم على تجارة مصر الداخلية بعد أن قطعت الغواصات الالمانية طريق القوافل التجارية فى دول أوربا فعقدوا صفقات مع دول الشرق الأقصى وأقاموا المستودعات الضخمة والمخازن لبضائعهم فى بورسعيد ليعيدوا توزيعها على مدن مصر ، وادى هذا الثراء الفاحش إلى شرائهم الأراضى من شركة قناة السويس فى المناطق المميزة بسعر المتر ٢٠ فرنك فرنسى للمتر الواحد واقاموا فوقها العمارات الشاهقة ذات الطابع المعمارى الفريد كما أقام البعض ڤيلات خاصة لهم كڤيلا Papanikita بشارع توفيق (عرابى) التى اشتراها المقاول البحرى محمد على سودان باشا . ومن المهن النادرة فى بورسعيد الترزى Pet-rids الذى تخصص فى حياكة وتطريز بدل التشريفة والبدل الرسمية وافتتح محل سنة ١٩٠١م.

وكان للجالية اليونانية ثقلها الاجتماعى فى المجتمع البورسعيدى فسعوا لدى دى ليسبس للحصول على قطعة أرض لبناء فوقها كنيسة أورثوذكسية للجالية اليونانية تليق بهم بعد أن كانت لهم كنيسة خشبية (سان جون) تطل على شارع اسماعيل (نهاية صلاح سالم) وبالفعل حصلت على قطعة أرض هبة من دى ليسبس سنة ١٨٦٤ وتم الاحتفال بوضع حجر الأساس لها فى ١٣ أبريل ١٨٨٨ ونظراً لقلة الموارد المالية للجمعية اليونانية فقد تعطل بناؤها إلى أن جاءت سنة ١٨٩٧ . فاسند تصميمها للمهندس الفرنسى Iroum المتخصص فى العمارة البيزنطية إلى أن قامت الجمعية اليونانية بالاقتراض من البنك العثمانى ستين ألف فرنك ذهب قامت بسداده عن طريق اصدار ورقة يانصيب وفى يوم الأحد الأول من نوفمبر ١٩٠٣ افتتحت الكنيسة للصلاة بحضور بطريرك الاسكندرية فوتيوس وقنصل اليونان بالاسكندرية Fen-naous وقنصل اليونان فى بورسعيد Paprdakis ونائبا قنصل اليونان فى كل من الزقازيق (ماڤرودس) والمنصورة (ساختوريس) ورئيس الجمعية اليونانية فى بورسعيد Crdnos

ومحافظ القنال حسين واصف باشا . والحق بكنيسة (سان جورج) مدرسة للبنين ثم مدرسة للبنات وجمعية للكشافة . وفي فناء الكنيسة وضع نصب تذكارى للجنود اليونانيين القتلى بالمارتنيك وتلك المدرسة خلاف أول مدرسة يونانية فى بورسعيد كان عامها الدراسى الأول ٧١ / ١٨٧٢ وناظرها Yannis Varkas وكانت خلف الكنيسة الحالية بشارع اسماعيل (صلاح سالم) وعدد فصول البنين ٣ فصول . أما مدرسة البنات فكانت بشارع دى ليسبس (سعد زغلول) فى دور أرضى وعدد التلاميذ فى تلك السنة ٣٠٠ تلميذ والعطلة الاسبوعية الخميس. ويقوم بالتدريس فيها Constantis Porianos ومدرس آخر للتربية البدنية Simon Kallergis ودرس فى بيروت وله أملاك بشارع القسطنطينية (الجيش) ، وبابل وفيها محلات الخواجة ينى للملبوسات وكان لايتقاضى أجراً بل يقوم بالصرف من جيبه الخاص على تشجيع التلاميذ.

أما جمعية الكشافة اليونانية فقد منحت قطعة أرض بتقاطع شارع أوجينى (صفية زغلول) والسلطان محمود غرب مدرسة الفرير وقد اشترط فى عقد ايجارها عدم استخدام البروجي إلا فى أوقات معينة لعدم أقلاق راحة السكان بالأماكن المحيطة بها . وتم اخلاء جمعية الكشافة اليونانية وبنى مكانها سوق البلدية سنة ١٩٢٩ وافتتح سنة ١٩٣٠ Marché Municipal على النسق الفرنسى وبناه المقاول الايطالى جوستاف البرتى ومنحت جمعية الكشافة قطعة أرض على شاطئ البحر. ووصل عدد أفراد فرق الكشافة الأجنبية فى بورسعيد سنة ١٩٢١ إلى ألف كشاف يونانى وفرنسى وإيطالى وإنجليزى ، قاموا باستقبال الكشاف الأعظم بادن بلول عند وصوله لبورسعيد ١٩٣٧ .

وكانت للجالية اليونانية نوادى رياضية كثيرة أهمها نادى إسبيريا لكرة القدم ومنح قطعة أرض جنوب بورسعيد غرب شارع محمد على وانضم هذا النادى فى مباريات كأس الملك فؤاد واتحد مع نوادى بورسعيد الأخرى المصرى البورسعيدى وفرتوس الايطالى والاشكربية الفرنسى وتم الفوز الملك فؤاد مرتين ٣٥ / ١٩٣٦ ، ٣٦ / ١٩٣٧ حيث ضم منتخب القناة تلك الأربع فرق القوية فى بورسعيد وكان هناك نادى يونانى آخر لكرة القدم هو نادى كيكلوس .

وفى أواخر نوفمبر ١٩٠٥ تأسس نادى يونانى لألعاب القوى خلف الكنيسة اليوناني اسمه كونستانتاس سوخوبلوسى وضم ٢٣٠ عضو من مفتولى العضلات .

وكان للجالية اليونانية فرقها الموسيقية الخاصة أشهرها الجلاء ثم تأسست فرقة ثانية فى

ديسمبر ١٨٩٠ تحت اسم Wexartisia أى الحرية من عشرين موسيقى بقيادة موسيو لويس مدرس الموسيقى وقائد أوكسترا بصالة مسرح الالدرادو وصالة فندق جراند اوتيل. ثم تكونت فرقة ثالثة Efterpi ومدربها الموسيقى Amphion التى لم يكتب لها النجاح ، فتكونت فرقة رابعة تحت اسم Eftera التى استمرت هى والجلاء وكانتا تقدمان المقطوعات الموسيقية والعزف فى حديقة دى ليسبس (المنشية) فى أيام الأحاد والاعياد الرسمية اليونانية كما كانتا تعزفان فى أشهر المقاهى والبارات اليونانية وعلى رأسها «الخديوية» شارع فرانسو جوزيف (الميناء) مكان شركة كول كومباني وبار آخر فى ميدان فرنسوا جوزيف لصاحبه اليونانى نيقولا رويديس الذى كان فى ذات الوقت متعهد تموين السفن الروسى مكان شركة التلغراف الإنجليزى Eastern Telegraf إلا أنه أغلق هذا البار لانشغاله فى أعماله البحرية بالإضافة إلى أن أسعاره كانت غالية جداً . وفى مقهى Yoreis Pantels بشارع السلطان عثمان (الجمهورية) وبابل .

ونعود للفرق الموسيقية اليونانية وأحياءها حفلات الجالية اليونانية فاقيمت الزينات ورفعت الأعلام اليونانية وكانت الفرقة الموسيقية الجلاء تجوب شوارع مدينة بورسعيد ابتهاجًا بزواج الاميركونستلنتين «ولى عهد اليونان والذى أصبح ملكا على اليونان من ١٣- ١٩١٧ » بالأميرة صوفيا ، وقد اختارت الجالية اليونانية فى بورسعيد Akdvos Kouppa للسفر لليونان لتمثيلها فى حفل الزواج فى ٢٢ أكتوبر ١٨٨٩ .

وفى أوائل سنة ١٨٩٧ هبت الثورة فى جزيرة كريت ضد الحكم التركى فما كان من رئيس الجالية اليونانية جورج كرونس إلا أن شكل جمعية وطنية يونانية تحت اسم Aris غرضها جمع تبرعات لمناصرة ثوار كريت فاحيت فرقتا الموسيقى الجلاء وافترا عدة حفلات موسيقية بالإضافة إلى حفل راقص وحفل تنكرى بلغ إجمالى دخل هذه الحفلات خمسة آلاف فرنك ذهب قام قنصل اليونان فوندوليس بإرسالها لليونان .

وفى ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ استقبلت الجالية اليونانية برئاسة جورج كرونس فى بورسعيد الأمير جورج «الابن الثانى للملك جورج الأول والذى أصبح ملكا على اليونان من ٢٢-١٩٣ الذى وصل لبورسعيد لوداع خاله ملك الدانمرك ڤلدمار اللذان وصلا إلى بورسعيد على ظهر الباخرة Virman ورفعت الأعلام اليونانية والدانمركية فى أنحاء بورسعيد وآقواس النصر واعدوا للأمير خمسة حناطير ركبها هو وحاشيته يتقدمهم فرقتا الجلاء وافترا التى قامت بعزف الاناشيد الوطنية اليونانية.

ولما وصل بالقرب من الكنيسة اليونانية أصر اليونانيون على نزوله للصلاة فيها إلا أنه رفض في بادئ الأمر لأن زيارته لم تكن رسمية نظراً لأن العلاقات المصرية اليونانية شابها الفتور بعد انتصار تركيا على اليونان في حربها في جزيرة كريت وما تلى ذلك من قطع مصر علاقتها باليونان في نهاية تلك الحرب في ٢٤ مايو ١٨٩٧ .

لايفوتنا هنا أن يفوت على اليونانيين الحكمة التي تقول إن «المسرح أبو الفنون» أسس اليوناني جريجوار سوليدس أول مسرح في بورسعيد أطلق عليه مسرح الالدرادو بشارع التجارة (النهضة) وكان يتعاقد مع أشهر الراقصات الفرنسيات والايطاليات لعرض أحدث الاستعراضات في أوروبا ، وكانت الجاليات الأجنبية تقيم فوق خشبة مسرحه كثير من احتفالاتها الوطنية وتم تطويره في يونيه ١٨٩٦ وبالأخص في الديكورات الداخلية بإضافة مجموعة من الصور الزيتية على حوائطه وتم تمثيل مسرحيتي Trivatore , Traviata من أهم أعمال الموسيقات الايطالي ڤيردي . كما وصلت إلى بورسعيد الفرقتان المسرحيتان الشهيرتان في نوفمبر ١٩٠٠ Kondopoles, Pandopules وقامتا بعرض مسرحياتهما على مسرح الالدرادو وحضور جمهور غفير وكانت الحفلات تحت اشراف زوجة القنصل باداكيس وقد أدخل عليها آلة عرض سينمائي وكان من السهولة تحويلها من مسرح إلى سينما والعكس وذلك بعد انتقال ملكيتها لليوناني مريكوبولوس .

وفي ديسمبر ١٩٠٥ قامت جمعية الأدباء اليونانيين ورئيسها Spiro Valentes حفل على مسرح الالدرادو بلغت حصيلته ٢٥٠٠ فرنك وجهت لتشجيع الأدباء اليونانيين وتولى الخطابة اثنان من أشهر المحامين اليونانين ڤياجوس ويانيوتوس .

وارتبط مسرح وسينما الالدرادو بالحركة المسرحية المصرية في بورسعيد فكانت تقام فيه الحفلات العامة لمبرة رمسيس للخدمات الاجتماعية ، خصصت ايرادها للفقراء والمرضى المعوذين والمستشفيات الحكومية فمثلت أحد روائع نجيب الريحاني «الشايب لما يدلع» تحت شرف محافظ القنال عبد الهادي غزالي بك في ١٢ أبريل ١٩٥١ كما كانت حفلات نهاية العام للمدارس الحكومة المصرية تقام على خشبته .

ونظمت الجالية اليونانية في بورسعيد كثير من حملات التبرع للمساعدة في كثير من الحوادث التي تلم بالجالية اليونانية أو ما يلم بالوطن الأم وكانوا يستخدمون المناديل في جمع التبرعات .

ففي أكتوبر ١٨٩٠ نظمت حملة تبرعات لمنكوبي حرائق سالونيك باليونان بلغت قيمة التبرعات ٢٦٧٥ فرنك قام القنصل N. Londos بإرسالها لليونان، والذى أصر على تنظيم عمليات التبرع التى يتولاها أفراد وأن تجمع تلك التبرعات تحت مسئولية جمعية خاصة لذلك، وتم تشكيل جمعية لهذا الغرض تحت اسم Eteria وتكون لها مجلس ادارة فى يناير ١٨٩١ برئاسة Dimitris Mavrio .

فى أبريل ١٩٠٢ تم جمع ٨٠٠ فرنك وأرسلت لوزير البحرية اليونانى للمساهمة فى تحسين الأسطول اليونانى.

وفى أكتوبر ١٩٠٦ تم تنظيم حملة تبرعات للحرب الدائرة فى بلغاريا وبلغ اجمالى التبرعات ٤٢٠٠ فرنك قام القنصل جورسورس بارسالها لليونان وفى ذات الوقت استعدت الجالية اليونانية لتدريب شبابها على حمل السلاح وإرسالهم لليونان .

وفى ١٥ سبتمبر تأسست جمعية هدفها محو أمية أبناء الجالية بالمجان وقد مثلت تلك الجالية في أول مجلس بلدى لبورسعيد ، انعقدت أولى جلساته فى ٢٣ فبراير ١٩١١ ومنهم بابا ديمترى وجرانجيوتى والدكتور اسكوفو بلو والكسندرانوس .

وفى الرابع من أبريل أقيم حفل خيرى لجمع التبرعات لضحايا الزلازل باليونان وكان لتلك الجالية متحفها وكانت تطالب بمصالح اليونانيين فى بورسعيد وتطور الأمر بها إلى تعيبها على الحكومة المصرية وممثلها محافظ القنال.

وأقدم الصحف Progres أسسها اليونانى Lazarides سنة ١٨٨١ وهى أسبوعية من أربع صفحات نصفها الأول باللغة الفرنسية والنصف الأخير باللغة اليونانية وانتشرت انتشاراً واسعًا ولفتت أنظار اليونانيين المقيمين بالقاهرة التى انتقل إليها لازاريدس وأصدرها من القاهرة.

وفى يوليو ١٨٨٩ أصدر جورج فلاماتيوس جريدة سندزجموس وبوفاته فى ١٨٩٩ قام بشرائها استماتيو لنيجرس صاحب مدارس Pythagous وجريدة سندزجموس جريدة نصف أسبوعية ثم صدرت اسبوعية وقامت بنشر حديث مع شاعر اليونان Spero Matsoukas الذى يزور بورسعيد ضمن جولة لزيارة دول العالم لجمع التبرعات لبناء الأسطول اليونانى.

وفى سنة ١٩١٢ أصدر الصحفى جورج سلطناكى جريدة نصف أسبوعية New Echo أى

الصوت الجديد ثم تحولت إلى أسبوعية لارتفاع أسعار الورق والطباعة بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى. ومن مآثر هذا الصحفى أنه أصدر كتاباً بعنوان «تاريخ مدن القنال بورسعيد والاسماعيلية والسويس» وطبعه فى المانيا سنة ١٩٢٢، وحذا حذوه «ديمتريوس خالدوبيس» فأصدر كتابا بعنوان «ذكريات وأحداث عن بورسعيد» طبع بمطبعة متزانى بالاسكندرية سنة ١٩٣٩ كما أصدر «ايمانويل روفاس» كتاباً بعنوان «تاريخ قنال السويس» من سنة ١٩٥٥ وهذه الكتب تتحدث عن تاريخ مدن القنال الثلاث وتأريخ شامل عن الجالية اليونانية وهى أحد مراجعنا الموثوق بها والممتعة فى سردها .

وامتد نشاط أصحاب هذه الصحف إلى اقامة المدارس الخاصة والاشراف عليها كما حدث أن انشأ اتسماتيونيجريس صاحب جريدة سندزجموس السابق التنويه عنه أن أسس سنة ١٨٩٤ مدرسة Pytha Gous من سبعة فصول ابتدائى وثانوى منها فصول للبنات .

وكانت للجالية اليونانية عادتها الخاصة كعادة حرق الجوداس وهى دمية محشوة قش ويتم حرقها فى احتفال الجالية اليونانية بعيد القيامة المجيد وقد أخذ عنهم أبناء بورسعيد فيما صنعوه من دمية محشوة قش أطلقوا عليها دمية اللنبى نسبة إلى اللورد اللنبى المعتمد البريطانى أثناء ثورة ١٩١٩ والذى غادر القطر المصرى عن طريق ميناء بورسعيد فى ١٥ يونيو ٢٥ يونيو ١٩٢٥ ومنذ هذا التاريخ وحتى الآن وأهل بورسعيد يحرقون تلك الدمية فى يوم شم النسيم.

وكان للجالية اليونانية مستشفى خاص تم استئجار أرضها من الحكومة المصرية بعد أن جمع لبنائها ١٠٠٠٠ فرنك كتبرعات من أبناء الجالية فى بورسعيد وتم بناءها من الخشب سنة ١٩٠٧ كمستشفى للأمراض المعدية أمام الركن الجنوبى الشرقى لميدان توفيق (ميدان الشهداء) إلا أنها لم تستخدم كمستشفى بل استخدمت سكناً لمدرسى المدارس اليونانية ثم سلمت الأرض للحكومة المصرية.

كاد أن يفوتنى ذكر الجمعية اليونانية ببورسعيد التى تأسست سنة ١٨٨٨ وإن أول انتخابات لمجلس ادارتها انتهت بفوز ترينون فاسليوس (أول رئيس لها) وخارلمبوس زيمرنيادس (أمين الصندوق) ونيقولا زيزنياس (المحامى الشهير) وبولى لويزيديس (سكرتير الجمعية) .

وظهرت نوادى وجمعيات يونانية أخرى فى نهاية الأربعينيات من القرن العشرين كنادى المحاربين القدماء أعلى حلوانى رويال بشارع فؤاد (الجمهورية) ورئيسه المسيو G. Parlis

وكانت احتفالات الجالية اليونانية ذكرى ٢٨ أكتوبر ١٩٤٠ عندما أطلق الجنرال Metaxas صيحته لها للعناصر الفاشستية التي تريد ضم اليونان للمحور ، وكانوا يتوجهون للقنصلية اليونانية بشارع فؤاد (الجمهورية) للتوقيع في دفتر خاص .

من الوقفات الوطنية للجالية اليونانية للوطن الثاني مصر انسحاب العمال اليونانيين من المعسكرات البريطانية تعاونًا مع إخوانهم المصريين في أكتوبر ١٩٥١ (أثناء معارك القناة) قيام رئيس الجالية اليونانية ببورسعيد الدكتور Paradimitriov بإرسال تلغراف للرئيس محمد نجيب قائد الثورة بتأييده هو وزملائه من مجلس قيادة الثورة بطرد الملك فاروق خارج مصر في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

في ١٥ سبتمبر ١٩٥٦ وبعد تأميم شركة قنال السويس العالمية التي شجعت المرشدين الأجانب على الانسحاب من العمل مع القيادة المصرية حتى يرتبك العمل في المرور بالقناة رفض المرشدون اليونانيون الانسحاب .

في النهاية اشتهرت مدافن اليونانيين بغرب المدينة بالثراء الفني في العمارة والزخرفة والتماثيل المعبرة عن روحانيات تلك الجالية

الجالية الإيطالية

تعتبر الجالية الايطالية ثاني الجاليات الأجنبية من حيث كثافة عدد السكان.

ولما أجرى أول تعداد رسمي للسكان لمدينة بورسعيد سنة ١٨٨٢ بلغ إجمالي عدد السكان في بورسعيد حوالي ٦٩٧٨ نسمة وبلغ عدد مجموع الأجانب في هذا التعداد ١٩٣٧ أجنبي منهم ٥٦٣ ايطالي .

وفي التعداد التالي سنة ١٨٩٧ بلغ إجمالي عدد السكان في بورسعيد ٤٢٩٧٢ نسمه خص الأجانب ١١٤٨٠ أجنبي أكثرهم من الأتراك والسوريين يليهم اليونانيون والبريطانيون والايطاليون والفرنسيون، أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ فظهر تعداد الجالية الايطالية :

١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧	
٢١٥٩	٣٠٢٨	٤١٢٢	٥١٥٠	٣٠٣٨	ايطالي

وكان الايطاليون مثار إعجاب دى ليسبس فكان السينيور Dori المترجم الخاص لدى ليسبس الذى كلف الايطالى الشهير فى تخطيط المدن Pietro Paleocapa فى تخطيط المدينة الواعده بورسعيد حيث ظهرت شوارعها ممتدة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها متعامدة.

ومتحف اللوڤر يحتفظ بمنظر مجسم لمجرى قنال السويس من الشمال عند بورسعيد حتى الجنوب عند السويس فى شكل خريطة ذات مناظر شبه مجسمه ذكر أن هذا المنظر كما لو رآه طائر محلق فى سماء قناة السويس وهذا الرسم لايمكن تنفيذه الآن إلا بالأقمار الصناعية وهذا الرسم الدقيق تنفيذ الأستاذ الفارس الكبير Revoltella نائب رئيس شركة قنال السويس العالمية مع المهندس اللامع Givseppe Sforzi وهما إيطاليان وبتكليف من دى ليسبس على إثر افتتاح قنال السويس سنة ١٨٦٩ .

ومنذ ١٨٧٨ وافق الخديوى اسماعيل على اقتراح محافظ بورسعيد بتعيين ثلاثة من الأوربيين من بينهم ابطالى لمساعدة مفتش البوليس فى الأعمال المتصلة بالأجانب ثم توسعت تلك القاعدة وانتشر الأجانب ومنهم الإيطاليون فى أعمال البوليس ومن أشهر هؤلاء Boelli مأمور بوليس قسم الأفرنج (الشرق) فى سنة ١٩٠٠ ومدير بوليس الميناء كان الضابط دى البونو وذلك فى مبنى خشبى فى امتداد شارع السلطان عثمان (الجمهورية) أمام حوض الفحم عند باب الجمرك رقم ١٦ حيث موقف أول معدية ، وكان يمتلك عمارة كبيرة أمام المحكمة الحالية بشارع توفيق والسلطان عبد المجيد (عرابى وعبدالهادى غزالى) .

ومع إحدى الحقائق التى ذكرها المرجع اليونانى لديمتريوس خالدوبيس «ذكريات وأحداث عن بورسعيد» والمطبوع فى مطبعة فترالى بالاسكندرية ١٩٣٩ ، ص٣٥ «المسيو De Franchi مدير عام خزينة شركة قنال السويس والمسئول عن بيع الأراضى فى بور سعيد عرض ١٨٧١م على والدى (والد الكاتب خالدوبيس) شراء بعض قطع الأراضى فى بورسعيد تعرضها شركة قنال السويس وقدرها خمسة عشر ألف متر مربع بخمسة عشر ألف فرنك أى سعر المتر المربع الواحد فرنك (الفرنك أربعة قروش) فى الأراضى المبنى عليها الآن (١٩٣٩ تاريخ نشر الكتاب) عمارات ماكس موشلى وماردوس (حاليا فى أرقى موقع فى بورسعيد تطل على شارع الميناء والحديقة الدولية) إلا أن والدى (والد خالدوبيس) رفض هذا العرض الذى قدمه له صديقه الايطالى دى فرانشى لأن تلك الأراضى كانت تغمرها مياه البحر الأبيض المتوسط قبل

انحسارها شمالاً تاركة أرض يطلق عليها أراضى طرح البحر) ورد عليه قائلاً : «ما هذا الكلام غير المعقول يا صديقى فرانشى أرمى خمسة عشر ألف فرنك فى المياه وهى جميع ثروتى ؟! » ... ولم تمر مدة أربع أو خمس سنوات وأصبح من قام بشراء تلك الأراضى من المحظوظين ذو الثروات الكبيرة لأن قيمة تلك الأراضى زادت مائة مرة عن ثمنها الأصلى».

من المراكز الهامة التى شغلها الايطاليون فى بورسعيد وظيفة أول مدير للبوستة المصرية فى بورسعيد التى كانت تطل على الميناء مباشرة فى مبنى خشبى (مكان ادارة أمن الموانئ الحالية) تولى تلك الوظيفة السنيور Giordno ١٨٧٨م وكان يعاونه من الموظفين Pace, Nani ثم تولى ادارة البوستة من بعده السنيور Konte .

كانت أهم بقعة فى مدينة بورسعيد ميدان المنشية أو ميدان دى ليسبس (ميدان سعد زغلول) وكانت تتوسطه حديقة اهتمت شركة قنال السويس بزراعتها بالأشجار والورود والأزهار وكان فى وسطها كشك خشبى تقوم الفرق الأجنبية بعزف المقطوعات الموسيقية فى أيام الآحاد والمناسبات الرسمية وأعياد الأوربيين فعينت لها شركة قنال السويس مهندسا زراعيًا ايطاليًا ١٨٧٨ هو السينيور Michel Elvdy المسئول الأول عنها.

وبمناسبة الحديث عن حديقة المنشية تكونت جمعية برئاسة السينيور Pacho الايطالى الجنسية مدير جريدة Phar Port- Said لجمع الأموال بغرض اقامة تمثال نصفى لدى ليسبس صممه المثال الايطالى Mantovani وتم ازاحة الستار عن هذا التمثال فى ١٦ يونيو ١٨٩٥ إلا أن الجالية الفرنسية كانت هى الجالية الوحيدة التى قاطعت هذا الحفل بالرغم من أن المحتفى به فرنسى بحجة أن هناك نية لاقامة تمثال ضخم لدى ليسبس عند مدخل القناة وأن هذا التمثال النصفى لايليق بدى ليسبس .

وبمناسبة الفرق الموسيقية التى كانت تعزف فى ميدان دى ليسبس فمن الفرق الايطالية Lira وهى أقدم الفرق الموسيقية فى بورسعيد أسسها Lazzaro Cohen سنة ١٨٨٣م وأعاد تشكيلها C . Padovani سنة ١٩٠٠ وهناك فرقة Nternatonal التى تأسست سنة ١٨٨٨ وكانت هاتان الفرقتان تصرحان بالموسيقات فى أيام الآحاد والأعياد القومية الايطالية وأعياد باقى الجاليات فى ميدان المنشية وامتدت مشاركتها للمصريين عند الزيارات الخاصة بالشخصيات الرسمية ابتداءً من خديو مصر، بل لما أسس على بك لهيطه أول عضو مجلس نواب عن دائرة القنال أول فرقة مصرية موسيقية فى بورسعيد أسندها للإيطالى Lopez لتدريب أعضاءها الـ ٣٥ موسيقيًا .

وكان متعهد الزينات للاحتفالات الرسمية بالمدينة تاجر الأخشاب الايطالي Ramaccioti الذى كان يتولى توفير الأعمدة الخشبية الطويلة التى تثبت فوقها الأعلام ، كما كان يتولى استجلاب سعف النخيل من صعيد مصر ، كما حدث عند زيارة الخديوى توفيق لبورسعيد سنة ١٨٨١م.

وكانت قمة الحركة الفنية والثقافية للجالية الايطالية فى بورسعيد بعد انتهاء كابوس الحرب العالمية الثانية بعد هزيمتها مع ألمانيا بسبب ديكتاتورية زعيمها موسلينى حيث زاق الرعايا الايطاليون الأمرين من القوات البريطانية التى كانت تحتل مصر فأعدت لهم معسكرات الاعتقال على امتداد قناة السويس تجاه مدينة السويس فى چنيفة وفايد والشلونة وتم تعيين الأستاذ عبد الحميد سعيد حارسًا على أموالهم وأملاكهم فى بورسعيد.

وكانت Casa D'Italia أو بيت الايطاليين من أشهر مؤسساتهم الثقافية وحاضر فيها الدكتور Umberto Zanni (دكتوراه فى القانون) والذى كان فى نفس الوقت رئيس جمعية Dante Alighieri الثقافية . ففى ١٣ ديسمبر ١٩٥٠ ألقى محاضرة عن دانتى اليجيرى ومراحل عمله التاريخى الخالد الكوميديا الآلهية La Divine Comedie وقد ولد هذا العالم المشهور ١٢٦٥ .

وفى ٢١ يناير ١٩٥١ وأيضًا وفى الكازادى اتليا وتحت رعاية جمعية دانتى اليجيرى أقيم حفل غنائى بمناسبة مرور خمسين عامًا علي وفاة الموسيقار العالمى Giuseppe Verdi والمتوفى (١٩٠١) وقامت مجموعة من الهواة بآداء مقطوعات من أعماله الخالدة ريجيليتو والترڤاتورى ولاتراڤيتا ودون كارلوس وعايدة تحت رعاية قنصل ايطاليا Mario Franzi الذى لم يقض إلا عشرين شهراً فى عمله هذا ونقل فى نهاية فبراير ١٩٥١ فى وظيفة دبلوماسية أعلى سفارة ايطاليا فى باريس وبتلك المناسبة أقيمت له حفلة لوداعه احيتها الفرقة الايطالية Teatro Sperimantale للأوبرا بروما على مسرح الكازادى ايتاليا فى يوم ٢٣ فبراير ١٩٥١ وحل محله المركيز الدكتور Serafini . G وله تاريخ دبلوماسي حافل ففى سنة ١٩٢٨ عين نائب قنصل ايطاليا وفى سنة ١٩٣١ قنصلاً لإيطاليا فى نيويورك ثم سكرتيرا فى سفارة ايطاليا بموسكو ثم بأثينا وفى سنة ١٩٣٩ عاد لروما والحق بوزارة الخارجية الايطالية ثم قنصلاً بمدينة جراد بالنمسا حيث كانت تنتظره مهمة دقيقة نظراً لظروف النزاع الأوربى واندحار ايطاليا فى الحرب . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عاد إلى روما حيث أشرف على المبادلات التجارية بين ايطاليا وأمريكا من جهة وايطاليا والشرق الأقصى من جهة أخرى

وأظهر كفاءة ممتازة حيال الاقتصاد المنهار لبلاده بسبب الحرب ، ثم عينته ايطاليا قنصلاً لها في بورسعيد بما يدل على أهمية مدينة بورسعيد وميناءها .

ومن الأخبار الفنية للجالية الايطالية أن حصلت الآنسة Anrée Darras على شهادة من كونسرفتوار روما Cecilia حيث جازت امتحان مواد الهارمونى وتاريخ الموسيقى بتفوق وذلك بفضل معلمة الموسيقى الايطالية D. Movizzo مما اثلج صدور الايطاليين فى بورسعيد .

ومن الأخبار الثقافية للجالية الايطالية قيام جمعية دانتى اليجيرى بعقد دورات لتعليم اللغة الايطالية وكانت تعلن عن أن المتفوقين فيها سيتم سفرهم لايطاليا لاستكمال تعليمهم وكانت الدراسة تتم بالصالة الكبرى فى الكازادى اتاليا وكان الدكتور حسن أحمد البرعى أحد هؤلاء النابهين فى اللغة الايطالية الذى تم إيفاده سنة ١٩٥٢ لجامعة Perrvgia بروما وحصل على دبلوما فى اللغة الايطالية تعادل الدكتوراه وأصبح أستاذاً لامعًا فى اللغة الايطالية.

ومن المحاضرات التاريخية عن نشأة مدينة بورسعيد ونشاط الجالية الايطالية منذ الحفر نظمت جمعية دانتى اليجيرى محاضرة فى نهاية فبراير ١٩٥٢ عن نشاط تلك الجالية وقام بالقاء المحاضرة Lugi Dori .ومن الجمعيات الخيرية الايطالية Santa De Mutuo Soc-corso.

كما كانت للجالية الايطالية صحفهم المستقلة المعبرة عن آرائهم أولها El Mosquito وهى من أقدم الصحف التى ظهرت على أرض بورسعيد ، أصدرها موفتليتى سنة ١٨٦٧ ، ثم صدرت جريدة Telegrafo التى أصدرها المسيو Compo سنة ١٨٩٣ ومحررها السينيور فرانشيسكو سانتورى ،كما ظهرت صحيفة Faro ثم جريدة Elletrico لصاحبها السينيور Vilttrio Dello Strologo (مثل الجالية الايطالية فى مجلس بلدى بورسعيد فى أول مارس ١٩١٣ (وكان تاجر ثلج وصاحب مصنع مياه غازية كازوزة وصاحب اكشاك بيع مرطبات) . وكانت الصحف الايطالية جميعها يطبع فى بورسعيد .

وقد تمركزت الحركة الفندقية ومحال الحلويات والبارات والمطاعم فى أيدى أبناء تلك الجالية وكان أشهر هؤلاء Silvio Simonini الذى وصل إلى بورسعيد وهو شاب صغير مع والده وكان يمتلك عدة فنادق أشهرها Marina Palace Hotel وكان يقع بشارع السلطان عثمان والنجارة (الجمهورية والنهضة حالياً) L'Eastern Exchange Hotel الذى اشتهر عند أهل بورسعيد بالبيت الحديد لأنه بنى بالكامل من الحديد من خمسة طوابق وحل به شخصيات عالمية كثيرة وكان يقع بشارع السلطان عثمان وأوجينى (الجمهورية وصفية زغلول) -Le Ca

sino Palace Hotel وعند نشأته كان يطل على شاطئ البحر الأبيض مباشرة قبل انحساره شمالا تاركًا أرض أطلق عليها طرح البحر فى جهته الشمالية ، أما جهته الشرقية فتطل على قناة السويس وقد حلت به شخصيات عالمية وقومية وثقافية ففى ٤ يناير ١٩٠٥ حلت به الامبراطورة أوچينى كمواطنة فرنسية عادية حيث سبق لها أن حلت على بورسعيد وهى امبراطورة فرنسا والتى حضرت بالنيابة عن زوجها نابليون الثالث امبراطور فرنسا الذى اعتذر عن حضور تلك الحفلات لوجود قلاقل داخل فرنسا وأناب عنه أوجينى حيث بدأت حفلات افتتاح قناة السويس يوم ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ (وهو اليوم السابق للافتتاح) كما حل بهذا الفندق الزعيم سعد زغلول باشا ورفاقه وهم (محمد محمود باشا واسماعيل صدقى باشا وحمد الباسل) عند نفيهم من بورسعيد إلى مالطة فى ٨ مارس ١٩١٩ كما حل به شاعر النيل حافظ ابراهيم بك فى ٢٩ مايو ١٩١٠ عند افتتاح أول مدرسة للبنات فى بورسعيد (تابعة للجمعية الخيرية الإسلامية) كما حل بهذا الفندق الشاب المناضل الهندى جواهر نهرو رئيس حزب المؤتمر الهندى فى ٣١ أكتوبر ١٩٣٨ عند عودته لبلاده بعد مباحثات مع الساسة الانجليز (أصبح رئيسًا للوزراء فى الهند فى خمسينيات القرن العشرين وقطب من الأقطاب البارزين لكتلة عدم الانحياز وصديق الزعيم الراحل جمال عبد الناصر) .

كما كان الفضل للمسيو سيمونينى فى إنشاء أول كازينوهات على شاطئ بورسعيد وبور فؤاد داخل المياه مما شجع عظماء مصر على تفضيل مصيف بورسعيد الهادى عن مصيف الاسكندرية أو التوجه إلى المصايف الأوربية باهظة التكاليف وهما:

Le Pavillon Balineaire de Port - Said.

Le Pavillon Balineaire de Port- Fouad

لذلك تم انتخاب مسيوسيلفيو سيمونينى فى أول مجلس بلدى، مختلط لبورسعيد الذى انعقدت أول جلساته فى ٢٣ فبراير ١٩١١ اعتباراً من ٤ مايو ١٩١٢ لذلك اختارته الجالية الايطالية عميداً لها فى بورسعيد وهو يحمل لقب Commandeur التاج الإيطالى كما يحمل وسام Phoenix اليونانى ولقب فارس النيل المصرى ونيشان الافتخار التونسى وعند دخول ايطاليا الحرب مع المانيا (المحور) سنة ١٩٣٩ كان يأمل فى انتصار المحور على الحلفاء فأعد حصانًا أبيضًا ليمتطيه وينصب محافظًا للقنال إلا أن الهزائم أدت إلى وضع منشآته تحت الحراسة وكانت وفاته فى الثامن من أكتوبر ١٩٥١ وتم دفنه فى المقبرة الخاصة به ذات الثراء

الفنى التجارى للمقابر المصنوعة من أرقى أنواع رخام محاجر كرارة كبقية الايطاليين الأغنياء.

وظهرت براعة أبناء الجالية الايطالية جلية فى فن العمارة والهندسة المعمارية Archi-tecture وأعمال مقاولات البناء ومن أشهر هؤلاء المقاول Albeti الذى مثل الجالية الايطالية فى المجلس البلدى ابتداء من يوليو ١٩٢٣ والمقاول Camidis Betraia الذى مثل الجالية الايطالية فى المجلس البلدى ابتداء من يوليو ١٩٢٩ وكان لهما الفضل فى شهره مدينة بورسعيد من ناحية عمائرها ذات الطابع القوطى والبيزنطى ، حتى ظهرت وأنها قطعة من أوروبا أو باريس وطبعًا كان هذا الثراء المعمارى قاصراً على حى الافرنج الذى تقطنه الجاليات الأجنبية.

وخير مثال على ذلك مبنى ادارة شركة قنال السويس ببورسعيد الشهير ذو الثلاث قباب من الفسيفساء Mosaics الذى بنى سنة ١٨٩٣ خير شاهد إلى الآن على جمال فن العمارة عندهم.

كما كان للمهندس الايطالى Kastlnovo الفضل على بورسعيد عند تشييده ١٨٩٤م خزانات توزيع مياه الشرب بالرسوة لتغذية العمائر ذات الطوابق المرتفعة بالمياه العذبة.

وقامت الجالية الايطالية بشراء قطعة أرض كبيرة كمربع كامل على أربعة شوارع بأرقى منطقة من مناطق طرح البحر بحى الافرنج سنة ١٩٠٧ بموافقة من محافظ القنال محمد محب باشا تطل على شارع الغربية (٢٣ يوليو) وبنى بجوارها كنيسة ذات طابع قوطى كما ألحق بها نادى للجالية الايطالية لكرة السلة والفولى بول .

وبجلسة مجلس بلدى بورسعيد المنعقدة السبت ٢٣ نوفمبر ١٩٢٩ تم عرض طلب القنصلية الايطالية ببورسعيد «تثبيت لوحة تذكارية من البرونز على جدارها للمسو لويجى ميجرللى المهندس الايطالى الذى أكد لأول مرة فى التاريخ أنه لافرق بين ارتفاع سطحى الماء فى البحرين الأحمر والأبيض ». وقد دافع عن هذا المطلب عضوا المجلس البلدى من الايطاليين المهندس كامديس بترايا والمقاول المعمارى ألبرتى .

وبالفعل أقيمت تلك اللوحة على جدار القنصلية عند تقاطع شارعى الأهرام بابراهيم (شارعى جمال عبد الناصر وعبد السلام عارف) وفى الثانى من يونيو من كل عام كان يحتفل بالعيد الوطنى الايطالى (ذكرى انتخاب ايطاليا برلمانها سنة ١٩٤٦) .

ومن أشهر النوادى الايطالية نادى ڤيرتوس لكرة القدم وكان يقع جنوب بورسعيد غرب شارع محمد على أمام معسكرات القوات البريطانية . وفاز نادى ڤرتوس بالكأس السلطانى فى موسم ٣٥ / ١٩٣٦ على فرق المملكة المصرية ضمنها النادى الأهلى والمختلط (الزمالك) والمصرى والاتحاد السكندرى.

وكان هذا النادى يقيم چيمخانة للسيارات الايطالية فى نهاية الأربعينيات وأوائل الخمسينات من القرن العشرين يعرض فيها آخر صيحة لموديلات السيارات الايطالية وكان يحضرها محافظ القنال عبد الهادى غزالى بك والسينيور فرنزى قنصل ايطاليا فى بورسعيد وكان رئيس هذا النادى الدكتور چيديو دى كاسترو صاحب أشهر توكيل ملاحى ايطالى شركة دى كاسترو بشارع فؤاد (الجمهورية) بالقرب من أوچينى (صفية زغلول) بجوار محل الحلويات الشهير العصفور الأزرق .

ونظراً للحركة التجارية الكبيرة داخل المجتمع البورسعيدى ففى ديسمبر ١٩٥٠ تم تسجيل أول غرفة تجارية للإيطاليين فى بورسعيد برئاسة Enrico Benderli (يهودى ايطالى) شريك فى أكبر مؤسسة تجارية فى بورسعيد هى سيمون آرزت Simon Arzt .

كما كانت أشهر كنائسهم Santa Eugenia القديسة أوچينى وهى يتبعها رهبان الفرنسيسكان وملحق بها مدرسة Terra Santa أى الأرض المقدسة .

وكان للجالية الايطالية نادى «إيبيس» بشارع توفيق عرابى (مكان محطة البولمان) واشتهرت بورسعيد بسفن صيد الأسماك الميكانيكية ذات الشباك الطويلة التى تصل لأعماق البحر عرفت عند أهل بورسعيد بالنابولتان Napoltan حيث أن صياديها من أبناء ميناء نابولى الايطالى ويقومون بصيد أفخر أنواع أسماك البحر الأبيض التى يبيعونها للمطاعم والفنادق الكبيرة بالمدينة . وعلى رأس تلك الأسماك الوقار والبربونى ، كما اشتهروا بتمليح الأسماك (الانشوجة) ففى عام ١٨٩٩ حصل الايطالى مشيل جاستيلا على امتياز استغلال ملاحات البر الشرقى (بور فؤاد حاليًا) .

كما اشتهر الايطاليون بالخبرة فى صناعة المكرونة وبالأخص الاسباكتى والاسباكيتينا فكانت لهم مصانع فى شارع الوكيل وصلاح الدين (البازار) .

ولايمكن لنا اغفال موقف جرئ للجالية الايطالية بانسحاب عمالها فى المعسكرات البريطانية مع العمال اليونانيين سنة ١٩٥١ تضامنًا مع انسحاب العمال المصريين، ولايمكن

اغفال ذكر اثنين من ابطال الكره الايطالية فى بورسعيد انضما للنادى المصرى هما Aldo وحارس المرمى موسكاتيلى الذى صور معركة ١٩٥٦ بكاميرته .

الجاليــــة الفرنسيــــة

كان الفرنسيون أول الجاليات الأجنبية وصولاً لأرض بورسعيد فعند دق أول معول فى أرض قناة السويس فى ٢٥ أبريل ١٨٥٩ حيث احتفل دى ليسبس بهذا الحدث الهام حيث اصطحب معه ١٥٠ فرداً عبارة عن مجموعة من العمال المصريين وهم غالبية هذا الجمع ومجموعة من الفنيين والمهندسين الأجانب أغلبهم فرنسيين على رأسهم موجيل بك (فرنسى يشغل مهندس الطرق والكبارى فى الحكومة المصرية) ولاراوس (رئيس قسم الأعمال والأشغال المائية بشركة قنال السويس) ولاروش (رئيس قسم الأعمال الخاصة بمدينة بورسعيد) ودى مونتو (مدير مشروع الحفر) وألنفس هاردن (المقاول العام لأعمال الحفر) وأوبرت روش (طبيب شركة القنال) . وبلغ إجمالى عدد الأجانب الواصلين لبورسعيد فى عام الحفر ١٨٥٩م ٤٩ أجنبيًا وفى العام التالى ١٨٦٠ بلغ عدد الأجانب ١٥٨ أغلبهم من اليونانيين والفرنسيين .

ولما أوقف الخديوى اسماعيل السخرة فى حفر قناة السويس سنة ١٨٦٢ حيث أحضر دى ليسبس بدلاً عنهم خمسة عامل من أبناء الجزر اليونانية عززهم بألف عامل فرنسى من أبناء مارسيليا فى سنة ١٨٦٥ إلا أن أغلبهم لم يستمروا لم يصمدوا أمام صعوبة أعمال الحفر وعادوا إلى مارسيليا مرة أخرى .

ويحب أن ننوه أنه فى سنة وصولهم ١٨٦٥ أنيط تخطيط مدينة بورسعيد المرتقبة إلى مهندسين وفنيين فرنسيين فجعلوا شوارعها متعامدة تبدأ من شرق المدينة وتنتهى فى غربها وأيضا تبدأ من الشمال وتنتهى عند جنوب المدينة ، وقاموا ببناء منازل خشبية للسكنى من دور أو دورين وكان التنقل فى المدينة فى زمن فيضان النيل بمراكب (كما لو كنت فى ڤينيسيا) وتمركزت تجارة التجزئة فى مناطق الحفر فى أيدى الفرنسيين فأقام لهم دى ليسبس مستودعات خشبية ضخمة لتموين المدن الثلاث (بورسعيد والاسماعيلية والسويس) وما بينها فى محطات ملاحية وكان أشهر هؤلاء التجار وأشهر شركاتهم L. Bazinzco و F. Srre و L. Savon Zco وقد أثرى هؤلاء التجار ثراء فاحشًا من وراء تجارتهم وحولوا نشاطاتهم بعد افتتاح القناة إلى امتلاك الشركات الملاحية ومن جراء ما جنوه من ثروات طائلة أقاموا العمارات الشاهقة والڤيلات الفخمة وجلبوا لها فى فرنسا أفخم الرياش والتحف.

ويكفى أن دى ليسبس بعد أن أنهى مشروعه وقام بإفتتاح القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ وبعدها بإثنى عشر يومًا أى فى ٢٩ نوفمبر ١٨٦٩ تزوج دى ليسبس للمرة الثانية على أرض قناة السويس من الين دى براجار وشاهدا العقد فوزان بك (مدير الأشغال) و Le Valet مدير شركة المساجيرى مارتيم.

وفى سنة ١٨٧٦ كان تعداد الاجانب فى بورسعيد ٣٤٥١ أجنبى أغلبهم من اليونانيين والفرنسيين.

وفى أول تعداد رسمى للسكان أجرى بمصر إلى سنة ١٨٨٢ وهى سنة الاحتلال التى تزايد فيها عدد السكان الأجانب الذين وصل عددهم إلى ١١٤٨٠ أجنبى أغلبهم من الأتراك والسوريين يليهم اليونانيين والبريطانيين والايطاليين والفرنسيين من احمالى سكان بورسعيد البالغ ٤٢,٩٧٢ نسمة.

أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ فظهر تعداد الفرسيين :

[illegible]	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧
٧٦٩	٩٠٥	١١٩٤	١٦٩٧	٩٠٦ فرنسى

كان الفرنسيون من أول أبناء الجاليات الذين احتلوا المراكز الادارية العليا فى شركة قنال السويس والشركات الملاحية والبنوك بل وداخل الحكومة المصرية . فأقوى هؤلاء نفوذاً هم رؤساء مجالس إدارة شركة قنال السويس العالمية وأهم هؤلاء بعد دى ليسبس :

Guichard, Prince D' Arenberg, Charles Jonnart, Marquis De Vogue , Francois Charles- Roux .

وكانوا يعتبرون أنفسهم حكامًا لمنطقة قنال السويس ولقد صدق الخديو اسماعيل فى قولته «أنا أريد القناة لمصر وليست مصر للقناة » كما صدق من بعده الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عندما ذكر فى خطاب التأميم فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦«إن شركة قنال السويس العالمية تعتبر دولة داخل دولة».

وكانت أغلب المصالح الخدمية وأعمال الادارة منذ عام دق أول معول فى أرض قناة السويس ١٨٥٩ وحتى ١٨٧٠ فى يد شركة قنال السويس، فحكمدار البوليس فرنسى ويدعى Brouchet وتحت امرته ضباطًا فرنسيين ويونانيين والخدمات الصحية تحت اشراف أطباء

فرنسيين على رأسهم الدكاترة Cambouliu و Couvidou واستمرت أعمال البوليس لفترة طويلة لهم H. Beaumont Bey شغل وظيفة وكيل حكمدار القنال برتبة قائمقام .

وكان أفراد تلك الجالية يمثلون قمة الأرستقراطية فى السلم الاجتماعى داخل مدينة بورسعيد نظراً لأنهم الأكثر ثقافة وتعليمًا وثراءاً وكانوا يرتادون أرقى الأماكن العامة وأفخرها وكانوا نادراً ما يختلطون بغيرهم من أفراد الجاليات الأخرى وإذا أقاموا حفلاً ساهراً لايتعدى أبناء جلدتهم وامتد ذلك إلى ما قبل تأميم شركة قنال السويس العالمية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ وأمثلة ذلك فى الثانى من ديسمبر ١٨٩٣ مرور البارجة الحربية الفرنسية Cosmao من القناة بين حفاوة الجالية.

وفى أول أكتوبر ١٨٩٥ أقيم حفل للمسيو Mousscou كبير موظفى شركة قنال السويس تلاه احتفالات كبيرة للجالية الفرنسية فى بورسعيد بمناسبة استيلاء القوات الفرنسية بقيادة القائد Dussen على جزيرة مدغشقر .

وفى ١٨ يونيو من كل عام كانت الجالية الفرنسية فى بورسعيد تحتفل بذكرى إعلان المرشال شارل ديجول فرنسا الحرة فى ١٨ يونيو ١٩٤٠ حيث رفض عرض المرشال بيتان بتسليم فرنسا لألمانيا النازى ونادى باستمرار النضال وذلك برئاسة الدكتور Gutier عميد الجالية الفرنسية فى بورسعيد وطبيب الأسنان المشهور والمسيو Touchalaune رئيس رابطة الفرنسيين الأحرار. وفى الذكرى العاشرة لتلك المناسبة فى ١٨ يونيو ١٩٥٠ أقيم حفل كبير فى صديقه الكازينو بالاس حضره وكيل محافظة القنال أحمد شكرى بك وقناصل الدول ووجهائها .

وفى يوم الأحد ١٤ يناير ١٩٥١ وصل إلى بورسعيد سفير فرنسا بالقاهرة Couve De Murville حيث استقبل استقبالا حافلاً من الجالية الفرنسية ببورسعيد وقنصل André Bre-na ونظراً للصداقة المتينة التى تربط كوف دى مورڤيل وشارل ديجول منذ أن كون حزبه فرنسا الحرة فكان وقتها ساعده الأيمن فقد استدعاه بعد فترة وجيزة وعينه وزيراً للخارجية فى وزارته وبعدها أصبح كوف دى مورڤيل رئيسًا لوزراء فرنسا وكان من المحبين لمصر.

وبمناسبة الاحتفالات فكان أهم أعياد الجالية الفرنسية هو عيد قيام الجمهورية الفرنسية وقد اشتهر عند أهل بورسعيد القدامى من المصريين بعيد الربوبليك حيث يحتفل به سنويًا فى يوم ١٤ يوليو وكانت بورسعيد تلبس أبهى حللها فى ذلك اليوم فتزين شوارعها بالأعلام

الفرنسية وأقواس النصر وبالزينات الكهربائية حتى مبنى شركة قنال السويس ذو الثلاث قباب وورشها المطلة على الميناء وجميع معداتها فتتلألئ فى الماء وتطلق الألعاب النارية.

أما فى مياه القناة فى ميناء بورسعيد فتقام الاستعراضات والألعاب والمسابقات المائية.

وفى المساء يقام حفل راقص بتراس الكازينو بالاس المطل على القناة.

وتنتهى تلك الاحتفالات بإطلاق عدة صواريخ فى سماء بورسعيد يقرأ Vive France أى تحيا فرنسا .

وكان يأتى لبورسعيد فى هذا اليوم أفواج من أهالى المدن القريبة من بورسعيد بالمراكب الشراعية ولنش شركة قنال المنزلة عبر بحيرة المنزلة من دمياط والمطرية والمنزلة للاستمتاع بمشاهدة هذا الكرنڤال الفرنسى على أرض بورسعيد .

وآخر احتفال بعيد الروبوبليك على أرض بورسعيد كان فى ١٤ يونيو ١٩٥٦ وما تلاها من أحداث بالانذار البريطانى الفرنسى لمصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ والعدوان الثلاثى على مصر وما - س رحيل رعايا الدولتين عن أرض بورسعيد .

فى سنة ١٨٩٤ قامت أرملة المهندس Couvreu ببناء ملجأ للأيتام من كافة الجنسيات سنة ١٨٩٤ . وكان لتلك الجالية صحفها الخاصة التى اعتبرت من أقدم الصحف المحلية على أرض بورسعيد ففى سنة ١٨٦٧ تم طبع أول جريدة محلية فرنسية تحت اسم Journal Du Canal قام باصدارها Piere Moll وكان من أشد المدافعين عن دى ليسبس ومشروعه فى حفر القناة ضد المعارضة الانجليزية، وفى سنة ١٨٧٠ صدرت جريدة Journal de Port - Said وكتب فيها طبيب شركة القنال الدكتور H. Couvidou . عن ضرورة ربط بورسعيد بدمياط بطريق برى (العجيب هذا الاقتراح نفذ بعد مائة عام تقريبًا خلال حرب الاستنزاف فى أول السبعينيات من القرن العشرين لخدمة العمليات الحربية) وهذه الجريدة اسبوعية تصدر صباح كل خميس ، وتقع فى أربع صفحات ورئيس تحريرها المسيو Joule Barbier وأغلقت سنة ١٨٧٢ لتطولها على ذات الخديوى اسماعيل ، وأعيد اصدارها تحت اسم جديد Moniteur de Port- Said أى المخبر لبورسعيد فى ذات السنة بمعرفة المسيو Barbier وصدرت لفترة وجيزة فى بورسعيد إلى أن انتقل صاحبها للقاهرة، وفى سنة ١٨٧٣ صدرت جريدة Avenir Co-mercial أى المستقبل التجارى التى أصدرها المسيو Emeil Roux إلا أنها لم تستمر طويلاً، ثم اصدر بعدها «لافورنيرون سالى بورسعيد» التى لم تتطرق للأمور السياسية

كسابقتها بل اهتمت باخبار الفنون والأنشطة البحرية لدرجة أن جريدة الوقائع المصرية كانت تنشر عنها بعض الموضوعات المتعلقة ببورسعيد .

ثم ظهرت عدة صحف فرنسية كثيرة المجال هنا لايسمح بذكرها ويمكن الرجوع إلى المرجع القيم لصديقي الدكتور زين العابدين شمس الدين نجم «بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩-١٨٨٢» فهو أحد مراجعي لهذا البحث .

وفي النهاية أذكر جريدة Verité أى الحقيقة التى أصدرها سنة ١٨٩٥ Edward Horn وبوفاته سنة ١٩٠٧ أدارها ابنه Louis . وكانت مكتبة هورن من أولى وأشهر المكتبات التى افتتحت في بورسعيد وكان مقرها بشارع التجارة (النهضة) أمام تياترو وسينما الألداردو وكانت القريتيه هي جريدة مجلس بلدى بورسعيد منذ انشائه سنة ١٩١١ وإن كانت فى بعض الأحيان تخرج عن المألوف وتتطاول على المجلس واعضائه الذين كثيراً ما كانوا يطالبون بانهاء التعامل معها .

وبالإضافة لمطبعة ومكتبة هورن كان هناك مكتبة ومطبعة Riffis وبمناسبة ذكر المجلس البلدى كانت الجالية الفرنسية في بورسعيد ممثلة باعضاء بحكم القانون وهم ممثلو شركة قنال السويس فى مصر وكان لهم التأثير الأكبر على مجريات الأمور فى المجلس فى أوائل عهده وفى الجانب الآخر كانوا يساهمون فى تمويل كثير من متطلبات المجلس عندما يثار تمويل تنفيذ اصلاح معين ليس حبا في مصر أو المصريين بل كانوا يعتبرون بورسعيد جزءا من شركة القنال فيجب أن تظهر أمام أعين العالم في أبهى حللها وكان أول هؤلاء الأعضاء فى المجلس الكونت دى سريون والمسيو دى بنوا والمسيو فسبيه كما كان يمثل كبير مهندسى شركة القنال كالمسيو رينو والمسيو سرجون والمسيوليڤاسبير.

أما الجالية فكانت تختار وتنتخب فيما بينها أعضاءاً يمثلوها بمجلس بلدى بورسعيد كالمسيو أوليه والمسيوباردو.

وكان لهم التأثير والنفوذ فى الاهتمام بحى الافرنج فى بورسعيد الذى يقطنه الأجانب لدرجة أن الأعضاء المصريين بالمجلس وعلى رأسهم على بك لهيط والشيخ عبد الفتاح الجمل والشيخ ابراهيم عطا الله وغيرهم يضجون من هذا الاهتمام بينما حى العرب لايلاقى نفس الاهتمام نظراً لأن غالبية قاطنيه من المصريين ؟!

ومن أهم التسميات للشوارع والميادين بأسماء فرنسية هو أقدم شارع فى بورسعيد وكان يطل على شاطئ البحر مباشرة عند الحفر وحتى احتفالات افتتاح قناة السويس حتى أطلق عليه رصيف أوجينى (نسبة للإمبراطوره أوجينى) ثم شارع أوجينى بعد انحسار البحر شمالا تاركًا أرض أطلق عليها أراضى طرح البحر وهو حاليًا شارع صفية زغلول وشارع وميدان دي ليسبس وهو أوسع شوارع بورسعيد من ناحية العرض حتى عرف عند أهل بورسعيد القدامى بالثلاثينى لأن عرضه ثلاثين متراً والميدان كان يطلق عليه ميدان المنشية (نسبة إلى نشأة المدينة) وهو حاليا شارع وميدان سعد زغلول.

فى سنة ١٩٠٢ تولي المهندس والمقاول الفرنسيان Getaain Et.Sarvev بتنفيذ بناء البوستة المصرية وكان للفرنسيين كثير من الفضل فى التأريخ عن حفر قناة السويس ونشأة مدينة بورسعيد أمثال M. Riou, Marius Fontane Gabriel Hanotaux, Reymond, Charles Roux ومن الاهتمامات الفرنسية بتاريخ قناة السويس وحفرها ونشأة مدينة بورسعيد القى الدكتور Lugi Dori (ايطالى متخصص فى تاريخ قنال السويس وتاريخ بورسعيد ووالده كان مترجمًا لدى ليسبس) محاضرة فى قاعة مدرسة الليسيه في يوم الاثنين ١٢ مايو ١٩٥٢ عن الدراسات التاريخية والجغرافية لخليج السويس لاقت نجاحًا وترحيبًا من المعمرين الفرنسيين الذين حضروا المحاضرة.التى نظمها المسيو ڤيكتور مارتان مدير مدرسة الليسيه ببورسعيد (أقدم مدارس ليسيه مصر وافتتحت فى ٣٠ يناير ١٩١٠ بحضور البارون دى أزيتال الرئيس الأعلى لشركة القنال) . ونظراً للنجاح غير المتوقع فقد استمر أسبوعًا آخر.

مما شجع مدير النادى الفرنسى ببورسعيد L'Alliance Francaise «بتقاطع شارعى فؤاد وأوچينى بجوار سينما ماجيتيا» بأن يستضيف فى ذات الشهر مايو ١٩٥٢ المسيو Pierre Villforth- Jomini (مدرس اللغة الفرنسية فى المدارس اليونانية والإنجليزية ببورسعيد) لإلقاء محاضرة عن تاريخ الجالية الفرنسية خلال ٨٩ عامًا فى بورسعيد (١٨٦٣- ١٩٥٢) وقد أشاد فيها بالوثائق التى أمدها به الدكتور دورى عن بورسعيد ونشأتها منذ عهد محمد سعيد وحتى ١٩٥٢ .

ومن الأنشطة الثقافة الأخرى الأدبية والفنية والعلمية قيام البروفوسير Emile Henriot عضو الأكاديمية الفرنسية ورئيس الرابطة الفرنسية العامة بالقاء محاضرة أدبية بعنوان

Femmes des Lettrese et Lettres des Femmes أى «نســـاء الأدب وأدب النســـاء» بصالة الأعياد فى مدرسة الليسيه فى السادسة من مساء ١٤ نوفمبر ١٩٤٩ ثم يتوجه للاسماعيلية ويلقى محاضرة عن تاريخ الرواية فى Proust . ولم يمر إلا عشرة أيام إلا وتقوم الرابطة الفرنسية فى ٢٤ نوفمبر ١٩٤٩ بدعوة عازف البيانو الفرنسى Pierre Sancan الحائز على الدرجة الأولى من معهد الكونسقتوار بباريس والدرجة العظمى من كونسرڤتوار روما بتقديم الأعمال الشهيرة لبيتهوڤن وشومان وشوبان وليست بصالة مدرسة الليسيه .

أما قمة الفنون فمتمثلة فى فريق الكوميدى فرانسيز الذى يصل إلى بورسعيد فى يوم الأربعاء ٢١ ديسمبر ١٩٤٩ ويقدم مسرحية La Part du Feu للروائى الفرنسى الشهير Louis Ducreux وقد بدأ تقديمها الكوميدى فرانسيز على مسارح مدينة ليون الفرنسية فى ١٨ مايو ١٩٤٣ وبنجاحها الساحق مثلت على مسارح مدينة باريس إلى أن انتهى بها الأمر إلى تقديمها على مسرح الاليزية قمة مسارح باريس ، حيث مثلت على مسرح سينما ديانا ولاقت إعجاب البورسعيديين . وفريق L'Equipe للتمثيل المكون من الخرجين القدامى لمدرسة الليسيه ومدرسيها يقيم حفلاً فى يوم ٢١ مايو ١٩٥٠ للرواية الشهيرة Les Dames Aux Chapeaux Vertes السيدات ذوات القبعات الخضراء . وهى من أشهر أعمال الكاتب Ro-man De Germaine Acremant وقد حضر الحفل محافظ القنال عبد الهادى غزالى بك وحرمه وحكمدار بوليس القنال اللواء محمود طلعت وقنصل ايطاليا وقنصل اليونان وقنصل لبنان غالب بك الترك وزوجاتهم والدكتور Gautier رئيس الجالية الفرنسية والمسيو Marquet رئيس جمعية المحاربين القدماء والمسيو Touchalaune رئيس الفرنسيين الأحرار وزوجاتهم .

وفى يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٥٠ يعم الفرح والسرور بين الجالية الفرنسية ببورسعيد بوصول الأب Pierre Du Bourget أمين متحف اللوڤر للتاريخ المصرى القديم (بصفة عامة) ولتاريخ الفن المصرى القديم (بصفة خاصة) حيث ألقى محاضرة فى مجال تخصصه تخللها عرض القطع الفنية المصرية الموجودة بمتحف اللوڤر بالألوان بجهاز البروچيكتور وعرج فى محاضرته عن نسيج القباطى (الأقمشة القبطية القديمة) .

وفى أول أبريل ١٩٥٢ قامت الرابطة الفرنسية بعرض أفلام وثائقية لرسومات وصور من العصر القوطى رسمها الفنان العالمى المشهور Louis de Broglie وتم عرضها بصالة L'Eastern Exchange Hotel (المعروف عند أهل بورسعيد بالبيت الجديد) كان مديره الفرنسى المسيو Daromont .

هذا عن مدرسة الليسيه الفرنسية ، أما مدرسة الفرير فيعود تاريخ انشاءها إلى سنة ١٨٨١ ويرجع الفضل فى انشاءها إلى مدير مدارس الفرير بفرنسا الذى زار بورسعيد فلم يجد على أرضها مدرسة فرنسية تليق بالجالية الفرنسية فأسرع بالدخول فى مفاوضات مع السلطات المحلية فى بورسعيد بتشجيع من قنصل فرنسا العام فى بورسعيد Lucien Monge ومدير عام شركة قنال السويس الكونت Rouville وأثمرت المفاوضات عن افتتاح مدرسة للفرير فى مارس ١٨٨١ على رصيف أوچينى ، بدأت بفصلين التحق بهما ثمانية تلاميذ وقبل انتهاء العام الدراسى وصل عدد تلاميذها إلى ٤٦ تلميذاً بيانهم حسب جنسياتهم كالآتى ١٢ فرنسى، ١١ يونانى ، ١١ نمساوى ، ٤ إيطالى ، ٣ مالطى ، ٢ مصرى، ٢ تركى ، برتغالى واحد، أما حسب ديانتهم ٣٥ كاثوليكى ، ٨ أورثوذكسى، مسلمان ويهودى .

وبافتتاح مدينة بور فؤاد- نسبة للملك فؤاد الأول ملك مصر والذى حضر افتتاحها فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٦ فى حفل مهيب تفوح منه العظمة والأبهة على الشواطئ الشرقية لقناة السويس التى كان يطلق عليها بالشواطئ الخالدة Bousquet فى أوائل القرن العشرين والتى لم يكن بها حتى تاريخ افتتاح مدينة بور فؤاد إلا مجموعة من الورش والمعدات الخاصة بشركة قنال السويس.

وبافتتاح بور فؤاد اعتبرتها الجالية الفرنسية جزءاً من فرنسا بل كانوا يطلقون عليها باريس الصغرى نظراً لتوحيد فيلاتها التى بنتها شركة قنال السويس على النمط الفرنسى وكان أغلب قاطنيها من الفرنسيين العاملين بشركة قنال السويس وفى مارس ١٩٣١ تم افتتاح نادى Scarabee أى الجعران وهو شعار شركة قنال السويس وعرف عند أهل بورسعيد القدامى بالاشكاريبه للجالية الفرنسية كما كان لها نادى يطل على القناة مباشرة للتجديف كان معروف عند أهل بورسعيد بالنوتيك . كما قامت شركة قنال السويس ببناء المحكمة المختلطة وأخذ فى شكلها المعمارى مساجد المغرب العربى وافتتحت فى مايو ١٩٣٤ تحت إشراف البارون دى بنوا رئيس مجلس إدارة شركة القنال كما أعدت شركة قنال السويس بلاجاً خاصاً للعاملين فيها يطل على شاطئ البحر الأبيض بل وبلاجاً خاصاً بأطفال العاملين بشركة القنال Plage Des Enfants وعرف عند أهل بورسعيد باليزنفان .

النهاية بغرائب وعجائب فرنسية

كان أول منشأ فى بورسعيد سنة ١٨٦٥ انشأته مدام بانيو يليه فندقى هوتيل دى فرانس أول وسيلة مواصلات فى بورسعيد عربة بحصان يطلق عليها لاندو Landaulet أحضرها الموسيقى الفرنسى المسيو سريس سنة ١٨٨١ من فرنسا كانت تنقل الأحياء والأموات الذين كانوا قبل وصولها تنقل جثثهم إلى المقابر فى جنوب مدينة بورسعيد سيراً على الأقدام على اكتاف المشيعين . كان للميكانيكى الفرنسى بشركة قنال السويس المسيو Le Masson الفضل فى اختراعه الكشافات الكهربائية سنة ١٨٨٣ التى يمكن اضاءتها ليلاً على ضفتى القناة فتمكن من عبور السفن ليلاً بعد أن كانت تنتظر فى ميناء بورسعيد حتى الصباح ، كانت المطافئ فى بورسعيد عبارة عن جهود فردية حيث أسس الفرنسى الموظف بشركة القنال Mousscu أول فرقة مطافئ أهلية بتقاطع شارعى القسطنطينية ودى ليسبس (الجيش وسعد زغلول) إلى أن تشكلت فرقة المطافئ الحكومية فى ٢١ ديسمبر ١٩١١ اليوزباشى سيد حسن.

الرعايا الفرنسيون

وكان يطلق على هؤلاء بالحماية الفرنسية وكانوا من قبل أوائل القرن العشرين ضمن الرعايا العثمانيين وهؤلاء هم الشوام أبناء الشام سوريا ولبنان وأبناء المغرب العربى من مغاربة وجزائريين وتونسيين لكن المجموعة الأخيرة كانت قلة لم يؤثروا تأثير الجاليات الأخرى وأغلبهم ذاب فى المجتمع المصرى وجنسوا بالجنسية المصرية بل أن أحفادهم كانت تشغل مناصب راقية كعائلة المغربى لذلك سيكون حديثنا عن الشوام.

الشوام

وصل أفراد تلك الجالية من الشام أو من داخل مصر كالاسكندرية والقاهرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر للاشتغال بالتجارة وتمركزوا فى تجمع فى غرب حى الافرنج عند تقاطع شارعى دى ليسبس (سعد زغلول) ومحمد على ، عرف بحارة الشوام ، وكانت لهم كنيسة خشبية (كنيسة القديس يوسف للموارنة) ثم تهدمت وبنى مجموعة من أعيان الشوام وعلى رأسهم عيسى أفتيموس (تاجر اصواف واجواخ بشارع السلطان عثمان الجمهورية حاليًا) وجورج مشبهانى (المحامى) كنيسة القديس نيقولاوس للروم الأرثوذكس سنة ١٩٢٦ كذا عائلات حرفوش وخشة وشويرى وسردوش وطرباى وأشهر جمعياتهم الخيرية Ste. Syrienne Orthodexe De Bien Faisin وكانوا أصحاب محال بقالة وحلويات شامية ومطاعم صوفر وبار عباس ومراسلى صحف فيليب الصولى.

وقد تمصر الكثير من أفرادها بحكم طول الاقامة بمصر حتى يتمكنوا من الاقامة بمشاريع اقتصادية قد يحصلون على ميزات عند انشائها وادارتها كمصريين وكان على رأس هؤلاء عميد عائلة نجيم عبده نجيم والذى حصل على رتبة الباشوية لمساهمته فى كثير من المشروعات الخيرية وعلى رأسها التبرع بمبالغ ضخمة لبناء مَبرة فوزية الخيرية بشارع الملك (٢٣ يوليو حاليًا) ورئيسًا لجمعية الاسعاف وعضواً بمجلس بلدى بورسعيد اعتباراً من ٣ يوليو ١٩٤٩ وكانت زوجته ونجله شبل نجيم يقيمون الحفلات الراقصة والتنكرية فى ناديهم .

وكان لهم نادى بشارع كتشنر (٢٣ يوليو) يعرف بالنادى الشرقى ورئيسه الشرفى غالب بك ترك قنصل لبنان فى بورسعيد .

الجالية البريطانية

ظهر تأثير تلك الجالية فى الحياة البورسعيدية بعد شراء انجلترا نسبة كبيرة من أسهم شركة قنال السويس للملاحة البحرية بعد استدانة مصر بسبب اسراف الخديوى اسماعيل خصوصًا فى حفلات افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ وفاقت تلك الاحتفالات ما يفوق الخيال فى ليالى ألف ليلة وليلة ، وقد اشتهرت صفقة شراء أسهم شركة قنال السويس بأنها أبخس الصفقات فى تاريخ مصر فقد اشتهر «دزرائيلى » رئيس بريطانيا بدهائه ومكره فأخطره وزير خارجيته اللورد «ربى» عن نية الخديوى اسماعيل بيع حصة مصر فى أسهم شركة قنال السويس لسد العجز الذى حدث فى ميزانية الدولة نتيجة لاستدانته بملايين الجنيهات فى الدول الكبرى للصرف على حفلات افتتاح قناة السويس ... وانتهت تلك المؤامرة باقتراض دزرائيلى أربعة ملايين من الجنيهات من « روتشيلد« رجل المال البريطانى وتم شراء حصة مصر من أسهم فى شركة قنال السويس وفى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ تم توقيع اتفاق بيع تلك الأسهم، وقد وقعه «اسماعيل صديق» باشا ناظر المالية باسم مصر ووقعه نيابة عن الحكومة البريطانية الجنرال «ستانتون» وكان عدد الأسهم المباعة ١٧٦٦٠٢ سهمًا ، وأمرت الحكومة البريطانية سفينتها «ملابار» القادمة من الهند بالتوجه إلى ميناء الاسكندرية فى منتصف ديسمبر ١٨٧٥ لشحن الأسهم وتم وضعها فى أربعة صناديق مصفحة بالزنك لحمايتها من المياه فى حالة ما إذا تعرضت السفينة «ملابار» للغرق .

كما ازداد نفوذ انجلترا فى مصر أكثر وأكثر بعد أن ضربت الأساطيل البريطانية مدينة الاسكندرية فى صباح الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ بقيادة الأميرال «سيمور» وكانت أول طلقة فى البارجة «الكسندرا» على طابية «الاسبتالية» برأس التين ومن بعدها على الطوابى

المنتشرة على شاطئ الاسكندرية التى تم احتلالها بعد دفاع شرس ومستميت من أهلها ثم وجهت انجلترا وجهتها شطر قناة السويس ففى ٢٩ يوليو ١٨٨٢ وصلت ميناء السويس أربع سفن حربية بقيادة الادميرال هويت Hewett وبعد عناد واصرار من محافظ السويس وأهلها فى عدم التسليم وبعد مقاومة شديدة تم احتلال السويس فى الثانى من أغسطس ١٨٨٢ .

وفى الشمال وعند بورسعيد كان قنصل انجلترا فى بورسعيد المترويلز Wallis أصدر أوامره للرعايا الإنجليز ببورسعيد بالرحيل إلى بواخر تم إعدادها لهم فى الميناء وذلك فى ١٠ يوليو ١٨٨٢ وتبعهم فى ذلك رعايا فرنسا وايطاليا واليونان والمانيا والنمسا المقيمين فى بورسعيد وأعطى الجنرال ويسلى أوامره للاميرال هوب كنسى Hopkins بالاشراف العام على الحملة البريطانية لاحتلال قناة السويس، على أن يتم الاتصال بالادميرال هويت المرابط فى ميناء السويس، وغادر هوب كنسى الاسكندرية فى مساء السادس عشر من أغسطس ١٨٨٢ على سفينة القيادة بنيلوب Penelope وبلغ اجمالى السفن الحربية المتجهة لميناء بورسعيد ٣٢ سفينة ، وفى يوم الأحد ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ سيطرت السفينة فالكون Falcon على الشاطئ حتى الجميل إلا أنها لم تستطع الاقتراب من طابية الجميل لجسارة قائدها البكباشى بيادة محمد نجم الموالى للعرابيين . يضاف جسارة أهل بورسعيد وبالأخص طبقة عمال الفحم فى قرية العرب الذين قاوموا القوات الغازية بقيادة البكباشى محمد أبو العطا رئيس البوليس ببورسعيد وكانت النهاية احتلال بورسعيد . ومنها توجهت القوات البريطانية إلى الاسماعيلية فى ٢١ أغسطس ١٨٨٢ وتم احتلالها بعد عناد شديد من أهلها ، وتقدم الجيش البريطانى صوب التل الكبير ودارت معارك ضارية وغير متكافئة بين الإنجليز والعرابيين بعدها دخلت القوات البريطانية إلى العاصمة القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ الاحتلال لمصر دام ٧٤ عاما. وقامت القيادة البريطانية ببناء استراحة للبحارة والجنود الانجليز على ناصية شارع واجهورن (مصطفى كامل) ولما أجرى أول تعداد رسمى لمدينة بورسعيد سنة ١٨٨٢ بلغ عددسكانها حوالى ١٦٩٧٨ نسمة مجموع الأجانب في هذا التعداد ٢٩٣٧ أجنبى منهم ٤٤٤ بريطانى.

وفى التعداد التالى سنة ١٨٩٧ بلغ عدد سكان بورسعيد ٤٢٩٧٢ نسمة أصبح عدد الأجانب ١١,٤٨٠ أجنبى أكثرهم من الاتراك والسوريين يلهم اليونانيين والبريطانيين والإيطاليين والفرنسيين.

أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ مظهر تعداد الجالية البريطانية :

	١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧
بريطانى	١,٦٩٣	٢٢٣٣	٣٨٠٩	٣٦٧٣	٢٣٤٣

وبعد الاحتلال البريطانى أنيط بهم أعمال الأمن بنظارة الداخلية فاشتهروا بالشدة والصلف والبطش ضد المصريين والمتمثل فى الكونستبلات الإنجليز، وعين على رأس رجال البوليس البريطانى مفتش بريطانى أطلق عليه حكمدار بوليس القنال وأشهر هؤلاء فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين Hen Bey , Ablittby ويعمل تحت امرتهم مأمورى أقسام مدينة بورسعيد الثلاث الافرنج والعرب والمناخ . كذا مأمور ضبط انجليزى ومفتش مباحث القنال (بور سعيد والاسماعيلية والقنطرة) إنجليزى. وكان البوليس الحربى البريطانى P.M يحفظ النظام للقوات البريطانية . وعرف عند البورسعيدية بالبيكت . وقد تملك أفراد تلك الجالية أكبر الشركات الرأسمالية فى بورسعيد وعلى رأسها الشركات الملاحية.

فنجد المستر ويلز Wallis قنصل بريطانيا فى بورسعيد سنة ١٨٨٢ يقوم ببناء أكبر ثلاجة بالقرب من الميناء بتقاطع شارع بابل مع السلطان عثمان (الجمهورية حاليًا) كان يتم فيها تخزين اللحوم التى تصدر للمراكب المارة بالقناة واللحوم الواردة ترانزيت من استراليا كما انشأ مصنع للثلج ليمد السفن العابرة للقناة بالثلج.

أما المستر George Royle عمل مديراً لشركة اللويدز ثم انتهى به الأمر إلى تملك شركة من أكبر الشركات الملاحية فى منطقة القنال هى Lambret & Brothers Co. ولدرجة أن إحدى الصحف البريطانية Great Thoughts تجرى معه حديثًا فى شكل رويرتاج وتطلق عليه ملك بورسعيد من كثرة ثرائه الفاحش.

ومن ضمن المؤسسات الملاحية الإنجليزية الشهيرة ومديرها المستر Kortin فحومات بورسعيد – السويس Port- Said & Suez Coal Co. ومديرها المستر W.G. Woodhead English Coaling Co. Ltd وفى ذات الوقت كان يشغل نائب قنصل الدانمرك فى بورسعيد (منصب شرفى) ومبنى شركة انجلش كولنج يقع على الميناء بالتقاطع مع شارع أوچينى وقد مثل فيه أحد الأفلام المصرية فى الخمسينات: ومديرها المستر . Elkington Hull Blaith Co

وتشترك هل بلايت وشركة فحومات السويس فى مبنى خشبى يطل على الميناء، كان مدهونًا بخطوط عرضية بنية وبيضاء ، وبعد التأميم أصبح توكيل دمنهور للملاحة . ويقع مبنى شركة ورموس الخشبى على حوض الفحم بشارع الطور Worms & Co. والسلطان عثمان (الجمهورية) توكيل أسوان للملاحة حاليًا وبجواره مخازن وجراج مرموس.

W. Stapldon & Sons , Cory Brothers & Co. Ltd.

كما تمركزت فى أيديهم الأعمال المصرفية والبنكية -Anglo Egyption Bank= Bark lays Bank وهو من أقدم المصارف فى بورسعيد بدأ نشاطه فى مكان مبنى سيمون آزرت المطل على الميناء ثم بنى له مبنى بشارع النيل (الجزء الشمالى من الجمهورية) والجبرتى وهو حاليًا بنك الاسكندرية.

وفى وسائل النقل البحرى الداخلى تأسست فى الخامس فى فبراير سنة ١٩٠٦ شركة -An glo- American للنقل البحرى عبر قنال المنزلة بين بورسعيد والمطرية وكانت توفر الوقت الذى كانت تقوم به المراكب الشراعية فى نقل الركاب والمواد الغذائية بين المدن الواقعة على بحيرة المنزلة ، وشغل ادارتها أحد اليونانيين المسيو Kourkould فى مبنى بجوار بنك باركليز بشارع النيل (شمال الجمهورية حاليًا والقرات) .

وبنيت لهم كنيسة خاصة سنة ١٨٨٢م The Church of The Epiphany بشارع التجار (النهضة أو عبد المنعم رياض حاليًا) والمغرب وملحق بها صالة عبارة عن منتدى ثقافى للجالية البريطانية ويطلق عليها Memorial Hall فكان المستر Clerk مدير شركة شل من المحاضرين البارزين فى تلك القاعة .

ففى ٣٠ مايو ١٩٥٠ ألقى محاضرة عن حياة الفنان موتسارد حضرها جمع غفير من الجالية البريطانية وكبار الشخصيات الأجنبية فى بورسعيد وتحت شرف قنصل بريطانيا -Mr. Tom lin وفى ٨ أغسطس ١٩٥٠ ألقى المستر كلارك محاضرة عن حياة الموسيقار العالمى بيتهوفن وأهم أعماله وفى نهاية كل محاضرة تعزف أعمال هذين الفنانيين وكانت ما دام Zamit (زوجة رجل أعمال مالطى رعية بريطانية) تتولى عزف المقطوعات والسيمفونيات على البيانو وفى ١٧ يونية ١٩٥١ أقيم بها حفل استقبال على شرف بحارة الأسطول البريطانى المار بقناة السويس وهما البارجتان الحربيتان البريطانيتان Surprise , Gambia بقيادة الأدميرال Sir John Edelsten قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط والذى توجه مع القنصل البريطانى المستر توملين لسراى محافظة القنال لمصافحة المحافظ عبد الهادى غزالى بك الذى رد لهما الزيارة على الباخرة جامبيا وتلك الزيارات المتبادلة تعتبر كنوع من حسن الضيافة. ففى ٢٥ أغسطس ١٩٥١ وصل إلى بورسعيد مرة أخرى Amira Sir John Edelsten قائد الأسطول البريطانى فى الشرق الأوسط (ترقى فى وظيفته) فاستقبله أحمد بك شكرى وكيل محافظة القنال بصاحبه J Caruana. قنصل بريطانيا بالنيابة وصعدا لتحيته على باخرة

القيادة ورد الأدميرال الزيارة بالتوجه لسراى المحافظة لشكر محافظ القنال . وكان لهم مبنى الكتاب المقدس British Bible بنى سنة ١٩١٠ من الرخام الملون (ما زال بشارع الجمهورية).

ومن الأماكن الثقافة الأخرى للجالية البريطانية Union Clup بشارع النيل (شمال الجمهور حاليا) والفرات أعلى البنك المركزى حاليًا وكان ملحق به مكتبة كبيرة، وفيه تم الاحتفال بوداع الجالية البريطانية للسير Sir Ronald Cmbell سفير بريطانيا بعد إنتهاء فترة عمله فى مصر فى ٢٥ مايو ١٩٥٠ الذى سيبحر إلى انجلترا على الباخرة Capsa كما تم استقبال Lady Howe زوجة الحاكم البريطانى العام للسودان فى ١١ أبريل مايو ١٩٥١ وهى عائدة لبلادها على ظهر الباخرة Salween وفى ١١ مايو ١٩٥١ استقبل السير Sir Ralef Stinson وزوجته (سفير انجلترا فى مصر) حيث قضى عطلة نهاية الاسبوع فى بورسعيد بين الجالية البريطانية) .

كما كانت دار القنصلية البريطانية الواقعة بشارع السويس (الجيش حاليا) والفرات محلاً للاستقبالات والحفلات الرسمية ففى الخامس من يونيو ١٩٥٠ أقام المستر Tomlyn قنصل بريطانيا فى بورسعيد وزوجته حفل استقبال بصالونات القنصلية البريطانية بمناسبة عيد ميلاد الملك جورج السادس وكان على رأس المهنئين محافظ القنال عبد الهادى غزالى بك.

ومن المؤسسات الثقافية البريطانية فى بورسعيد المدرسة الإنجليزية وكانت واقعة بشارع (ابراهيم عبد السلام عارف حاليا) والسلطان محمود أعلى الشركة البريطانية ميتشل كوتس للمقاولات حيث اعتاد مديرها Mr. Danby دعوة محافظ القنال لحضور حفلها السنوى لتوزيع الجوائز على المتفوقين كما حدث فى نهاية العام الدراسى ٥٠ / ١٩٥١ .

وكان من أشهر مكتبات بيع الكتب الإنجليزية Colonial Book بشارع الميناء بجوار سيمون آرزت .

وكانت الجالية البريطانية تحتفل كل عام بذكرى ميلاد الملكة ڤيكتوريا وذكرى جلوسها على العرش إلى أن جاءت الذكرى الستين لجلوسها على العرش ١٨٩٧ تم الاحتفال بازاحة الستار عن تمثال لها الذى تتوسط قاعدة عليها أربعة أسود (ترمز للأسد البريطانى) من الجهات الأصلية الأربعة تخرج من أفواهها المياه كان يرتوى منها المارة على رصيف الميناء حتى عرفت عند أهل بورسعيد القدامى بسبيل ڤيكتوريا وقد حضر حفل ازاحة الستار المعتمد البريطانى اللورد كرومر .

وفى ذات الشارع الهام المطل على الميناء مباشرة احتفلت قوات الاحتلال البريطانى فى مصر فى ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ بازاحة الستار عن تمثال الجنود الاستراليين والنيوزيلنديين الذين اشتركوا فى صد العدوان التركى عن قناة السويس فى زمن الحرب العالمية الأولى ١٤ - ١٩١٨ بحضور المندوب السامى البريطانى فى مصر السير برسى لورين ورئيس الوزراء الاسترالى Mr. Hiouz كما تم تخصيص قطعة أرض غرب المدينة لقتلى الحرب العالمية الأولى عرفت بجبانة الإنجليز .

وكثيراً ما قامت الجالية البريطانية بجمع التبرعات من الجاليات الأخرى مثل ما حدث عندما نشبت الحرب فى اقليم ترنسفال بجنوب أفريقيا فنظم القنصل Kamerou تلك الحملة فى الأول من فبراير ١٩٠٠ .

وكانت لهم التأثير داخل المجلس البلدى الذى أنشئ سنة ١٩١١ فتم تغيير اسم شارع الغربية فى شمال المدينة والمطل على شاطئ البحر مباشرة إلى شارع كتشنر وهو وزير الحربية البريطانى فى زمن الحرب العالمية الأولى والذى عرفت به البارجة التى كانت تقله فى مياه الدردنيل فى ٥ يونيو ١٩١٦ (شارع ٢٣ يوليو الحالى) .

كما تم اطلاق اسم Waghorn الذى مهد طريق برى يربط الاسكندرية بالسويس قبل حفر قناة السويس لربط انجلترا وأوروبا بمستعمراتها فى الهند والشرق الأقصى فى الشارع الجنوبى للمدينة المطل على محطة السكة الحديد الخشبية التى افتتحها الخديوى عباس حلمى الثانى فى الثانى من ديسمبر ١٨٩٣ (حاليًا شارع مصطفى كامل) ، وكان للكابتن واجهورن الحظ فأقيم له بالسويس تمثالاً نصفيًا يطل على الميناء .

كان للجالية البريطانية ناد خاص Sporting Club حيث استولوا على قطعة أرض وسط حى الافرنج كان مخططًا لها أن تكون ميدانًا يطلق عليه ميدان عباس وكان لايسمح بدخوله إلا لهم وكان الاستثناء الوحيد لحسين صبرى بك سنة ١٩٢٢ ليس بصفته وكيل محافظة القنال بل بتدخل من الملك فؤاد شخصيًا لكونه شقيق زوجته الملكة نازلى وكانت القنصلية تطل عليه (حديقة فريال حاليًا) .

وفى جنوب بورسعيد وعند الرسوة كان يطلق عليها بر الإنجليز حيث قامت القوات البحرية البريطانية سنة ١٩١٤ بشراء قصر لأمير هولندى اقامه فى تلك المنطقة النائية الهادئة وعرف بالنيفى هاوس وفى ١٨ يونيو ١٩٥٦ انزل من على سارية الرئيس الراحل جمال عبد الناصر

ورفع العلم المصرى بعد جلاء آخر جندى بريطانى عن تراب مصر بعد احتلال دام ٧٤ عامًا .
وفى الشمال الشرقى لمدينة بورسعيد وبعد احتلال انجلترا لمصر فكر الإنجليز فى انشاء مستشفى انجليزى لعلاج رعاياهم والإنجليز المارين بالقناة . ففى لندن تأسست جمعية لهذا الغرض سنة ١٨٨٥ برئاسة Lady Strangford وقامت بشراء الأجهزة الخاصة بالمستشفى فى لندن سنة ١٨٨٧ تم شحنها لبورسعيد وبعد الانتهاء من انشاء تلك المستشفى وجهت الدعوة للكونتيسة سترا نجفورد لحضور حفل افتتاح المستشفى التى اهدتها الحكومة المصرية الأرض غير أن الموت داهمها أثناء إبحارها على ظهر الباخرة لويزيانا . وعند الافتتاح قرر مجلس الادارة اطلاق اسم الكونتيسة على المستشفى والتى عرفت بالمستشفى الإنجليزى القديم.

وفى سنة ١٩١٢ شرع فى بناء مستشفى إنجليزى أكبر بتشجيع من اللورد كتشنر واشرف على جمع التبرعات لتلك المستشفى الجديدة Sir Charles Fremantle وتم الاحتفال بافتتاحها فى الثامن من نوفمبر ١٩١٥ فى حفل بسيط نظراً لقيام الحرب العظمى ، وتولى ادارتها الماجور داڤيد هيرالد كينارد بشارع كتشنر (٢٣ يوليو) وسلمتها القوات البريطانية بعد جلاءها فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ للقوات المسلحة المصرية باعتبارها مستشفى عسكرى .

الرعايا البريطانيون

كان يطلق على الرعايا البريطانيين بالحماية البريطانية ومن هؤلاء :

١- المالطية Maltese

وهم أبناء جزيرة مالطة وكانت لهجتهم قريبة من العربية بل فيها الكثير من العربية.

وكانت لهم السطوة والنفوذ فى داخل المجتمع البورسعيدى وبين الجاليات الأجنبية فهم حماية للدولة المحتلة لمصر ويكفى خير دليل حكاية الحمار والمالطى الذى ماطل الحمار فى سداد أجرته فى الاسكندرية سنة ١٨٨٢ وانتهى الأمر بقتل الحمار للمالطى فما كان من انجلترا إلا أن احتلت مصر فى سبتمبر ١٨٨٢ ولمدة ٧٤ عامًا .

ويعتبر الدكتور جوزيف هيربرت زارب أقدم شخصية مالطية وطأت قدماها أرض قناة السويس وأرض بورسعيد فهو من مواليد مالطة ١٨٢٧ وعين منذ ١٨٥٩ بوظيفة رئيس أطباء ديوان الصحة وبعدها التحق بخدمة شركة قنال السويس كطبيب أول.

قام ببناء ڤيلا على أراضى طرح البحر بشارع توفيق (عرابى) وأطلق عليها ڤيلا ايڤون ثم حولها ورثته إلى بنسيون راقى ، قمة فى النظام والنظافة وكان يقدم وجبة الافطار لرواده ويقوم بغسل وكى الملابس لهم وفيه مكتبة لقراءة الكتب والصحف الانجليزية والفرنسية كذا تقديم دروس لتعلم تلك اللغتين وباعتبار أسرة زارب من رعايا الأعداء عام ١٩٥٦ فتم استيلاء الحكومة عليها وتحويلها لادارة للتعويضات للمضارين من جراء الغزو البريطانى الفرنسى .

كما كان لتلك الجالية «نادى المكابى» بشارع عبادى بجوار مستشفى الدلڤراند.

وكانت مقاولات جمع القمامة فى حى الافرنج يتولاها مقاولون ملطيون وينقلوها خارج المدينة فى الجهة الغربية منها ويقومون بتربية الخنازير عليها ويقومون ببيع لحومها للسفن العابرة للقناة وأثروا من وراء ذلك ثراء فاحش .

وكان نادى إيبيس Epise أشهر نواديهم الرياضية وبالأخص كرة القدم وكانت لهم Malta House بشارع دى ليسبس والسلطان عثمان (سعد زغلول والجمهورية) تقام فيه حفلاتهم الخاصة والعامة وهذا خلاف Maltese House الموجود بشارع أوچينى (بجوار سينما ماجستيك) وكان يحتفل فيه بالعيد الوطنى المالطى فى ١٥ أغسطس من كل عام بحضور Mr. Carvana قنصل بريطانيا فى بورسعيد فى نهاية الأربعينيات من القرن العشرين ويمتد الاحتفال بالعيد الوطنى المالطى بكنيسة سانت أوچينى ، وكانت مدام Zammit من أشهر عازفات البيانو التى كانت تقدم كونشرتات موسيقية من معزوفاتهم فى مثل تلك الأعياد.

كما كان لتلك الجالية نادى للتجديف Rowing على الشاطئ الشرقى للقناة بمدينة بور فؤاد ومديره المستر كروانا قنصل بريطانيا . وأشهر العائلات المالطية جرانة (يمتلك توكيل ملاحى) وبودچى (مقاول أشغال كهربائية) وبوهجير المشهور عند أهل بورسعيد بأبوحجر (مقاول أدوات صحية) وڤيللا وبونتشى وسليبيد وكانت لهم أملاك فى أرقى مواقع بحى الافرنج.

٢- الهنود :

كانت الهند تعتبر درة التاج البريطانى إلى أن استقلت عن بريطانيا فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧ وأصبحت جمهورية من ٢٦ يناير ١٩٥٠ وكان الهنود يعملون بحارة على السفن

البريطانية وكانوا يشتغلون بتجارة العطور والمنسوجات الحريرية والتحف المصنوعة من العاج والمشغولات الفضية والأحجار الكريمة وكان أشهر هؤلاء Chellaram , Dialdas وكانت تفوح من محلاتهم أذكى أنواع روائح البخور.

وكان للجالية الهندية نشاط فى استقبال كبار الضيوف الهنود المارين بقناة السويس.

ففى ٣١ أكتوبر ١٩٣٨ تم استقبال الزعيم الشاب جواهر نهرو رئيس حزب المؤتمر بالهند وذلك عند عودته من لندن عائداً لبلاده (أصبح رئيس وزراء الهند فى الخمسينيات من القرن العشرين وقطب من أقطاب عدم الانحياز) .

ومرور كريشنان مينون سكرتير العلاقات الخارجية الهندية لقناة السويس فى ١٠ مايو ١٩٥١ (أصبح وزيراً للخارجية الهندية أيام الرئيس نهرو) . واستقبال الدكتور Inderjeet Singh الطبيب النفسى الهندى لحضور مؤتمر الطب النفسى فى نيويورك ممثلا عن الهند فى ١٥ مايو ١٩٥١ على الباخرة Corfu واستقبال العديد من مهراجات الأقاليم الهندية كالمهراجا Nabha, Palampour .

وبرع الهنود فى ألعاب الحواة والسحر والشحوذة وكانوا يقومون بعرض فنون حرفتهم المتوارثة والتى لايعرف أسرارها إلا أفراد العائلة على ركاب السفن المارة بالقناة وأشهر هؤلاء الساحر الهندى Alla .

وفي مساء السبت ١٦ ديسمبر وصلت إلى بورسعيد على ظهر الباخرة Canton التابعة لشركة P& D فرقة الرقص الهندي الشهيرة Darpana . برئاسة الراقصة الشهيرة Mrinalini Sarabhai وتتكون من خمسة عشر راقصًا وعازف موسيقى.

٣- القبارصة :

وهم أبناء جزيرة قبرص وكان أغلبهم يمتلكون الخمارات والبارات والمقاهى .

٤- أبناء عدن والصومال البريطانى فباعتبارهم من أصول عربية فتجمع أغلبهم فى أوائل قرية العرب عند شارع محمد على الحد الفاصل بين مدنيتين المدنية الشرقية والمدنية الغربية.

ومن أشهر العائلات الصومالية عائلة سمنطر وله مسكن كبير يطل على شارع محمد على.

ومن أشهر عائلات أبناء عدن عائلة العدنى وهؤلاء تمصروا بطول الاقامة وانصهروا فى بوتقة المجتمع البورسعيدى .

الجالية الأمريكية

كان تعدادها قليل بالنسبة للجاليات الأجنبية إلا أن لهم نشاطًا فى تجارة المواد البترولية وعلى رأسها شركة شل وڤاكوم سكونى . وتم بناء مستودعات بترولية ضخمة فى منطقة الرسوة جنوب بورسعيد وظهر فى الأفق أهمية تلك التجارة للسفن العابرة للقناة بعد الاستغناء عن الفحم فى تشغيل آلاتها وإحلال الموادالبترولية محلها .

وتبع تلك الشركات نوادى أهمها نادى شركة شل ببورفؤاد ، وفى أغسطس ١٩٤٩ تم عرض فيلم سينمائى بعنوان البترول وأهميته العالمية وقام بالتعليق Mr. Clark بل كان لتلك الجالية نشاط ثقافى ، فتم افتتاح معرض للكتب العلمية التى تصدر بالولايات المتحدة خلال الفترة من ٧-٩ نوفمبر ١٩٤٩ بلوكاندة البيت الحديد .

كما كانت هناك المكتبة الأمريكية بشارع محمود صدقى خلف حديقة الكازينو بالاس وكانت الاستعارة مسموح بها . ومن الأنشطة الثقافية المبكرة للجالية الأمريكية فى بورسعيد مدرسة بنايل للبنات بشارع الغربية (٢٣ يوليو) والغازى مختار وتم افتتاحها سنة ١٨٩٧ وكانت معروفة عند أهل بورسعيد بمدرسة الأمريكان .

وكانت القنصلية الأمريكية تحتل موقعًا ممتازاً على ميناء بورسعيد حيث دأب قنصل أمريكا على استقبال كبار شخصيات بورسعيد فى الأعياد القومية الأمريكية وكان أهم تلك الأعياد عيد الاستقلال فى ٤ يونيو من كل عام ، وكان الاحتفال بمرور ١٧٥ على استقلال أمريكا فى يونيو ١٩٥٠ وكان على رأس المحتفلين قنصل أمريكا M. Johnson كذا الاحتفال بذكرى ميلاد جورج واشنطون . واستلم قنصل أمريكا هدية الرئيس الأمريكى هارى ترومان للملك فاروق بمناسبة زواجه وهى عبارة عن ڤازة نادرة ، وقد وصلت الهدية على الباخرة President Arthur فى ٢٧ مايو ١٩٥١ . وتم إطلاق اسم أمريكا على الشارع الذى يلى شارع الميناء وترسل المجلة الشهيرة مندوبها المصور Joseph Baylor Robert فى ٢١ مايو ١٩٥١ وهى مجلة National Geographio Magazin ليعد موضوعا مصوراً عن مدينة بورسعيد ومينا ءها .

وقرب نهاية الحرب العالمية الأولى أرسلت الولايات المتحدة الأمريكي بأساطيلها البحرية لمساندة انجلترا وفرنسا حيث قامت بدوريات فى القناة من الشمال حتى الجنوب وأهم تلك القطع البحرية .

Illinois , Kansas, Rhode Island, Lovsiana, Virginia, Connecticut, Kentucky, Wisconsin.

الرعايا الألمان

وكانوا قلة فى بورسعيد إلا أنه كان لهم تمثيل قنصلى فى بورسعيد، فالقنصلية الألمانية كانت فى عمارة محمد حسنين بك لهيطة- المطلة على الميناء وبها شركة الفحومات الألمانية .

وفى سنة ١٨٩٠م هرع الرعايا الألمان لتحية السفينة القيصر ويلهام العابرة للقناة.

وكانت تجارة البيرة فى يد الألمان وكان أشهر محلاتهم بميدان دى ليسبس (ميدان المنشية أو سعد زغلول حاليًا) بمنزل أحد اليونانيين ويدعى مانولى استماتيو (قبطان بشركة قنال السويس فى أوائل القرن العشرين) .

وقد تأثرت أملاك وأموال الرعايا الألمان بقيام الحربين فتم تعيين حارس عليها لحين انتهاء الحرب فخلال الحرب العالمية الثانية تم تعيين الأستاذ محمد السيد سرحان (والد المحافظ السيد سرحان) وعضو مجلس النواب عن الحزب السعدى حارسا على أموال الرعايا الألمان فى بورسعيد ١٩٣٩ لامانته ونزاهته . وفى يونيو ١٩٥٢ وصل أول سفير لألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية لميناء بورسعيد الهرفون Henting .

الرعايا الايرانيون

ويطلق عليهم أهل بورسعيد العجم ، وقد اشتهروا بتجارة السجاد وكان أشهر محلات هؤلاء أحمد يزدى بشارع السلطان عثمان (الجمهورية حاليًا) ومن أولاده أشهر أطباء بورسعيد فى الخمسينيات روشن يزدى إلا أنه رحل إلى خارج البلاد بعد عدوان يونيو ١٩٥٦ وشغل أحمد بك يزدى منصب قنصل ايران فى بورسعيد.

وفى يونيو ١٩٥١ تم تأسيس شركة مصرية ايرانية فى بورسعيد للتصدير والاستيراد ومقرها بشارع أوچينى (صفية زغلول) بالقرب من شارع فؤاد (الجمهورية) بملك اليونانى الياديس من الشركاء ميرزا أسد الدين شيرازى ومحمد جمال الدين شيرازى (ايرانيان) وعبد المنعم عبد الرازق حجاب (مصرى) .

الجالية النمساوية

أول نمساوى يصل لبورسعيد كان Albert Cohen ولمزيد من التفاصيل عنه نرجع إلى المرجع اليونانى ذكريات وأحداث عن مدينة بورسعيد لديمتريوس خالدوبيس المطبوع فى مطبعة متزانى بالاسكندرية سنة ١٩٣٩ ، ص٥٢، ٥٣ ، وفى ذات الوقت سوف نرى من السرد كيف كانت المشقة التى يتحملها الأجانب المعدمين فى الوصول لميناء بورسعيد ويعيشون معيشة بسيطة ثم ينتهى بهم الأمر إلى تمليكهم كبريات المؤسسات الاقتصادية التى تدر عليهم دخلاً عظيمًا يستثمروه فى تملك العقارات فى البقع الهامة من بورسعيد .

« ألبرت كوهين ... اتذكر ما أخبرونى عنه أنه يهودى نمساوى وصل فى شبابه إلى مناطق الحفر فى بورسعيد سنة ١٨٦٢ عن طريق ميناء تريستا الايطالى وكان السفر بالبحر شاق فى تلك الأيام ويتحمل المسافر مصاعب كثيرة فى رحلة قطعها الوابور فى عشرين يومًا وبوصوله رسى الوابور أمام الشاطئ لأن ميناء بورسعيد لم يكن معد لاستقبال السفن وأنزل ركابه القلائل عن طريق أقفاص إلى الفلايك المنتظرة لنقلهم لشاطئ بورسعيد ، ولما كان ألبرت كوهين قد نال قسطًا من التعليم ويجيد عدة لغات فقد عينه دى ليسبس كمحاسب فى شركة قنال السويس وأصبح من المقربين له وخلال عمله هذا كسب مكاسب كثيرة من الفرنسيين وكان له الفضل فى تأسيس شركة اللويدز النمساوية فى بورسعيد وتولى منصب قنصل النمسا فى بورسعيد وساعد كثير من النمساويين والحقهم بالعمل فى شركة قنال السويس وبالأخص كمرشدين وبحارة بجوار اليونانيين أبناء جزيرة كاسوس والجزر اليونانية الأخرى . كما أشتهر النمساويون بأنهم فنيون فى الأعمال الدقيقة ، لقد عاش البرت كوهين طيلة السبع سنوات الأولى وحتى افتتاح القناة داخل الخيام مع زوجته كباقى موظفى شركة القنال من الأوربيين وكثيراً ما كان يسهر الليالى خوفًا من الفئران الكبيرة وحيوان النمس المنتشرة فى البقع الصحراوية فى مناطق الحفر .

ورغم أنه توفى شابًا عن سن ٥٤ سنة إلا أنه ترك أبناءاً ناجحين أعرف منهم إبنه Mario Cohen الذى عمل مديراً بالشركة الملاحية الكبرى Worms لمدة ستة وأربعين سنة أما إبنه الثانى Joseph Cohen فقد عمل بالتجارة وشريك فى الشركات الملاحية أما ابنته البكر Eugenie فتعتبر أول أوروبية تولد فى صحراء منطقة القنال سنة ١٨٦٣ وتم تعميدها بالكنيسة الخشبية التى بناها دى ليسبس وشهود التعميد اثنين من مديرى شركة القنال إلا

أنها توفيت بعد ٣ و ٤ سنوات من ولادتها لاصابتها بالدسنتاريا ...» إلى هنا انتهى كلام وسرد خالدويبس . ومن عائلة كوهين أحد مديرى بنك كريدى ليونيه سنة ١٨٩١ وهو Elie Cohen لقد عاصر البيركوهين حفلات افتتاح قناة السويس واشتراك امبراطور النمسا والمجر Franz Josef الذى أطلق اسمه على أهم شوارع بورسعيد المطل على ميناء بورسعيد مباشرة ، وبقيام الحرب العالمية الأولى وبجلسة مجلس بلدى بورسعيد المنعقدة ١٩ يونيو ١٩١٥ تم اطلاق اسم السلطان حسين كامل على هذا الشارع لاشتراك النمسا مع ألمانيا فى الحرب.

ويمتاز النمساويون بالهدوء وحب الفنون وبالأخص الموسيقى ، وكان للجالية النمساوية ممثل بمجلس بلدى بورسعيد Emilo Pavievich ومثلهم عن المدة من الرابع من مايو ١٩١٢ حتى السابع من يوليو ١٩٢٣ حيث عين بعدها كوزير روسيا المفوض فى بورسعيد ثم قنصلاً للمجر.

والمسيو امليو باڤيڤتشى ولد أساسًا فى يوغسلافيا وقدم لبورسعيد سنة ١٨٨٤م وتخصص فى تجارة الاخشاب وكون من ورائها ثروة طائلة استثمرها فى بناء العمارات الشاهقة .

واستقبلت الجالية النمساوية فى أول يناير ١٩٥٢ الصحفى النمساوى الشهير الدكتور Adam Wamdruzka موفد من جريدة Die Press فى زيارة رسمية لمصر .

الجالية اليهودية

وهى تنقسم إلى قسمين يهود شرقيين ويهود غربيين، فاليهود الشرقيون احتلوا تجمعًا فى القسم الجنوبى الغربى لحى الافرنج المتاخم لقرية العرب، عرف هذا التجمع بحارة اليهود وكانت حارتان لليهود.

١- حارة اليهود القديمة متمركزة بشارع التجارة (النهضة) بالقرب من شارع محمد على حيث بنى فيها أقدم معبد يهودى أطلق عليه معبد سوكات شالوم قام ببنائه التاجر العدنى اليهودى مناحم مدشا بتقاطع شارع النهضة والمشرق وأهداه لجمعية التوراة الاسرائيلية، كان لها مقر بشارع النيل (القسم الشمالى فى شارع الجمهورية) ثم تحول هذا المعبد لليهود الإسبان بعد بناء معبد جديد لليهود.

٢- حارة اليهود الجديدة بشارع أوجينى بالقرب من محمد على وشارع الوكيل الذى يتقاطعه مع شارع أفريقيا ، قام تاجر البفتة والكتان Bennin عدنى يهودى ببناء معبد Mo-cheh Ohiel سنة ١٩١١ والحق بجواره مدرسة لليهود واعد فوقها منزل للحاخام .

وكان اليهود الشرقيون أغلبهم تجاراً للذهب والفضة والمصنوعات بشارع السلطان عبد العزيز (التجارى حاليًا) وكانوا مشهورين باقراض المعوزين نظير رهن مصاغهم وآنيتهم النحاسية بفوائد عالية أو ما يعرف عند أهل بورسعيد (الفايظ) ، وأشهر الجواهرجية اليهود داڤيد راحمين وشالوم منصور وسليم مناحم ، أما نسيم باروخ فكان تاجر سجاد من ايران وعميد الجالية اليهودية لجبير ليڤى (لليهود الشرقيين) .

أما اليهود الغربيون فكانوا ذو ثراء فاحش ومنتشرين داخل حى الافرنج وأغنى هؤلاء Benderli (يهودى ايطالى) أسس مع ماكس موشلى (يهودى فلسطينى) أكبر تجمع تجارى فى الشـــرق الأوسط Simon Arzt سنة ١٨٦٩ وهو يطل على القناة مباشرة على رصيف فرانسوا جوزيف (شارع فلسطين حاليًا) وكان السواح من ركاب البواخر يرتادونه فيجدون فيه صالون الحلاقة وقسم لتصليح الساعات وقسم لأدوات التصوير وتحميض الأفلام وقسم لمسح الأحذية.

وكان اليهود الغربيون أصحاب توكيلات ملاحية ومكاتب لخدمات البواخر بحى الافرنج ومديرى المحلات الكبرى لحنكتهم التجارية فكان David Costi مدير لأشهر المحلات Etam بشارع التجارة (النهضة) وأهم نواديهم نادى الشبيبة اليهودية بشارع صلاح الدين وتوفيق (عرابى) ورئيسه الفخرى عميد الجالية اليهودية (من الغربيين) Arone Gourevitch وكان يمتلك مطبعة كبيرة بشارع محمد محمود . أما رئيسه الادارى E. Rozanes وأشهر أعضائه Robpert Arie و E. Azori وكان مشهور عن هذا النادى ألعاب القمار والبريدج حفل للبوريم .

وكان الدكتور Carmn من أشهر أطبائهم فى بورسعيد .

وأهم جمعياتهم بجانب جمعية التوراة السابق ذكرها كان هناك جمعية أخرى باسم هرزاليا .

وكانت لهم مقابرهم الخاصة فى أقصى غرب المدينة.

وبعد قيام حرل فلسطين سنة ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل ومن بعدها قيام ثورة يوليو المباركة سنة ١٩٥٢ بدأ رحيل كثير من يهود مصر خارجها ، أما وجودهم بعد حرب سنة ١٩٥٦ يكاد يكون معدوما .

مراجع البحث

١- موسوعة تاريخ بورسعيد جزء أول جزء ثانى

إعداد / ضياء الدين حسن القاضى

٢- محاضر مجلس بلدى بورسعيد

٣- جريدة Progres Egyptien (صباحية)

جريدة Bourse Egyptienne (مسائية)

من سنة ١٩٤٧ حتى سنة ١٩٥٢ مقالات الأستاذ كمال مروان مراسليها فى بورسعيد وكان ينشر فيها الأحداث التى تهم الجاليات الأجنبية فى بورسعيد وأصبح عضو مجلس أمة فى أول مجلس نيابى بعد قيام الثورة وتم انتخابه فى يونيو ١٩٥٧ .

٤- بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩- ١٨٨٢) الدكتور زين العابدين شمس الدين نجم .

٥- مدن القنال فؤاد رفج

٦-٦ الأطلس التاريخى لبطولها شعب بورسعيد سنة ١٩٥٦ .

دكتور مقلاتى عبدالله *

موقف المغرب من دعم الثورة الجزائرية

١٩٥٤ - ١٩٥٨

إن اندلاع الثورة الجزائرية الذى جاء بعد انتشار المقاومة المغربية وتطور المشكل المغربى أعاد من جديد مسألة خلق جبهة كفاح موحدة تحقق طموح الوطنيين بالقطرين الشقيقين وهو ما تجسد سنة ١٩٥٥ بالتحام المقاومتين الجزائرية والمغربية ، وإنشاء لجنة تنسيق بينهما كان لها تأثير فى تجسيد الاستقلال المغربى، وأمام ذلك لجأت الإدارة الفرنسية للاتفاق مع القيادة المغربية على مشروع الاستقلال الصورى الذى تم بموجبه عودة الملك محمد الخامس من منفاه وحصول المغرب على استقلاله ، وتفرغت الحكومة الفرنسية بعدها لإخماد الثورة الجزائرية وعزلها عن الدعم الذى تلقاه من المغرب وتونس، وانتهجت سياسة التعاون لكسب موقف البلدين لأطروحة الجزائر الفرنسية.

وأمام المواقف الصعبة التى واجهتها الحركة الوطنية المغاربية وتزايد الاهتمامات القطرية الضاغطة للحكومة المغربية فإن القضية الجزائرية ستلقى اهتماما سياسيا ومساندة شعبية وستفرض تأثيراتها المباشرة على المغرب حكومة وشعبا ، وعلى طبيعة العلاقات الفرنسية المغربية التى ستواجه تأزما بسبب المشكل الجزائرى ، وستعمل جبهة التحرير الوطنى للاستفادة قدر الإمكان من الاستقلال المغربى لتفعيل نشاطاتها ودعم الكفاح التحررى انطلاقا من الأراضى المغربية، ووجدت نفسها فى مواجهة مواقف مغربية متباينة فى مساندة الثورة الجزائرية يمكن أن نميز فيها ثلاثة قوى ظهرت خلال الفترة المدروسة وهى :

- حركة المقاومة المغربية التى أكدت تدعمها للثورة الجزائرية وضرورة استكمال السيادة المغربية.

---

* قسم التاريخ ، جامعة ادرار

- الحكومة المغربية مشكلة من حزب الاستقلال وإلى تيارات سياسية أخرى وعناصر موالية للقصر، أكدت على مؤازرتها للثورة الجزائرية فى إطار اهتمامها بالمسائل القطرية.

- القصر ممثلا فى الملك محمد الخامس وولى عهده الأمير الحسن، وقد عبر عن دعمه المادى والمعنوى للجزائر كلما سمحت الظروف(١).

وهذه القوى المتباينة والمرتبطة بمصالح وضغوط جعلت من مهمة دعم الثورة الجزائرية صعبة ومتباينة ، وذلك في وقت أكد فيه تواصل الحرب الجزائرية واستمرار العدوان الفرنسى وضغوطه المستمرة على المغرب اندماج القضية الجزائرية ضمن التصور المغربى الذى ربط بين قضية استقلال الجزائر ومسألة استكمال السيادة المغربية وتحقيق الوحدة المغاربية ، وعليه فإن الموقف المغربى الرسمى سيكون له دور متميز فى التفاعل مع القضية الجزائرية ودعم الثورة الجزائرية ماديا ومعنويا ، وهو ما سنحاول تبينه وتحديد مستوياته على ضوء علاقات الثورة الجزائرية مع المغرب وتوسع حدود نشاطاتها السياسية والعسكرية.

أولا : استقلال المغرب ومطلب دعم الثورة الجزائرية

شكل المغرب موقعا استراتيجيا للثورة الجزائرية بحكم الجوار الجغرافى، ذلك أن طول الواجهة الحدودية ووضعية الكفاح المغربى سمحت للثوار الجزائريين اعتماد قواعد خلفية لها بالحدود المغربية وكسب التضامن الشعبى ، كما أن حزب الاستقلال المغربى أعرب عن مساندته للثورة الجزائرية على لسان زعيمه علال الفاسى(٢)، الذى كانت له اتصالات وتنسيق مع قادة جبهة التحرير الوطنى بالقاهرة ، وتبنى فكرة وحدة الكفاح المغربى الجزائرى(٣) قبل أن يتحقق استقلال المغرب، ومن جهة أخرى أعلن عبد الكريم الخطابى(٤) رئيس لجنة تحرير المغرب العربى مباركته للثورة الجزائرية ورفضه لما آلت إليه الاتصالات الفرنسية المغربية ، داعيا المقاومة المغربية إلى مواصلة الكفاح ومعاضدة الأخوة الجزائريين ، وكان يرى فى قبول الملك محمد الخامس لاتفاقية (أكس - ليبان) طعنة لكفاح شعوب المغرب، وأنه لايمكن أن تنتصر الجزائر وأن تستقل إلا بشمولية الكفاح المسلح كامل الشمال الإفريقى وإزاحة محمد الخامس عن عرش المغرب (٥)، وكان هذا الموقف بقدر ما يعبر عن طموحات شخصية ونزوة خاصة للزعامة فإنه يثير حماس المغاربة ويزجج ضراوة المقاومة المغربية ، فضلا أنه يشكل دعما سياسيا للقضية الجزائرية.

لكن مواقف المساندة التى كانت تتلقاها جبهة التحرير الوطنى بالقاهرة من قادة الحركة الوطنية المغربية لم تكن تعبر عن واقع ما آل إليه الوضع الداخلي للمغرب الأقصى، لأن حزب الاستقلال المغربى وفى غياب زعيمه وتطور الوضع السياسى وافق على الخطوط الأولى لاستقلال المغرب عن طريق المفاوضات ، وأعلن وقوفه إلى جانب الملك ودعا حركة المقاومة إلى توقيف نشاطها الثورى، ولاشك أن نفوذ الحزب بالداخل وتأثير قيادته المحلية جعله يتخلى عن خيار الكفاح المسلح وتنسيق العمل المغاربى المشترك، واهتم أكثر بصوغ أهدافه المرحلية، وهى المشاركة فى السلطة وتحقيق الاستقلال القطرى بأقل الخسائر الممكنة ، لذا فعندما انعقد المؤتمر الاستثنائى لحزب الاستقلال فى ديسمبر ١٩٥٥ لم يتخذ أى موقف بخصوص الجزائر وكرس اهتماماته بالمسائل الوطنية والتنظيم الداخلى للبلاد [٦]، وكان لاتجاه الأمين العام للحزب أحمد بلافريج والقادة المفاوضين تأثير كبير فى ربط مصير الحزب بتوجهات القصر وتحييد التوجهات الوحدوية التى ينادى بها الفاسى والخطابى، فأصبح التوجه الجديد لحزب الاستقلال يفرض حياد المغرب وقطع تنسيق حركة المقاومة المغربية مع الثورة الجزائرية ، وذلك فى وقت كانت جبهة التحرير الوطنى تطمح لمواصلة تنسيق العمل المشترك خاصة فى تمرير الأسلحة وتخفيف ضغط القوات الفرنسية وإتاحة الفرصة للاستفادة من المناطق الشمالية المغربية [٧]، غير أن ضغوط حزب الاستقلال على عناصر المقاومة المغربية جعلت إمكانية الاستفادة من تأييدهم تضمحل شيئا فشيئا حسب ما أكده مسؤول جبهة التحرير الوطنى بالمغرب الطيب الثعالبى[٨]. «لقد ظهر لنا من خلال اتصالاتنا بقيادات المقاومة المغربية أن بوادر شكوك ظهرت لدى حزب الاستقلال من إمكانية الالتحام بين المقاومة المغربية والثورة الجزائرية ذلك الالتحام الذى يفوت على قيادة الحزب الوصول إلى التفاوض مع فرنسا لإيقاف الحرب . وهكذا استطاع حزب الاستقلال أن يفصل بيننا وبين عناصر المقاومة الذين كانوا يتعاونون معنا »[٩].

لقد دعا حزب الاستقلال والحكومة المغربية إلى إيقاف القتال لكن عناصر المقاومة وجيش التحرير المغربى أبدت تحفظاتها وأكدت مواصلة دعمها للثورة الجزائرية ، إذ لم يكن بمقدورها التنصل من التزاماتها المغاربية وإيقاف جهود التنسيق التى باشرتها مع الكفاح الجزائرى، وكان القرار السياسى حازما بعد استقلال المغرب مما اضطر بعض عناصر المقاومة للانضمام إلى جيش التحرير الجزائرى ، وشكل قادة المقاومة بعد انتقالهم إلى الجنوب المغربى عامل ضغط

على الحكومة المغربية بضرورة مواصلة دعم الجزائريين[١٠]، وبذلك استمرت العلاقات بين جيش التحرير الوطنى ورجال المقاومة المغربية ، واستمرت الولاية الخامسة فى الاستفادة من نفوذها بمناطق الريف المغربية لتمرير الأسلحة وتركيز وحدات جيش التحرير واستقبال اللاجئين ، وظلت مناطق الريف مراكز حيوية للجزائريين إثر توسع سلطة الجيش المغربى بها ، خاصة وأن تجربة الكفاح المشترك أرست تضامن الشعب المغربى واستمرارية الدعم والمساندة المقدمة للثورة الجزائرية كما يؤكد عبد الحفيظ بوصوف ، وفى الوقت نفسه أوضح هذا الأخير أن بعض الشكوك تحوم حول مدى تعاون السلطة المغربية وأن هناك مواقف سلبية لبعض العناصر الموالية للاستعمار [١١].

إن سياسة التعاون التى انتهجتها فرنسا مع الملك محمد الخامس كانت تهدف إلى تحييد المغرب وقطع مساعداته للثورة الجزائرية ، وأكدت ذلك بإبقائها لقواتها العسكرية فى المغرب ولنفوذها السياسى والاقتصادى، ولكن استمرار ثورة الجزائر وتركها وحيدة تواجه الاستعمار الفرنسى ليس بالإمكان الاحتراز منه بحكم الروابط والمصالح المشتركة للمنطقة وامتداد نفوذ الثورة الجزائرية داخل المغرب وحجم التجاوب الشعبى معها [١٢]، وهذا ما جعل النظام المغربى يصطدم مع بداية الاستقلال بالموقف الفرنسى المتشدد بخصوص الجزائر، وبالمطالب الجزائرية لدعم الثورة التحريرية .

ولم ييأس مسؤولو جبهة التحرير الوطنى من السياسة الفرنسية التى ولدت استقلال المغرب وحزمت أمرها لعزل الثورة الجزائرية ، فمن الناحية السياسية بات من المستحيل حرمان الجزائر مما حصلت عليه جارتاها ومن جهة أخرى أصبحت الجزائر تواجه لوحدها قوة التكالب الاستعمارى ، غير أنه كان بالإمكان الاستفادة من الوضع الجديد، وتحقيق مكاسب للجزائر تكون أكثر فعالية إذا ما قورنت باستعدادات رسمية لدعم وتسهيل نشاط الثورة بالقواعد الخلفية ، إذا لم تعد الرقابة الفرنسية تشكل خطرا كبيرا كما فى السابق [١٣]، وأبدى المسؤولون المغربيون استعدادهم لذلك، وقد دلت الاتصالات الأولى التى هيأها عبان رمضان مع الملك محمد الخامس عن إمكانية الاستفادة من الاستقلال المغربى [١٤]، وكلف الشيخ خير الدين فى سنة ١٩٥٦ بالإشراف على النشاط السياسى لجبهة التحرير الوطنى ومؤازرة جهود بالصوف فى تمكين نشاط الثورة بالمغرب .

إن التجربة المريرة التى عايشها الملك محمد الخامس فى مجابهة الاستعمار ومواقفه

التضامنية وإيمانه بحتمية الوحدة والمصير المشترك جعلته منذ البداية يعرب عن تضامنه مع الثورة الجزائرية ، ويؤكد على دعمها بشكل سرى حفاظا على علاقات التعاون مع الحكومة الفرنسية، وقد التزم بالبحث عن حلول سلمية للمشكل الجزائرى إيمانا منه أن مصير الشعب الجزائرى هو الاستقلال ، وأدى اهتمامه بالقضية الجزائرية إلى عقد عدة اتصالات مع قادة جبهة التحرير الوطنى، فقد طلب من بوصوف تهيئة اجتماع مع مسؤولى الجبهة بالخارج للتشاور معهم فى القضايا التى تهم الثورة (١٥)، وذكر أحمد بن بلة أنه ذهب لمقابلة محمد الخامس بمدريد فى أبريل ١٩٥٦، وأن اللقاء كان فى منتهى الصراحة ، ووجد الملك مهتما بالقضية الجزائرية وعواقب إيقاف القتال بالمغرب على الثورة الجزائرية ، وقال بن بلة بخصوص نتائج اللقاء : «انتهت محادثاتنا بنتائج هامة، لقد وعدنا محمد الخامس فى غيبة المساعدة العسكرية المباشرة بمساعدات كبرى لقد أعطانا فيما أعطانا تأكيدا بأن تكون الحدود المغربية فى كل لحظة بالنسبة لنا حدودا صديقة وممكنة العبور دخولا وخروجا للأسلحة والرجال »(١٦). وكانت رغبة الملك من خلال هذا اللقاء الاطلاع على مواقف الجزائريين ومطالبهم وإمكانية تقديم مساعدات سرية وتسهيلات غير معلنة، وذلك حتى لاتثير انتباه الفرنسيين ولاتسبب مشاكل لسياسة التكافل التى تسير وفقها العلاقات الفرنسية المغربية.

وإن تخلى حزب الاستقلال عن مبادئ التعاون المغاربى المشترك وانصياع عناصر جيش التحرير المغربى مرغمين للتعاون مع السلطات المغربية جعل جبهة التحرير الوطنى تقرر خلال مؤتمر الصومام تغيير استراتيجية علاقاتها المغربية ، وقد تأكد لها أن حصول الاستقلال المغربى جاء نتيجة للتغير المفاجئ فى السياسة الفرنسية الهادفة إلى «منع تكوين جبهة ثانية حقيقية لإنهاء الاتحاد بين الكفاح المسلح فى الريف بالمغرب وفى الجزائر» ، ولكن قوة التضامن الشعبى للشمال الإفريقى فرضت على قادة البلدين الشقيقين تونس والمغرب الوقوف إلى جانب القضية الجزائرية المندمجة فى القضيتين المغربية والتونسية ولن يكون هناك فى نظرها أى معنى لاستقلال المغرب وتونس ما دامت الجزائر لاتزال مستعمرة(١٧). وتأكدت هذه الحقائق باقتناع شعوب المغرب العربى بأن الكفاح المشتت ضد عدو مشترك مآله الفشل ، وقد بدى لبعض قادة حزب الاستقلال أن الاستقلال المغربى المتوصل إليه لايزال ناقصا وأن المعركة لاتزال مستمرة ، وشكلت هذه المواقف بتأثيرها الشعبى والسياسى ضغوطا على الحكومة المغربية لإبداء تضامنها مع القضية الجزائرية (١٨).

ثانيا : محمد الخامس ودوره فى تكريس الدعم للثورة الجزائرية

أكد الملك محمد الخامس انشغاله بتطور المشكل الجزائرى وأوضح أن الجزائر ستبقى مشكلة الشمال الأفريقي ومحل اهتمام المغرب إلى أن تجد لها فرنسا حلا عادلا ، وأبدى استعداد بلاده للمساهمة فى إيجاد حل سلمى وتقريب وجهات النظر بين طرفى النزاع الفرنسى والجزائرى ، وكان الملك محمد الخامس باتجاهه المسالم للسلطات الفرنسية يسعى لتحقيق الاستقرار والتعاون وفى نفس الوقت يقدم دعمه للمسؤولين الجزائريين وتضامنه مع الشعب الجزائرى ، وذلك فى غياب التأييد المباشر لأهداف ومبادئ جبهة التحرير الوطنى نتيجة بعض الاختلافات الايديولوجية ، وقد أكد بأن المساعدة التى يمكن أن يؤديها المغرب المستقل هى أن يساعد على إيجاد حل للقضية الجزائرية ، وأن أفضل خدمة يمكن أن يؤديها للجزائريين ولفرنسا هى أن يساعد على تسوية المشكلة الجزائرية بوساطته [١٩]، ولم يستكن ولم يهدأ له بال رغم أن فرنسا ظلت متحفظة على مواقفها باعتبارها القضية الجزائرية شأنا فرنسيا داخليا.

وانتهجت جبهة التحرير الوطنى سياسة التقارب والتحالف مع المغرب للحصول على تعاون ودعم السلطات المغربية، وقوبلت من المغرب حكومة وملكا بمواقف إيجابية، فقد نددت الحكومة المغربية بسياسة القمع والاضطهاد الفرنسية بالجزائر ودعت إلى وضع حد لإراقة الدماء ، وإلى حل القضية الجزائرية سليما [٢٠]، كما استنكر محمد الخامس تواصل الاضطهاد الذى يتعرض له الجزائريون ، وأكد أن مشكلة الجزائر تقف عائقا أمام سياسة التعاون المغربية-الفرنسية قائلا : «إنى أجد نفسى مضطرا إلى أن أقول لكم بأن كل ما نحاوله من مفاهمة مع فرنسا سوف يكون ضعيفا ولا أساس له ما دام الوضع الراهن بالجزائر»، وطالب الملك بإيجاد حل سلمى للمشكل الجزائرى يحقن الدماء ويحد من اضطهاد الشعب الجزائرى، وأوضح أن الاحتراز والحياد الذى تطلبه فرنسا من المغرب لايمكن تحقيقه لأن الشعب المغربى لايمكنه السكوت عما يطال الشعب الجزائرى من اضطهاد وتعسف [٢١].

وقد ارتكز التوجه السياسى للملك أساسا على إيثار الحلو السلمية وأكد بذلك على ضرورة التوصل إلى حل سياسى بدل الخيار العسكرى الذى يتوجب إيقافه ، ومن هذه الوجهة فهو يلتقى مع نظرة بور قيبة لكنه يتحفظ عن تقديم مشروع جاهز أو برنامج لحل المشكلة الجزائرية، فقد أوضح أن مهمته ومساعيه تكمن فى تقريب وجهات النظر بين فرنسا وجبهة التحرير

الوطني دون التدخل في شؤون الجزائريين . وفى هذا الإطار كانت اتصالاته حثيثة مع المسؤولين الجزائريين خاصة بعد أن أبدت حكومة غي موليه ليونة في موقفها وأرسلت مبعوثيها للقيام بمشاورات مع مسؤولي جبهة التحرير الوطني، فأعرب الملك عن أمله في وضع حد لحرب الجزائر، وأكد ذلك في خطابه التاريخي بوجدة في سبتمبر ١٩٥٦م، إذ أشار إلى إمكانية حل المشكل الجزائرى والتوصل إلى تسوية سلمية بدل سياسة الاضطهاد والدماء ، وأنه : «يمكن من بناء علاقات قويمة بين الطرفين قوامها تلبية مطامح الشعب الجزائرى في الحرية واحترام المصالح العليا لفرنسا وضمان مصالح الفرنسيين ..»(٢٢) وبادر محمد الخامس إثر هذا الخطاب للإعلان عن مساندة حكومته ووقوفها إلى جانب القضية الجزائرية في الأمم المتحدة ، وأرسل الأمير الحسن مبعوثا شخصيا له لإطلاع الحكومة الفرنسية على انشغالات بلاده بخصوص المسألة الجزائرية ، والتعرف على الموقف الفرنسي وحدود تنازلاته ليتمكن من تقريب وجهات نظر الطرفين الفرنسي والجزائرى .

وإثر التعرف على مدى استعدادات الحكومة الفرنسية للتفاوض اتصل بقادة جبهة التحرير الوطنى المجتمعين في مدريد ، وكانوا بدورهم يرغبون في إطلاع مسؤولي البلدين تونس والمغرب بعروض المباحثات الفرنسية ، وبحث سبل التنسيق معهما في إطار التضامن الشمال الإفريقي، فلبوا دعوة محمد الخامس لزيارة المغرب قبل التوجه إلى عقد ندوة تونس المقررة في ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦ ، واستقبل مسؤولو جبهة التحرير الوطني رسميا من قبل الملك، وأجروا معه مشاورات قبل موعد مؤتمر تونس ، وقد أثارت مواقف التأييد الرسمية هذه السلطات الفرنسية بالجزائر ، وأظهرت حكومة غي موليه تحفظاتها من هذه الاقتبالات التى قوبل بها الجزائريون في الرباط (٢٣)، ولكن مبدأ الاتصالات الموافق عليه من طرف الحكومة الفرنسية جعل الملك محمد الخامس يعتقد أن جهود الوساطة التى سيباشرها رفقة الرئيس بورقيبة والقادة الجزائريين في تونس أمر يستحق التشجيع ويساعد على بناء علاقات تعاون بين فرنسا والشمال الأفريقي ، وهذا ما تأكد منه الأمير الحسن وبورقيبة في باريس، وهذه الجهود كلها تعرضت لعرقلة خطيرة بعملية القرصنة الفرنسية للطائرة المغربية المقلة للزعماء الجزائريين يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦ ، وترتب عن ذلك عواقب حادة ليس على الجزائريين فحسب بل على كامل الشمال الأفريقي ، إذ أثارت ردود استنكار المغرب ملكا وشعبا فضلا على أنها وضعت حدا لمساعي الحلول السلمية للمشكل الجزائرى (٢٤)، فقد أثارت حادثة اختطاف زعماء جبهة

التحرير الوطني بهذه الطريقة البوليسية استياء عميقا في المغرب وأعلن الملك محمد الخامس من تونس أن عملية الاختطاف هي بمثابة تهجم مباشر على المغرب، وخرقا لجميع المواثيق المبرمة مع فرنسا . وطالب بإطلاق سراح المختطفين وإعادتهم دون قيد ولاشرط، وفور عودته إلى المغرب قام باستدعاء السفير المغربي بباريس وقطع العلاقات الديبلوماسية مع فرنسا. وهدد برفع القضية رسميا إلى محكمة العدل الدولية في حالة عدم إذعان فرنسا لإطلاق سراح المختطفين (٢٦).

وكان رد الفعل الشعبي أوليا ومؤلما، وذلك تعبيرا عن التهجم الذي تعرضت له بلادهم والصفعة التي وجهت لضيوف الملك، وأدى السخط الشعبي الذي لم تستطع الحكومة المغربية التحكم فيه إلى شبه إضراب عام ومظاهرات عنيفة صبت جام غضبها على الوجود الفرنسي بالمغرب، فأتلفت ممتلكات الفرنسيين وبطشت بأعداد من المستوطنين، وأصدر حزب الاستقلال والمنظمات النقابية بلاغات تعبر عن سخطها من عملية اختطاف الزعماء الجزائريين وتطلب بإطلاق سراحهم (٢٧). وكذلك [illegible] الصحف الرسمية و[illegible] الغضب الشعبية على استنكار الاستعمار [illegible] الجزائريين والمغربيين، وعلى التضامن اللامحدود مع كفاح الشعب الجزائري (٢٧). وأكدت جبهة التحرير الوطني أن حادثة الاختطاف أبانت عن حقيقة السياسة الفرنسية بالمغرب، وفرضت أكثر من [illegible] على المغرب حكومة وشعبا لكفاح الجزائر [illegible] بأن الكفاح الجزائري ضرورة عاجلة، وقد صرح الملك محمد الخامس [illegible] العلاقات الفرنسية المغربية [illegible] إلى أن عملية الاختطاف هذه [illegible] أكثر خطورة بالنسبة [illegible] من حادثة [illegible] العربي [illegible] أخرى [illegible] العلاقات الفرنسية [illegible] إصلاح ما أفسدته فرنسا [illegible] الجو [illegible] الشمال الإفريقي (٢٨).

وبالتالي عمقت هذه الحادثة تطور المشكل الجزائري طابع التشدد وانعدام الثقة بدل الاعتدال والمصالحة التي كان يمكن لمؤتمر تونس المغاربي أن يساهم فيها. ولم تتأكد وجهة جبهة التحرير الوطني فحسب بل تدعمت بموقف الرافضين لسياسة التعاون مع فرنسا والداعين لمساندة الثورة الجزائرية، لأنهم اقتنعوا بأن مصير استقلال المغرب مرتبط بمصير الجزائر أكثر مما هو مرتبط بالمواثيق المبرمة مع فرنسا (٢٩)، وقد أكد أحد قادة جيش التحرير المغربي هذه الحقيقة بقوله: «دعونا الجزائريين لندوة تونس التاريخية لنلقنهم دروسا، لكن انقلب الأمر فالجزائريون هم

الذين أعطوا دروسا للمغاربة والتونسيين، لقد كنا نقول لهم كيف لاتتهيأون لفعل السلم مع فرنسا والآن هم يقولون لنا ماذا يمثل الاستقلال الذى تزعمون أنكم أحرزتم عليه فالعالم أصبح يعرف أنه لا توجد قضية الجزائر أو تونس أو مراكش بل هناك المغرب العربى سنكون جميعا مستقلين أو نكون جميعا فى حرب »[٣٠].

لقد اجتهدت جبهة التحرير الوطنى فى الاستفادة من طاقات التأييد والمساندة التى فجرتها هذه الحادثة، وإن كانت تدرك أن مواقف الحكومة المغربية ستكون لصالح التضامن مع الجزائر إلا أن سياستها التعاونية مع فرنسا ستؤكد أكثر حضور الاهتمامات الوطنية، الأمر الذى جعل جبهة التحرير الوطنى تنتهج استراتيجية جديدة تهدف إلى تفعيل التضامن الشعبى من جهة وإلى الحصول على أكبر قدر ممكن من الدعم الرسمى، وتحسين العلاقات مع السلطات الرسمية ما دام أن إمكانية الدعم المباشر للكفاح المسلح لم تعد مطروحة[٣١].

إن مظاهر التضامن الشعبى ومواقف التأييد التى ابداها الملك أكدت الوعى بالمصير المشترك لشعوب المغرب العربى، وشكلت حاجزا فى وجه المصالح القطرية التى أبدتها الحكومة المغربية باسم الحفاظ على الاستقرار والاستفادة من المعونات الاقتصادية الفرنسية والحذر من امتداد حرب الجزائر[٣٢] فأصبح التأييد الشعبى والجماهيرى يلح على مساندة الجزائر ويدعو إلى إنهاء التواجد الفرنسى بالمغرب واستكمال وحدة الشمال الإفريقى، ومثل موقف الملك ضمانة قوية للتضامن المغربى الجزائرى، وقد حافظت الثورة الجزائرية على تفعيل التضامن الشعبى وجابهت بحزم بعض السلوكات والمواقف المضادة لنشاطات جيش التحرير الوطنى بالمغرب ، واستطاعت بفضل المساعدات المغربية تنظيم نشاطها السياسى وتأطير الجالية الجزائرية والاستفادة من القواعد الخلفية رغم المضايقات التى تسببها القوات الفرنسية المتواجدة بالمغرب ومخابراتها وأعوانها ، وعملت الولاية الخامسة لغرب الجزائر التى كانت تشرف على النشاط العسكرى والسياسى بالمغرب على توفير وسائل مواصلة الحرب والحفاظ على علاقات الصداقة مع السلطات المغربية للاستفادة من تسهيلاتها ومساعداتها المادية والمعنوية والتصرف بحرية فى القواعد الخلفية، وقد دلت الاتصالات المباشرة لمسؤولى جبهة التحرير الوطنى بالسلطات المغربية التزام المغرب بواجب مساعدة الثورة الجزائرية ودعم نشاطاتها السياسية والعسكرية بالمغرب[٣٣].

وشكلت حركة التضامن الشعبى والمواقف الايجابية للملك محمد الخامس دورا أساسيا فى مؤازرة الثورة الجزائرية والتأثير على الحكومة المغربية لاتخاذ مواقف أكثر إيجابية تجاه الثورة

الجزائرية ، فقد اعتبر محمد الخامس أن استقلال المغرب سيظل منقوصا ومهددا فى سيادته ما دامت الحرب قائمة فى الجزائر بتلك الشراسة الاستعمارية ، وأنه من الواجب مساندة الجزائريين فى كفاحهم ، ومن هنا سعى الملك لتقديم بعض المساعدات والتسهيلات اللازمة لنشاط جبهة التحرير الوطنى وأكد الاستمرار فى الدعم السياسى والديبلوماسى للقضية الجزائرية[٣٤].

ويمكن رصد الاهتمام السياسى والدور النضالى للملك محمد الخامس على ضوء اتصالاته العديدة مع المسؤولين الجزائريين داخل المغرب وخارجه وقد هيأ لقاءا مع مسؤولى الوفد الخارجى لجبهة التحرير الوطنى أثناء زيارته الرسمية إلى مدريد فى فبراير ١٩٥٧، ويذكر أحمد توفيق المدنى أنه انتقل رفقة الأمين دباغين من القاهرة للقاء الملك بمدريد، وأن الملك كان حريصا على عقد لقاء تشاورى للنظر فى تطور القضية الجزائرية وسبل دعمها ، وقد تم عقد اجتماع موسع بحضور عبد الحميد مهرى وبوصوف وأحمد بلافريج وعبد الكريم الخطيب تم التطرق فيه للعلاقات الأخوية التى تربط الجزائريين بالمغرب ، ومناقشة سبل مؤازرة الثورة الجزائرية انطلاقا من المغرب، وأكد الملك بخصوص ذلك استعداده الكامل لتقديم المساعدات التى يرغب فيها الجزائريون وخاصة حرية مرور الأسلحة واتخاذ مناطق الحدود المغربية الجزائرية مراكزا للنشاط العسكرى وأكد على تأييده للثورة الجزائرية مهما كانت الظروف [٣٥]، وإثر انتقال وفد جبهة التحرير الوطنى إلى المغرب استقبله الملك مرة أخرى فى قصره ليلا ليعرب له عن دعمه ومساندته التى أبداها فى اجتماع مدريد ، وأكد له «أن المغرب كله لا فرق بين حاكم ومحكوم مشارك لكم فى جهادكم إلى نهايته المشرفة»[٣٦].

وهذا الدعم المادى والتأييد المعنوى للسلطات المغربية سمح بتفعيل نشاطات الثورة الجزائرية طوال سنة ١٩٥٧ حيث تضاعف النشاط السياسى بالمغرب، وكانت الحدود سهلة العبور ونشطت مهمة تهريب الأسلحة وتسهيل وصولها إلى الثوار الجزائريين ، وتواصل الدعم المادى للملك محمد الخامس حيث كان التنسيق بينه وبين بوصوف يتم بطرق شتى وبواسطة معتمدين رسميين حفاظا على نشاطات الثورة وتقديم المساعدات العسكرية والمالية فى سرية تامة[٣٧] وقدمت الحكومة المغربية تسهيلات إدارية لنشاط الثوار الجزائريين داخل الأراضى المغربية مما أدى إلى دعم القدرات العسكرية للولاية الخامسة، وأحيانا كان بوصوف يشتكى من صعوبات تطال نشاط الجزائريين بالمغرب ، وتتسبب فى خلافات تعوق التضامن المغربى مع الثورة الجزائرية ، وذلك جراء معارضة بعض الأطراف السياسية لتوجهات جبهة التحرير الوطنى ، ويذكر فى هذا الشأن أحمد توفيق المدنى أنه وبناء على طلب بوصوف اتصل رفقة

الأمين دباغين فى فبراير ١٩٥٧ برجال المقاومة وحزب الاستقلال، وخلال اجتماع الوفد الجزائرى بممثلى حزب الاستقلال تبين له وجود خلاف إيديولوجى بين الحزب وقادة جبهة التحرير الوطنى حول أهداف الثورة ومبادئها، وذلك بسبب تصريحات بعض المسؤولين بما يفيد أن الجبهة تسير فى طريق شيوعى وتعمل لفائدة الشيوعية، وعليه قال ابن بركة : «إنه يكاد يستحيل العمل على مساعدة حركة ليس لها أهداف واضحة »، وتصدى الوفد الجزائرى لتكذيب ونفى هذه الأقوال والشائعات وشرح أهداف الثورة ومبادئ جبهة التحرير الصريحة، وأكد المدنى لمخاطبيه : «لسنا شيوعيين ولانكون شيوعيين ... إننا لانعمل إلا فى دائرة الإسلام والعروبة ووحدة المغرب العربى » [٣٨]، وأمام هذه التأكيدات اقتنع ممثلو حزب الاستقلال بوجهة نظر جبهة التحرير الوطنى وأبدوا تضامنهم مع الكفاح الجزائرى وقال ابن بركة : «إنه لم يبق لنا أى خلاف معكم حول المبادئ والأهداف وإننا سنخبر رفاقنا بهذا » [٣٩]، وقد كان مبعوثوا مصالى وبعض المغرضين يتعمدون إلصاق تهمة الشيوعية بجبهة التحرير الوطنى فى الأوساط السياسية المغربية بهدف ضرب التضامن الشعبى والموقف الرسمى المغربى المساند لها، ولم تقتصر تحفظات حزب الاستقلال على هذه الوجهة الإيديولوجية فحسب فقد انتقد بعض قادته موالاة جبهة التحرير الوطنى للنظام الناصرى المعادى للملكية وللحزبية، وخاصة على ضوء إذابتها للأحزاب السياسية. وازدادت حساسيتهم من هذا التوجه الثورى الذى يخالف مبادئ حزبهم [٤٠]، ولعل هذه الخلافات السياسية وقفت أمام تأدية الحكومة المغربية لدورها التضامنى تجاه الثورة الجزائرية نظرا للاهتمامات الوطنية الضيقة للاستقلاليين. كما أن بعض العناصر السياسية والاجتماعية المؤثرة فيها دفعت باتجاه إعادة ربط العلاقات المغربية الفرنسية، وقد أدركت فرنسا الموقف المضطرب للحكومة المغربية وحاجتها للمساعدات الاقتصادية، فسعت لمساعدتها من أجل إنقاذ المصلحة الفرنسية والحفاظ على نشاط قواعدها العسكرية بالمغرب[٤١].

وأدى تصعيد الحرب بالجزائر إلى امتداد شرارتها لتعم المناطق الحدودية المغربية التى احتضنت الثوار الجزائريين، وكانت ملجأ للسكان اللاجئين والفارين من بطش القمع الفرنسى، وظلت هدفا عسكريا للهجمات الفرنسية المتكررة على التراب المغربى وهكذا فإن الحرب الشرسة التى شنها الجيش الفرنسى على الجزائريين كانت توازيها حرب أخرى متواصلة على طول الحدود الجزائرية المغربية اتخذت أشكالاً انتقامية فى التهجم على المواطنين المغربيين عقابا على احتضانهم للثوار الجزائريين ودعم المغرب لنشاطات الثورة الجزائرية [٤٢]، وهذا

الأمر دفع السلطات المغربية إلى أن تفكر جديا فى مخاطر امتداد حرب الجزائر إلى المغرب، وأدى تنسيق المواقف السياسية المغربية التونسية إلى إعادة طرح القضية الجزائرية والسعى لإيجاد حلول سلمية لها، ومثلما حاول الرئيس بورقيبة فرض ضغوط على جبهة التحرير الوطنى للقبول بمفاوضات الاستقلال المرحلى، حاول الأمير الحسن فى أغسطس ١٩٥٧ خلال اجتماعه بالوفد الجزائرى (فرحات عباس، توفيق المدنى) المطالبة بترتيب أهدافهم من الحرب والنظر بواقعية للمشكل الجزائرى للحد من المأساة التى تطال الشعب الجزائرى وتمس المغرب، وكان يهدف إلى محاولة تليين مواقف جبهة التحرير الوطنى للقبول بمفاوضات لاتكون على أساس الاستقلال، لكنه فشل فى مسعاه أخيرا(٤٣).

ولما شعرت جبهة التحرير الوطنى بجدية الاتصالات بين المسؤولين التونسيين والمغربيين أكدت أنها تلتزم بالتنسيق المغاربى المشترك، وتقبل بالحلول السلمية التى تضمن حقوق الشعب الجزائرى، وتحسبا لما قد يقدم عليه البلدين من مواقف لاتخدم أهداف الكفاح الجزائرى أوضحت تمسكها بأن إيقاف القتال وإجراء المفاوضات مع فرنسا لن يكون إلا بالاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الجزائرى، وعندما أثارت اجتماعاتها مع بورقيبة اختلافا حاداً فى وجهات النظر انتقل وفدها إلى المغرب للقاء الملك محمد الخامس قبيل انعقاد لقاء القمة بينه وبين الرئيس بورقيبة وأكدت مشاوراتها معه التمسك بوجهة النظر الجزائرية ورفض المساعى التى لاتحقق للشعب الجزائرى أهدافه فى الاستقلال، واقتنع الملك محمد الخامس بمطالب الجزائريين وأكد أنه سيعمل بكل استطاعته لتحقيق أهداف كفاح الشعب الجزائرى، وذلك فى جو من الأخوة المغربية والنصح لفرنسا (٤٤)، وصدر بيان الرباط مؤكدا لأهداف جبهة التحرير الوطنى، وقد اقترح وساطة الدولتين التونسية والمغربية بين طرفى النزاع لإجراء مفاوضات تنتهى بحل عادل يؤدى إلى تجسيد سيادة الشعب الجزائرى، وشكل مشروع الوساطة هذا محورا لمساعى الملك محمد الخامس وممثل المغرب بالأمم المتحدة فى التأكيد على الحل السلمى للقضية الجزائرية، وقد صدر نداء الوساطة قبل يوم من سفر الملك محمد الخامس إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى زيارة رسمية تباحث خلالها مع الرئيس الأمريكى إيزنهاور ومع وزير الخارجية الأمريكية حول المشكل الجزائرى، وحاول خلالها إقناع المسؤولين الأمريكيين بتأييد مشروع الوساطة المقترح، وصدر إثرها بلاغ مشترك فى واشنطن يؤكد انشغال الدولتين بمشكلة الجزائر ويدعو إلى ضرورة وضع حد لها بالطرق السلمية (٤٥)، وقد ظل الموقف الأمريكى مؤيدا للسياسة الفرنسية، كما أن فشل مشروع الوساطة أدى إلى استمرارية الحل العسكرى

بالجزائر، وظلت منطقة المغرب العربى تتعرض لمخاطر السياسة الاستعمارية ، وانعكس ذلك كله على تقوية التضامن الشعبى وأعطى بعدا حيويا للعمل المغاربى المشترك .

ثالثا : مؤتمر طنجة والموقف المغربى: تضامن شعبى وانكسار سياسى

لقد واجه الشمال الإفريقى مع نهاية سنة ١٩٥٧ وبداية ١٩٥٨ مخاطر وتحديات أكدت تضامن شعوب المغرب العربى مع الثورة الجزائرية ، وذكرت النخب السياسية والحركات الوطنية بضرورة وحدتهم ، فبالإضافة إلى استفحال المجابهة العسكرية بالجزائر ظلت القوات الفرنسية الموجودة بالجزائر تواصل اعتداءاتها على الحدود التونسية والمغربية وتنتهك سيادتهما ، وواصلت القوات الفرنسية رفضها الجلاء عن تونس والمغرب واتخذت من ترابهما قاعدة لممارسة العدوان على الشعب الجزائرى، وازدادت المخاطر الاستعمارية بالمغرب إثر التحالف الفرنسى - الإسبانى الذى وجه ضربات قوية لجيش التحرير المغربى بمناطق الجنوب انتهت بسحقه فى فبراير ١٩٥٨ [٤٦]، ولعل هذه الهزيمة خصوصا والقصف الفرنسى لساقيه سيدى يوسف واضطهاد الجيش الفرنسى للشعب الجزائرى جعلت حزب الاستقلال المغربى يوجه الدعوة لتنسيق التعاون الوحدوى الذى كان شعار الحركات الوطنية المغاربية وظل مطمحا أساسيا لشعوب المنطقة .

إثر اجتماع لجنته التنفيذية دعى حزب الاستقلال فى ٢ مارس ١٩٥٨ إلى عقد اجتماع لقادة أقطار الشمال الإفريقى يحقق التعاون المشترك والوحدة ويقف أمام استفحال المخاطر الاستعمارية، وأكد البيان أن اللجنة التنفيذية قامت «بتحليل الحالة فى مجموع الشمال الأفريقى على إثر حوادث جنوب المغرب وساقية سيدى يوسف وأمام استمرار الحرب فى الجزائر والتطورات التى طرأت على الحالة الدولية تعلن اللجنة التنفيذية عن احتجاجها ضد خلق منطقة تدعى الآن بـ منطقة الموت- فى التراب الجزائرى وعلى طول الحدود التونسية يطرد منها السكان الجزائريون طردا ... »[٤٧].

ويتضح أن تطورات الوضع بالمغرب العربى، ومخاطر حرب الجزائر على تونس والمغرب كانت وراء الدعوة لعقد مؤتمر طنجة ، وقد أكد عبد الرحيم بوعبيد[٤٨] أن الهدف منه «هو إظهار التضامن الكامل ما بين الأقطار الثلاثة إزاء الحكومة الفرنسية إذ ذاك »[٤٩]، إلا أن هذا التفسير لم يخف بعض المطامح السياسية لحزب الاستقلال بعد أن انهارت ذراعه العسكرية، فضلا عن أنه تزامن مع مبادرة الوحدة المشرقية بين مصر وسوريا مما جعل مصر

تفسر الدعوة لوحدة المغرب العربى أنها معاكسة للوحدة المشرقية ، وأن المؤتمر محاولة مغربية تونسية لاحتواء جبهة التحرير الجزائرية وربطها فى الإطار الغربى (٥٠)، ومثل هذه الرؤية المصيرية وغيرها من الاعتبارات لم تكن لتؤثر على قرار جبهة التحرير الوطنى بحضور المؤتمر بحكم اتجاهها المغاربى، ونظرا للأهمية المتزايدة للبلدين المجاورين فى الكفاح الجزائرى ، ويؤكد قادة جبهة التحرير الوطنى أن الدعوة للمؤتمر لم يصحبها إعداد لجدول أعماله فكان هذا حافزا لحضور المؤتمر واستغلال هذا الفراغ لإعداد جدول أعمال حرصت فيه على أن يجمع بين مراعاة واقع البلدين من جهة ، ويحقق مكاسب لفائدة الكفاح السياسى والعسكرى من جهة أخرى، واعتمدت فى ذلك على ضغط القواعد الشعبية المنادية بتصفية الاستعمار واستكمال المعركة حتى تحقيق جلاء القوات الفرنسية عن كامل بلدان المغرب العربى (٥١).

انعقد مؤتمر طنجة بحضور الأحزاب الوطنية الممثلة لأقطار الشمال الإفريقى ؛ حزب الاستقلال المغربى والحزب الدستورى الحر وجبهة التحرير الوطنى ، وخلال مناقشات الوفود الحزبية على امتداد أيام ٢٧ - ٣٠ أبريل ١٩٥٨ أكد المؤتمرون على مخاطر السياسة الاستعمارية ، وحتمية التنسيق المشترك ووحدة أقطار المغرب العربى وضرورة مساعدة الجزائر وتخليصها من الاستعمار الفرنسى ، وخرج مؤتمر طنجة بقرارات هامة لمساعدة الثورة الجزائرية وتحقيق مشروع المغرب العربى تمحورها أساسا فيما يلى:

- إقرار مبدأ تقديم مساعدات مالية للجزائر فى حربها .

- التأكيد على حق الشعب الجزائرى فى الاستقلال كشرط وحيد لإنهاء النزاع الفرنسى الجزئرى .

- شجب مساعدات الدول الغربية لفرنسا ومساندتها فى حربها ضد الشعب الجزائرى .

- تقديم الأحزاب السياسية للشعب الجزائرى كامل مساندة شعوبها وتأييد حكوماتها .

- المطالبة بإلحاح على تصفية القواعد العسكرية فى كامل تراب المغرب العربى .

- اختيار الشكل الفيدرالى إطار لوحدة المغرب العربى على أن يتم إنشاء المؤسسات الفيدارلية فى اجتماعات قمة لاحقة .

كما أوصى المؤتمرون كذلك بـ :

- اجراء مشاورات مع حكومتى تونس والمغرب لإقامة حكومة جزائرية مؤقته كلما سنحت الظروف .

– ألا تربط الحكومات على انفراد مصير شمال إفريقيا فى حقل العلاقات الخارجية والدفاع إلا بعد إقامة المؤسسات الاتحادية[٥٢].

ويظهر من خلال مقررات طنجة أن القضية الجزائرية نالت اهتمامات المناقشين ، وتأكد بخصوصها تقديم مساعدات هامة للكفاح الجزائرى ، ورصد هدف تجسيد وحدة المغرب العربى واعتبار الجزائر قطرا كامل السيادة وعضوا فى الوحدة الفيدرالية قبل أن تحصل على استقلالها ، إلا أن هذه القرارات لم تكتسب صبغة تنفيذية رغم موافقة رئيسا الدولتين محمد الخامس والحبيب بورقيبة ومساندتهما لما جاء فى مؤتمر طنجة ، ورغم أن الحزب الدستورى الحر وحزب الاستقلال مشاركان فى السلطة إلا أن قراراتهما كانت شعبية أكثر منها رسمية. وتم تأجيل تنفيذ قرارات طنجة إلى لقاء قمة على المستوى الحكومى، وإن كانت الأحزاب السياسية والمنظمات الشعبية تمسكت بقرارات طنجة وعبرت عن مطامحها فى مساندة الثورة الجزائرية وإرادتها الفعالة لتحقيق الوحدة المغاربية فإن الحكومتين المغربية والتونسية تنصلتا تدريجيا عن تجسيد مقررات طنجة.[٥٣]

واجتمعت الحكومتان المغربية والتونسية مع جبهة التحرير الوطنى فى مؤتمر المهدية بتونس فى يونيه ١٩٥٨ إلا أنهما لم تجسدا شيئا ذا بال ، وكان تهرب الحكومة المغربية واضحا من التزامات مؤتمر طنجة ، وارتسم هذا الموقف ليؤكد من جديد المصالح والأهداف القطرية الضيقة على حساب التضامن الشعبى والحزبى المؤيد للثورة الجزائرية ، ويفسر هذا التنصل بمعطيات داخلية استجدت وظروفا دولية كان لها تأثير مباشر نرصد أهمها فيما يلى:

– التخوف من انعكاسات التفاعل الشعبى مع الثورة الجزائرية مما يجعل النظام المغربى يخشى السيطرة على الموقف بازدياد نفوذ الجناح المتشدد داخل حزب الاستقلال .

– خطورة الموقف من توحيد المجابهة ضد فرنسا بشكل قد يهدد الاستقلال المغربى.

– مجئ الجنرال ديجول على رأس حكومة قوية أعادت الهيبة الدولية لفرنسا ، وأكدت على سياسة الإدماج بالجزائر والتعاون مع المغرب، مما جعل النظام المغربى ييأس من إمكانية التوصل إلى حل المشكلة الجزائرية فى الأمد القريب .

– وقوف السياسة الديجولية ضد تطبيق مقررات طنجة بتأكيدها على سياسة التعاون مع المغرب وتونس وتخطيطها لضرب التضامن المغاربى مع الثورة الجزائرية[٥٤].

إن السياسة الفرنسية المتبعة مع المغرب لم تكن ذاتها المنتهجة مع تونس ، فقد طمأن الجنرال ديجول البلدين على استقلالهما وقبل بجلاء القوات الفرنسية عن تونس فى حين أكد بلهجة متشددة على بقاء القوات الفرنسية بالمغرب ، وهدف من وراء ذلك إلى إلغاء التقارب بين البلدين وجعل المغرب يترقب تنازلات يمكن أن تبادر بها فرنسا لصالحه، وهذه المعطيات جعلت السلطات المغربية تفكر فى عدم رهن مصيرها بقرارات طنجة ، ولهذا أبدت الحكومة المغربية خلال مؤتمر المهدية ليونة فى موقفها التقت مع رغبة بورقيبة فى عدم رهن مصير شمال إفريقيا بحرب الجزائر ، وضرورة العدول تدريجيا عن الخط الوحدوى لطنجة ، وتأجيل مقرراته بشكل يستجيب للظروف المستجدة على المستوى المغاربى والدولى [٥٥].

وعليه لم يخرج المؤتمر بأى نتائج مهمة، إذ أكدت مناقشات الوفد الحكومى المغربى (بالافريج- بوعبيد) خلال مؤتمر المهدية[٥٦] إن أوضاع الحكومة المغربية لاتسمح لها بتقديم مساعدات مالية، وأعطت تأويلات جديدة لمقررات طنجة ، إذ أوضح رئيس الحكومة بلافريج أن مسألة وحدة الشمال الإفريقى لايمكن رهنها بمستقبل الجزائر ، وعندما طالبت جبهة التحرير الوطنى بإدانة سياسة الإدماج وتأييد المطالب الجزائرية الواضحة فى الاستقلال رد نائب رئيس الحكومة بوعبيد قائلا : «ينبغى أن نترك دائما هامشا للتقدير على صعيد السياسة وليس من الضرورى أن يكون المرء بالغ الوضوح والدقة ، ينبغى اختيار اللحظة المناسبة» وأكد أن مجئ ديجول إلى السلطة أقلب الوضع وهو يكسب الآن التأييد الدولى و«ينبغى إذن التفكير والرؤية بوضوح» [٥٧]، وردت جبهة التحرير الوطنى على الموقف الحكومى المغربى ولم تستسلم لضغوطه ولضغوط التونسيين، وأدركت أن التعهد بمساعدة الكفاح الجزائرى ماديًا سيظل حبراً على ورق ، ورغم نجاحها فى إقناع الطرفين لتأييد حقوق الشعب الجزائرى فى الاستقلال والتمسك بتنسيق المواقف السياسية إلا أنها شعرت بخضوع توجهات الطرفين لتأثيرات السياسة الديجولية، ومع ذلك اتبعت سياسة مهادنة للحكومة المغربية حتى لاتصادم موقفها فى الحفاظ على التضامن الشعبى وصيانة المصالح المكتسبة بالمغرب ، ونجحت فى تفعيل التضامن الشعبى وجعله يتمسك بمبادئ طنجة[٥٨] ، وقد كان النظام المغربى يخشى حدوث تعبئة جماهيرية تتأثر بتوجهات الثورة الجزائرية وتتمسك بقرارات طنجة ، خاصة ما تعلق منها بتصفية القواعد الأجنبية بالمغرب التى يقف وراءها حزب الاستقلال القوى بنفوذه الشعبى، ومن هنا تبلور شعور النظام المغربى بخطر جيش التحرير المغربى وبالنفوذ السياسى لحزب الاستقلال فخطط لضربهما حتى لاتتطور الأحداث وتندفع باتجاه تشكيل تضامن شعبى مطلق مع ثورة الجزائر[٥٩].

إن السياسة الفرنسية قد نجحت فى كسب الحكومة المغربية التى انتظرت طويلا مبادرة فرنسا بإنجاز خطوة اجلاء قواتها عن المغرب، وعقدت أخيرا الحكومة الفرنسية مع المغرب اتفاقية تعاون لتحقيق جلاء جزئى للقوات الفرنسية من بعض المناطق المغربية مما أعطى النظام المغربى نفسا للتغنى بتحقيق مطلب وطنى، الحقيقة أن القيادة الفرنسية وبفضل معرفتها للميدان قامت بإعادة تجميع قواتها فى نقاط استراتيجية تضمن استعمالها بصورة أكثر فاعلية لنشاطها المعادى للجزائريين (٦٠)، وإن ظلت القوات الفرنسية بالمغرب تضايق الجزائريين وتفرض رقابتها عليهم فإن القوات المسلحة المغربية التى تظاهرت فى البداية أنها تقدم حماية لجيش التحرير الوطنى أصبحت تضايق تحركاته وتشكل ضغوطا مختلفة عليه كما قامت بإغلاق ممر فجيج الاستراتيجى ، وكانت تهدف من وراء ذلك إلى عرقلة تسلل وإمدادات جيش التحرير الوطنى لجعل الجزائريين أمام الأمر الواقع والإقرار بسيادة المغرب على المناطق الشرقية التى يدعى مغربيتها ، وشكلت هذه المسألة خلافات عميقة مع جبهة التحرير الوطنى، ولم تنفع الاجتماعات التى عقدها الطرفان فى إيجاد أية تسوية ؛ ففى ٨ أبريل ١٩٥٨ عقد اجتماع بالرباط بين الشيخ خير الدين وعبد القادر معاشو وحسين قادرى مع ابن بركة ومحمد البصرى عن الجانب المغربى ، وعقد اجتماع آخر فى ٦ مايو من نفس السنة بين ممثلين عن جيش التحرير الوطنى والسلطات المغربية دون الوصول لأية نتيجة مما جعل الموقف المغربى يتحفظ فى دعم الثورة الجزائرية (٦١).

وقد أحست جبهة التحرير الوطنى بتدهور علاقاتها مع السلطات المغربية غداة مؤتمر المهدية وذلك من خلال بعض الممارسات والضغوطات التى اصطدم بها جيش التحرير الوطنى واللاجئون الجزائريون وقوافل الأسلحة ، وترجع أساسا إلى الخلافات السياسية ومطالب المغرب بتعديل حدوده الجنوبية (٦٢)، وقد اتخذت الحكومة المغربية قرارا منفردا بإنشاء «لجنة الحدود» فى مارس ١٩٥٨ ، وأعلنت أن مفاوضات مغربية - فرنسية بشأن الحدود ستنطلق فى أغسطس ١٩٥٨ وأن ملف لجنة الحدود جاهز لمناقشته مع الحكومة الفرنسية، واعتبرت جبهة التحرير الوطنى أن هذا الإجراء لايقل فداحة وطعنا لمقررات طنجة من اتفاقية البترول التونسية الفرنسية ، لأنه يعترف لفرنسا بسيادتها على الجزائر ويطعن فى شرعية تمثيل الجبهة، ويعارض قرارات التعاون والتنسيق المتفق عليها فى مؤتمر طنجة (٦٣).

وقد بدى لجبهة التحرير الوطنى أن السياسة الديجولية كان لها تأثير واضح على الحكومة المغربية التى أبدت رغبتها فى التعاون الاقتصادى بعد أن لوح ديجول بمشروع بترول الصحراء

الذى يقترح فيه إشراك المغرب وغيره من الدول المتاخمة لصحراء الجزائر فى استثمار خيراتها واعتبرت الحكومة المغربية أن قبولها بهذا المشروع سيدعم حقها فى المطالبة بالمناطق الصحراوية مستقبلا ، ورغم أن جبهة التحرير الوطنى لفتت أنظار السلطات المغربية إلى خطر هذه السياسة الفرنسية بشقيها الاقتصادى والسياسى، وعرضت عليها مشروعها لاستغلال بترول المغرب العربى شراكة [٦٤]، إلا أنها لم تتلق أى رد منها ، وقد آثرت مغريات فرنسا الاقتصادية وسياسة التعاون معها ، ولم يكن هذا التوجه هو مبدأ الحكومة المغربية إذ عبرت من قبل عن رفضها لصفقة تكرير بترول صحراء الجزائر بمصفاة القنيطرة فى مايو ١٩٥٨، وسمحت بذلك لجبهة التحرير الوطنى أن تؤكد أنه ليس لفرنسا الحق فى استثمار خيرات الجزائر [٦٥]، ويظهر لنا من تباين الموقفين السابقين أن السياسة الديجولية أثرت كثيرا على السلطات المغربية لتظهر مواقف وتصرفات لاترقى لمبادئ دعم الكفاح الجزائرى وتخدش التضامن المغاربى السياسى، وبالمقابل نؤكد أن التضامن الشعبى ظل يؤثر على مواقف الحكومة المغربية وينتقد سياستها فى التعامل مع الحكومة الفرنسية ، ويواصل مؤازرته للثورة الجزائرية.

وقد سجلنا كثيرا من مظاهر الانتقاد للسياسة المغربية تجاه الجزائر، وفضحت بعض النخب السياسية فى المغرب التقصير الحكومى فى دعم الثورة الجزائرية، وأكد مثلا أحمد معينو عضو حزب الشورى والاستقلال بالمجلس الاستشارى المغربى تضاؤل الاهتمام السياسى بالقضية الجزائرية قائلا: «عندما يؤكد وزير الخارجية أن المغرب قدم كل مساعدة ممكنة للجزائر نشعر بألم يحز فى أفئدتنا إذ أننا نرى النار بأبوابنا ولانهتم بها الاهتمام الواجب إن هذه المساعدة المقدمة بسيطة وبسيطة جدا والكلام فى شأنها لايستر الحقيقة أو ينسيها » [٦٦]، ومهما كانت جوانب الصحة فى انتقادات حزب الشورى والاستقلال السياسية فقد شن حملة معارضة ضد الحكومة أكدت على واجب دعم الجزائر وكسب التأييد الشعبى لها. واصطفت وراء هذه الدعوة الجماهير الواسعة التمثيل والمنظمات النقابية ، ولعل الاختلاف حول مسألة دعم الجزائر زاد فى انقسام حزب الاستقلال ووقف وراء بعض الانتفاضات والمظاهرات الشعبية [٦٧].

وقد رأت جبهة التحرير الوطنى أن تنشأ الحكومة الجزائرية المؤقتة فى سبتمبر ١٩٥٨، ولم تكن علاقاتها مع النظام المغربى على أحسن ما يرام، وخشيت أن يقدم على معارضة إنشائها فى تلك الظروف الصعبة التى يمر بها الشمال الإفريقى والعودة القوية للنفوذ السياسى الفرنسى وإرسائه علاقات التعاون مع المغرب . غير أن التوجه السياسى المغربى وبتوجيه من

الملك بدأ ينفتح على قوى الحياد ويتأثر بالضغوط الشعبية المؤيدة للثورة الجزائرية ، وعليه لم تتأخر الحكومة المغربية فى الاعتراف بالحكومة الجزائرية المؤقتة ، وجاء اعترافها فى اليوم الثانى لإعلانها فى ٩ سبتمبر ١٩٥٨ فى بيان رسمى يحمل توقيع رئيس الحكومة أحمد بلافريج ، وقد تضمن ما يلى: «لى الشرف بأن أنقل إلى علمكم أن مجلس الوزراء المجتمع برئاسة صاحب الجلالة ملك مراكش قد قرر فى التاسع عشر من أيلول - سبتمبر ١٩٥٨ الاعتراف بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية» [٦٨].

وقد اختيرت مصر مقرا للحكومة نظرا لما تقدمه من دعم ومساندة على المستوى الإفريقى والأسيوى وتجمع مختلف الدلائل أن تونس والمغرب لم تكونا آنذاك مكانا ملائما لاستقرار الحكومة الجزائرية المؤقتة لأن النفوذ العسكرى الفرنسى كان ما يزال متواجدا بهما ، ولكون البلدين فى وضع لايسمح بتقبلهما لهذه الخطوة بحكم علاقاتهما المتشابكة مع فرنسا [٦٩]، فى حين كان على جبهة التحرير الوطنى أن تحزم أمرها للرد على المرحلة الجديدة للسياسة الفرنسية، وهذه الحقائق جعلتها لاتقيم مقر الحكومة الجزائرية فى تونس أو بالمغرب ونستبعد ما ذكره الباحث اسماعيل دبش ونقله عنه عمار رخيلة دون تحر من أن اختيار القاهرة كمقر للحكومة الجزائرية المؤقتة جاء نتيجة «رفض طلب جبهة التحرير الوطنى بتكوين حكومة جزائرية مؤقتة فى المغرب أو تونس» [٧٠]، وعموما فإن دعم مواقف الحكومة الجزائرية المؤقتة السياسية وتأييد أهدافها فى الاستقلال التام ومساندة ونشاطاتها تعرض فى البداية إلى تقصير واضح، واكتفى المغرب بالموافقة على فتح مكتب للحكومة الجزائرية المؤقتة بالمغرب وتسهيل نشاطاتها دون الاعتراف لها بالتمثيل الديبلوماسى [٧١]، وذلك نظرا لضغوط علاقات التعاون مع فرنسا والصعوبات المواجهة للعلاقات الجزائرية المغربية، فكان على الحكومة الجزائرية المؤقتة أن تعيد النظر فى سياستها المغاربية وأن تهتم أكثر بكسب التعاون المغربى وأن تفعل نشاطات التأييد للقضية الجزائرية، ومختلف أشكال الدعم للثورة الجزائرية.

والمؤكد أن بعض الخلافات أثرت على مسار العلاقات الجزائرية المغربية وتضاءل معها حجم التأييد السياسى للحكومة المغربية ، فى حين ظل التضامن الشعبى بمثابة الخيط الناظم لتواصل الدعم المعنوى للقضية الجزائرية ، وأدى تعرض الثورة الجزائرية لصعوبات داخلية ومضايقات خارجية بالحكومة الجزائرية المؤقتة إلى الاهتمام أكثر بكسب التأييد السياسى للبلدان المغاربية والحصول على دعمها المادى والمعنوى ، وخاصة بعد أن تزايدت أهميتها نتيجة تركز نشاطات الثورة الجزائرية بها [٧٢]. وهكذا تمكنت الحكومة الجزائرية الموقتة بطريقة ديبلوماسية من إيجاد حلول سلمية للمشاكل التى تعترضها بالمغرب بما فى ذلك المسائل

الحدودية، وانتهزت فرص تدهور العلاقات بين فرنسا والمغرب من جهة ، وتزايد حجم التضامن الشعبى من جهة أخرى لتوطد علاقاتها مع المغرب ، وقد أقامت بعثة للحكومة الجزائرية المؤقتة برئاسة شوقي مصطفاى منذ سنة ١٩٥٨م، تركزت مهامها فى تمثيل الثورة الجزائرية سياسيًا ودبلوماسيا ، وإطلاع السلطات المغربية بكل تطورات القضية الجزائرية وتنسيق المواقف السياسية، والنظر فى المشاكل المواجهة للطرفين (٧٣)، ونهضت وزارة شؤون شمال إفريقيا للحكومة الجزائرية بنشاط سياسى واجتماعى معتبر لتنسيق أواصر التضامن ورعاية شؤون الجزائريين في المغرب (٧٤)، وبذلك ارست التنظيم السياسي المحكم ، وأشرفت الثورة الجزائرية على مختلف شؤونها ، ونظمت علاقاتها مع المغرب بالشكل الذى ضمن رعاية مصالح الثورة وعودة علاقات التضامن المشتركة والتى تأثرت كثيرا بفعل السياسات الفرنسية وبحضور الاهتمامات القطرية والايديولوجية المفضوحة .

وعلى ضوء ما سبق تحليله نخلص إلى رصد الاستنتاجات الآتية:

– لقد استجاب الموقف الرسمى المغربى لمطلب دعم الثورة الجزائرية ، وبالرغم من تباين مواقف الأطراف السياسية المختلفة إلا أن المغرب مثل قاعدة مهمة فى استراتيجية الثورة الجزائرية واحتضن نشاطات الثورة العسكرية والسياسية.

– إن الملك محمد الخامس اجتهد فى تجاوز الضغوط الفرنسية والاهتمامات القطرية ، وأظهر تجاوبا مع مطلب مؤازرة الثورة الجزائرية، وبفضل رعايته ومساعداته تمكنت جبهة التحرير الوطنى من ارساء قواعدها الخلفية وتأكيد حضورها السياسى، وبذلك تجاوزت كثير من الصعوبات التى كانت تسببها القوات الفرنسية فى المغرب وبعض الأطراف السياسية المعادية والتوجهات الوطنية الضيقة.

– لقد أرسيت علاقات وطيدة بين قيادة الثورة الجزائرية والسلطات المغربية، وكان مقررا لهذه العلاقات أن تتوج بوحدة سياسية مغاربية أقرها مؤتمر طنجة ، لكن الحكومة المغربية أظهرت منذ مجئ ديجول للسلطة كثير من التحفظات ، وتهربت من التزاماتها ولم توطد علاقاتها مع الحكومة الجزائرية المؤقتة إلا بعد تليين كثير من العقبات .

الهوامش

١- ينظر حول تأثيرات هذه القوى وفعاليتها ، الشاوي توفيق : حزب الاستقلال ، ط١ ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ، ١٩٩٠ ، ص٤٥ ، وفتحي الديب . عبد الناصر وثورة الجزائر ، ط١ ، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٤ ، ص١٥٤ ، ١٥٥ .

٢- علال الفاسي (١٩١٠-١٩٧٤) : ولد بمدينة فاس ودرس بجامعة القرويين ، بدأ نشاطه السياسي مبكرا وتزعم كتلة العمل الوطني، ثم حزب الاستقلال منذ تأسيسه في سنة ١٩٤٤. أقام في القاهرة منذ ١٩٤٧ يساهم في تحفيز وتوحيد الكفاح الوطني المغاربي ، ووقف موقفا متحفظا من محادثات اكس - ليبان ثم ساهم في تهميش دوره داخل حزب الاستقلال ، وواصل نشاطه السياسي بالإشراف على توجيه حزب التحرير المغربي بالجنوب والدعوة لمواصلة تحرير الأراضي المغربية وتشييد وحدة المغرب العربي .

٣- راجع الفاسي علال : نداء القاهرة ، ط١ ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٩٥٩ ، ص٦٣-٦٥

٤- محمد بن عبد الكريم الخطابي (١٨٨١-١٩٦٣) ولد بأجدير بالريف المغربي ، [illegible] في [illegible] ١٩٢٦ [illegible] ١٩٤٧ [illegible] ١٩٤٧-١٩٥٦ [illegible] المغرب العربي .

٥- [illegible] الجزائر ١٩٨٨ ، ص٢٣ ، [illegible] ، ط. طلاس للدراسات والترجمة [illegible] دمشق ١٩٨٤ ، ص٢٦٩

٦- [illegible] توفيق الشاوي ، المرجع السابق، ص٥٣

٧- [illegible] Mohamed : Organisation Politico-Administrative et Militaire de la Révolution Algerienne OPU, T2 . p. 704 .

٨- الطيب الثعالبي ولد بمدينة سكيكدة وناضل في صفوف حزب الشعب الجزائري، عين سنة ١٩٥٥ مشرفا على المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني بالمغرب إلى غاية ١٩٦٠ ، حيث عين لنفس المهمة بقاعدة تونس حتى سنة ١٩٦١ . كما انتخب عضوا بالمجلس الوطني للثورة (١٩٥٦-١٩٦٢)

٩- ينظر حديث مع المجاهد الطيب الثعالبي، أول نوفمبر ، مجلة تصدرها المنظمة الوطنية للمجاهدين ، الجزائر ، العدد ٩٣ (يونيو ١٩٨٨) ، ص٢٤ وما بعدها .

١٠- ينظر فتحي الديب . المصدر السابق، ص١٢٧ .

١١- يراجع فتحي الديب: المصدر السابق، ص٣١٨ .

١٢- ينظر محمد قنطاري: الثورة الجزائرية وقواعدها الخلفية بالجبهة الغربية والعلاقات الجزائرية المغربية إبان ثورة التحرير الوطني، الذاكرة، مجلة يصدرها المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، العدد ٣ (صيف ١٩٩٥) ، ص١٢٧ .

١٣- ينظر أحمد بن بلة : مذكرات أحمد بن بلة، ترجمة العفيف الأخضر، ط٢ ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧١ ، ص١٠١ .

١٤- بعد عودة الملك من منفاه وبمناسبة عيد العرش في ١٧ نوفمبر ١٩٥٥ ، مثلت جبهة التحرير الوطني في هذا الاحتفال بحضور مميز، فقد أرسل عبان رمضان أربع شخصيات وطنية في مهام مختلفة هي : الشيخ خير الدين وعلي مرحوم من أجل التعريف بالقضية الجزائرية والاتصال بالسلطات المغربية ، والعربي التبسي في مهمة خاصة للاتصال بمحمد خطاب وطلب المساعدات المالية منه . في حين تبقى مهمة مفدي زكريا غامضة . فمعلوم أن الشاعر قد أنشد بين يدي الملك قصيدة هنأ فيها الشعب المغربي وأكد له وحدة قضايا المغرب العربي ولايستبعد أن يكون حمل رسالة خاصة من عبان رمضان إلى الملك محمد الخامس بدليل أنه كان مقربا من عبان ولو أنه لم يخرج في مهمة خاصة لما رجع إلى الجزائر وهو يعرف أنه مطارد من قبل السلطات الفرنسية ينظر:

Farouk Ben Atia: Si Mohamed Khattab Précurseur du Magherb , OPU, Alger , 1991 . pp. 73-74 .

١٥- فتحي الديب: المصدر السابق ، ص٢٦٥ .

١٦- أحمد بن بلة . المصدر السابق، ص١٠١ .

١٧- ينظر وزارة الإعلام والثقافة : ملفات وثائقية رقم ٢٤ ، النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، طبع وزارة الاعلام والثقافة ، الجزائر، ١٩٧٦ ، ص١٦ .

١٨- ينظر ، المقاومة الجزائرية لسان حال جبهة التحرير الوطني، العدد٤ (٢٤ ديسمبر ١٩٥٦)، ص١ .

١٩- ينظر محمد الخامس: انبعاث أمة، ج١، مجموعة الخطب التي ألقاها الملك محمد الخامس من ١٩٥٥ إلى ١٩٥٦ . المطبعة الملكية، الرباط ، ١٩٥٦ ، ص٢١٣ .

٢٠- يراجع بخصوص مواقف الحكومة المغربية تصريحات رئيسها مبارك البكاى، المقاومة الجزائرية، العدد ١٥ (٢٥ مارس ١٩٥٧)، ص٣ .

٢١- ينظر ، المقاومة الجزائرية: العدد ٥ (١٢ يناير ١٩٥٧)، ص١٦ .

٢٢- ينظر محمد الخامس : المصدر السابق، ص٢٥٤ .

٢٣- انظر ، الحسن الثاني، ذاكرة ملك منشورات عكاض ، جدة ١٩٩٢ ، ص ص٢٢-٢٣ .

٢٤- شنت الصحافة الفرنسية حملة مناوئة لشجب المقابلات التى أظهرتها السلطات المغربية تجاه الوفد الجزائرى مما أدى بالحكومة الفرنسية إلى قطع علاقاتها الديبلوماسية مع المغرب يوما واحدا قبل عملية الاختطاف ، ينظر . Le. Monde du (27 Octobre 1956) , p.7

٢٥- لم يفكر المسؤولون عن عملية الاختطاف فى عواقب الحادثة السياسية لأن العملية تمت دون إعلام الحكومة الفرنسية مما أدى بوزير الشوون التونسية والمغربية آلان كريستيان إلى تقديم استقالته ، كما أن الزعماء الجزائريين كانوا ضيوفا على الملك محمد الخامس وأجبروا على تغيير وجهتهم من تونس إلى الجزائر وهم يمتطون طائرة مغربية وكان الأصل أن يرافقوا الملك على متن طائرته الخاصة لولا تغييرات فى آخر لحظة تستبعد فيها الصدفة ، مما يعزز أن الإدارة الفرنسية بالجزائر خططت للعملية بإحكام انطلاقا من الرباط واعتمادا على مساعدة عناصر فرنسية وأخرى مغربية موالية لها ، يراجع أحمد الخطيب : الثورة الجزائرية ، ط١ ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٨ ، ص٢٢٤ .

٢٦- انظر ، المرجع نفسه، ص٢٢٤ ، وفتحى الديب : المصدر السابق، ص٢٧٨ .

وانظر ، العلم، عدد ٣ نوفمبر ١٩٥٦م.

٢٧- ينظر بخصوص هذه الردود الرسمية والشعبية وانعكاساتها ، الملك الحسن الثانى : ذاكرة ملك، ص٢٤ ، وجريدة العلم، عدد ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦ .

٢٨- المقاومة الجزائرية: العدد ٢ (١٥ نوفمبر ١٩٥٦)، ص١٢ .

٢٩- المقاومة الجزائرية : العدد ٤ (٢٤ ديسمبر ١٩٥٦) ، ص١١ .

٣٠- ينظر ، المجاهد : العدد ١٢ (١٥ نوفمبر ١٩٥٧) ، ص٨ .

٣١- انظر أبعاد هذه الاستراتيجية فى رسائل قادة الجبهة .mabrouk belhocine. op. cit.p. 162

٣٢- ينظر اسماعيل دبش: السياسة العربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية، ط١ ، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٠، ص١٠٣ .

٣٣- ينظر محمد خير الدين: مذكرات ، ط١ ، م.و.ك ، الجزائر (د.ت) ، ج٢ ، ص٢٧١ و Farouk Benatia: Op. Cit, p. 90 .

٣٤- يراجع محمد قنطارى . المرجع السابق، ص١٢٣ .

٣٥- يراجع أحمد توفيق المدنى : حياة كفاح ، مصدر سابق، ص٢٨٠ .

٣٦- المصدر نفسه، ص ص٢٨٤ ، ٢٨٥ .

٣٧- كان بوصوف يقوم بهذه المهمة لوحده ، ثم انتدب شخصين للقيام بالاتصالات مع الملك محمد الخامس هما بوداود منصور وعباسى عزوز، ينظر شهادة عباس عزوز بمجلة الباحث، عدد خاص حول التسليح ، مرجع سابق، ص٨٠ . وشهادة منصور بوداود، مقابلة مع الباحث ، الجزائر العاصمة، أوغسطس ٢٠٠٦

٣٨- ينظر المدنى أحمد توفيق : المصدر السابق، ص ص٢٨٢-٢٨٣، ويظهر لنا أن أقوال ابن بركة تبدو هنا غريبة غير أننا لانتحفظ منها كونه يعبر عنه اتجاه حزب الاستقلال ولم يكن اتجاهه الثورى والقومى قد تبلور آنذاك.

٣٩- المصدر نفسه ، ص٢٨٣ .

٤٠- ينظر بلقريز عبد الإله وآخرون : الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ، ١٩٤٨-١٩٨٦ ، محاولة فى التاريخ ، ط١ ، م.د.ع، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص٢٦١ .

٤١- ينظر عامر رخيلة: الثورة الجزائرية والمغرب العربى، مجلة المصادر، يصدرها المركز و د ب ح و ث ١٩٥٤ ، الجزائر ، العدد ١ ، صيف ١٩٩٩، ص١٤٧ .

٤٢- يراجع بلقريز عبد الإله وآخرون . المرجع السابق، ص٧١ ، ومحمد قنطارى : المرجع السابق، ص١٢٧ .

٤٣- ينظر بخصوص هذا الاجتماع توفيق المدنى: المصدر السابق، ص ص٢٩٦-٢٩٨

٤٤- يراجع ، الديب فتحى : المصدر السابق، ص٣٦٢ والفاسى علال : كى لاننسى ... مطبعة الرسالة، الرباط ١٩٧٣ .

٤٥- ينظر المجاهد : العدد ١٧ (١ فبراير ١٩٥٨)، ص٤ .

٤٦- يراجع ، بلقريز عبد الإله وآخرون : المرجع السابق، ص١٥٥ .

٤٧- يراجع ، بلقريز عبدالإله وآخرون ، مرجع سابق، ص١٥٦ .

٤٨- عبد الرحيم بوعبيد : مناضل وسياسى مغربى ساهم فى العمل النقابى والحزبى وشارك ضمن وفد حزب الاستقلال فى محادثات إكس ليبان، عين وزيرا للدولة مكلفا بالمفاوضات مع فرنسا فى أول حكومة مغربية ، وشغل وزير الاقتصاد فى الحكومة المغربية (١٩٥٦-١٩٥٩) وأصبح نائبا لرئيس الحكومة سنة ١٩٥٨ ، وساهم سنة ١٩٥٩ فى تأسيس الاتحاد الوطنى للقوات الشعبية.

٤٩- ينظر شهادته بخصوص مؤتمر طنجة ، بلقريز عبد الإله وآخرون، مرجع سابق، ص ص٢٣٧-٢٣٨ .

٥٠- ينظر الجنيدى خليفة وآخرون : حوار حول الثورة ، المركز الوطنى للتوثيق والصحافة والاعلام، الجزائر ١٩٨٦ ، ج٢ ، ص١٥٠ ، ١٥١ . وانظر شهادة عبد الحميد مهرى، مقابلة مع الباحث ، الجزائر ، أغسطس ٢٠٠٥م.

٥١- محمد الميلى: مواقف جزائرية ، ط١ ، م . و . ك ، الجزائر ، ١٩٨٤ ، ص٧١ .

٥٢- قامت الأحزاب السياسية الثلاثة بنشر قرارات مؤتمر طنجة وتعميم الاطلاع عليها غير أن هذه النشريات تختلف بعض الشئ فى عباراتها عما نشرته جبهة التحرير الوطنى بجريدة المجاهد : العدد ٢٣ (٧ مايو ١٩٥٨) ، ص١١ ، وللتعرف على حيثيات المؤتمر وقراراته يراجع عامر رخيلة، مرجع سابق، ص١٦١ ، ١٦٢ .

٥٣- ينظر دراسة الدكتور الهادى الغزى المقدمة للملتقى ، بناء المغرب العربى، تونس ، أكتوبر ١٩٨١ ، المطبعة العصرية ، تونس ١٩٨٣ ، ص٢٥٠ وما بعدها . إذ يؤكد على فشل الحكومات فى تكريس الوحدة فى حين نجحت الأحزاب السياسية، ويوضح أن مقررات طنجة أصبحت أمرا اعتباريا نتيجة استفحال الشخصية الاقليمية والمصالح الذاتية على حساب نظرية الكفاح التحررى الموحد. والطرح ذاته يؤكده مهدى عبد الحميد ، مقابلة شخصية مع الباحث ، الجزائر ، أغسطس ٢٠٠٥ .

٥٤- يراجع الجنيدى خليفة وآخرون : حوار حول الثورة ، مرجع سابق، ج٢ ، ص١٥٨ .

٥٥- يراجع محمد الميلى المرجع السابق ، ص٩٧

٥٦- ينظر بخصوص مؤتمر المهدية وقراراته ، المجاهد : العدد ٢٦ (٢ يوليو ١٩٥٨)، ص١٠٨ ومحمد الميلى ، المرجع نفسه ، ص١٠٥ .

٥٧- ورد هذا الرد فى محضر جلسات مؤتمر تونس ينظر Mohmmed Harbi . Les Archives de la Revolution Algerienne . Jeune Afrique, Paris 1981 , pp. 419 - 421 .

٥٨- للاطلاع على أسس هذه السياسة ونجاحاتها ينظر محمد الميلى: المرجع السابق، ص٩٩ .

٥٩- المرجع نفسه، ص١٢١ .

٦٠- ينظر بخصوص إعادة تركز القوات بالمغرب والصعوبات التى واجهت جيش التحرير الوطنى
A N A : Carton n°6, dossier n°12 "le Maroc et la révolution Algerienne"

تقرير مطول أعده مكتي الدراسات التابع لوزارة الاتصالات العامة والإعلام للحكومة الجزائرية المؤقتة سنة ١٩٥٩ ، يتعرض الفقسم الأول منه لمراكز وطرق مواصلات القواعد العسكرية الفرنسية بالمغرب.

٦١- يراجع محمد حربى : مرجع سابق، ص١٧٨ .

62- ANA : Carton n°6 doss n°12 , p. 58 .

٦٣- محمد الميلى: المرجع السابق، ص١٢٠ .

٦٤- المرجع نفسه ، ص٩٩ ، والغالي الغربى: السياسة الفرنسية لفصل الصحراء وردود الفعل الدولية ، فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية ، منشورات م.و.د.ب.ح.و.ث ٥٤ ، الجزائر ١٩٩٨ ، ص٢٧١ وما بعدها .

٦٥- المجاهد : العدد ٢٧ (٢٢ يوليو ١٩٥٨) ، ص١ .

٦٦- ينظر بلقريز عبدالإله وآخرون : المرجع السابق، ص٧٢ .

٦٧- نشير أساسا إلى انتفاضة الريف فى خريف ١٩٥٨ ، وإلى المظاهرات التى كانت توجه من قبل المنظمات العمالية والطلابية والتوجيه الثورى فى حزب الاستقلال .

٦٨- ينظر الموقف المغربى من إعلان الحكومة الجزائرية المؤقتة ، طلاس مصطفى، بسام العسلى: الثورة الجزائرية ، مرجع سابق، ص٣٤٠ .

٦٩- ينظر الجنيدى خليفة وآخرون . المرجع السابق، ج٢ ، ص٢٣٥ .

٧٠- عامر رخيلة : الثورة الجزائرية والمغرب العربى ، مرجع سابق، ص١٦٩

71- ana . carton . 302 . dos 7 . 11 . brobleme des relations avec les outoritee marocanes . rep date le 17 Nevember 1961 .

٧٢- يراجع بن فليس أحمد : السياسة الدولية للحكومة المؤقتة الجزائرية ١٩٥٨-١٩٦٢ ، رسالة ماجستير ، معهد العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر ، ١٩٨٦ ، ص١٤٣ .

٧٣- ينظر حوار الدكتور شوقى مصطفاوى مع إذاعة صوت الجزائر بالرباط المنشور بـ المجاهد: العدد ٦٥ (٤ أبريل ١٩٦٠)، ص٤ .

٧٤- ينظر حول نشاطها ومهامها بالمغرب : الجنيدى خليفة وآخرون : المرجع السابق، ج٢ ، ص٢٤٠ وشهادة رئيس هذه الوزارة عبد الحميد مهرى ، مقابلة شخصية مع الباحث .